أعلام المسلمين
٩٤

أبو الحسن النَّدْوِي

العالم المربِّي والداعية الحكيم

١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ = ١٩١٤ - ١٩٩٩ م

تأليف
الدكتور محمد أكرم الندوي

دار القلم
دمشق

أبو الحسن الندوي

العالم المربي والداعية الحكيم

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ = ١٩١٤ - ١٩٩٩م

تأليف

الدكتور محمد أكرم الندوي

دار القلم
دمشق

أبو الحسن الندوي

العالم المربي والداعية الحكيم

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

أبو الحسن الندوي

رأيتُ الناس، فما رأيت أحداً أزكى من أبي الحسن علي قلباً.

وصي الله الفتحبوري

الأستاذ أبو الحسن الندوي عالمٌ مصلح، وداعيةٌ مخلص.. يمتاز بروحٍ مشرقة، وخُلُق نبوي كريم، ومعيشة تذكّرك بعلماء السلف الصالح في زهده، وتقشّفه، وعبادته، وكرامة نفسه.

مصطفى السباعي

الندوي.. المؤمن المخلص الذي يستطيع تشخيص الداء، ووصف الدواء.

المفتي أمين الحسيني

الندوي.. رجلٌ عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفتُ فيه قلبَ المسلم، والعقلَ المسلم، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام.. هذه شهادةٌ لله أؤديها.

سيد قطب

أبو الحسن بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمةً صغيرةً من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين..

وجدتُ أنَّ الله أكرمَه فاستكمل مزايا الداعية الإسلامي.

علي الطنطاوي

إنّي أيها الصديق الكريم والخلُّ الوفي ما ذكرتُكَ في نفسي أو في ملأ من قومي إلاَّ وذكرتُ علمَك الواسعَ، وأدبك الجمَّ، ولطفَ حديثك، وإمتاع جليسك بفوائدِك الغزيرة ونوادرِك العذبة الشهية.

محمد بهجة البيطار

أبو الحسن الندوي حجةُ الإسلام والمسلمين في الهند.. إنَّه قطعةٌ من السلف الصالح أراد الله أن تعيشَ في عصرنا الحاضر.

مصطفى الزرقا

الندوي.. داعيةُ الإسلام، والذابّ عنه بلسانه وقلمه، الجامعُ بين الإدراك السليم والتطبيق الحكيم، سلالة الدوحة النبوية والعترة المصطفوية.

أحمد بن عبد العزيز المبارك

علمٌ من أكابر أعلام العصر الربَّانيين، وقدوة صالحة موهوبة، من أشهر العلماء الداعين الهادين المفكّرين، هو العلاَّمة الجليل، والمجاهد النبيل، الداعية إلى الله بحاله ومقاله وفعاله، إذا كتب أو خطب غذّى القلوب والأرواح، ونوَّر العقول والأذهان.

عبد الفتاح أبو غدة

الندوي العلاَّمة الموفَّق.

حسن بن محمد مشاط

ما أنعم الله به عليكم من فضائل، هي من خصائص ورثة النبيين وخلفاء الرسل، ومجدّدي الدين.

يوسف القرضاوي

ومتتبّع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأنَّ لعبارته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمَّقوا سرّ الكلمة وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه.

محمد المجذوب

أبو الحسن علي الندوي موفَّق من الله تعالى.

المفتي محمد شفيع

الندوي.. قدوة أبناء المسلمين في الغيرة على الدين، والكفاح لإعزاز الإسلام، والذبّ عن حوزته، وإقرار روحه وطبيعته الحقيقية.

محمد الرابع الندوي

الندوي.. رجلٌ لم يتاجر يوماً بمبادئه، ولم يقف يوماً على باب أحد، ولم ينافس يوماً على الدنيا.

عبد الحليم عويس

الندوي قائد صنع التاريخ وجدَّد الفكر.

محمد واضح رشيد الندوي

إنَّ الندوي عَلَمٌ في دنيا الدعوة والأدب، أعجمي أعربُ من كثير من

فصحاء العرب الآن، ومفكّر إسلامي نحرير، حمل همَّ الدعوة والإصلاح، وجاب الدنيا داعياً إلى الله مبشّراً بالإسلام.

مانع بن حمّاد الجهني

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إنَّ الحمدَ لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيدنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله، خاتم النبيّين المجتبى، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ومَن تبعهم بإحسان، واقتدى بهم فاهتدى.

وبعد: فهذه دراسةٌ لحياةِ عَلَم جليل من أعلام عصرنا الغرّ الميامين، وركن عظيم من أركان الإصلاح والتجديد في الدين، سند الإسلام والمسلمين، وحجة الله في العالَمين، الإمام العلاَّمة الشريف أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأدخله دار النعيم، وجعله في أعلى عليّين، ولقد تهيَّبتُ طويلاً موقف الكتابة عنه، لمعرفة قصوري عن الإحاطة ببحر عميق من العلوم والفنون، والمعارف والحقائق، ووارث عظيم من ورثة الأنبياء، وخلف صالح للعلماء الربّانيين والفقهاء المتّقين الزاهدين، ولأنَّه كما قالوا: لا يكتب عن الأئمة إلاّ إمام، وعن العباقرة إلا عبقري، فإنَّ

رجلاً في مكانة الشيخ الندوي الذي واصل دعوته وجهاده وعطاءه العلمي والحضاري نحو ثلثي قرن من الزمان تقريباً لا يمكن أن يوفَّى حقّه من التعريف به في سطور أو صفحات، وإنَّما حثّني على ذلك شيخُنا العالم الربَّاني الأستاذ محمد نمر الخطيب حفظه الله تعالى حينما زرته في منزله في المدينة المنوّرة في ذي الحجة عام ثلاثة وعشرين وأربع مئة وألف، فأمرني أن أقوم بكتابة ترجمة وافية عن الشيخ الندوي، فسألته أن يدعو لي بالتوفيق، ثم قابلتُ في الرحلةِ نفسِها الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم حفظه الله تعالى في منزله في جدة، فأكَّد ذلك، وسألني أن أكتب عنه في سلسلة دار القلم الشهيرة (أعلام المسلمين)، ولما رجعت إلى أوكسفورد ظلَّ يذكِّرني بذلك حتى ألقى الله في روعي أن أسعى لهذا العمل الجليل، وقدَّر لي أن أعايشَ حياة هذا الإمام الربَّاني فترة من الزمان، فبدأته متوكّلاً عليه تعالى في شهر ربيع الأول عام خمسة وعشرين وأربع مئة وألف.

كان الشيخ الندوي نعمةً من الله تعالى، أنعم بها على هذا العصر الذي أحدق فيه الخطر الداهم بالمسلمين من كلِّ جانب، وكثر أشباه العلماء، وأنصاف الفقهاء، ونمطاً فريداً من الرجال أعطاه الله من فضله من مواهب العلم والإخلاص، ففرض نفسه على بيئته، وترك طابعه على جيله، بل على أجيال كثيرة، وإنَّه لمن سنة الله في خلقه أن لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بالحجّة، وسالكٍ بالأمة على المحجّة، جامعٍ بين إيمانٍ وعمل، وفقهٍ وعلم، ودينٍ وتقوى، وطهارة نفس، وحُسن خُلقٍ، فقد أخبرَنا شيخنا الإمام السيد الشريف أبو الحسن علي الحسني الندوي غير مرة، قال: أخبرنا العلاَّمة المحدّث حيدر

حسن بن أحمد حسن الطونكي، والمحدّث الأثري الإمام عبد الرحمن المباركفوري، قالا: أخبرنا العلاّمة الإمام نذير حسين المحدّث الدهلوي، أنا المحدّث محمد إسحاق الدهلوي، أنا جدي لأمي الإمام المحدّث عبد العزيز الدهلوي، أنا والدي الإمام المحدّث أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، أنا الشيخ الإمام تاج الدين محمد بن عبد المحسن القلعي، أنا أحمد بن محمد أبي الخير المرحومي الشافعي، أنا الشيخ سالم السنهوري، أنا النجم الغيطي، أنا القاضي زكريا الأنصاري، أنا محمد بن مقبل الحلبي، أنا الصلاح بن أبي عمر المقدسي، أنا الفخر أبو الحسن علي ابن البخاري، أنا أبو حفص عمر ابن طبرزذ، ثنا أبو البدر الكرخي، ثنا الحافظ أبو بكر الخطيب، ثنا أبو عمر القاسم بن جعفر البغدادي،، ثنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي، ثنا سليمان بن الأشعث الحافظ، ثنا سليمان بن داود المهري، أنا ابن وهب، أخبرني سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كُلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّدُ لها دينَها**»[1].

هذا الحديث أصل أصيل في باب التجديد والإمامة، وإحياء الدين، وإقامة السنن، وإماتة البدع على رأس كل مئة سنة، وترجّحَ لدى العلماء أنَّ أمرَ

---

(١) هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم (٨٥٩٢)، والبيهقي في مقدمة معرفة السنن والآثار.

التجديد لا ينحصر في شخصٍ واحد، بل قد تتولاّه طائفة، بل هذا هو الغالب في القرون المتأخّرة، قال الإمام النووي في شرح حديث: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرينَ، على الحقّ، لا يضرُّهم مَنْ خذلَهم حتّى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم كذلك**»[١]. «ويحتمل أنَّ هذه الطائفة مفرقةٌ بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدّثون، ومنهم زهّاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرّقين في أقطار الأرض[٢].

وقال الحافظ ابن حجر معلّقاً على مقالة الإمام النووي: ونظير ما نبّه عليه ما حمل عليه بعضُ الأئمة حديثَ: «**إنَّ الله يَبْعَثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كُلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّد لها دينها**» أنَّه لا يلزم أن يكونَ في رأس كل مئة سنةٍ واحدٌ فقط، بل يكونُ الأمرُ فيه كما ذكر في الطائفة وهو متّجه، فإنَّ اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصرُ في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أنَّ جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلاَّ أن يُدَّعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنَّه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتّصافه بجميع صفات الخير، وتقدّمه فيها، ومن ثَمَّ أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده: فالشافعيُّ وإن كان متّصفاً بالصفات الجميلة إلا أنَّه لم يكن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم مَن خالفهم» بطرق عديدة.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/ ٥٧ ـ ٥٨.

القائمَ بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متّصفاً بشيء من ذلك عند رأس المئة هو المُرادُ سواءٌ تعدَّد أم لا[1].

اجتمع للشيخ الندوي من العلم بكتاب الله تعالى وسنن نبيّه ﷺ، والفقه في الدين، والتقوى والورع، وإخلاص العمل، والتجريد، والعبادة والزهد، والدعوة إلى دين الله تعالى، وتطهيره من البدع والشوائب، وتنقية المجتمعات الإسلامية من المحدثات والمنكرات، وإحياء السنن وإقامتها، ومواقفه من الأزمات والفتن التي زعزعت أركان الأمة الإسلامية في شبه القارة الهندية، بل وفي العالم الإسلامي بأسره ما أكَّد تولّيه منصب الإصلاح والتجديد على رأس القرن الخامس عشر الهجري، واتفقت كلمة علماء المسلمين على أنَّه أحدُ هؤلاء المصلحين، وكبار المجدِّدين، وأعلام الدعاة المخلصين، وأئمة العلماء الربانيين، فقد عمل جاهداً مجاهداً بما آتاه الله من قلم سيال، وذهن حاضر وقَّاد، وعلم حي وافر، وإخلاص مشهود، وحكمة في شأن الدعوة، وألَّف كتباً عملاقة سارت بها الركبان، من (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) إلى (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) إلى (ربانية لا رهبانية) و(الأركان الأربعة) وأخواتها، وقام بتربية جيل، وتوحيد شعب، وقيادة هيئات ومؤسسات، خدم الإسلام بروحه وقلبه، وغيرته وحبّه، وكان بقيةً من علماء السلف الذين جمعوا بين العلم والتقوى، فسلك قولُه وعلمُه إلى قلوب الناس شرقاً وغرباً، وعجماً وعرباً، ومات حين مات وهو موئل المسلمين

---

(١) الحافظ ابن حجر، فتح الباري: ١٣/ ٣٦٥ـ٣٦٦.

الهنود يدفع عنهم الأزمات والفتن، والبلايا والمحن، وهو رمز لمعنى الأمة الواحدة، فما من قطر من بلاد المسلمين إلا ويستشعر أنه يمثّله وينتمي إليه، فهو هندي، حجازي، وعربي عالمي.

ويتلخَّص دوره في التجديد والإصلاح في ثلاث دوائر:

١ ـ فعلى **صعيد الهند** وقف حياته في سبيل الذَّودِ عن الهوية الدينية والشخصية الإسلامية في هذه البلاد، وقام بنشر التعليم الديني، وقيادةِ ندوة العلماء قيادة رشيدة، وتطهيرِ مجتمعات المسلمين من العادات الجاهلية، ومواجهة الدولة في سبيل إبقاء قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، وبذلِ الجهود لإقامة الأمن الطائفي، ودعوةِ غير المسلمين إلى الدين في أسلوبٍ حكيم، وعن طريق رسالة الإنسانية.

٢ ـ وعلى **صعيد العالم العربي** حاربَ الدعوة إلى القومية العربية، وذكَّر العربَ بأنَّ مستقبلَهم الزاهر مرتبط بالرسالة المحمّدية كما كان ماضيهم المشرق نتيجةً للدعوة الإسلامية الخالدة، وأنَّ العربَ هم الأمة المختارة لقيادة البشرية.

٣ ـ وعلى **مستوى العالم الإسلامي** والأمة الإسلامية، قام بإعادة الثقة إلى المسلمين، وذكَّرهم أنهم العامل الأساس في سير الحضارة والتاريخ، وأنَّ فلاح العالم وخسرانه مرتبطان بتقدّمهم وانحطاطهم، وأنهم أمة مبعوثة من الله تعالى، بعثةً مقرونة ببعثةِ نبيّهم ﷺ.

انظروا إلى قوله وهو يخاطب المسلمين الهنود: «إننا نعلن بكلّ صراحة،

ونريد منكم كذلك أن تنادوا بأعلى أصواتكم بأننا لا نرضى بأن نعيش عيشة البهائم، التي لا تهمّها إلاّ الرواتب الشهرية، وحماية النفس والمال، إننا نرفضُ ألفَ مرةٍ أن نعيشَ مثل هذا العيش، أو نرضى بهذه المكانة الدنيئة، إننا نلحُّ على أن نبقى في هذه الأرض بصلواتنا وأذاننا، بل ولن نرضى بالتضحية بصلاة التراويح، أو صلوات الليل والنهار النافلة، وإننا نظلّ معتنقين كلَّ سُنَّةٍ من سُنن نبينا ﷺ، ولن نتخلّى عن أي نقطة من سيرته الطاهرة، إننا لا نعرفُ تياراً قومياً، إنَّما نعرفُ التيارَ الإسلامي، إننا خُلقنا لقيادة العالم البشري وإمامته».

ثم انظروا إلى قوله وهو يوصي العرب: «لو جُمع لي العربُ في صعيدٍ واحد، واستطعتُ أن أوجّه إليهم خطاباً تسمعه آذانهم، وتعيه قلوبهم لقلتُ لهم:

أيها السادة! إنَّ الإسلامَ الذي جاء به سيدنا محمد العربي ﷺ هو منبعُ حياتكم، ومن أُفقه طلعَ صبحكم الصادق، وإنَّ النبيَّ ﷺ هو مصدرُ شرفكم، وسببُ ذكركم، وكل شيء جاءكم ـ بل كلّ خيرٍ جاء العالم ـ فإنَّما هو عن طريقه وعلى يديه، أبى الله أن تتشرَّفوا إلاَّ بانتسابكم إليه، وتمسككم بأذياله، والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا رادَّ لقضاء الله، ولا تبديل لكلمات الله، إنَّ العالم العربي بحرٌ بلا ماء كبحر العروض، حتى يتّخذ سيدنا محمداً ﷺ إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض بها في العهد الأول، ويخلِّص العالم المظلوم من براثن مجانين أوروبة ـ الذين يأبون إلاَّ أن يقبروا المدنيةَ، ويقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم ـ ويوجّه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب

والدمار والفوضى والاضطراب إلى التقدّم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان، وإنَّه حقٌّ على العالم العربي سوف يُسألُ عنه عند ربّه فلينظر بماذا يجيب؟».

ثم انظروا إلى قوله وهو يذكّر الأمة الإسلامية مكانتها: «وإنَّني في دراسةِ مقارنات الديانات والكتب السماوية لا أجد هذا الوصفَ الدقيقَ الشاملَ، وهذا الخطَّ الفاصل بين أُمةٍ وأُمةٍ، أمة قُلِّدت مسؤوليةً ليس فوقها مسؤولية إلاَّ مسؤولية النبوّة فقط، فكانت بعثةُ النبيِّ محمد ﷺ بعثةً مقرونةً مشفوعة مرتبطة ببعثة أمة، هذا هو الشيء الذي أثَّر في مصير الإنسانية، وكانت تجربة جديدة في تاريخ الديانات، وفي تاريخ مصائر الأمم، وفي تاريخ الاتجاهات».

اقرؤوا أقواله هذه وأمثالها، وانظروا إلى مواقفه الحاسمة هنا وهناك تجدوها تشهد بأنَّ صاحبها ليس رجلاً عادياً، بل إنَّه رجلٌ من عباقرة الرجال، فوِّضت إليه مسؤوليةُ إمامةِ عصره، وحُمِّلَ أمانةً إلـٰهيةً فقام بها خير قيام، خرج إلى ساحة الدعوة والعمل، فرأى أنَّ اللادينية قد أحكمت سيطرتَها المادية والعلمية على العالم الإسلامي، وأنَّ عملَ التجديد في هذا الوضع أن يكونَ الردُّ على هذه اللادينية، وعلى هذه الردّة الفكرية، وعلى هذا الغزو الفكري ردّاً علميّاً وفكريّاً مقنعاً، غايتُه كسر هذه الغارة، واستبقاء العقل الإسلامي، فحمل عبئه الثقيل، وألَّف في الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي ما ناسب العصر الحاضر، وقاوم الزحف القادم، ورافقته قدرة بيانية، وقلم سيال رشيق، وثروة لغوية، ساعدته في إيقاظ الشعور، وفي تحريك النفوس والعقول، ومحاربة مركب النقص، وإعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة، والاعتزاز

بالقيم والمفاهيم، واتّصلت مؤلَّفاته مدعمةً بالدلائل والوثائق، ومسلحةً بالشواهد والتجارب في آفاق المعرفة الإسلامية، فأضاف الجديدَ الذي جاء في حينه وأوانه، ومحلّه ومكانه، واهتمَّ بالبناء لا الهدم، والعلماء المسلمون في الشرق والغرب راضون بما كتب وما دعا إليه مستبشرين؛ بغدٍ أنضر للفكر الإسلامي الذي جمل لواءه.

هذا هو الشيخ الندوي بارزاً على العالم الإسلامي بدعوته الدينية، وجهوده الإصلاحية، وأعماله التجديدية، فإن كان الخليفةُ الخامس عمر بن عبد العزيز مجدّدَ القرن الثاني يوم أن استُخلِفَ عام (١٠١هـ)، وتلاه المجدّدون في القرون المتأخّرة، إلى أن وصل عمل التجديد في القرن الرابع عشر الهجري إلى الإمام الداعية الشهيد حسن البنا، والداعية المصلح محمد إلياس الكاندهلوي وجماعة من العلماء المصلحين معهما رحمهم الله تعالى، فإنَّ الشيخَ الندوي مجدّد لهذا الدين على رأس القرن الخامس عشر الهجري، لما حباه الله مِن فضائل وشمائل جمعت عليه القلوب المتنافرة، والجموع الحائرة، والعقول السادرة، فعمل لإعادة الثقة إلى النفوس، وترسيخ الإيمان بصلاحية الإسلام للقيادة في كل زمان.

هذا الذي أشرتُ إليه هنا، وبسطته في الكتاب ـ مع اعترافي بتقصيري ـ من مآثر الشيخ ومناقبه فضل ربّاني، وعطاء إلـهي، يختصّ الله به عباده الصالحين، ويكرمهم به كرامةً خصوصية، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريلَ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبريلُ، فينادي جبريلُ أهلَ السماء: إنَّ الله**

يحبُّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهلُ السماء، ثم يوضعُ له القَبُول في أهلِ الأرض»[1].

هذه بصمةٌ من المعالم النادرة، والدراسة التي بين أيديكم الآن شرحٌ لهذه المعالم، وقد قسمت هذه الدراسة حسب الخطة التالية: تمهيد، وخمسة أبواب، وخاتمة، وجزَّأتُ كلَّ باب إلى فصول وعناوين رئيسة وجانبية، ويتناول التمهيد دراسة دخول الإسلام في الهند، ووضع الهند والعالم العربي والإسلامي السياسي والفكري والتعليمي، في القرن الرابع عشر الهجري.

ويتناول **الباب الأول: نبات حسن**: سيرته الشخصية، تحدَّثتُ فيه عن أصله وأسرته، ثم نشأته وطلبه، وشيوخه والرجال الذين كان لهم تأثير عميق في تكوينه العلمي والفكري، والكتب التي لعبت دوراً بارزاً في هذا التأثير، ورحلاته العلمية، ثم عن حياته العلمية، ومقالاته في الصحف والمجلاَّت، ومؤلَّفاته، ومناصبه، ورحلاته الدعوية، والجوائز التي حصل عليها، وأخيراً عن وفاته، وأهله، وتلامذته، وصفاته الخلقية وعاداته اليومية.

ويتناول **الباب الثاني: عالم نبيه، وفقيه في الدين**: اضطلاعه من القرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي الشريف وعلومه، والفقه والاجتهاد، وتمكّنه من التاريخ، وقدرته على اللغات والآداب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة؛ ومسلم في كتاب البر، باب إذا أحبَّ اللهُ عبداً أمرَ جبريل فأحبَّه.

ويستعرض الباب الثالث: **قائد رشيد**: مآثره الخالدة من قيادته للمسلمين في الهند، ورئاسته لدار العلوم لندوة العلماء، ورئاسته لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية في الهند، وتوجيهه للعالم العربي والإسلامي، وقيادته لحركة الأدب الإسلامي.

ويتناول البابان الرابع: **كاتب ملهم قدير**. والخامس: **أسوةٌ صالحةٌ، وداعيةٌ حكيمٌ، ومُرَبٍّ جليلٌ** مؤلَّفاته ورسالته بالبحث والدراسة.

وإنِّي حينما كتبتُ عن الشيخ الندوي فإنَّما كتبتُ من خلال معرفتي به عن قرب، ومعيشتي له عن كثب، وقراءتي وسماعي له، وهذا بعض حقّه عليّ، وشيء من الوفاء له، فإنَّ ذكرياتي معه ذكريات عطرة، وقد تتلمذتُ على يديه، وتعلَّمتُ منه بالقدوة والمعاشرة، كما تعلَّمتُ من مطالعة كتاباته، والاستماع إلى كلماته، وكنت أغشى مجالسه فيحدّثنا عن الدعوة التي وقف لها حياته، وعن التعليم الديني الذي جعله أكبر همّه، ويحدّثنا عن شِعر إقبال، وقد كان حفيّاً به، يحفظ كثيراً منه، ويزجيه لنا غضّاً طريّاً، ننفعلُ به كما انفعل هو به.

كما اعتمدتُ في بحثي هذا على المصادر المتوفرة عن حياته ومعظمها باللغة الأردية، وأخصّ بالذكر منها كتبه (مسيرة الحياة) و(شخصيات وكتب) و(رسائل الأعلام) و(المصابيح القديمة)، والأعداد الخاصة بحياته وأعماله لمجلّات (البعث الإسلامي) و(تعمير حيات) الصادرتين من دار العلوم لندوة العلماء، و(الأدب الإسلامي) الصادرة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية، و(الصحوة الإسلامية) الصادرة من دار العلوم بحيدرآباد، و(بانك حراء)

الصادرة من جامعة الإمام السيد أحمد الشهيد، وقد ألحقتُ بالكتاب ثبتاً لعامة مصادر ترجمته.

ولا يسعني هنا إلاّ أن أتقدَّم بالشكر الجزيل والوفاء بالجميل إلى شيخنا الجليل المربّي الكبير العلاّمة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء على ما تفضَّل به من توفير بعض المواد والتوجيهات القيّمة عن الشيخ الندوي، وشيخنا الداعية المحدّث سلمان الحسيني الندوي، الذي ألقى نظرةً على مسودة الكتاب وتصفّحها وأبدى ملاحظاته، وأخصّ بالشكر صديقنا الفاضل الأستاذ سعيد مرتضى الندوي، الذي رعى هذه الدراسة يوم أنْ كان خطةً، فأتحفني بنصائحه الغالية في الخطة والمنهج، واستفدتُ من كتاباته عن الشيخ الندوي، لاسيما عن رحلاته ووفاته، كما أشكر الأستاذ محمد مسرور اللكنوي أحد محبي الشيخ الندوي وأصحابه القدماء، الذي جاد عليَّ بمؤلَّفات الشيخ الندوي المتوفّرة لديه، ورحَّب بي كلَّ ترحيب للاستفادة منها، فجزاهم الله تعالى خيراً.

وإنّي إذ أقدِّم هذا الكتاب للقرّاء الكرام أرجو منهم أن يمنّوا عليَّ بدعوةٍ صالحةٍ بظهر الغيب، ويتكرَّموا عليَّ بالتنبيه إلى ما فيه من أخطاء أو سقطات، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلّ أن يجعل هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم، ويتجاوز عن كلّ ما قصرت عنه الهمة، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أكسفورد ٢٠/ ٤/ ١٤٢٥هـ

وكتبه

محمد أكرم الندوي

تمهيد

عصر أبي الحسن النّدوي

- نبذة عن تاريخ الإسلام في الهند:

أ ـ الوضع السياسي في عصر الشيخ الندوي

ب ـ الوضع الفكري في عصر الشيخ الندوي

جـ ـ الوضع التعليمي في عصر الشيخ الندوي

- بيئته الدينية والعلمية

تمهيد
عصر أبي الحسن النّدوي

سأقدِّم في هذا التمهيد نبذةً من تاريخ الإسلام في الهند، ثم أتحدّث عن عصر الشيخ الندوي من نواحيه السياسية والفكرية والتعليمية، وأُبرزُ بيئتَه الدينية والعلمية التي نشأ فيها، كلَّ ذلك بالقدر الذي يتّصل بحياة صاحبنا، حيث تظهر العوامل التي ساهمت في تكوينه، وأثَّرت في اتجاه حياته، وأبرزت خصائصه.

نبذة من تاريخ الإسلام في الهند:

إنَّ علاقة الهند ببلاد العرب أقدمُ من التاريخ المكتوب، ويرجعُ ذلك إلى الاتصالات التجارية والتشابه الفكري والديني بين الجهتين، إلاَّ أنَّ التجارة لعبت دوراً بارزاً في توثيق هذه الصلة، وترسيخ جذورها، والتي كانت نشطةً بصفةٍ خاصة بين جنوب الهند والخليج العربي بفضل الموانئ، فلمَّا جاء الإسلامُ كان للمناطق الساحلية شرفُ السبق للتعرّف على الإسلام واعتناقه حتى قبل أن يغزوَ المسلمون الهند عسكرياً، ولم تسنح لهم فرصة غزوها إلاّ في عهد الوليد بن عبد الملك، إذ أمر واليه على العراق الحجاج بن يوسف، فأسند هذه المهمة إلى محمد بن القاسم الثقفي الفتى اليافع عام اثنين وتسعين

من الهجرة، ولم يبلغ من عمره العشرين، ولكنَّه عُرِفَ بالصلابة والشجاعة، فزحف بجيوشه على السند، وفتح بلداناً كثيرة، وأرسى فيها قواعد دولة إسلامية عربية، وخاض المعارك المختلفة، وتابع سيره، والبلاد تخضعُ له صلحاً وعنوة، وداهر (عامل ملك الهند) مستخِفٌّ به، حتى تلاقى الجمعان، فقتل داهر وانهزم شرّ هزيمة، وكانت البلادُ تقابله مستسلمةً، طالبةً منه الأمان، حتى استتبَّ له الأمر في بلاد السند وما جاورها من البلدان.

وأضاء الإسلام بلاد الهند، وعمَّ نورُه كُلَّ جزءٍ فيها منذ أن بدأ السلطان محمود الغزنوي فتوحاته العظيمة في الهند عام ٣٩٢هـ = ١٠٠١م، وأسَّس بها حكماً إسلامياً، امتدَّ لأكثر من ثمانية قرون، تعاقبت في أثنائها الدول والأسر الحاكمة من الغوريين، والمماليك، وأسرة الخلجيين، وأسرة تغلق، وغيرها من الأسر، ونَعِمَ الناسُ بالعدل والسلام، والأمن والحماية، والرقي والحضارة، وسادت سياسة التسامح مع الهندوس، وتجنّب التعصّب والطائفية بين أبناء الهند جميعاً، حتى ألقت بمقاليدها إلى الأسرة التيمورية، فنهضت بأعباء الحكم، وأقامت حضارة شاهدة على ما بلغته من تقدّم وازدهار.

دخل المسلمون في الهند وهم أرقى أمةٍ في العالم المتمدّن في ذلك العهد، يحملون ديناً جديداً، وحضارةً راقيةً، وعلوماً وفنوناً وآداباً طوّروها تطويراً، ولا سيما علم التاريخ، الذي لم يكن لأهلها عهدٌ به، وإنَّما بدأ التاريخ في الهند منذ أن غزاها المسلمون، ويقضي الدارس لتاريخ المسلمين في الهند العجب من كثرة عطائهم الحضاري والثقافي، فقد امتلأت عواصمها،

ومدنها، وقصباتها وقراها بالمدراس، والمساجد، والمكتبات، والعلماء والمعلمين المنقطعين إلى الدرس والإفادة، والمؤلّفين المتجرّدين للتأليف والكتابة، والشيوخ العاكفين على الزهد والعبادة، والإرشاد والإفادة، ولا يمكنني هنا أن أتناول كلَّ ذلك بالبحث والدراسة، إلاَّ أنَّ إلقاء نظرة على أبرز ما خلَّفوه من آثار علمية باللغة العربية خاصةً تكفي شهادةً على بالغ عطائهم الحضاري والثقافي، وهي مثل: (العباب الزاخر) في اللغة، و(مشارق الأنوار) في الحديث لإمام اللغة والحديث رضي الدين حسن بن محمد الصاغاني اللاهوري (ت٦٥٠هـ)، و(كنز العمال) للشيخ علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، و(مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار) لمحمد بن طاهر الفتني (ت٩٨٦هـ)، و(الفتاوى الهندية) التي جُمعت في عهد الملك الصالح أورنك زيب عالمكير (ت١١١٨هـ)، و(مسلم الثبوت) في أصول الفقه للعلاَّمة محب الله بن عبد الشكور البهاري (ت١١١٩هـ)، و(كشاف اصطلاحات الفنون) للشيخ محمد أعلى التهانوي (ت١١٥٨هـ)، و(حجة الله البالغة) للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ)، و(تاج العروس في شرح القاموس) للسيد مرتضى البلكرامي الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ)، ثم مؤلَّفات الإمام عبد الحي الفرنكي محلي اللكنوي (ت١٣٠٤هـ)، والأمير صديق حسن خان القنّوجي (ت١٣٠٧هـ)، والعلاَّمة عبد الحي الحسني (ت١٣٤١هـ)، وعدد كبير غيرهم يزدان بهم تاريخ الهند في عزّة وافتخار.

أ ـ الوضع السياسي في عصر الشيخ الندوي:

ظلَّ المسلمون في الهند منذ عهدهم الأول متمتّعين بالسيادة والحكم،

وحضارتهم هي الغالبة، ومدارسهم ومعاهدهم التعليمية في ازدهار وتطوُّر، حتى وفد الإنكليز إليها خلال العهد المغولي تجّاراً، فأكرم الحكّام المسلمون وفادتهم، وساعدوهم في تجاراتهم، وشيئاً فشيئاً اتَّسع نفوذهم، وعهدَ إليهم الحكّام المسلمون بالقيام على بعض الأعمال، ولم يكن وجودهم خطراً يهدِّد الدولة في فترة قوّتها، حتى إذا ضعفت أسفر الإنكليز عن وجههم القبيح، واستولوا بالمكر والخداع على كثير من المناطق في القرن الثالث عشر الهجري، فتغيَّر الوضعُ، وحلَّت سياسة جديدة، رسمها الإنكليز للسيطرة على مقاليد الأمور في الهند، وفَقَد المسلمون ما كانوا يتمتَّعون به من سلطةٍ وجاهٍ، واحتكام إلى الشرع الحنيف في كلِّ أمور الحياة.

وأوَّل مَن تنبَّه لخطر الاستعمار الإنكليزي الملك الهمام الشهم الغيور **فتح علي خان** الشهير بالسلطان تيبو؛ فحاربه بكلِّ ما لديه من عدد وعتاد، وكاد ينهار كلّ ما بناه الإنكليز وأمَّلوه في الهند، ولكنَّهم نجحوا أخيراً في ضمِّ أمراء الهند إلى معسكرهم، وسقط الملك المجاهد شهيداً في المعركة عام (١٢١٣هـ = ١٧٩٩م)، ثم جاء دور الإمام السيد **أحمد بن عرفان الشهيد**، الذي قام بالدعوة إلى دين الله الخالص، والجهاد في سبيل الله، وتأسيس الحكومة الشرعية على منهاج الخلافة الراشدة، ونفخ روح الجهاد والحماسة والتضحية في الهند، ولكنَّه كذلك وقع شهيداً في معركة (بالاكوت) الشهيرة عام (١٢٤٦هـ)، وانتشر أتباعه في أنحاء البلاد يقومون بالدعوة، والتعليم، ونفخ روح الجهاد ضد الإنكليز.

ثم التهبت ثورة (١٨٥٧م) الشهيرة ضد الإنكليز، وكانت ثورة شعبية

عامة ساهم فيها المسلمون والهندوس سواء بسواء، وإن كان سهم المسلمين أكبر، وذلك بفضل جذوة الجهاد التي أشعلها السيد أحمد الشهيد، وتوجَّه الثوَّار إلى دهلي مقرّ الملك المغولي الأخير سراج الدين بهادر شاه، وقاتلوا تحت رايته واسمه في كل بقعة من بقاع الهند، ولكنها أخفقت لأسباب لا يمكن شرحها هنا، فصبَّ الإنكليز على أهل الهند لا سيما المسلمين منهم جام غضبهم، وانتقموا منهم انتقاماً شديداً، واقترفوا مجزرة هائلة، جدَّدت ذكرى مذابح جنكيز وهولاكو، وظلَّ المسلمون عُرضةً لنقمتهم طيلة عهد الاستعمار.

وعمد الإنكليز إلى تغيير الطابع الإسلامي لبعض مناطق الهند ذات الأهمية الكبيرة، حتى يسهل عليهم إحكام سيطرتهم على باقي المناطق الإسلامية؛ مثل: منطقة دهلي، ومدينة آكره، فأخذوا يهجِّرون الهندوس إلى منطقة دهلي وما حولها من المناطق، وسعوا إلى تعليم الهندوس ليتولَّوا فيما بعد المراكز الإدارية العليا في الهند.

وقام **المؤتمر الوطني** العام عام (١٨٨٤م) اشترك فيه المسلمون والهندوس جنباً إلى جنب، وعقدت اجتماعاته في البلاد، ونشبت حرب البلقان عام (١٩١٢م)[١]، فانطلقت موجةٌ عنيفةٌ من السخط العام على الحكومات الأوروبية وزعيمتها الحكومة البريطانية، وانفجر الوعي السياسي الإسلامي الشرقي، وصدرت صحيفة (الهلال) الأسبوعية التي كان ينشئها **مولانا أبو الكلام**

(١) حرب البلقان وقعت بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية المجاورة لها: (بلغارية واليونان. . . وغيرهما) تدعمها بريطانية وروسية.

آزاد، وكانت تنشر مقالات تكتب بقلم من نـار، وتنتقـد السياسـة الأوروبية الصليبية في قوة وبلاغة لا يُعرف لها نظير، وتلتها صحف ومجلاّت في إلهاب نار الثورة السياسية والفكرية في الهند.

وقامت **حركة إحياء الخلافة** تحت قيادة مولانا محمد علي جوهر بتوحيد الهند كلّها تحت رايتها، وتظاهر المسلمون والهندوس على مهاجمة الحكومة الإنكليزية وسياسة حلفائها في قضية الحكومة العثمانية، والنداء إلى تحرير الوطن، وتأسيس الحكومة الاستقلالية، وأصبحت الهند كمرجل ثائر يغلي حماسةً وثورةً، وعقدت الحفلات التي لم تشهد البلاد مثلها.

ولمّا رأى الإنكليز من الوحدة ما ينذر بنهايتهم أطلقوا أسهمهم بالتفريق، وأقنعوا بعض زعماء الهندوس بضرورة إرجاع مَن دخل من أهل البلاد في الدين الإسلامي إلى ديانتهم القديمة، وتنظيم الشعب الهندوسي على أساس ديني قومي حربي، فقد ظهر تفوّق المسلمين وحماستهم وحُسن نظامهم في **حركة الخلافة والتحرير**، وكانت القيادة السياسية في أيديهم لأنَّ القضية التي تثير الجماهير قضية إسلامية تتصل بمركز الخلافة.

وبدأت المناظرات الدينية، وانفجرت الاضطرابات الطائفية، وقام الإنكليز بالولاء للهندوس والسيخ، الذين بدؤوا يدخلون في صِدام مع المسلمين، ويدبِّرون لهم المذابح، التي راح ضحيتها الآلاف من المسلمين، دون أن يجد المسلمون من الإنكيز والزعماء الوطنيين الهندوس ـ وعلى رأسهم غاندي ـ أذناً صاغية لوقف هذه المذابح، مما جعل كثيراً من زعماء المسلمين

يدركون أنَّ هناك اتِّفاقاً غير مكتوب بين الإنكليز والسيخ والهندوس لإفناء المسلمين بالمذابح، وحينئذٍ انفصل مولانا محمد علي، وكثير من زملائه عن المؤتمر الوطني الهندي، وقويت حركة الانفصال التي كان يتزعَّمها محمد علي جناح رئيس العصبة الإسلامية، والتي نادت أخيراً بتقسيم الهند.

ولم يختلف وضع البلدان العربية وغيرها من بقاع العالم الإسلامي عن الهند، فقد قام الأوروبيون بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) بإثارة فتنة القومية العربية، وقام لورانس بدوره، فأشعل الحماس القومي بين العرب، وحملهم على الأتراك، وثار الشريف حسين في الحجاز، وأهل الشام في الشام، وفضَّلوا الانضمام إلى راية الحلفاء ـ الذين يقودهم الإنكليز المجرمون، الذين تلطَّخت أيديهم وتلوَّث تاريخهم بأبشع الجرائم ضد الإسلام والمسلمين ـ على البقاء في جوار الأتراك المسلمين، الذين رفعوا راية الإسلام في أوروبة خمسة قرون، وأرهبوا أعداء الإسلام، وكانوا على علاَّتهم رمز قوة المسلمين وشوكتهم، واعتمدوا على الوعود الخلاَّبة.

ولمَّا خلع العرب ربقة الولاء للخلافة، وانحلَّت وحدة المسلمين عام (١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م) نقض الحلفاء عهودهم، وقاموا باستعمار بلاد الإسلام في معاركهم الحربية الدموية وسلاحهم المصلَّت على رقاب المسلمين، حتى احتلُّوا عامّة ديار الإسلام.

ووقعت **النكبة الفلسطينية** وقوع الصاعقة على الوطن العربي، فهزَّته بعنف، من أقصاه إلى أقصاه، وهنا طفقت مختلف القوى السياسية العربية،

والمفكِّرون العرب يبحثون حثيثاً عن العوامل التي حفَّت بتلك النكبة، وأسهمت في صنعها، وكان طبيعياً أن تتباين الآراء، وأحياناً تتعارض، بقدر ما بين تلك القوى من تباينات وتعارضات.

وهبَّت عاصفة القومية العربية الهوجاء كفكرة مستقلّة وفلسفة بذاتها، ووقع أكثر أبناء العرب وشبابهم وكثيرٌ من كهولهم وعلمائهم تحت تأثير قيادة ترى التخلُّص من أثر الإسلام في النفوس والعقول والحياة الاجتماعية والسياسية أهم وأولى من محاربة الصهيونية واستعادة المقدَّسات الإسلامية، وترى إزالة هذه الأنقاض أو الركام ـ على حدِّ تعبيرها ـ شرطاً لبناء المجتمع الجديد، وإزالة آثار العدوان الأجنبي، وتحلّ القومية العربية والاشتراكية العالمية محلَّ العقيدة الإسلامية والدعوة الإسلامية، ونشأ فيهم اليأسُ والتذمُّرُ من الأوضاع القائمة واليأس من الأمم الغربية التي خلقت إسرائيل ولا تزالُ تعطف عليها، فالتجؤوا إلى القومية العرية كردٍّ فعلٍ عنيفٍ وثورةٍ فكريةٍ.

ب ـ الوضع الفكري في عصر الشيخ الندوي:

وأحلَّت القوى الأوروبية بالمسلمين استعماراً من طراز الاستعمار الفكري، وذلك في تخطيط دقيق ومؤامرة دبرت تدبيراً، وكان هذا الاستعمار الفكري أشد وأنكى من حربهم المسلحة، فأوقدوها معركة فكرية خبيثة ماكرة، وناراً ماردة، وسيوفاً خفية على قلوب المسلمين باستعمارها عقيدةً وفكراً ومنهجَ حياةٍ، ليصبحَ العالم الإسلامي غربياً في قيمه ومُثُله، وحضارته وتاريخه، متنافراً مع دين الإسلام الحقّ، وكان أنكى وسائله: جلب (نظام

التعليم الغربي)، و(المدارس الاستعمارية) و(التبشير بالدين المسيحي) إلى عامة بلاد العالم الإسلامي.

وتركّزت نشاطات هذا الغزو الفكري على ضرب الإسلام في صميمه، وتذويب كيانه العلمي والروحي في دوّامة أفكار جديدة، تحمل شتّى العناوين، وتشتّت المواقف، وتفرّق الكلمة، وتحدث صراعاً بين الأفكار والنزعات، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه؛ فعمّ اليأسُ والقنوطُ المسلمين، وتفرّقت كلماتهم، وتباينت آراؤهم، وبدت فيما بينهم البغضاء والشحناء، وفقدوا ثقتهم بدينهم وحضارتهم وثقافتهم.

جـ ـ الوضع التعليمي في عصر الشيخ الندوي:

حينما تمّ للإنكليز الاستيلاء على دهلي عام (١٨٥٧م) وجدوا الهند قراها ومدنها مكتظة بالمدارس والمعاهد للمسلمين، وكانت دهلي، ولكنو، وآكره، ورامفور، وبلكرام، وخيرآباد، وجونفور، وحيدرآباد من كبار هذه المراكز التعليمية، فبذل الإنكليز كلّ جهودهم، وسخّروا وسائل الدولة في فرض نظام تعليمي جديد يقطع صلة الشعب عن دينه وتاريخه وحضارته، ويضمن له وظائف في الحكومة، وحاربوا التعليم الإسلامي، وأدّت سياسة الإنكليز هذه إلى إقفال كثير من مدارس المسلمين وكتاتيبهم.

واتّخذ الاستعمار الأوروبي السياسة نفسها في سائر بلاد العالم الإسلامي، وحدث صراع عنيف بين المسلمين، وحصل في كلّ بلد الانقسام إلى معسكرين متعارضين: معسكر المتجدِّدين الموالين للمستعمرين،

ومعسكر المحافظين المعارضين لأوروبة في جميع مجالات الحياة، **فالأول**: يمثّل العصر بتياراته ومعارفه وتوجّهاته المادية والعلمانية، ولا يعرف التراث وقيمه وعقائده ومثله، ويريد أن يجدّد كلَّ شيء، **والثاني**: يمثّل القديم الموروث، ولا يعرف العصر، ولا يحسن التعامل معه، ويقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وليس في الإمكان أبدع مما كان، فلا اجتهاد في الفقه، ولا إبداع في الأدب، ولا ابتكار في العلم، ولا اختراع في الصناعة، ولا تجديد في الدين ولا في الحياة.

وتجلّى هذان التياران في الهند في نشأة مدرستين متعارضتين:

١ ـ **مدرسة المتجدِّدين** المتمثّلة في (حركة علي كره) التي لم ترَ سبيلاً إلاّ اتّباع الإنكليز في ثقافتهم وحضارتهم وسننهم وآدابهم.

٢ ـ **ومدرسة المحافظين** المتمثّلة في (حركة دار العلوم) بديوبند تحت قيادة الإمامين محمد قاسم النانوتوي (ت٢٩٧هـ)، ورشيد أحمد الكنكوهي (ت١٣٢٣هـ) رحمهما الله تعالى، وكان من ثمارها أن امتلأت الهند بالمدارس العربية الإسلامية التي ركَّزت على تعليم اللغة العربية وعلوم التفسير والحديث والفقه لأبناء المسلمين، وكان لها فضلٌ كبير في إحياء السنن وإماتة البدع، ولكنَّها قطعت نفسها عن عامّة الشعب، وأصبحت الفجوة بين المدرستين بعيدة، وصار المثقّفون بالثقافة الإنكليزية، والعلماء المتخرِّجون من المدارس القديمة في معسكرين متعارضين.

وكان هذا هو الوضع، والمسلمون أشد ما يكونون حاجة إلى مَن يقرّب

بين التيارين، ويزيل هذه الفجوة المشينة، ويأتي بنظام تعليمي جديد، يجمع بين خصائصهما، فاجتمع نخبةٌ ممتازة من العلماء في مدرسة (فيض عام) بكانبور عام (١٣١١هـ = ١٨٩٤م)، وقاموا بإنشاء حركة تقرِّب بين الطائفتين، وتصلح بين المسلمين، وتأتي بنظام تعليمي جديد، وسمَّوا هذه الحركة المتَّصفة بالوسطية والاعتدال (**ندوة العلماء**)، وكان من أهدافها إزالة الفجوة بين العلماء والمثقّفين، والقضاء على العصبيات المذهبية والفكرية، وإصلاح النظام التعليمي، وقامت حركة ندوة العلماء لتطبيق فكرها بإنشاء دار العلوم لها عام (١٣١٧هـ = ١٨٩٨م) في مدينة لكنو، وكان من فضل الله على حركة ندوة العلماء أن ظفرت بالعلاَّمة شبلي النعماني الذي جمع بين العلوم الإسلامية والآداب المتنوِّعة، وقرن بين الثقافتين القديمة والحديثة، ورحل إلى عواصم العالم الإسلامي، فكانت له تجربة كبيرة وخبرة واسعة، فوقف نفسه لتطوير دار العلوم، وتربية طلاَّبها على البحث والتحقيق، وإعدادهم للدعوة، والردّ على المستشرقين وأعداء الدين[١].

بيئته الدينية والعلمية:

نشأ الشيخ الندوي في هذا الوضع الذي كان العالم الإسلامي يئنُّ فيه تحت وطأة الاستعمار الأوروبي العسكري والفكري والتعليمي، ولكنّه نشأ في بيئة بعيدة عن آثار هذا الغزو، غير متلوّث بشيء من الحضارة الوافدة، نشأ في

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (شبلي النعماني)، الصادر ضمن هذه السلسلة المباركة إن شاء الله.

بيت عُرِف بتقاليده العلمية والدينية والروحية والجهادية عبر القرون، علَّمه أنَّ الإسلامَ هو رسالةُ اللهِ الخاتمة الخالدة، وأنّها هي الحقّ الذي ليس بعده إلاّ الضلال، والسعادة التي ليس وراءها إلاّ الشقاوة، وأنَّ محمدَ بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي ﷺ خاتمُ الرسل، وإمامُ الكلِّ، ومنيرُ السبل لكلِّ عصر وجيل.

وكان أبوه أحد قادة حركة (**ندوة العلماء**) الإصلاحية المعتدلة، ثم خلفه أخوه في قيادتها، فورث عنهما الفكر الإسلامي الحرّ المعتدل، ثم أخذ عن شيوخه في (ندوة العلماء) منهجاً وسطاً شاملاً ومتَّزناً، فنشأ بعيداً عن العبودية الفكرية، بل نشأ في بيئة ثائرة على العبودية الفكرية، يقول: «ممَّا منَّ اللهُ به عليَّ من فضله وحكمته أنّي نشأتُ في بيئة آمنة من سحر الحضارة الغربية بل وثائرة عليه، بعيدة من الإفراط والتفريط، عامرة بالعقائد الإسلامية الصحيحة، ثم تشرَّفتُ بالتلمذة على شيوخ يتمتَّعون إلى جانب تفوّقهم العلمي بالحرية الفكرية، والجراءة الخلقية، والقدرة على النظر والانتقاد، وكان من ثمار النشأة في هذه البيئة الطاهرة أنَّ قريحتي كانت تنفر من استساغة الكتابات المصطبغة بالضعف، والندامة، والهزيمة، والقائمة على أساس الدفاع»[١].

من كلّ ما تقدَّم نرى أنَّ الشيخ الندوي نشأ في عصرٍ غزت فيه أوروبة الهندَ والعالمَ العربيَّ والإسلاميَّ عسكريّاً وفكريّاً، وعاش في غمرةِ هذه الأحداث السياسية والتعليمية، ولكنّ بيئته العلمية والدينية في بيته وفي ندوة

---

(١) العلاَّمة أبو الحسن علي الحسني الندوي، براني جراغ: ٣/ ٢٦ ـ ٢٧.

العلماء وفَّرت له حمًى، وصانته من الانجراف وراء التيار الفكري الجديد، والانصهار في بوتقة الحضارة الغربية، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

الباب الأوّل

نبات حسن

الفصل الأول : مرحلة النشأة

الفصل الثاني : الرجال الذين أثَّروا في تكوينه العلمي والفكري

الفصل الثالث : الكتب التي أثَّرت في تكوينه العلمي والفكري

الفصل الرابع : حياته العلمية

الفصل الخامس : رحلاته

الفصل السادس : تكريمه

الفصل السابع : وفاته وحليته وشمائله

الفصل الثامن : الأهل والتلاميذ

تمهيد

سأعرض في هذا الباب سيرة الشيخ الندوي الشخصية، وكيف أنَّ الله أنبته نباتاً حسناً، ليؤدِّي الدورَ الذي أعدَّه له، ويحتوي هذا العرضُ على بيان نسبه، وشرفه، ونشأته، وطلبه للعلم، وشيوخه، والرجال الذين كان لهم أبرز تأثير في تكوينه العلمي، والكتب التي كان لها الإسهام في تكوين فكره، وحياته العلمية في مجالات التدريس والتعليم، والدعوة والتبليغ، والكتابة والتأليف، وإلقاء الخطب والمحاضرات، وحضور المؤتمرات والندوات، ومكانته القيادية والتوجيهية في المجالات الاجتماعية والسياسية، ووفاته، وأهله، وذلك في ثمانية فصول:

الفصل الأول

مرحلة النشأة والطلب

أصل كريم:

نسبه من جهة أبيه: هو الشيخ الإمام العالم الربَّاني الداعية الكبير، والمربّي الجليل، والمفكِّر الشهير: العلاَّمة الشريف أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي بن علي محمد بن أكبر شاه بن محمد شاه بن محمد تقي بن عبد الرحيم بن هداية الله بن إسحاق بن محمد معظَّم بن القاضي أحمد بن القاضي محمود بن القاضي علاء الدين بن الأمير قطب الدين محمد الثاني بن صدر الدين بن زين الدين بن أحمد بن علي بن قيام الدين بن صدر الدين بن القاضي ركن الدين بن الأمير نظام الدين بن شيخ الإسلام الأمير قطب الدين محمد المدني بن رشيد الدين أحمد بن يوسف بن عيسى بن حسن بن حسين بن جعفر بن قاسم بن عبد الله بن حسن بن محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي وفاطمة، رضي الله عنهم، الحسني العلوي الهاشمي القرشي، المعروف بالنَّدْوي.

وأما نسبه من **جهة أمه:** فهو ابن خيرِ النساءِ بنت العالم الربَّاني ضياء النبي ابن سعيد الدين بن غلام جيلاني بن محمد واضح بن محمد صابر بن آية الله بن

الشيخ الكبير علم الله بن محمد فضيل بن محمد معظّم، وهنا يلتقي الفرعان، فالشيخُ نجيبُ الطرفين، ومُعِمٌّ مخوِلٌ كما تقول العرب.

و(النَّدْوي) ـ بالنون المفتوحة مشدّدة وسكون الدال ـ الملازم لاسمه ليس لقباً لأسرته، وإنَّما هو نسبةٌ إلى ندوة العلماء التي تخرَّج منها، فكلُّ مَن تخرَّج في ندوة العلماء أضفي عليه هذا اللقب تشريفاً له ودلالة على حمل شهادتها العلمية[1].

شرف نسبه:

وهذا النسب أشرفُ نسبٍ، فإنَّه يتَّصلُ بخاتم المرسلين، ثم بواسطته، وبواسطة علي بن أبي طالب ينتهي إلى إسماعيل وإبراهيم عليهم صلوات الله وتسليماته، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ

---

(١) يقول الأستاذ الأديب علي الطنطاوي رحمه الله في مقدمة (مسيرة الحياة): «وكنت أحسب أنَّ (الندوي) لقب أسرة يجمع بين أفرادها النسب، وكنت أسأل ما قرابة السيد سليمان الندوي الذي كان من أعاظم مَن كتب في السيرة، والسيد مسعود الندوي، محرّر مجلة (الضياء) إحدى المجلاّت الإسلامية العربية الواعية، والسيد أبي الحسن؟ ثم علمتُ أنَّهم لا يجمع بينهم النسب، وإنَّما يجمع بينهم العلم والأدب، وهذا المعهد الذي ينتسبون إليه. وأنا لا أعرف أهل معهد أو مدرسة لهم تعلّق بمعهدهم أو مدرستهم كتعلّق الندويين بندوتهم، ينتسبون إذا انتسبوا إليها لا إلى آبائهم، ويجتمعون عليها أكثر مما يجتمع أفراد الأسرة على أنسابهم، فكلّ مَن دخلها حَمَلَ لقب (الندوي)، فعُرف به، لا بلقب أهله».

﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فدلَّت الآية الكريمة على إمامة إبراهيم عليه السلام وإجابة الله تعالى دعاءَه لجعل الإمامة في ذرِّيَّته إلاَّ الظالمين منهم، ويُفَسِّر الآيةَ الكريمةَ الحديثُ الذي أخرجه الإمام البخاري في (صحيحه) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ هذا الأمرَ في قريشٍ، لا يعاديهم أحدٌ إلاَّ أكبَّه اللهُ في النارِ على وجهه ما أقاموا الدِّينَ**»[1]، فشرط إمامتهم بإقامتهم الدين.

أسرة طيبة:

أسرة الشيخ من أصلٍ عربي، تحافظ على أنسابها، وتمتاز بتمسُّكها بالشريعة الإسلامية، وبذل الجهد في نشر العلم وخدمة الإسلام والعمل لخير المسلمين، وأول من جاء إلى الهند من أجداده هو الأمير الكبير بدر الملّة المنير، شيخُ الإسلام، قدوة الأئمة الكرام **السيد قطب الدين محمد المدني** (٥٨١ ـ ٦٧٧هـ) (وهو ابن أخت السيد الإمام عبد القادر الجيلاني)، أخذ العلم والمعرفة عن والده العلاَّمة، وعن الشيخ عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني، والشيخ العارف نجم الدين الكبرى، وغيرهم من فحول العلماء، وانتقل من بغداد أيام فتنة المغول في أوائل القرن السابع الهجري مع جماعة من أصحابه، فدخل غزنة، وأقام بها زماناً، ثم قَدِم الهند لعلّه في أيام السلطان قطب الدين أيبك، وتولّى مشيخة الإسلام في دهلي مدةً من الزمان، ثم خرج

(١) الإمام البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش.

مجاهداً في سبيل الله، وفتح القلاع، ونشر الإسلام، وربَّى جماعةً كبيرة من أهل العقيدة السليمة والعلم والصلاح والدعوة إلى الله تعالى، واستقرَّ في بلدة (كره مانك فوره)، ثم استوطن بعض ذريّته بلدة (نصير آباد)[1].

وبارك الله في ذرية الأمير قطب الدين المدني، وكثر فيها علماء ودعاة تبنَّوا الدعوة الإسلامية، وقادوا الحركات الدينية في أزمان وأمكنة مختلفة، ومن أعلامها الكبار العالم الربَّاني **علم الله البريلوي** (١٠٣٣ = ١٠٩٦هـ)، أخذ العلم عن ابن عمه أحمد بن إسحاق الحسني النصيرآبادي، وأخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ الشهير **آدم بن إسماعيل الحسيني البنوري**، وانتقل من نصيرآباد، واستقرّ في ضاحية من ضواحي بلدة (راي بريلي) على شاطئ نهر (سي)، تعرف بـ(تكيه كلان)، وبنى بها مسجداً عام أربعة وثمانين وألف، ولم يجعل له قبة ولا منارة، وكان مسجداً ورباطاً، ومدرسةً ومركزَ دعوةٍ إلى الله، ودارَ تدريبٍ على الجهاد، ولا يزالُ قائماً، وعرض عليه عالمكير بن شاه جهان صاحب الهند إقطاعاً من الأرض فلم يقبل، وآثر الفقر والفاقه، وكان عالماً ربَّانياً، متقدِّماً في العلوم الشرعية والمعارف الإلـٰهية، زاهداً قنوعاً عفيفاً ديِّناً، ملازماً لأنواع الخير، قويّاً في دينه، جيد التفقّه، كثير الصدقات والإيثار، وكان من أحسن الناس وجهاً وأتمهم خِلقةً، قد غشيه نورُ الإيمان وسيما الصالحين، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحتسب كلّ من رأى عليه أثراً مخالفاً للشرع سواء كان ملكاً قاهراً، أو عالماً كبيراً، أو شيخاً جليلاً،

---

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر: ١/ ٢١١ ـ ٢١٢.

وكان يكثر الردَّ على المبتدعين، ويظهِرُ فضائحهم، وله مصنَّفات، وقبره مشهور ظاهر بزاويته في (راي بريلي) خارج البلدة[1].

وكان من ذريّته السيد **أحمد بن عرفان الشهيد**، وهو قائد أكبر حركة للدعوة إلى الله في تاريخ الهند الإسلامي، ومؤسّس الحكومة الشرعية في الحدود الشمالية الغربية للهند، التي لم تستمرّ طويلاً بسبب مؤامرات الإنكليز عليها، واستشهد مع عدد من أصحابه في معركة بالاكوت في ٢٤ ذي القعدة عام ١٢٤٦هـ[2].

١ ـ **جدّ الشيخ لأبيه**: وجدّ الشيخ الندوي لأبيه هو السيد **فخر الدين بن عبد العلي الحسني**، ولد عام ١٢٥٦هـ في زاوية الشيخ علم الله النقشبندي في (راي بريلي)، قرأ القرآن، وتعلَّم الفارسية والأردية، ودرس العلوم الدينية عند بعض العلماء، وتفقّه على الشيخ محمد نعيم بن عبد الحكيم الأنصاري اللكنوي، وأجازه السيد خواجه أحمد بن محمد ياسين النصيرآبادي بجميع مروياته ومسموعاته ومقروءاته، كما أجازه الشيخ سخاوت علي العمري الجونفوري، والشيخ يعقوب بن محمد أفضل الدهلوي سبط الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، والسيد محمد بن أعلى شاه النصيرآبادي وغيرهم من العلماء والمشايخ، ثم أصبح صدر المدرّسين في مدرسة حكومة حيدرآباد، وأقام في (بوفال)، و(طوك) زماناً، واعتل في بلدته في آخر عمره،

---

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر: ٥/ ٣٠١ـ٣٠٣.

(٢) وستأتي ترجمته في الفصل الثاني من هذا الباب.

وكان محمودَ السيرة والسريرة، متعفّفاً قانعاً باليسير، طارحاً للتكلف، منجمعاً عن الناس، مشتغلاً بخاصّة نفسه، صابراً على نوائب الزمن وحوادث الدهر، متواضعاً على الطاعة، سليمَ الصدرِ، وكان زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، ومن مؤلَّفاته: كتاب (مهر جهان تاب) في ثلاثة أجزاء بالفارسية في العلوم والفنون والتراجم والسير، وكتاب (سير السادات) في بيان أنساب السادات والأشراف، وكتاب (سيرة الشيخ علم الدين الحسني) بالفارسية، وديوان شعر بالأردية، وتوفي في ١٠ رمضان عام ١٣٢٦هـ رحمه الله، ودُفن في مقبرة آبائه في زاوية الشيخ علم الله الحسني[(١)].

٢ ـ جدّ الشيخ لأمه: وجدّه لأمه هو العالم الربّاني الشريف **ضياء النبي بن سعيد الدين الحسني** الشيخ الأجلّ النقشبندي البريلوي، ولد بمدينة (راي بريلي) ـ في زاوية جده السيد علم الله ـ حوالي عام ثلاثة وأربعين ومئتين وألف، ونشأ في تصوُّنٍ تام، وعفاف وتألّه، وقرأ شيئاً نزراً من العلوم في بلدته، وأخذ في دهلي عن الشيخ أحمد سعيد، وصنوه عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي، وغيرهما من العلماء، وأخذ الطريقة عن السيد الشريف خواجه أحمد بن محمد ياسين النصيرآبادي، ولازم الخواجه فيض الله الأورنك آبادي اللكنوي، وسافر إلى الحجاز فحجَّ وزار، وكثر إقبالُ الناس عليه، وكان عاكفاً على الذكر والعبادة، وأداء الفرائض ونوافل الطاعات، منقطعاً إلى الله بقلبه وقالبه، منصرفاً عما سواه، لا يجد الراحة إلا في الصلاة،

---

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر: ٨/ ٣٧٦ ـ ٣٨٠.

ربما سمع القرآن في ليلة واحدة وهو قائم لا تضطرب قدمه، لا همَّ له إلا الدين والاستعداد للآخرة، وكان شديدَ الاتّباع للسنّة، شديد الكراهة للبدع ومحدثات الأمور، توفي لخمس عشرة خلت من ذي القعدة عام ستة وعشرين وثلاثمئة وألف، ودُفن في مقبرة آبائه في الجهة الشمالية الغربية من المسجد[1].

٣ ـ **والد الشيخ**: ووالده هو العلاَّمة الكبير، مؤرّخ الهند الشهير، المحدِّث الأثري الطبيب **السيد عبد الحي الحسني**، ولد في ١٨ رمضان عام (١٢٨٦هـ)، وكان من كبار العلماء في القرن الرابع عشر الهجري، وانضمَّ إلى حركة ندوة العلماء، واهتمَّ بأمورها إلى آخر حياته بصفته رئيساً لها، وتجلّت فيه ملامح عالم مصلح، ومفكِّر حر، وأديب ناقد، يجمع بين الصمود والانفعال، ويفهم متطلَّبات العصر وتحدّياته، فيمثّل عصره بشخصيته، ويمثّل ماضيه العريق بمؤلَّفاته، وكان بذلك دعامةً أساسيةً لحركة ندوة العلماء، حتى تخرَّجَ منها العلماء والأدباء الذين زادوا في ثروة العلوم الإسلامية، وخدموا اللغةَ العربية واللغة الأردية، وأسَّسوا مجمعاً علمياً باسم (دار المصنّفين) وألَّفوا كتباً ذات شهرة عالمية.

وهو صاحب التآليف النافعة والكتب القيّمة السائرة، ومن أهمّها (**نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**) في ثمانية مجلّدات عن تاريخ أعلام الهند، الكتاب الفذّ الفريد في المكتبة الإسلامية، والذي يتناول تاريخ شبه القارة

---

(١) انظر: نزهة الخواطر: ٨/ ٢١١ ـ ٢١٤.

الهندية منذ دخول الإسلام فيها في القرن الأول من الهجرة إلى القرن الرابع عشر، ويحتوي على نحو خمسة آلاف ترجمة للعلماء والمشايخ والملوك والأمراء والشعراء وغيرهم من الأعلام، وهو كتاب ليس له نظير في بابه، وقد اتفق لي العمل حول تاريخ المسلمين في الهند العلمي والثقافي، وراجعتُ ما أمكنني من المصادر فلم أرَ مثله، ولا ما يقاربه في الدقّة والشمول وكثرة الصواب وقلّة الخطأ، فهو بتأليفه هذا الكتاب الموسوعي استحقّ أن يسمَّى (ابن خلكان الهند).

وله: (**الثقافة الإسلامية في الهند**) و(**الهند في العهد الإسلامي**) و(**تهذيب الأخلاق**) و(**القانون في انتفاع المرتهن بالمرهون**) و(**الغناء وحكمه في الشرع**) وكلُّها بالعربية، وكتاب (**ياد أيام**) في تاريخ إقليم كجرات، وكتاب في تاريخ الشعر الأردي باسم (**كل رعنا**) أي: الوردة الرشيقة، يُدرَّس في عدة جامعات، بالإضافة إلى رسائل في التعليم الديني والإصلاح الخُلقي والاجتماعي بالأردية، منها رسالة (**إصلاح**) في صلة الرحم، وله كتب مفيدة لأبناء المسلمين منها: (**تعليم الإسلام**) و(**نور الإيمان**) وغيرها، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

ومن أهم ما يمتاز به هو تقدّمه في الحديث الشريف وعلومه ومعرفة رجاله، ولا سيّما المتأخّرين منهم، ويشهد بذلك كتابه (**نزهة الخواطر**)، فلا يمرُّ بتراجم العلماء حتى يستقصي مسموعاتهم ومقروءاتهم وأسانيدهم وإجازاتهم، وكانت له إجازات من كبار المسندين في زمانه، وأعلى أسانيده روايتُه عن الإمام فضل رحمن الكنج مرادآبادي الراوي عن إمام الهند عبد العزيز

ابن أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بلا واسطة، وهذه مفخرة عظيمة له، تُعرَف ولا تُنكَر، ومن أعلى أسانيده روايته عن العلاَّمة رأس المحدِّثين حسين بن محسن الأنصاري، والعلاَّمة السيد نذير حسين المحدِّث الأثري الدهلوي، والعلاَّمة المقرئ عبد الرحمن الباني بتي، وغيرهم من أكابر مسندي زمانه، ولم أطَّلع رغم بحثي الكثير عن إجازته لأولاده، وسألت شيخنا أبا الحسن فأنكر أن يكون والده أجاز له، ولو أجاز له لورث شيخنا إسناداً عالياً جداً، وإن كنتُ لا أستبعد إجازته لأولاده لما عرف ذلك من عادة عامة المحدّثين، وبحثي عن ذلك لم ينقطع.

وعُني بتدريس القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب والطب، لكنّه ترك تدريس الأدب والطب في السنوات الأخيرة من حياته، واستمرَّ في تدريس الحديث الشريف إلى أن وافاه الأجل يوم الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة عام واحد وأربعين وثلاثمئة وألف.

تزوَّج من السيدة زينب ابنة خاله السيد عبد العزيز بن سراج الدين الحسيني الواسطي عام تسعة وثلاثمئة وألف، لكنَّها توفِّيت بعد عشر سنوات عام تسعة عشر وثلاثمئة وألف، رحمها الله، وتركت له ولداً واحداً هو الطبيب الشهير عبد العلي الحسني أخو الشيخ الندوي، ثم تزوَّج السيدة خير النساء بنت السيد ضياء النبي الحسني عام اثنين وعشرين وثلاثمئة وألف، وهي أم الشيخ الندوي وأم أختيه السيدة أمة العزيز، والسيدة أمة الله عائشة.

٤ ـ **والدة الشيخ**: هي السيدة خير النساء بنت ضياء النبي الحسني، ولدت عام (١٢٩٥هـ)، قرأت على أبيها القرآن الكريم مع ترجمة معانيه باللغة

الأردية، وأشياء أخرى، وحفظت القرآن الكريم عن ظهر القلب، وعُنيت بالدراسة والمطالعة، ومن الكتب التي لازمتها: (قصص الأنبياء) و(مقاصد الصالحين) و(مآثر الصالحين)، و(طريق النجاة) و(الداء والدواء) للأمير صديق حسن خان، و(تعبير الرؤيا) المنسوب لمحمد بن سيرين.

وواظبت على قيام الليل، وصلاة التراويح بالنساء، مع صلاح وتقوى، وزهد وصبر، وإنابة إلى الله، وتذوّق كبير للدعاء والمناجاة، ونُشرت لها عدة كتب إسلامية، ومجموعتان شعريتان: مجموعة قصائد في الدعاء والمناجاة إلى الله باسم **(باب الرحمة)**، ومجموعة قصائد في مدح الرسول ﷺ باسم **(مفتاح باب الرحمة)**، ولها كتب في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية، منها كتاب **(الذائقة)** وكتاب **(حُسن المعاشرة)** وكتاب **(الدعاء والقَدَر)**. وقامت في عام ١٣٦٦هـ بزيارة بيت الله الحرام، ومكثت بجوار الحرمين الشريفين نحو ستة أشهر مقبلةً على العبادة والطاعة، وتوفيت في السابع من جمادى الآخرة عام ثمانية وثمانين وثلاثمئة وألف.

يقول الأستاذ أحمد الشرباصي في ترجمة الشيخ الندوي: «وأمه من فضليات النساء والسيدات الفاضلات الصالحات، تحفظ القرآن، وتكتب وتؤلّف»[١].

ويقول شيخنا محمد الرابع الحسني الندوي: «كانت متصفةً بصفات ممتازة، إنها كانت أديبةً شاعرةً وخبيرةً في تربية البنات مع الصلاح الديني

---

(١) من تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، ص١٨.

والتقوى والعبادة التي كانت ممتازة فيها بين عضوات أسرتها»[1].

وكانت لها عناية كبيرة بتربيته تربية دينية صالحة، يقول الشيخ الندوي: «لما بدأتُ أشدو وأكتب نصحتني والدتي وأوصتني أن أبدأ كل ما أكتب بـ«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمَّ آتني بفضلك أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين»، وقد بقي ذلك عادتي وديدني مدةً من الزمن، ولا أزال أذكر في مناسبات كثيرة هذه الكلمات الصالحات»[2].

٥ ـ **أخوه الأكبر**: أخوه الأكبر هو الطبيب الشهير السيد **عبد العلي بن عبد الحي الحسني**، ولد عام أحد عشر وثلاثمئة وألف، تعلَّم اللغة الفارسية، وقرأ الأدب العربي والفقه وأصوله والعلوم الدينية في جد واجتهاد وفهم، وتعلَّم المنطق والفلسفة والهيئة والإقليدس، وتخرَّج من جامعة لكنو في الطب، وصار من الأطباء المعدودين، وعمل مديراً لندوة العلماء وأمينها العام من عام تسعة وأربعين وثلاثمئة وألف إلى أن توفي في الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ثمانين وثلاثمئة وألف.

كان متسماً منذ صباه بطول الصمت، والاشتغال بذات النفس، والجِدِّ في كلِّ شيء، والبعد عن الهزل وسفاسف الأمور، واشتهر بين أقرانه وفي زمانه بالبر بوالده، والخضوع لأوامره ورغباته، والحرص على راحته وطاعته،

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، ١٤٢١هـ: ٧/ ١٤٧.
(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ٧٥.

وكان مضرب المثل في ذلك، وكان مثالاً نادراً للجمع بين القديم والجديد، والدين والدنيا، ورسوخ في العقيدة، واستقامة في الدين، وتضلع من العلوم القديمة والحديثة، وسعة أفق في العلم والثقافة، وتصلّب في المبادئ والغايات، وتوسّع في الوسائل والآلات، واقتباس العلوم النافعة، وأخذ بالحديث الأحدث من المعلومات والاكتشافات.

جمع بين سلامة العقيدة وقوة الإيمان والقلب المتفتّح، والعقل النيّر الواسع، وحبّ الواقعية والجِدّ، لا يرى تناقضاً بين العلم والدين، والقديم والحديث، وقد اقتبس من الثقافتين، القديمة والحديثة، والغربية والشرقية، أفضل عناصرهما وأجملها، فمزج بينها مزجاً جميلاً، فأصبح برزخاً بين بحرين لا يبغيان، شديد الحبّ لله ولرسوله ﷺ، ولعشيرته وقومه، وللغته وبلاده، وشديد البغض، شديد البراءة من كل ما يخالف الدين الحنيف من عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات، عميق الفهم للإسلام، ووثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية، شديد الغيرة على الإسلام، عظيم الحب لمركزه، ومقدّساته، متقشّفاً في الحياة الفردية، متوسّعاً في فهم القضايا العلمية والإسلامية، شديداً في الحدود والنصوص، مرناً في المباحات، والاستفادة بالحكمة والتجارب[1].

واهتمّ بتربية أخيه الشيخ أبي الحسن الندوي تربيةً دينيةً منذ أن أصبح يتيماً في التاسعة من عمره، يقول الشيخ: نشأتُ في حضانته وتحت إشرافه،

---

(١) أبو الحسن علي الندوي: مقدمة الإسلام الممتحن، ص١٠.

فقد مات والدي رحمه الله وأنا في التاسعة من عمري، وقد كفلني كفالة الآباء للأبناء، قد كان (رحمه الله وكافأه أفضل مكافأة) عطوفاً رؤوفاً مربّياً حكيماً، من أفضل مَن عرفت من المربّين، وهو الذي رسم لي خطة في التعليم والثقافة اتَّبعتها طول حياتي، وطبعني على حبّ الاقتصاد والسداد، والاتّزان والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وعلى حبّ السلف وإجلال السنّة، وعدم الإفراط والتفريط، وهو الذي هيّأ الله لي عن طريقه وسائل التعليم والدراسة، وما كُتب لي من خدمة العلم والدين، والانقطاع إليهما والتفرّغ من الهموم وتكاليف الحياة.

وقد كانت مجالسه الرزينة، وتوجيهاته الحكيمة، وتعليماته الهادئة: أنفع لي من مئة كتاب، وقد كان لها فضل في فهم فضل تعاليم الإسلام والحضارة التي تؤسّسها هذه التعاليم، والاطّلاع على مواضع الضعف في الحضارة الغربية وزيغ أساسها، وإذا كان في ثقافتي وما وفّقني الله له من الدراسة والتأليف والدعوة والتوجيه شيءٌ يستحقّ الذكر؛ فالفضل في كلٍّ ذلك يرجع إليه بحول الله تعالى[1].

٦ ـ **أخته الكبرى**: أخته الكبرى هي **السيدة أَمَةُ العزيز** بنت عبد الحي، ولدت عام أربعة وعشرين وثلاثمئة وألف، كانت سيدةً صالحةً كثيرةَ العبادة، لها كتاب في السيرة النبوية ورسائل، أهمها: (سيرة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها) و(سيرة أسماء بنت الصديق رضي الله عنها)، ولها من الأولاد: ١ـ

---

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي، شخصيات وكتب، ص٩٠ ـ ٩١.

الشيخ السيد محمود حسن رحمه الله، ٢ـ والشيخ السيد محمد الثاني رحمه الله، الذي كان كاتباً وشاعراً، ومن مؤلفاته (سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي) رئيس جماعة التبليغ، و(سيرة العلاَّمة خليل أحمد السهارنفوري) صاحب كتاب (بذل المجهود في شرح سنن أبي داود)، ٣ـ وشيخنا السيد محمد الرابع الحسني، عالم باحث محقّق، وكاتب وأديب، وهو الآن مدير (دار العلوم لندوة العلماء) وأمين المجمع الإسلامي العلمي، ونائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ٤ـ وشيخنا الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير جريدة (الرائد) بالعربية.

٧ ـ **أخته الثانية**: وأخته الثانية هي **السيدة أمة الله تسنيم** المعروفة باسم عائشة، كانت سيدة فاضلة، ومن كتبها (زاد سفر) ترجمة أردية لكتاب رياض الصالحين، ومقرّر تدريسه في المدارس الإسلامية بالهند، وكتاب (موج تسنيم)، ولها قصائد في الدعاء والمناجاة إلى الله تعالى، وكانت رئيسةَ تحرير مجلة (رضوان) وهي مجلة السيدات المسلمات بالأردية في الهند، وتوفيت عام ستة وتسعين وثلاثمئة وألف، وصلَّى عليها الشيخ الندوي، ودفنت في مقبرة زاوية السيد علم الله.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ في بلدة (راي بريلي) في السادس من المحرم الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمئة وألف، ونشأ في مهد العلم والفضل، وتربَّى في بيئة الدعوة إلى التوحيد والسنّة، والبُعد عن المحدَثات والبدع، والتضحية والجهاد في سبيل الله، نشأ والقرآن حوله يُتلى، والحديث يذاكر، والفقه

يدرس، وقصص جهاد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد تُعاد عليه، نشأ في بيئة يسودها العلم والفضل، والزهد والتقوى، والعبادة والرياضة، وبساطة المعيشة والقناعة، وتربَّى في محيط العلم والأدب، والدين والروحانية، والدعوة والجهاد، وعاش في ظلال تاريخ الدعوة الإسلامية وقصة بطولاتها ومعجزاتها وصنائعها وعجائبها، تتلى في بيته وأسرته الملاحمُ الإسلامية، التي نظمها بعضُ أفراد أسرته المتقدّمين في الشعر الأردي القوي المثير، مقتبسةً من (فتوح الشام) للواقدي، والأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية، وأخبار الصحابة، وفضل الحضارة الإسلامية، ودور العرب في بناء العالم الجديد، وإنقاذ الإنسانية من أعدائها، فامتزج ذلك كله بلحمه ودمه، وتكوَّنت به عقليته ونفسيته، وأحبّ الرسول ﷺ وأصحابه العرب حبّاً لا يمكن تجريده منه في مرحلة من مراحل الثقافة، وفي فترة من فترات الحياة، وفي بيئة من البيئات، وأصبح هذا الحبُّ، وهذه العاطفةُ تلهب شعوره، وتذكي قريحته، وتُجري قلمه، وأصبحت له مصدرَ الإلهام ومنبعَ الإيمان والحنان.

١ ـ **بداية طلبه**: قرأ الشيخ القرآن الكريم على الحافظ محمد سعيد إمام مسجد محمد علي لين في لكنو، ودرس مقرّرات اللغة الأردية لمحمد إسماعيل الميرتي، والكتاب الأول للغة الفارسية على الشيخ محمود علي، ودرس خلال هذه الفترة (تعليم الإسلام) و(نور الإيمان) من مؤلفات والده.

ثم أخذ بعد وفاة أبيه عام (١٣٤١هـ) في دراسة الفارسية؛ فقرأ: (بوستان)، للشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي على الشيخ السيد محمد إسماعيل، وأخذ الأردية والحساب من الأستاذ محمد زمان في (راي بريلي)،

وحفظ الطوال المفصل على أمه، ودرس بنفسه كتابي (سيرة خير البشر) و(رحمة للعالمين) للقاضي محمد سليمان المنصورفوري.

٢ ـ **طفولة طاهرة**: كان والده عطوفاً عليه، يصطحبه في زياراته لأصدقائه، ويشركه معه في الفطور والغداء والعشاء، لكنه توفي وهو ابن تسع سنوات، فنشأ يتيماً، فاعتنت به أمه اعتناءً بالغاً، وازداد حبها وحنانها وشفقتها عليه، واهتمَّت بتربيته وتعليمه في حبٍّ ولهٍ، مع صرامةٍ في أداء الواجب، ودرَّبته على احترام الكبير، والشفقة على الصغير، والمحافظة على الصلوات، وكانت تتضرَّع إلى الله، وتقول: «إلـهي يعيش ابني علي في الدنيا في حفظك وأمانك ورعايتك، ويستنير به سراج العالم ومصباح الكون، ويخصِبُ ويخضرّ به بستان العالم، ربِّ أجب فأنت المجيب، واجعل عليّاً فرحاً سعيداً» في مناجاة منظومة طويلة، ولها غير ذلك من الأدعية له، تركت أثراً كبيراً في حياته.

وأذكر هنا قصة حكاها الشيخ الندوي عن طفولته تلقي الضوء على همّته العالية في هذه المرحلة من العمر، إذ لا يهم الصغار إلا الألعاب، يقول: لقد كان أخي الأكبر ـ وهو الذي تولّى تربيتي وتثقيفي بعد وفاة أبي، وقد توفّي وأنا في التاسعة من عمري ـ موفقاً كلَّ التوفيق في اختيار الكتب التي كان يجب أن أطالعها في صغري، فقد قدَّم إلي في أول ما قدَّم كتاب (سيرة خير البشر) لمؤلف هندي، وكان حريصاً على أن أكثر من مطالعة كتب السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، لأنه يعرف أنَّها المؤثِّر الأكبر في تكوين السيرة والعقيدة والخُلق وغرس الإيمان، وقد نشأت لذلك على حبّ كتب السير،

والحرص على اقتنائها ومطالعتها.

وقع بصري مرةً على اسم كتاب (رحمة للعالمين) وكنت كثير النظر في الفهارس وإعلانات الكتب، وأرسلت طلباً لهذا الكتاب، وكان قد طبع منه جزءان، تقصر ميزانيتي الصغيرة - وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري - عن شرائه، ولكنَّ الصغار - خصوصاً في العصر الذي أتحدَّثُ عنه - لا يخضعون لقوانين الميزانيات وعلم الاقتصاد، إنما ينساقون مع الغرائز والعواطف.

وجاء ساعي البريد وهو يحمل هذا الكتاب فيما جاء يحمله من بريد قريتنا الصغيرة، ورأيت أنّي لا أملك ما أتسلَّم به هذا الكتاب وأدفع ثمنه، واعتذرت أمي - بارك الله في حياتها - مع حرصها على إرضاء طفلها اليتيم، عن دفع النقود، لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين.

ورأيت فلم أرَ لي مساعداً وشفيعاً في هذه المهمة إلا الشفيع الذي طالما لجأ إليه الأطفال، وعرفوا أنَّ شفاعته لا تُردُّ، ذلك الشفيع الذي لجأ إليه سيدنا عمير بن أبي وقاص الصغير، فقبل رسولَ الله ﷺ شفاعته، وأجازه للقتال في بدر، ذلك شفيع الدموع والبكاء البريء، الذي لم يزل وجيهاً مسموعاً عند الله وعند عباده الصالحين.

وكذلك كان، فقد رقَّ لذلك قلب أمي الحنون، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب والحصول عليه، وأخذت الكتاب»[1].

(١) الطريق إلى المدينة، ص١٥ - ١٧.

٣ ـ دراسته العالية: ونقله ـ وهو صغير السن ـ أخوه من القرية إلى مدينة لكنو ليتابعَ بها دراسته تحت إشرافه ورعايته، وكانت لكنو مهد الحضارة الإسلامية، فقد ظلّت عاصمة للمسلمين مدةً طويلة، وبها مدرسة (فرنكي محل) الشهيرة، التي خدمت العلوم الإسلامية أكثر من قرنين من الزمان، وتخرَّجَ منها أمثال الإمام المحدِّث الفقيه عبد الحي الفرنكي محلي وغيره، وصارت أخيراً مقرّ حركة ندوة العلماء، وأقام مع أخيه في قصر الأميرين السيد ظهور الحسن والسيد نجم الحسن حفيدي الأمير صديق حسن خان صاحب المؤلَّفات الشهيرة بإلحاح منهما على ذلك، لما بين بيوتهما من صلة قريبة قديمة، وكانت الإقامةُ في القصر خيراً كثيراً للشيخ الندوي، فزالت من قلبه هيبةُ الملوك وأبهةُ القصور، واستأجر الدكتور عبد العلي بعد سنتين منزلاً، فانتقلا إليه.

وأخذ في لكنو دروس كتاب (أصول فارسي) للعلاَّمة فاروق الجرياكوتي، وهو آخر ما درسه في المقرّرات الفارسية، وأخذ اللغة الإنكليزية الابتدائية من أخيه عبد العلي وخليل الدين الهنسوي، وخاله السيد سعيد أحمد الحسني.

وكان من سعادة حظّه أنَّ هذا المنزل الجديد الذي استأجره أخوه وانتقلا إليه كان بجوار بيت العلاَّمة خليل بن محمد بن حسين اليماني علاَّمةِ العربية وأديبها، والذي كان آنذاك محاضراً في جامعة لكنو، فاتَّصل به بأمرٍ من أخيه الدكتور عبد العلي، وأخذ وهو في الثانية عشرة من عمره في دراسة العربية على الشيخ خليل، وحفظ عليه قسطاً كبيراً من نماذج النثر العربي، وبقيت آثارها

عالقة بذهنه، واعملت في تكوين ذوقه، وامتزجت بكيانه، واصطبغت بها كتابته، يقول الشيخ الندوي وهو يتحدَّث عن بداية دراسته عليه: «وأعتقد أنه كان عام (١٩٢٦م) إذ بدأتُ أتعلَّمُ اللغة العربية منه في منزله الذي كان يسكن فيه، كتب الدرس الابتدائي في الصرف على دفتر وكلَّفني حفظه، وكنتُ أنا طالباً وحيداً في هذا الصف، وبعد أيام قليلة بدأ يُدَرِّسُني (المطالعة العربية) وكان اسمها الحقيقي (المطالعة المصرية)، وكانت تُدرَّس في المدارس الابتدائية في بنغال، وكان الشيخ خليل معجباً أشدَّ الإعجاب بهذا الكتاب، لما كان يمتازُ به من سهولة اللغة وسلاسة الأسلوب، والحوار الممتع، والترتيب الفني الأنيق، وظهرت له طبعات عديدة، ونال قبولاً واسعاً في المدارس الإسلامية، وذلك بفضل ما بذله الشيخ خليل من جهد وعناية في نشر هذا الكتاب»[1].

وما هي إلا أيام قلائل حتى وجد زميلاً عزيزاً التحق بصفّه وهو حسين بن محمد أخو الشيخ خليل الأصغر الذي كان قد بدأ يدرس اللغة العربية قبله بمدة قصيرة، فكانا اثنين في الصف، لا ثالث لهما، وكان الأستاذ قد ركَّز جُلَّ عنايته عليهما، فإذا كان حسين أخاه بصلة العرق والدم، كان أبو الحسن ابنه الروحي وعزيزه بسبب ما كان له من صلة متينة بأسرته منذ زمن بعيد، والعلاقة العلمية الروحية التي كانت تربطه به منذ مدة طويلة، وكان التعليم مركَّزاً وممتعاً في نفس الوقت، يقول الشيخ الندوي: «مضت أيام كثيرة، وأتذكَّر أني لم تأخذني

(١) شخصيات وكتب، ص١٠١ ـ ١٠٢.

سآمة ولا ضجر من درسه قط، لأنَّ حديثه الممتع؛ وفكاهته الحلوة المشجّعة؛ ودعابته وخفّة روحه: قد أزالت عني غربة اللغة الأجنبية وصعوبة الكتب الدراسية»[1].

وكان الشيخ خليل يتلذّذ بالألفاظ والتعابير الرائعة، ويبدي لتلميذه ما يشعر به من لذّة وحلاوة، حتى كانت تلك الكلمات والتعابير ترتسم في ذهنه، وتترسَّخ في ذاكرته، كما خلق الشيخ خليل فيه الشعورَ بأنَّ هذه الثروة اللغوية ليست ملكاً لأحد، ولا هي كنز لا تصل إليه يدُ تلميذٍ متأخِّرٍ زمانُه، وإنَّما هي ملك مشاع، يمتلكه كلُّ مَن يقدِر على استخدامه على وجه صحيح مناسب، وربَّما كان يبدي سروره وإعجابه بتعبير جميل أو مَثَل سائر، أو جملة يكتبها صحيحةً على دفتر الإنشاء، كأنَّه قام بعمل جليل يستحقّ التقدير والإعجاب، وكان يمنحه جائزة في بعض الأحيان[2].

يقول الشيخ الندوي وهو يعلِّق على منهج الشيخ خليل في التعليم: «وعلى هذا المنوال كنَّا نأخذ الدروس باستمرار في اللغة العربية، ونحن لا نشعر بأهمية وقيمة المنهج الذي كان يتبعه الشيخ خليل في التدريس، ولكني أحسست فيما بعدُ أنَّه منهج مفضَّل مبني على التجارب العلمية الطويلة، ويسفِرُ عن نجاحٍ كبير، لا يحصل بطريقة أخرى، فإنَّه كان لا يخلط بين لغتين، بل ولا بين مادتين مختلفتين في التعليم في وقت واحد، فمنذ بداية دراستنا للغة

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) انظر: شخصيات وكتب، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

العربية والأدب العربي ـ حتى سنتين ـ عكفنا على دراسة اللغة بما فيها قواعد النحو والصرف، وعلى الأدب مع ممارسة الكتابة والإنشاء، وكان ذلك نهاية أملنا ورأس مالنا، وكان اكتساب المهارة والبراعة والتفوّق في هذه الدراسة أكبرَ نجاحٍ وأسمى شرفٍ لنا، فكانت النتيجة أن تركَّزت جُلّ عنايتنا ومحاولاتنا على إحراز النجاح والتقدّم في هذا الموضوع، وكنَّا نتكلَّم عنده بالعربية ونفكّر فيها، ونكتب بها، وكانت هذه هي الدنيا التي نعيش فيها»[1].

وبعد انتهاء كتب الأدب المتوسطة تغلَّب على الشيخ خليل ذوقه الديني، فجعل يدرِّسُه بعض الأجزاء من القرآن الكريم، والتي تتناول بصفة خاصة موضوع التوحيد، والتي تركِّز بكل قوة ووضوح على هذا الموضوع، فقرأ (سورة الزمر) وما بعدها من سور عديدة، مع دراسة كتاب المغازي من

(١) شخصيات وكتب، ص١٠٤، ولما سافر الشيخ إلى مصر عام (١٩٥١م) سأله العلاَّمة الشيخ محمود شلتوت ـ الذي كان يشغل آنذاك منصباً كبيراً في الأزهر، وتولّى منصب شيخ الأزهر فيما بعد ونال شهرة عالمية ـ عن تاريخ دراسته، وهو يريد أن يعرف كيف درس في بلد أعجمي بعيد عن مركز العروبة حتى وصل إلى درجة أنه تمكَّن من تحقيق أهدافه العلمية والدينية، يقول الشيخ: «فلمَّا أخبرته عن أسلوب الشيخ خليل الذي كان يتّخذه لتعليمنا، وذكرت له أني كنت آخذ مادة واحدة وموضوعاً واحداً للدراسة في وقت واحد، وبذا كنت في مأمن من كثرة المواد واختلاط الدروس المختلفة، الأمر الذي يشاهد في جميع المدارس والمعاهد التعليمية، سواء أكانت قديمة أو جديدة، هتف قائلاً بعاطفة وحماس: هذا هو المنهج المفضَّل للتعليم». (شخصيات وكتب، ص١٠٥).

(صحيح مسلم)، وكان للشيخ خليل شغف زائد بهذا الموضوع الذي كان يلائم ذوقه، وبالإضافة إلى هذين الدرسين قرأ عليه كتب اللغة العربية والأدب العربي في النثر، وقرأ عليه في النظم (ديوان الحماسة) لأبي تمام، و(لامية العرب) للشنفرى، وقصيدة (بانت سعاد) و(سقط الزند) لأبي العلاء المعرّي، وأخذ منه دروساً في تاريخ آداب اللغة العربية.

وكان للشيخ خليل ولع كبير بكتاب (نهج البلاغة) وخاصة رسائله، لأن الخطب التي تنسب إلى سيدنا علي رضي الله عنه يغلب عليها التكلُّف، وأضيف إليها شيءٌ كثير مما ليس من كلامه، وأما الرسائل فهي نموذج عال لأساليب البيان، وأفانين القول في النثر الفني.

ولم تكن (مقامات الحريري) من الكتب المفضَّلة لديه، فكان لا يعجبه أسلوبها المنمّق الملتزم بالسجع والقافية، ولكنَّه مع ذلك درَّسه عشرين مقامة منها لما تحمله من ثروة لغوية، وكان يوصيه بمطالعة شرحها القيّم للشريشي.

وكان الشيخ خليل مأخوذاً بجمال مؤلفات عبد القاهر الجرجاني إمام العربية وأسلوبه العربي الخالص، ودقّة نظره، ونفاذ بصيرته، وكان يكيلُ له المدح، ويجزِلُ عليه الثناء، وكان كتابه (دلائل الإعجاز) من أحبِّ الكتب لديه وأهمها، فدرَّسه له بشغف كبير، يطرب لبيت من الشعر، أبدى المؤلِّف إعجابه به، تترنَّح أعطافه كلَّما قرأه ويعيده مراراً، وكان يتذوَّقه ويلتذّ به حسيّاً كأنَّه أكل طعاماً لذيذاً.

وكان معترفاً بفضل البحتري لما يتّصف به شعره من بين الشعراء

الآخرين من النغم الموسيقي، وجزالة اللفظ، وحلاوة الجرس، والطابع العربي الخالص، ومعجباً بما يمتاز به المتنبي من دقة الخيال، وابتكار المعاني الجديدة، وكان يحفظ مئات من الأبيات، ويقرِضُ شعراً رائعاً بليغاً يحاكي فيه فحول الشعراء، وكان ينقل إلى تلميذه تذوّقه وانفعاله، يقول الشيخ الندوي: «وعندما كان يقرأ علينا شعر (الحماسة) أو بعض قصائد البحتري، كانت تتمثَّل أمامنا سوق عكاظ، فكنَّا نحسّ كيف كان الشعر يؤثّر في نفوس العرب كالسحر، ويقرّر مصير القبائل، ويغيّر مقاييسَ الكرم والشرف، والذلة والمهانة، فيرفع البعض ويضع البعض، وكان العربي يطرب لسماعه ويتواجد، وكان يبدو الشيخ خليل صورة حية لمعاني الشعر وأثره، كأن الشعر قد امتزج بلحمه ودمه، فينبثق نغمه وموسيقاه من كل شعرة من جسده»[١].

وكان للشيخ خليل شغف زائد بتعليمه، فكان التدريس هو غاية عمله، وعملاً يلائم طبيعته وذوقه، يقول الشيخ الندوي: «وكانت تبدو عليه ملامح السرور حينما كان يدرِّسنا، وكان لا يعفينا من الدرس ما عدا يوم الجمعة، ولا أدري كيف رضي بعطلة يوم الجمعة، ولا أتذكَّر إلاَّ عطلة يوم غير الجمعة. كان الشيخ خليل يعود من الجامعة مجهوداً مكدوداً يتصبَّبُ عرقاً، وما كاد يصل إلى البيت (وكان أحد شبابيك بيته يطلّ على واجهة منزلنا القديم) حتى يناديني بأعلى صوته وهو قائم على الشباك، وما لنا إلاَّ أن نلبّي نداءه، وكثيراً ما حدث أنه ذهب إلى (عليكره) أو غيرها من المدن لحضور مؤتمر أو لجنة اختبار أو اختيار،

(١) شخصيات وكتب، ص١٠٧.

وعاد من سفره قبيل وقت الدرس، وكنا متأكّدين بأننا لا ندرس اليوم، إذ بصوته يرتفع وهو ينادينا لقراءة الدرس، لأنّ الدرس كان غذاءً يقوّي روحه، ولا يقرّ له قرار بدونه»[١].

٤ ـ نبوغه في اللغة العربية: ودرس الشيخ النحو والصرف والعربية أيضاً على عميه الشيخ عزيز الرحمن، والشيخ طلحة بن محمد الحسني، وظهر له بذلك وبفضل تعليم الشيخ اليماني النبوغ المبكِّر في اللغة العربية نطقاً وكتابةً، وحضر مع أخيه الدكتور عبد العلي اجتماع ندوة العلماء العام عام ١٩٢٦م في مدينة (كانفور)، وهو ابن اثني عشر عاماً أصغر الحضور سنّاً، وكان من بين الضيوف بعض العرب، فتحدَّث معهم بالعربية، ونال إعجابهم، وتعرَّف بمناسبة هذا الاجتماع على كبار علماء الهند وقادتها من أمثال الشيخ محمد سليمان المنصورفوري صاحب كتاب (رحمة للعالمين)، والدكتور ذاكر حسين رئيس جمهورية الهند الأسبق، وحاذق الملك الحكيم أجمل خان، ومحمد علي جوهر قائد حركة الخلافة، وظفر علي خان الصحفي البارع الشهير.

٥ ـ التحاقه بجامعة لكنو: والتحق الشيخ بقسم اللغة العربية بجامعة لكنو بتوجيه من شيخه اليماني، وكان طالباً ممتازاً في الجامعة، ونال شهادة (فاضل أدب) بتفوّق، وفاز بوسام عام (١٩٢٧م)، ونال في السنة التالية شهادة (فاضل حديث) وهو أصغر طلاب القسم.

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

ودرس خلال هذه الفترة اللغة الأردية وآدابها، وعكف عليها، واطَّلع على مصادرها ومدارسها، وتاريخها، والاتجاهات الأدبية فيها، وأتقنها وتقدَّم فيها، كما أخذ يتعلَّم اللغة الإنكليزية لدى الأستاذ خليل الدين، وكان متمكّناً منها ومن آدابها، فبعث فيه الشوق للتقدّم فيها، حتى بدأ يتلقّى دروس اللغة الإنكليزية من الأستاذ الكبير محمد سميع الصديقي، وكاد ينقطع إليها، وحرَّضه بعض أقاربه على أخذها لحاجة العصر وفرص مادية ووظائف حكومية، فبلغ ذلك أمه الصالحة الحنون وهي في قريتها، فكتبت إليه رسالةً مؤثِّرةً نصحته فيها برفق، وشرحت له فضائل اللغة العربية ومنافع العلوم الدينية، والتوسط بها إلى الدعوة إلى الله تعالى، وابتغاء مرضاته، والجمع بين الحسنيين: الدنيا والآخرة، وكان مما كتبت إليه: «يا علي! لا يغرّنك كلام أحد، إن ابتغيتَ مرضاة الله تعالى، وأحببت أداء حقوقي؛ فانظر إلى أولئك الرجال الذين قضوا حياتهم في طلب العلم، ما أرفع شأنهم، وأعلى مكانتهم، انظر إلى وليّ الله المحدّث الدهلوي، وعبد العزيز الدهلوي، وعبد القادر الدهلوي.. يا علي! لو كان لي مئة ولد لوقفتهم جميعاً لعلم الدين»، وابتهلت إلى الله، وتضرَّعت إلى ربِّها عزَّ وجلّ أن يصرفه إلى ما يحبه ويرضاه، فأجاب الله دعوتها، واشمئز قلبه، ونفرت نفسُه من اللغة الإنكليزية، وكان قد تعلَّم منها قدراً مكَّنه من الرجوع إلى المصادر الإنكليزية أثناء تأليف كتبه.

٦ ـ **دراسته العليا**: التحق الشيخ بدار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٢٩م، ودرس بها علوم الحديث على العلاَّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي (ت١٣٦١هـ)، وكان قبل ذلك درس كتاب الجهاد من (صحيح

الإمام مسلم) على شيخه خليل الأنصاري، ولازم الشيخ حيدر حسن خان سنتين كاملتين، قرأ فيهما عليه (الصحيحين)، و(سنن أبي داود)، و(سنن الترمذي)، وسمعت شيخنا أبا الحسن يقول: إنه لم يكن من عادته كتابة الإجازة بخط يده، بل كان يسأل بعض الطلاب فيكتبها للمستجيزين منه، ولكنَّه لحبّه إيّاه، وأنسه به خصَّه بكتابة الإجازة العامة له بخط يده.

وقرأ في دار العلوم لندوة العلماء بعضَ كتب الفقه على الشيخ الفقيه المفتي شبلي الجيراجبوري الأعظمي، وأخذ شيئاً من (تفسير البيضاوي) على العلاّمة حيدر حسن خان الطونكي، وتلقَّى تفسير سور مختارة من شيخه خليل الأنصاري، وأخذ تفسير السور الأخيرة من القرآن الكريم عن الأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي مدير الشؤون الدينية في الجامعة الملية الإسلامية بدهلي، وكان قد نزل ضيفاً على أخيه في لكنو، كما أخذ دروساً في الفلسفة على العلامة السيد سليمان الندوي كشفت له النقاب عن حقائق كثيرة من فلسفة اليونان.

وأتمَّ دراسته الأدبية على يد الدكتور العلاَّمة الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي أستاذ الأدب العربي في دار العلوم لندوة العلماء حين مقدمه إليها عام (١٩٣٠م)، بدعوة من العلاَّمة السيد سليمان الندوي، وقرأ عليه (ديوان النابغة) و(شرح شذور الذهب)، وأتقن عليه اللغة العربية نطقاً وكتابةً، وتقدَّم فيها تقدّماً قلَّما يوجد له نظير، وفاق الأقران في الكتابة والخطابة باللغة العربية الفصحى.

٧ ـ رحلاته في طلب العلم: سافر الشيخ إلى مدينة لاهور عام ١٩٢٩م بدعوة من عمّته المقيمة بها مع زوجها السيد محمد طلحة الحسني الأستاذ في الكلية الشرقية بها، وكان الشيخ الندوي في الخامسة عشر من عمره، وقد نشرت له بعض المقالات والترجمات باللغة العربية، فأُعجب الأستاذ الحسني بتلميذه الصغير، وأزاره الأماكن الأثرية في لاهور، وهي مدينة تاريخية زاخرة بآثارها الإسلامية والحضارية، ومدينة العلم والثقافة ومركز النشر والصحافة، وموئل الجماعات والجمعيات والأحزاب السياسية والاجتماعية، ومقرّ الشخصيات البارزة من العلماء والصالحين، والأدباء والشعراء، وزعماء الإصلاح، وقادة حركات تحرير الهند من الاستعمار الإنكليزي.

ونظَّم الأستاذ الحسني لقاءات له مع الشخصيات البارزة، واستصحبه إلى كلّيته، وعرَّفه بالسيد **محمد شفيع** عميد الكلية، وكان من خبراء التعليم الأفذاذ، ذوي مواهب وكفاءات نادرة، يتقن لغات عديدة؛ منها: الإنكليزية والعربية، وقال له الأستاذ الحسني: إنَّ ابنَ أخي هذا يدرس اللغتين العربية والإنكليزية، فلو اختبرتموه وأشرتم عليه بالتي يختار منهما لدراساته في المستقبل، فقال: تعالوا غداً إلى منزلي للعشاء، ويأتي التلميذ العزيز بمقالاته في اللغتين أقرأها، ثم أشير بماذا يدرس ويعمل، فاستغرب الحضور هذه الدعوة، وهذا الاهتمام الكبير، لما علم منه أنه لا يدعو أحداً إلى منزله، ولا يقابل أحداً، فحضرا للعشاء عنده، وطالع الأستاذ محمد شفيع مقالاته، ووجه إليه أسئلة، واختبره، ثم أشار عليه بأن يختار اللغة العربية، وأنه سيبرز فيها ويتفوَّق.

وقابل في هذه الرحلة غيره من كبار العلماء ومشاهير الأدباء والشعراء وقادة الفكر، أجدرهم بالذكر شاعر الإسلام العلاّمة الدكتور **محمد إقبال**، فحضر مجالسه العلمية الأدبية، وأنس به الشاعر العظيم رغم صغر سنه، وعدم شهرته، وكان قد ترجم منظومة له بعنوان (القمر) إلى النثر العربي، فأُعجب به ورحَّب، وألقى عليه أسئلة حول اللغة العربية، والمصادر العربية والأدباء والشعراء العرب قديماً وحديثاً، فأجابه بما اقتنع به إقبال، وأذن له في نقل منظوماته الشعرية الأخرى إلى اللغة العربية، وشجَّعه على ذلك، وكانت النواة لأحاديثه عن إقبال في القاهرة ودمشق ومكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى نشر عنه فيما بعد كتابه القيّم ذائع الصيت (روائع إقبال).

وفي هذه الرحلة تعرَّف على العالم الورع الشيخ الربّاني **أحمد علي اللاهوري** المفسّر المشهور، فوقع حبّه في قلبه وأغرم به، وأفرد رحلة أخرى إلى لاهور عام (١٩٣٠م) للاستفادة منه في التفسير، وأخذ عنه تفسير النصف الأول من سورة البقرة، والذي أنشأ فيه حب الدين، ورحل إليه ثالثة عام (١٩٣١م) وأخذ عنه كتاب (حجة الله البالغة) للإمام ولي الله الدهلوي رحمه الله، وفاق فيه زملاءه، وفاز في الامتحان بامتياز، ثم رحل إليه رابعة عام (١٩٣٢م) وحضر دروسه في التفسير المخصّصة للمتخرّجين من المدارس والعلماء، ونال الشهادة في التفسير.

ورافق شيخَه العلاَّمة **الدكتور تقي الدين الهلالي** في نهاية عام (١٩٣١م) في رحلته إلى (بنارس)، و(أعظم كره)، و(مو)، و(مبارك فور)، وكان

يترجم له، ويستفيد منه، ولعلّه في هذه الرحلة قرأ أوائل (الصحاح) على صاحب (تحفة الأحوذي) العلاَّمة عبد الرحمن المباركفوري، فأجازه إجازةً عامة في الحديث النبوي الشريف.

وسافر إلى (ديوبند) عام (١٩٣٢م)، وكان قد تخرَّج في دار العلوم لندوة العلماء، وعُرِفَ بتقدّمه في اللغة العربية مع إلمام بالحديث النبوي الشريف، يقول الشيخ الندوي وهو يذكر هذه الرحلة: «تكلَّم أخي مرةً مع الشيخ (أي: حسين أحمد المدني) في شأن ذهابي إلى (ديوبند) وإقامتي عنده، فقبله الشيخ بأريحيته المعروفة، وحفاوته النادرة، سافرتُ إلى (ديوبند) وأنا ندوي ملء الإهاب، شاب في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره بعارضه نباتٌ قليل، وفي جلدِ جسمٍ نحيل، شاب نشيط خفيف الروح مع انحراف في الصحة، له هوًى في العربية، وشغفٌ بها، استفاده من تعليم أستاذه الشيخ خليل بن محمد اليماني، وصقلته صحبة الأستاذ الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، وألقى عليه محيطُ الندوة العربي طلاوةً، يكتب في (الضياء) مجلة الندوة ـ بل الهند ـ العربية الوحيدة، وله إلمام قليل بفن الحديث اكتسبه من دروس الأستاذ حيدر حسن خان شيخ الحديث بدار العلوم لندوة العلماء، وله ولع بكتب شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية وتلميذه الأكبر العلاَّمة ابن القيم»[١].

ودرس بدار العلوم بديوبند الحديث عند شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني (ت١٣٧٧هـ)، وحضر دروسه في (صحيح البخاري) و(سنن

---

(١) شخصيات وكتب، ص٢٨ ـ ٢٩.

الترمذي)، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً، يقول الشيخ الندوي: «وكنت أشترك في درسين مهمين يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث ورئيس الأساتذة في دار العلوم بنفسه، ويواظب عليهما، درس النصف الثاني من (سنن الترمذي) ودرس النصف الثاني من (صحيح البخاري)، ولا أنسى درس الحديث، فكانت له روعة في قلبي، وكانت تغشى دارَ الحديث غاشيةٌ من الدين، وسحابةٌ من الروحانية، ولا يزال يرنّ في أذني صوتُ الشيخ العذب الرنَّان، ولحنه العربي الجميل. وكانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة ومقدار الدرس المقرَّر لم ينتهِ بعد، فكانت دروس متوالية، ويكادُ يكون النهارُ كلُّه درساً، درسٌ بعد صلاة الصبح ودرس ودرس، وكذلك درس بعد صلاة العصر وفترة بعد المغرب، ودرس بعد صلاة العشاء يستمرّ إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، وذلك في الشتاء في البرد الشديد، ولكنّ الطلبة قلَّما كانوا يملّون لفكاهة الشيخ ونوادره ودعابته»[١].

وحضر مجالس العلاَّمة **أنور شاه الكشميري**، واستفاد من الشيخ المقرئ أصغر علي في التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود الكوفي، ومن الشيخ الفقيه الأديب **إعزاز علي** في الفقه، وسمع عليه شيئاً من (شرح النقاية)، و(نور الأنوار). يقول الشيخ الندوي وهو يصف تعرّفه على الشيخ إعزاز علي وما قرأ عليه: «وكان يحضر (أي: مجلس الشيخ حسين

---

(١) المرجع السابق، ص٣١.

أحمد المدني في ديوبند) في بعض الأحيان عالم وقور، عليه مهابة الشيوخ الكبار، وروعة المعلّمين السلف، كثير السكوت، قليل الكلام، إلاَّ أنّه إذا تكلَّم تكلَّم بكلام متين فصل، وكان ممتازاً في هذا المجلس، كأنه من أشد الناس حبّاً لصاحب البيت، وأكثرهم إجلالاً له، وإنصاتاً لكلامه، يملأ قلبه من حبه، وأذنه بكلامه، ولا يكاد يملأ عينه منه، غاض الطرف من غير مرض، مطرق الرأس من غير خجل، صامتاً من غير عيٍّ، سألتُ بعضَ الإخوان عنه، فأخبرني أنه مولانا إعزاز علي. شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئاً فقبل، وسمح لي بالاشتراك في درس (شرح النقاية)، كان الشيخ مهتمّاً بهذا الدرس جدّ اهتمام، واختار عدداً من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص، وأذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درساً في (نور الأنوار) بعد صلاة العصر»[1].

ورافق العلاَّمةَ السيد سليمان النَّدْوي في سفره إلى (كرنال) و(باني بت)، و(تهانيسر) و(دهلي) عام ١٩٣٩م، وكانت رحلة علمية تذكارية، زار فيها معه المراكز العلمية والدينية، وشاهد الآثار التاريخية، وتعرَّفَ على العلماء الكبار والزعماء المعروفين، وحضر المجالس العلمية والأدبية، وخلال هذه الرحلة سمع لأول مرة عن حركة الشيخ محمد إلياس الدعوية، وأكسبته هذه الرحلة تجارب علمية وعملية نافعة كثيرة.

٨ ـ **دراساته غير المقرّرة**: بالإضافة إلى دراساته المقرّرة، توسَّع الشيخ

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠.

في المطالعة والدراسة، فمما قرأه باللغة الأردية خلال أيام طلبه الأولى: **(الفاروق)** للعلاَّمة شبلي النعماني، و**(آب حياة)** و**(نيرنك خيال)** و**(شعر مؤمن)** و**(غالب)** و**(ذوق)** و**(آتش)** و**(أمير مينائي)** لكبار شعراء الأردية، وطالع ملفّات **(الهلال)** الصحيفة الأردية لصاحبها أبي الكلام آزاد، و**(ياد أيام)** لوالده، و**(تقرير دلبذير)** للعلاَّمة محمد قاسم النانوتوي، و**(حكومت خود اختياري)** للسيد طفيل أحمد المنكلوري، وكانت له عناية بنشرة يوم الأحد لصحيفة (زميندار)، ومما درس بالأردية حوالي عام (١٩٣٦م) **(وقائع أحمدي)** أحداث حياة السيد أحمد الشهيد، و**(ضرب كليم)** و**(بال جبريل)** و**(أسرار خودي)** و**(رموز بيخودي)** و**(بيام مشرق)** و**(جاويد نامه)** و**(زبور عجم)** من دواوين إقبال الشعرية، و(مستقل المسلمين اللامع) للشيخ طفيل أحمد، ومقالات الأستاذ المودودي في **(ترجمان القرآن)**.

ومما طالع بالعربية حوالي (١٩٣٨م): **(فجر الإسلام)** و**(ضحى الإسلام)** و**(ظهر الإسلام)** و**(زعماء الإصلاح)** للدكتور أحمد أمين، و**(حاضر العالم الإسلامي)** للكاتب الأمريكي ستودارد بتعليق الأمير شكيب أرسلان، و**(مؤتمر أم القرى)** لعبد الرحمن الكواكبي، ودرس تراجم **(الصراع بين الدين والعلم)** لدريبر، و**(تاريخ أخلاق أوروبة)** لمؤلّفه ليكي، و**(سقوط الإمبراطورية الرومانية وانحلالها)** لجيبون، و**(تاريخ الفلسفة الحديثة)** لهوفدنك، و**(الصراع بين الشرق والغرب في تركية)** لخالدة أديب خانم، و**(الإسلام على مفترق الطرق)** و**(الطريق إلى مكة)** للمسلم النمساوي محمد أسد، و**(البحث عن الحقيقة)** لغاندي، و**(قصتي)** لجواهر لال نهرو.

واستفاد من الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية ـ والتي كانت تصل إلى أخيه الأكبر، أو إلى دار العلوم ندوة العلماء ـ كـ(المنار) و(الهلال) و(المقتطف) و(الزهراء) و(المجمع العلمي العربي) و(العرفان) و(الفتح)، فتعرَّف على البلاد العربية وأوضاعها، وعلمائها، وأدبائها، ومفكِّريها، واستفاد من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكّرين العرب، وفضلاء الغرب، والزعماء السياسيين، يقول وهو يصف دراساته في هذه المرحلة: «كنتُ متّصلاً بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي، أحرصُ على أن أسايره، ولا أتخلّف عنه، وكنتُ نهماً لكلّ ما تنشره المطابع، وتصدره المكتبات في مصر من غثٍّ وسمين، فقرأتُ للدكتور طه حسين، والأستاذ العقاد، والدكتور أحمد أمين، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ أحمد حسن الزيات، وقبلهم للمنفلوطي والرافعي، وكنتُ ملتزماً بمطالعة (الرسالة) و(الثقافة)الأسبوعيتين، وهما مدرستان أدبيتان تختلفان في الأسلوب والمنهج، وتتوزعان أدباء مصر الكاتبين، وحملة الأقلام الناشئين، وتعرَّفت على كتَّاب هاتين المجلتين الذين كانوا ينضمّون إلى أحد هذين اللوائين الأدبيين»[١].

٩ ـ اجتهاده في طلب العلم: كان الشيخ نهماً في القراءة والمطالعة، وبالغ الجد والاجتهاد في الطلب والدراسة، وقليل الاكتراث بالصحة وأسباب الراحة، فلحقته الأمراض، وبلغ شيخَه خليل بن محمد اليماني مرضه مرةً فكتب إليه: «أعز من نفسي ونفائسي أخي الفاضل أبا الحسن علي حفظه الله

(١) المرجع السابق، ص١٣٠ ـ ١٣١.

تعالى: سلاماً وشوقاً، وحنيناً إليه وتوقاً، من صميم الفؤاد المتقطّع بسيف البُعاد، وبعدُ: فإنَّ لكلّ عمل مدًى، ولكلّ أمر غاية ونهاية، قد تعدَّيت في عدم اكتراثك بعافيتك التي هي من نِعَمِ الله على عبده.

علي! قد ساءني نبأ أمراضك التي أهلكتك وجعلتك جليسَ بيتٍ، ورهينَ فراشٍ، وهل ذلك إلاّ لجورك على سنن الهدى وسبيل الرشاد، ضد سنّة مَن أنت ابنه وسبطه. «لأهلك عليك حقٌّ، ولنفسك عليك حقٌّ، ولربِّك عليك حقٌّ». فأنتَ ـ فديتُكَ ـ قد وفيت بحقّ مولاك، لكن تناسيتَ حقّ نفسك وأهلك، وليس ذلك بجديرٍ من دم هاشمي، لا يعتدي على نملة، ويرحم حتى قملة، فأرجو منك يا ابن المصطفى أن تشرّفني ببوفال ولو لشهر، إمَّا فضلاً منك ـ إذا رضيتَ بالفضل ـ أو أمراً ـ إن كان لي أمر ـ ولحقّ نفسي ـ إن كان لنفسي عندك حقٌّ ـ كي أقوم بواجبي حتى يلبسك اللهُ ثوبَ العافيةِ، فإنَّ مناخَ هذه البلدة في هذه الأيام لا يقلّ نزهةً من (نيني تال) و(مسوري)[1].

كبار شيوخه:

أخذ الشيخ العلوم والآداب عن عدد كبير من الشيوخ والعلماء في دار العلوم لندوة العلماء، وقبل الالتحاق بها، وبعد التخرّج منها، وأقتصر هنا على تراجم شيوخه، الذين بقيت آثارهم عليه طول حياته، وهم العلاَّمة الشيخ خليل بن محمد اليماني الأنصاري، والدكتور تقي الدين الهلالي، والعلاَّمة

(١) رسائل الأعلام، ص١١ ـ ١٢.

المحدّث حيدر حسن خان الطونكي، والشيخ أحمد علي اللاهوري، وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني.

١ ـ **الشيخ خليل اليماني**: هو الشيخ الكبير أديب العربية وعلاَّمتها خليل ابن محمد بن الحسين[1] الأنصاري اليماني، ولد ببوفال عام أربعة وثلاثمئة وألف، ودرس على والده وشيوخ ندوة العلماء، وكان يملك ذوقاً فطريّاً، وسليقةً فطرية للغة والأدب، وكفاءة نادرة منقطعة النظير، للتدريس، أقام في لكنو من عام (١٩٢٤ إلى ١٩٣٣م) مدرّساً للغة العربية في دار العلوم لندوة العلماء، وجامعة لكنو، وفي منزله، وكان محبَّباً مكرَّماً لدى الطلاب وكبار الأساتذة في الجامعة بفضل ما كان يتّصف به من خُلُق عربي نبيل، وحلاوة الحديث، وخفّة الروح، والذكاء والفطنة، وحضور البديهة، والبساطة في العيش وعدم التكلّف، وما إلى ذلك من أخلاق وصفات كريمة، وكان حضوره في المحافل والمجالس يزيدها رونقاً وبهاءً في كثير من المناسبات، ثم انتقل إلى كراتشي حيث انتقل إلى رحمة الله في يوم الجمعة ٢٦ أغسطس عام (١٩٦٦م).

---

(١) وجدُّ الشيخ خليل: هو المحدِّث الشهير العلاَّمة القاضي حسين بن محسن الأنصاري اليماني، ولد ببلدة الحُدَيْدَة في اليمن عام خمسة وأربعين ومئتين وألف، أتقن الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وأخذ الحديث عن حسن بن عبد الباري الأهدل، وأحمد بن محمد الشوكاني، ومحمد بن ناصر الحازمي وجماعة، وتوطن ببوفال، فأخذ عنه جماعة من أعيان الهند، توفي ببوفال عام سبعة وعشرين وثلاثمئة وألف.

كان الشيخ اليماني من نوادر المعلّمين الذين يطبعون تلاميذهم النجباء بطابعهم، وينقلون إليهم التذوُّق بالنثر البليغ والشعر الرقيق، واستطعامهما والتلذُّذ بهما، وكان رقيقَ الذوقِ، وأبيَّ النفس، كريمَ الأخلاقِ، له كعبٌ عالٍ في آداب اللغة العربية وعلوم البلاغة، وملكة راسخة في تعليم اللغة العربية وتسهيلها وتحبيبها إلى النفوس، وكان له منهج مبتكر خاص في تدريسها، يتميَّز بتمكين الطلاب منها قراءةً ونطقاً، وكتابةً وتذوقاً، لمحاسنها الشعرية والنثرية.

وكان الشيخ الندوي دائم الثناء عليه، سمعته مراراً يشيد بمنهجه في تدريس اللغة العربية، يقول في (مسيرة الحياة): «كانت له قدرة منقطعة النظير على نقل ذوقه وبصره إلى الطلاب، وتسريبه إلى مجاريهم وعروقهم، ونفخ الروح فيما يدرسه من الكتب، وإنشاء الذوق العلمي الصحيح، ومسايرة الكاتب في لغته أسلوبه وذوقه، وهذه ميزةٌ لا توجَدُ إلاَّ في واحدٍ من بين ألف مدرِّس ومتخصِّص، هذه كفاءة موهوبة، وليست مكتسبة. إنَّ ما شاهدته في الشيخ خليل من كفاءةِ نقلِ ذوق اللغة العربية والأدب العربي السليم لم أشاهدها في الهند (التي قد حرمت منذ قرون الذوق العربي الصحيح ومنهج التعليم الصائب)، بل قلَّما يوجدُ لها نظير في دوائر العلم والأدب في البلدان العربية[1].

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٨٨ ـ ٩١.

ويقول في مكان آخر: درّس أستاذنا الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين بن محسن اليماني (سورة زمر) بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عندما بدأت دراسة اللغة العربية عليه، وقد أودع الله عزَّ وجلّ فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي وخاصة للشعر العربي قلّما يوجد له نظير، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية شهد لها لسان النبوة بالإيمان والخير، و(الإيمان يمان)، وقد ورث جمال الطبيعة العجمية من أخواله وحرقة القلب العربية من أعمامه، فكان كلّما تلا القرآن بكى وأبكى المستمعين، وحينما كان ينشد القصائد كان يصوّر سوق عكاظ تصويراً حيّاً، وكان يتميّز بتذوقه علم التوحيد، ودرس هذا الموضوع فأحسن وأجاد، وفتح القلب للتوحيد، ولم أزل أحتفظ بتلك النعمة منذ ذلك الحين، وأشكر الله تعالى على هذه النعمة، وقد نقشت آية ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] في القلب، وإنَّ الحيل والدعاوى التي تقدّمها فلسفةُ نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] لا تزيدُ عن نسج العنكبوت(١).

٢ ـ **الدكتور تقي الدين الهلالي المغربي**: هو علاّمة العربية الكبير الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي المغربي، وكنيته أبو شكيب، حيث سمَّى أول ولدٍ له على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان، ولد في قرية (الفرخ) من بادية (سجلماسة) في المغرب عام أحد عشر وثلاثمئة وألف، قرأ على والده، وحفظ القرآن الكريم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم سافر إلى

---

(١) الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٩٥.

الجزائر عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمئة وألف، وتعلَّم في مدرسة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي سبعَ سنين، ورجعَ إلى المغرب عام أربعين وثلاثمئة وألف، وحضر بعض الدروس على علماء فاس من أمثال الشيخ الفاطمي الشراوي، والشيخ محمد العربي العلوي، والشيخ أحمد سوكيرج، وحصل على شهادة من جامع القرويين، ثم سافر إلى القاهرة، والتقى بالعلاَّمة السيد محمد رشيد رضا، وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، ثم خرج إلى الحج، وتوجَّه إلى الهند، وأخذ الحديثَ عن الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب (تحفة الأحوذي)، وأقام في الهند ثلاث سنوات، وتوجَّه من الهند إلى الزبير في العراق عام اثنين وأربعين وثلاثمئة وألف، حيث التقى بالعالم الموريتاني الشيخ محمد الأمين الشنقيطي مؤسس مدرسة النجاة الأهلية بالزبير، وتزوَّجَ ابنته، وأقام بها ثلاث سنوات، ومن الزبير سافر إلى مصر، ثم إلى المملكة العربية السعودية، وأقام في ضيافة الملك عبد العزيز آل سعود بضعة أشهر، ثم عُيِّن مراقباً للتدريس في المسجد النبوي، وبعد سنتين نُقل إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي بمكة المكرمة لمدة سنة، ثم جاءته رسائل من إندونيسية ومن الهند، تطلبه للتدريس في مدارسها، فاستجاب لدعوة العلاَّمة السيد سليمان الندوي في دار العلوم لندوة العلماء بالهند عام ثلاثين وتسعمئة وألف، وصار رئيس أساتذة الأدب في ندوة العلماء، وبقي بها ثلاث سنوات تعلَّم فيها الإنكليزية، وأصدر باقتراح من السيد سليمان الندوي وبمساعدة الطلبة مسعود عالم، وأبي الحسن علي، ومحمد ناظم الندويين مجلة (الضياء) عام اثنين وثلاثين وتسعمئة وألف، ثم عاد إلى الزبير حيث عمل

مدرِّساً بمدرسة النجاة الأهلية التي أسَّسها الشيخ الشنقيطي والد زوجته، وبعد ثلاث سنوات سافر إلى مدينة جنيف في سويسرة، ونزل عند الأمير شكيب أرسلان، الذي كتب له توصيةً إلى أحد أصدقائه في وزارة الخارجية الألمانية في برلين، وعُيِّن محاضراً في جامعة بون، وبدأ يتعلَّم اللغة الألمانية، حيث حصَّل دبلومها بعد عام، وأتمَّ الدكتوراه عام أربعين وتسعمئة وألف، وقام بالتدريس في المغرب والعراق، توفي في منزله بالدار البيضاء بالمغرب يوم الإثنين خامس عشري شوال عام سبعة وأربعمئة وألف.

كان الدكتور الهلالي معروفاً لدى الأوساط العلمية والأدبية في العالم، واحتلَّ مكانةً عظيمة لدى العلماء في الهند، يقول الشيخ الندوي عنه: «إنَّ قدوم الهلالي إلى الهند من أهم الأحداث التي صنعت تاريخاً مجيداً، فهو من أساتذة اللغة العربية الذين يحتجّ برأيهم، وقد كان الحكم بين رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان في قضايا اللغة العربية وتعبيراتها كما جاء في كتاب شكيب أرسلان (السيد رشيد رضا وإخاء أربعين عاماً). ويقول عنه: «والواقع إنَّ العمل الذي بدأ به الشيخ خليل من نشر الطرق الصحيحة لتعليم العربية وإنشاء ذوقها وملكتها، قد بلغ كماله على يد الأستاذ الهلالي، وقد استفدتُ منه كثيراً في غير نظام، فكنتُ أحضر إليه يومياً، وانتفعتُ بصحبته ومجالسته، ولقد قرأت عليه (ديوان النابغة) بنظام، وقيدت فوائده ونكته، وكان يعطف عليّ بصفة خاصة لأجل العلاقة بأخي الأكبر والشيخ خليل»[1].

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٩٨، طبع دار القلم ـ دمشق.

وللدكتور تقي الدين الهلالي رسائل إليه تدلُّ على قوة العلاقة بينهما، ومدى استفادة الشيخ الندوي منه، كتب إليه مرةً:

«حضرة الأخ العزيز، الشاب النجيب، الأستاذ أبي الحسن علي بن السيد عبد الحي رحمه الله ورعاه وأعاد بركاته على آله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يشمل الأخ الأبرّ والأجلّ الأستاذ السيد عبد العلي والوالدة والآل جميعاً، أما بعد: فقد ورد عليّ كتابك الكريم بعبارة رائقة، وإشارة فائقة، وقرأتُ قبل ذلك ما نشرتَه في (الفتح)[1] وسرَّني تقدّمك في علم الأدب، واستمرارك على الدرس والطلب، لا زال النجاحُ حليفَك، والتوفيقُ أليفَك، ولم ألبث بعد ورود كتابك أن سافرتُ إلى بغداد حيث أنا الآن، وكان ذلك منذ نحو عشرين يوماً، قضيتُها في شغلٍ شاغلٍ، وفكرٍ ذاهلٍ، والآن وفَّق الله إلى جوابك، ولكني فقدتُ كتابَك، وبحثتُ عنه فلم أجده، فسيكون جوابي على حسب ما بقي في ذاكرتي من مضمونه. أشكرك على ما أثنيت به عليّ، واعترفت به من الفائدة التي أجراها الله على يدي في بلدكم، فله الحمد والمنّة»[2].

وكتب إليه الشيخ الهلالي يذكِّره بأهمية اللغة العربية: «وبسبب جهل اللغة العربية في الهند نشأت القاديانية وفرية المدَّعين لاتّباع القرآن، وضلالة

---

(١) صحيفة (الفتح) الأسبوعية الغرّاء التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب من القاهرة.

(٢) رسائل الأعلام، ص١٦ ـ ١٧.

البريلوية أتباع مصطفى البريلوي وغيرها، ولذلك صبرتُ على البقاء معكم بضع سنين لتعليم اللغة العربية تعليماً صحيحاً مع ما أصابني من الشدائد، وكنتُ عازماً على أن أطيل المكثَ عندكم أكثر من ذلك، لولا أنَّ الحمى النافض (ملاريا) أصابتني في مدة قصيرة خمس عشرة مرة، ولكنني تركت - والحمد لله - تلامذة نجباء يخلفونني»[(١)].

٣ - **الشيخ حيدر حسن خان الطونكي**: هو الشيخ العلاَّمة المحدِّث الفقيه حيدر حسن بن أحمد حسن بن غلام حسين الياغستاني الأفغاني الطونكي، ولد حوالي عام واحد وثمانين ومئتين وألف، ونشأ ببلدة (طونك)، وقرأ العلم على إخوته محمد حسن، ومحمود حسن، وعلي محمد حسن خان، ومولانا عبد الكريم ببلدته، ثم سافر إلى لاهور، ولازم الشيخ غلام أحمد النعماني اللاهوري مدةً من الدهر، وأخذ عنه في المدرسة النعمانية، ثم أخذ الحديث عن الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني، وسمع عليه الأصول الستة، وأجازه إجازة عامة، ثم أخذ عن الشيخ المحدِّث نذير حسين الدهلوي واستجازه. ولي التدريس في المدرسة الناصرية، ثم ولي التدريس في دار العلوم لندوة العلماء بلكنو في ذي الحجة عام تسعة وثلاثين وثلاثمئة وألف، ومكث فيها نحو سبعة عشر عاماً يدرِّس كتب الصحاح، ويخدم الحديث الشريف تدريساً وتحقيقاً، وكتابةً وتعليقاً، وتربيةً وتخريجاً، عاكفاً على الدرس والإفادة، والبحث والمطالعة، منقطعاً إلى ذلك بقلبه وقالبه، وولي

---

(١) رسائل الأعلام، ص٢٨ - ٢٩.

نظارة دار العلوم في ربيع الأول عام واحد وخمسين وثلاثمئة وألف، ثم عاد إلى مسقط رأسه عام ثمانية وخمسين وثلاثمئة وألف، وتوفي في الخامس عشر من جمادى الأولى عام واحد وتسين وثلاثمئة وألف، ودُفن في (طونك)[1].

لازمه الشيخ الندوي، وأقام معه في غرفته، فشاهده في أيامه ولياله، مشتغلاً بأوراده وقيام ليله، والدرس والمطالعة، يقول الشيخ الندوي: «انخرطتُ في سلك الطلاب الندويين لدروس الحديث الشريف التي كان يلقيها شيخ الحديث العلاَّمة الشيخ حيدر حسن خان الطونكي بدار العلوم لندوة العلماء، وقرأت على الشيخ (صحيحي البخاري ومسلم)، و(سنن أبي داود)، و(سنن الترمذي) حرفاً حرفاً، وقرأتُ عليه شيئاً من (تفسير البيضاوي) أيضاً»[2].

ويقول الشيخ: «كان من عادته أنه يستيقظ في آخر الليل، ويطيل القيام، ويجهر بالقراءة في نوافله، وكان في صوته رقّة وخشوع، ويطيل السجود، فيبكي بكاءً [شديداً]، ثم يجلس يذكر الله طويلاً يخفتُ به، فإذا أُذِّنَ للفجر، خرج وصلَّى خلف الشيخ حفيظ الله الأثري، الذي كان متشدّداً في العمل بالحديث، وكان يصلّي الفجر في الغلس، فلما أحيل الشيخ حفيظ الله إلى المعاش بدأ الطونكي يصلّي بالناس، وكان في دروسه يقرّر الإسفار بالفجر

---

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر: ٨/ ١٢٥ ـ ١٢٨؛ ونفحات الهند واليمن بأسانيد الشيخ أبي الحسن، ص٤٣ ـ ٤٤.
(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ٩٤، طبع دار القلم ـ دمشق.

على مذهب أبي حنيفة، ولكنّه كان يصلّي بالغلس ويطيل القراءة، وينتهي من الصلاة مسفراً، وكان يقول: هذا هو الراجح والأقرب إلى الصواب، وبه يجمع بين الحديثين»[1].

وكان منهجه في تدريس كتب الحديث منهج المحدّثين المحقّقين، فيراجع كتب الرجال، وشروح الحديث، ويعطي للطلاب الحرية في أن يناقشوه، وكان متّبعاً لمنهج شيوخ اليمن في التحديث، وذلك بتأثير من شيخه العلاّمة حسين بن محسن الأنصاري، وكان يكثر من الرجوع إلى مؤلّفات الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت١١٨٢هـ)، والسيد محمد بن إبراهيم ابن الوزير (ت١١٤٠هـ)، والعلاَّمة القاضي الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، ولم يكن يرجع إلاَّ إلى المحقّقين من علماء الحنفية المبرزين في الحديث؛ كالإمام الطحاوي، والحافظ الزيلعي، والعلاَّمة ابن التركماني، والعلاّمة ابن همام. يقول الشيخ الندوي: «كان من بركة دروسه توثيقُ صلةِ الطالب بعلم الحديث، والتمكين من طبقات المحدّثين، والإلمام بأسماء الرجال، والاضطلاع من أصول الحديث»[2].

٤ ـ **الشيخ أحمد علي اللاهوري**: كان العلاَّمة الشيخ أحمد علي اللاهوري (ت١٣٨١هـ) من كبار العلماء الربّانيين، والمفسّرين لكتاب الله العزيز، والمضطلعين من أسرار الدين، أخذ التفسير عن العلاَّمة عبيد الله

(١) براني جراغ: ١/ ١٩١.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٩٣.

السندي، الذي اشتهر بمنهجه الخاص في بيان معاني القرآن الكريم، وكان يسمّيه الاعتبار والتأويل، كانت للشيخ أحمد علي اللاهوري مقرّرات خاصة للمتخرّجين في المدارس والجامعات الإسلامية، يقضون عنده شهرين ونصف شهر، ويأخذون عنه تفسيره، وقصده الطلبة من أقصى مدن الهند، وهكذا ظلَّ يخدم هذا العلم نحو نصف قرن من الزمان.

وكان من أهم ما أخذه الطلبة عنه تصحيح العقيدة، وإصلاح العادات والتقاليد، وتوثيق الصلة بكتاب الله تعالى، وإليه يرجع الفضل في نشر دروس القرآن الكريم في الهند، ولعلَّ ذلك كان بركة من بركات إخلاصه وتقواه، وزهده وربّانيته، وكانت لتفسيره ثلاث ركائز هامة:

١ ـ شرح عقيدة التوحيد نزيهةً عن كلِّ نوع من الشرك والعادات والبدع والمحدثات.

٢ ـ ذكر قصص أولياء الله الصالحين، وإلقاء محبتهم في القلوب.

٣ ـ ونفخ روح الجهاد، والبغض في الله، وعداء الإنكليز في النفوس.

قرأ عليه تفسير القرآن الكريم ودروساً من (حجة الله البالغة) للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، وأُعجب بمنهجه إعجاباً بالغاً، وتجاوب معه في الفكر والمبادئ والقيم، وفاز في الاختبار النهائي بامتياز لفت أنظار العلماء والممتحنين الأفاضل، وأهم ما أُعجب به الشيخ الندوي من جوانب سيرة الشيخ أحمد علي هو ورعه وتقواه، وصلاحه وزهده، وقوته الروحيّة، وعفّته وعنايته الزائدة بأكل الحلال، واجتناب الشبهات، وكراهية المنكرات.

٥ ـ **الشيخ حسين أحمد المدني**: الشيخ حسين أحمد المدني الملقَّب بشيخ الإسلام، ولد في التاسع عشر من شوال عام (١٢٩٦هـ)، وتلقَّى مبادئ العلوم في (تانده) من مديرية فيض آباد الهند وطن آبائه، وسافر عام (١٣٠٩هـ) إلى دار العلوم بديوبند، وأخذ الحديث عن الشيخ محمود حسن الديوبندي، الذي لازمه مدة طويلة، وكذلك تلقَّى من الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وأجازه الشيخ حسب الله المكي الشافعي، والشيخ عبد الجليل برادة المدني، والشيخ عثمان عبد السلام الداغستاني، والسيد أحمد البرزنجي، وأخذ الطريقة عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. وسافر إلى مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، بصحبة والده أيام الحرب العالمية فأسره ولاة الأمر ـ الشريف حسين بعد خروجهم على الدولة العثمانية ـ وتمَّ ترحيله بصحبة شيخه محمود حسن الديوبندي إلى مصر ثم مالطة أسرى لمدة ثلاث سنين وشهرين، وفي عام (١٣٣٨هـ) أفرج عنه، ثم عاد إلى الهند، وقام بتدريس الحديث وإلقاء المحاضرات والخطب الحماسية ضد الاستعمار الإنكليزي، فتمَّ القبضُ عليه مرةً أخرى في جمادى الآخرة (١٣٦١هـ)، واعتقل لمدة سنتين وعدة أشهر في سجن مرادآباد، وسجن إلـه آباد، إلى أن أُطلق سراحُه في السادس من شهر رمضان (١٣٦٣هـ)، واستمرَّ في جهاده بالتعليم ومناهضة الاستعمار إلى أن وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى عام ١٣٧٧هـ). من مؤلَّفاته: (نقش حيات) في مجلدين، وكتاب (الشهاب الثاقب على المسترق الكاذب).

وقد مرَّ ذكر زيارة الشيخ الندوي لشيخ الإسلام حسين أحمد المدني في ديوبند التي نفعته إلى جانب الحديث في نواحٍ كثيرة، يقول وهو يذكر هذه

الرحلة: «أقام الطالب الشاب في منزل الشيخ، فوجده مضيفاً عامراً بالضيوف، من كل أصناف الناس وطبقاتهم: من علماء وسياسيين ومتصوّفين ومتطوّعين يذهبون إلى السجون، وجد بيته زاوية دينية، ومدرسة سياسية، ونادياً علميّاً، تأتيه الصحف من جميع أنحاء الهند، ويتهافت عليها الطلبة الذين قد تأثَّروا بالشيخ وفكرته السياسية تهافت الظمآن على الماء، لأنَّهم لا يجدون الصحفَ في غير هذا المكان، ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث، وقد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ، وهكذا يتلقَّون ثقافةً سياسية، ويخرجون رجالاً أحراراً ثائرين، ووجدت مائدةً واسعة يجلسُ حولها غدواً وعشياً عشرةٌ أو خمسةَ عشر أو عشرون رجلاً، ووجدت قلباً أوسع من المائدة، قلباً لا يملّ من كثرة الضيوف وكثرة الوفود. هنالك تعارفت بالسياسي النابغ مولانا محمد سجَّاد البهاري نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار... وهنا تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء، وتعارفت ببعض أساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيته»[1].

ويقول الشيخ وهو يصف استفادته منه: «درستُ مدة إقامتي في دار العلوم كتاباً جليلاً، وطالعتُ صحيفة ذات فصول وأبواب منها الدين والأخلاق، ومنها السياسة، صحيفة حية ناطقة، صحيفة عنوانها الحسن والحمد»[2].

ويقول الشيخ الندوي وهو يصف صحبته للشيخ في السفر: «واتفق لي

---

(١) شخصيات وكتب، ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢.

بعد ذلك أن صحبته في السفر، فانكشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الإنسانية، وقرأتُ صفحةً جديدةً من صفحات حياته ـ أطالها الله ـ والإنسان في السفر غيره في الحضر، ولكني رأيته عينَ ما رأيتُه في بيته بل وأجمل، نزاهة أخلاق، وعفة بطن، وعلوّ همة، وشهامة نفس، وصبر لا يعرف السآمة والملل، وهمةً لا تعرف الفتور والكسل، سهرٌ في طاعةٍ، ويقظةٌ في شغلٍ، ونومةٌ في اعتدال، وأكلةٌ في اقتصادٍ، وحياةٌ كلُّها جدٌّ واجتهادٌ، وتضحيةٌ وجهادٌ»[1].

ويقول وهو يلخِّص النواحي المختلفة من حياة الشيخ المدني: «واعتزل الشيخ السياسة العلمية بعد استقلال البلاد، والتقسيم، وعكف على الدرس والإفادة، والدعوة إلى الله، وتربية النفوس، لا يتصل بالحكومة ورجالها، حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وثلاثمئة وألف برتبة فخرية، فرفض ذلك قائلاً: إنه لا ينسجم مع طريقة أسلافه، وبقي في ديوبند يدرس الحديث الشريف، ويتجوّل في الهند، يدعو المسلمين إلى التمسّك بالدين، واتّباع الشريعة الغرّاء، واقتفاء السنن النبوية، وإصلاح الحال، والإكثار من ذكر الله، وقد عطف الله عليه القلوب والنفوس، وغرس حبّه في أهل الخير، فأقبلوا عليه زرافات ووحداناً، وتقاطر عليه الناس من كلّ صوب، وانهالت عليه الدعوات وهو يتقبّلها بقلب طيب، ويتحمّل في سبيلها المشاقّ، حتى اعتراه مرض القلب وضغط الدم، فانقطع عن الأسفار

---

(١) المرجع السابق نفسه.

مدة قليلة، ولزم بيته، وهو ملتزم لأوراده، جاد في التربية والإرشاد، وإكرام الضيوف ولقاء الزوّار، قد تغلّب عليه الخشوع والرقّة والابتهال إلى الله تعالى، والتهيّؤ للقائه»[1].

تزكية النفس:

يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد جاء تأكيد هذا المعنى في آيات عديدة، فالتزكيةُ ركنٌ من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها، وتعني تزكية النفوس تهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل.

وعرفت التزكية في أواخر القرن الثاني الهجري بالتصوّف، وبرز تياراً سلوكياً وطريقة تبتني على أسس أخلاقية واجتماعية، وتعتمد فكرته على تصفية القلب، وتزكية النفس، والتعلّق بالمعبود، والإحسان، ومحوره تربية الروح ونبذ حطام الدنيا والاستغراق في الاعتبارات الروحية، وقد نشط في إطار الإسلام وتطور، حتى اتصل بآراء فلسفية، فصار للتصوّف مناهج مختلفة، منها ما امتزج بالبدع والمحدثات من الأمور، ومنها ما بقي على روح الإحسان والزهد والتزكية.

وكان من أعلام الطريقة الصالحة في الهند في مفتتح القرن الرابع عشر

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢ ـ ٣٣.

الهجري الإمام الربّاني المحدّث الكبير الشيخ **أحمد الكنكوهي** أحد أعلام الحنفية وأئمتهم في الفقه والتصوف، قرأ على كبار مشايخ عصره، حتى برع، وفاق أقرانه في المنقول والمعقول، واستفاد منه خلق كثير، وهو أحد الذين بايعوا الشيخ **إمداد الله المهاجر المكي** على الطريقة، وكان زميلاً للشيخ **محمد قاسم النانوتوي**، وله مؤلَّفات عديدة؛ منها: مجموع فتاواه في عدة مجلدات، توفي عام (١٣٢٣هـ)، وكان له أتباع وخلفاء في الطريقة، من أكبرهم الشيخ **عبد الرحيم الرائيبوري**، الذي خلفه الشيخ عبد القادر الرائبوري.

ورث الشيخ الندوي اتجاه التصوّف الصحيح الذي يُعنى بالتزكية والإحسان عن آبائه، وحضر منذ صغره مجالس العلماء الربّانيين، والصلحاء المتّقين، وكان من بينهم شيخه في التفسير العلاّمة **أحمد علي اللاهوري**، وشيخه المرشد **غلام محمد**، وشيخ الإسلام **حسين أحمد المدني**، والمحدّث الكبير **محمد زكريا الكاندهلوي**، حتى التقى بالشيخ الكبير عبد القادر الرائيبوري، فانخرط في سلك تعليمه وتربيته.

كان الشيخ **عبد القادر الرائيبوري** (ت١٣٨٢هـ) من كبار المربّين والعلماء الربّانيين في هذا العصر، المطّلعين البصيرين من أصحاب الفراسة والذكاء والانفتاح الذهني، الذين يجمعون بين العلم والعمل، والتربية والتزكية، وهم من أولئك القائدين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون - بل قادتهم - في كل زمان للقيادة والتوجيه، والاستفادة من تجاربهم وطيب أنفاسهم.

قضى الشيخ الرائيبوري أكبر شطر من حياته في بيئات متنوّعة، وطبقات مختلفة من الناس، قام خلالها بدراسة أوضاع الهند الإسلامية دراسةً عميقةً، انتهت به إلى أنَّ مردَّ الفساد في مختلف نواحي الحياة هو عدمُ الإخلاص، وسوءُ الأخلاق، وأنَّ أكبر واجب ومهمة في هذا العصر هو إحياء الإخلاص والأخلاق وتجديدهما، وأكبر وسيلة للحصول عليهما هو الحب، والطريق إلى الحب: الذكر والصحبة وعِشرة عباد الله الصالحين والعارفين.

وكان واقعياً في طبيعته يحبّ العمل والاجتهاد، ويراعي التطوّرات وتغيّرات العصر، وكان بعيداً عن الإفراط والتفريط، وكان الاهتمام بالقضايا الإسلامية وهمُّ الإسلام والتفكير في مسائل المسلمين والقلق عليهم طبيعتَه الثانية، يقول الشيخ الندوي: «وقد رأينا في اطّلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه وبصيرته السياسية وفراسته الإيمانية وجمعه بين العبادة والإنابة، والجانب العملي المشرق نموذجاً طيباً للزوايا السنوسية، وذكَّرتنا أخلاقُه الفاضلةُ وعطفُه الأبويُّ وتواضعُه وحفاوتُه وضيافتُه بأخلاقِ السلف الصالحين، الذين كانوا يقتدون بأسوة صاحب الخلق العظيم ﷺ»[١].

انجذبَ العلماء والصلحاء وعامة الناس إليه واستفادوا منه، يقول الشيخ الندوي وهو يصف رحلته الأولى إلى الشيخ: «في أواخر ذي القعدة عام (١٣٥٨هـ) سافرنا ـ ونحن ثلاثة أصدقاء زملاء ـ في رحلة استطلاعية رائدة إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥ـ٣٦.

المراكز الدينية والتربوية في الهند؛ لنستفيد من تجاربها ومناهج عملها، ووصلنا إلى (سهارنفور)، وتوجَّهنا منها إلى (رائيبور)، مشينا خمسة أميال على الأقدام حتى وصلنا إلى زاوية الشيخ عبد القادر الرائيبوري، فلمَّا وصلنا إليه رحَّب بنا ترحيباً حاراً، واحتفى بنا ـ من دون سابق معرفة ـ حفاوةً بالغة، كأنَّه كان منّا على ميعاد. . . وقد استرعى انتباهنا ما كان يخيم على هذه القرية النائية من الهدوء، كأن غاشيةً من السكينة تغشى أهلها، فينسى الناس الزائرون همومهم وأحزانهم، أما في آخر الليل فلا تسمع إلا صوت الذكر وتلاوة القرآن، ولا ترى إلا راكعاً أو ساجداً»[1].

استفاد الشيخ الندوي من صحبته ومجالسه، حتى أجازه الشيخ في الطريقة، وأصبح أكبر خلفائه، وأحبّ الناس إليه، يقول الشيخ الندوي، وهو يذكر جوانب استفادته منه: «لم أكن أدرك المدارج الروحية الباطنية في ذلك الوقت ولا أدركها الآن، إلاّ أنَّ مزايا الشيخ الثلاث التي أثَّرت فيّ؛ هي:

إحداها: تواضعه: وما يسمّيه علماء النفس والكتّاب العصريون بإنكار الذات، الذي لم أرَ له نظيراً ولا أعلم له مثيلاً، وفوق كلّ ذي علمٍ عليم.

والثانية: سعة أفقه، ورحابة صدره، وواقعيته التي لم أشاهدها في كبار العاملين في مجالات الحياة، والعلماء المحنّكين والقادة السياسيين الذين جرّبوا الحياة حلوها ومرّها، ثم ساعدتني طبيعتي الخاصة ودراستي المتنوّعة

---

(١) المرجع السابق نفسه.

التي نشأت فيها ـ فقد تربَّيتُ تربيةً عقليةً فكريةً عاطفيةً ـ على تقدير هذه المزايا التي خصَّ الله الشيخ بها، فلم يكن لمثلي أن يتجاوب مع هذه الخصائص، ويجد مكانه في تلاميذه ومقدّري فضله، لولا هذه السعة في التفكير والرحابة في الصدر، والاتّصال بالعصر الذي يعيش فيه علماً وتفكيراً وشعوراً وتألّماً، وهو الذي حثّني على إتمام سلسلة (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، وكان يحرّضني دائماً على ذلك، وعلى تأليف الكتب المفيدة، والاشتغال بالقضايا الإسلامية، ونشر الثقافة، والقيام بالدعوة.

والميزة الثالثة: **العطف عليّ**، العطف الذي لا أستطيع أن أشبّهه إلا بعطف الأم وحنانها»[1].

* * *

(١) المرجع السابق، ص٤٧ ـ ٤٨.

الفصل الثاني

الرجال الذين أثَّروا في تكوينه العلمي والفكري

وتأثَّر الشيخ الندوي بكثيرٍ من الأئمة العلماء السابقين؛ منهم: الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، والشيخ أحمد السرهندي (ت١٠٣٤هـ)، والإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ) وجدّه الأكبر السيد أحمد بن عرفان الشهيد، ومن المعاصرين له العالم الداعية محمد إلياس الكاندهلوي، والإمام الشهيد حسن البنا، وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، رحمهم الله تعالى، يقول الأستاذ أحمد الشرباصي في ترجمته: «ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثّر بهم، فأجابني بأنّهم: الإمام أحمد بن حنبل صاحب الموقف المعروف في المحنة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ أحمد السرهندي (من سرهند، بلد في البنجاب) المتوفى عام (١٠٣٤هـ)، صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع، والمجدّد للملّة، والشيخ ولي الله الدهلوي المتوفّى عام (١١٧٦هـ) الباحث الإسلامي العظيم صاحب كتاب (حجة الله البالغة)، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد مؤسس أول دولة شرعية في الهند في القرن الثالث عشر الهجري، وقد استمرَّت هذه الدولة عدة شهور، ثم ثار عليهم

الإنكليز بمؤامراتهم، فأخذوا عليها الطريق»[1].

وأذكر فيما يلي تراجم قصيرة لهؤلاء السابقين والمعاصرين له مع الإشادة بالجوانب التي تأثّر فيها بهم:

١ ـ الإمام أحمد بن حنبل:

شيخ الإسلام وسيد المسلمين الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ولد عام أربعة وستين ومئة، وسمع هُشيماً، وابن عُيينة، ووكيع بن الجرّاح، ويحيى بن سعيد القطّان، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن أبي زائدة وطبقتهم، وروى عنه: البخاريُّ ومسلم، وأبو داود، وخلقٌ عظيم. توفي عام واحد وأربعين ومئتين، وكانت نشأته فيها آثارُ النبوغ والرُّشدِ، حتى قال بعضهم: «أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدّبين على أن يتأدّبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظروا كيف؟ وجعل يَعجبُ من أدبه وحسنِ طريقته.

قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبا زُرْعة الرازي يقول: كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته، فأخذتُ عليه الأبواب».

وقال إبراهيم الحربي: رأيتُ أحمد كأنَّ اللهَ جمعَ له علمَ الأوّلين والآخرين.

---

(١) من تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، ص٣٤، ط. دار القلم بدمشق.

وقال أبو عبيد: ما رأيتُ رجلاً أعلمَ بالسنّةِ من أحمد.

وكان الشافعي معجباً به حتى قال: خرجتُ من بغداد، وما خلَّفتُ بها أفقهَ وأتقى من ابن حنبل.

ومحنته معروفة، خرج منها خروجَ السيفِ من الجلاءِ، والبدرِ من الظلماءِ، قال بعض معاصريه: «أُدخل الكيرَ فخرج ذهباً أحمر»، ولم يزل بعد ذلك اليوم في صعود واعتلاء، حتى تواضعتِ[1] القلوبُ على حُبِّه، وأصبح حبُّه شعارَ أهل السنّة وأهل الصلاح، وقال قتيبة بن سعيد: إذا رأيتَ الرجلَ يحبُّ أحمد بن حنبل فاعلم أنَّه صاحبُ سنّةٍ.

يقول الشيخ الندوي: وليس سرُّ عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام، وانتصاره لها ـ وفضلُه في ذلك لا يُنكر ـ ولكن مأثرته الكبرى التي أكسبته منصبَ التجديدَ، هو أنَّه وقف سدّاً منيعاً في اتّجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفي المتهوّر، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى، وعن النبوة المحمّدية، وخضعت هذه الأمة للفلسفات، وأصبحت عُرضةً للآراء والقياسات، وانتصرت الحكومةُ على الشعب، والسياسةُ على الدين انتصاراً مؤبّداً، وسُلبت حريةُ الرأي والعقيدة.

ولا شك أنها رزيةٌ جليلةٌ، وفتنةٌ عظيمة في الإسلام، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهي في شبابها وأوجها، وحفظ هذا الدين من أن يعبثَ به

---

(١) اتفقت واجتمعت.

العابثون، وتتحكَّمَ فيه السلطة والأهواء، وحفظ هذه الأمة من أن تكون في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم، يفرضون عليها العقائد فرضَ الجبايات، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم والبقر، وردّ إلى العقيدة الإسلامية كرامتها وأصالتها، وإلى الأمة حريتها وشخصيّتها، فاستحقَّ بذلك تقدير الإنسانية وثناء المسلمين، واعترافَ الأجيال القادمة، وإجلالَ التاريخ وإكبارَه، وكان من المجدِّدين الكبار في الإسلام»[1].

٢ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية:

يعتبر شيخُ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) أحد العلماء المحقّقين المصلحين، والدعاة المجدِّدين، الذين أفنوا أعمارهم في العلم والتعليم، والجهاد والإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخذَ الفقه والأصول عن والده، وسمع عن خلق كثيرين، وعُني بالحديث، وسمع الكتب الستة والمسند مرّات، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من سائر العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، وردَّ على رؤسائهم وكبرائهم، وتأهَّلَ للفتوى والتدريس، وله دون العشرين سنة، وتضلَّع في علم الحديث وحفظه، ومن تصنيفاته: (درء تعارض العقل والنقل)، و(الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، و(رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، و(الصارم المسلول على

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ٢١٧ ـ ٢١٨، ط. دار القلم بدمشق.

شاتم الرسول)، وغير ذلك، وكان يتميَّزُ بصفات التجرّد، والابتعاد عن السلطة والمناصب، والذكاء الحادّ، والتبحّر في العلوم المختلفة، ومعرفته بمقاصد الشريعة وكلّيات الدين، ويدرك الواقع الذي يعيش فيه، والشجاعة والاستقلال الفكري وروح التجديد فيه، وتعدّد جبهات بذله وجهاده وفي كافة الاتجاهات، والحيوية المتوهجة في كتاباته ورسائله، وأسلوبه السهل الممتنع، وكان منهجه في التجديد: أنه ذكّر الأمة بقواعد الجهاد في سبيل الله، ولقد جاهد هو بنفسه، وانبثق من مدرسته جيلٌ من العلماء ساهموا في نشر الدعوة الإسلامية.

وكان من تأثر الشيخ الندوي وإعجابه به أن أفرد له المجلد الثاني في سلسلته المباركة (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) لشرح مآثره التجديدية.

٣ ـ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي:

ولد الإمام الربّاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) في (سرهند) من بلاد الهند، وأخذ العلوم عن كبار علماء عصره، واعتنى بتربية نفسه.

نشأ في عهد الإمبراطور (أكبر) الذي لم يألُ جهداً في عدائه السافر للإسلام بتأثير من علماء السوء.

توفّي أكبر عام (١٠١٤هـ) وخلفه ابنه جهانكير، وكان أقلَّ شراسةً وتصلّباً من والده أكبر، ولم يكن متوحشاً ولا حاقداً على الإسلام، بل كان متساهلاً متنعّماً كالملوك الآخرين، فاغتنم الشيخ السرهندي هذه الفرصة ليوسع مجال عمله، ويؤثر على ذهن الإمبراطور جهانكير، ورجال حاشيته،

وقام بتجديد صلة الشعب الهندي بالإسلام، والانتصار للشريعة، وحفظها من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وإلحاد المتصوفين الوجوديين، ومن صرف الحكومة المغولية القوية من اللادينية وتلفيق الأديان، وإيثار البرهمية والوثنية الهندية التي اندفعت إليها بتهوّر وحماس إلى التديّن بدين الإسلام واحتضانه.

يدل على مدى غَيرته على العقائد الإسلامية وحميته الدينية ما كتبه إلى عالم معاصر حكى في رسالته من كلام الشيخ عبد الكبير اليماني ما يخالِفُ العقيدةَ الإسلامية، وهو «أنَّ الله يعلم الغيب، ويحيط علمه بالكليات دون الجزئيات»، فقال في الردِّ عليه: «يا أخي! إنني لا أستطيعُ سماع مثل هذه الكلمات، إنَّ عرقي الفاروقي ينبض ويتحرّك، سواء كان قائلُها عبد الكبير اليماني أو محيي الدين ابن عربي، **إنَّ إمامنا ورائدنا هو محمد العربي ﷺ، لا محيي الدين ابن عربي، إنَّ الفتوحات المدنية أغنتنا عن الفتوحات المكية، إنَّ لنا شأناً مع النصوص لا مع الفصوص**»(١).

قد كان أمام الشيخ السرهندي في مواجهة فتنة عهد الملك أكبر الإلحادية ثلاثة طرق في ضوء تجاربه وعلمه:

الأول: أن يدع الحكم ورجاله ليتصرّفوا كما يشاؤون، وينعزل عن

---

(١) رسالة إلى الشيخ ملا حسن الكشميري، رقم (١٠)، المجلد الأول من رسائل الإمام السرهندي؛ وانظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ٣/ ٢٤٩، ط. دار القلم بدمشق.

معترك الحياة، ويلجأ إلى زاوية.

والثاني: أن يتخذ موقفاً سلبيّاً، وهو التصدّي للحكّام ومقاومتهم، وتغيير الحاكم بتأليب الجمهور أو رجال الجيش.

الثالث: أن يقيم صلات شخصية بنّاءة مع رجال الحاشية وأعوان الملك في أمور الدولة، والتأثير في الملك نفسه، وآثر الطريق الثالثة، وخاطب هؤلاء العظماء من رجال البلاط الملكي، وراسلهم، وأثار في نفوسهم الحميّة الإسلامية بقوّة بيانه، وعاطفته الوقّادة، وتأثّر الشيخ الندوي بمنهج الشيخ السرهندي تأثّراً كبيراً، ونراه في منهجه للدعوة دائم الاستناد إليه. وأفرد له المجلّد الثالث من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

٤ ـ الإمام ولي الله الدهلوي:

ولد أحمد بن عبد الرحيم العمري المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ) في (دهلي) بالهند في أواخر عهد الملك الصالح أورنك زيب، أحد سلاطين الدولة التيمورية العظام، ونشأ في بيت علم وصلاح، فأبوه كان عالماً كبيراً، اشترك في مراجعة الفتاوى الهندية على المذهب الحنفي، التي أشرف السلطان أورنك زيب على إخراجها.

تعلَّم في كنف أبيه، فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، وانصرف إلى دراسة اللغتين الفارسية والعربية، وتلقّى علوم القرآن والحديث والفقه على المذهب الحنفي على أكابر علماء الهند، كما درس الطب والحكمة، والمنطق والفلسفة، ومال إلى الزهد والتصوّف في هذه الفترة المبكّرة، وأمدَّته

هذه الروح الشفافة بطاقةٍ هائلة، وإقبالٍ على العبادة والطاعات، ونزع اللهُ من قلبه حبَّ الدنيا وزينتَها، فالتفت القلوب حوله.

وبعد وفاة والده في عام (١١٣١هـ) جلس للتدريس، وهو في هذه السن المبكرة يشفع له نبوغُه وتمكّنه من العلوم الشرعية، فأقبل عليه طلاب العلم، يتلقّون على يديه الفقه والحديث، وبعد أن أمضى اثني عشر عاماً رحل إلى الحجاز لأداءِ فريضة الحج، ولازمَ الحرم المكيَّ، وجاور هناك، والتقى بشيوخ مكة وفقهائها ومحدّثيها، فروى عنهم، وتتلمذ على أيديهم، وأجازوه برواية الحديث، ثم عاد إلى بلده في أوائل عام (١١٤٥هـ) ليستأنف حياة الدرس والتعليم.

تفتحت عينا الشيخ والهندُ تزدادُ حالتها سوءاً، والحكام يزدادون ضعفاً، والبدع والخرافات تفتك بعقول الناس، فتحرّكت نفسُه إلى الصدع بالحق، ونصح الحكام، والأخذ بأيدي الناس إلى طريق الإصلاح، وقام بتنقية التصوّف من الشوائب التي لحقت به من الفلسفات غير الإسلامية، وإبراز الجانب الإسلامي فيه، ونادى بفتح باب الاجتهاد، وتتلمذ عليه مئات من التلاميذ في الحديث، فأحيوا السنّة بعد أن كادت تموت في الهند، ورزقه الله سعة في الوقت، فترك مؤلَّفات عظيمة بلغت أكثر من (٥٠) كتاباً، أشهرها: (حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع)، و(الإنصاف في بيان سبب الاختلاف)، و(عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد)، و(الفوز الكبير في أصول التفسير)، و(المسوَّى من أحاديث الموطأ)، و(شرح تراجم أبواب البخاري). وترجم القرآن إلى الفارسية بعنوان (فتح الرحمن في ترجمة

القرآن)، وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال تُوفِّي الشيخ تاركاً أربعةً من أولاده العلماء، هم: عبد العزيز الذي قام مكانه في العلم والعمل، ورفيع الدين، وعبدالقادر، وعبدالغني، ومخلّفاً ذكرى عطرة لا يزال شذاها يفوح حتى الآن.

وأفرد الشيخ الندوي له كذلك المجلّد الرابع من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

٥ ـ السيد أحمد بن عرفان الشهيد:

وُلِد السيد أحمد بن محمد عرفان في (٦ صفر ١٢٠١هـ = ٢٨ نوفمبر ١٧٨٧م) بقرية (راي بريلي) من شمالي شرق الهند، ونشأ في أسرة صالحة عُرفت بالعلم والتقوى، ولم تتجه نفسُه إلى طلب العلم في أوَّل الأمر، فقد كان يميل إلى الجندية، فلما تُوفِّي والده وهو في السابعة عشرة من عمره، سافر إلى لكنو، وانخرط في سلك الجندية عند أحد الأمراء المسلمين، ولم يستمرّ طويلاً في حياة الجندية، إذ سرعان ما جذبته مدرسة ولي الله الدهلوي في مدينة دهلي، فرحل إلى دهلي عام (١٢٢١هـ = ١٨٠٦م)، وتتلمذ على عبد القادر الدهلوي، وأخيه عبد العزيز الدهلوي، وهما من أبناء ولي الله الدهلوي.

وبدأ دعوته إلى الإصلاح عام (١٢٣٢هـ = ١٨١٧م)، وأخذ يدعو المسلمين إلى التمسّك بدينهم، وترك البدع والخرافات، ورافقه العالِمَان الجليلان: الشيخ عبد الحي، والشاه إسماعيل، وهما من أسرة ولي الله، وبايعاه على الدعوة والجهاد.

وقد آتت دعوته ثمارها؛ فانضمّ إليه آلاف الناس الراغبين في العودة إلى

أحكام الإسلام والالتزام بها، بعد أن عمل الإنكليز على إبعاد الناس عن المنهج الصحيح، كما أثمرت دعوته عن اعتناق عدد كبير من الهندوس الإسلام، ثم توجَّه ومعه سبعون من أتباعه إلى الحج عام (١٢٣٦هـ = ١٨٢٠م) بعد أن كادت تموت فريضة الحج في الهند، بسبب آراء فقهية قالت بسقوط تلك الفريضة عن المسلمين في الهند لحيلولة البحار وكثرة الأخطار.

وبعد أن كثر أتباعه وصار له أعوان ومريدون في كل أنحاء الهند؛ أخذ يُعِدُّ العدَّة لإنقاذ المسلمين من براثن السيخ في البنجاب، فخرج مع أتباعه في (٧ جمادى الآخرة عام ١٢٤١هـ = ١٨٢٦م) إلى حدود الهند الشمالية، ليتّخذها مقرّاً لدعوته، وليتمكَّن من تأسيس دولة تعيد أمجاد دولة الإسلام في الهند وحضارته، ولم يكن طريق سيره سهلاً ميسَّراً، وإنَّما لقي المشقةَ والعنتَ هو وأصحابه، حتى بلغ مدينة (بيشاور) وهزم حاكمها من قبل السيخ (سلطان محمد خان)، واتخذها عاصمةً له، وجاءه أمراء المناطق، ورؤساء القبائل، وكبار العلماء فبايعوه بالإمارة والسمع والطاعة.

وبدأ يمارس سلطاته باعتباره رئيس دولة، فعين القضاة، وأقام شرائع الإسلام، وبعد أن استتبَّ له الأمر أرسل إلى (رانجيت سنغ) زعيم السيخ وحاكم البنجاب يخيّره بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، فاختار القتال، وكان السيخ يحتلّون البنجاب، وهو إقليم يسكنه أغلبية مسلمة، كما كانوا يسيطرون على حدود الهند الشمالية الغربية، ودارت بينهما عدة معارك، كان النصر فيها حليف المسلمين، الذين أبلوا بلاءً حسناً، وضربوا أروع أمثلة الشجاعة والفداء والتضحية، وأعادوا ذكريات الفتوحات الإسلامية.

غير أنّ هذه الدولة التي أقامها السيد أحمد بن عرفان لم تَعِش طويلاً، إذ سرعان ما تدخّلت الأهواء، وأُلقيت التّهم دون بيّنة، وأُشيعت الأكاذيب، فانصرف الناس عنه، وانضم بعضهم إلى أعدائه، فاضطرّ الشيخ ومن معه من المجاهدين إلى الانتقال إلى منطقة (هزارا) و(وادي كشمير)، بعد أن وجَّه أمراء هذه المنطقة الدعوة إليه، ووعدوه بالنصرة والحماية.

وفي الطريق إلى كشمير فوجئ المسلمون بهجوم مباغت من قبل السيخ في وادي (بالاكوت) نتيجة خيانة وقعت من بعض الجنود المسلمين، فوقع الاضطراب في صفوف الجيش، ووصل السيخ إلى مكان رئاسة المجاهدين، الذين استماتوا في الدفاع عن أنفسهم، واستشهد كثير منهم، وكان على رأسهم السيد أحمد بن عرفان، وصاحبه إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي حفيد الإمام ولي الله الدهلوي، وذلك في (٢٤ ذي القعدة ١٢٤٦هـ = ٦ مايو ١٨٣١م).

وكان الشيخ الندوي معجباً به غاية الإعجاب، وألَّف أول كتاب له بالأردية عن حياته ودعوته وجهاده، وألّف بالعربية (إذا هبّت ريح الإيمان)، وأعاد قصص دعوته وجهاده في عديد من مؤلَّفاته وكتاباته.

٦ ـ الداعية الكبير محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله:

الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس بن الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي (١٣٠٣ ـ ١٣٦٢هـ)، ولد في (كاندهلة) في أسرة عريقة في الدين والعلم، والدعوة إلى الله، والتمسّك بعقيدة التوحيد الخالصة، حفظ القرآن الكريم، وجُبل على الحمية الدينية، وسمع (صحيح البخاري) و(سنن

الترمذي) على الشيخ محمود حسن الديوبندي، وبقية الصحاح على أخيه الشيخ محمد يحيى، وكان كثير العبادة مشغولاً بخاصة نفسه، وفقه الله وهو في مسجد نظام الدين في دهلي إلى الدعوة الدينية التي لم يشهد العالم المعاصر دعوةً أكثرَ شعبية منها.

يقول الشيخ الندوي وهو يصفه: «رجل نحيف، تشفّ عيناه عن ذكاءٍ مفرطٍ، وهمّةٍ عاليةٍ، على وجهه مخايل الهم والتفكير، والجهد الشديد، ليس بمفوّه ولا خطيب، بل يتلعثم في بعض الأحيان، ويضيق صدره، ولا ينطلق لسانه، ولكنّه كلّه روح ونشاط، وحماس ويقين، لا يسأم ولا يمل من العمل، ولا يعتريه الفتور ولا الكسل، رأيته في حالة عجيبة من التألّم والتوجّع، والقلق الدائم، كأنه على حسك السعدان، يتململُ تململ السليم، ويتنفّس الصعداء، لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة، وعن غاية هذا السفر العظيم، رافقته في السفر والحضر، فرأيتُ نواحيَ من الحياة لم تنكشف لي من قبلُ، فمن أغرب ما رأيت يقينه الذي استطعت به أن أفهم يقينَ الصحابة، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة، إيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات وبتجارب حياتنا، فكان كلُّ شيء صح في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقةً لا يشك فيها، وكأنَّه يرى الجنة والنار رأي عين[1].

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٥ ـ ١٦. قوله: (السعدان): الشوك، و(السليم) اللديغ.

وقد تجلَّت عبقريةُ الشيخ في ناحيتين خاصتين:

أولاهما: شغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله.

والناحية الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وأتباعه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج، فقد كان منشئ جيل ومربّي شعب.

التقى الشيخ الندوي بهذا الداعية العظيم، وكان هذا اللقاءُ نقطةَ تحوّل في حياته، فقد كان الشيخ محمد إلياس صلته عميقة بجماهير الشعب عن طريق الدعوة إلى الله، والشيخ الندوي لم يكن متصلاً بالشعب قبل ذلك، فأخذ يتصل بالناس في كل مكان، ويقوم برحلات علمية قد تستغرق الواحدة منها شهراً لنشر الدعوة الإسلامية في قرى الهند ومدنها الكثيرة وكان ذلك سبباً في شهرته في بلاد الهند.

يقول الشيخ الندوي: «أكثر من تأثّرتُ به هو إمام الدعوة إلى الله الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، كأنَّ هذا الرجلَ مأمورٌ من الله، لا أقول عن طريق الرسالة أو الوحي، ولكنّه كان مقيّضاً لهذا الأمر، وقد استولت عليه هذه الفكرة حتى ذاب فيها، ودعا إلى الاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً، وتوجيه الدعوة إليه، ولفت نظره، واستقطابه إلى رسالة الله تبارك وتعالى، والعمل بالإسلام وبشريعته وبأحكامه، وانتشرت هذه الدعوة لا في الهند فقط، ولكن في القارة الآسيوية، ثم انتقلت إلى أوربة وأمريكة، ولا تزال هذه الدعوة قائمة، وهي من

أكثر الدعوات تأثيراً وإنتاجاً»[١].

٧ ـ الإمام الشهيد حسن البنا:

الإمام الشهيد حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا رحمه الله تعالى (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ)، ولد في المحمودية (قرب الإسكندرية)، وتخرّج في مدرسة دار العلوم في القاهرة، واشتغل بالتعليم، فتنقّل في بعض البلدان متعرّفاً إلى أهلها، مختبراً طباعهم وعاداتهم، واستقرّ مدرّساً في مدينة الإسماعيلية، فاستخلص أفراداً صارحهم بما في نفسه، فعاهدوه على السير معه لإعلاء كلمة الإسلام، وأسَّس جماعة الإخوان المسلمين، ولقَّبوه بالمرشد العام، وأقاموا بالإسكندرية أول دار للإخوان، وبادروا إلى إعلان الدعوة بالدروس والمحاضرات والنشرات، وحدثت كارثة فلسطين، فكانت كتيبة الإخوان فيها من أنشط الكتائب، وقُتل في سبيل الله شهيداً، له مذكَّرات نُشرت بعد وفاته باسم (مذكرات الدعوة والداعية) قدّم لها الشيخ الندوي.

كان الإمام الشهيد حسن البنا صانعاً للرجال وصانعاً للتاريخ، ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ القرن الرابع عشر الهجري لم يشهد مَنْ يماثله أو يقاربه في التأثير في العقول والأفكار وإصلاح الأفراد والمجتمعات، فقد كان على رأس المجدّدين للقرن المنصرم.

يقول الشيخ القرضاوي وهو يتحدّث عن حاجة الأمة في كل قرن إلى من

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم (١٣٣٨).

يجدّد لها دينها، ويعيد إليها حيويتها: «وقد كان وضع العالم الإسلام عامة، ووضع مصر والعالم العربي خاصة: يحتاج إلى رجل ذي فكر ثاقب، وحسّ مرهف، وإيمان دافق، وإرادة صلبة، يشعر بما تعانيه الأمة من أمراض وآلام، ويقدر على تشخيص الداء، ووصف الدواء، ويصبر على متابعة مريضه، حتى ينتقل به من مرحلة السقام إلى مرحلة العافية، ومنها إلى مرحلة القوة. كان هذا الرجل المنشود أو القائد المنتظر هو حسن البنا»(١).

---

(١) الإخوان المسلمون، ص٤١، ويقول الشيخ القرضاوي وهو يتحدث عن الإمام حسن البنا الشهيد: «وهكذا كان العالم الإسلامي يعاني ما يعاني مِن تمزّق في كيانه، وتصدُّع في بنيانه، ومن تهديم منظَّم لماديّاته ومعنوياته.
وكان القدَر الأعلى على عينه رجلاً، يعدّه لمهمّة، ويسدّ به ثغرة، كان الرجل هو حسن البنا، وكانت المهمة هي إيقاظ الأمة من رقود، وبعثها من همود، وتحريكها من جمود، وبعبارة أخرى: إحياء عقل الأمة وضميرها، وتفجير طاقاتها المكنونة بتجديد الإسلام فيها، وجمعها على رسالته، والإيمان به هدفاً ومنهاجاً للحياة، والجهاد في سبيل تمكينه في الأرض.
كانت الأمةُ في حاجة إلى عقل جديد، وقلب جديد، وعزم جديد، ودم جديد، وكانت في حاجة إلى أن تتجسَّد هذه المعاني في رجل يضع يده في يد الله، لينير له الطريق، ويهديه سواء السبيل.
لقد أدى الأفغاني دوره في الإيقاظ العام لمشاعر الأمة لمقاومة الاستعمار، وأدى الإمام محمد عبده دوره في إيقاظ عقل الأمة ومقاومة الجمود الفكري فيها، وقام العلاّمة رشيد رضا بعدهما بدور كبير غير منكور في التجديد والتأصيل الشرعي لمسيرة الإصلاح.
ولكن الأمة كانت تفتقر إلى (رجل جديد) من ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ=

يقول الشيخ الندوي: «وقد كان الشيخ حسن البنا من هذه الشخصيات التي هيأتها القدرة الإلـهية، وصنعتها التربية الربّانية، وأبرزتها في أوانها ومكانها، وإنَّ كل من يقرأ كتابه (مذكّرات الدعوة والداعية) وهو سليم الصدر، مجرّد الفكرة، بعيد عن العصبية والمكابرة، يقتنع بأنه رجل موهوب مهيّأ، ليس من سوانح الرجال، ولا صنيعة بيئة أو مدرسة، ولا صنيعة تاريخ أو تقليد، ولا صنيعة اجتهاد أو محاولة وتكلّف، ولا صنيعة تجربة وممارسة، وإنَّما هو من صنائع التوفيق والحكمة الإلـهية والعناية بهذا الدين وبهذه الأمة، وبالغرس الكريم الذي يهيأ لأمر عظيم ولعمل عظيم في زمن تشتد إليه حاجته،

= وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. جيل يصنعه الله تعالى على عينه، من قوم ادّخرهم لنصرة دينه حين يرتدّ المرتدّون، ويمرق المارقون ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. جيل يحسن فهم الإسلام، ويؤمن به، ويعمل به، ويدعو له، ويجاهد في سبيله، ويعمل على صبغ الحياة العامة بصبغته ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. ولا يقدر على تربية هذا الجيل، وإعداد المهمة الجليلة المنوطة به إلاَّ رجل ربّاني، نذر نفسه وفكره وجهده وحياته لله ربّ العالمين، وكان الرجل المنتظَر هو حسن البنا، الذي اصطفاه القَدَر ليكون للمتقين إماماً، ولقد وجه أحدُ الصحفيين إلى حسن البنا ـ ضمن عدة شخصيات ـ سؤالاً يقول: مَن أنت؟ فكانت إجابته: أنا سائح يبحث عن الحقيقة، وإنسان يفتّش عن الإنسانية في الناس بمصباح (ديوجين)، أنا متجرّد أدرك سرَّ وجوده، فنادى في الناس ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. الإخوان المسلمون، ص٤٨ـ٤٩.

وفي بيئة تعظم فيها قيمته»[1].

ولخَّص الشيخ الندوي عبقريته ـ مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها ـ في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلا القليل النادر من الدعاة والمربّين والزعماء والمصلحين:

أولاهما: شغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساس والسمة الرئيسة للدعاة والقادة الذين يجري الله على أيديهم الخير الكثير.

والناحية الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج: فقد كان منشئ جيل، ومربّي شعب، وصاحب مدرسة علمية فكرية خلقية، وقد أثَّر في ميول من اتّصل به من المتعلّمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي مناهج تفكيرهم، وأساليب بيانهم ولغتهم وخطاباتهم تأثيراً بقي على مرّ السنين والأحداث، ولا يزال شعاراً وسمةً يُعرفون بها على اختلاف المكان والزمان»[2].

يقول الشيخ يوسف القرضاوي وهو يتحدث عن زيارة الشيخ الندوي لمصر: «وأشهد أنه حينما زار مصر عام (١٩٥١م)، وزارنا في منزلنا مع بعض شباب الإخوان كان حريصاً غايةَ الحرص على أن يسمع منا عن الشيخ البنا كل

---

(١) أبو الحسن على الندوي، شخصيات وكتب، ص١١٤ ـ ١١٥.

(٢) مقدمة مذكرات الدعوة والداعية، ص٧ ـ ٨.

ما نعرف عنه بالمشاهدة أو السماع، وكان يصغي إلينا في ذلك كلَّ الإصغاء، فقد وجد البنا قريباً من مشربه الذي يجمع السلفية والصوفية»[1].

٨ ـ شاعر الإسلام محمد إقبال:

ولد محمد إقبال في (سيالكوت) إحدى مدن البنجاب في الثالث من ذي القعدة (١٢٩٤هـ) الموافق ٩ من نوفمبر (١٨٧٧م)، وأصله يعود إلى أسرة برهمية في كشمير، واعتنق الإسلامَ أحدُ أجداده في عهد السلطان زين العابدين (١٤٢١ ـ ١٤٧٣م)، تعلَّم في سنٍّ مبكرة على يد أبيه، والتحق بأحد الكتاتيب في سيالكوت، ثم انتقل إلى ثانوية تعرّف فيها بالأستاذ مير حسن أستاذ اللغة العربية والفارسية، فأثّر فيه كلّ تأثير، وغرس فيه حبّ الثقافة والآداب الإسلامية، وبدأ إقبال في كتابة الشعر في هذه المرحلة المبكّرة، واستشار الميرزا داغ الدهلوي الشاعر البارز في الشعر، والتحق بجامعة في البنجاب عام (١٨٩١)، وحصل منها على درجة الماجستير (١٨٩٩)، وتلقّى دراساته الفلسفية في هذه الكلية على يد الأستاذ الكبير توماس أرنولد، وبعد أن حصل إقبال على الماجستير عُيِّنَ معيداً للعربية في الكلية الشرقية لجامعة البنجاب، وحاضر حوالي (٤) سنوات في التاريخ والتربية الوطنية والاقتصاد والسياسة، وصنَّف كتاباً في علم الاقتصاد، والتحق بجامعة كمبرج في إنكلترة عام (١٩٠٥م)، وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد.

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٤٣.

ثم سافر إلى ألمانية، وأخذ من جامعة (ميونخ) الدكتوراه في الفلسفة، ثم رجع إلى لندن، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن، وتخصص في المادتين، ورجع إلى الهند عام (١٩٠٨م) سالماً غانماً.

ولم تصرفه أشغاله الدراسية والتدريسية عن الشعر، بل ظلَّ صوتُه يدوي في محافل الأدب وجلسات الشعر، وكانت أول قصيدة له بعنوان (إنه يتيم) وألقاها في الحفل السنوي لجماعة حماية الإسلام في لاهور، وقد استقبلت القصيدة استقبالاً حسناً، ومست شغافَ القلوب، وظلّ يتحف المسلمين بقصائده الثائرة والإصلاحية إلى أن توفي في ٢١ أبريل (١٩٣٨م)، وكان يوماً عصيباً في حياة جماهير الهند عامة والمسلمين خاصة، فعطلت المصالح الحكومية، وأغلقت المتاجر أبوابها، ونعاه قادة الهند وأدباؤها، يقول طاغور عن وفاة إقبال: لقد خلفتْ وفاةُ إقبال في أدبنا فراغاً أشبه بالجرح المثخن، الذي لا يندمل إلاَّ بعد أمد طويل، إنَّ موت شاعر عالمي كإقبال مصيبةٌ تفوقُ احتمال الهند التي لم ترتفع مكانتها في العالم.

نشأ الشيخ الندوي في عصر تغنَّى بشعر إقبال، وكانت له فيه دولة وصولة، وهو شعر الحب والطموح، وشعر الإيمان والحنان، وشعر الثقة بصلاحية الإسلام والإيمان بخلوده، ولكنَّه لم يكن له اهتمام كبير بشعره إلى عام (١٩٣٤م)، وما كان يعرف من دواوينه إلا ديوان (بانك درا) باكورة دواوينه الشعرية، ولم يكن فيه ذلك السموّ الفكري الذي اتّسمت به مجامع

شعره المتأخّرة، ولمّا اطّلع على شعره في ديوان (ضرب كليم) سحره سمو الفكر فيه، ثم لما قرأ ديوانه (بال جبريل) زاد إعجابه، وقد وجد فيه مع سموّ الأفكار جمالَ النغمة، وحلاوةَ الجرس، ثم قرأ دواوينه الأخرى بالفارسية، وتأثّر بما فيها تفكيره وقلبه تأثّراً شديداً في الشعر والأدب والفكر الإسلامي، فأساغه عقله المتفتّح وذوقه الناشئ، وجعله جزءاً من أجزاء ثقافته، وأساساً من أسس تفكيره.

يقول الشيخ الندوي: «لقد كان من أسباب إعجابي وتأثّري بشخصية محمد إقبال أنني كنت مطّلعاً على مصادر بحوث العلماء، وما تدبجه أقلام الكتّاب والأدباء، وأعرف من أين يستمدّون موادّهم ومعلوماتهم، وكنتُ في قليل أو كثير على خبرة بها وبصيرة، وكانت لي مشاركة ما مع التفاوت في العمر والعلم والمطالعة، وكنت أرى أني أقدر بالجهد والدراسة وإتقان أسلوب الأداء وطول المران على الوصول إلى هذا المطلوب أو أقارب حدوده، ولكن تراءى لي أنَّ مصدر آراء محمد إقبال وأفكاره وخواطره، ومنبع نغماته وأناشيده فوق قدرتي ووراء إدراكي، وكنت أشعر بسماعها أو قراءتها كأنها خواطر عالم آخر وأفكاره، وأنَّ علاقتها ليست بالعلم والذكاء وسعة المطالعة وكثرة المعلومات، إنَّما هي فيضٌ ربّاني، وعبقريةٌ لا تدين للذكاء وسعة العلم وقوة التعبير، إنما هبة من هبات الله تعالى التي لا نهاية لها».

ويقول الشيخ الندوي في تعليل إعجابه بشعر محمد إقبال: «إنَّ أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو **الطموح والحب والإيمان**، وقد تجلّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم ممّا تجلّى في شعر معاصر، ورأيتُ

نفسي قد طبعت على الطموح والحب والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كلّ أدب ورسالة يبعثان على الطموح وسموّ النفس وبُعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويبعثان على الإيمان بالله تعالى، والإيمان بمحمد ﷺ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها، إنني أحببته وشغلت به كشاعر الطموح والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وناقد لها، وكداعية إلى المجد الإسلامي وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية»[1].

* * *

(١) روائع إقبال، ص٩ ـ ١٠.

الفصل الثالث

الكتب التي أثَّرت في تكوينه العلمي والفكري

قرأ الشيخ الندوي كثيراً في اللغات العربية والفارسية والأردية والإنكليزية، واستقى ثقافته من كتابات الشرق والغرب في عقلية العالم وروح المؤمن، وكانت له نهامة كبيرة، وشغف زائد بالكتب، ولكنَّ الكتب التي أثّرت فيه تأثيراً خاصاً هي كتب قليلة، نذكرها فيما يلي، إنها كتب عاش الشيخ معها ومع مؤلّفيها زماناً صالحاً، وسيطرت على مشاعره وتفكيره مدة طويلة، ويدين لها في كثير من عواطفه وأهوائه وموازينه وأدبه وثقافته وكتابته.

١ ـ صمصام الإسلام:

هي ملحمة إسلامية باللغة الأردية، نظم فيها صاحبها السيد **عبد الرزاق الحسني** عم والد الشيخ الندوي (فتوح الشام) للواقدي، تشتمل على خمسة وعشرين ألف بيت، وهي في غاية القوة والعذوبة وصدق التصوير وبراعة التعبير، بحيث إذا سمعها الإنسان امتلأ إيماناً وحماسةً، وتحرّكت فيه الحمية الدينية، والتهبت العاطفة الإسلامية.

كانت هذه الملحمة تُنشَد في بيت الشيخ الندوي وهو صغير، يقول: «كنت أرافق أمي وأحضر معها هذه المجالس، وكانت خالتي الكبرى السيدة

صالحة بنت العارف الكبير السيد ضياء النبي الحسني، وهي حافظة للقرآن الكريم، تتصدَّرُ هذا المجلس، وتتلو هذه المنظومة في صوت عذب رنان، ترفعه الحماسة ويرقّقه الإيمان، وتمضي في الإنشاد في هدوء واعتدال، حتى إذا دخل خالد بن الوليد المعركة، أو حضر ضِرَارُ بن الأزور، وهزءا بالأعداء، وخاضا غمار الموت؛ تغيَّر صوتها وارتفع، وأشرقت وجوه المؤمنات، وكنَّ أشدّ ما يكنَّ إيماناً وحماسة وتأثّراً إذا حضرت خولةُ بنتُ الأزور شقيقةُ ضرارٍ الحربَ، فكادت تقع في أسر الأعداء، أو خرجت من الساحة ظافرةً منتصرةً ساخرةً من العدة، هنالك يملكهنَّ الإعجابُ والاغتباطُ بها ـ وهي من الإناث ـ وتدمع عيونهن فرحاً، حتى إذا استشهد أحدُ المجاهدين ـ بعدما أبلى في الحرب بلاءً حسناً ـ فاضت عيونهنَّ، وبدا الحزنُ والتوجُّع على وجوههن، كأنَّما فُجعنَ بعزيزٍ أو قريبٍ، وكأنَّ الرزيةَ جديدةٌ والحادثةَ شخصيةٌ.

كلُّ ذلك كنت أشاهده وأعيه، وأشارك في المسرّات والأحزان، وكانت هذه المناظر تؤثّر في قلبي أكثر من ألف كتاب، وقد حُبّبت إليَّ هذه المجالس، وقد حبّب هذا الكتاب شخصيات الصحابة والمجاهدين إلى نفسي، ورفعت منزلة الجهاد في سبيل الله في عيني، حتى لم يستطع كل ما قرأته بعد ذلك من بحث ومناقشات وشبهات، وكل ما قرأته للمستشرقين والمستغربين أن يقلِّلَ قيمةَ الجهاد، ولم تحم حوله شبهة، وكان كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبلَ أَنْ أعرفَ الهوى ... فصادفَ قلباً فارغاً فتَمَكَّنا

كان من حسنات هذا الكتاب تلك الثقافة الدينية والتاريخية التي حصلت

لي بفضله، فقد عرفتُ كثيراً من الصحابة وأبطال الجهاد الإسلامي، وكثيراً من المدن والبلدان الإسلامية والوقائع التاريخية في سنّ مبكّرة، حين لم يعرفها كثير من أترابي ممن حُرموا هذه الفرص في سنٍّ عالية، وارتسمت هذه الذكريات وهذه الحوادث في خاطري، حتى لمَّا قدَّر الله لي الرحلة إلى سورية عام (١٩٥١م) تمثَّلت هذه المناظر لعيني، وهاجت الذكرى، ولما دخلتُ حمصَ بادرتُ إلى زيارة سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، ووقفتُ أمام قبرِهِ وقفةً طويلة، أستحضر مواقفه في الجهاد، وبلاءه في الحرب، واستهانته بحياته، واستخفافه بالعدو، وانتصاره في كلِّ معركة، وأترحَّم عليه، وقد طاب لي المقام وهاج البكاء.

وكان من حسنات هذا الكتاب أيضاً أني أصبحتُ أنظر إلى الأوربيين، وهم خلفاء الروم، الذين قاوموا المسلمين في الشام وفلسطين، كمنافسين للإسلام، ولا ينشرح لهم صدري، بل وأجدهم أحقَّ بالعداء من الروم والفرس الذين انقرضت دولتهم، وزالت أيامهم، وتقلَّص ظلّهم، أما الأوربيون فقد اكتسحوا العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، واستعبدوا أممه وشعوبه، ونشروا الفساد في البرّ والبحر، وملؤوا أرض الله جوراً وظلماً، وفساداً وشرّاً، إنَّ لهذا الكتاب فضلاً عليَّ لا أنساه، فقد غرس في قلبي حبَّ أصحاب رسول الله ﷺ، وحبَّ المجاهدين الأولين، وإجلالَ الجهاد، وبذل النفوس والأرواح في سبيل الله، وأوغر صدري على أعداء الإسلام وأعداء الإنسانية»[١].

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٦٢ ـ ١٦٣.

٢ ـ مسدس حالي:

وهو الملحمة الأردية (مد الإسلام وجزره) للعلاَّمة الشاعر الأديب ألطاف حسين حالي (١٢٥٣ ـ ١٣٣٢هـ)، والمسدس معناه السداسي، وهو ضرب من الشعر تشتمل كُلُّ قطعة منه على ثلاثة أبيات وستة أشطر.

لما فشلت ثورة عام (١٨٥٧م) الكبرى التي قام بها المسلمون للتخلُّص من نفوذ الإنكليز، وفقد المسلمون الثقةَ بأنفسهم، وأصيبوا بالجمود واليأس والفرار في معترك الحياة، والانطواء على أنفسهم، كانت الحاجةُ شديدةً إلى أن تعاد الثقة إلى أنفسهم، ويبعث فيهم الاعتداد بماضيهم والاعتزاز بما يملكونه من تاريخٍ مجيدٍ، وتراثٍ عتيدٍ، وأن يحملوا على مواجهة الحقائق، والاقتطاف من ثمرات النهضة الجديدة، ودراسة العلوم العصرية، وتعلّم لغة الحكومة، فنظم ألطاف حسين هذا الديوان، عرض فيه تاريخ الإسلام في فجره وعهد رقيّه وازدهاره، ثم ما أصاب المسلمين من وهن وضعف.

يقول الشيخ الندوي: لقد تأثّرتُ بهذه المنظومة (مسدس حالي) تأثّراً كبيراً كالآلاف ممن كانوا في سنّي، ونشؤوا في مثل بيئتي، وكنتُ أسمعُ أختيَّ الكبيرتين تنشدان أبياتاً كثيرةً منها، وأسمع أترابي ومن كان أكبرَ منّي من أبناء أخوالي يحفظون منها شيئاً كثيراً، فحفظتُ بطبيعة الحال كثيراً من أبياتها ـ على ضعف ذاكرتي ـ ونقلتُ منها كثيراً في مقالاتي الصغيرة وبعض المحاضرات التي كنتُ ألقيها في نادي الأطفال في قريتي[1].

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٣.

ثم يقول الشيخ بعد ذكر ما في الكتاب من نقاط الضعف: وعلى هذه المآخذ ومواضع الضعف، وقد يكون فيها أكثر من هذا، لا ينكر فضل هذا الكتاب، وتأثيره في عقول الجيل المسلم الهندي المعاصر، وثقافته، وشعوره الديني، فقد ألهب في كثير من أفراده الغيرة الإسلامية، وغذّى تلك البذرة الصالحة التي يحملها كل مسلم في صدره وهي أعزّ عليه من كلّ شيء في الحياة، وهي حبّ النبيّ ﷺ، وتوقير الصحابة والدين الذي جاء به.

ومن حسناته وأياديه عليَّ شخصياً أنّي احتفظتُ بصورة الجاهلية التي تلقّيتها من هذا الكتاب، وهي صورة ترينا أنَّ الأمةَ العربيةَ كانت فقيرةً في كلّ شيء، ضعيفةً في كلّ شيء، تعيش في عزلة عن العالم، وفي ظلمات خلقية وروحية ومادية؛ فهبّت عليها نفحةٌ من البعثة المحمدية، على صاحبها الصلاة والسلام، فكانت كلَّ شيء، وكانت كما عرفها التاريخ وعرفها العالم، فكلُّ فضلٍ في سعادتها وسيادتها يرجع إلى النبوّة المحمّدية، لقد احتفظتُ بهذه الصورة وبهذه العقيدة في رحلتي الطويلة بين الكتب والصحف والمقالات والمباحثات، فلم تتزعزع ولم تضطرب، ولم تغلب عليها كتابات المستشرقين الأوربيين والمؤرّخين الغربيين الذين ينظرون إلى الجاهلية العربية بالمكبرة، ويحاولون أن يقنعوا قرّاءهم بأنَّ الجزيرة العربية كانت في مؤهّلاتها واستعدادها كالبركان يريد أن يتفجر، وقد جاء محمد ـ ﷺ ـ في أوانه فتناوله بجمرة فانفجر، ولا فضل ـ يزعمون ـ للنبيّ العربيّ إلاّ أنّه عرف الساعة المواتية، والفرصة السانحة لهذا الانقلاب الهائل، فبدأ عمله في خير أوان وأحسن مكان.

هذه مؤامرة علمية كان كثير من الدارسين فريستها، وقد قاومها أولاً ما اعتقدتُه وآمنت به من انحطاط العرب وسوء حالهم وبعدهم عن العلياء التي وصلوا إليها بفضل الرسالة المحمّدية والدعوة الإسلامية، ثم قاومتها الدراسات العلمية الحرة والدلائل التاريخية التي لا تدع في ذلك شكّاً، ولذلك أدينُ لهذا الكتاب، وأحملُ له في عنقي منّةً كبيرة، وفضلاً جسيماً[(١)].

٣ ـ سيرة رحمة للعالمين:

وهو للقاضي **محمد سليمان المنصورفوري**، وهو من أهم الكتب المؤلَّفة في سيرة النبيّ ﷺ باللغة الأردية، ولقد أُعجبَ به الشيخ الندوي إعجاباً بالغاً، وقرأه وهو صغير السن، فانتقش في ذهنه، وفعل فيه ما يفعل غيره من كتب السيرة التي تمتاز عليه بكثير، يقول وهو يحكي قصّةَ قراءته لهذا الكتاب: «بدأتُ أقرأ الكتاب، وبدأ الكتاب يهزّ قلبي، وليست بهزة عنيفة مزعجة، إنّما هي هزةٌ رقيقةٌ، وبدأ قلبي يهتزّ له ويطرب.

كما اهتزَّ تحتَ الباردِ الغصنُ الرطب

وهذا هو الفارق بين هزة الكتب التي أُلِّفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار، وبين هزة الكتب التي أُلِّفت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فالأولى هزة تغير على القلب وتزعجه، والثانية هزة تنبعث من النفس وتريحه.

وبدأت نفسي تتجاوب مع هذا الكتاب وتسيغه، كأنّما كانت منه على

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

ميعاد، وشعرت في أثناء قراءتي لهذا الكتاب بلذّة غريبة، إنها لذّة تختلف عن جميع اللذات التي عرفتها في صغري ـ ولم أزل مرهف الحس قوي الشعور ـ فلا هي لذة الطعام الشهي في الجوع، ولا هي لذة اللباس الجديد في يوم العيد، ولا هي لذة اللعب في حين الشوق إليها، ولا هي لذة العطلة والفراغ بعد الدراسة المضنية والاشتغال المرهق، ولا هي لذة الانتصار والظفر في المباراة، ولا هي لذة زيارة صديق قديم أو زائر كريم، إنَّها لا تشبه لذة من هذه اللذات، إنَّها لذة أعرفُ طعمها ولا أستطيع وصفها، وأعترف أني لا أستطيع حتى اليوم أن أصفها بدقّة، وأعبّر عنها بكلمة، إنَّ غايةَ ما أستطيعُ أن أقولَ: إنّها لذّة الروح، وهل الأطفالُ لا يحملون الأرواح؟ ولا يشعرون باللذة الروحية؟ بلى والله، بل إنّ الأطفال أشفُّ روحاً، وأصحُّ شعوراً، وإن عجزوا عن التعبير.

كنتُ أقرأ في هذا الكتاب المعجِب المطرب خبر مَن كان يسلم من قريش، فتنهال عليه أنواع العذاب، فكان يحتمل كل ذلك في ثبات وصبر، بل في لذة وسرور، فكنتُ أشعر بأنَّ هناك لذة لا يعرفها كثير من الأغنياء والأقوياء، وكثير ممن يعدون في الحياة سعداء، وهو أن تضرب على الحق، وتضطهد في عقيدة، وتهان في سبيل الدعوة، إنَّ هذه اللذة لا تعدلها لذّة القوة والظفر والحكم، ورأيت أن نفسي تتمنّى بأن تسعد بهذه اللذة وبهذه الكرامة ولو مرة في العمر.

وقرأت **قصة مصعب بن عمير**، وكان مثال الترف والأناقة في الناس، والبذخ في المعيشة، وهو فتى قريش الناعم، يخرج بمكة، وعليه ثياب تقوّمُ

بمئات، ويتّبعه الغلمان، ويصبح حديث النوادي، ثم يضع يده في يد رسول الله ﷺ، فيخرج من كلّ هذا النعيم والترف، ويتخشَّن في اللباس، ويتقشَّف في المعيشة، وقد يضطرّ إلى أن يمسك رداءه بشوك السَّمُرِ، ويدمعُ هذا المنظرُ عينَ رسول الله ﷺ، ويذكر ما كان عليه مصعب من رقة المعيشة ونعومة الحياة، ويُقتل فتى الفتيان في أُحدٍ، فلا يخلِّفُ إلا كساءً إذا غُطِّيَ رأسه انكشفت رجلاه، وإذا غطيت رجلاه انكشف رأسه، فيقول رسول الله ﷺ: «غطُّوا رأسَه، وضعوا على رجليه الإذْخِر».

قرأتُ هذه القصة، فملكتْ قلبي، وأسرتْ نفسي، وعرفتُ أنَّ وراء العيش الناعم واللباس الفاخر والطعام الأنيق والقصر الشامخ حاجة تقاصرت عنها همم الأثرياء والملوك، ولذة جهلها أصحاب الشهوات والمعدات، ورجعتُ إلى نفسي فوجدتها تطمع إلى هذه الحاجة، وترغب في هذه اللذة، ووجدتها أكثر إجلالاً لهذه الحقيقة منها لملابس الأغنياء والمظاهر الجوفاء.

وقرأت **قصة الهجرة النبوية**، قصة لا أعرفُ أني قرأتُ قصةً أكثر تأثيراً، وأجمل تصويراً، من هذه القصة التي يحكيها المؤلّف في صدق وبساطة، يدخل رسول الله ﷺ المدينةَ، وقد تعلَّقت به القلوب، وطمحت إليه الأبصار، وتتقدّم القبائل قبيلةً قبيلةً، وتقول في صدق وإخلاص: يا رسول الله هلمَّ إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة، فيقول ـ فداه أبي وأمي ـ خلوا سبيلها (أي: الناقة)؛ فإنها مأمورة، ثم تبرك على باب مسجده اليوم، وتأبى أن تقوم، ويأبى الله أن يكون هذا الشرف الذي ليس فوقه شرف إلا لأبي أيوب الأنصاري، فيحتمل أبو أيوب رحل النبي ﷺ، فيضعه في بيته، وأقرأ سرورَ أبي أيوب بهذه الكرامة التي

ساقها الله إليه، وإخلاصه في ضيافته، أقرأ كلَّ هذا، وأجدُ قلبي قد تركني، ورافق ناقة رسول الله ﷺ، فيدخل في ركابه المدينة، وأجد كأنّي أشاهِدُ كلَّ ذلك بعيني، وأجد أنَّ كلَّ ما قرأتُ أو سمعتُ من دخول الملوك والفاتحين العظماء والأغنياء قد تضاءل واضمحلَّ، وإنَّ كلَّ ما عرفته من حبٍّ وإخلاصٍ عن رجلٍ لرجل قد ذاب وغاب، وارتسم هذا المنظر في نفسي وذاكرتي.

وقرأتُ **قصة أُحد**، قصة لم يعرف التاريخ قصةً أعظمَ منها، وأغربَ منها، وأجمل منها في الوفاء والإخلاص والبطولة، وفي الإيمان واليقين، والخلق الكريم، وقد هزَّ قلبي قولُ أنس بن النضر للذين جلسوا، وألقوا بأيديهم، وقالوا: قُتل رسول الله ﷺ، قال: **فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ**، وقول القائل: **إنِّي لأجدُ ريحَ الجنّة من دون أُحد**، والذي كانت أمنيته الأخيرة أن يصل إلى رسول الله ﷺ وهو في آخر عهده بالدنيا، فحملوه إليه وهو يجودُ بنفسِه، ولفظَ نفَسَه الأخير بين قدمي رسول الله ﷺ، وكيف تترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقعُ النبلُ في ظهره وهو منحنٍ عليه، إلى غير ذلك من أحاديث الحبّ والتفاني، وهكذا أتابع قراءتي لهذا الكتاب، وقد يغلبني البكاء، فأبكي، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب.

إنَّ الحسنةَ التي لا أنساها لهذا الكتاب وصاحبه المخلص أنّه أثار في قلبي كامنَ الحبِّ الذي لا لذّةَ في الحياة بغيره، ولا قيمةَ للحياة بغيره، وقد صدق الشاعر الفارسي حيث قال: «قاتلَ اللهُ ذلك اليوم الذي مضى ولم أذق فيه لذّةَ الحُبِّ، وسحقاً للحياةِ إذا قضيتُها كلّها في تحكيمِ للعقلِ والخضوعِ

للمنطقِ»[1].

٤ ـ الفاروق:

هذه سيرة مفصّلة شاملة موثوقة لأمير المؤمنين عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ، ألَّفها العلاَّمة شبلي النعماني، ويعتبر كتابه هذا دُرّةً يتيمةً من بين مؤلَّفاته، يرى العلماء أنه يفوق جميعَ الكتب التي تناولت موضوع حياة أمير المؤمنين عمر الفاروق ـ رضي الله تعالى عنه ـ في اللغات العربية والفارسية والأردية.

استفاد شبلي في إعداده لهذا الكتاب العلمي الجليل من مصادر موثوقة كثيرة، بل إنه خلال رحلته لبلدان العالم الإسلامي قام بجمع المواد اللازمة من المكتبات العلمية الكبرى، وكان قد طالع من قبلُ كتب عبد الله بن سليم، وأحمد بن أبي يعقوب، وأحمد بن يحيى البلاذري، وأبي جعفر بن جرير الطبري، وأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، وابن الأثير، والسمعاني، والذهبي، وأبي الفداء، والسيوطي، كما كان قد طالع تراجم مؤلَّفات (كين) و(كارلايل) و(بكل) و(هيجل) و(رينكي) وغيرهم من علماء الغرب.

وعُني بالتثبّت والحزم في أخذ الروايات وتطْبيق مبادئ الدراية والرواية وجمع الأحداث التاريخية ببصيرة نافذة وعقل نابه وقلب يقظ.

لما طبع الكتاب اعترف العلماء أنَّ المؤلِّفَ قد بالغ في تحرّي الصدق

---

(١) الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٧٩ ـ ١٨٣.

والعدالة في تأليف كتابه على غرار مؤلَّفاته الصادرة من قبلُ، وقد نُقل الكتاب إلى الفارسية والتركية والإنكليزية، ويا حبذا لو نُقل إلى اللغة العربية[1].

يقول الشيخ الندوي: «صادفت كتاب (الفاروق) للعلاَّمة شبلي النعماني الذي صدر من مطبعة نامي بكانفور، ففتنتُ بالتصوير الصادق والعرض الساحر، وقرأته مرّات، ولعلّ تأثير حروب العراق البويب والجسر والقادسية بقلم العلاَّمة شبلي النعماني بجمله الموجزة السلسة الأخّاذة، العفوية غير المصطنعة، تفوق تأثير الأشعار المتسلسلة للفردوسي، وألفاظه المنمّقة المفخّمة المبالَغ فيها، إنَّ ألفاظ (الفاروق) الفخمة، وحرارة جمله وعباراته، تنزل كالصاعقة، وتمضي كالسيوف والأسنّة، إنَّ المجهودَ الذي بذله العلاَّمة للدفاع عن نظام الخلافة كان فوقَ وعيي واستعدادي في ذلك الوقت لإدراكه وفهمه، ولم يعد يهمّني اليوم علمياً[2]، ولكنّ الجزء الذي يشتمل على عرض الوقائع وتصوير الحوادث كان أثرها قد خلَّف تأثيراً عميقاً في نفسي في تلك الأيام، ولم يزل يحمل بعض ذلك التأثير إلى اليوم»[3].

٥ ـ علماء السلف:

وهو للأمير الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني (ت١٣٦٩هـ) أحد

---

(١) وقد نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور آفتاب عالم الندوي، وسيصدر قريباً عن دار القلم بدمشق.

(٢) لعلَّه يشير إلى ما قام به شبلي من تقريب نظام الإسلام إلى الديمقراطية.

(٣) الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص١٩٤ .

مؤسّسي دار العلوم لندوة العلماء، يقول الشيخ الندوي: قرأتُ كتاب (**علماء السلف**) فأثَّر في عقليتي تأثيراً كبيراً، وهو من الكتب التي أدينُ لها بالفضل، فقد بعث في نفسي الحرصَ على العلم، والاجتهادَ في طلبه، ويشاركني في هذا الشعور والاعتراف عددٌ كبيرٌ من الطلبة وتلاميذ المدارس العربية، وإليه يرجعُ في علوّ همّتهم في طلب العلم، وتحمّل المشاقّ، والتعب في سبيله، وسهر الليالي، والتوسّع في العلوم، والتفنن في فضائلها»[1].

ويقول في تقديمه لكتاب (**صفحات من صبر العلماء**) لشيخنا الحافظ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى: ومن أعظم الكتب عليَّ فضلاً في رفع الهمّة في طلب العلم، والصبر على شدائده، والانقطاع إليه، والشغف به كتاب (**علماء السلف**) بالأوردية للسري الفاضل العلاَّمة الأمير حبيب الرحمن خان الشيرواني وزير الأمور الدينية في حكومة حيدرآباد سابقاً، وصاحب المكتبة النفيسة المشهورة.

وهو كتاب كُتب في حالة نفسية خاصة، وبإخلاص كبير، وقدرة فائقة في اختيار المؤثّر المرقّق من أخبار العلماء القدماء، والسلف الصالح في الولوع بالعلم النافع، والغرام به، والتهالك عليه، والتفاني في سبيله، وعلوّ همّة المحدّثين والفقهاء في الرحلة في سبيل العلم، والصبر على الشدائد والمكاره.

وأنا دائماً أوصي طلبة العلم بقراءة هذا الكتاب مرة بعد مرة، لأني مدين

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢.

له في طلبي للعلم، شاهد بتأثيره، والكتاب تُقرأ منه قطعةٌ أمام الطلبة في جامع (الندوة) وعقب صلاة العصر، كل يوم في مفتتح السنة الدراسية في دار العلوم»[1].

* * *

وإلى جانب هذه الكتب، كتاب (**زاد المعاد في هدي خير العباد**) لابن قيم الجوزية، طالعه فحلَّ منه محلاً عظيماً، فكان مكتبته ورفيقه في السفر، ومشرفه وأستاذه، وبدا له كممثل بارع عظيم للمكتبة الدينية العامرة، يملأ الفراغ إذا حرم من الاتصال بهذه المكتبة الزاخرة، إنَّه علَّمه طريقةَ الصلاة المأثورة عن النبيّ ﷺ، ولقَّنه الأدعية والأذكار المأثورة، وهداه إلى آداب السفر، وبه عرف كيف يقضي نهاره وليله في ضوء السيرة النبوية.

وكتاب (**قيام الليل**) لمحمد بن نصر المروزي البغدادي، أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل، ومن خصائصه أنَّه لا يخاطِبُ العقل، ولا يعتمد على الدليل فحسب، بل يضرب على أوتار القلب، ويمسّ سويداء النفس، ويغيّر وجهة الهواية والشوق، إنَّه أتى في كتابه بقصص للسلف، وتدبّرهم القرآن، وفهمهم له، وجمع فضائل قيام الليل بطرق بديعة مؤثّرة، إذا قيض لشاب في ريعانه أن يعكف على دراسته أصبح الكتاب كمربٍّ ومرشد كامل له.

وتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية **لسورة النور**، وأفاده في فترة المراهقة

---

(١) الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، صفحات من صبر العلماء، ص١٣ ـ ١٤.

الدقيقة والبيئة الموبوءة إفادة كبيرة، وكتاب تلميذه الأكبر العلاَّمة ابن قيم الجوزية: (**الجواب الكافي عن الدواء الشافي**)، فكان لهما فضل كبير في الحصانة الخلقية، والتماسك الديني والخلقي.

والكتاب الذي حضَّه على الاحترام للكتاب والأستاذ وعلى الاستفادة منهما، وأرسخ فكرة التمسّك بآداب طلب العلم هو كتاب صغير لتلميذ صاحب الهداية (**تعليم المتعلّم**).

وساعده كتاب (**الإسلام على مفترق الطرق**) لمحمد أسد على الاطّلاع على نقائص الغرب الحقيقية، وإدراك طبيعة الثقافة الغربية، واستحالة انسجامها مع الثقافة الإسلامية، ومعرفة التناقض الجذري بين الثقافتين بصورة واضحة وضَّاءة، وبعمق وإيمان.

كما أثَّر فيه كتاب (**بين الدين والعقل**) للأستاذ عبد الباري الندوي أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد، ووقع منه موقعاً عظيماً، فقد عيَّن المؤلِّف فيه حدود العقل والنقل، ومجالات عملهما في دقة وإنصاف، ووضح قصر باع التجربة الإنسانية، والعلم الإنساني وعدم استحكامهما، ووضح ما يمتاز به علم الأنبياء والمرسلين من القطعية والبعد عن كلّ ريب، وإعجاز تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢][1].

* * *

(١) انظر: فصل (الكتب التي عشت فيها) في (شخصيات وكتب)، ص، ١٥٧ ـ ٢٠٠.

الفصل الرابع

حياته العلمية

التدريس، والتأليف والدعوة

لما أتمَّ الشيخ الندوي دراساته بدأ حياةً جديدةً، حياةً كلُّها عمل ونشاط، وجدٌّ واجتهاد، ونضال وكفاح، مقبلاً على التدريس والتعليم، والكتابة والتأليف، وعاكفاً على الدعوة والإصلاح، في زهد وعفاف، وتقوى وصلاح، وإخلاص لله، ونصح للإسلام والمسلمين.

وفيما يلي عرض لهذه النواحي في بسط وتفصيل أحياناً، وإيجاز واختصار أحياناً أخرى.

التدريس:

كان العلاَّمة السيد سليمان الندوي وكيل شؤون دار العلوم لندوة العلماء التعليمية دائمَ الاهتمام برفع مستواها التعليمي والتربوي، ومن ثَمَّ كان يحاول أن يستقطبَ بها أساتذة بارعين، ومدرّسين أكْفاءً بارزين، ولما أتمَّ الشيخ الندوي دراسته تفرَّس مواهبه وقدراته وكفاءاته، فعيَّنه بقرارٍ من المجلس التعليمي مدرِّساً لعلوم القرآن الكريم وتفسيره والأدب العربي، فباشر العمل في دار العلوم اعتباراً من أول أغسطس عام (١٩٣٤م)، وكان قد بلغ العشرين من عمره.

ومما قام بتدريسه في دار العلوم: الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم (تفسيراً)، وكتاب الإيمان وكتاب العلم من (صحيح البخاري)، والنصف الأخير من (سنن الترمذي)، والجزء الأول من (تاريخ الدول الإسلامية) لمحمد الخضري، وأبواب الأدب والنسيب والمراثي من (ديوان الحماسة)، و(القراءة الرشيدة) و(حكايات الأطفال)، و(المنطق) وراجع له (مبادئ الحكمة) للأستاذ نذير أحمد، كما ألقى محاضرات عن تاريخ الأدب العربي، واعتمد في تفسير القرآن على (الكشاف)، و(معالم التنزيل)، و(المدارك)، و(تفسير المنار)، و(ترجمان القرآن)، و(روح المعاني).

لم يكن مدرِّساً تقليديّاً، ولا متَّبعاً مناهج التدريس آنذاك اتّباعاً أعمى، بل ابتكرَ منهجه لنفسه، وكان دائم التفكير في أفضل المناهج وأحسن الأساليب التي يختارها لتعليم الطلبة، وتبنَّى المنهج المباشر لتدريس اللغة العربية من دون اعتماد على ترجمة أو وساطة اللغة الأردية، ومن دون إغراق في تعليم القواعد، وتحقّق له ولزملائه في ذلك نجاح كبير، فكتب إلى شيخه محمد تقي الدين الهلالي، يخبره بذلك، ويستشيره في أمور تدريسية أخرى، فردَّ عليه الأستاذ الهلالي: «وأما نجاح الطلبة الذي لم يكن في الحساب بسبب سيركم على المنهاج الذي رسمناه من قبلُ (أي: تدريس اللغة العربية مباشرة) فلا غرابةَ فيه عندي، وسيكونُ النجاحُ في المستقبل إن شاء الله أعظم، وقد كانت لي آمال كبار في الهند لولا قلّة المال التي منعتني من البلوغ إليها، على أنَّ الأمور إنما تأتي تدريجاً، وأمَّا إحصاء المفردات التي تدرّس في الفصول الابتدائية في كل عام فهو حسن، ولا بأس باقتباس مثل ذلك من البرامج

الأجنبية، فالحكمة ضالّة المؤمن، أما المقدار المناسب للمبتدئ فأرى أن (٢٠٠) كلمة من الأسماء والأفعال كافية، وأما الروابط من الحروف والظروف والضمائر والموصولات وما أشبه ذلك فيدرج منها القدر اللازم زيادة على المئتين في السنة الدراسية الأولى، وفي السنة الثانية يزداد على مقدار السنة الأولى، فيكون عدد الكلمات ثلاثمئة مثلاً، وهكذا كلَّما تقدَّم الطالب تزداد المفردات قليلاً قليلاً، وليس القصدُ أن يحفظ الطالب هذه الكلمات حفظاً مجرّداً فذلك لا يفيدُ، ولكن تركّبُ منها جملٌ تكونُ منقسمةً إلى ثلاثة أقسام دروس أصلية، لا يزيد منها الواحد على بضعة أسطر، ثم أسئلة وأجوبتها، ثم أسئلة بلا أجوبة، ليجيبَ الطالب عنها، والاستعانة بالصور لها فائدة كبيرة»[1].

وكان يتقبَّلُ في سماحةٍ نقدَ طلابه له بأنَّه في حاجة إلى الإكثار من المراجعة والمطالعة، وسأل صديقُه مسعود عالم الندوي تلاميذه عن مدى نجاحه في تدريس مادة التفسير، فأخبروه بأنَّه أستاذ ناجح وقدير، ولكنَّه لو استزاد في المعلومات ورجع إلى مصادر علوم القرآن لكان النفعُ أوفرَ وأشملَ؛ فاستجابَ لهذا النقد استجابةً علمية، ورجع إلى أمّهات المصادر مثل: تفسير (الكشاف) للزمخشري، و(معالم التنزيل) للبغوي، وتفسير (المنار) و(ترجمان القرآن) لأبي الكلام آزاد»[2].

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٧ ـ ١٨.

(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ١٨٢.

وأسجّلُ هنا شهادةَ أحدِ تلامذته تلقي الضوءَ على منهجه في التدريس، ومدى نجاحه في مهمته، يقول الأستاذ عبد الله عباس الندوي: «سقى الله أياماً قضيتُها في ربوع ندوة العلماء عام (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤م) طالباً في مرحلة الثانوية العليا، وقد أدركتنا الرحمةُ الإلـهية أن نفتح ـ نحن الطلبة ـ عيوننا على القرآن الكريم في دروس كان يلقيها سماحة شيخنا المربّي الجليل السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي. . . وإن أنسَ لا أنسى تلك الأجواء الروحية، التي كانت تحيطُ بنا ونحن نصغي إلى دروسه، تملك مشاعرنا عذوبة نطقه، وصدق شعوره، وصفاء ذهنه، وقوة إدراكه، وحماسه المميّز في بيان ما يمسّ عقيدة التوحيد، لم نعرف فيه ما تسمى المرونة في العقيدة، وكان شديدَ الغَيرة على الحقّ، ولمّا تقدَّم بنا العمر، وتوسَّعت دوننا الآفاق، واطّلعنا على ما كتبه السلف الصالح أمثال الأئمة: ابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وابن رجب الحنبلي لم تزدنا كتبهم إلاّ تصديقاً وتثبيتاً لما غرسه شيخُنا الجليل ـ الذي كان شابّاً أيام تدريسه لنا القرآن الكريم لم يبلغ الثلاثين من عمره ـ في نفوسنا، غرس الحبّ لله، ولدينه، ولرسوله ﷺ، اللهمَّ اجزه عنّا كلَّ خير»[١].

وكانت بيئة ندوة العلماء العلمية، ومناخها الفكري ملائمين لعقله ملاءمةً تامة، يقول: «ورغم قلّة علمي وقصر باعي، وحالتي المتواضعة كان من مقتضيات تلك الفترة من العمر أن يكون هناك انسجام بيني وبين طبيعة ندوة العلماء الفكرية والدينية والثقافية التي تمثّلها وتحمل لواءها، ولذلك لم أضطر

---

(١) من تقديم (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف)، ص٣ ـ ٤.

لتكيفي مع هذه البيئة، ووضع نفسي في مكانها اللائق فيها إلى هجرة عقلية، أو رحلة ذهنية طويلة، بل شعرتُ كأنني انتقلتُ من حجرة أو زاوية في البيت إلى زاوية أخرى.

وقد كان من الأسباب وراء ذلك أيضاً أنني نشأت من البداية النشأة العقلية والعلمية في جو ندوة العلماء وفي ظلّها، وقد تلقَّفتْ أذني من الصغر أحاديثَ وروايات عرَّفتني بتاريخ ندوة العلماء، ورجالها ومؤسسيها الكبار، ووقفتني على آرائها وأفكارها، فقد كان مربّي وولي أمري أخي الأكبر، وأستاذي الشفوق الحبيب الشيخ خليل بن محمد اليماني، وأستاذي الآخر هو عمّنا السيد طلحة الحسني الذي تناول في بعض الجوانب تربيتي العقلية، كان كل واحد منهم خرّيج الندوة، والمقتطف من ثمراتها والمستفيد بها»[1].

ومكث في دار العلوم عشر سنوات يدرِّس التفسير والحديث وعلوم اللغة العربية وآدابها، والمنطق، إلى جانب إسهامه في تطوير مناهجها الدراسية، وأنشأ جوّاً مناسباً لتعليم اللغة العربية والدراسة، وبيئة صالحة للتذوّق الأدبي، والمستوى العلمي والفكري، والخلقي والديني، وترك التدريس في دار العلوم عام (١٩٤٤م) نظراً لانشغالاته الدعوية والتأليفية، ولكنّه بقي وثيق الصلة بها يسدي لها خدماته وتوجيهاته وإرشاداته.

المحاضرات:

ألقى الشيخ في الجامعة الملية بدهلي ـ على دعوة منها ـ عام ١٩٤٢م

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ١١٣ ـ ١١٤.

محاضرةً طُبعت بعنوان (بين الدين والمدنيَّة)، كانت موضعَ الاستحسان، ونشرت في الصحف، فكان لها تأثيرٌ واسعُ النطاق، وعمل أستاذاً زائراً في جامعة دمشق عام (١٩٥٦م)، وألقى محاضرات بعنوان (التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي) ضُمَّت ـ فيما بعدُ ـ إلى كتابه الكبير (رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

ومن أهمِّ محاضراته: (النبوّة والأنبياء في ضوء القرآن)، ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة بدعوة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة ـ رحمه الله ـ عام (١٩٦٣م)، وسافر إلى الرياض ـ على دعوة من وزير المعارف السعودي ـ عام (١٩٦٨م) للمشاركة في دراسة خطّة كلية الشريعة، وألقى بها عدَّةَ محاضرات في جامعة الرياض وفي كلية المعلّمين، وقد ضُمَّ بعضُها إلى كتابه (نحو تربية إسلامية حرة في الحكومات والبلاد الإسلامية)، ومحاضرات في القاهرة عام (١٩٥١م) منها بعنوان (الإسلام في مفترق الطرق) و(الدعوة الإسلامية وتطوّراتها في الهند) بدار الشبان المسلمين، و(شعر إقبال ورسالته) في كلية دار العلوم، و(الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال) في جامعة فؤاد الأول، ثم في دمشق عام (١٩٥١م) بعنوان: (شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين)، ومحاضرات أخرى عام (١٩٥٦م)، وفي الأردن عام (١٩٨٤م) محاضرة في جامعة اليرموك، وكذلك ألقى محاضرات كثيرة في عواصم الدول الأوربية، منها محاضرة بعنوان (حديث مع الغرب)، و(الإسلام والغرب) وغيرها».

الكتابة والتأليف:

تدرَّب الشيخ وهو صغير على الكتابة باللغتين العربية والأردية، ونُشرت له مقالات وتراجم بهما، وكتب مقالاً ضافياً بالعربية ـ وسنّه تتراوح بين السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر ـ بعنوان (حول النشأة الإسلامية في الهند: ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد مجدّد القرن الثالث عشر)، وأرسله إلى السيد محمد رشيد رضا صاحب (مجلة المنار)؛ فنشره في مجلّته في عدد ذي الحجة عام (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م)، وأثبتُ هنا الحلقة الأولى من هذا المقال، فإنه باكورة أعماله، ويدل دلالة واضحة على مدى تطوّر فكره ولغته وأسلوبه في هذه المرحلة من عمره:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الطيبين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلم تزل سنَّة الله في عباده ولا تزال ـ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] ـ أن يبعثَ فيهم ـ وقد أخذَ الشيطانُ قيادهم، وذهبَ بهم النسيان مذهبَه حتى ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩] ـ مذكِّراً مبشِّراً منذراً.

فنرى أنَّ الإنسان يذكر شيئاً فكأنَّه لا ينساه أبداً، ثم يضرب عنه صفحاً، فكأنَّه لم يكن قطّ على ذكرٍ منه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ﴿وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]،

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

فلا بدَّ من التذكير، ولا غنًى عنه ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس: ٧١]، ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١].

وكان محمد ﷺ خاتم النبيين ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] به أكملَ اللهُ للبشر دينَه، وأتمَّ عليهم نعمته.

مجدِّدو الأمة ومصلحوها بعده:

قال ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرينَ، على الحقِّ، لا يضرُّهم مَنْ خالفَهم**» رواه الشيخان وغيرهما، وفي (السنن): «**إنَّ اللهَ يبعثُ على رأسِ كُلِّ مئةِ سنةٍ مَنْ يُجدِّدُ لهذِهِ الأمةِ أمرَ دينِها**» رواه أبو داود وغيره.

فلم يزل في هذه الأمة مَن جدَّد لها أمر دينها، أيقظها وقد طال بها الكرى، وبثَّ فيها روحَ الحياة والعمل.

وأرجو أن يكون السيد الإمام أحمد بن عرفان مجدِّدَ القرن الماضي، وأنا على ثقة وبصيرة إن شاء الله، فمنه كان عصر النهضة الإسلامية، وإليه يرجع فضل النشأة الحاضرة.

حالة الهند العامة في عهد نشأته:

انتهت الحرب السياسية التي دارت بين المسلمين واليسوعيين في القرن الثامن، وذهبت على أثرها السياسة الإسلامية، إذ ذهبت الحمية الإسلامية، وسكرة العزة الملية، وفقد العالم الإسلامي نشاطه وروحه، ولم يبقَ يومئذٍ من الإسلام إلاَّ اسمه، ومن الدين إلاَّ رسمه.

طرأت على الهند حوادث سياسية، فكثر المفسدون، وأخذوا يعبثون فيه فساداً، ويغرسون بذور الفتنة استئثاراً بالإمارة، فلم يكن فيه من يكبح جماحهم، ويقطع دابرهم، فحدثت ثورةٌ بعد ثورةٍ، وبغوا وطغوا، وأكثروا فيه الفساد، وانقطعت وسائل الراحة والطمأنينة.

حتى إذا احتلت الهندَ الإنكليزُ لعبت يدُهم بسياسته، وساروا على قاعدة (فرِّق تسُد)، وأوقدوا نار العداوة بين أمراء الهند وملوكه، حتى صار بأسهم بينهم شديداً، وصار يقتل بعضهم بعضاً، وكانوا مع الحروب الداخلية يحاربون قوماً آخر وهو الفرنساويون، فانكسروا وانكسر الفرنساويون، وآل الأمر إلى الإنكليز.

أما ملوك دهلي[1] فبقوا كأعجازِ نخلٍ خاوية، أو خُشُبٍ مسنّدة، حتى إذا استشهد المغفور له السلطان (تيبو) الذي حارب الإنكليز، ودفع عن المسلمين عام تسعة وتسعين وسبعمئة وألف للميلاد، ضاقت على المسلمين أرضُ الهند، وكادت تلفظهم.

إنَّ ما امتاز به العرب عن غيرهم أنَّهم إذا دخلوا قرية غيّروا دينها ومدنيتها واجتماعها ومعاشرتها وآدابها ولسانها من غير جبرٍ ولا استكراهٍ، وانقادَ أهلُها مطاوعةً لهم، وحبّاً وكرامةً لطاهر عواطفهم الملية، ولكرمهم وتقواهم، وحُسن معاملتهم لهم.

وأما ملوك الهند وفاتحوه فقد خلوا من تلك العواطف الملية الطاهرة، وإنَّما ألجأتهم إليه مطامعهم، فزحفوا عليه وفتحوه، وحكموا ما شاء الله أن يحكموا، فداس أكثرهم أحكام الإسلام وشرائع الدين، كما يظهر من أعمالهم المنكرة التي يأباها كُلُّ ذي ضميرٍ حيّ فضلاً عن المتديّنين.

فالتيموريون لما استقرّت بهم الحكومةُ، أرادَ بعضهم أن يستتبّ أمره، ولم يجد بدّاً من معاضدة الوثنيين له، فألان جانبه لهم، حتى ازورَّ جانبه عن المسلمين، ومال إليهم ميلاً شغله عن الدين بالرغم من المتديّنين، فتزوَّج فيهم، وخرَّ لأوثانهم، وصار كأنَّه واحد منهم، لا يخيل لأحد أنه مسلم، ثم أمرهم بعبادة شخصه، فخرّوا له سُجَّداً وكفروا له ـ فهذا كان شأن الحكومة

(١) دهلي مهد الحكومة الإسلامية ومدفنها كانت بغداد الهند وقرطبته عدة قرون.

الإسلامية في الهند في ربيع حياتها أو ريعان شبابها، فما ظنُّك بها في وهنها وهرمها؟.

اتّخذوا القرآن هزؤاً، بل كان تلقينه والاستمساك به ذنباً لا يُغفر، فلم توجد للقرآن ترجمة في أي لسان إلا الترجمة الفارسية المنسوبة إلى الشيخ سعدي، حتى إنَّ الشيخ العلامَّة ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي حين ترجمه خشي على نفسه، واضطرَّ أن يهاجر من الهند.

وأما الحديث فلم يبقَ منه إلا روايات وأساطير كأساطير ألف ليلة وليلة، وكانوا يسجدون بين يدي القبور سجودهم بين يدي الله، فكان القبر قبلتهم التي يتوجَّهون إليها، وملجأهم الذي يلجؤون في شدائدهم وحاجاتهم إليه، فكانوا يزيّنونه، ويزخرفونه، ويطوفون به، ويعتكفون عليه، وكانت تنعقد عليه الأسواق، وتجتمع عنده المواكب، وكل امرئ رضي بشيخه رائداً، وإلى النجاة قائداً، حتى إذا توفي أحدهم دُفنت معه صحيفة عليها اسم شيخه ونسبه ظنّاً أنّها تقيه سوء العذاب.

ثم المتصوفون ـ تصوفاً مبتدعاً ـ أحلُّوا ما حرَّم الله، وجعلوا المنكر معروفاً، والباطل حقّاً، واعتدوا وأسرفوا، واتَّبعوا أهواءَهم، فضلُّوا وأضلُّوا، ونبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم، واتّخذوا دينهم لهواً ولعباً، ولذةً وطرباً، وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون، وكان الإسلامُ يومئذٍ كالمسيحية ما هي إلا أوهام ومعتقدات وأسماء سمَّوها استغناءً بها عن الأعمال».

وظهر أول كتاب له بالأردية (سيرة السيد أحمد الشهيد) وهو لم يتجاوز

الخامسة والعشرين من عمره، وقدّم له العلاَّمة السيد سليمان الندوي، فكان الإقبال عليه عظيماً، وكلَّفته الجامعة الإسلامية في (عليكره) بوضع منهاج لطلاّب الإجازة في التعليم الديني، فألَّف كتاباً أسماه (إسلاميات) أي: الثقافة الإسلامية، تقرَّر تدريسه في الجامعة، وألَّف كتباً لطلبة المدارس العربية ببلاد الهند؛ منها: كتاب (مختارات في الأدب العربي) عام (١٩٤٠م)، قُرِّرَ تدريسه في دار العلوم وبعض الجامعات، وكتاب (قصص النبيين) للأطفال، وسلسلة أخرى للأطفال باسم (القراءة الراشدة) في الفترة ما بين (١٩٤٢ ـ ١٩٤٤م).

وبدأ في تأليف كتابه المشهور (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) عام (١٩٤٤م)، وأكمله عام (١٩٤٧م)، وقد طُبِعت ترجمتُه الأرديةُ في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام (١٩٤٧م)، وألَّف ـ عام (١٩٤٧م) ـ رسالة بعنوان: (إلى مُمثّلي البلاد الإسلامية) موجَّهةً إلى المندوبين المسلمين والعرب المشاركين في المؤتمر الآسيوي المنعقد في دهلي ـ بدعوة من رئيس وزراء الهند وقتها: جواهر لال نهرو ـ فكانت أولَ رسالةٍ له انتشرت في الحجاز عند رحلته الأولى.

وألَّف ـ بتوجيهٍ من شيخه عبد القادر الرائيبوري ـ كتاباً حول القاديانية، بعنوان: (القادياني والقاديانية) عام (١٩٥٨م)، وألَّف كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية) عام (١٩٦٥م)، وكتابه (الأركان الأربعة) عام (١٩٦٧م)، و(العقيدة والعبادة والسلوك) عام (١٩٨٠م)، و(صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنّة والشيعة) عام (١٩٨٤م)، و(المرتضى) في سيرة أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب عام (١٩٨٨م).

قصة كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟):

هذا هو أشهر مؤلَّفاته، وقد جاء في حينه وأوانه، فتلقَّاه الناس بالقبول، وذاع به صيته في العالم العربي، وانتشر اسمه في العالم الإسلامي، وسأتحدَّث بالتفصيل عن مضمونه عند عرض مؤلَّفاته في الباب الرابع من هذا الكتاب[١]، وإنما أحكي هنا قصة صدوره، ظهرت طبعته الأولى عام (١٩٥٠م) عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة تحت إشراف رئيسها الدكتور أحمد أمين بك، وكتب الدكتور أحمد أمين في ١١/ ١٠/ ١٩٥٠م من القاهرة إلى الشيخ وهو في مكة المكرَّمة يبشِّره بصدوره: «يسرّني أن أخبركم بأنَّ كتابكم قد تم طبعه، وأرسلت إلى حضرتكم مئتي نسخة ـ على لكنو في صندوق.. وقد كتبتُ مقدمةً، وألحقتُ بالكتاب الأغلاطَ المطبعيةَ التي وردت، ولعلَّكَ تُسَرُّ منه عند حضورك إلى مصر بسلامة الله، وتطَّلع عليه، وذلك رغم ما أصابني من مرض أثناء الصيف، أتمَّ الله لي الشفاء، وأرجو دعواتكم في الكعبة»[٢].

يرجع إلى الدكتور أحمد أمين الفضل في إصدار الكتاب، إلا أنَّ مقدمته أضرَّت بالكتاب فلم يكتبها عن اندفاع وحماس، وإنَّما كتبها أداءً للواجب، أو إجابةً للطلب، فإنه كان لا يؤمن بفكرة الكتاب الأساسية، أو على الأقلّ لا يتحمّس لها، وقد علّق عليها المرحوم الملك عبد الله بن حسين ملك المملكة

---

(١) ص ٤٢٠.

(٢) رسائل الأعلام، ص١١٧ ـ ١١٨. ولعل مرضه هو الذي منعه من كتابة مقدمة مستفيضة تليق بالكتاب.

الأردنيـة الهاشـمية حين قرأ الكتـاب: «إنَّ هذه المقدّمة قد أساءت إلى هذا الكتاب»[1].

وقابل بعد صدوره الشهيد سيد قطب في مصر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى عام (١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م)، وكان قد قرأ الكتاب، فوجده ينسجم مع نفسيته، ويتجاوب مع تفسيره وأسلوبه، لأنه حديث عن الإسلام كرسالة عالمية خالدة خُلِقَت لتبقى وتزدهر، وتسود فتقود، ولها وحدها حقّ التوجيه والقيادة، ولأصحابها وحدهم العزّة والعلوّ، أما غيرها من الديانات فقد أفل نجمُها، ومضى عهدُهـا، وأما ما قـام على أساسـها من الحضارات فقد نفد زيتها، واحترقت ذبالتها، فطلب منه أن يقدّم لكتابه، فوافق، وكتب مقدمةً في عاطفةٍ وإخلاصٍ للغاية التي يدعو إليها الكتاب، وفي قوّة وحماسة هي من أبرز سمات كتابات سيد قطب.

وقد حكى المؤلّف نفسُه قصة تأليفه لهذا الكتاب، مع إلقاء الضوء على مجرى تفكيره ومنطلقه ووجهته، والعوامل العقلية والنفسية والدينية المؤثّرة في توجيهه، وأرى أن أقدّمها إلى القرّاء الكرام، فإنَّها تصوّر لنا نفسية المؤلّف الذي حوله تأليفُـه هذا مـن رجل قطري إلى شخصية عالمية طبقت الآفاق شهرته، يقول:

لعلَّ كثيراً من القرّاء الفضلاء لا يعلمون أنَّ هذا الكتاب كان باكورة

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٤٠.

مؤلَّفاتي، وكان بداية تاريخ التأليف، وقد ألَّفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزتُ الثلاثين من عمري تقريباً[1]، وكان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السنّ المبكّرة، وفي بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها، وقد ولدتُ في الهند، ونشأتُ وتعلَّمتُ فيها، ولم يُقدَّر لي أي سفر خارج الهند، وكانت الرحلة الأولى المباركة التي وفّقني الله لها هي الرحلة التي قمتُ بها لأداء فريضة الحج عام (١٣٦٦هـ)، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات، فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئاً ولا مرشَّحاً لها، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي، وبعقل أوسع من عقلي، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلِّف، ولكنَّ اللهَ يفعل ما يشاء.

لقد كنتُ أشعرُ برغبة غامضة ملحَّة لم أستطع أن أغالبها، كأنَّ سائقاً يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع، ولو استشرتُ العقل، واعتمدتُ على تجارب المؤلِّفين، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية لأحجمت، ولعدلتُ عن هذه الفكرة، ولو ذكرتُ ذلك لأحد العقلاء العلماء، والكُتَّاب الفضلاء لأشاروا عليَّ بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية، ولكنَّه كان من الخير أنني لم أستشر أحداً.

وكانت المراجع العربية التي كان لا بدَّ أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلة، لأنَّ ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية، وكانت الصلات تكاد

(١) كان تأليفه بين عام (١٣٦٣ ـ ١٣٦٤هـ).

تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافية باللغة العربية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة.

أما المراجع العلمية باللغة الإنكليزية والأردية فكانت متوفّرة، وكانت بمتناول يدي، وكانت في لكنو ـ مدينة العلم والثقافة ـ مكتباتٌ غنيةٌ، فيها أحدث المطبوعات الإنكليزية والموسوعات العلمية، وكنتُ على اتصال بها أستعير منها الكتب وأطالعها، وأستفيدُ من بعض المكتبات الشخصية، وكان من تيسير الله تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب أنّي كنت طالعتُ قريباً تاريخ أوربة سياسةً واجتماعاً، وديانةً وخلقاً، وحضارةً وثقافةً، بنهامة وفي توسّع وعمق، وعنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم، والبلاط والكنيسة دراسة اختصاصية، وتاريخ الأخلاق في أوربة وتطوّرها، والعوامل التي صاغتها صياغة خاصة، انتهت بها إلى هذا المصير المادي، الذي أثّر في مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها تأثيراً عامّاً وحاسماً.

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية والإسلامية، ودياناتها وحركاتها وفلسفاتها، وتاريخ الإسلام والمسلمين، وتاريخ العرب في الجاهلية والإسلام من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع، ومن خلال الشعر والأدب، فكان أيسر لي نسبياً بفضل ثقافتي الدينية والأدبية والتاريخية، ولأن موادّها كانت متوفّرةً في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، ومكتبات شخصية، وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر في شبه القارة الهندية، ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية.

زد إلى ذلك التكوين العقلي والنفسي الممتاز، المؤمن بخلود رسالة الإسلام، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور، وبالنقص الواقع في طبيعة الحضارة الغربية، ومزاج الأمم الغربية، الذي لا يفارقها في حال من الأحوال، وظهوره في شكل مجسم في قيادتها، وذلك نتيجة تربية أخي الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني أمين ندوة العلماء العام الذي كان مثالاً فريداً في الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية، وعمق فهمه للإسلام، واتزانه الفكري البعيد عن كلِّ غلوّ وتطرّف.

وقد جعلني كلُّ ذلك أنتفع من دراساتي المتنوّعة ـ المتناقضة أحياناً، المشوّشة لكثير من القرّاء، الذين لا يزالون في سنّ المراهقة الفكرية ـ وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة، و﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. وتزداد بها ثقتي بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة في كلِّ عصر، وإيمان بأنَّ محمداً ﷺ هو خاتم الرسل، وإمام الكلّ، ومنير السبل.

وكنتُ أشعر بخطر الموضوع وأهميته، وبقلّة بضاعتي، وحداثة سنّي، وقلّة أعواني، وجدّة موضوع الكتاب وطرافته، ولكن لم أكن في الحقيقة مخيَّراً، بل كنتُ مسيَّراً، كأنَّ هاجساً يهجس في ضميري، ويقول لي: لا بدَّ من وضع كتاب في هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم، أنَّ الموضوع كان مبتكراً (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير الإنساني وبالأوضاع العالمية، حتى يجوز

أن يقال: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أو ماذا سيربح العالم ويجنيه من الفوائد بتقدّم المسلمين وتسلّمهم لقيادة البشرية؟.

كان الناس قد اعتادوا في ذلك العصر، وقبل العصر الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العلمي، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادي وكأمة من أمم كثيرة، ولكن تشجع مؤلف هذا الكتاب، وتخطَّى هذه الحدودَ المرسومةَ، وخرج من الإطار التقليدي الذي فرض على المؤلّفين والكُتَّاب من العرب والعجم، فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، وشتّان بين النظرتين، نظرة يُنظر بها إلى المسلمين من خلال العالم، ومن خلال الحوادث التي جرت في العالم، ومن خلال التطوّرات التي حدثت في التاريخ، المسلمون شعب من الشعوب، يخضعون لما يجري في العالم في إطار عالمي واسع، فكان المنهج الفكري العام وأسلوب البحث الدائم، ماذا خسر العالم بسبب الحادث الفلاني؟ وبسبب انقراض الحكومة الفلانية، ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التي حدثت في الغرب؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي القوة الحربية؟.

كان ذلك المرسوم التقليدي الذي اعتاده الناس، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى ألهمني وشرح صدري لأن أكتب في موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ كأنَّ المسلمين هم العامل العالمي المؤثّر في مجاري الأمور في العالم كلّه، ليس في بقعة جغرافية محدّدة، أو منطقة سياسية خاصة، هل

المسلمون حقّاً في وضع يمكن أن يقال: إنَّ العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم؟ هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال: إنَّ العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم، وبتخلّفهم عن مجال القيادة العالمية؟ إنّني أخاف وأخشى أنَّ كثيراً من الكتّاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة، وكانت لهم سوابق عديدة لم يفكّروا هذا التفكير. إنَّ تشويه التاريخ الإسلامي والنظر إليه من زاوية ضيقة ومركب النقص الذي أصيب به الجيل الجديد المثقّف، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية، أين المسلمون من القيادة العالمية؟ المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون محكومون من الغرب، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة... فهل يصحُّ أن يُربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين وواقعهم؟!.

لا، إنَّ كثيراً من الناس لم يكونوا يصدّقون في ذلك الحين أنَّ المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة، ما يؤهّلهم لهذا البحث، ويسوّغ لمؤلف أن يؤلّف كتاباً، فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنساني والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين، إنَّ الموضوع كان خطيراً، وكان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك.

أَلَّفتُ هذا الكتاب على تردّد وخوف، لأنّني كنتُ جديداً في مجال التأليف، خصوصاً في اللغة العربية[1]؛ فقد كانت صلتي بها صلة دارس، يولد

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة (قصص النبيين) للأطفال: ١ ـ ٢، و(القراءة الراشدة): ١ ـ ٣، و(مختارات من أدب العرب) وكلها كتب دراسية أُلِّفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المعاهد الدينية في الهند.

بعيداً، ويعيش بعيداً عن مركز الثقافة العربية، وعن مركز العلوم الإسلامية الأصيل، وكان يساورني شك، هل ينال الكتاب تقديراً في البيئات العربية الإسلامية البعيدة؟ فأرسلتُ قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر، ورئيس الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، وقد نالت كتبه خصوصاً سلسلة (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) إعجاب القرّاء الباحثين، وكان لها دويٌّ في الأوساط العلمية، وكنتُ معجباً بها، وقد درستُها دراسة عميقة، وعلّقت على آرائه بالموافقة في الغالب، وبالنقد والاختلاف في بعض الأمكنة، وأُعجبتُ بأسلوبه المركَّز الذي يجري مع الطبع، وآثرتُ أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التي كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة في الشرق العربي، فيُقبِل على قراءته الشباب المثقّف، والمعنيون بالأبحاث العلمية والدراسات الموضوعية، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التي تعطي فكرة إجمالية عن الكتاب، ومؤلّفه مجهول، ليس له أثر علمي ولا شافع ولا مزكٍّ.

وفوجئتُ بكتاب تلقَّيته منه يطلب مني فيه نموذجاً من هذا الكتاب، فأرسلتُ إليه قطعة من الكتاب.

وقعت موضوعات الكتاب، والعناوين الجانبية التي كانت تدلّ على محتويات الكتاب، وما حوته من مادة وبحوث، من الدكتور موقعاً حسناً، ولكنَّه تخوَّفَ أن يكون هذا الكتاب الذي صدر من قلم عالم ديني نشأ وتثقّف بعيداً عن العالم الغربي يغلب عليه الطابع الديني واللغوي ـ شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة ـ فسأل: هل استفاد المؤلّف من المراجع الأجنبية؟

فلمّا كان الجواب بالإيجاب، وأرسل المؤلّف ثبت المراجع الإنكليزية، اطمأنَّ الدكتور، وأخبر بأنّ اللجنة قرّرت طبع هذا الكتاب، وأبدى إعجابه بالكتاب سواء من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية، وكان اليوم الذي تلقّى فيه المؤلّف هذه الرسالة من الدكتور من أعظم أيام العمر فرحاً وسروراً، لا ينساه المؤلّف حتى هذا اليوم.

ومضت على ذلك شهور، وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب، وذلك في عام (١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م)، وفوجئتُ بنسخة مطبوعة عند سفير سورية الأستاذ (جـواد المرابط) عضو المجمع العلمي بدمشـق، كان قد اسـتصحبها من القاهرة، وكان يبدي إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالتهم، مستشهداً بهذا الكتاب، الذي وقع إلى يده في زيارته القريبة لمصر، وهو لا يعرف أنّه يتحدّث إلى مؤلّفه. ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلّف الشاب المغمور، الذي يفاجأ بأثره العلمي التأليفي الأول الصادر من أكبر دور النشر، فاستعاره من سعادة السفير ليردّه إليه بعد مطالعته، ولكنه فوجئ كذلك بأنّ المقدّمة الصغيرة التي قدّم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب لم تكن فيها تلك القوة التي كان يتوقّعها المؤلّف من كاتب إسلامي كبير كالدكتور أحمد أمين، وكان متحفّظاً شديد التحفّظ في إبداء انطباعاته عن الكتاب ومؤلِّفه[1].

ولم يكن الأمر غريباً ـ وإن كان ثقيلاً على المؤلّف ـ فليس كلّ من يقدّم كتاباً يتحمّس للموضوع الذي كتب فيه، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدّم

(١) لعل ذلك كان بسبب مرضه كما بينه في رسالته إلى الشيخ. انظر: ص١٣٩.

يتجاوب مع فكرة المؤلّف، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، وليس كلّ باحث علمي وكاتب كبير ـ وإن كان في درجة الدكتور أحمد أمين بك ـ يرى أنَّ العالم قد خسر حقّاً، والإنسانية قد نُكبت نكبةً كبيرة بانحطاط المسلمين، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمي، فذلك نمطٌ خاصّ للتفكير والتفسير للتاريخ، ليس من اللازم أن يقتنع به كلّ مؤلّف ودارس، وليست التبعة على الدكتور أحمد أمين ـ وفضله لا ينكر في نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر الموقرة ـ ولكن التبعة على مؤلّف هذا الكتاب الذي أمَّل فيه الآمال البعيدة، وحمله ما لم يتهيّأ له فكرياً وعملياً، ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج، ثم لعلَّ الدكتور أحمد أمين الذي كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلّفين والأدباء، خاف ـ وله الحق ـ أن يعطي المؤلّف الذي لا يعرفه معرفة شخصية، ولم يتحقّق مستواه العلمي والنظرة التي ينظر بها إليه مواطنوه وعلماء بلاده أكثر مما يستحق، فيقال: إنّه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته وقيمته، وسامحه الله، وجزاه عن المؤلف والقرّاء أحسن الجزاء، فقد كان السبب في وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنوّرة التي لا تعير كتاباً يصدر عن مؤسسة دينية شيئاً من العناية والاهتمام.

واتفقت رحلة المؤلّف إلى مصر في يناير عام واحد وخمسين وتسعمئة وألف بعدما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجد أنَّ الكتاب قد شقَّ طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية، وحلّ منها محلاً لم يكن يتوقّعه أن يحل به، وقد قُرئ في نطاقٍ أوسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام

وانتفاضته، وصحوة المسلمين، وكان نشاط الإخوان المسلمين قد بدأ يدبُّ، وخُفِّفَ الخناقُ عليهم بعض التخفيف، وكأنَّ هذا الكتاب قد جاء في أوانه ومكانه، وتناغم مع شعورهم وما يدعون إليه، وكان الجرحُ عميقاً ودامياً: شهادةُ الإمام الشهيد وحلُّ حركة الإخوان، فجاء هذا الكتاب مسلّياً معزّياً، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم، وشحنة جديدة وزاداً ومدداً لبطاريتهم، فقرؤوه في المعتقلات، وقرروه في منهج الدراسة والمطالعة، واستشهدوا ببعض عباراته في المحاكم، واستقبلوا ـ بطبيعة الحال ـ مؤلِّفه بحماس وحبّ، وكان الكتاب خير معرّف للمؤلّف الزائر الجديد، وممهّداً للثقة به والحديث معه.

وكان الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب في مقدمة من رحَّب بهذا الكتاب وعُني به، وشجَّع تلاميذه وإخوانه على مطالعته، وفي يوم من الأيام[١] تلقَّى المؤلّف دعوةً من الأستاذ سيد قطب لحضور ندوة تجتمع في منزله بحلوان كل جمعة، وتبحث في موضوع إسلامي، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين، وتتناول البحث فيه، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب (ماذا خسر العالم؟) وقد لخَّصه أحد تلاميذه من خريجي جامعة فؤاد الأول، فلبَّى المؤلّف هذه الدعوة الكريمة الحبيبة، التي هي رمزٌ لتقدير مجهوده العلمي الكتابي المتواضع وتشريف له، فحضر هذه الندوة وساهم في البحث، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجَّهة إليه كمؤلّف.

---

(١) كان ذلك في التاسع عشر من رجب عام سبعين وثلاثمئة وألف.

وهنالك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد ليقدّم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوي، وأسلوبه العلمي الهادف، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس، وكتب تلك المقدمة القوية التي زادت في قيمة الكتاب وقوته.

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ كلية أصول الدين في الأزهر، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر ـ الذي كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوّهين به، والحافزين على قراءته ـ إصدار الطبعة الثانية المنقّحة من جماعة الأزهر[1]، فسمح له المؤلّف شاكراً مسروراً، وأخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين، وكتب مقدمةً يتجلّى فيها إخلاصه وحبّه، واستجابته للفكرة، حلّى بها جيد الكتاب. وفاجأ المؤلفَ صديقُه الدكتور أحمد الشرباصي أحد علماء الأزهر وأساتذته، في إحدى زياراته، فاختلس منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته، ودراساته وحياته، لا يعلم المؤلّف ماذا سيصنع بها، فكوّن بها مقالاً عن المؤلّف عنونه بـ(أخي أبو الحسن) صورة وصفية، وضمّه إلى الكتاب، ولم يعلم به المؤلّف إلا حين صدرت الطبعة الثانية عام (١٩٥٣م)، وتلت هذه الطبعة طبعات وترجمات في لغات الشرق والغرب، وها هي ذي الطبعة الثالثة عشرة القانونية، وهذه قصة الكتاب في إيجاز وصدق وصراحة، ولله المنّ والفضل أولاً وآخراً».

(١) وذلك في ٣ حزيران عام (١٩٥١م).

الصحافة:

شارك الشيخ زميله الأستاذ مسعود عالم الندوي، ومحمد ناظم الندوي في تحرير مجلة (الضياء) العربية الصادرة من ندوة العلماء عام (١٩٣٢م)، وكانت أول مجلة صدرت في الهند باللغة العربية تحت إشراف العلاَّمة السيد سليمان الندوي والدكتور تقي الدين الهلالي، وكان صدورُ المجلة تدريباً كبيراً للشيخ وغيره من ناشئة دار العلوم على اللغة العربية، وكان صدورها من بلدٍ غير عربي حدثاً كبيراً رحَّبَ به العلماء الأعلام، وعلى رأسهم العلاَّمة رشيد رضا، فقد كتب في عدد المحرم عام (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) من مجلة (المنار) ترحيباً بمجلة (الضياء) تحت عنوان: (نهضة جديدة لإحياء لغة الإسلام العربية في البلاد الهندية):

«لعلَّ صاحب هذه المجلة (المنار) أول من فطن في هذا القرن لما غفل عنه المسلمون منذ بضعة قرون من كون الإسلام قد جعل اللغة العربية لغةً لجميع المسلمين بالتبع لدينهم، الذي هو كتاب الله المنزل بلسان عربي مبين، وسنّة رسوله العربي الكريم ﷺ، وإنَّ هذا أمر مجمع عليه بين المسلمين، وجرى الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون على تنفيذه في جميع الشعوب غير العربية، إلى أن قوي الأعاجم، وصار لهم دول تتعصَّب للغاتها، وترجّحها على لغة دينها، بجهل ملوكها وحكامها بحقيقة الإسلام وبنائه على أساس الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية التي تحقق أخوّة الإسلام، وكون أهله أمةً واحدةً، لا يفرق بينهم جنس ولا وطن ولا لغة.

دعونا المسلمين إلى إحياء لغة دينهم منذ عشرات السنين، وكان أكبرُ

أملنا في إجابة هذه الدعوة من قِبَل الشعوب الأعجمية: الشعب الهندي؛ لأنّ تمسّكه بلغته الأوردية ليس مقترناً بعصبية دولية كعصبية الفرس والترك، بل عصبيته الإسلامية أقوى من كلّ عصبية، وإنَّما كان جعلُه التعليم العام بلغته الوطنيـة وجعلُـه العربيـةَ لغة علماء الدين فقط لأسباب عارضة لا محلَّ هنا لبسطها، وطالما كلَّمت العلماء والزعماء منهم، الذين كنت ألقاهم بمصر في وجوب إحياء اللغة العربية في بلادهم، فيعترفون بالوجوب، ويعتذرون عن أداء هذا الواجب.

ولمَّا زرتُ الهنـد عام (١٣٣٠هـ) إجابةً لدعوة جمعية ندوة العلمـاء لرياسة مؤتمرها العامّ كلَّمتُ كثيراً منهم في هذا الواجب، ونوَّهتُ به في بعض الخطب العامة التي ألقيتها في معاهد العلم، ولا سيّما علماء مدرسة ديوبند فرأيتُ منهم قبولاً وارتياحاً.

وأبشّرُ العالم الإسلامي اليوم بأنَّه قد وصل إلينا قبل إتمام تحرير هذا الجزء من المنار (الذي تأخَّر صدوره عن وقته ليصدر مع الذي بعده) مجلةً عربيةً أنشئت في لكنو، مركز ندوة العلماء باسم (الضياء) لأجل هذا الغرض، وجعلت تحت إشراف صديقينا الأستاذين الجليلين العلاَّمة السيد سليمان الندوي والعلاَّمة الشيخ تقي الدين الهلالي المغربي، فإننا نعجل بنشر فاتحتها للأول في هذا الجزء».

وتولَّى كتابة افتتاحيات مجلة (المسلمون) ـ الصادرة من دمشق ـ في الفترة ما بين (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩م)، وظلَّ بعدها يشارك في الكتابة فيها، كتب إليه الدكتور سعيد رمضان صاحب مجلة (المسلمون) في ١٤ من شهر ربيع الأول

(١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م): «صدر العدد الأول من (المسلمون) وإنَّما تأخَّر لقلّة المقالات، وفيه شطر محاضرتكم في المدينة، وأحبُّ أن أنتهز هذه الفرصة فأناشدكم نيابة عن أسرة (المسلمون) كلّها أن تفكّروا في البدء في سلسلة مستمرّة تحت عنوان (نظرات في كتاب الله) أو (نظرات في السيرة) وكونها مسلسلة تستعرض الكتاب الكريم أو السيرة المطهّرة، سوف يعين كثيراً في تنمية المزاج الرائع الذي تحتاجه صفوف الحركة الإسلامية المختلطة أشد ما تحتاج»[١].

وكتب إليه الدكتور سعيد رمضان مرةً أُخرى: «أناشدكم الله أن تبدؤوا من العدد العاشر من (المسلمون) إن شاء الله أول السلسلة التي اتفقنا عليها فيما شرح الله له صدركم من أي موضوع (في أضواء السيرة) أو (بين يدي النبي ﷺ) أو (إشراقة النبوّة عبر تاريخنا الملّي) أو (منهاج النبوة في التربية) أو (بين السيرة وحركات التجديد) أو (المزاج النبوي من الكتاب والسيرة) أو (نظرات في كتاب الله) أو (تأملات في التنزيل) أو (مع فلسفة القرآن بين روحانية المحراب وكفاح الحياة) أو (مع تلامذة النبوة عبر تاريخنا الطويل) أو، أو، أو، . . . وخزائن رحمة الله لا يفتحها سواه سبحانه. وإنَّما طلبتُ أن نفتتح السلسلة في العدد العاشر إن شاء الله كي نستعينَ بذلك بعدَ فضلِ الله في دعم أسرة المشتركين، وتوسيع دائرتها في العام الجديد، الذي يبدأ بالعدد الأول بعد ذلك مباشرة إن شاء الله تعالى، ويلزمنا لذلك أن يصلنا المقال الأول من السلسلة بالبريد

---

(١) رسائل الأعلام، ص١١٠ ـ ١١١.

الجوي المسجّل في جنيف قبل العاشر من صفر إن شاء الله، والخامس عشر على الأكثر»[1].

كما ظهرت له مقالات في مجلة (الفتح) للأستاذ محب الدين الخيطب، وفي مجلة (حضارة الإسلام) للدكتور مصطفى السباعي، وكان لمقالاته صدى طيب، يقول الدكتور مصطفى السباعي في بعض رسائله إليه المكتوبة في ٢٤ صفر (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م): «... وصلني مقالكم القيّم على (أثر الإسلام في الحضارة الهندية). وشكرنا لكم جميل تلبيتكم إجابتنا بالكتابة في المجلة الجديدة (حضارة الإسلام) وقد صدر منها العددان الأول والثاني في جزء واحد، وفيه مقال لفضيلتكم عن (إقبال في مدينة الرسول) ﷺ وسيصدر العدد الثالث إن شاء الله في ذكر مولد الرسول ﷺ، وفيه مقالكم القيّم، وإنّي لأرجو أن تمدّوا قرَّاء المجلة دائماً بثمرات علمكم وإخلاصكم حتى يجدوا في كلّ عدد أثراً من آثار قلمكم، يغذّي عقولهم وأرواحهم في عصرٍ طغت فيه المادية، وقست القلوب، وأُنكِرَ على الإسلام فضله، وإني أترك لفضيلتكم اختيار المواضيع التي تحبّون أن تتحفوا بها قرّاء مجلّتكم (حضارة الإسلام) فهي لكم ومنكم، ولسنا إلا واسطةً لإيصال الخير إلى قلوب الشبان المسلمين، وأرجو من الله حسن المثوبة وقبول العمل، وإخلاص النية. أرسلنا لكم في البريد (حضارة الإسلام) والطبعة الثانية من (اشتراكية الإسلام)، ونحن نعد الآن طبع مقدّمة (من روائع حضارتنا) كما اقترحتم في رسالتكم التي

(١) المرجع السابق، ص١١٢ ـ ١١٣.

وصلتني متأخّرة جدّاً، بسبب غيابي عن دمشق للاستشفاء في بعض المدن السورية، أرجو دعواتكم»[1].

ورأس تحرير مجلة (الندوة) الأردية ـ لسان حال الندوة ـ عام (١٩٤٠م)، وأصدر مجلة (التعمير) الأردية عام (١٩٤٨م)، وأشرف على إصدار جريدة (نداي ملت) الأردية الصادرة عام (١٩٦٢م)، وكان المشرف العام على مجلة (البعث الإسلامي) العربية الصادرة منذ عام (١٩٥٥م)، وجريدة (الرائد) العربية الصادرة منذ عام (١٩٥٩م)، وجريدة (تعمير حيات) الأردية الصادرة منذ عام (١٩٦٣م)، والمجلة الإنكليزية (The Fragrance) الصادرة منذ عام (١٩٩٨م)، أربعتُها تصدر من ندوة العلماء، وكان هو المشرف العام على مجلة (معارف) الأردية الصادرة من دار المصنّفين بأعظم كره، و(مجلة الأدب الإسلامي) الصادرة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية مكتب البلاد العربية، ومجلة (كاروان أدب) الصادرة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية مكتب بلاد شبه القارة الهندية.

السياسة:

لم يهتمّ الشيخ الندوي بالسياسة كأحد لاعبيها قط، ولكنّه عاش الأوضاع السياسية للمسلمين في الهند والعالم العربي والإسلامي يتأثّر بها ويستوحيها، ويقوم بإسداء التوجيهات والنصائح للمسلمين.

يرى الشيخ الندوي أنَّ السلطة نتيجةٌ لا غاية، وكان يرشِدُ الجماعات

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤ ـ ٩٥.

الإسلامية إلى أن تجعل غاية سعيها وعملها الدعوة إلى الله، كما كان يؤكِّدُ أنَّ الهدفَ من إقامة الحكم الإسلامي هو الهداية وليس الجباية، وكتابه (التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات المودودي وسيد قطب) يترجِمُ عن موقفه من الفكر السياسي الإسلامي[١].

أكبر حركة شعبية شهدتها الهند في بداية القرن العشرين هي: (حركة **إحياء الخلافة**) التي قادها محمد علي جوهر، ولما كانت الحركة في أوج شبابها وازدهارها كان الشيخ الندوي لم يتجاوز العاشرة من عمره، وقد أثَّرت في عقله ونفسيّته تأثيراً كبيراً، يقول: «وقد كنتُ لم أتجاوز بعدُ العاشرةَ من عمري عندما وقع هذا الحادث المشؤوم (أي: الإطاحة بالخلافة العثمانية)، ولذلك لم أكن أشعر عند ذاك بفداحة الخطب وهول الواقع ونتائجه البعيدة، ولكن عند ذكر (حركة الخلافة) التي يبدو لي الحديث عن قوّتها وحماسها واضطراب المسلمين من ذوي الغَيرة والحمية وقلقهم لها كانت حديث أمس، لم يكف قلمي عن إبداء هذه العواطف والحقائق التي كان إدراكها وسبر غورها فوق عمري وشعوري»[٢].

ورأى الندوي استقلال الهند ثم انقسامها، وكان من المعارضين لفكرة التقسيم، لأنه لن يكون في صالح المسلمين، بل سيفقدهم نفوذهم السياسي

---

(١) انظر: الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن الندوي، للأستاذ تركي السلماني، وهو من منشورات دار القلم بدمشق. (ن).

(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

وتأثيرهم الديني، بل ويجني على حركة الدعوة الإسلامية والخلقية التي كانت ولا تزال المنقذ الوحيد لشبه القارة الهندية»[1]، وهذا الرأي هو الذي رآه معظم علماء المسلمين في الهند، ولم يعد خافياً على العالم اليوم ما تركه ذلك الانفصال من مشاكل يواجهها المسلمون في الهند وكشمير وباكستان وبنغلاديش.

كما شهد كارثة ضياع فلسطين الكبرى عام (١٩٨٤م) بقيام الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي، ثم شهد نكبة الخامس من حزيران عام (١٩٦٧م)، فكان للحادثين تأثير كبير في نفسه، وتصدى لأسباب الكارثة الحقيقية، وأعرب عن حزنه البالغ عليها.

لم يخض المضمار السياسي التقليدي، ولكنه اهتمَّ دائماً بالمسلمين سياسيّاً، يقول: **«والذين يلقنون الناس بأنَّ السياسة ليست إلا الشجرة الممنوعة، بل هي الشجرة الملعونة في القرآن، ويشيرون على الأمة باعتزالها تفكيراً وعملاً، أو يوصونها بأن يشتغلوا بإقامة المؤسسات الخيرية، أو رفع مستواهم الاقتصادي فحسب، الذين يوجّهون هذا التوجيه، إنهم في الواقع يشيرون عليها بالانتحار الاجتماعي والقومي، فإنَّ المسلمين حينذاك لا يستيطعون أن يحافظوا على شخصيتهم المليّة، وفرائضهم وشعائرهم الدينية، وقوانينهم الإسلامية، ولا يعودون قادرين على حماية معقتداتهم وحضارتهم، ولا يمكن لهم أن يعيشوا في البلاد أعزّة كرماء، فضلاً عن أن يتولّوا منصب**

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٠٢.

القيادة والدعوة، الذي هو دورهم الحقيقي ومهمتهم الأساسية، وإنَّ البيئة العلمية والعقلية الخاصة التي نشأتُ فيها، والتي لم تنقطع يوماً واحداً عن حقائق الحياة وقضايا الأمة، لم تسمح لي بهذا التفكير واختيار هذا المنهج السلبي، ولم أستطع أبداً أن أغمض عيني عن خطورة قضايا المسلمين وضرورة الجهد في سبيلها»[1].

الدعوة:

وعُني الشيخ بالدعوة إلى الله تعالى منذ صغره، فقد حرَّضته أمه على دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية من أجل الدعوة، وحدث عام (١٩٣٥م) أنَّ الدكتور (أمبيدكر) كبير المنبوذين، والحقوقي المرموق الذي وضع دستور الجمهورية الهندية أعلن أنَّه يبحث عن دين حقّ يعتنقه وشعبه، وسيتخذ خطوةً إيجابيةً بشأن دين يرتضيه[2]، فاضطرب شيخه خليل اليماني لذلك كثيراً،

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٣٣٥.

(٢) وقد دوى صوت هذا الإعلان في العالم العربي كذلك؛ إذ نشرت مجلة (الفتح) في عددها (٤٧١) بتاريخ ١٧ شعبان (١٣٥٤هـ) ـ نوفمبر (١٩٣٥م)، ص٩٠٨ مقالة للأستاذ بدر الدين الصيني بعنوان (ملايين الهنادك على أبواب الإسلام يريدون أن يدخلوها): «إنَّ الدكتور (أمبيدكر) زعيم المنبوذين خطب في مؤتمر للمنبوذين عُقد تحت رئاسته ببلدة ناسك يوم ١٨ من شهر رجب سنة (١٣٥٤هـ)، واشترك فيه آلاف من المندوبين والمستمعين الذين جاؤوا من ولاية بمباي وأرجائها، وقد استهلَّ هذه الخطبة بقوله: إننا قد سعينا منذ مدة طويلة في سبيل التعاون والالتحام مع الهنادك، فغصبوا حقوقنا السياسية =

وكلَّفه هو وأخوه الذي كان يشاركه في هذا الاتجاه والاهتمام بالدعوة في غير المسلمين أن يحمل بعض الكتب الدعوية باللغة الإنكليزية وترجمة معاني القرآن الكريم إلى الدكتور أمبيدكر، وكان الشيخ خليل قد أوصاه بسريّة، هامساً في أذنه أنّه إذا حال دون قبوله للإسلام أمرُ سماحِ المسلمين بعقد رابطة المصاهرة بينهم وبين من يعتنق الإسلام من شعبه، أن يوافق عليه نيابة عنه، وقال ذلك بلهجة ملؤها الرقة والانفعال، فسافر إلى بومباي، وقابل الدكتور أمبيدكر، وشرح له الإسلام، وقدَّم الكتب إليه.

وخرج الشيخ عام (١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م) مع رفيقين له يطَّلع على مشاريع التعليم والتربية ومراكزهما في الهند، وانتهت به هذه الرحلة إلى دهلي، ومنها إلى (ميوات) المنطقة المعروفة في التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب والغارة، حتى إن أبواب سور دهلي كانت تُقفل بعد الغروب خوفاً من هؤلاء اللصوص، فلمَّا زارها وجد انقلاباً مدهشاً في النفوس، وتنقَّل في قراها

= بتقريبنا إليهم، ورأيناهم مع ذلك غير مستعدين لأن يعاملونا معاملة الإنسان بالرغم من وعودهم بأن يعترفوا لنا بحق المساواة، إذاً فمن العبث الآن أن نطلب منهم هذا الحق، فعلى طبقة المنبوذين أن يختاروا الدين الذي يمتعهم بحق المساواة، ويرفعهم إلى درجة تسوّيهم مع المعتقدين به. فارتفع صوت من الجماهير: لماذا لا ندين بالمسيحية؟ قال الخطيب: هناك تجد التمييز بين الأبيض والأسمر أشدّ مما نجده بين الطبقة المنبوذة والطبقة الممتازة من الهنادك، أنا لا أشير عليكم بدين خاص تدينون به، ولكني أقول لكم: يجب عليكم أن تختاروا الدين الذي يعطيكم المساواة».

وبواديها، وتتبَّع الأخبار، فعلم أنَّ الذين كان القتل عندهم أهونَ شيءٍ، وقد يقتلون المرء لأمر تافه ودرهم زائف؛ أصبحوا يحرسون الأموال والأعراض، ويعفُّون عن المحارم، ورأى فيهم إقبالاً على العلم، وتواضعاً وحفاوةً وضيافة ودماثة خلق، وإيثاراً على النفس وألفة ومودة لا توجدان في هذا العصر المادي، وعزوفاً عن الشهوات، وصبراً على المشاق، وإيماناً وصلاحاً.

فاستفحص عن منبع هذا الانقلاب، فسمع أن لا جمعية ولا جامعة، ولا دعاية ولا صحيفة، إنما هو الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رجل متواضع في دهلي، قد بثَّ الروح في هذه الأمة المنحطّة، فزاره في دهلي، وصحبه مدة طويلة، ورافقه في السفر والحضر، ورأى نواحيَ من الحياة لم تنكشف له من قبلُ، ومن أغرب ما رأى يقينه الذي استطاع أن يفهم به يقين الصحابة، رآه يؤمن بما جاء به الرسل إيماناً يختلف عن إيمان غيره من الناس اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة، ورآه في حالة عجيبة من التألّم والتوجّع والقلق الدائم كأنّه على حسك السعدان، يتململ تململ السليم، ويتنفّس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة.

كان هذا اللقاء نقطة تحوّل في حياة الشيخ الندوي، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في حياته، فبعد أن كان عالماً معنياً بالتدريس والكتابة، أصبح يهتمّ لأمر المسلمين، وصارت الدعوة إلى الله تعالى أكبر همّه، ظلَّ رافعاً لواءها طول حياته في الهند وخارجها، بين العرب والعجم، ونفخت هذه الدعوة روحاً في كلماته، في خطاباته وكتاباته، ومن هنا جاء التأثير في كلماته.

وأُعجبَ الشيخ بكتابات الأستاذ المودودي الفكرية والدعوية، فاستدعاه إلى ندوة العلماء، ونظم له محاضرات وأحاديث، وتوثق الصلات بينهما، حتى انضم إلى الجماعة الإسلامية التي كان الأستاذ المودودي قد أنشأها، ولكنَّ منهجها لم يعجبه كثيراً فانفصل عنها بعد قليلٍ مع احترام لعطاء الأستاذ المودودي، واعتراف بنبوغه الفكري.

* * *

الفصل الخامس

رحلاته

بدأ الشيخ رحلاته في سبيل العلم، وواصلها في سبيل الدعوة إلى الله تعالى والتعليم والتربية في مدن الهند وقراها، وبلاد العالم العربي، والعالم الإسلامي، ثم أوربة وأمريكة، ومن الصعب جدّاً الإحاطة هنا بتفاصيل رحلاته، ولكن سأعرض للأهم منها بشيء من البسط، مع الإشارة إلى بعضها، وإهمال كثير منها.

رحلة الحج:

أول رحلة قام بها إلى خارج الهند كانت رحلته لأداء فريضة الحج عام (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م) مقرونةً بالدعوة والتبليغ، وأقام بالحجاز ستة أشهر، وتعرَّف على كبار علمائها أمثال الشيوخ: عبد الرزاق حمزة، وعمر بن الحسن آل الشيخ، والسيد علوي المالكي، وأمين الكتبي، وحسن مشاط، ومحمد العربي التباني، ومحمود شويل، وكانت رسالته (إلى ممثلي البلاد الإسلامية) قد طُبعت، فكانت خير معرّف لمؤلّفها في الحجاز، وقد قرأها ذات يوم محمد علي الحركان على طلابه في المسجد النبوي الشريف، واطّلع فضيلة الشيخ عبد الرزاق إمام الحرم المكي على مسودة كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) فأُعجب به، وشجّع المؤلف الناهض على نشره، وكان من نتائج

هذه الرحلة المباركة أن توطَّدت العلاقات بينه وبين العلماء والأصدقاء الذين تعرَّف عليهم أثناء الرحلة، يقول: «وقد كان ذلك من كرم أولئك العلماء والأدباء وأصحاب الأقلام العرب وطيبة نفوسهم وميزتهم الخاصة التي جربتها مراراً، إنّهم حافظوا على هذا الودّ والصلة التي قامت بيننا وبينهم في فترة قليلة، وداوموا على المكاتبة والمراسلة»[1].

ورحل للحج مرةً ثانية عام (١٩٥١م)، وتعرَّف على أدبائها وكتّابها بصفة خاصة، وعلى رأسهم معالي الشيخ محمد سرور الصبان، والتقى بهم عدة لقاءات، كان أهمُّها اللقاء في بستان البخاري بمكة المكرّمة الذي حضره جمعٌ من الشباب الأدباء والصحفيين وكبار الموظفين أمثال الأساتذة: سعيد العامودي، وعبد القدوس الأنصاري، وعلي حسن فدعق، ومحسن أحمد باروم، وكانت الجلسة ـ حسب تعبير سماحته ـ كأنَّها جلسة نقاش للطالب قدّروا فيه مدى معرفته اللغة العربية، وسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة، واطّلاعه على اللغة الإنكليزية، فكانت الأسئلةُ حيناً عن الأدب العربي وأعلامه المعاصرين، وآخر عن الاشتراكية والأدب الإنكليزي، والحضارة الغربية وما إلى ذلك، وكانت النتيجة أن طلب منه إلقاء سلسلة من الأحاديث على إذاعة جدة، فألقاها بعنوان: (بين العالم وجزيرة العرب).

ومن أهمّ أحداث هذه الرحلة التي سجّلها الشيخ أنَّ حامل مفتاح الكعبة حضرة السيد الشيبي قام بنفسه بدعوة الشيخ لدخول الكعبة، «وسمح لي أيضاً

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٠٣.

بأن أصطحب معي من أشاء من الناس، وكان هذا توفيقاً من الله، فلم أنل هذه السعادة من قبل أو من بعد، وبعدها اشتكى بعض معارفنا لأنهم لم يتمكّنوا من دخول الكعبة، فطلبت من الشيبي أن يسمح لهم بالدخول، فقام بنفسه بترتيب دخولهم عن طريق الشرطة»[1].

ثم تكرّرت رحلاته للبلاد المقدَّسة.

رحلته إلى الشرق العربي:

رحل من جدة في (١٢ من شهر ربيع الثاني ١٣٧٠هـ = ٢٠ يناير ١٩٥١م) ملتزماً بتسجيل مذكّراته: «. . . كتبتُ عند بدء هذه الرحلة في الصفحة الأولى من مذكّراتي ما يدلّ على أهداف الرحلة ودوافعها: «وداعاً أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة، فليست هذه الرحلة إلاّ في سبيلك والاتصال بأسرتك العزيزة المنتشرة في ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أبلّغها تحياتكِ، وأرى ما فعلت الأيامُ بعد انفصالها عنكِ، وما فعلتْ برسالتك التي حملتُها عنكِ للعالم، والأمانة التي تقلّدتها»[2].

كانت هذه زيارته الأولى لمصر، وأقام مع أصحابه في حجرة متواضعة قريباً من شارع الموسكي في حي الأزهر، يقول: «لم يكن لنا نحن الشباب في مدينة القاهرة العامرة الصاخبة شيءٌ يلفت أنظار الأوساط العلمية والأدبية

---

(١) اردو دائجسنت حج نمير: ١١/ ١٨٢.
(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ٢١٨ـ٢١٩.

والدعوية إلينا، وكنت أنا ترجمان الجماعة شاباً نحيفاً لم يبلغ من العمر إلا (٣٦ و٣٧) سنة، وملابسي هندية، فلا عندي عباءة علماء الأزهر، ولا بذلة الأفنديين.. فملابسنا لا تتجاوز قدراً من ملابس النوم في الشرق العربي إلا قليلاً، أمّا الإقامةُ فكانت في مكتب متواضع لجمعية خيرية بدلاً من فندق كبير يحدّد مكانة الضيف الأجنبي.. لكنَّ الله هيّأ لي من قبلُ أسباب الاستفادة من هذه الإقامة»[١].

يقول الشيخ القرضاوي في رسالةٍ له إلى الشيخ الندوي متحدّثاً عن رحلته هذه: «ولا زلتُ أذكر تلك الحارة أو ذلك الزقاق الضيق المتفرّع في حي الأزهر، وتلك الحجرة المتواضعة التي نزلتم فيها مع من رافقكم من إخوانكم، تعيشون فيها عيشة الخشونة والزهد، رافضين ما أراد الكثيرون أن يكرموكم به من النزول في أحد الفنادق الفاخرة أو المريحة على الأقل، وأبيتم إلا أن تعيشوا عيشة طلبة العلم الفقراء»[٢].

وكان كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) قد سبقه إلى الأوساط العلمية والدينية والدعوية والأدبية، فكان خير معرّف لمؤلّفه، وألقى في القاهرة سلسلة من الأحاديث والمحاضرات في مختلف النوادي والجمعيات، التي تعرّفَ فيها على شباب مصر والأوساط القديمة والجديدة، واسترعى انتباههم، والتقى فيها مع شيخ الأزهر عبد المجيد سليم وجماعة من كبار

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٢١ـ ٢٢٢.

(٢) رسائل الأعلام، ص٨٠.

الأساتذة والعلماء الأزهريين، ورجال الوزارة؛ من بينهم: الشيخ عبد اللطيف دراز مدير الأزهر، ومحمود شلتوت، وأحمد محمد شاكر، وحسنين محمد مخلوف، وحامد الفقي، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومصطفى صبري (شيخ الإسلام بالدولة العثمانية سابقاً)، ومحمد الشربيني، ومحمد يوسف موسى، وأحمد عبد الرحمن البنا (والد الشيخ حسن البنا رحمه الله)، وسماحة المفتي أمين الحسيني، والأمير عبد الكريم الخطَّابي الريفي، واللواء صالح حرب باشا، وسيد قطب، ومحب الدين الخطيب، وأحمد الشرباصي، ومحمد الغزالي، وسعيد رمضان، وصالح العشماوي، والبهي الخولي، والأستاذ أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات.

وأغرب ما رأى في مصر أن يجد العلماء حليقي اللحى، يقول الشيخ القرضاوي في تعليقه على ذلك: «ولا ريب أنَّ هذه صدمة شديدة لعالم لم يرَ في حياته في وطنه عالماً واحداً حليقاً، وحلقُ اللحى عندهم من شأن المتفرنجين، والبعيدين عن الدين، أمَّا أن يكونَ هذا هو الطابع العامُّ للعلماء في بلد، فهو الشيء الغريب، **ومن العجيب أنَّ بعض شيوخ الأزهر المتحمّسين لإعادة الأزهر إلى مكانته القديمة يحاولون أن يفرضوا على الطلبة لبس العمامة، وهي مجرَّد تقليد، ولا يفكّرون أن يفرضوا عليهم إطلاق اللحية، وهي سنَّة إسلامية بلا ريب**»[(١)].

وكان من أهم الأحاديث التي ألقاها محاضرة في دار الشبان المسلمين

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠.

بعنوان: (الإسلام على مفترق الطرق)، وأخرى بعنوان: (الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند) في حفل أقامه رئيس عام جمعيات الشبان المسلمين تكريماً له، والثالثة حول (شعر إقبال ورسالته) في كلية دار العلوم، والرابعة بعنوان: (الإنسان الكامل في نظر الدكتور محمد إقبال) في جامعة فؤاد الأول، عدا محاضرات في عدد من المراكز الدعوية والجمعيات؛ مثل: شباب سيدنا محمد ﷺ، وجمعية أنصار السنّة المحمدية، والجمعية الشرعية، وجمعية العشيرة المحمدية، وجمعية مكارم الأخلاق، والرابطة الإسلامية.

وحضر ندوة دعوية في منزل سيد قطب رحمه الله حول كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) وفي الرحلة نفسها نشرت رسالة بعنوان: (اسمعي يا مصر) علّق عليها سيد قطب قائلاً: قرأت (اسمعي يا مصر)، ويا ليت مصر قد سمعت.

ونظَّم له الإخوان رحلات وجولات دعوية زار فيها ـ عدا القرى والأرياف ـ القناطر الخيرية، وطنطا، وبنها، وحامول، وسنتريس، والمحلة الكبرى، ونكلة، والعزيزية، وقويسنا، ونبروه، ورافقه فيها ترجمان الإخوان والداعية الكبير محمد الغزالي، وذلك عدا لقاءات متكرّرة مع الطلاب في أروقة الأزهر والفنادق.

يقول الشيخ القرضاوي: «ولم يكتفِ شيخنا بالنشاط والحركة في مدينة القاهرة على سعتها، بل امتدَّ إلى مدن أخرى، سمعت بالشيخ فدعته إلى زيارتها، ولقاء الجمهور المسلم فيها. . ومن ذلك: مدينة المحلة الكبرى التي

كنتُ أخطبُ في أحد مساجدها، وقد دعاه إليها الدكتور محمد سعيد ـ رحمه الله ـ رئيس الجمعية الشرعية بمدينة المحلة، وهو طبيب أسنان معروف، نذر حياته لإحياء السنّة، والدعوة إلى الله على طريقة إخواننا في الجمعية الشرعية، وقد عرف الشيخُ أنَّ بينَه وبين الإخوان شيئاً، فهو يأخذ عليهم أنهم لا يلتزمون بالآداب التي يلتزمونها هم من إعفاء اللحية، وإحفاء الشارب، وإرخاء العذبة، وإطالة الصلاة، وقال الشيخ للدكتور: «إنَّ دعوة الإخوان دعوة عامّة، مهمّتها أن تجمع الجماهير على الأصول الكلية للإسلام، ثم تربيهم بالتدريج على الآداب الخاصة، ولا بدَّ أن يكون في الأمة النهجان: النهج العام للإخوان، والنهج الخاص كالجمعية، واستراح الدكتور سعيد ـ رحمه الله ـ لكلام الشيخ، ودعاني معه على الغداء عنده. . ولكن سرعان ما كاد هذا يذهب هباءً، عندما ذهبنا مع الشيخ إلى بلدة نبروة، وتكلَّمت كلمةً أغضبت الدكتور سعيد غفر الله لنا وله، ولا أدري لماذا؟ ولكن الشيخ تدارك الموقف بهدوئه وحكمته، وبات الناس تلك الليلة في المسجد سُجَّداً وقياماً بدعوة من الشيخ، واستجاب له الكثير من الحضور»[1].

ويقول الشيخ القرضاوي في رسالته إليه، وهو يشير إلى هذه اللقاءات والأحاديث: «وإنْ أنسَ لا أنسى لقاءاتكم الخصبة مع شباب الدعوة الإسلامية ومبيتكم معهم، كواحد منهم، تعطيهم من فكرك وقلبك، وتبث المعرفة التي تنير العقول، والإيمانَ الذي ينير القلوب، ويأخذون عنكم العلم النافع،

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠ ـ ٢١.

والعمل الصالح، والروح المشـرق، ويرون فيكم سـمت المسلم، وصدق المؤمن، وصبر المجاهد، وقوة الزاهد، وعزة العلم، وروح الداعية الذي جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله ربّ العالمين»[1].

ومكث في القاهرة ستة أشهر إلاّ قليلاً، فأَنِسَ بـه علماؤها وشـيوخها وشبانها، والعاملون في مجال العمل الإسلامي، ثم سافر منها إلى السودان والشام والقدس والأردن، والتقى بالسودان مع أعيانها وكبار رجالها، أمثال: السيد علي الميرغني باشا، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري ـ رئيس وزراء السودان فيما بعد ـ وشوقي أسد سكرتير جمعية التبشير الإسلامي، ومحمد عوض إمام المسجد الجامع، والحاج محمد موسى سليمان قائد العمال ورئيس جمعية الشبان المسلمين.

ثم رحل إلى الشام، وأقام بها ثمانية وأربعين يوماً، قضى أربعة وعشرين يوماً منها في دمشق، وزار في باقيها: حمص وحماه ومعرة النعمان، وحلب وحارم، فكانت فرصة للاتصال بالأوساط العلمية والدينية والأدبية المختلفة، ومقابلة شخصياتها الموقرة، وتبادل الآراء معها، فزار من مؤسسات الشام ومراكزها العلمية مركز الإخوان المسلمين بجامع الدقاق، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمكتبة الظاهرية، ومدرسة دار الحديث، وجمعية التمدّن الإسلامي، وحضر إحدى جلسات البرلمان السوري المهمة المثيرة.

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨٠.

وألقى محاضرة في قاعة دمشق بعنوان: (شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين)[1] عدا محضرات في كلٍّ من الهيئة العلمية الإسلامية، وجمعية التمدّن الإسلامي، والجمعية الغرّاء، ومركز الإخوان المسلمين في حمص، ومركز الإخوان في حماه، وفي اجتماع كبير بحلب.

والتقى فيها مع كبار علمائها وأدبائها؛ أمثال أصحاب الفضيلة: عبد الوهاب الصلاحي، والسيد مكي الكتاني، وأحمد الدقر، ومحمد بهجة البيطار، وأبي الخير الميداني، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك، ومصطفى الزرقا، ومحمد أحمد دهمان، وأبي اليسر عابدين ـ حفيد صاحب الحاشية ـ ومفتي الجمهورية، وأحمد كفتارو، ومحمد سعيد البرهاني، ومحمد علي الحوماني، وتيسير ظبيان، ومحمد كمال الخطيب، ومحمد كرد علي، ومحمد عزة دروزة، وخليل مردم بك، وعبد القادر المغربي، وكان يرافقه ويساعده في الوصول إلى الناس وزياراتهم: الأستاذ عبد الرحمن الباني الذي كان مدرِّساً في كلية المعلّمين بدمشق.

وفي فلسطين زار بيت المقدس، وتشرَّف بزيارة المسجد الأقصى، وقضى الأيام الأخيرة من شهر رمضان، وصلى العيد بها، وزار مدينة الخليل، وبيت لحم، وبالعودة منها قابل بالأردن الملك عبد الله ملك الأردن، وقد طبعت مذكراته لهذه الرحلة الطويلة بعنوان: (مذكرات سائح في الشرق العربي).

---

(١) طبعت باسم (العوامل الأساسية لكارثة فلسطين).

وكانت لزيارته هذه آثار طيبة، فقد كتب الشيخ البهي الخولي إلى الشيخ وقد خرج من القاهرة إلى الخرطوم في ٢٨ من شهر رمضان عام سبعين وثلاثمئة وألف: «أخي العزيز... لقد أحسستُ وقطار المطرية يرحل بكم - وأنا أعلم أنَّ الرحيل إلى بعيد - أنَّ في صدري كائناً مغلوباً على أمره، يبكي بكاء الحنين.. وينكسرُ إلى الله ضارعاً، وانكساره الحزن والأسى، نعم فهذه البضعة الحبيبة من النور آذنت برحيل بعد أن حلَّت بيننا ميمونةَ الحل، مانوسةَ الجانب. إنَّه شيءٌ غير حلول الزائر الميمون والجانب المأنوس.. فلقد كانت بقعة النور الجبلية تشق نفسها من صدري وهي تبتعد، كأنَّما ينشقّ لها ذلك النسيج الذي اتصلت لحمته منذ اللحظة الأولى في أول لقائه. لِمَ يا ربّ قدَّرت على أحبائك المتحابّين فيك أن يتعرّفوا في أكناف الأرض البعيدة، وأذقتهم هذا الوجد الذي يحزنُ في رقّة وخشوع، لقد طالما قالوا: إنَّ فراق الأبدان لا يبطِلُ الودّ مع رعاية العهد وإكرام الذكرى.. وهذا معه.. نسأله سبحانه أن يؤنسنا بك، وأن يؤنسنا عنك، وأن يجمع بيننا في الدنيا على خير ما يحب، وفي الآخرة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»[(١)].

وكتب إليه الكاتب الإسلامي القدير الأستاذ صالح العشماوي من القاهرة في ٢ ذي القعدة عام (١٣٧٠هـ): «... وقد تركتم فينا أثراً لا يُمحى، وذكراً لا يفنى، وفي الحقّ أنكم أنتم الذين غمرتمونا بكرمكم ونبلكم، ورأينا

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨٩.

فيكم صورة حية للسلف الصالح من العلماء العاملين، والإخوان المؤمنين، أبقاكم الله سنداً للإسلام ومناراً للمسلمين، وبارك أخوّتنا وجزاكم خير الجزاء.

قرأتُ أخبار رحلتكم الموفّقة، وهي خطوات مقبولة وسعي مشكور في سبيل الله وإعلاء كلمته، ونشر دعوته، ولم أعجب أن تكونوا موضع الحفاوة والتقدير أينما حللتم وسرتم، فأنتم أهلٌ لكلِّ إجلال، وعلمكم وفضلكم موضع الإعجاب والرضا في كلّ مكان، وإنّي لأرجو وقد انتهت الرحلة إلى الأرض المقدّسة ومهبط الوحي أن تذكروني في دعواتكم المقبولة المباركة إن شاء الله. ولقد غمرتموني بفضلكم، وأخجلتم تواضعي بما أفضيتم على شخصي الضعيف من كلمات وعبارات، هي من فيض كرمك ونبل أخلاقكم، جعلنا الله عند حُسن ظنّكم بنا، ووفّقنا لما يحبّه ويرضاه، وتقبّل منّا جهد المقلّ، وسعي العاجز. ذكركم على كلّ لسان، وأفضالكم ورسائلكم وتوجيهاتكم الكريمة موضع حديث الإخوان، وهم يهدونكم أزكى تحية وأطيب سلام، ويتمنّون لكم أطيب التمنّيات»[1].

رحلاته الأخرى إلى الشام:

كتب إليه الشيخ مصطفى السباعي عميد كلية الشريعة في الجامعة السورية بدمشق في ٢٢ شوال عام (١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م) يدعوه أستاذاً زائراً إليها، ونصّ الرسالة:

---

(١) رسائل الأعلام، ص٩٦ ـ ٩٧.

إلى سماحة الأستاذ أبي الحسن الندوي حفظه الله تعالى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد : فلعلّه قد بلغكم إنشاء كلية للشريعة الإسلامية في الجامعة السورية بدمشق ، وهو عملٌ طربت له قلوب المسلمين وأنصار الحقّ والخير ، وقد بدأت الدراسة في هذا العام بإنشاء صفٍّ واحدٍ للسنة الأولى ، وسينشأ في مطلع العام الدراسي المقبل صف السنة الثانية إن شاء الله .

وقد رغبت إليّ لجنة الكلية أن أكتبَ إلى سماحتكم رجاءها بالموافقة على طلبها في أن تتعاقد الكلية معكم للتدريس لمدة سنتين أو سنة كما تحبّون ، ليستفيدَ طلاّب الكلية من علمكم وفهمكم العميق للإسلام ورسالته ، فأرجو أن تتكرّموا بالموافقة على هذا الطلب مع ما تحبّون إبداءه من رغبات وشروط ، سواء كان في قدر الراتب الشهري أو غيره ، وعسى أن يصلني منكم قريباً ما يحقّق هذه الأمنية الغالية .

وفّقنا الله جميعاً لما فيه خدمة الإسلام والمسلمين ، وتقبَّلوا فائق التحية ، أرسل لكم نسخة من نظام الكلية ومنهجها الدراسي»[1] .

وأجاب الشيخ هذه الدعوة ، ولكن اعتذر عن قبول أي مكافأة مالية ، يقول : «وقد اعتذرت ـ بلطف واحترام لوجاهة الاقتراح وصاحبه ـ عن الارتباط الرتيب بهذه الكلية العزيزة ، التي كنت ولا أزال أقدّر قدرها وأعرف قيمتها ،

(١) رسائل الأعلام ، ص٩٣ ـ ٩٤ .

واقترحتُ أن يكتفي بكوني أستاذاً زائراً لمدة شهور، ألقي فيها محاضرات في موضوع مفيد مثير توجيهي تربوي، وعينتُ لذلك موضوع (جهود الإصلاح والتجديد وأصحابها الكبار في تاريخ الإسلام) وقَبِلَ الأستاذُ السباعي الاقتراحَ، وجاءت الموافقة من فخامة رئيس الجمهورية ووزير التربية.

وسافرت في آخر شعبان (١٣٧٥هـ) ـ وأول أبريل (١٩٥٦م) إلى دمشق»[١].

فزار الشام للمرة الثانية سنة ست وخمسين وتسعمئة وألف، وأقام بها ثلاثة أشهر كان فيها على صلة وعلاقة دائمة مع علماء دمشق وأدبائها ومفكّريها، وقادة الحركات والمنظَّمات الإسلامية، وألقى ـ عدا محاضراته الأساسية في الجامعة حول التجديد والمجدّدين في تاريخ الفكر الإسلامي ـ أحاديث من الإذاعة السورية، كان أولها بعنوان: (اسمعي يا سورية)، ومحاضرة في مركز الإخوان بحلب بعنوان: (حاجتنا إلى إيمانٍ جديد)، وكلمة في المؤتمر الإسلامي بدمشق بعنوان: (ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي)، وخطاباً أمام مدرِّسي الدين بالجامعة.

وكان لمحاضرته صدى كبير، فقد كتب إليه مصطفى السباعي من لندن: «إنّي لأشعرُ بالأسف يملأ قلبي لحرماني من الاستمتاع بأحاديثكم والاستفادة من فضلكم وعلمكم خلال إقامتكم في بلاد الشام، ولكنّ إرادة الله تغلب

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٥٣.

إرادتنا، وحسبي أن يصلني وأنا في مكاني النائي صدى أحاديثكم ومحاضراتكم وتوجيهاتكم لشباب الدعوة وجنودها، وهو صدى تنشرح له نفس كل مؤمن يعمل للإسلام، ويبذل جهده في تثبيت دعائمه في القلوب، فجزاكم الله خيراً»[1].

وكتب الشيخ انطباعه عن الإقامة بدمشق قائلاً: «لقد كانت الإقامةُ بدمشق لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر وأطيب ساعاته، لم تصفُ لي ولم يتم السرور والأنس ـ غير الحرمين الشريفين ـ في أي مكان آخر، فقد كان مزيجاً من تفتح القلب، وانشراح الصدر، والصحة البدنية، وجمال البلاد الطبيعي، والروحانية الخالصة ـ التي لعلّها كانت لأجل أنها مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والأولياء الكبار والصالحين، ومركز الفتوحات الإسلامية ـ كان المزيج من كلّ ذلك أنشأ جوّاً من السرور واللذة والمتعة، وقد كان ذلك العهد عهد الهدوء والسكينة والرخاء، وعهد الإسلامية لأهل دمشق ولأهل الشام كلهم أيضاً»[2].

وسافر إلى **الشام** مرة ثالثة عام أربعة وستين وتسعمئة وألف، والمرة الرابعة لنصف ليلة فقط عام ثلاثة وسبعين وتسعمئة وألف.

وسافر في رحلة عام ستة وخمسين وتسعمئة وألف إلى **لبنان**، زار فيها

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٥٤.
(٢) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٦٤ـ ٢٦٥.

بيروت وقلمون وطرابلس، والتقى فيها الشخصيات الدينية والعلمية وقادة الحركات الدينية، أمثال: محمد عمر داعوق مؤسس حركة عباد الرحمن، ومحمد علايا مفتي الجمهورية، وشفيق يموت رئيس المحكمة الشرعية، ومحمد أسد ـ ليبولدفايس سابقاً ـ صاحب كتاب (الطريق إلى مكة)، ومصطفى الخالدي الداعي العامل المعروف في المجالات الاجتماعية، والفضيل الورتلاني المجاهد الجزائري المعروف، وزار في بيروت مركز عباد الرحمن، وكلية الشريعة، وألقى في كلية الملك سعود ـ وهي مركز إسلامي ببيروت وقاعة المحاضرات والاجتماعات ـ محاضرة بعنوان: (الشعوب لا تعيش على أساس المدنيات، بل تعيش بالرسالة وتعضدها روحها وخصائصها).

وزار في **طرابلس**: الكلية الشرعية، ومركز المولوية، ومدرسة الغزالي، ومدرسة ابن خلدون وغيرها.

سافر في الرحلة نفسها أي عام ستة وخمسين وتسعمئة وألف إلى تركية، ومكث بها أسبوعين طبعت مذكراتها بعنوان: (أسبوعان في تركية الحبيبة)، ثم سافر إليها عام أربعة وستين وتسعمئة وألف، ثم عام ستة وثمانين وتسعمئة وألف، ثم عام تسعة وثمانين وتسعمئة وألف، ثم عام ثلاثة وتسعين وتسعمئة وألف، ثم عام ستة وتسعين وتسعمئة وألف، وكانت الرحلات الأربع الأخيرة للحضور في مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

رحلاته المتعاقبة:

وسافر إلى **الكويت** عام اثنين وستين وتسعمئة وألف، وألقى بها كلمته

الرائعة بعنوان: (اسمعي يا زهرة الصحراء)، ثم عام ثمانية وستين وتسعمئة وألف، ثم عام ثلاثة وثمانين وتسعمئة وألف، ثم عام سبعة وثمانين وتسعمئة وألف، وإلى **الإمارات العربية المتحدة** عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف بناءً على دعوة من حاكم الشارقة الأمير سلطان بن محمد القاسمي، ثم عام ستة وسبعين، ثم عام ثلاثة وثمانين، ثم عام ثمانية وثمانين، ثم عام ثلاثة وتسعين وتسعمئة وألف، وإلى **قطر** لحضور مؤتمر السيرة النبوية عام تسعين وتسعمئة وألف، وقد طبعت أهم محاضراته التي ألقاها في الخليج العربي في مجموعة بعنوان: (أحاديث صريحة مع إخواننا العرب المسلمين).

وسافر على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي عام ثلاثة وسبعين وتسعمئة وألف إلى **أفغانستان**، **وإيران**، ولبنان، **والعراق** (وكان قد زار العراق للمرة الأولى عام ستة وخمسين وتسعمئة وألف)، وسورية، **والأردن**، وكانت له في كلٍّ من هذه البلدان محاضرات وكلمات وأحاديث، وقد طبعت مذكّراته لهذه الرحلة بعنوان: (من نهر كابول إلى نهر اليرموك) الذي يجد القارئ في صفحاته أوصافاً دقيقة لهذه البلاد وما فيها من مؤسسات ثقافية وهيئات علمية، ومبلغ تمسّكها بالعقيدة الإسلامية أو مجافاتها في بعض اتجاهاتها، وما أحدث ذلك كله من آثار سلبية.

وسافر بناءً على دعوة من مؤسسة آل البيت إلى **الأردن** عام أربعة وثمانين وتسعمئة وألف، وألقى محاضرة في جامعة اليرموك، وفي كلية العلوم العربية وغيرها.

وزار في العام نفسه **اليمن** وألقى محاضرات في جامعة صنعاء، وفي

كلية الطيران، ومركز المدرّعات وفي بعض الجوامع، وقد طبعت أهم محاضراته في الرحلتين بعنوان: (نفحات الإيمان بين صنعاء وعمّان).

وسافر بناءً على دعوة من رابطة الجامعات الإسلامية إلى المغرب الأقصى عام ستة وسبعين وتسعمئة وألف، وقد طبعت مذكرات هذه الرحلة بعنوان: (أسبوعان في المغرب الأقصى).

وسافر إلى **الجزائر** لحضور ملتقى الفكر الإسلامي عام اثنين وثمانين وتسعمئة وألف، ثم عام ستة وثمانين وتسعمئة وألف.

وسافر إلى **بورمة** عام ستين وتسعمئة وألف، وإلى **باكستان** عام أربعة وستين وتسعمئة وألف، ثم عام ثمانية وسبعين وتسعمئة وألف، بناءً على دعوة من رابطة العالم الإسلامي لحضور مؤتمرها الآسيوي الأول، فعام ثمانين وتسعمئة وألف، ثم عام ستة وثمانين وتسعمئة وألف، وقد طبعت أحاديثه في باكستان في مجموعتين بالأردية بعنوان: (أحاديث باكستان) و(تحفة باكستان).

ورحل إلى **سري لانكة** عام اثنين وثمانين وتسعمئة وألف بناءً على دعوة من معالي الشيخ محمد علي الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي لإلقاء المحاضرات في الجامعة النظيمية إحدى المؤسسات التعليمية الكبيرة في سري لانكة، وقال في بعض كلماتها بها: «لقد شاع عن هذه البلاد رواية مشهورة ـ دون أن نقطع بصحتها أو نتحمّل عهدتها ـ أنَّ جدّنا وأبا البشرية جميعاً سيدنا آدم عليه السلام هبط من الجنة على هذه الأرض، وقد قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد». إنّ هذا الإعلان الذي هو أساسٌ

محكمٌ للأخوّة الإنسانية، وأهم بند من الدستور العالمي للحقوق البشرية ـ ينبغي لكونكم أول مهبط آدم حسب الرواية المشهورة أن تعلنوه عشر مرات إذا أعلنته البلاد الإسلامية الأخرى مرة واحدة، ولو قالته خفية وعلى استحياء، فأنتم أحرى بأن ترفعوه مدوياً مجلجلاً، وتكونوا دعاته وحملته».

وسافر إلى **بنغلادش** عام أربعة وثمانين وتسعمئة وألف، زار فيها المدارس والمراكز الإسلامية في دكا، وشيتاكونغ، وكوكس بازار، وسهلت، ومومن شاهي، وخاطب الاجتماعات الكبرى، وطبعت أحاديثه هذه بالأردية بعنوان: (تحفة مشرق).

وسافر بناءً على دعوة من حركة (أبيم) حركة الشباب المسلم إلى **ماليزية** عام سبعة وثمانين وتسعمئة وألف، فزار (كوالا لامبور)، و(كوالا ترنكانو)، وألقى محاضرات في الجامعة الوطنية، والجامعة التكنولوجية، والجامعة الماليزية، والجامعة الإسلامية العالمية، ومركز حركة (أبيم) ومركز الحزب الإسلامي، ومعهد التربية الإسلامية، واجتماعات عامة المسلمين.

واستقلّت دول آسية الوسطى الإسلامية سنة (١٩٩١م)، فتوفَّرت فرصةٌ جديدةٌ للمسلمين للاتصال بإخوانهم في هذه البلاد، التي ظلَّ العالم في ظلام عنها طوال عقود من السنين، وخلال عامين من استقلالها قام مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بعقد مؤتمر في سمرقند في ٢٣ ـ ٢٤ أكتوبر عام ثلاثة وتسعين وتسعمئة وألف عن حياة الإمام البخاري تمهيداً لمشروعه الكبير لإعادة بناء مسجد الإمام البخاري، وتشييد مركز لدراسة الحديث النبوي الشريف، وحضره الشيخ الندوي بصفته رئيس هيئة أمناء المركز، وزار بهذه

المناسبة طشقند (الشاش)، وسمرقند، وبخارى، وسَعِدَ كاتبُ هذه السطور بصحبته في هذه الرحلة العلمية الممتعة، ولله الحمد، وقدَّم فيه الشيخ مقاله القيّم عن (الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه الصحيح) في ندوة تحت رئاسة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وبحضور جماعة كبيرة من العلماء والباحثين.

رحلاته إلى الغرب:

كتب إليه صديقه الدكتور سعيد رمضان في ١٤ من شهر ربيع الأول (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م) من جنيف: «فقد كتبتُ إليكم قبل مدة بخصوص اجتماع مجلس إدارة المركز الإسلامي، وإنّي لأعلمُ ما يثقِلُ كاهلكم من الأعمال والتبعات، كما أعلم ما تجدونه من الحرج من تعدّد الأسفار في الخارج، ولكنني شديد الحرص على أن يكسب الاجتماع السنوي الثالث بركة حضوركم، وأن تسهموا من قريبٍ في توجيه مؤسسةٍ أذنَ الله أن تقومَ في وجه عواصف وأعاصير، وفتح لها آفاقاً لم تكن على بال، ويزيد من حرصي على الحضور أني أشعر بالحاجة الرئيسية إلى أن تلتقوا لقاءً هادئاً ليومين أو ثلاثة بصفوة مختارة من الطلاب المسلمين في أوربة، فيكون ذلك بمثابة وجبة مباركة، تدفع عنهم غائلة الجوع الروحي الذي يعانون، وقد يشرح الله لذلك صدركم، فتصبح وجبة سنوية نرتّب لها ما يلزمها كلّ عام إن شاء الله. سيكون الاجتماع خلال سبتمبر إن شاء الله، وقد أخرتُ تحديده في انتظار جوابكم، وإذا كان في الإمكان أن تغيبوا عن الهند شهرين أو ثلاثة، ورأيتم أن يرتّب المركز لكم جولة في بعض أقطار إفريقية، ويوفّر لها كلّ ما يلزمها، فإنّي كما تعلمون الخادم الذي يعدّ هذه الخدمة من أعزّ القربات إلى الله، ويمكنكم بعدَ

مثل هذه الجولة أن تعرّجوا على مكة المكرّمة في طريق العودة للاعتمار، ولحضور اجتماع الرابطة في رجب بإذن الله»[١].

ووافق الشيخ الندوي على هذه الدعوة الكريمة المخلصة، وخرج إلى جنيف في جمادى الأولى (١٣٨٣هـ) = سبتمبر (١٩٦٣م)، فكانت **رحلته الأولى إلى أوربة**، زار فيها: **جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن**[٢]، **وكمبرج، وأوكسفورد، وغلاسكو، وأدنبرة**، وقابل فيها عدداً من فضلاء الغرب والمستشرقين، وألقى محاضرات في كلٍّ من جامعة أدنبرة، وجامعة لندن، وفي اجتماعات خاصة للمسلمين، وزار في الرحلة نفسها: مدريد، **وطُلَيْطِلَة، وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة**، من مدن إسبانية.

وكانت رحلته **الثانية إلى أوربة** عام أربعة وستين وتسعمئة وألف، زار فيها: لندن، **وبرلين، وآخن، وميونخ، وبون**.

والرحلة الثالثة كانت عام تسعة وستين وتسعمئة وألف بناءً على دعوة من المركز الإسلامي بجنيف، ولندن، وبرمنغهام، **ومانشستر، وبليك برن، وشيفيلد، وديوزبري، وليدس، وغلاسكو**، وألقى في كلٍّ منها محاضرات، منها محاضرة في جامعة برمنغهام، وأخرى في جامعة ليدز، وقد طبعت

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) وقد قام كاتب هذه السطور بتأليف كتاب عن رحلات الشيخ الندوي إلى بريطانية وزياراته لمدنها المختلفة، وخطاباته فيها، ومجالسه العلمية والدعوية، باللغة الأردية باسم (أرمغان فرنك) طبع في لكنو سنة (٢٠٠٤م).

محاضراته وأحاديثه في أوربة بعنوان: (**حديث مع الغرب**).

والرحلة الرابعة إلى لندن كانت عام ثلاثة وثمانين وتسعمئة وألف بمناسبة تأسيس مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، وألقى في تلك المناسبة مقاله القيم بعنوان: (**الإسلام والغرب**)، ثم تكرّرت رحلاته إلى إنكلترة، وزار **بلجيكة** عام خمسة وثمانين وتسعمئة وألف.

وسافر ـ بناءً على دعوة من (منظمة الطلاب المسلمين في أمريكة وكندة) عام ١٩٧٧م وزار أمريكة مرة أخرى عام (١٩٩٣م)، وقام في الأولى بزيارة: نيويورك، وإنديانابولس، وبلومنغتن، ومين هاتن، ونيويورك، وشيكاغو، ونيوجرسي، وفلادلفية، وبالتمور، وبوسطن، وديترويت، وسالت ليك، وسان فرانسيسكو، وسان جوزيه، ولوس أنجلس، ومونتريال، وتورينتو، وواشنطن، وألقى محاضرات في كلٍّ من جامعة كولومبية، وجامعة هارفرد، وجامعة ديترويت، وجامعة جنوب كاليفورنية، وجامعة أوتا، وفي قاعة الصلاة بالأمم المتحدة، وفي اجتماعات المسلمين الخاصة ـ طُبِعت أهم محاضرات هذه الرحلة بعنوان: (**أحاديث صريحة في أمريكة**) دعا فيها المسلمين إلى أن يحافظوا على كيانهم الإسلامي في بلاد الغربة، وأن ينظروا نظرة واعية إلى الحضارة الغربية، فيعرفوا أوجه النفع وأوجه الضرر، وهم المثل الناطق للمسلمين في مرأى جيرانهم من ذوي الديانات المختلفة أو ممن لا يدينون بدين مطلقاً.

وكانت زياراته لهذه الأمكنة بقلب المؤمن الصادق وعين الداعية المتحرق لأوضاع الأمة، فلم يقصدها، ولم يتجوّل فيها متمتّعاً ولا متنزّهاً،

فلما زار إسبانية ـ الفردوس المفقود ـ عام (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م) كتب إلى فضيلة الشيخ محمد صالح القزاز الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سابقاً رسالةً يبدي فيها مشاعره وانطباعاته، واقترح إنشاء جامع في مدريد على نفقة المملكة العربية السعودية، فكتب إليه الشيخ القزاز في ٢٧ جمادى الآخرة (١٣٨٣هـ): «. . . إنَّ رسالتكم القيّمة التي بعثتم بها إليّ من مدريد عاصمة إسبانية بعد الزيارة التي قمتم بها للأندلس وصلتني واستلمتها وقرأتها، كما أطلعت صديقكم معالي الشيخ محمد سرور عليها، ولقد تصفّحنا هذه الرسالة، وبكينا كما بكيتم، وتألّمنا كما تألّمتم، لما صار إليه الإسلام في تلك الديار، ولقد أثرتم بما كتبتم أشجاننا وأحزاننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا شك أنّ المسؤولية ضخمة وعظيمة كما ذكرتم، والواجب يقضي علينا أن نفكّر كيف نلقى الله سبحانه وتعالى إذا لم نعمل شيئاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الإسلامي الخالد في تلك الديار.

إنّ الاقتراحات التي شرحتموها مهمة، ولقد أخذنا ندرس الوسائل التي يجب اتّباعها في المراجعات، ولا بد أنه بتشريفكم إلينا في اجتماع دورة المجلس التأسيسي سنبحث هذا الموضوع مشتركاً لوضع الخطة.

إنّا نقدّر غيرتكم الإسلامية، ونسأل الله أن يحقّق الآمال بكم، وأن يعود الحقّ إلى نصابه، كما نسأله أن ينفع بكم ويكثر من أمثالكم أصحاب الغيرة الإسلامية والشهامة الحقة[1].

* * *

(١) رسائل الأعلام، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

الفصل السادس

تكريمه

وتولَّى الشيخ مناصب هامة في الهند وفي العالم العربي والإسلامي، وفُوِّضت إليه مسؤوليات إدارية خطيرة، كما أكرم بجوائز مرموقة، ورغب الأمراء والملوك وقادة البلاد والساسة الكبار في مقابلته، واستشارته وأخذ توجيهاته، وسأتحدّث عن كل ذلك في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المناصب:

اختير الشيخ عضواً في المجلس الإداري لندوة العلماء عام (١٩٤٨م)، وعُيِّن نائباً لوكيل ندوة العلماء للشؤون التعليمية بترشيحٍ من العلاَّمة السيد سليمان النَّدْوي عام (١٩٤٩م)، واختير وكيلاً ـ إثْرَ وفاة العلاَّمة رحمه الله عام (١٩٥٤م)، ثم وقع عليه الاختيارُ أميناً عاماً لندوة العلماء ـ بعد وفاة أخيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني ـ عام (١٩٦١م)، وأسَّسَ بمشاركة صديقه عبد السلام القدوائي الندوي مركزاً للتعليمات الإسلامية عام (١٩٤٣م)، ونظَّم فيها حلقاتِ دروسٍ للقرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة فتهافتَ عليها الناسُ من الطبقة المثقفة والموظَّفين الكبار.

وأسَّس جمعية التبشير بالإسلام بين الهندوس، التي أصدرت رسائل وبحوثاً عن الإسلام بالإنكليزية، وأسَّس حركة رسالة الإنسانية عام (١٩٧٤م)،

وكذلك أسَّس (المجمع العلمي الإسلامي) في لكنو عام (١٩٥٨م) الذي له نشاط علمي عظيم ومطبوعات باللغات الإنكليزية والأردية والعربية، وشارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية عام (١٩٦٠م)، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام (١٩٦٤م)، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام (١٩٧٢م)، ورئيساً لهيئة التعلمي الديني للولاية الشمالية، ودعا إلى أوَّل ندوة عالمية عن الأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء عام (١٩٨١م).

وعمل رئيساً لمجمع دار المصنفين بأعظم كره (الهند)، وعضواً في المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند (الهند)، وعضواً في المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند، وعضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية في إسلام آباد (باكستان).

واختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام (١٩٥٦م)، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي عام (١٩٦١م)، وأدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرَّمة عام (١٩٦٢م) نيابةً عن رئيسها سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ وقد حضر أوَّلها جلالةُ الملك سعودُ بن عبد العزيز آل سعود، كما حضرها الملك إدريس السنوسي ملك ليبية، وشخصيات أخرى ذات شأن ـ وقدَّم فيها مقالَه القيِّمَ بعنوان: (الإسلام فوق القوميات والعصبيات)، واختير عضواً في رابطة الجامعات منذ تأسيسها، وعضواً في مجمع اللغة العربية بالأردن عام (١٩٨٠م)، وعضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة

الإسلامية بالأردن عام (١٩٨٣م)، وعمل كرئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ورئيس مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، ورئيس جامعة الهدى نوتنغهام ببريطانية، وعضو المجلس الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة، وعضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضو الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، وعضو المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي في بيروت، وعضو المجلس الإداري للمركز الإسلامي بجنيف، وذلك عدا عضويته لغيرها من الجامعات الإسلامية، والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية.

وإنَّما رغبت هذه المعاهد والمؤسسات المختلفة في ارتباطه بها اعترافاً منها بعلمه وفضله، وبهدف الاستفادة من تجاربه وتوجيهاته، كتب إليه الأستاذ خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق في ٣ شباط (١٩٥٧م): «رأى المجمع العلمي العربي بدمشق في جلسته المنعقدة بتاريخ ٣١ كانون الثاني عام (١٩٥٧م) أن ينتخبكم عضواً مراسلاً لما اتّصفتم به من العلم الجمّ والبحث الدقيق في الثقافة العربية ولمساعيكم المشكورة في سبيلها»[(١)].

ولم تكن عضويته وارتباطه بالمؤسسات الإسلامية ارتباطاً اسمياً أو رسميّاً، بل نجده دائماً حريصاً على توجيهها الوجهة الصحيحة، والإسداء إليها نصحاً وإرشاداً، كتب إليه الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي: «... وبعد فقد تقرر أن تنعقد الدورة الثانية للمؤتمر

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٣٥.

الإسلامي بمشيئة الله تعالى في موسم الحج هذا العام بتاريخ ١٤ ذي الحجة (١٣٨٤هـ) الموافق ١٥ نيسان (١٩٦٥م)، والمأمول أن تلتقي صفوة ممتازة من رجالات العالم الإسلامي وقادة الرأي فيه للنظر في القضايا التي تشغل بال المسلمين ليخرجوا منها بخطة مدروسة تحدّد السبل والغايات أمام العاملين في الحقل الإسلامي في مختلف الأقطار. ولا شك أنَّ من الأمور التي يجب أن يدرسها المؤتمر وينتهي فيها إلى تخطيط سليم هي: موقف الدعوة الإسلامية من التيارات الفكرية المعاصرة، حيث تضطرب الدول والجماعات الإسلامية بين تيارات فكرية شتى، دون أن تلتمس الحلول الصحيحة التي يقدّمها الإسلام الحنيف. ولمّا كان من أهم ما تعنى به الرابطة الإسلامية في جميع نواحي نشاطِها أن تحاولَ تقديم رأي الإسلام في كافة المشكلات، حتى تقومَ مجتمعاتنا الإسلامية على أسس إسلامية صحيحة خالية من التناقض والضعف، ولما كنتم سماحتكم من المبرزين في هذا الميدان، ولكم فيه حصيلة طيبة من الدراسات والتجارب تستحق أن تكون مصدر توجيه للمؤتمر عند مناقشة هذا الموضوع، فإننا نرجو أن تكتبوا بحثاً وافياً عن (الدعوة الإسلامية وموقفها من التيارات الفكرية المعاصرة) ليكون تحت تصرف اللجنة الخاصة بهذا الموضوع، راجين أن يصل هذا البحث قبل شهر واحد من انعقاد المؤتمر حتى يتسنَّى لنا إدراجه في مكانه من جدول الأعمال وجعله معدّاً للتداول بين أعضاء اللجنة»[1].

(١) المرجع السابق، ص٩٨ ـ ١٠٠.

الجوائز:

ومن الجوائز التي أُكرمَ بها الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام في عام (١٩٨٠م)، ولمَّا وصله البلاغ الرسمي كتب إلى رئيس لجنة جائزة الملك فيصل العالمية: «. . . لقد كان خيراً أن ينال العاملون في مجال الخدمات الإسلامية جائزتهم في الآخرة، وقد أعلن عن هذه الجائزة في غيابي، ولم يبقَ لي بدّ الآن ـ احتراماً للملك فيصل المرحوم رائد التضامن الإسلامي، وتقديراً لخدماته الإسلامية ـ أن أقبل هذه الجائزة، وأدعو الله تعالى أن يحقق ما ترمز إليه الجائزة، وما تتضمَّنه من تقدير للخير، وترغيب بالمزيد فيه. . . إنَّ هذه الجائزة تحمِلُ جوانب متعدّدة، فأما الجانب المعنوي فيه الاعتراف والتقدير فأنا أقبله بتقدير وشكر، أما الجانب المالي الذي يلازمه فأستميحكم أن أصرفه فيما أرى من مصالح الخدمات الإسلامية».

وكتب إليه الشيخ القرضاوي بهذه المناسبة: فيسرّني أن أبلغكم باسم واسم إخواني هنا من العلماء وأساتذة كلية الشريعة في جامعة قطر خالص التهنئة بحصولكم على جائزة الملك فيصل العالمية بخدمة الإسلام، وإن كنت أرى ـ دون مجاملة ـ أنَّ الجائزة تَشْرُفُ وترتقي بحصول مثلكم عليها[١].

ومنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام (١٩٨١م)، وأقام الأستاذ عبد المقصود خوجة من أدباء وأعيان جدة حفلاً

(١) رسائل الأعلام، ص٧٧ ـ ٧٨.

فاخراً لتكريمه في ١٥ من شهر ربيع الثاني (١٤٠٥هـ) ـ ٦ يناير (١٩٨٥م)، كما أقيمت ندوة أدبية لتكريمه والإشادة بفضله في إستانبول عام (١٩٩٦م)، على هامش المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية حضرها عدد كبير من كبار العلماء والمفكّرين والأدباء والمثقفين من كافة أنحاء العالم الإسلامي والعربي، وأُكرم بجائزة الشخصية الإسلامية لعام (١٩٩٨م) من دولة دبي في شهر رمضان (١٤١٩هـ)، ومُنح جائزة السلطان حسن البلقية العالمية في موضوع (سير أعلام الفكر الإسلامي) من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام (١٤١٩هـ = ١٩٩٨م).

ومنحه معهد الدراسات الموضوعية بالهند جائزة الإمام ولي الله الدهلوي لعام (١٩٩٩م) ـ والتي تم منحها لأول مرة ـ وكان قد تقرَّر اختياره لهذه الجائزة في حياته، ولكن وافته المنية قبل الإعلان الرسمي، فاستلم هذه الجائزة باسمه ـ رحمه الله ـ شيخنا الأستاذ محمد الرابع الحسني النَّدْوي في دهلي في ٧ شعبان (١٤٢١هـ) = نوفمبر (٢٠٠٠م)، ومنحته المنظمة العربية الإسلامية ـ وسام الإيسسكو من الدرجة الأولى، واستلم هذا الوسام نيابة عنه كذلك فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني النَّدْوي ووكيلُ ندوة العلماء للشؤون التعليمية سعادةُ الدكتور عبد الله عباس النَّدْوي في الرباط في ٢٥ شعبان (١٤٢١هـ).

وكان من زهده أنه لم يتمتَّع بهذه الجوائز، بل تبرَّع بها على المجاهدين الأفغان، والمساجد والمدارس ومعاهد التعليم الديني، يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «ومن المعروف أنَّ الشيخ حين أُعطي جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وكان مقدارها ثلاثمئة ألف ريال سعودي في ذلك الوقت ـ

على ما أذكر ـ تبرَّع بها الشيخ كلّها، بعضها لفقراء الحرمين، وبعضها لفقراء الهند ومدارسها الدينية.. وكذلك فعل بكلّ مبالغ الجوائز التي حصل عليها، مثل: جائزة سلطان بروناي في التاريخ الإسلامي، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حين اختير ليكون الشخصية الإسلامية لعام (١٤١٩هـ)، وقيمة الجائزة مليون درهم، لم يدخل جيبه شيء من قيمة هذه الجوائز، بل أنفقها كلها في سبيل الله»[١].

مقابلاته الملوك والأمراء والرؤساء:

أقام الشيخ شهوراً بعد وفاة أبيه في قصر الأمير نور الحسن خان، وقد أفادته هذه الإقامةُ إذ أزالت عن عينه غشاوة المهابة للزينات والزخارف، ولم تبهر عينَه قطّ مظاهر الإمارة والثراء.

وقابل الملك عبد الله بن الشريف حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية ثلاث مرات عام (١٩٥١)، استلفت فيها نظرَه إلى رعاية المسجد الأقصى، والعناية به، وباللاجئين الفلسطينيين، والتقى بالملك حسين بن طلال عاهل المملكة الأردنية عام (١٩٧٣م) مع وفد من رابطة العالم الإسلامي.

وجَّه إلى الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود رسالة عام (١٩٤٧م)، طبعت بعنوان: (بين الجباية والهداية)، والتقى به ملكاً للملكة العربية السعودية في جلسة تأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام (١٩٦٢م).

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٢ ـ ٦٣.

كان أول لقائه مع الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود عام (١٩٦٣م)، والتقى به ملكاً عدة لقاءات، وكان الشيخ يجلّه إجلالاً، ويراه ملكاً عصامياً، ورائد التضامن الإسلامي، وأحد نوابغ ملوك العرب والمسلمين حزماً وذكاءً، وبُعد نظر وألمعية، وكتب إليه الشيخ غير مرة عن انطباعاته وملاحظاته عن المملكة والمسلمين، وكان الملك يردّ عليها ردّاً جميلاً، فمثلاً كتب إليه الملك في ٩/ ٢/ ١٣٨٥ (١٩٦٥م): «. . . وأحطنا علماً بما أبديتموه، ومع شكرنا لمشاعركم الطيبة، وتقديرنا لروحكم الإسلامية وغيرتكم الدينية، فإننا نودّ أن نؤكِّد لكم أننا لن نسمح ولا يمكن أبداً أن نسمح بما يتعارض مع ديننا الحنيف وتعاليمه القويمة»[١].

كما قابل الشيخ الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود والملك فهد بن عبد العزيز آل سعود في زيارات مختلفة، ووجَّه إلى ملوك آل سعود وأمرائها رسائل دعوية، أبدى فيها آراءه وملاحظاته، ونبَّههم إلى أنَّ للحجاز شخصيةً خاصةً ورسالةً ومكانةً، ولا بدَّ من المحافظة عليها في كلِّ عصرٍ.

قابل الشيخ الملك الحسن الثاني ـ عاهل المملكة المغربية ـ عام (١٩٧٦م)، وحدَّثه عن انتظار المسلمين واحتياجهم إلى قائد عصامي، مؤمنٍ ألمعيٍّ، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ، وقلبه الواثق.

والتقى بالأمير سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة عدة لقاءات،

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٦١.

وسافر بناءً على دعوة منه إلى الإمارات العربية المتحدة عام (١٩٧٤م)، وقد زاره الأمير في مقرّه بلكنو عام (١٩٨٠م)، وشهدتُ هذه المناسبة الرائعة في تاريخ ندوة العلماء، إذ رحَّب به الشيخ الندوي بالمقالة الشهيرة: «نِعْمَ الأمير على باب الفقير، وبئس الفقير على باب الأمير».

وقابل الشيخ الرئيسَ علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية في صنعاء عام (١٩٨٤م)، وزاره الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية في كراتشي عام (١٩٨٤م)، فقدَّم إلى فخامته مثال قبة الصخرة الرخامي ـ الذي كان أُهدي إلى سماحته هديةٍ تذكارية من كلية العلوم بالأردن ـ تلميحاً منه بأنَّ استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسؤولية من مسؤوليات رئيسٍ مؤمنٍ لبلدٍ مسلمٍ كبيرٍ كباكستان، وكان آخر لقائه مع الرئيس ضياء الحق عام (١٩٨٦م).

فضله وثناء العلماء عليه:

اتَّفق أهل العلم والبصيرة والصلاح والتقوى على الثناء عليه، وذلك شهادة منهم على فضله، فإنَّ ثناء العامة من الناس على رجلٍ لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله، واستقامته وعلوّ منزلته، أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره فلا شكَّ أنّه يعتبر دليلاً على قبوله وعلوّ منزلته، ولا بدّ من أن يتّصف أتباعه ومحبّوه، وجلساؤه بالصلاح والسداد، وحُسن الاعتقاد والتقوى والاهتمام بالآخرة، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تديّنهم وسيرتهم، وفيما يلي شهادة شيوخه، والعلماء الكبار من معاصريه:

خاطبه شيخ **خليل بن محمد اليماني** بقوله: «أعزّ من نفسي ونفائسي أخي الفاضل أبا الحسن علي حفظه الله تعالى... سلاماً وشوقاً، وحنيناً إليه وتوقاً، من صميم الفؤاد، المتقطع بسيف العباد»[1].

وقال المفتي **أمين الحسيني**: «الندوي.. المؤمن المخلص الذي يستطيع تشخيص الداء ووصف الدواء»[2].

وقال الشيخ **محمد بهجة البيطار** الدمشقي في رسالته إليه: «إنّي أيها الصديق الكريم، والخلّ الوفي، ما ذكرتُك في نفسي أو في ملأ من قومي إلا وذكرتُ علمك الواسع، وأدبك الجمّ، ولطفَ حديثك، وإمتاعَ جليسك بفوائدك الغزيرة، ونوادرك العذبة الشهية[3].

ويقول **الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي** في تقديمه لكتاب (رجال الفكر والدعوة في الإسلام): «ومن أعلام هذه الحركة المباركة (حركة الرجوع للإسلام) الأستاذ أبو الحسن الندوي مؤلف هذا الكتاب، فهو عالم مصلح، وداعية مخلص، دأب منذ آتاه الله العلم على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه، وبرحلاته المتعدّدة إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفَّقة في ميادين الدعوة، حتى إنَّه اليومَ ليُعدُّ من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند،

---

(١) رسائل الأعلام، ص١١.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠١.
(٣) رسائل الأعلام، ص٥٩.

له تلاميذه المنتشرون في كل بلد، وله كتبه ومؤلَّفاته التي تتميز بالدقة العلمية، وبالغموض العميق في تفهّم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها، عدا عما يمتاز به من روح مشرقة، وخُلق نبوي كريم، ومعيشة تذكّرك بعلماء السلف الصالح في زهده، وتقشّفه، وعبادته، وكرامة نفسه»[1].

وقال الشهيد **سيد قطب**: «الندوي.. رجل عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفتُ فيه القلبَ المسلمَ، والعقلَ المسلم، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام على فقهٍ جيد للإسلام.. هذه شهادة لله أؤديها»[2].

وقال عنه **الشيخ محمد الغزالي** رحمه الله معجباً بما في رسائل الشيخ من عاطفة وحماس وروح: «هذا الإسلام لا تخدمه إلا نفس شاعرة محلِّقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظّ لها منه»[3].

وقال **أحمد بن عبد العزيز المبارك**: «الندوي.. داعيةُ الإسلام، الذابُّ عنه بلسانه وقلمه، الجامعُ بين الإدراكِ السليمِ والتطبيق الحكيم، سلالة الدوحة النبوية والعترة المصطفوية»[4].

---

(١) من تقديم الدكتور مصطفى السباعي لـ(رجال الفكر والدعوة في الإسلام): ١/ ٧٩، ط. دار القلم بدمشق.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠٣.
(٣) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٩.
(٤) المرجع السابق، ص٢٠٢.

ويقول الأديب الشيخ **علي الطنطاوي** رحمه الله: «أبو الحسن بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمةً صغيرةً من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين.. وجدتُ أنَّ الله أكرمه فاستكمل مزايا الداعية الإسلامي»[1].

وقال الشيخ الفقيه **حسن بن محمد مشاط**: «الندوي العلاّمة الموفَّق»[2].

وقال العلاَّمة الفقيه **محمد شفيع** مفتي باكستان الأكبر ـ فيما أخبرنا به شيخنا ولده المفتي محمد تقي العثماني: «الشيخ أبو الحسن علي الندوي موفَّقٌ من الله تعالى».

وحلاَّه شيخنا الحافظ **عبد الفتاح أبو غدة** رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه (صفحات من صبر العلماء) بقوله: «علم من أكابر أعلام العصر الربَّانيين، وقدوة صالحة موهوبة، من أشهر العلماء الدَّاعين الهادين المفكّرين، هو العلاَّمة الجليل، والمجاهد النبيل، الداعية إلى الله تعالى بحاله ومقاله وفعاله، الذي إذا كتبَ أو خطبَ غذَّى القلوبَ والأرواحَ، ونوَّر العقولَ والأذهانَ، مولانا صاحب الفضيلة والسماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي.

وقال في كتابه إليه: «... فكنتم وما زلتم بحمد الله النموذجَ الرفيعَ

---

(١) مقدمة (في مسيرة الحياة).
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠١.

للتذكير بأولئك الأسلاف الذين آتاهم الله حبَّه في قلوبهم، وحبَّ الناس لهم بما أحبّوا الله ورسوله ﷺ ولا غرابة فيكم أن تكونوا كذلك، فالدوحةُ الشريفةُ ما تزالُ ناضرةَ الأغصان، زاهيةَ الألوان، معطارةً في كلِّ زمان ومكان، والحمد لله»[1]، وقال: «إنه بركة العصر»[2].

وقال الشيخ الفقيه **مصطفى الزرقا** رحمه الله: «هو حجّة الإسلام والمسلمين في الهند»[3]، وقال: «إنه قطعة من السلف الصالح أراد الله لها أن تعيش في عصرنا الحاضر»[4].

وكتب عنه **الشيخ القرضاوي** حفظه الله تعالى: «أشهد أني أحبّه وأرجو أن يكون حبّاً لله تعالى، فقد أحببته لتجرّده وإخلاصه وربّانيته، وأحببته لاعتداله ووسطيته، وأحببتُه لنقاء فكره من الخرافة، وصفاء قلبه من الحسد، وسلامة عقيدته من الشركيات، وسلامة عبادته من المبتدعات، ونظافة لسانه من الطعن والتجريح أو التلويح.

أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة، وبالحقائق عن

---

(١) رسائل الأعلام، ص٧٥.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: ٧/ ١٣ لعام (١٤٢١هـ).
(٣) يوسف القرضاوي، كلمات في تكريمه، ص٤٥.
(٤) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن: ٧/ ١٣ لعام (١٤٢١هـ).

الصور، وبالمعنى عن المبنى، وبالعمق عن السطح.

ولستُ أنا وحدي الذي يحب الشيخ الجليل، فأحسب أنَّ كلَّ من عرفه واقترب منه أحبَّه على قدر معرفته به وقربه منه، وكلّما ازداد منه قرباً ازداد له حبّاً... ولا غرو أن يختلف الناسُ على أشخاص العلماء، ولكنّهم يتفقون على أبي الحسن، حتى الذين ليسوا من مشربه، ولا على طريقته، لا يملكون إلا أن يختاروه في مجامعهم، لما خصَّه الله من مزايا قلَّ أن توجدَ في غيره، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]»[(١)].

وقال أيضاً: «ولقد لمستُ ولمسَ معي كلُّ مَن عرفكم ـ ولا أجاملكم ـ ما أنعم الله به عليكم من فضائل، هي من خصائص ورثة النبيين وخلفاء الرسل، ومجدّدي الدين، تتمثَّلُ هذه الفضائل في **وضوح الفكرة، وحيوية الكلمة، وحرارة الدعوة، واستقامة السلوك، والصدق مع الله ومع النفس**، كما تتجلّى في **الاعتدال والتوازن** التي عُرفتم به في الأوساط الإسلامية، والذي جعل لكلمتكم تأثيرها، ولكتبكم قرّاءها، ولشخصيتكم قبولها العام بين المسلمين والجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربهم، وتنوع وجهاتهم ومذاهبهم، حتى مَنْ خالفكم أو خالفتموه في الرأي أو الوجهة، لا يملك إلا أن يقدّر لكم حقّ قدركم، ويثني عليكم، ويعترف لكم بالفضل، وهذه من نِعَمِ الله الكبرى»[(٢)].

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٥.

(٢) رسائل الأعلام، ص٧٨ـ٧٩.

ويقول الأستاذ **محمد الرابع الحسني الندوي**: «الندوي. . قدوةُ أبناءِ المسلمين في الغَيرة على الدين، والكفاح لإعزاز الإسلام، والذبّ عن حوزته، وإقرار روحه وطبيعته الحقيقية»[(١)].

وقال الأستاذ **عبد الحليم عويس**: «الندوي. . رجل لم يتاجر يوماً بمبادئه، ولم يقف يوماً على باب أحد، ولم ينافس يوماً على الدنيا»[(٢)].

وقال الأستاذ **محمد واضح رشيد الندوي**: «الندوي قائدٌ صنع التاريخَ، وجدَّد الفكر»[(٣)].

ويقول عنه **الدكتور مانع بن حماد الجهني** الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي: «إنَّ الندوي علمٌ في دنيا الدعوة والأدب، أعجميٌّ أعربُ من كثير من فصحاء العرب الآن، ومفكّر إسلاميّ نحرير، حمل همَّ الدعوة والإصلاح، وجاب الدنيا داعياً إلى الله مبشّراً بالإسلام، خلَّف مدادُه أسفاراً مباركةً تقف واعية واثقة جميلة بين عرائس تراث المسلمين وإنتاجهم العلمي. ضبطَ بفكره الواعي إيقاعَ حركة المسلمين في الهند، فلم يهن وقت أن طلب الحزم، ولم يَغْلُ حين كانت الرويّة والحكمة، سمع صوته في المنتديات العلمية والمؤتمرات الثقافية والأدبية، وقف في وقت مبكّر يبشّر وينذر ويبيّن

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٠٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠٤.
(٣) المرجع السابق نفسه.

أنَّ أسس إصلاح حال المسلمين والعالم أجمع أن يتّبع منهج الإسلام في الحياة» .

وأخبرنا شيخنا العلاَّمة **المحدّث محمد بن علوي المالكي** في كتابه إليّ من مكة المكرمة أنَّ والده محدّث عصره كتب إلى الإمام أبي الحسن الندوي فخاطبه بقوله: «سيدي البدر، رفيع القدر، بقية السلف، وبركة الخلف، سيّدنا السيد أبو الحسن بارك الله فيه، وأعزّ الإسلام بقلمه ولسانه، وفجَّر ينابيع الحكمة من قلبه وبنانه، آمين.

* * *

الفصل السابع

وفاته وحليته وشمائله

وفاته:

بارك الله تعالى في حياة الشيخ الندوي، فقد عاش نحو ستة وثمانين عاماً متمتّعاً بعقله وحواسّه، وعاملاً نشيطاً في مجال الدعوة والإصلاح والتربية والتعليم، والكتابة والتأليف، حتى أصيب بالشلل الجزئي في ذي الحجة عام (١٤١٩هـ = ١٩٩٩م)، تأثرت به يده اليمنى ورجله، كما تأثَّر به لسانه في بداية الأمر، وبعد قليل تحسنت صحته، وحضر صلاة عيد الأضحى في مسجد ندوة العلماء، ومضت أيام واستطاع بفضل الله أن يكتب بيمينه: بسم الله الرحمن الرحيم. وبدأ يقوم على رجليه قليلاً، ومضى شهران على المرض، وألقى كلمته المرتجلة في اجتماع كبير لجماعة التبليغ انعقد في رحاب ندوة العلماء، ولكنَّه لم يقدر على حضور الصلوات في المسجد غير صلاة الجمعة، فكان يصلّي قاعداً في مقرّه مع جماعة من أصحابه.

وكان من عادة الشيخ قضاء شهر رمضان في قريته دائرة الشيخ علم الله في راي بريلي، فلمّا جاء شهر رمضان سأله الأطباء أن يقضيه في لكنو لتوفّر التسهيلات الطبية بها، فسعدت دار العلوم لندوة العلماء ومنتسبوها والعاملون

فيها والساكنون بها وأهالي مدينة لكنو بمصاحبته في الشهر المبارك، وقضى العشرين الأولين يصومُ أيامها، ويقوم لياليها يصلي التراويح، وكان نشيطاً متحمّساً لا تظهر عليه آثار التعب أو الإرهاق، يقوم على عادته لقيام الليل، ويتسحّر ويصلّي الفجر فينام، ويستيقظ بعد التاسعة صباحاً فيصلي ركعتين، ويتلو كتاب الله، ويكمل الورد اليومي، ويدعو لوالديه ولأساتذته ولكلّ مَن أحسن إليه ولكبار العلماء والدعاة والمجدّدين والمصلحين، ويستقبل الزوار أحياناً، ويقرأ الرسائل الواردة، ويردّ عليها، وينظر في بعض الكتب، ويملي إذا اقتضى الأمر، ثم يستريح ما بين صلاة الظهر وصلاة العصر، ويجلس للناس قليلاً بعد صلاة العصر، ثم ينشغل في الأوراد والدعاء والابتهال إلى الله تعالى، ويفطر مع ضيوفه، ثم يتعشّى معهم بعد صلاة المغرب مباشرة، فيستريح قليلاً، ثم يصلّي مع جماعته العشاء والتراويح، ويجلس للضيوف والزوّار والحضور من طلبة العلم لنصف ساعة أو أكثر. وأصرَّ أن يقضي العشر الأخير في مسقط رأسه، وكانت صحته تومئ بخير، وقد قضى عشرين يوماً صائماً قائماً، فأذن له الأطباء بذلك متوكّلين على الله سبحانه وتعالى.

وكان صباح يوم الأربعاء العشرين من شهر رمضان إذ استيقظ من نومه في الضحى، وصلّى وأكمل الورد اليومي من التلاوة والذكر، وخرج في الساعة العاشرة متوجّهاً إلى راي بريلي، ووصل إلى قريته قبل صلاة الظهر، وقضى يومين كالعادة، وقام صباح يوم الجمعة ٢٢ من شهر رمضان (١٤٢٠هـ) ـ ٢٣ من شهر رمضان في البلاد العربية ـ من نومه بعد صلاة الفجر بعد التاسعة، وأكمل الورد اليومي، وتلا سورة يس ثلاث عشرة أو أربع عشرة

مرة على عادته، ودعا لجماعة سمّاهم، وبعد الحادية عشرة اغتسل، وغيَّر ملابسه، وتزيّن لصلاة الجمعة، وكان من عادته منذ الصغر قراءة سورة الكهف قبل صلاة الجمعة، فطلب المصحف، وبدأ يقرأ سورة يس عن ظهر قلبه انتظاراً للمصحف، ولم يكملها، وفاضت روحه إلى باريها في الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق، قبل صلاة الجمعة، وكان اليوم الأخير من القرن المسيحي المنصرم.

وما أن أُعلِنَ عن وفاته إلا وبدأت قوافل تلاميذه ومحبّيه تفد إلى قريته، وصلّى عليه العلاَّمة الشريف محمد الرابع الحسني الندوي في الساعة العاشرة والربع من ليلة الثالث والعشرين في جماعة تقدَّر بمئتي ألف تقريباً، ودُفن في مقبرة أسرته بالقرية في حضور الأقارب والأهالي وبعض مسؤولي ندوة العلماء التي ظلّ مرتبطاً بها طيلة حياته الحافلة بالجهاد والدعوة.

واهتزَّ العالم الإسلامي لموته، وصُلِّي عليه في الحرمين الشريفين صلاة الغاب ليلة السابع والعشرين، وامتلأت الصحف والمجلاّت في شبه القارة الهندية والعالم الإسلامي بالمقالات حول حياته ومآثره، وعُقدت حفلاتُ التأبين في كلّ ناحية من نواحي العالم، وصدرت بيانات عن الجمعيات والمنظّمات والمؤسسات الإسلامية الكبرى تنعي وفاته، وتعتبرها خسارة لا تُعوَّض لمسلمي الهند والعالم الإسلامي، ويصعب تعويضها في المستقبل القريب. وتوالت التعازي من مختلف أنحاء الهند والعالم في الفقيد الكبير، وأقيمت له صلاة الغائب والترحّم في مختلف المناطق.

كان موته فاجعة، يا لها من فاجعة، عمَّت المسلمين على اختلاف طبقاتهم، وبُعد أقطارهم في مشارق الأرض ومغاربها، وزعزعت أركان الدين، وصدمت السنّة وأهلها أجمعين، وأصمّت المسامع، وأجرت المدامع، وإنها والله لمن أعظم الفجائع، وأطم الوقائع، فلقد كان للإسلام والمسلمين سنداً، وللدين في القرنين المنصرم والراهن عضداً، وكان للدنيا بوجوده جمال، ولندوة العلماء به زينة وبهاء، وللهند به مفخرة ورواء، وللعالم العربي به ثقة، وللعالم الإسلامي إليه رجوع، وللناس به أنس، ولهم منه فوائد جمّة.

وقال الشيخ يوسف القرضاوي مودّعاً له ناعياً: «في سنة رحيل العلماء الأعلام، وفي العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، وفي يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وفي آخر يوم من السنة الميلادية التي يعتبرها الكثيرون نهاية القرن العشرين، وقبل صلاة الجمعة، وقد توضأ الشيخ، واستعدَّ للصلاة، وشرع يقرأ سورة الكهف[1] من كتاب الله تعالى ـ كما تعوّد كل جمعة ـ وافى الأجل المحتوم العلمَ الفردَ، والداعيةَ الربّانيَّ، والعلاَّمةَ المتميّزَ، العربيَّ الأرومة، الحسنيّ النسب، الهندي الجنسية، العالميَّ العطاء: شيخ الأمة، ولسانها الناطق بالحق، الداعي إلى الخير السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي، وهو أشهر من أن يُعرَّف، وأعظم أن يؤدَّى حقَّه بكلمات»[2].

---

(١) بل سورة يس كما تقدَّم آنفاً.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٩.

ونعت جبهة علماء الأزهر في بيان صدر بتاريخ ٢٩ من شهر رمضان فقيد الأمة الإسلامية، ومجدّد الإسلام في شبه القارة الهندية، ومؤسس الصحوة الإسلامية على منهج الوسطية، سماحة الشيخ أبا الحسن علي الحسني الندوي عن عمر يناهز التسعين عاماً. واحتسبت عند الله تعالى العالِم الإسلامي البارز من علماء الإسلام واصفة إياه بأنه كان «إماماً ناهضاً من أئمة الدعوة والتجديد، شيخ الأمة ولسانها الناطق بالحق، الداعي إلى الخير».

وقد وصف البيان الشيخ الندوي ـ عليه رحمة الله ـ بأنه أشهر من أن يعرَّف، وأعظم من أن يؤدى حقه بكلمات، وقد كان له باع واسع في مجال الرواية والدراية بأحاديث الرسول الكريم ﷺ، وفي الخطابة كان يضع لسانه من فنون القول حيث يشاء له حبه للحق، فلم يستعصِ عليه بيان، ولم يتلجلج له في ميدانها لسان، وكان في الجدال بالحق غزيراً كالبحر، قوي الحجّة، بصيراً بمواضع الحق، قديراً على استنباط الدليل، فقلَّ أن نجد له محاوراً خرج من الحوار معه بغير التسليم لحجّته، والمصير إلى رأيه، وقد جاءت جميع مؤلَّفاته صورة صادقة لشخصيته التي عاشت للحق، وماتت إن شاء الله عليه.
ووصفه بيان الجبهة بقول الشاعر:

وَمِنَ الرِّجَالِ إذَا مَا عَاهَدُوا صَدَقُوا ... مُجَـاهِـدٌ مِـنْ طِـرَازٍ غَيْـرِ مُتَّهَـمِ

ومضى البيانُ يوضح أنَّ رحيله جاء على وفق ما يأتي رحيل الشهيد، يذهب إلى ربّه راضياً مرضيّاً والميدان ببعض جهاده وعلمُه مشتعل، فلا يكاد المجاهدون حوله يحسّون بفقده أو يشعرون برحيله. كما أنَّ مِنْ عاجل بشرى

المؤمن له أن يرحل عنا وهو يستعد للصلاة بعد الوضوء في ختام شهر كريم آخره عِتْقٌ من النيران ـ رحمه الله رحمةً واسعة ـ، ورجاؤنا أن يعوِّضنا الله منه ما عوَّضه الله ُمنا، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

حليتُه:

كان ربْعة من الناس، نحيفاً، أبيض إلى الحمرة، طلق الوجه، دائم البِشْر، له وجهٌ مشرق، وجبينٌ واسع زاهر، تلوح عليه سيما الصالحين، وتشفُّ عيناه عن ذكاءٍ مفرِطٍ، وهمة عالية، وحياء كحياء العذارى، كله روح ونشاط، وحماس ويقين، وهم للمسلمين، وقلق دائم، مجالسُه مجالسُ علم وإفادة، وتعليم وتربية، امتزجت الدعوة بلحمه ودمه، دائم الاشتغال بالمطالعة والبحث، والكتابة والتأليف، كثير الأسفار والرحلات، لا يسأم ولا يمل من العمل، ولا يعتريه الفتور ولا الكسل.

يقول الشيخ القرضاوي وهو يصفه حينما رآه في شبابه في زيارته الأولى لمصر: «كان الشيخ حين زار مصر في الشباب، لحيته سوداء، ووجه نضر، وعزمه فتيٌّ، وروحه وثَّابة، وغيرته متوقّدة، كان يحمِلُ حماس الشباب، وحكمة الشيوخ، يحمل فكرَ العالم الموفَّق، وقلبَ المؤمن الغيور في آن واحد»[١].

ويقول الأستاذ أحمد الشرباصي: «لقيتُ أخي أبا الحسن أول مرة في

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٧.

شتاء عام (١٩٥١م) بدار الشبان المسلمين في القاهرة عقب محاضرة لي من (محاضرات الثلاثاء) وقد أقبل عليَّ يطلبُ في أدبٍ جمٍّ وتواضعٍ ظاهرٍ ليلة من ليالي الثلاثاء، ليلقي فيها محاضرة عن (العالم في مفترق الطرق). . فرأيتُ رجلاً نحيف البدن، نحيل العود، له لحية سمراء، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والثمن، ونظراته عميقة نفاذة، ونبراته دقيقة أخّاذة، فيها بحّة، عرفتُ فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهاد، وبعد اللقاء الأول العاجل توثَّقتْ بيني وبينه أسباب الأخوّة والمحبّة»[١].

ويقول الأستاذ عبد القدوس أبو صالح: «كان رغم نسبه العربي وانتمائه الحسني يبدو هندي الملامح، معتاد السمات، يلفتك في وجهه نظارتان دائمتان، ويغلب عليه طبع شديد الهدوء، وميل إلى الوداعة، حتى يُخيَّل للجاهل أنها استكانة واستسلام، وكأنَّما عناه ابن المقفّع حين قال في صاحبه: «وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً فإذا جدَّ الجدّ فهو الليث عادياً»[٢].

عاداته:

كان الشيخ محافظاً على صلاة الجماعة منذ صغره مع قيام الليل، والمحافظة على تلاوة كتاب الله العزيز، والأوراد اليومية، حتى في كبر سنّه وضعفه، خرج مرة (وذلك في الأربعينيات) مشياً على الأقدام من ندوة العلماء

---

(١) من تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، ص١٧.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي: ٧/ ١٣، لعام (١٤٢١هـ).

إلى منزله في لكنو، وهو يرى أن يصلّي العشاء في مسجد حيّه، فوصل إليه وقد فاتته الجماعة، فاتّجه إلى مسجد آخر، ووجد أنَّ الناس قد فرغوا فيه كذلك من الصلاة، فأهمّه الأمر جدّاً، حتى أُخبرَ بمسجد ثالث تُقام فيه الصلاة متأخراً، فوصل إليه وأدرك الجماعة، فسُرَّ سروراً بالغاً لا يفسَّر.

وخرج مرةً في شهر رمضان بعد صلاة العشاء من لكنو إلى راي بريلي، وصلَّى التراويح كاملةً في القطار عشرين ركعة ختم فيها سورة البقرة.

وظلّت هذه عادته طول حياته، فكان حريصاً غاية الحرص على صلاة الجماعة، وله عناية خاصة بيوم الجمعة، يغتسل مبكّراً، ويتزيَّن تزيناً كاملاً، ويقرأ سورة الكهف قبل الخروج إلى المسجد، ويطبّق سائر السنن والمستحبّات الواردة ليوم الجمعة وصلاتها، ثم يخرج قبل الأذان أو بعده مباشرة.

وكان أنيقاً في ملبسه من غير تكلُّف، وإذا خرج لإلقاء محاضرة أو حضور اجتماع لبس العباءة وتزيَّن.

لم يرغب في تنوّع الأطعمة، ولكنَّه كان يحبُّ الطعام الشهيَّ والحلويات، وكان الرز جزءاً لازماً في طعامه، وكان يحبُّ اللحمَ مطبوخاً مع بعض الخضروات، وكان طعام العرب من أفضل الأطعمة لديه، ولعلَّ ذلك يرجع إلى حبّه لكل ما يتّصل بالعرب، وكان يفضّل السليق على غيره لخفّته.

وظلَّ في مقتبل عمره وريعان شبابه يمارس أنواعاً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد والهوكي والتنس، ثم انقطع عنها.

ويقول الأستاذ أحمد الشرباصي: وأخي أبو الحسن بعد هذا كلّه عدو للمظاهر الكاذبة، يتخفّف في ثيابه وطعامه وفراشه، ويكره التكلّف والمجاملة الزائدة، ولا يقيم للمال وزناً في حياته، وثقته بربّه فوق كلِّ شيء، ومثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال، وإخلاصه العميق سرّ نجاحه بينما يفشل الآخرون[1].

حياته اليومية:

كان في عامة أحواله ينهض مبكّراً في آخر الليل، ويطيل القراءة، فإذا طلع الفجر أقبل على الذكر جهراً، ويصلّي الفجر، ثم يتنزَّه مشياً على الأقدام يتلو سورة يس، ويذكر الله، ثم يرجع ويفطر، ويصلّي الضحى، ثم يقرأ جزءاً من القرآن الكريم، ثم يشتغل بالكتابة والتأليف، والردّ على الرسائل الواردة إليه بكثرة، وكان يملي كل يوم عشرين إلى خمس وعشرين رسالة، وأملى مرةً خمساً وخمسين رسالة في مجلس واحد، ثم يصلي الظهر، ويتغدّى، ويقيل، ويستيقظ قبل العصر بساعة أو أقل.

وكان يجلس بعد العصر إلى المغرب لعامة الزوار والضيوف، ويصلّي المغرب، ويصلّي النافلة يقرأ فيها نحو جزء ونصف من القرآن الكريم، ثم يجلس أحياناً، ويستمر في ذكر الله، فإذا كان في راي بريلي دخل بيته وجلس مع أهله، وخرج قبيل العشاء، وأما في دار العلوم لندوة العلماء فكان يقضي

---

(١) من تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، ص٢٣.

تلك الساعة في قراءة كتاب أو مقابلة خاصة، ثم يصلّي العشاء، ويتعشّى مع الناس، ويتمشّى قليلاً، ثم يجلِ للناس يتحدّث معهم ساعة أو أقلّ.

فلمّا كبرت السن، وأصابه الأرق بعد عام (١٩٧٧م) بدأ ينام بعد الفجر ساعة أو أكثر، وكان مواظباً على كثرة قراءة سورة يس، وكان في سنواته الأخيرة يبذل نحو ساعتين يتلوها ثلاث عشرة مرة أو أكثر، وكان يدعو لسلف هذه الأمة ودعاتها، وذويه وأهل معارفه، يسمّيهم بدءاً بخليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإذا دخل قرية أو مدينة قرأ سورة يس يستغفر لموتاها، وصار في آخر حياته يكمل الورد اليومي بعد صلاة الفجر، ويدعو لأهل معارفه ويسمّيهم، ومن سعادة كاتب هذه السطور أنّه اتصل به مرة، فذكر له على الهاتف أنه واحد ممن يسميهم في أدعيته، فجزاه الله تعالى خيراً، وأجاب دعاءه، آمين يا ربّ العالمين.

* * *

الفصل الثامن

الأهل والتلاميذ

أ ـ الأهل:

زوَّجته أمه عام (١٩٣٤م) من السيدة طيب النساء ابنة شقيقها السيد أحمد سعد الحسني بن الشيخ الصالح السيد ضياء النبي الحسني، وكان الاهتمام كبيراً بهذا الزواج من قبل أخيه الدكتور عبد العلي الحسني، فاستدعى العلاَّمة المحدّث حيدر حسن خان الطونكي، وعقد الزواج، وأقام وليمة فاخرة حتى لا يشعر بفقدان أبيه، وتهلّل وجوه الناس بهجةً وغبطةً وسروراً.

وكانت من العابدات القانتات، والمخبتات في الدعاء، ومحافظة على الصلوات مع البذل والسخاء، واهتمام بالغ بخدمة زوجها إلى أن وافاها الأجل في ١٥ ديسمبر (١٩٨٩م) بعد مرض دام طويلاً، وصلَّى الشيخ الندوي عليها في جماعة كبيرة.

وعوَّضه الله عن أولاده من الصلب ابن أخيه الداعية الكاتب الموهوب محمد الحسني رحمه الله وأبناء الأخت الصالحين البررة الدعاة المخلصين محمد الثاني رحمه الله، ومحمد الرابع، ومحمد الخامس، وهو المعروف بـ: محمد واضح رشيد حفظهما الله تعالى، وكذلك مؤلَّفاته، وقد قال ابن الجوزي

رحمه الله: «كتاب العالم ولده المخلد»، فكم للشيخ الندوي من أولاد محبّين، ومستفيدين ومنتفعين.

ب ـ التلاميذ:

درّس الشيخ في دار العلوم لندوة العلماء عشر سنوات كما قدَّمنا، وأخذ منه في هذه المدة مئات من الطلبة، كما قرأ عليه غيرهم في الهند وخارجها، وقرأ عليه عدد كبير من الناس أوائل الصحاح و(مسند الإمام أحمد بن حنبل) فأجازهم، سأترجم هنا أولاً لكبار تلامذته، ثم أسمي المعروفين ممن استجازوه.

١ ـ العلاَّمة الشريف محمد الرابع الحسني الندوي:

شيخنا العلاَّمة الشريف محمد الرابع بن رشيد أحمد الحسني الندوي، ولد عام تسعة وأربعين وثلاثمئة وألف من الهجرة النبوية، تخصَّص في الأدب العربي وبرع فيه وتقدَّم وفاق الأقران حتى عُرف به، وكان أخصّ الناس بالشيخ الندوي، وخلفه بعد وفاته في رئاسة ندوة العلماء، وهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية. ومن مؤلَّفاته: (الأمة الإسلامية ومنجزاتها)، و(التربية والمجتمع)، و(الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر)، و(منثورات في أدب العرب)، و(الأدب العربي بين عرض ونقد)، و(تاريخ الأدب العربي والعصر الإسلامي)، و(الأدب الإسلامي وصلته بالحياة)، و(مختار الشعر العربي)، و(العالم الإسلامي اليوم)، و(روائع من الأدب الإسلامي القديم)، و(المسلمون والتربية)، و(موافقات ومفارقات في المدنية الغربية)، و(الدين

والأدب)، و(جزيرة العرب)، وغيرها من المؤلَّفات القيّمة باللغتين العربية والأردية إلى جانب المئات من المقالات البحوث العلمية والأدبية، ومما منَّ الله تعالى عليه أنّه حصل على إجازات ثلاثة من أكابر مسندي زمانهم: الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي، والمحدّث الكبير العالم الربّاني محمد زكريا الكاندهلوي، والإمام الحافظ عبد الفتاح أبو غدة رحمهم الله تعالى.

٢ ـ العلاَّمة الشريف محمد واضح رشيد الندوي:

شيخُنا الأستاذ الشريف أبو جعفر محمد واضح رشيد الحسني الندوي، العالم الكبير، اللغوي الأديب صاحب الذوق الرفيع، أستاذ اللغة العربية وآدابها، ورئيس تحرير صحيفة (الرائد) الصادرة في دار العلوم لندوة العلماء، يمتاز بالعلم والعمل، ويجمع بين العقل والحكمة والخلق الحسن، وممن يُضرب به المثل في التواضع، والأدب الرفيع، والسمت العالي، وتجنّب الفضول، وحفظ الوقت، وقلّة الكلام، وقلة الاختلاط مع الأنام، والبُعد عن حبّ الفخفخة والظهور، والإقبال على شأنه، وتعليم الطلاب وتربيتهم، وبذل الودّ والنصح لهم، والانبساط لهم. والناس مجمعون على الاعتراف بفضله، والإشادة بمناقبه، والتنويه بشأنه، لم تر العيون مثله، وما رأينا من يدانيه في شرح التاريخ الإسلامي المعاصر، وفقه القضايا المعاصرة، وشرح الفكر الإسلامي والحاجة إلى تنقيته وتطهيره من الشوائب. ويشارك شقيقه شيخنا العلاَّمة محمد الرابع الحسني الندوي في شيوخه، وله: (أدب الصحوة الإسلامية)، و(الشعر الإسلامي)، و(منهج علماء الهند في التربية الإسلامية).

٣ ـ الأستاذ محمد الحسني :

هو الشيخ الأستاذ العلاَّمة الشريف محمد بن الدكتور عبد العلي ابن أخي الشيخ الندوي، أخذ عنه الأدب العربي، والكتابة، وحاكاه في أسلوبه، وفاق الأقران، أصدر مجلة (البعث الإسلامي)، وظلَّ رئيس تحريرها مدة حياته، توفي في شهر رجب سنة (١٣٩٩هـ) وهو ابن أربع وأربعين سنة، وخلَّف ثلاثة أبناء: السيد عبد الله، والسيد عمار، والسيد بلال، ومن الكتب: (الإسلام الممتحن)، و(مصر تتنفس)، و(تناقض تحار فيه العيون)، و(حياة السيد محمد علي المونكيري)، و(روداد جمن).

٤ ـ الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي :

الشيخ العلاَّمة الأديب الكبير الخطيب المصقع سعيد الرحمن الأعظمي الندوي ابن الشيخ المحدّث أيوب الأعظمي، قرأ على والده، ثم أخذ آداب اللغة العربية عن العلاَّمة تقي الدين الهلالي، والشيخ الندوي، وله: (شعراء الرسول ﷺ)، وهو مدير ندوة العلماء، ورئيس تحرير مجلة (البعث الإسلامي).

٥ ـ المفتي محمد ظهور الندوي :

الشيخ العالم الكبير الفقيه الجليل المفتي المتفق على جلالته وقوة فهمه محمد ظهور الندوي الأعظمي بن عبد الستار بن خان محمد، ولد عام سبعة وعشرين وتسعمئة وألف في (مباركفور) من (أعظم كره)، وتعلَّم في مدرسة إحياء العلوم بمباركفور، ودار العلوم لندوة العلماء، قرأ (هداية الفقه) على زوج أخته المفتي محمد سعيد، و(مشكاة المصابيح) على الشيخ إسحاق

السنديلوي، و(رياض الصالحين) على الشيخ مصطفى البستوي، و(شرح التهذيب) على شيخنا أبي العرفان الندوي، و(الصحيحين) على الشاه حليم عطا، و(سنن أبي داود) على الشيخ إسحاق السنديلوي، وكتب الأدب العربي على الشيخ محمد ناظم الندوي، و(مختارات من أدب العرب) و(علوم القرآن) على الشيخ أبي الحسن الندوي، و(سنن الترمذي) على الشيخ سعيد أحمد، و(حجة الله البالغة) على الشاه حليم عطا، و(تدرب الإفتاء) على الشيخ المفتي محمد سعيد، ويشغل منصب الإفتاء في دار العلوم منذ عام ستة وخمسين وتسعمئة وألف، ويمتاز في فتاواه بالفهم الدقيق وعدم التعصّب.

٦ ـ الشيخ محمد طاهر المنصورفوري:

الشيخ محمد طاهر بن محمد يوسف بن محمد يونس أحد العلماء الصالحين والإداريين البارزين في عصره، ولد عام تسعة وأربعين وثلاثمئة وألف ظنّاً، وسمع (الجامع الصغير) على العلاَّمة محمد يوسف الكاندهلوي، وقصيدة (البردة) للبوصيري، و(قصيدة كعب بن زهير)، و(شرح الملا عبد الرحمن الجامي على كافية ابن الحاجب) في النحو على الشيخ إنعام الحسن، و(مختصر المعاني)، و(شرح الوقاية) و(نور الأنوار) على العلاَّمة عبيد الله البلياوي، وسمع (صحيح) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، و(سنن الإمام أبي داود) سليمان بن الأشعث السجستاني على شيخ الحديث العالم الربّاني محمد زكريا الكاندهلوي، و(صحيح الإمام مسلم) على الشيخ منظور أحمد السهارنفوري، و(جامع الإمام أبي عيسى الترمذي) على الشيخ أحمد سعيد، و(سنن الإمام أبي عبد الرحمن النسائي) و(سنن الإمام أبي عبد الله بن

ماجه القزويني) ، و(معاني الآثار) للإمام أبي جعفر الطحاوي على الشيخ أسعد الله ، وأخذ علوم القرآن عن الشيخ الندوي .

جـ ـ الرواة عنه:

وقد كثر الرواة عنه والمستجيزون منه من كلّ طبقة ، وظلّت العادة المتبعة في دار العلوم لندوة العلماء منذ أمد بعيد أن تكون ختمة (صحيح البخاري) عليه ، وحضرتُ كثيراً من هذه الختمات ، ولله الحمد ، وممن روى عنه شيخنا الإمام حافظ زمانه المحدث الذي لا يجارى الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله ، وتوفي قبله بثلاث سنين ، كما روى عنه من شيوخنا العلاَّمة المحدِّث محمد علي المراد الحموي ، وشيخنا محمد بن محمد عوّامة ، والشيخ المحدّث محمد يونس الجونفوري ، والعلاَّمة المحدّث عبد الله بن عبد القادر التليدي ، وشيخنا السيد محمد بن علوي المالكي الحسني ، والعلاَّمة المؤرّخ أحمد سردار الحلبي ، وشيخنا المجيز أبو عمار زاهد الراشدي ، وشيخنا المسند محمد أبو الهدى اليعقوبي ، والسيد إبراهيم بن عبد الله الخليفة الحسني الأحسائي ، والشيخ موفق النشوقاتي وابنه عمر ، والشيخ أحمد مختار رمزي ، والشيخ مجد مكي ، والشيخ أحمد بن سليم الحمامي ، والشيخ يحيى بن محمد ابن أبي بكر الملا ، والسيد محمد عدنان المجد الحسني ، والأستاذ عبد الرحمن محمد حسن هلال ، والشيخ مصطفى بن عبد الكريم الندوي المصري ، والشيخ علي أحمد الندوي ، والشيخ أحمد بن عبد الرحمن العثمان ، والشيخ أحمد بن عبد الملك عاشور ، والدكتور محمد مطيع الحافظ ، والشيخ محمد رياض المالح .

وأجاز صديقنا زين المسندين محمد بن عبد الله آل الرشيد وابنيه عبد العزيز ونواف، وأخي محمد مزمّل الندوي، وأخواتي أسماء وعاصمة وصائمة، وبناتي حسنى وسمية وهالة ومريم وفاطمة، وقد تشرَّف كاتب هذه السطور بإجازته غير مرة.

* * *

الباب الثاني

عالم نبيه وفقيه في الدين

تمهيد

الفصل الأول : القرآن الكريم وعلومه

الفصل الثاني : الحديث النبوي الشريف

الفصل الثالث : الفقه

الفصل الرابع : التاريخ

الفصل الخامس : اللغات والآداب

تمهيد

كان الشيخ مضطلعاً من علوم القرآن، والسنة، والفقه، والتاريخ، وآداب اللغة العربية، والفارسية، والأردية، ولم يكن في علماء عصره ومثقفي زمانه من يضاهيه في هذه العلوم والآداب، لا سيما إتقانه للغة العربية، فلا يُعرف في الهند مَن قاربه في إتقانها نطقاً وكتابةً وروعة بيان، وفصاحة أسلوب.

يقول **الشيخ القرضاوي**: ولا غرو أن رأينا شيخنا أبا الحسن مثالاً متميزاً للعالم المسلم، الداعية المجدّد، مثالاً بين رقّة الربَّانيين وتوحيد السلفيين، والتزام السنيين، وثقافة المعاصرين، والاستقاء من ينابيع القرآن والسنّة المطهَّرة علماً وفهماً وتذوّقاً وعملاً، حتى ارتوى وروى، متضلعاً من الأدب العربي والفارسي والأردي، ممتلئاً من كنوز التراث الإسلامي الغني، آخذاً منها ما صفا، وتاركاً ما كدر، ممثلاً خير تمثيل لشعار الندوة المباركة «**الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الإيمان الراسخ والعلم الواسع**»[١].

ويقول الدكتور **محمد مصطفى بهجت**: «إنَّ الشيخ الندوي يمكن أن

---

(١) رسائل الأعلام، ص٧٩.

يوازن بالنفر القلائل من العلماء أمثال: ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، **وابن قيم الجوزية** (ت٧٥١هـ)، **وابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) من حيث تنوّع ثقافته، وإسهاماته المتنوّعة في مجالات أصول الدين ومقارنة الأديان، والكتاب والسنّة، والسيرة والتاريخ، والدعوة والعقيدة، والأدب والنقد، وقد أتاحت ثقافته المبكّرة هذا التنوّع في خوض مجالات العلوم الشرعية والإنسانية من باب واسع»[1].

وسأعرض في هذا الباب جوانب تقدّمه في هذه العلوم والآداب إن شاء الله تعالى:

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي: ٧/ ٥٦، لعام (١٤٢١هـ).

الفصل الأول

القرآن الكريم وعلومه

كان للشيخ اهتمام كبير وشغف زائد بكتاب الله العزيز، يكثر من تلاوته، وسماعه من القرَّاء المجيدين له، وكلَّما قرأه أو سمعه كان كما حكى القرآن نفسُه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وكان يتلوه وكأنَّه يتنزَّلُ عليه.

وازداد على الأيام ارتباطه بالقرآن الكريم، وسلوكه في نظم أهل القرآن، وليست مجرَّد أهلية انتساب، بل أهلية المصاحبة، يعتبر القرآن الكريم مصدره الأول ومعتمده الأساس، وإذا ألقى محاضرةً أو خطاباً استهلَّه بآي من الذكر الحكيم، يستلهمها ويستهديها، ويستوحي منها المعاني والأسرار، وكان يرتكز في مجال الدعوة على نور القرآن وهديه، ووافاه الأجل وهو مقبل على تلاوته، يقول وهو يتحدَّث عن استيحاء المعاني من القرآن: «قد جرَّبتُ مراراً أني لم أقرّر قبل الأخذ في محاضرة أو خطاب كيف أفتتحه، وماذا عسى أن أقول، إذ تلا القارئ آيات فعرفت أنها آياتٌ تخاطبني قبل أن تخاطِبَ غيري، وأنها اختيرت لنفسي».

ويدينُ في عنايته بالقرآن الكريم والدراسات القرآنية: **لأمه**، التي كانت حافظةً لكتاب الله، ثم لشيوخه: **خليل بن محمد اليماني**، **والخواجة عبد الحي الفاروقي**، **وأحمد علي اللاهوري**، **والشيخ حسين أحمد المدني**، **والعلامة السيد سليمان الندوي**، **والأستاذ عبد الماجد الدياربادي**، **والأستاذ مناظر أحسن الكيلاني**، ولتعينه في دار العلوم لندوة العلماء كمحاضر للأدب العربي وتفسير القرآن الكريم، فتوفرت له أسباب دراسة القرآن الكريم، والنظر فيه، وتدبر معانيه، يقول: «طالعتُ القرآن الكريم ككتاب حي، ورسالة ناطقة، ومرآة يرى فيها الأشخاص وجوههم، والشعوب مظاهرها، وهي تحكي عن ازدهار الأمم والشعوب والدول والحضارات، وتقدّمها، ومصيرها».

من كتاباته القرآنية: ١ ـ (تفاسيره للأمكنة المختلفة من القرآن الكريم) المبعثرة في كتاباته، ٢ ـ و(المدخل إلى الدراسات القرآنية)، ٣ ـ و(الصراع بين الإيمان والمادية: تأملات في سورة الكهف).

أما **(المدخل إلى الدراسات القرآنية)** فهو مجموع محاضرات ألقاها الشيخ الندوي أمام طلبة دار العلوم لندوة العلماء في أواخر الثلاثينيات حينما تمَّ تعيينه معلّماً لمادة التفسير عام (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م)، شعر في أول احتكاكه مع الطلبة بأنه لا بدّ قبل تدريس القرآن الكريم وتفسيره من إلقاء الأضواء الكاشفة حول خصائص القرآن ومزاياه وعلومه ونبوءاته ووجوه إعجازه ومجالاته الواسعة، ولا بدَّ كذلك من إجابة على بعض الأسئلة الأساسية للوصول إلى بعض آفاق القرآن وأعماقه، فما هو موضوع القرآن أولاً وأساساً؟ وعن ماذا يبحث هذا الكتاب ويعتني به؟ وما دور الكتاب في إخراج الجيل البشري من

الظلمات إلى النور، وربط المخلوق بالخالق؟، وما هي مكانته الفريدة بين سائر الكتب السماوية السابقة في البقاء على أصالته والبعد عن التحريف، والتأثير والسيطرة على المجتمع الإنساني وتشكيله، وتكوينه؟ وكيف صمدت علومه أمام الكشوف الجديدة، وتحققت نبوءاته؟ ثم ما هي الشروط الأساسية للاستفادة من القرآن والانتفاع به؟ وما هي الموانع من الانتفاع به؟ وهل لا بد من الاتصال المباشر بالقرآن وتذوّقه دون أي حاجز؟

يقول الشيخ الندوي وهو يتحدّث عن خلفية هذه المحاضرات: «ولما باشر المؤلف تدريس أجزاء القرآن الكريم التي اختيرت له رأى أنَّ الطلبةَ الشباب الدارسين لهذا الكتاب المعجز العظيم ليست عندهم ركيزةٌ أساسيةٌ، ورصيدٌ مذخورٌ، لمعرفة مكانة هذا الكتاب المعجز الخالد، وما اشتمل عليه من آيات ومعجزات، وما انفرد به من آفاق وأعماق، وما قام به من دورٍ في نشر الهداية والوصول إلى الحقيقة وربط المخلوق بالخالق، وإخراج الجيل البشري من الظلمات إلى النور، ومن السخافات والسفالات إلى قمة الإنسانية السامية القائمة على الرسالة السماوية والهداية الربانية، ومكانته بين الصحف السماوية القديمة في ضوء الدراسة المقارنة، وشهادات المؤرّخين من غير المسلمين، وما اشتمل عليه من نبوءات تبدو متحدّية للعقل والقياس، وتظهر كالشمس الساطعة من وسط الضباب والغبار.

وما هي الصفات والشروط التي تهيِّئ الطالبَ إذا استوفاها للانتفاع بالقرآن الكريم والاهتداء بهدايته، والوصول إلى أعلى الدرجات من السعادة؟ وما هي الحجب والحواجز التي تحول بين الطالبين والمخاطبين بالقرآن

الكريم، وبين الانتفاع به؟ إلى غير ذلك من البحوث واللفتات، والمعاني والإيضاحات، التي يستطيع بها الدارسون للقرآن الكريم أن يُقبلوا على دراسته، فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وشهود العلم والتاريخ والتحليل العلمي، والدراسات المقارنة، والعدول واقفون على كَثَبٍ منهم، يشهدون بصدق ما جاء فيه، وبكونه منزلاً من الله، لم تمسّه يد التحريف والأهواء، ولم تؤثّر فيه الحوادث والتغيرات، فيزدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

بدأ المدرّس الشاب ـ وهو لم يتجاوز العقد الثاني من عمره إلا قليلاً ـ يدرس المصادر العلمية الإسلامية والأجنبية، ويستخرج منها معلومات جديدة مفيدة، وشهادات ذات قيمة علمية تاريخية، وجوانب منيرة مثيرة تفتح آفاقاً جديدة لفهم القرآن الكريم، والاقتناع بإعجازه وسماويته، فيكونُ منها بحوثاً يمليها على طلبة السنة السادسة في دار العلوم في لغة البلاد العلمية والتعليمية التي كانت ولا تزال أداةَ التعليم في مدارس المسلمين في شبه القارة الهندية، والمدارس الدينية بصفة خاصة وهي (أردو) يكتبها الطلبة بأقلامهم، وتصبح مادة دراسية يمتحنون فيها.

وقد نشر كثير من هذه البحوث في مجلة (الندوة) التي كانت لسان حال ندوة العلماء ومجلتها العلمية الرسمية، وبقي أكثرها بين دفتي دفاتر الطلبة الذين خرجوا من دار العلوم، وغادروها، ورجعوا إلى أوطانهم ومراكز اشتغالهم»[١].

---

(١) المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص٤ ـ ٦.

وأما (الصراع بين الإيمان والمادية) فهو تفسير علمي وتجريبي لسورة الكهف، استعرض فيه سورة الكهف استعراضاً شاملاً مع قصصها الأربع التي هي معالم هذه السورة، وعمدها وأقطابها الأربعة، التي تدور حولها حكمها وتعاليمها ومواعظها، وركز فيه على أن هذه القصص تعرض مظاهر الصراع بين الإيمان والمادية المختلفة، ثم قام بدراسة قضايا العصر الراهن في ضوء تعليمات هذه السورة، رأى الشيخُ أنَّ التاريخَ يعيدُ نفسَه في العالمين العربي والإسلامي، حيث تتعرَّضُ جماعات تقوم بالدعوة وتستقيم على العقيدة لاضطهادٍ فظيع، وتعذيبٍ وتنكيل، ونفي وتشريد، وتنطلق الموجات المادية والقوى الشهوانية تجرف كل القيم الروحية والخلقية، ويصبح المجتمع الإسلامي مجتمعاً ماديّاً محضاً لا يدين إلا بالمظاهر والمحسوسات، ولا يؤمن إلا باللذات العاجلة، والمنافع الحاضرة، ويصبحُ الناس طرازاً واحداً أو قطعة واحدة من عبَّاد الشهوات وعشّاق المناصب، وهواة الإقطاعات والولايات، وتصبح الحياة في البلاد الإسلامية أسلوباً واحداً، وصبغة واحدة من الانتهازية والنفعية.

إنَّ هذه القصص وإن تنوَّعت أساليبُها وسياقاتها اتحدت في الغرض والغاية، والروح التي تجمع بينها، وتربطها ربطاً معنويّاً، عميقاً وثيقاً، وهي أنَّ هذه السورة قصةُ الصراع بين النظريتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب، والإيمان بالله، وشرح لما يتبع كل نظرة من العقيدة والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة وتكفر بالله والغيب.

إنَّ الكتابَ نتيجة تأملات عميقة، وعصارة دراسة واعية، ظهرت في صفحات مجلة (المسلمون) الصادرة من جنيف تباعاً عام (١٣٧٧ ـ ١٣٧٨هـ)، وحظيت بالعناية والإعجاب في الأوساط العلمية والدينية، بل كانت باعثة لكثيرين من القرّاء على دراسة هذه السورة الكريمة، والتأمّل فيها من جديد، والاقتناع بأنَّ بينها وبين فتنة هذا العصر، والقدرة على مقاومتها صلةً قويةً عميقةً، وفيه تحليل دقيق وصورة صادقة ناطقة عن طبيعة هذه الحضارة الداجلة التي تولَّدت في القرن السابع عشر، واختمرت في القرن العشرين، دراسة عميقة عن سمات الحضارة الغربية وخصائصها، وتأثيرها وسحرها غير العادي على الحياة والتفكير الإنساني.

وأقدّم فيما يلي نماذج من تفاسيره، وآرائه عن القرآن الكريم وعلومه، ومبادئ التفسير مستفيداً من كتاباته المختلفة.

نموذج لتفسيره:

لم يؤلّف الشيخ الندوي كتاباً مفرداً في تفسير القرآن الكريم، ولكنَّه بثَّ تفسيراته في كتبه المختلفة، وقد قام بعض الندويين بجمع هذه التفسيرات في كتاب في اللغة الأردية أسماه (قرآني إفادات)، فيا ليتَ بعض أصحابه قام بتدوين مثل ذلك في اللغة العربية، وأنقلُ فيما يلي نموذجاً من تفسيره يدلُّ على مدى بحثه الدقيق في التفسير، يقول وهو يتحدَّث عن مكان قصة أصحاب الكهف ومدى لبثهم فيه: «أمَّا مكانة هذه القصة التاريخية فلا يشكّ كبار المؤرّخين والناقدين للأساطير الشائعة في صحتها وإمكان وقوعها لشهرتها

واستفاضتها في العالم المسيحي، وتناقل الأجيال والكتب لها، يقول (جيبون) الذي يجنح دائماً إلى تزييف مثل هذه الأخبار الغربية:

«إنَّ هذه القصة الغريبة لا يمكن أن تحمل على مجرَّد خرافة الإغريق ومغالاتهم الدينية، فقد اتصلت الروايات الموثوق بها، وتسلسلت إلى خمسين عاماً بعد وقوع هذه المعجزة (المفروضة) وقد خصّص قِسٌّ سوري ولد بعد الإمبراطور **ثيودوسيس** الأصغر بسنتين اسمه **جيمس ساروس** رواية من رواياته التي يبلغ عددها إلى مئتين وثلاثين لمدح شبان أفسوس (أصحاب الكهف)، وقبل أن ينقضي القرن السادس المسيحي نُقِلَت قصة أصحاب الكهف هذه من اللغة السريانية إلى اللغة اللاتينية بعناية غريغور.

وقد حفظت ذكرى أصحاب الكهف في اجتماعات العشاء الربَّاني في الشرق المسيحي بإجلال واحترام، ودونت أسماؤهم باحترام بالغ في الأعياد الرومية والتقويم الروسي، ولم تنحصر شهرتهم في العالم المسيحي فحسب».

أمَّا عدد الأعوام التي قضوها في المنام، فهو يتراوح بين ثلاثمئة سنة، كما نقله المفسّرون الإسلاميون عن المسيحيين، وثلاثمئة وسبع سنين (كما جاء في مقالة دائرة المعارف للأخلاق والديانات)، أمَّا التفاوت بين ثلاثمئة سنين وتسع سنوات كما جاء في القرآن، فقد حمله المفسّرون المتقدّمون على التفاوت بين التقويم الشمسي والقمري، قال ابن كثير: وهذا خبرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أن أرقدهم إلى أن بعثهم الله، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنَّه كان مقداره ثلاثمئة سنة تزيدُ

تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمئة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كلّ مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمئة: وازدادوا تسعاً.

ويشكل على ما جاء في مقال (دائرة المعارف) الذي نقلناه، وكتاب جيبون، على ما شاع على ألسنة الناس، ونقل في أكثر كتب التفسير والتاريخ من أن اختفاء أصحاب الكهف ولجوئهم إلى كهفهم كان في عهد (ديسيس) الإمبراطور الروماني الذي يسمّيه المؤرّخون العرب وعلماء المسلمين والعامة (**دقيانوس**)، وإنّه كان نتيجة اضطهاده للعقيدة المسيحية، وقسوته التي اشتهر بها في التاريخ، وأنَّ ظهورَ أمرهم والعثورَ عليهم كان في عهد (**ثيودوسيس الثاني**) الإمبراطور المسيحي المؤمن، يشكل على كلّ هذا أنَّ الفترة بين عهدهما لا تزيد على مئتي سنة على الأكثر، وعلى هذا الأساس تهكم (إدوارد جيبون) بالعدد الذي جاء في القرآن في تحديد مدّة نومهم، والتجأ بعضُ المفسّرين القدامى، وبعض المفسّرين العصريين ـ تفادياً من هذا الإشكال ـ إلى أنَّ ما جاء في القرآن ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ [الكهف: ٢٥] ليس من قول الله تعالى، ومما قرّره القرآن، بل هو حكايةُ قولِ أهل الكتاب، ومن ضمن مِرَائهم وتخرّصاتهم، ومتصل بالكلام السابق، وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾ [الكهف: ٢٢]، إلى آخر ما حكى عنهم من الجدال والاختلاف ونسب ذلك إلى قتادة، ومطرّف بن عبد الله، وروي فيه قراءة شاذّة: ﴿وقالوا وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، واستُدلَّ على هذه المقالة بتعقيبه تعالى على ذلك

بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الكهف: ٢٦]، قالوا: فلو كان ذلك تقريراً من الله لما عقّب عليه بهذا التفويض إلى علم الله، ونُقل هذا التفسيرُ عن ابن عباس أيضاً، ولكنْ قال العلاّمة الآلوسي: «ولعلَّ هذا لا يصحُّ عن الحبر رضي الله عنه، فقد صحَّ عنه القولُ بعدّةِ أصحاب الكهف سبعةٌ وثامنهم كلبهم، مع أنّه تعالى عقب القول بذلك بقوله سبحانه: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف: ٢٢]، ولا فرقَ بينه وبين قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ ﴾ [الكهف: ٢٦]، فلم دلّ هذا على الرد، ولم يدلّ ذلك؟.

وردّه بعضُ كبار العلماء، وقالوا: إنَّ الذوق العربي السليم يأباه، ولا يتبادر إليه ذهن القارئ إذا لم يكن مطّلعاً على هذا التأويل والتفصيل، قال الإمام الرازي: «وأما قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فهو كلامٌ قد تقدَّم، وقد تخلَّل بينه وبين هذه الآية ما يوجِبُ انقطاعَ أحدهما عن الآخر، وهو قوله: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الكهف: ٢٦]، لا يوجبُ أنَّ ما قبله حكاية، وذلك لأنّه تعالى أراد بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الكهف: ٢٦]، فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ بعض المفسّرين زعموا أنَّ هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ ﴾ [الكهف: ٢٦]، وليس كذلك، فإنَّ الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب، بل ذكره كلاماً منه تعالى.

إنَّ مصدر هذا الإشكال والتناقض المفروض بين العدد الذي يقرّره

القرآن، وبين العدد الذي يقرّره (جيبون)، والذي يبنى على استعراض التاريخ الروماني، هو ما اشتهر من أنّ حادثة اختفاء الفتية ولجوئهم إلى الكهف قد وقعت في عهد (ديسيس) الذي حكم بين سبتمبر سنة (٢٤٩م) ويونيو (٢٥١م)، ولعلَّ الذي جعله بطل هذه القصة ما اشتهر عنه من قسوة ومن سفك للدماء، واضطهاد عام للمسيحيين، وإجبار على تقديم الذبائح والقرابين الدينية أمام رجال الحكومة المعنيين، والأمر بالحصول على الشهادات منهم.

ولكنّ الذي يشكّك في تعيين هذا الإمبراطور ليكونَ مسؤولاً عن هذه الحادثة، وبطل القصة، هو أنَّ مدة حكمه كانت قصيرةً جداً، لا تبلغُ سنتين، وأنَّه قضى أكثر من هذه المدة في الحروب مع القوط، وقد مات قتيلاً على شاطئ نهر (الراين) في فرنسة.

ومن المحتمل أن يكون قد وجد فرصةً للقيام بجولة في المدن الشرقية اليونانية التابعة لمملكته العظيمة الواسعة، ولم يذكر التاريخ له رحلة إلى بلاد الإغريق، والمملكة الشرقية، وقد جاء في تاريخ المؤرّخين للعالم أنّ مدة (ديسيس) كانت قصيرةً جداً وهادئةً، ولم يكد يتولّى الحكمَ حتى اضطر إلى التوجه إلى (كال) لقمع ثورة قامت هناك، وانقضت مدة حكمه كلها في الحروب مع القوط.

وقد ذكر المؤرّخون أسماء أولئك القادة المسيحيين الذي عاقبهم الإمبراطور على عدم خضوعهم لمرسومه، ولم يذكروا فيه أصحاب الكهف، ولم يكن عدد الذين عوقبوا من المسيحيين كبيراً، فقد ذكر جيبون نفسُه أنَّ عدد

المعاقَبين والمعذَّبين لم يتجاوز عشرة رجال وسبع نساء.

ثم إنَّ حادثة اختفاء رهط من المسيحيين حادثة محلية لم تكن من الأهمية في وقت حدوثها بمكان يلفت إليه أنظار المؤرّخين، ويحرص على تدوين أخبارها المؤلّفون بخلاف يقظتهم من هذا النوم الطويل الخارق للعادة، وخروجهم إلى البلد، وانتشار صيتهم في الآفاق، وبعد أن تدوي الأوساط الدينية بخبرهم، فوقوع هذه الحادثة الثانية، حادثة انتباههم من النوم، وانتشار خبرهم في العالم المسيحي في عهد ثيودوسيس من الحوادث المستفيضة المدوية في الآفاق، الشاغلة للنوادي والمحافل التي يحرص المؤرّخون على تدوينها وتسجيلها، ويتنافس النقلة والرواة في نقلها وحكايتها، فنرجّح أنَّ حادثة الاضطهاد والاختفاء وقعت في عهد الإمبراطور (هادريان) الذي حكم طويلاً، ويذكر التاريخُ أنَّه قام بجولة في الولايات الشرقية دامت (١٢٩م) إلى (١٣٤م)، ولا يلزم أنَّ هذا الاضطهاد قد وقع على يده مباشرة أو بإيعاز منه، ولا يلزم كذلك أن يكون قد علم به وارتضاه، فقد اتسعت الإمبراطورية الرومية في ذلك العهد اتساعاً كبيراً، وانتشر الولاة والحكام في ولاياتها ومدنها، فمن المعقول جداً أن يقوم أي حاكم أو والٍ بعملية اضطهاد ديني أو مطاردة دينية وفقاً لاتجاهه الخاص وحماسه الديني أو تطبيقاً لسياسة الدولة العامة إزاء الديانة الحديثة، وتتخطّى في ذلك الحدود، وهذا يقع في كل حكومة وعهد، فإذا قرّرنا أنَّ اضطهادهم واختفاءهم كان في أثناء هذه الجولة وظهورهم في عهد ثيودوسيس، لم يكن هناك تفاوت كبير بين عدد المسيحيين، وعدد القرآن، ولم يكن هناك أساس لتهكم (جيبون) فإنَّ بداية هذا القصة ونهايتها لا

تعرفان بالتحديد الزمني الدقيق، وقد اضطربت أقوال المؤرّخين السوريين والمؤرّخين الإغريق في تعيين سنة اليقظة والخروج، فالمؤرّخون السوريون يزعمون أنها (٤٢٥م) أو (٤٣٧م)، وتقول الروايات الإغريقية: إنَّ الخروج كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكم ثيودوسيس الثاني، معنى ذلك أنها كانت في سنة (٤٤٦م)، ونؤمن بأنَّ القرآن الذي جاء مهيمناً على الكتب السابقة، أحقّ بالتعويل والاعتماد من هذه الروايات المضطربة، والأساطير والمصادر، التي كانت عرضة للتغيير، والزيادة والنقص، وقد ظهر الاضطهاد الديني للمسيحية في شكل سافر من عهد نيرون (٦٤م)، واستمرَّ إلى أن كانت المسيحية ديانة أباطرة الروم بشكل عام، واعتنقَ قسطنطين النصرانية في القرن الرابع المسيحي، ولا يزال تاريخ المسيحية الأولى يكتنفه الشيء الكثير من الغموض لغربتها وضعفها، ويعوزه التدوين التاريخي الذي يعتمد عليه».

خصائص القرآن الكريم:

بدأ الشيخ كتابه (المدخل إلى الدراسات القرآنية) بمحاضرة عنوانها (القرآن يتحدَّث عن نفسه)، ذكر فيه أنَّ أكبر خصائص القرآن الكريم ومزاياها التي هي من معجزاته وآياته التي تفوقُ طوقَ البشر هو أنَّه عِلْمٌ قطعي، غير مشكوك فيه إطلاقاً، وأنَّ هذا المصدر بريء من كلّ نقص واختلال، أو شك والتباس، أو ظن وتخمين، أو تدرّج وتطور، أو تعارض واختلاف، وكلّ ما فيه قطعي يقيني مرئي منظور ملتئم جازم حاسم، فليس في علم الله تدرج ولا تطور، وأنَّ العلم الإنساني ضيق محدود، وناقص قاصر، وكم من عُقَدٍ وغوامض وأسرار في هذا العالم المادي المحسوس لم يحلّها العقل بعد.

ثم إنَّ معلومات العقل البشري تتدرج وتتطور، وإنَّ الإنسان ـ رغم ما يدّعيه من علم ـ يجهل حقيقة نفسه وكنه ذاته، وإنَّ المعرفة التفصيلية لرضا الله تعالى وسخطه والعلم اليقيني بمحبوباته ومكروهاته لا تتأتّى بمحض القياس والتخمين، أو الظن والتقدير، أو باستقامة الفطرة وسلامة القلب، وإنَّ النظام البشري يمرُّ بآلاف من التجارب ومراحل البلاء والامتحان، وليس مصدر ويلات البشر وشروره إلاَّ علم الإنسان الناقص، واعتماده عليه، وثقته الزائدة به بغياً وعدواناً.

وإنَّ القرآنَ الحكيمَ واضحٌ كلَّ الوضوح، محكمٌ كلَّ الإحكام، مبين كل البيان، في أصول الدين وكلّياته، وأسسه ومبادئه، وفي جميع الأمور التي تمسّ إليها حاجة الإنسان في فلاح دنياه وسعادته فيها، وفي نجاته وسعادته في الآخرة، لا يحتمِلُ القرآنُ في ذلك إبهاماً ولا غموضاً، ولم يدعْ فيه تفصيلاً ولا تفسيراً إلا أودعه فيه.

وإنَّ القرآن فارق بين الحق والباطل، والخير والشر، والنور والظلام، وإنَّ القرآن مصدر للكتب الإلـٰهية السابقة ومهيمن عليها، وإنَّ القرآن يهدي إلى سبل السلام، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ويؤكِّدُ في ضوء ما سلف أنَّ القرآن يتجلّى كتاباً حيّاً غضّاً دائم النضارة والبقاء، لا تبلى جدّتُه، ولا يؤثر عليه الماضي والحال، والقديم والجديد، وإنه فوق التطورات وفوق الأحداث، وإنّه يخاطِبُ كلَّ فترة من فترات التاريخ، وكلَّ مدنية من مدنيات الأرض، وإنَّ دعوته حية طرية، ورسالته غضة

نضرة، وإنّه صورة البشر الناطقة، ومرآة الفطرة الإنسانية الوضيئة الصافية، ولقد قال عنه منزله بحق: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، و﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، و﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]»[(١)].

إعجاز القرآن الكريم:

أكد الشيخ في (المدخل من الدراسات القرآنية) أنَّ القرآن ليس معجزاً في ألفاظه وتراكيبه، وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية فحسب، بل إنّه معجزٌ في ألفاظه ومفرداته ومركباته، معجزٌ في معانيه ومحتوياته، معجزٌ في علومه ومعارفه، معجزٌ في غيبياته وحقائقه الأبدية، معجزٌ في تعليماته الدينية والخلقية والاجتماعية والمدنية، معجزٌ في تأثيره وإثارته، ومعجزٌ في نبوءاته وأخباره، فإذا ظهر العجز من الإتيان بمثله في ألفاظه وتراكيبه فحسب، فكيف يا ترى بمماثلته في جميع وجوه إعجازه.

وقرّر في آخر هذا الفصل أنَّ العلم الجديد والكشوف الجديدة تصدّقُ القرآن، يقول:

«إنَّ البحث في القرآن الكريم عن حقائق العلم الحديث وكشوفه الحديثة

---

(١) المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص١٩ ـ ٢٠.

والتطبيق بين بعض إشاراته الإجمالية وبين الكشوف الجديدة والتحقيقات الجاهزة ـ الذي قام به على نطاق واسع في هذا القرن العلاَّمة طنطاوي جوهري المصري في تفسيره (جواهر القرآن)، ويسعى له باحثون في تحقيقاتهم العلمية ـ جهد شائك، ودقيق خطير، لأنه من الممكن جدّاً ـ وقد أيدت التجارب ذلك مرات وكرّات في تاريخ العلم والبحث ـ أن تتغير نتائجُ هذه البحوث والمعارف ـ التي يراها الناس اليوم من أجلى البديهيات وأظهر الحقائق ـ رأساً على عقب، أو تصبح موضع شك وتردّد، وتفقد بداهتها وقطعيتها.

ثم إنَّ هذا الجهد العلمي ـ الذي لا ينكِرُ إخلاص القائمين عليه، وجدّيته وإفادته في بعض الأحيان ـ يبعد بالقرآن الكريم عن موضوعه الرئيسي وغايته الأساسية، وتشم من رائحة الخضوع للعلم الجديد، والانبهار بالكشوف العلمية الحديثة.

وقد أخطأ بعضُ المفسِّرين المتقدّمين هذا الخطأ نفسَه فيما يتعلَّق بالفلسفة القديمة، والروايات التاريخية المشهورة، ولكن لما أن نصيب ذلك من تفاسير القرآن الكريم وثروتها الضخمة كان ضئيلاً قليلاً، ولم يجد قبولاً ولا رواجاً في أوساط المسلمين العلمية، لذلك لم يتعرَّض القرآن لمثل تلك المحنة التي تعرَّضت لها كتب العهد القديم بالزيادات والشروح والإلحاقات الفلكية والجغرافية والطبيعية والتي أسميت في العالم المسيحي في القرون الوسطى بالجغرافية المسيحية المقدَّسة.

ولكنَّ الدراس المنصف من ذوي الفطرة السليمة ـ الذي لا يجمدُ جمودَ

الجاهلين، لا يخضعُ لكشوف العلم خضوع المستسلمين المنبهرين - يدهشُ عندما يطّلعُ على هذه الحقيقة العجيبة حقّاً، وهي أنَّ هذا الكتاب رغم كونه قد نزل على رسول أمي قبل أربعة عشر قرناً من الزمن في البيئة العربية المحدودة المنعزلة عن دنيا العلم والمدنية احتوى على عدد من الحقائق التي تتعلّق بالتاريخ والجغرافية والطبيعة والفلك والأجرام السماوية، وعلم الحياة والطب، وخلق الإنسان وتكوينه وتركيب أعضائه وغيرها من كثير من المعارف والعلوم التي انكشفت عنها في القرون الأخيرة معلومات وحقائق، وتغيّرت أوضاع العلم البشري تغيّراً جذريّاً، وليس فيه ما أثبت العلم الحديث وكشوفه خلافه ومنافاته للواقع، بل قد وردت فيه حقائق ولفتات لم يكشف عنها العلم إلا قريباً ولم يبلغ إليها إلا بالأمس»[1].

مقارنة بين القرآن الكريم وغيره من الصحف السماوية:

وقام الشيخ بدراسة مقارنة بين القرآن الحكيم والصحف السماوية السابقة، أكّد فيها أنَّ دراسة قصص الأنبياء والمرسلين الواردة في القرآن والصحف السابقة تفيد أنَّ أي قصة منها في أحدهما ليست مقتبسة من الآخر، لا شكّ أنَّ بعض أجزاء الحوادث أو جزئيات القصص تشترك وتتفق في كلا المصدرين مما يدلّ على أنّ مصدرهما الأصيل الحقيقي مصدر واحد هو الوحي، ولكن يتضح من الدراسة البصيرة فيها أنَّه إن حفظ شيء منها فقد ضيعت أشياء وفقدت حلقات، ولم تحفظ من عبث الأيدي، وتدخّل البشر،

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣ - ٤٥.

فتجد الفرقَ واضحاً جليّاً في أساليب هذه الصحف ومراتب أهمية المحتويات وخطورتها وأسسها فيها، فالأسلوبان والمنهجان مفترقان كل الافتراق، ترى في القرآن الحكيم عظمةَ الكتاب الإلـٰهي وجلاله وتاثيره وأبديته، ويلمع منه نورُ الوحي وسناه، وتفيدُ دراسته لأول وهلة أنَّ موضوعه ليس موضوعاً تاريخيّاً ولا سرداً للأحداث والوقائع، إنما موضوعه الهدى والعبرة والعظة.

ثم يقارن المؤلف في تفصيلٍ بين قصة سيدنا يوسف عليه السلام في القرآن والتوراة، كما يعرض المؤلف سير الأنبياء كما تصوِّرُها التوراة والقرآن، ويؤكّد أنَّ القرآن الكريم يعرض سير الأنبياء طاهرة بريئة نزيهة تليق بمنصبهم ومكانتهم، ويدحض كلَّ الاتهامات والادّعاءات المزوّرة التي نالت القبول من أعدائهم أو أتباعهم السفهاء الجاهلين.

ثم يلقي الضوء على تنبيه القرآن الكريم على تحريفات الصحف السابقة والفروق الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة والفرق الدينية، يقول:

«إنَّ من الإعجاز القرآني المدهش أنَّه تناول بيان الخلافات العقائدية والتصورية بين شتى الفرق والطوائف من اليهود والمسيحيين في صحة دقيقة وإتقان وضبط عجيبين، وراعى الفروق والأشياء الدقيقة في عرض آرائهم وخلافاتهم الدينية، وإن ما ذكر القرآن من فروق بين عقائدهم ووجوه خلافاتهم وافتراقاتهم تصدقه ـ حرفاً بحرف ـ الدراسة الواسعة العميقة لثروتهم الدينية.

وكلّما يتّسع العلم لدياناتهم، وتتيسّر وسائلُ وإمكانات دراسة كتبهم ـ التي تنتشر وتصدر بكثرة ـ دراسة عميقة يظهر للناس صدق بيانات القرآن ـ وهو

الكتاب المحكم ـ ودقتها، وتنكشف حقائق ومعلومات خطيرة، ويتجلّى لكلّ ذي عينين أنَّ القرآن الكريم لم يستخدم كلمةً واحدةً في حقّهم إلاّ وهي من الضرورةِ بمكان، ولولاها لخفيت علينا معان، وأن تنويعه للتعبير والبيان عندما يذكرهم ليس إلا لغرض مقصود كبير.

كذلك ما جاء في القرآن الكريم من تأكيد على شيء أو تفنيد لشيء حول الأشخاص أو الحوادث والوقائع فليس ذلك إلا لمواقف اليهود والمسيحيين منهم: إيجابية مغالية أو سلبية منافية، ودحضاً لاتّهاماتهم وحطّاً من رواياتهم، وردّ على زيغهم وانحرافهم»[1].

أخبار القرآن الكريم الغيبية:

وقام الشيخ بدراسة مبسوطة لأخبار القرآن الكريم الغيبية، وفصَّلَ الحديثَ عن نبوءة **غلبة الروم**، مع ذكر نماذج من نبوءات أخرى في القرآن الحكيم كالنبوءة باستخلاف المؤمنين الموحّدين العابدين، والنبوءة بانتصار المهاجرين، وسلطتهم، ونتائج هذه السلطة الدينية والخلقية، والنبوءة بظهور مسلمين جدد صالحين أصحاب كفاءات إسلامية وخدماتهم، والنبوءة بقتال المرتدين العرب ومعارك الإسلام مع الروم والفرس، والنبوءة بظهور الدين وغلبته، والنبوءة بحفظ القرآن الكريم وجمعه ونشره وتفسيره وبيانه، والنبوءة بفتح مكة المكرّمة، وإنجازات صلح الحديبية المثمرة، والنبوءة بفتوح

---

(١) المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص٧٦ ـ ٧٧، وبيَّن الشيخ هذه المعاني بالأمثلة الكافية.

وانتصارات ومغانم كثيرة في خيبر وغيرها، والنبوءة بدخول النبي الكريم ﷺ وأصحابِه المسجدَ الحرام بعد الحيلولة بينه وبينهم، والنبوءة بدنوّ أجل النبي الكريم ﷺ، وانتشار الإسلام، ودخول الناس فيه أفواجاً، والنبوءة بإعطاء الله تعالى نبيَّه ﷺ الكوثر، يقول:

«إنَّ النبوءات التي تضمَّنها القرآن الكريم تشكّل إحدى نواحي الإعجاز القرآني البارزة، والمعجزة هي تلك الخارقة للعادة، التي يظهرها الله عزَّ وجلّ لقدرته تصديقاً لنبيّه وتأييداً، ويعجز العقل البشري عن تعليلها الظاهر، وتأويلها المعتاد.

إنَّ الأوضاع التي أعلنَ فيها القرآنُ هذه النبوءات والأوضاع التي تحقّقت فيها، كل ذلك معجزةٌ من دون شك، وإنَّ هذه النبوءات تشتمل على ناحيتين من الإعجاز:

أولاها: العلم بتلك الحوادث والوقائع الخطيرة، التي لا تُدرَكُ بالقياس، ولا بالحنكة والتجربة والظروف التي لا تساعد على النبوءة بمثل ذلك إطلاقاً.

والثانية: هي تحقيقها ووقوعها حسب إعلان النبوءة، وحسب ذلك العلم تحققاً يشهده الناس»[1].

أقسام القرآن الكريم:

إنَّ قضية أقسام القرآن الكريم من القضايا القرآنية الدقيقة، أفرد لها

---

(١) المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص٨٥.

العلاَّمة ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) كتابه (التبيان في أقسام القرآن)، ثم جاء العلاّمة حميد الدين الفراهي (ت١٣٤٩هـ) في العهد الأخير، فألَّف فيها كتابه الفذّ الفريد (إمعان في أقسام القرآن الكريم)، بيَّن فيه أنَّ القَسَم إذا كان مجرَّداً عن المقسم به ـ لأنه ليس من لوازمه ـ فإنَّما يرادُ به تأكيد قولٍ أو إظهارِ عزمٍ وصريمةٍ، وإذا أُقسم بشيء فإنَّ المقصودَ هو الإشهاد، حتى في الأيمان الدينية، وإنما اختلط به معنى التعظيم من جهة المقسم به لا من جهة أصل معنى القسم، وربّما يكونُ القسمُ لمحض الاستدلال، وأمَّا أقسامُ القرآن فليست إلا للاستدلال والاستشهاد بالآيات الدالّة، وطُبع الكتاب بتقديم من الشيخ الندوي[1]، لخَّص فيه قيمةَ الموضوع وأهميةَ بحث العلاّمة الفراهي، وإنَّ إشادةَ الشيخ الندوي بإنجاز الفراهي تشهدُ بموقفه في الموضوع، يقول:

«فقد كان موضوعُ أقسام القرآن موضوعاً يسترعي اهتمام المتدبّرين للقرآنِ والمعنيين بتفسيره، والكشف عن معانيه وحقائقه ولطائفه ودقائقه، ويدعوهم إلى البحث في هذا الموضوع في بسط وتفصيل، لأن ما يتبادر إلى الذهن من الإقسام بشيء هو استشهاد المقسم به على ما يدّعيه المتكلّم ويريد أن يثبته ويؤكّده، ما شاع واستقرّ في الأذهان أنّ القسم لتعظيم المقسم به، والله هو أجلّ وأعلى وأسمى وأغنى عن أن يُقسَم بشيء هو من خلقه، فيؤكّد قوله تعالى، وينطق بقوله صدقاً وعدلاً، وصواباً وحقّاً، فلم يكن من الغريب والمستبعد أن تتكوّن في هذا الموضوع مكتبة ذات قيمة وقامة، واتساع

---

(١) في دار القلم بدمشق.

وضخامة، كما كان الشأن في موضوعات قرآنية أخرى.

ولكنَّ الكاتب لم يجد ـ في حدود علمه واطّلاعه ـ كتاباً مفرداً واسعاً مفصَّلاً في هذا الموضوع الخطير ـ والمكتبة الإسلامية الدينية والعلمية أضخم وأوسع من أن يدّعي مدّعٍ أنّه أحاط بها واستقصاها ـ إلا كتاب (التبيان في أقسام القرآن) تأليف العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، وهو ـ في حدود علم كاتب كلمة التقديم ـ أولُ كتاب مفصَّل علمي مؤسس على الدراسة العميقة والتدبّر في القرآن، واستعراض لأنواع الأقسام والمقسم بها ومواردها في القرآن، يدلّ على عمق دراسة المؤلف، وتذوقه للقرآن، وتحرّيه للاقتصاد والاتزان، ومن سمات الكتاب الشمول والاستيعاب والإحاطة بجميع أقسام القرآن، والاستشهاد بأقوال السلف، بما فيهم شيخه شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية، يتوسّع فيه المؤلف أحياناً فيفسّر السورة التي وردت فيها هذه الأقسام، ويشير إلى الرباط الذي يربط آياتها بعضها ببعض، وتجيء أثناء ذلك لطائف وغوامض تفسيرية وتاريخية، ويستشهدُ أحياناً بأبيات مناسبة بما جاء في بيان المؤلّف، ويتجلّى في الكتاب اختصاصُ المؤلّف في فنّ الحديث، والاطّلاع على مصادره، وما تضمنته من روايات وأسانيد، وفنّ الرجال ـ وذلك مما يُرتجى من مؤلف كالحافظ ابن قيم الجوزية ـ واطّلاع المؤلف على علومٍ تفيدُ في فهم الآيات وإثبات الإعجاز القرآني كالطب وعلم الأجسام وعلم النفس.

ولكنَّ الحاجة كانت ماسة ملحّة إلى تناول هذا الموضوع من جديد في ضوء الدراسات القرآنية التي لا نهاية لها ولا تحديد (فالقرآن ـ كما قال بعض

المتبصّرين والمتدبّرين في القرآن ـ: «لا تبلى جدّته ولا تنقضي عجائبه»، وكما قيل: «كم ترك الأول للآخر»)، وكذلك في ضوء الدراسات العميقة الشاملة لآداب اللغة العربية، ومناهج كلام العرب الأولين، وفي ضوء الدراسات المقارنة للصحف السماوية والديانات القديمة، وقد كان المؤلف ـ كما يقول أستاذنا العلاّمة السيد سليمان الندوي ـ: «مجمع البحرين وبينهما برزخ لا يبغيان، كان عالماً بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية. . ومات وهو مكبٌّ على أخذ ما فات من العلماء، ولف ما نشروه، ولمّ ما شتّتوه، وتحقيق ما لم يحقّقوه».

فجاءت هذه الرسالة ـ على قصر قامتها وكبر قيمتها ـ تنوب عن المكتبة القرآنية في موضوع أقسام القرآن بصفة خاصة، مع احتوائها على لطائف مفتّقة للقريحة، ومنيرة ومثيرة لإمعان الدراسة في القرآن والتدبّر فيه من جديد.

ذكر المؤلّف أولاً الشبهات الثلاث على أقسام القرآن، وهي شبهات رئيسة تدور في خواطر أوساط الناس والسطحيين من القرّاء، وقد ذكر أولاً ما أجاب به العلاّمة الرازي، وقد انتقده، وذكر عدم ارتياحه إلى وجاهته، وعدم إصابته الهدف، يتجلّى في ذلك ذكاؤه الحاد، وقوة تحليله، وشجاعته العلمية والنقدية، واطّلاعه الواسع على أساليب كلام العرب، وأثنى على طريق العلامة ابن القيم ثناءً إجمالياً، وقد ناقشه مناقشة هادئة أدبية مما يدلُّ على إنصافه واتّزانه، وشجاعته العلمية النقدية، وقد تناول هذا الموضوع (الاعتراف والنقد) بشيء من التوسّع.

وقد عقد باباً مستقلاً بعنوان (طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الإجمال)، وقد أيّد فيه قول بعض العلماء: إنَّ هذه الأقسام دلالات، وأعقبه بقوله: «ولكن الغمة التي لم تنجلِ عنهم، والمضيق الذي لم يخرجوا منه هو ظنّهم بكون القسم مشتملاً على تعظيم المقسَم به لا محالة، وذلك هو الظنُّ الباطل، الذي صار حجاباً على فهم أقسام القرآن، ومنشأً للشبهات»، وقد ذكر بعد ذلك بالإجمال: «أنَّ أقسام القرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة، وأنها نوع من القسم مباين للأقسام التعظيمية».

وقد بحث عن تاريخ القَسم، وحاجة الناس إليه قديماً وحديثاً، وطرقه المتنوّعة، وبيّن معاني كلمات القسم ومفهومه الأصلي ومفاهيمه المتشعّبة الثلاثة من الإكرام والتقديس والاستدلال المجرَّد، وعقد لذلك باباً مستقلاً بعنوان (تاريخ القسم وحاجة الناس إليه، وطرقه المختلفة، والدلالة على حقيقة معناه في أول الأمر)، وهو باب يدل على اطّلاعه الواسع على أساليب كلام العرب، وأساليب غيرهم من الشعوب والأمم، والآداب واللغات، والثقافات والديانات، ونوّه ببعض الأخطاء في بعض الترجمات للصحف القديمة، مما يدلُّ على دراسته المقارنة العميقة للصحف السماوية والديانات المختلفة، واطّلاعه الواسع على كلام العرب الأولين، والاستشهاد بأبياتهم، واستنتج من ذلك أنَّ **القَسَم ليس إلا للتأكيد**، ولا يحتاج إلى تقدير المقسم به في كل موضع، **أما إذا ضُم إليه المقسم به فإنّما هو للإشهاد**، ولا يرادُ منه التعظيم إلاَّ إذا كان بالله تعالى وبشعائره.

وذكر أنواع القَسم، منها: القَسَم على وجه **الإكرام للمقسم به** والمتكلّم والمخاطب، والقسم على وجه **التقديس للمقسم به**، استشهد في هذا الباب بأبيات كثيرة للشعراء الجاهليين، مما يدلّ على اطّلاعه الواسع على الشعر الجاهلي، ومنها: **القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به**، وهو الأقرب إلى نوع الأقسام القرآنية، وأبعد عن الشبهات والتساؤلات، وقد استشهد في ذلك بأبيات العرب الأولين، وعرض في ذلك نماذج من كلام الأولين من بلغاء اليونان.

ثم شرح دلالات **القسم الاستدلالي**، وذكر الأدلة من نفس القرآن على ما فيه من الأقسام الاستدلالية، وهي الغاية من تأليف هذا الكتاب، والمحور الذي يدور حوله، وتوسع المؤلف في ذكر الأمثلة من القرآن، وتطبيقها على الغايات، ثم ذكر بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تأويل أقسام القرآن، وذكر بعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها»[١].

* * *

(١) تقديم (إمعان في أقسام القرآن)، ص٩ ـ ١٢.

الفصل الثاني

الحديث النبوي الشريف

ورث الشيخ اهتمامه بالحديث النبوي الشريف عن والده، وأخيه، وقد مرَّ في ترجمة أبيه نبوغُه في الحديث النبوي الشريف، وظفره بالأسانيد العالية، وأمَّا أخوه الدكتور عبد العلي الحسني فقد «كان كبير الاعتناء، عظيم التقدير للحديث النبوي الشريف، يرى أنَّه يملأ فراغاً في الحياة الدينية لا يملأه غيره، وأنَّ مَنْ عاش بعيداً عنه عاشَ في إفراط وتفريط، وأخطأ فهم الدين»[1].

وأخذ الحديثَ من العلاَّمة المحدّث حيدر حسن خان الطونكي الراوي عن العلاَّمة السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي، والعلاَّمة حسين بن محسن الأنصاري، حضر عليه (الصحيحين)، و(سنن أبي داود)، و(جامع) أبي عيسى الترمذي، وكان له أُنسٌ به كبير، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث، والشيخ المدني يروي عن العلاَّمة شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلاَّمة خليل أحمد السهارنفوري صاحب (بذل المجهود)، والعلاَّمة عبد العلي الميرتي، والمسند الكبير أحمد البرزنجي مفتي الشافعية بالمدينة المنورة، والشيخ عبد الجليل برادة المدني،

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، شخصيات وكتب، ص٨٩.

والشيخ محمد بن سليمان الشهير بحسب الله الضرير الشافعي، والشيخ عثمان عبد السلام الداغستاني مفتي الحنفية بالمدينة المنورة[1].

واستجاز العلاَّمة المحدّث عبد الرحمن المباركفوري صاحب (تحفة الأحوذي) الراوي عن العلاّمة السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي، والعلاّمة حسين بن محسن الأنصاري، والقاضي محمد بن عبد العزيز المجهلي شهري، وهذه مزية كبيرة، فقد تأخرت وفاةُ شيخنا إلى أن لم يبقَ أحدٌ يروي معه عن العلامة المباركفوري.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ إلى جانب ظفره بهذه الأسانيد العالية كثيرَ العنايةِ بالحديث الشريف تعليماً وتعلّماً، وفقهاً، وحرصاً على متابعة السنن والآثار، وتشتمل كتاباته المختلفة على الفوائد الحديثية، وبيان قيمة السنّة، وأهميتها في التاريخ الإسلامي، وكان على شعور قوي بالدور الذي تلعبه السنة في باب التجديد، وصيانة المجتمعات الإسلامية من البدع والخرافات والمحدثات من الأمور، ومن بين كتاباته التي تتصل بموضوع الحديث والسنة اتصالاً مباشراً: (المدخل إلى دراسة الحديث النبوي)، و(دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته)[2] محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في

---

(١) إنَّ أسانيد شيخ الإسلام حسين أحمد المدني رحمه الله تعالى عالية جدّاً، لا سيما روايته عن أحمد البرزنجي، ومن ثَمَّ حصلت لتلاميذ شيخ الإسلام مزية كبرى في باب الرواية.

(٢) حينما أرسل الشيخ هذا الكتاب إلى المحدّث الجليل عبد الفتاح أبو غدة رحمه=

مقرّ رابطة العالم الإسلامي في موسمها الثقافي الذي نظَّمته عام (١٤١٠هـ) بين جمع حاشد من العلماء والوجهاء والمثقّفين من الحجاج والمقيمين، و(الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري) محاضرة ألقاها في مؤتمر الإمام البخاري الذي عقده مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٣ و٢٤ أكتوبر عام (١٩٩٣م) في مدينة سمرقند، وتقديماته لكتب الحديث، وتعليقاته عليها: كتقديمه لكتاب (الأبواب والتراجم للبخاري) للعلاَّمة محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، وتقديمه لـ(تكملة فتح الملهم) للعلاَّمة محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى، وتقديمه لكتاب (الكوكب الدري على جامع الترمذي) للمحدّث رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله، وتقديمه لكتاب (بذل المجهود على سنن أبي داود) للعلاَّمة المحدّث خليل أحمد السهارنفوري رحمه الله، وتقديمه لكتاب (أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك) للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، وتقدمته لكتاب (لامع الدراري على

= الله كتب إليه: «نعمتُ أيَّ نعمةٍ بقراءته، فلقد ذكرنا بما قاله المحدّث الجليل عبد الله بن عمر في شيخه الإمام التابعي النبيل شيخ المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري» كان يحيى بن سعيد يحدّثنا فيسحُّ علينا مثلَ اللؤلؤ «فوالله لقد كان حديثُكُم عليَّ هكذا، فالحمدُ لله الذي آتاكم وأولاكم، وأقامكم فينا وقوَّاكم، وأرانا فيكم صفحات مشرقة من تاريخنا العلمي المجيد، وعلمائنا السالفين الأمجاد، فكنتم وما زلتم بحمد الله النموذجَ الرفيعَ للتذكير بأولئك الأسلاف، الذين آتاهم الله حبّه في قلوبهم وحبّ الناس لهم بما أحبوا الله ورسوله ﷺ، ولا غرابة فيكم أن تكونوا كذلك، فالدوحة الشريفة ما تزال ناضرة الأغصان، معطارة في كل زمان ومكان، والحمد لله». (رسائل الأعلام، ص٧٥).

جامع البخاري) له أيضاً، وتقديمه لكتاب (تهذيب الأخلاق) للعلاَّمة المؤرّخ عبد الحي بن فخر الدين الحسني رحمه الله، وتقديمه لكتاب (روائع الأعلاق) للأستاذ أبي سحبان الندوي، وتقديمه لكتاب (نفحات الهند واليمن) بأسانيد الشيخ أبي الحسن، تخريج كاتب هذه السطور، وتقديمه لكتاب (بستان المحدّثين) للشاه عبد العزيز المحدّث الدهلوي بتحقيق كاتب هذه السطور.

وأقدِّمُ فوائد حديثية له انتقيتها من كتاباته المختلفة تلقي الضوء على مدى تمكّنه من الحديث النبوي الشريف:

عناية الأمة بالسنن:

تحدَّثَ الشيخ في غير واحد من كتاباته عن السرّ الإلـٰهي وحكمة الله في وجود علم الحديث النبوي وبقائه وعناية الأمة به، وأبرز جهود علماء الأمة في دراسة الحديث النبوي وتدوينه، والتنافس في ضبطه وإتقانه، بما لا يعرف له نظير في تاريخ أمة وحضارة، ولا في تاريخ علم وثقافة، وأكّد أنّ الحديثَ تعويضٌ للأمة عن نحت التماثيل وصنع الصور وتناقل الأساطير، يقول: «لقد اعتادت الأمم القديمة والديانات أن تصوّر أنبياءها، وأن تنحت لهم تماثيل وأصناماً، تمثّلهم للأجيال المعاصرة، وتجدّد ذكراهم، ونشأت من ذلك الوثنية، وعبادة التماثيل التي يعرفها الجميع، ونشأت من ذلك آفات، لا تزال الأمم والديانات تعانيها، وقد لطف الله بهذه الأمة وبالإنسانية إذ حرَّمَ عليها تصويرَ الأنبياء والعظماء، ونحت تماثيلهم، وأبدلها بهذا الحديث النبوي الذي هو مجموع صور ناطقة يتعرّف بها الإنسان بنبيّه، ويسعد بصحبته، وكأنَّه حضر

مجلسه، واستمع لحديثه، وقضى معه مدة من الزمان، يسمع كلامه، ويشاهد فعله، ويدرس سيرته»[1].

يقول وهو يتحدَّث عن سرّ التريّث في تدوين الحديث على مستوى علمي وتأليفي كبير في عصر الصحابة رضوان الله عليهم: «لقد كان الصحابة رضي الله عنهم ـ وفي مقدّمتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان حكيماً، بعيدَ النظرِ فيما يتصل بمصالح الإسلام والمسلمين ومستقبل هذا الدين ـ في التريث في العناية بتدوين السنّة كتابةً ونشراً، وإن كان عصر النبي ﷺ لم يخلُ من كتابة بعض الحديث[2]، وقد أحسن العلاَّمة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله إذ قال في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي): لقد أضيف إلى هذا[3] رغبة عمر رضي الله عنه أن لا يكثروا من التحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، كي لا ينشغلَ الناسُ عن القرآن[4]، والقرآن

---

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٢٠.

(٢) راجع بحث كتابة السنّة في كتاب (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) للفاضل الجليل الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، ص٥٨ ـ ٦١؛ وباب موقف الصحابة من الحديث بعد وفاة الرسول ﷺ، ص٦٢ ـ ٦٦.

(٣) التحذير من الإكثار من رواية الحديث.

(٤) كما وقع في بعض الديانات والأمم السابقة من الخلط بين الوحي السماوي (أي المتلو) وكلام الأنبياء وعلماء هذه الديانات وشارحي الصحف، من الالتباس والتلبيس، يشهد بذلك موقف اليهود مع التوراة، والتلمود... فقد يفوق الإجلال للأخير والاعتماد عليه الإجلال للتوراة والاعتماد عليها، وقد وقع في ذلك اليهود بصورة عملية واضحة، فقد عكفوا على صحف التلمود=

غضٌّ طريٌّ، فما أحوج المسلمين إلى حفظه وتناقله، والتثبت فيه، والوقوف إلى دراسته، روى الشعبي عن قرظة بن كعب، قال: خرجنا نريدُ العراق، فمشى معنا عمر إلى صرار، فتوضأ وغسل اثنتين، ثم قال: أتدرون لم مشيتُ معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيتَ معنا، فقال: إنَّكم تأتون أهلَ قريةٍ لهم دويٌّ بالقرآنِ كدويِّ النحل، فلا تصدوهم بالحديثِ فتشغلوهم، جوّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وامضوا وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة، قالوا: حَدِّثْنا، قال: نهانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه»[1].

وعن عروة بن الزبير أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنتُ أريد أن أكتب السنن، وإنّي ذكرتُ قوماً كانوا قبلكم، كتبوا كتباً فأكبوا عليها، وتركوا كتابَ الله، وإنّي ـ واللهِ ـ لا ألبسُ كتابَ الله بشيء أبداً»[2].

= تلاوة واحتجاجاً، وشغفاً، وهو اسم عام للمشنا والجمارة يحتوي على الشريعة الشفهية وتقليدات أخرى لليهود، ونسخ التلمود ـ وأكثرها في (١٢) مجلداً ـ تحتوي على التفاسير والحواشي، والكلام المأثور على أحبار اليهود وقادتهم.

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (إحالة على جامع بيان العلم: ٢/ ١٢٠).

(٢) جامع بيان العلم: ١/ ٧٦. (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٢٣ ـ ٢٥.

وقدَّرَ اللهُ أن يقومَ بما يطلبه الزمان، وبما يتوقّف عليه مستقبل هذه الأمة التشريعي، والعملي، والعلمي إلى حدٍّ كبير، سميه وسبطه[1] وخليفة المسلمين في عصره (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله، فكان أول ما عُني به ـ بعد ما تقلّد الخلافةَ ـ هو علم الحديث، يقول: «فإنَّ علمَ الحديث من العلوم التي ألهم الله هذه الأمةَ (في أول عهدها) العنايةَ به، والجهاد في سبيل حفظه وتدوينه، ونقله ونشره، والتهالك على تلقّيه وجمعه، والتنافس في ضبطه وإتقانه، والاهتمام بكلّ ما يتصل به من علوم وفنون، إلهاماً قوياً واضحاً، تجلّت فيه حكمةُ الله وعنايتُه بصيانةِ هذا الدين وإكماله»[2].

ويقول: «ولنظرة عابرة في (شمائل) الإمام أبي عيسى الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ) ـ على سبيل المثال ـ تكفي للإيمان بأنَّ هذا الاهتمام البليغ الخارق للعادة بتسجيل دقائق الخلق والخلق، والعادات والعبادات، والأقوال والأفعال، وكل ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالاً يتصوره الذهن الإنساني، وفي بسط وتفصيل، لا نظير لهما في سير الأنبياء، ولا في تاريخ العظماء[3]، لم يكن مجرّد مصادفة، ولا وليد الاتجاه الشخصي، والعمل

---

(١) كانت أم عمر بن عبد العزيز، واسمها أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص١٨.

(٣) وقد عني علماء الأمة الإسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية، والتراتيب الإدارية، والحرف والصنائع والمتاجر والمناصب وأنواع العلوم=

الفردي، وكذلك من تصفَّح (الأدب المفرد) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) الذي خصَّه مؤلّفه العظيم بما ورد في الآداب الإسلامية، ومكارم الأخلاق، وحسن العشرة والاجتماع، وحقوق الصحبة، وتهذيب النفس، وأدب الحياة، معتمداً في كلِّ ذلك على ما صحَّ عن الرسول ﷺ، ونُقِلَ عنه، علمَ عِلْمَ اليقين أنه لم تكن فلتةً من فلتات الدهر، إنَّما هو تقدير العزيز العليم، ليتحقق العمل في كلّ عصر وجيل، بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولئلا يكون لمتعلل بانقراض الآثار، وانقطاع الأخبار عذر في ترك الائتساء والاقتداء كما هو الشأن في قضية الأنبياء الذين لم يبقَ لبعضهم إلاّ الاسم، أو أخبار مبتورة لا تكفي للاقتداء والاقتفاء»[1].

جمع الحديث وتدوينه:

يقول الشيخ وهو يتحدّثُ عن حركة جمع الحديث وتدوينه: «ولم تكن

= والمشخصات التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية النبوية عناية لا مثيل لها في أم السابقين، وحسب القارئ أن يقرأ كتاب (تخريج الدلالات السمعية) لأبي الحسن علي الخزاعي التلمساني (٧١٠ ـ ٧٨٩هـ) وتهذيبه وتكميله للعلاَّمة الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أسماه (التراتيب الإدارية) وهو موسوعة في كلّ ما تهمّ معرفته عن عصر الرسول ﷺ، والحياة فيه.

(١) النبي الخاتم، ص١٢ ـ ١٤.

حركة كتابة الحديث وجمعه بدءاً من الأمر في خلافة عمر بن عبد العزيز لم يسبق له نظير، فقد بدأ هذا الاهتمام والعناية بكتابة الحديث في عهد النبي ﷺ وبعد وفاته مباشرة على طريقة غير نظامية ولا رسمية، فقد جاء في كتب التاريخ وتراجم الصحابة أسماء مجاميع خاصة منسوبة إلى جامعيها.

كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى (الصادقة)[١]، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (صحيفة)[٢]، وكان لأنس (صحيفة) كان يبرزُها إذا اجتمع الناس[٣]، ونقل الجمع والكتابة عن عبد الله بن عباس[٤]، وعبد الله بن مسعود[٥]، وعن جابر بن عبد الله[٦].

وتدل **(صحيفة همام بن منبه)** (ت١٠١ أو ١٠٢هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه، التي يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأن أبا هريرة توفي نحو ٥٨هـ، وهو من إملائه) على تقدّم هذه الحركة[٧]، وهي من أقدم الصحف

---

(١) جامع بيان العلم: ١/ ٧٢.
(٢) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم.
(٣) تقييد العلم، ص٥.
(٤) كتاب العلل، للإمام الترمذي.
(٥) جامع بيان العلم: ١/ ٧٢.
(٦) صحيح مسلم.
(٧) راجع للاطّلاع على أسماء الصحف التي كتبت في حياة النبي ﷺ كتاب (صحيفة همام بن منبه) (في أردو)، للدكتور محمد حميد الله، طبع (١٣٧٤هـ) من حيدرآباد.

التي عثر عليها بنصها[(١)].

ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركةُ الجمع والتدوين أنشط وأقوى، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن **ابن شهاب الزهري** (ت١٢٤هـ)، **وابن جُريج المكي** (ت١٥٠هـ)، **وابن إسحاق** (ت١٥١هـ)، **ومَعْمَر بن راشد اليمني** (ت١٥٣هـ)، **وسعيد بن أبي عَروبة المدني** (ت١٥٦هـ)، **والربيع بن صبيح** (ت١٦٠هـ)، **وسفيان الثوري** (ت١٦١هـ)، **ومالك بن أنس** صاحب الموطأ (ت١٧٩هـ)، **والليث بن سعد** (ت١٧٥هـ)، **وعبدالله بن المبارك** (ت١٨١هـ)، ثم تتابع الناس[(٢)].

ويقول: «قد قيّض الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة للعلم يعدّون

---

(١) قد وجدت صحيفة همام بن منبه في المكتبة الظاهرية بدمشق، وفي مكتبة برلين (في مدينة تيونبكن)، وفي جامعة أنقرة بتركية، ونشرت في المجمع العلمي العربي، دمشق في أعدادها الأربعة عام (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م)، ونشرت مفردة، والفضلُ في إبرازها وتحقيقها يرجع إلى الدكتور حميد الله الحيدرآبادي المقيم بباريس.

(٢) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٢٨ ـ ٣٠، ويقول: «يحسن الرجوع في الاطّلاع على العناية بجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول والثاني إلى الكتاب القيّم (تدوين الحديث)، للعلاّمة السيد مناظر أحسن الكيلاني في لغة أردو، طبع المجلس العلمي بباكستان، والكتاب القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، للأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي، طبع المكتب الإسلامي بدمشق.

بالآلاف، ويمتازون بعلوّ همتهم، وشدّة نشاطهم، وقوة احتمالهم وصبرهم، وقوة ذاكرتهم وحفظهم، وقد ملكت قلوبَهم وعقولَهم الرغبةُ الشديدةُ في جمع الحديث، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات، فطاروا في الآفاق، ونقبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة، والأسانيد الصحيحة، وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يُعرفا عن أمة من الأمم للعلم في التاريخ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدّثين من التجوّل في البلاد، والسفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه»[1].

ويقول: «إنَّ أكثر العلوم الإسلامية حظّاً، وأوفرها نصيباً من الخدمات العلمية، وأعمال البحث والتحقيق، والجهود العلمية المضنية في الحفاظ عليها وتقييدها، ووعيها ونشرها، والرحلات الواسعة المتتابعة في سبيلها هو علم الحديث، الذي سعدت الأمة الإسلامية وانفردت من بين الشعوب والأمم بنقله وتداوله، وحفظه ورعايته، وتقديمه إلى الأجيال التالية مصوناً مأموناً، منخولاً، مدروساً مخدوماً، فمن مجموعات الصحابة الميامين الأولى كصحيفة عبد الله بن عمرو الصادقة إلى كتاب الموطأ لمالك، وكتاب الآثار لمحمد وأبي يوسف، إلى صحيحي البخاري ومسلم، إلى سنن الدارقطني والبيهقي، إلى المجاميع المتأخرة، جهود علمية مخلصة عظيمة، أفنى فيها المحدّثون أعمارهم، وواصلوا ليلهم بنهارهم، يدهش الدارس ويقف منبهراً أمام هذه الخدمات العلمية الحديثية التي ظلّت تتواصل وتتكاثر وتتكامل حتى

---

(١) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ص٩.

نضجَ هذا العلمُ نضجاً تامّاً»[1].

دواوين السنة:

يقول الشيخ وهو يتحدَّث عن دواوين السنة: «وهكذا أصبح الحديث موضع عناية هذه الأمة بعد القرآن، وانصرفت إلى جمعه وتدوينه وضبطه همم المخلصين المجاهدين... وما زالوا يعنون به، ويتفانون في سبيله، حتى خرجت من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت منبثة في الآفاق مجاميع صحيحة منقحة للحديث النبوي»[2].

وعقد في كتابه (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف) عنوان (تعريف موجز بأصحاب الصحاح الستة ونبذة من تراجمهم وخصائصهم)، ترجم فيه **للإمام البخاري** رحمه الله ترجمة موجزة، مع الحديث عن مولده وأشهر شيوخه، ووفاته، ومنزلته في الحديث، ومزية كتابه الصحيح، وأشهر الشروح، والتعليقات عليه، التي بلغت ما يزيد على مئة وواحد وثلاثين كتاباً، ونوَّهَ إلى مزيةِ أبوابه وتراجمه ولطائفها ودقائقها، ثم ترجم بنحو ذلك للأئمة: **مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومالك بن أنس**، ثم عرَّجَ على ذكر مجاميع أخرى من المصنفات في الحديث ككتاب **(الآثار)** للإمام ابي حنيفة، و(**مسند الإمام أحمد بن حنبل**)، و(**مسند أبي داود الطيالسي**)،

---

(١) من مقدمة لكتاب (بستان المحدّثين) الذي صدر أخيراً بتعريب وتحقيق كاتب هذه السطور.

(٢) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٣١.

و(شرح معاني الآثار) للإمام الطحاوي، ومعاجم الطبراني الثلاثة، و(سنن الدارقطني)، و(صحيح محمد ابن حبان البستي)، و(صحيح ابن خزيمة)، وكتاب (مصابيح السنة) للبغوي، و(مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزي.

تراجم الصحيح:

يقول الشيخ وهو يتحدَّث عن مزية أبواب (صحيح البخاري) وتراجمه، ولطائفها ودقائقها: «وممَّا تقرَّر عند المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً وتصنيفاً، وشرحاً وتحقيقاً، أنَّ الأبوابَ والتراجمَ في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب، ومن أعمقها غوراً، وأبعدها مدًى، حتى اشتهر بينَ العلماء أنَّ فقه البخاري في تراجمه، وأصبحَ ذلك شعاراً لهذا الكتاب، يتميّز به عن أقرانه الصحاح ـ على جلالة قدرها وفخامة شأنها ـ وأصبحَ مقياساً لفطنة العلماء، وتوقد ذكائهم، وسيلان ذهنهم، وبُعد غورهم، واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل، وحلّ غوامضه، وفتح أغلاقه، والتوصل إلى مقاصد المؤلف، لا يشهدُ لمؤلف أو مدرس ببراعة في العلم وتفوق في التدريس، وسعة اطّلاع على الشروح والحواشي وأقوال الأئمة والفحول من المحدّثين وطول ممارسة لتدريس هذا الكتاب الشريف، وإضناء القوى وإفناء العمر في ذلك حتى تجمع له الشيء الكثير من هذا الباب، وينفرد بتوجيهات وتعليلات تنحلُّ بها الألغاز، وتتفتح بها الأقفال، وتخلو عنها بطون الأسفار.

ولذلك عُني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً، وأجالوا فيه قداحهم، وأركضوا في هذا السباق جيادهم، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة،

وعلومهم الراسخة، ولا نعرف أديباً أو لغوياً تعمَّقَ في فهم بيت من الأبيات، ومعرفة معنى من المعاني الشعرية والوصول إلى غاية من غايات الشعراء، مثل تعمّق شراح الجامع الصحيح، والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلف وشرح كلامه.

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلمي ـ مؤلَّفاً من مؤلَّفات العلماء أو الحكماء، عُنِيَ به رجال ذلك الفن، وعكفوا على حلّ غوامضه، وفكّ مشكلاته حتى شقوا فيه الشعرة، مثل ما عني علماء الحديث **بالجامع الصحيح**، وما ذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف، وانقطاعه إليه وجهاده في سبيله، وتفانيه في ذلك.

وسِرُّ الغموض في هذه الأبواب والتراجم، وتنوع مقاصد المؤلف الإمام، وبعد مراميه وفرط ذكائه، وحدّة ذهنه، وتعمّقه في فهم الحديث، وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادة ممكنة، فهو كنحلة حريصة تواقة، تجتهد أن تتشرَّبَ من الزهرة آخر قطرة من الرحيق، ثم تحوّلها إلى عسل مصفًى فيه شفاء للناس»[1].

علم مصطلح الحديث:

يقول الشيخ: «وعلم مصطلح الحديث يبحث عن تقسيم الخبر إلى: صحيح، وحسن، وضعيف، وتقسيم كل من هذه إلى أنواع، وبيان الشروط

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٤١ ـ ٤٣.

المطلوبة في الراوي والمروي، وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ، وما تردُّ به الأخبار، وما يُتَوَقَّفُ فيها إلى أن تعضَّدَ بمقوّيات أخرى، وبيان كيفية سماع الحديث وتحمّله وضبطه، وآداب المحدّث وطالب الحديث، وغير ذلك مما كان في الأصل بحوثاً متفرقة، وقواعد قائمة في نفوس العلماء في القرون الثلاثة الأولى إلى أن أفرد بالتأليف والجمع والترتيب شأن العلوم الإسلامية الأخرى في تطورها وتدرجها»[1].

علم أسماء الرجال:

يقول الشيخ وهو يتحدَّث عن عناية المحدّثين بوسائط الحديث: «وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث، فعنوا بمعرفتهم، ومعرفة أسمائهم، وأسماء آبائهم، وحوادث حياتهم وأخلاقهم، ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ، وهكذا أصبحَ الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر، وانتشار الاسم ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين، وخرجوا من زوايا الخمول، واستحقوا الحياة والاجتهاد، وأصابهم فيضٌ من حياة هذه الشخصية الخالدة، وحيوا وظهروا، واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم، ورآه حقّاً على نفسه.

وهكذا ظهر عِلْمُ أسماء الرجال إلى عالم الوجود، وكان من مفاخر هذه الأمة، التي لا تشاركها فيها أمة من الأمم، قال الدكتور اسبرنجر في مقدمته الإنكليزية على كتاب (الإصابة في أحوال الصحابة) للحافظ ابن حجر

---

(١) المرجع السابق، ص٦٠ـ٦١.

العسقلاني ما ترجمته: «لم تعرف أمةٌ في التاريخ، ولا توجَدُ الآن على ظهر الأرض، وفّقت لاختراعِ فنٍّ مثل فنّ أسماء الرجال، الذي نستطيع بفضله أن نقفَ على ترجمةِ خمسمئة ألف (نصف مليون) من الرجال»[1].

ولم يُعنَ المحدّثون بتعريف رجال الحديث فحسب، بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم، وجمعوا كلَّ ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم، وما يدلّ على قوّتهم وضعفهم، واحتياطهم وتساهلهم، وتقواهم، وعلمهم وذاكرتهم، وجمعوا كلَّ ما قاله معاصروهم فيهم، ولم يداروا، ولم يجاملوا في ذلك، ولم يهابوا أحداً، ولو كان بعضهم أميراً مهاباً، أو شيخاً وقوراً، وقد روى التاريخ في ذلك طرائفَ تدلُّ على شهادة هؤلاء الناقدين بالحق وتدقيقهم وعملهم بقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء: ١٣٥][2].

علم الجرح والتعديل:

يقول الشيخ في حديثه عن علم الجرح والتعديل أو علم ميزان الرجال: «هو علمٌ يُبْحَثُ فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم، وضبطهم، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان، وهو علم جليل من أجل العلوم التي نشأت عن تلك الحركة المباركة، لا نعرِفُ له مثيلاً أيضاً في تاريخ الأمم

(١) الإصابة في أحوال الصحابة، طبع كلكته (١٨٥٣ ـ ١٨٦٤م).
(٢) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٦٣ ـ ٦٤.

الأخرى، وقد أدّى إلى نشأة هذا العلم حرصُ العلماء على الوقوف على أحوال الرواة حتى يميزوا الصحيحَ من غيره، فكانوا يختبرون بأنفسهم مَن يعاصرونهم من الرواة، ويسألون عن السابقين ممن لم يعاصروهم ويعلنون رأيهم فيهم دون تحرّج ولا تأثّم، إذ كان ذلك ذبّاً عن دين الله وسنّة رسوله ﷺ»[1].

معاجم الحديث:

ويقول الشيخ: «وقد وضع العلماءُ في عصورٍ مختلفة، معاجم للكلمات التي وردت في متون الحديث، وقد عنوا بشرحها وإيضاحها في شروح كتب الحديث، كالعلاَّمة العيني في (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري)، و(النووي في شرح صحيح مسلم)، وغيرهما من شروح الصحاح ودواوين الحديث.

ولكنَّ الذي امتاز في هذا المجال اللازم والحاسم في فهم الحديث وتطبيقه علمياً وعملياً، هو العلاّمة محمد بن طاهر الفتني الهندي الكجراتي المتوفى عام (٩٨٦هـ) في كتابه الفريد في هذا الموضوع الذي يدين له، ويحتاج إليه، ويستفيد منه، كلُّ معلم للحديث ودواوين السنة فضلاً عن الطالب والدارس، المسمى (مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار) في خمسة أجزاء.

وكفى شهادة لذلك ما قاله المؤرّخ الكبير والمحدّث والناقد الممتاز

---

(١) المرجع السابق، ص٦١ ـ ٦٢.

العلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله المتوفى عام (١٣٤١هـ) في كتابه أعلام الهند وشخصياتها المرموقة المسمى (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) في ترجمة العلاَّمة محمد طاهر الفتني في الجزء الرابع من الكتاب: وجمع فيه كلَّ غريب الحديث وما ألف فيه، وجاء كالشرح للصحاح الستة، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود، وله منةٌ عظيمة لذلك العمل على أهل العلم»[١].

تاريخ علم الحديث في الهند:

وأنقل هنا مقطعاً من مقدمة الشيخ أبي الحسن لكتاب (أوجز المسالك) فإنَّها تلخيصٌ بارع لتاريخ الحديث النبوي الشريف، وتطور علومه في الهند، وشهادة واضحة باتصال الشيخ الندوي بموضوع الحديث وعنايته به:

«إنَّ علمَ الحديثِ من العلوم التي ألهم الله هذه الأمة ـ في أول عهدها، وعلى أثر وفاة نبيّها ـ العنايةَ به، والجهاد في سبيل حفظه وتدوينه ونقله ونشره، والتهالك على تلقّيه وجمعه، والتنافس في ضبطه وإتقانه، والاهتمام بكلّ ما يتصل به من علوم وفنن، إلهاماً قويّاً واضحاً، تجلَّت فيه حكمةُ الله وعنايتُه بصيانة هذا الدين وإكماله، حتى كان ذلك دافعاً نفسيّاً لا تعرفُ الأمةُ مصدره، ولا تستطيعُ له قهراً ولا دفعاً، وكأنَّ سائقاً يسوقها نحو هذه الغاية سوقاً قويّاً عنيفاً، فلا تستطيع مقاومته، رقيقاً لطيفاً في الباطن، فلا تشعرُ بثقله ووطأته،

---

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٦٧ ـ ٦٨.

وتجدُ في الانسياقِ إليه والاستجابةِ له لذة لا تعدلها لذة، وراحة لا تعدلها راحة، فتهونُ لأجل ذلك عليها المتاعبُ والمشقات، وتقصرُ في سبيلها الأبعادُ والمسافاتُ، وتتدفق على طلبه من مظانّه، وحفظه وروايته من أهله ونقله من مكان إلى مكان سيولٌ وجيوشٌ من أذكياء الأمم والشعوب، ومن نوابغِ البلاد والعباد، لا يعرف نظيرهم في تاريخ أمة وحضارة، ولا في تاريخ علم وثقافة، وكان كلُّ ذلك سرّاً من الأسرار الإلـٰهية، وبرهاناً ساطعاً على مدى عناية الله بهذه الرسالة التي ختم الله بها الرسالات، وبهذه الشريعة التي قضى الله ببقائها وخلودها، وانتشارها وعمومها لجميع العصور والأجيال، هذا الإلهام الذي كان سبباً لاندفاع الأمة إلى حفظ الحديث النبوي مرة، وإلى استنباط الأحكام وتفريع الفروع مرة أخرى، وإلى تدوين العلوم المنبثقة من القرآن من صرف ونحو وبلاغة مرة ثالثة، وإلى تأليف الكتب ووضع المعاجم وتأسيس المدارس مرة رابعة، وإلى العناية بتزكية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتحصيل حقيقة الإيمان والوصول إلى درجة الإحسان، وتجديد الطب النبوي في معالجة القلوب والنفوس، ووضع أسس هذا العلم وإرساء قواعده، إلى غير ذلك مما ألهمه أزكى نفوس هذه الأمة، وأعظمها رسوخاً في العلم والدين، وأكثرها حظّاً في الإيمان واليقين من أجلى دلائل ختم النبوة وإكمال هذا الدين، وأنَّ عناية الله لا تفارقه لحظة واحدة، وأنَّ مدده لا يتخلّف عنه في حين من الأحيان.

وكان لكلِّ بلد من بلاد الإسلام نصيبٌ غير منقوص من هذا الإرث النبوي يدخل مع الغزاة والفاتحين، والدعاة والمبلّغين، والأساتذة والمدرّسين، والفقهاء والمحدّثين، فدخل علمُ الحديث في أوائل الفتح

الإسلامي في بلاد الهند، وكان من جملة من وفد إليها من المجاهدين في سبيل الله: الربيع بن صبيح السعدي، الذي قال عنه الجلبي في (كشف الظنون): «هو أول من صنَّف في الإسلام»، ولا شكَّ أنَّه من أول المؤلّفين في علم الحديث إذا لم يكن أولهم بالإطلاق، وقد مات ودُفن في الهند عام (١٦٠هـ).

وقد رافق علمُ الحديث العربَ الذين غزوا هذه البلاد، فقد امتزجَ بلحمهم ودمهم، فحملوا معهم هذا العلم الشريف، وكان يرافقهم في كلّ غزوة علماء محدّثون، وكان فيهم من سكن الهند ومات فيها، وانتشر علمُ الحديث في دولة العرب وحكمهم، فلمّا انقرضت دولةُ العرب من بلاد السند، وتغلَّبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديثُ فيها غريباً كالكبريت الأحمر، وعديماً كعنقاء المغرب، وغلبَ على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول، ومضت على ذلك قرون متطاولة، حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان، والإضراب عن علوم السنّة والقرآن، إلاّ ما يذكر من الفقه على القلّة، وكان قصارى نظرهم في الحديث في (مشارق الأنوار) للصاغاني، فإن ترفَّع أحدٌ إلى (مصابيح السنة) للبغوي أو إلى (مشكاة المصابيح) ظنَّ أنه وصل إلى درجة المحدّثين، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث.

واستمرَّ الحال على ذلك، وتفاقم الخطب، حتى كادت صلةُ المسلمين في الهند تنقطعُ عن هذا المعين الصافي والمصدر الأصيل للدين، وأصبحت الهندُ تعيشُ في عزلةٍ عن حركة التأليف والتعليم في البلاد العربية، وتخلَّفت عن ركب العلوم الإسلامية، وأصبحت عالماً مستقلاً منفصلاً، ولما زار الشيخ

شمس الدين المصري هذه البلاد في عهد علاء الدين الخلجي في القرن الثامن الهجري آلمه ذلك وأفزعه، فكتب رسالة إلى السلطان يؤاخذ فيها الفقهاء في هذه البلاد على قلّة الاعتناء بالحديث، ولكنّ علماء البلاد احتالوا في منع هذه الرسالة عن الوصول إلى السلطان.

وأدركت الهندَ العنايةُ الإلـٰهية، فأتحف الله هذه البلاد بالوافدين الكرام من المحدّثين من الحجاز، وحضرموت، ومصر، والعراق، وإيران، وذلك في القرن العاشر الهجري، ولكنَّ أكثرهم آثروا الإقامة في (كجرات) لوجود دولة إسلامية تحمي العلوم وتحتضنُ العلماء، وامتازَ ملوكُها بتحصيل علم الحديث والشغف به، وأكثر هؤلاء الوافدين ماتوا ودُفنوا في أحمدآباد عاصمة حكومة كجرات.

ثم ساق بعضَ علماء الهند سائقُ التوفيق إلى الحرمين الشريفين مصدر هذا العلم ومعقله، يطول ذكر أسمائهم، أشهرُهم الشيخ **حسام الدين علي المتقي** صاحب (كنز العمال) المتوفى عام (٩٧٥هـ)، وتلميذه الشيخ **محمد بن طاهر الفتني** صاحب (مجمع البحار) المتوفى عام (٩٨٦هـ)، فخدما علم الحديث خدمة باهرة، وألّفا مؤلَّفات عظيمة حتى جاء دور الشيخ العلاَّمة **عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي** المتوفى عام (١٠٥٢هـ) فأخذَ علم الحديث عن علماء الحجاز، ونقله إلى الهند، واتخذ دار الملك (دهلي) مركزاً له، وشمر عن ساق الجد والاجتهاد في نشر علم الحديث وخدمته تعليماً وتدريساً وشرحاً وتعليقاً، فأقبل العلماءُ على علم الحديث، وانتشرت الصحاح وتداولتها الأيدي، ونفقت سوقُ هذا العلم بعد كسادها،

لقلة البضاعة وزهد العلماء فيه، وخلفه ولده وأولادُ أولاده، ودرسوا وألَّفوا، ونهض علماء كبار في كلّ طرف من أطراف الهند، ونبغ فيهم رجال يُعترَف بفضلهم وحِذْقهم للصناعة، ثم جاء دور شيخ الإسلام الشيخ **أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي** المعروف بولي الله، المتوفى عام (١١٧٦هـ) فرحل إلى الحجاز، وأخذَ الحديث عن الشيخ **أبي طاهر بن إبراهيم الكردي المدني**، وعاد وقَصَرَ همّته على نشر الحديث، فقامت دولةُ الحديثِ في الهند، وهبَّت ريحٌ تجري رخاءً من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وتهافت على طلبه روّادُ علم الحديث من أقصى الهند إلى أقصاها، وأصبح علمُ الحديثِ شرطاً للكمال، وشعاراً لأهل الصلاح والعقيدة الصحيحة، حتى أصبحَ العالم لا يعتبر عالماً حتى يبرزَ فيه، وتقرر تدريس الصحاح الستة في كلّ حلقة تدريس، وانتشر تلاميذُه وتلاميذُ تلاميذهم في طول الهند وعرضها كشجرة طوبى التي يوجد فرعها في كلّ مكان، ولا يعرِفُ أصلها ومركزها، فما من سندٍ ولا درسٍ ولا تأليفٍ ولا حركةِ إصلاحٍ وتجديدٍ إلاَّ وينتهي نسبه العلمي إلى هذه الدوحة المباركة، وفروعها السامقة، وقد صدق مَن قال:

مَـنْ زَارَ بَـابَـكَ لَـمْ تَبْـرَحْ جَـوَارِحُـه ... تَرْوِي أَحَادِيْثَ مَا أوْلَيْتَ مِنْ مِنَنِ
فَالْعَيْنُ عَنْ (قُرَّةٍ) وَالكَفُّ عَنْ (صِلَةٍ) ... والقَلْبُ عَنْ (جَابِرٍ) والسَّمْعُ عَنْ (حَسَنِ)

وخلف الشيخ ولي الله ابنه النجيب وتلميذه الرشيد **الشيخ عبد العزيز بن ولي الله، المتوفى عام (١٢٣٩هـ)، وقد بارك الله في تدريسه، وتخرَّج عليه علماء أعلام، ومحدّثون عظام، أشهرهم وأعظمهم توفيقاً في نشر الحديث وتربية الأساتذة والمدرّسين سبطه الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل**

العمري، المتوفى عام (١٢٦٢هـ)، فقد انتهت إليه رئاسة الحديث في العصر الأخير، وأصبحَ المرجعَ والمآبَ في التدريس والتحرّي، وشُدَّت إليه الرحال من أقاصي البلاد، وكتب الله له من التوفيق والقبول ما لم يكتبه لأحد من معاصريه في الهند، وفي أكثر الأمصار الإسلامية، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاء، ومنه تبتدئ، وعليه تلتقي جميعُ المدارس الفكرية في فهم الحديث وشرحه وتأويله، وهي على اختلاف مشاربها وتباين مذاهبها ترد نسبها العلمي، وينتهي بسندها في الحديث إليه، فهو مسند الهند وواسطة العقد، ومنتهى أهل الرواية في العصر الأخير[(١)].

الحديث سجلّ لحياة النبي ﷺ:

يقول الشيخ وهو يسلّطُ الضوءَ على أهمية علم الحديث وأنَّه سجلٌّ لحياة النبي ﷺ: «مِنْ هنا كان الرسول الأعظم ﷺ هو الشخصيةُ الفريدةُ ـ من بين الرسل والعظماء ـ التي نعرِفُ عنها كلَّ دقيق وجليل، ونعرف عنها من دقائق الأخلاق والعادات، والميول والرغبات، والقول والعمل، ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي مضت قريباً، بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً، وذلك كلُّه بفضل (الحديث) الذي سجَّل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة»[(٢)].

ويقول: «أمَّا الحديثُ النبوي فيصحُّ أن يُسمَّى (سجل الوقائع اليومية)

---

(١) مقدمة أوجز المسالك، ص٦٤ ـ ٦٧.
(٢) المدخل إلى دراسات الحديث الشريف، ص١٩ ـ ٢٠.

وشبه مذكرات ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبيُّ ﷺ ـ بعدما أكرمه الله بالنبوة ـ على ظهر الأرض، ترينا كيف كان الرسول ﷺ يعيشُ في هذه الحياة، كيف كان يقضي نهارَه وليلَه، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والعادات والميول والرغبات، والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي عاشت قريباً، بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً، وهو مجموع صور ناطقة يتعرَّفُ بها الإنسانُ بنبيِّه، ويسعد بصحبته، ويتبرَّكُ بأنفاسه، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وعاش معه، وكان ذلك أبعث على الاقتداء، وأبعد عن مضارّ الوثنية، وعبادة التماثيل، مما جرت عليه الأمم القديمة من تصوير أنبيائها ونحت تماثيلهم.

وحسبُ القارئ أن يقرأَ قصةَ **حجّة الوداع** في كتب الحديث، فقد سجَّل الرواة فيها كلَّ دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكلَّ حادثة من حوادثها التي لا تسترعي الانتباه، وليست لها قيمة تاريخية، ولا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء والملوك والأمراء والعلماء والنبغاء[١].

---

(١) اقرأ في كتب الصحاح تفاصيل تطييب رسول الله ﷺ في حجة الوداع عند الإحرام، وإشعاره لهديه، واحتجامه، وتحديد مكانه من الجسم، وموضعه من الطريق، وتحديد المنازل بين المدينة ومكة، ولم يفت الراوي أن يقيّد خروجَ حية ليلة منى وإفلاتها من القتل، وأسماء مَن كان رديف رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، بل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته كلّها. (النبي الخاتم، ص١٤).

ويقول في تقديمه لكتاب (حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ): «ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها ـ أي: رحلة النبي ﷺ للحج ـ في رحلاتِ القادةِ، وتاريخ المشاهير، وقد أخلَّت أمم كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم، ومراحل حياتهم، وضيَّعوا منها الشيءَ الكثير الذي لا تكمل حياتهم، ولا يتمّ تاريخهم إلا به».

ويقول: «فكانت هذه الحجةُ تقومُ مقامَ ألف خطبة وألف درس، وكانت مدرسةً متنقّلةً ومسجداً سيراً، وثكنة جوالة، يتعلَّم فيها الجاهل، ويتنبّه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيها الضعيف، وكانت سحابة واحدة تغشاهم في الحل والترحال، هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه وتربيته وإشرافه».

مقارنة بين سيرة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء:

يقول الشيخ: «ويتجلّى هذا السرُّ الإلـٰهي في وضوح السيرة وخلودها، وكونها بمتناول المؤتسين والمقتدين إذا قارن الإنسان بين هذه السيرة وبين سير الأنبياء السابقين وحياتهم، فأكثرها توارت في ظلمات الجهل والإهمال، والحوادث التاريخية الدامية، وقد أدّت رسالتها في فترة زمنية خاصة، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلّف اتّباعهم، ثم لم تبقَ حاجةٌ إلى الاحتفاظ بها، وإلى أن تتوارثها الأجيال.

ويكفينا أن نستعرضَ حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فكان آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، وتنتسب إليه أمة عُرف شغفها بالعلم والتأليف، وإفراطها في حبّ نبيّها، وإطراؤها له إطراءً بلغ حدَّ التأليه

والتقديس، ولكنَّها لم تستطع أن تعرض على العالم نتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكوِّنُ هيكلاً من حياة بشرية كاملة، يقلده الإنسان في حياته الفردية، أو يسير في ضوئه مجتمع فاضل، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام أنَّ (العهد الجديد) يتضمَّنُ أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته لا أكثر ولا أقل[١].

أما الأنبياء الآخرون، وعظماءُ الملل والديانات السابقة، فيصحُّ القول بأنَّ أخبارَهم وصورَ حياتهم مطمورةٌ في ركام الماضي، وهنالك حلقات رئيسة لا يكملُ بغيرها التاريخ، ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد، مفقودة لا يمكن البحث عنها، والاهتداء إليها في هذا العصر المتأخر[٢]، وهذا عينُ ما تقتضيه الحكمة الإلـٰهية ومنطق الأشياء، فالمُثُل الإنسانية لها أعمار طبيعية، وحيوية محدودة، فإذا انتهت لم تكن مصلحةٌ في تناقلها، أمَّا ما كانت الحاجةُ إليه

---

(١) يقول القس الفاضل الدكتور شارلز أندرسن اسكوت في مقال له في (دائرة المعارف البريطانية) الطبعة الرابعة عشرة: ١٣/ ١٧١٠: «ينبغي أن يتنازلَ الإنسانُ عن محاولة وضع كتاب في سيرة المسيح بكل صراحة، فإنَّه لا وجودَ للمادة والمعلومات التي تساعِدُ على تحقيق هذا الغرض، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً.

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيم (الرسالة المحمدية)، للعلاّمة السيد سليمان الندوي، المحاضرة الثانية والثالثة والرابعة.

قائمةً دائمةً فبقي على اختلاف الزمان والمكان، واستمرَّ وانتشر، وأورق وأثمر»[1].

الحديث مدرسة دائمة:

يقول الشيخ وهو يؤكّد أنَّ الحديثَ ميزانٌ عادلٌ لوزن حياة المسلمين وواقعهم، ومدرسة دائمة يتخرَّجُ فيها المصلحون والمجدّدون: «وقد ظلَّت كتبُ السنّة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية، تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح، والفكر الإسلامي النقي، واحتجّوا بأحاديثهم، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص، والإسلام الكامل، ويريدُ أن يوجِدَ صلة بينهم وبين الحياة النبوية، والأسوة الكاملة، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة»[2].

السنّة دستور كامل:

يقول الشيخ: «وبفضل هذه الثروة الحديثية استطاع المؤلّفون الحاذقون في مختلف العصور والبقاع أن يؤلّفوا للمسلمين كتباً تكونُ دستوراً كاملاً

---

(١) النبي الخاتم، ص١٦ ـ ١٧.
(٢) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، ص٢٨.

لحياتهم ـ حتى إذا أراد المسلم ـ مهما كانت مهنته وطبقته ـ ألاَّ يخطو خطوةً؛ ولا يبتَّ في أمر؛ ولا يمارِسُ نشاطه إلاَّ في ضوءِ هَدْي النبي ـ صلى الله على صاحبه وسلم ـ أمكنه ذلك، والكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع كثيرة، وفي أكثر لغات العالم الإسلامي، وهي بينَ بسيطٍ ووسيطٍ ووجيزٍ، أحسنها (زاد المعاد في هدي خير العباد)[١] للعلاَّمة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وأحد أعلام الأمة»[٢].

دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته:

قام الشيخ في كتابه (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته) وغير واحد من كتاباته بدراسة العناصر التي كوَّنت المجتمع الإسلامي الجديد، وأنشأت الأمةُ الجديدةُ نشأةً متميزةً عن سائر الأمم، وبيَّن أنَّ مفتاحَ الانقلاب لهذا المجتمع أمور ثلاثة: القرآن الكريم، وشخصية النبي ﷺ وحياته وسيرته وأخلاقه، وتعليمات النبي ﷺ وإرشاداته وتوجيهاته وأعماله التي يسمى مجموعها بالسنّة، ويحتوي عليها الحديثُ النبوي، وبيَّنَ كيفَ عاش الصحابة

---

(١) قد صدرت للكتاب عدة طبعات في مصر والهند، وأمامنا طبع المطبعة الميمنية بمصر (١٣٢٤هـ)، وقد تم الكتاب في مجلّدين ضخمين وفي (٩٢٦) صفحة بالقطع الكبير والحرف الدقيق، والكتاب مكتبة في السيرة والحديث والفقه، وقد تلقّاه علماء كلّ عصر بالقبول.

(٢) النبي الخاتم، ص١٥ ـ ١٦.

رضوان الله عليهم الإسلامَ ذوقاً ومشاهدةً وعملاً، ثم بيَّنَ أنَّه لا بدَّ من مناخ مناسب وبيئة متهيئة للأحكام، وقد أوضح في أسلوب أدبي رفيع، وشفافية إيمانية رائعة أنَّ وقائع حياة النبي ﷺ المباركة، وإرشاداته وتعاليمه تخلقُ ذلك الجوّ الذي تخضرُّ فيه شجرةُ الدين وتورِقُ وتثمِرُ، وبيَّن أنَّ أصحاب الديانات القديمة ضيّعوا أخبارَ حياةِ أنبيائهم وسيرهم وأقوالهم الصحيحة، وملؤا الفراغ بقصص عظمائها.

دور الحديث في حسبة الأمة:

ويقول الشيخ وهو يتحدَّثُ عن حاجة الأمة إلى الحديث، ودوره في حسبة الأمة وحركات التجديد والبحث الجديد: «مَن استعرضَ التاريخ الإسلامي عرفَ أنَّه لولا السنّة المحفوظة والحديثُ المأثور لما أمكنت الحسبةُ على المجتمع الإسلامي، ولما قام المصلحون والمجدّدون في كلّ عصرٍ ومصرٍ يميّزون بين السنّة والبدعة، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، فالحديث مدرسة دائمة خالدة، يتخرّج فيها مصلحون مجددون، وقوة دافعة إلى الأمام، وإلى الاضطلاع بأعباء الدعوة والحسبة»[1].

ويقول وهو يركّز على دور الحديث في محاسبة الأمة ورقابتها: «ثم إنَّ الحديثَ ميزانٌ عادل، يستطيعُ المصلحون في كلّ عصر أن يزنوا فيه أعمالَ الأمـةِ واتجاهاتها، ويعرفوا الانحرافَ الواقع في سـير هذه الأمـة، ولا يتأتّى

---

(١) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه الصحيح، ص٢٣.

الاعتدالُ الكاملُ في الأخلاق والأعمال إلاَّ بالجمعِ بين القرآن وبين الحديث، الذي يملأ هو هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهذه الفجوة لا بدَّ منها في السنن الإلـٰهية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، و﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، فلولا الحديثُ الذي يمثّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتّزنة، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول ﷺ المجتمع الإسلامي لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريطٍ، واختلّ الاتزانُ، وفُقِدَ المثال العملي الذي حثَّ الله على الاقتداء به بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وبقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]»[١].

ويقول وهو يؤكّد أنَّ شعار السنّة لم يزل عالياً رغم المحاولات التي تبذلها طائفةٌ مشبوهة للتشكيك في حجة الحديث: «لا يزالُ الحديثُ النبويُّ الشريفُ معتنًى به دراسةً وتفهماً وتحقيقاً، ونشراً لمصادره، التي لم ترَ ضوءَ الشمس بعدُ، ولا تزالُ الحسبةُ قائمة على المجتمع الإسلامي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والردّ على البدع والمحدثات على قدم وساق بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى، والردة العقائدية والفكرية والحضارية، وقبول المدنية الغربية برمّتها وحذافيرها، وعلى علاّتها، ومخالفاتها للحياة الإسلامية، بفضل الاحتكام إلى السنّة والرجوع إلى الحديث تحقيقاً لما أخبر به

(١) المدخل إلى دراسات الحديث الشريف، ص٢١ ـ ٢٢.

النبي ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي، ظاهرين، على الحقّ، حتى تقومَ الساعةُ».

إنَّ شأن المشكّكين في حجّية الحديث، والحاملين للواء إنكار السنّة مع الحديث النبوي والسنّة المطهّرة كما حكاه الشاعر العربي القديم:

كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْماً لِيُوْهِنَهَا   فَلَمْ يَضُرْهَا وَأَوْهَىٰ قَرْنَهُ الوَعْلُ»[1]

مؤامرة إنكار السنّة:

تناول الشيخ في كتابه (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف) موضوعَ حاجة الأمة في هذا العصر إلى الاحتفاظ بالحديث والسنّة النبوية، وتسليط الضوء على المؤامرة الخبيثة على الإسلام بالتشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة، وكعادته رحمه الله في ربط العلم النظري بالواقع العملي للأمة حذَّرَ من هذه المؤامرة، وبيّنَ أبعادها، وجزم في يقين المؤمن الواثق بنصر الله تعالى أنَّها ستبوءُ بالخيبة والخُذلان والإخفاق، وأنَّها لن تنالَ ـ بإذن الله تعالى ـ من حصن السنّة الحصين، ولن تفقدَ الأمةُ صلتها بحديث نبيّها ﷺ الذي وصفه بأسلوبٍ لطيفٍ رشيقٍ أنَّه: «مذكرة ناطقة للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوي وتتعطّر بأريجه، وتفوح برباه»[2].

ثَبَتُه:

وللشيخ ثَبَتُ (نفحات الهند واليمن بأسانيد الشيخ أبي الحسن) جمعه

---

(١) المرجع السابق، ص٧٥ـ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٣.

كاتبُ هذه السطور، نظراً لعلوٍّ أسانيده، فإنَّ روايته عن العلاّمة عبد الرحمن المباركفوري المتوفى عام ثلاثة وخمسين وثلاثمئة وألف، والمحدّث حيدر حسن خان الطونكي المتوفى عام واحد وستين وثلاثمئة وألف بعد أن مضى سنة (١٤٢٠هـ) (وهي سنة وفاة الشيخ الندوي) على وفاة الأول منهما سبعة وستون عاماً، وعلى وفاة الثاني تسعة وخمسون عاماً من العوالي، فقد قال محدّث الشام الحافظ الإمام ابن جوصا المتوفى سنة عشرين وثلاثمئة: «إسنادُ خمسين سنة من موتِ الشيخ إسنادُ علوّ»[١]، وهذا ما جعله من مسندي زمانه.

يقول أخونا المسند محمد بن عبد الله آل الرشيد في تقديمه للكتاب: «ونظراً لمكانته العلمية الرفيعة، وشهرته الواسعة في الأقطار الإسلامية؛ فقد حرصَ كثيرٌ من كبار أهل العلم على الاتصال بأسانيده، والرواية عن طريقه، لما أكرمه الله تعالى من تحقق بهدي السنّة النبوية والعمل بها والدعوة إليها، ولما حباه الله سبحانه من علوّ في الإسناد والرواية عن كبار أهل الحديث» . . . «وعلوّ الإسناد ومكانة الشيوخ الذين يروي عنهم خير مما درج عليه بعض الناس من الاستكثار من الرواية عمّن هبّ ودرجَ من الشيوخ دون تحقق بالعلم، وتوثّق من الرواية، وطالب العلم يفتخر ويعتزّ أن يتصل سنده إلى رسول الله ﷺ عن أمثال العلاّمة السيد أبي الحسن الندوي حفظه الله تعالى»[٢].

---

(١) الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٥.
(٢) كلمة الناشر (نفحات الهند واليمن) د ـ ه.

أسانيده لكتب الصحاح والمسند:

أقتصر هنا بذكر أسانيده لكتب الصحاح ومسند الإمام أحمد بن حنبل، واتصاله ببعض الأثبات الهامة:

● **(صحيح البخاري)**: يرويه الشيخ عن العلاَّمة حيدر حسن خان الطونكي: أنا المحدّث الأثري السيد نذير حسين الدهلوي، أنا الإمام محمد إسحاق الدهلوي، أنا جدّي لأمي العلاّمة المحدّث عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، أنا والدي الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، أنا سالم بن عبد الله بن سالم البصري، أنا والدي عبد الله بن سالم البصري الحافظ، أنا محمد بن علاء الدين البابلي الحافظ، أنا الشمس محمد الرملي، أنا القاضي زكريا الأنصاري، أنا الحافظ ابن حجر العسقلاني، أنا البرهان أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي[1]، أنا أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجّار، أنا أبو عبد الله الحسين بن المبارك الزبيدي، أنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى الهروي، ثنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداوودي،

---

(١) تذكر ورقة الإجازة التي كان الشيخ الندوي يوزّعها على مستجيزيه الحافظ أبا الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي مكان أبي إسحاق التنوخي، وهو خطأ لأن العراقي لم يروِ عن الحجار، وإنَّما أسند الحافظ ابن حجر رواية الداوودي للصحيح عن أبي محمد عبد الرحيم بن عبد الكريم الحموي، وأبي علي محمد بن محمد بن علي الجيزي، وأبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي، ثلاثتهم عن الحجار. (انظر: فتح الباري: ١/ ٦).

ثنا الحافظ أبو محمد عبد الله بن حمويه السرخسي، ثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري، قال: حدثنا الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري رحمه الله تعالى.

● **(صحيح مسلم)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى القاضي زكريا الأنصاري، عن محمد بن مقبل، أنا الصلاح بن أبي عمر المقدسي، أنا الفخر أبو الحسن ابن البخاري، أنا المؤيد بن محمد الطوسي، أنا فقيه الحرم أبو عبد الله محمد بن الفضل الفراوي، أنا أبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن سفيان، عن الإمام الحافظ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.

● **(سنن أبي داود)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى الفخر علي البخاري، عن أبي حفص عمر ابن طَبَرْزَدْ، أنا أبو البدر الكرخي وأبو الفتح الميدومي، أنا الحافظ أبو بكر الخطيب، أنا أبو عمر القاسم بن جعفر البغدادي الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي، أنا الحافظ أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني رحمه الله تعالى.

● **(سنن الترمذي)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى الفخر أبي الحسن ابن البخاري، عن عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد، أنا أبو الفتح عبد الملك ابن أبي سهل الكروخي، أنا القاضي أبو عامر محمود بن القاسم الأزدي، أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن عبد الله الجرّاحي المروزي، أنا الشيخ الثقة الأمين محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي، أنا الحافظ أبو عيسى

محمد بن سورة الترمذي رحمه الله تعالى.

● **(سنن النسائي)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجار، عن عبد اللطيف بن محمد بن علي القبيطي، أنا أبو زُرعة طاهر بن محمد المقدسي، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الدوني، أنا القاضي أبو نصر أحمد بن الحسين الكسّار، ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري المعروف بابن السني، ثنا الحافظ الإمام أبو عبد الرحمن بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي رحمه الله تعالى.

● **(سنن ابن ماجه)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى أحمد بن أبي طالب الحجار، عن الأنجب ابن أبي السعادات الحمّامي، أنا أبو زُرعة طاهر ابن محمد بن طاهر المقدسي، أنا الفقيه أبو المنصور محمد بن الحسين بن أحمد المقوّمي القزويني، أنا أبو طلحة القاسم بن أبي المنذر الخطيب، أنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان، قال: حدّثنا به الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني رحمه الله تعالى.

● **(مسند الإمام أحمد بن حنبل)**: يرويه الشيخ بالإسناد السابق إلى أبي الحسن ابن البخاري، عن أبي علي حنبل بن عبد الله بن الفرج الرصافي، أنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الشيباني، أنا أبو علي الحسن بن علي التميمي المذهب الواعظ، أنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي، ثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد، حدثني أبي الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

اتصالاته ببعض الأثبات الشهيرة:

● **(إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر)**: للإمام المحدّث الأثري المجتهد العلاَّمة النظَّار القاضي **محمد بن علي الشوكاني**، المتوفى عام خمسين ومئتين وألف، رحمه الله تعالى، يروي عن الإمام عبد القادر الكوكباني، وهو أعظم مشايخه، وغيره، ثم تصدّى للتدريس والإفتاء والتصنيف، فأتى بالعجيب الغريب زعامةً وإقداماً وتحريراً واطّلاعاً ونقداً، من أكابر مصنّفاته (نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار).

يرويه عن العلاَّمة حيدر حسن خان الطونكي، والعلاّمة الأثري عبد الرحمن المباركفوري، كلاهما عن المحدّث حسين بن محسن الأنصاري، عن محمد بن ناصر الحازمي، وحسن بن عبد الباري الأهدل، وأحمد بن محمد الشوكاني، كلّهم عن والد الأخير محمد بن علي الشوكاني.

● **(الإرشاد إلى مهمات الإسناد)**: للإمام المحدّث الفقيه الرحّالة كوكب الديار الهندية شيخ الإسلام العالم المجتهد **أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي**، المتوفى عام ستة وسبعين ومئة وألف، رحمه الله تعالى، وله: (إنسان العين في مشايخ الحرمين)، و(الانتباه في سلاسل أولياء الله)، يروي عن أبي طاهر الكوراني، ومحمد وفد الله المكي، وتاج الدين القلعي، وسالم بن عبد الله البصري.

يروي الشيخ جميع ما له من الأثبات والمؤلّفات عن العلاّمة عبد الرحمن المباركفوري، والعلاّمة حسن خان الطونكي، كلاهما عن العلاّمة السيد نذير

حسين المحدّث الدهلوي، عن الإمام محمد إسحاق الدهلوي، عن الإمام عبد العزيز الدهلوي، عنه.

● **(الإمداد بمعرفة علو الإسناد)**: لمسند الحجاز أمير المؤمنين في الحديث الحافظ **عبد الله بن محمد بن سالم البصري المكي الشافعي**، المتوفّى عام أربعة وثلاثين ومئة وألف، رحمه الله تعالى، جمعه ابنه العلاَّمة **سالم بن عبد الله البصري**، وأعلى شيوخه إسناداً محمد بن العلاء البابلي، وزين الدين الطبري، وعلي بن عبد القادر الطبري.

يرويه الشيخ بإسناده إلى أحمد بن عبد الرحيم الإمام، عن مخرّجه سالم بن عبد الله البصري، عنه.

● **(الأَمَم لإيقاظ الهمم)**: للعلاَّمة المحدّث المسند البرهان الملا **إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكوراني الكردي المدني الشافعي**، المتوفى عام واحد ومئة وألف، رحمه الله تعالى، من كبار شيوخه: أحمد القشاشي، والشمس البابلي، والنجم الغزي.

يرويه الشيخ بإسناده إلى ولي الله الدهلوي، عن أبي طاهر الكردي عنه.

● **(بغية الطالبين لبيان الأشياخ المحقّقين المدقّقين)**: للإمام العلاَّمة المحدّث المسند **أبي العباس أحمد بن محمد النخلي المكي الشافعي**، المتوفى عام ثلاثين ومئة وألف، رحمه الله تعالى، يروي عالياً عن الحافظ الشمس محمد بن علاء الدين البابلي، ومحمد علي بن علان الصديقي المكي، وزين العابدين الطبري.

يرويه الشيخ بإسناده إلى أحمد بن عبد الرحيم، عن أبي طاهر الكردي عنه.

● **(العُجالة النافعة)**: للإمام المحدّث سراج الهند **عبد العزيز بن أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي**، المتوفى عام تسعة وثلاثين ومئتين وألف، رحمه الله تعالى، يروي عن والده الإمام، والشيخ محمد عاشق الفلتي، والشيخ محمد أمين الكشميري الدهلوي.

يروي الشيخ جميع ما له من الأثبات والمؤلَّفات عن العلاَّمة عبد الرحمن المباركفوري، والعلاَّمة حيدر حسن خان الطونكي، كلاهما عن العلاَّمة السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي، عن الإمام محمد إسحاق الدهلوي، عنه.

● **(كفاية المستطلع ونهاية المطّلع)**: للعلاَّمة المحدّث أبي الأسرار **حسن بن علي بن محمد بن عمر العجيمي المكي الحنفي**، المتوفى عام ثلاثة عشر ومئة وألف، رحمه الله تعالى، جمعه تلميذُه تاج الدين بن أحمد الدهّان المكي، روى عن أبي مهدي الثعالبي، وعلي بن عبد القادر الطبري، وأخيه زين العابدين، وأخواتهما قريش وزين الشرف ومباركة، وأحمد القشاشي، وأحمد بن العجل الزبيدي، والنجم الغزي، وجماعة.

يرويه الشيخ بأسانيده إلى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، عن أبي طاهر الكردي، عنه.

● **(المجمع المؤسس للمعجم المفهرس)**: للإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث **أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري الشافعي**،

المتوفى عام اثنين وخمسين وثمانمئة، رحمه الله تعالى، يروي عن أكثر من ستمئة شيخ وشيخة، من أعلاهم إسناداً: الحافظ زين الدين العراقي، والبرهان التنوخي، وعائشة بنت ابن عبد الهادي.

يرويه الشيخ بإسناده إلى إبراهيم الكوراني، عن نجم الدين الغزي، عن والده بدر الدين الغزي، عن زكريا بن محمد الأنصاري، عن الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

● **(المَنْجَم في المُعْجَم)**: للعلاَّمة الإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المصري الشافعي، المتوفى عام أحد عشر وتسعمئة، رحمه الله تعالى، روى عن نحو خمسمئة شيخ، أعلاهم إسناداً: مسند الدنيا محمد بن مقبل الحلبي.

يرويه الشيخ بإسناده إلى بدر الدين الغزي، عن الحافظ جلال الدين السيوطي.

● **(النَّفَسُ اليماني)**: واسمه الكامل **(النفس اليماني والروح الريحاني في إجازة القضاة الثلاثة بني الشوكاني)** للإمام المحدّث المفتي السيد وجيه الدين عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى بن عمر الأهدل الزبيدي اليمني الشافعي، المتوفى عام خمسين ومئتين وألف، يروي عالياً عن والده الإمام سليمان بن يحيى الأهدل، وعبد القادر بن خليل كدك زاده، والحافظ المرتضى الزبيدي، وجمع من المسندين الأعلام.

يرويه الشيخ عن العلاَّمة حيدر حسن خان الطونكي، عن العلاّمة

المحدّث حسين بن محمد الأنصاري، عن الإمام محمد بن ناصر الحازمي، والقاضي أحمد بن محمد بن علي الشوكاني، وحسن بن عبد الباري الأهدل، كلهم عنه، (ح) ويرويه عن العلاّمة عبد الرحمن المباركفوري، عن العلاّمة السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي، عنه.

● **(اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني)**: للإمام المحدّث الفقيه حامل لواء أهل الرواية والأثر في بلدة سيد البشر **عبد الغني بن أبي سعيد المجددي الدهلوي المدني الحنفي**، المتوفى عام ستة وتسعين ومئتين وألف، رحمه الله تعالى، جمعه تلميذُه الشيخ محسن بن يحيى الترهتي، يروي عالياً عن والده أبي سعيد المجددي، والإمام محمد إسحاق الدهلوي، وحافظ الحجاز محمد عابد السندي، وأبي زاهد إسماعيل بن إدريس الإسلامبولي.

يرويه الشيخ عن العلاّمة عبد الرحمن المباركفوري، عن محمد بن عبد العزيز الجعفري، عنه.

توجيهات لطالب الحديث:

وأختم هذا الفصل بالفِقْرة الأخيرة من كتاب الشيخ (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف)، والتي أودعها بعضَ التوجيهات، والتجارب الدراسية، لطلبة الحديث النبوي الشريف، وهي توجيهاتٌ رشيدةٌ قيّمة مستقاة من نبع النبوّة العذب الفيّاض، الذي تتجلّى مقاصده في تهذيب الأخلاق، والتحلّي بالفضائل، وتجنّب الرذائل والذمائم، وكون المسلم المتخرّج في هذه المدرسة النبوية التربوية مثلاً كاملاً، وأسوةً مرموقةً في السموّ

الخلقي، والسلوك الإنساني مقتبساً في كل ذلك عن مشكاة النبوة، والتعليمات النبوية، يقول:

«تجب العناية الخاصة بالاستفادة من كتب الحديث ودواوين السنّة في هذا الجانب (تزكيةُ النفس، وتهذيبُ الأخلاق، واتّباع الأسوة النبوية، والتعليمات والآداب التي جاءت في كتب الحديث ودواوين السنّة)، والحرص والجهد لكون طالب الحديث ـ فضلاً عن معلّمه، والمؤلف والمحقق في موضوعه ـ أسوة للناس في الأخلاق والمعاملات والسلوك، والعِشرة، مثبتاً ومبرهناً على تأثير علم الحديث، والاشتغال بالسنّة والسيرة في حياته وسلوكه، ومعاملاته ومظاهره، فيكون ذلك محرّضاً للناس (خصوصاً في بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين، أو بلد ومجتمع تسود فيه الحضارة الغربية) على التأمل في أسباب هذه الميزة والاتساء، ودراسة الإسلام، والسيرة النبوية، فتكون خير دعوة، وأقوى استلفات من غير دعاية وإشاعة.

ويحسن تحقيق هذا الغرض ويساعد عليه العناية بدراسة الكتب الصحيحة المأثورة التي عني فيها بهذا الموضوع بصفة خاصة.

من أهمها كتاب (الأدب المفرد) لأمير المؤمنين في الحديث الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب (الجامع الصحيح)، والثاني كتب (الترغيب والترهيب) للحافظ الكبير زكي الدين عبد العظيم أبي محمد المنذري الدمشقي (٥٨١ـ٦٥٦هـ).

والثالث (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين) للإمام الحافظ

الفقيه أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) شارح (صحيح مسلم)»[١].

* * *

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٨٣. ويقول: يلحق بهذه القائمة ـ مع اعتذار وتواضع ـ كتاب (تهذيب الأخلاق) لوالد صاحب هذه الرسالة العلاّمة عبد الحي بن فخر الدين الحسني رحمه الله (ت١٣٤١هـ).

الفصل الثالث

الفقه

مني الفقهُ الإسلاميُّ في الهند بالجمود والتزمّت والتقليد طوال القرون، ولم يكن إسهامُ علمائها في هذا المجال في الغالب إلاّ شرحاً لكتابٍ في الفقه، أو تعليقاً عليه، أو اختصاراً له، حتى جاء الإمام **أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي**، فقضى على هذا الجمود، وهذا التقليد المشين، ودعا إلى التحقيق والاجتهاد، ولكن لم يستجب لدعوته إلاّ القلائل، حتى أُنشئت دار العلوم لندوة العلماء، التي تبنّت مذهبه في تحقيق المسائل الفقهية، والبعد عن التقليد، وكان من بركة ندوة العلماء ونشاط حركتها أنْ عمَّ اتجاهُ التحقيق والاجتهاد في المسائل الفقهية في الهند في العصر الحديث.

لقد امتازت طريقةُ علماء الندوة في الدراسات الفقهية، وتعليم الشريعة الإسلامية بجمع الفقه مع الحديث الشريف، فإنَّهم يعلّمون المسائل الفقهية أولاً بالإجمال، وذلك عن طريق الكتب المؤلَّفة في الفقه لمعرفة الأحكام العامَّة، ثم يتوسَّعون فيه عن طريق تدريس كتب الصحاح للحديث بالتفصيل، وبخاصة الصحاح الست، بالإضافة إلى (الموطأ) للإمام مالك رحمه الله، ويذكرون استنباط السلف للأحكام الشرعية من أحاديثها، ويكون تعليمُهم

للحديث الشريف بالإحاطة بجميع الأحاديث التي تشتمل عليها هذه الكتب، وبذلك تصبح معرفتُهم للفقه الإسلامي مدعمةً بمعرفة كلام رسول الله ﷺ وسنته الشريفة في الأحوال المتعلّقة بأحكام الشريعة الإسلامية المطهَّرة، ويصبِحُ فقههم للشريعة الإسلامية فقهاً للحديث الشريف، لا فقهاً للأحكام الشرعية المجرّدة وحدها، ولكونهم متبعين لفقه الإمام أبي حنيفة، يهتمُّون بالبحث في استنباطاته بشكل واسع مع تقديرٍ لاستنباطات المذاهب الفقهية الأخرى، ويستعينون ببعضها حينما تُشْكِلُ عليهم مسألة مما جاء في استنباط مذهبهم المختار.

درس الشيخ الندوي الفقه على هذا المنهج على كبار الفقهاء، حتى أصبحَ مضطلعاً من أصوله، خبيراً بمذاهبه، ونشأتها وتطوّرها، ومتقناً لفروعه ومسائله وفق المذهب الحنفي، غيرَ متشدّد فيه، ولا متعصّب له، ولكنّه لم يتّخذه موضوعاً لتدريسه وتأليفه، وذلك بمقتضى إقباله على الدعوة إلى الله تعالى وتربية الطالبين، فإنَّه لا ينجحُ في هذا المجال إلاّ مَن كان بعيداً عن الإفتاء والانشغال بالفروع والجزئيات، يقولُ شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي: «والذي يبدو لي من نهج الشيخ في كتاباته أنَّه لم يكن يُعنى بالاجتهاد الفقهي كثيراً، ووكله إلى المتبحّرين فيه، والمؤهّلين للاجتهاد بشروطه وضوابطه، وحسب عوام الناس أن يسيروا وفق مذاهبهم التي نشؤوا عليها، وتلقّوها من علماء بلدانهم.

ولذا أجد فارقاً بينه وبين الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، فقد كان داعيةً من الطراز الأول، وكانت الدعوةُ لحمته وسداه، ولكنّه دخل في الفقه من باب

الدعوة، وأثار قضايا فقهية، جلبت عليه سخطَ كثيرين ممن لا يرون رأيه، وما أكثرهم، كما رأينا ذلك في رؤيته لعدد من القضايا، مثل قضايا المرأة (دية المرأة مثلاً)، وقضايا الدولة(الجهاد هل هو هجومي أو دفاعي)، (الشورى أهي معلمة أم ملزمة). . . إلخ. وقضايا المجتمع مثل: الغناء والموسيقا. . . إلخ.

وقد أدخلت هذه النظرات الفقهية الشيخ الغزالي في معارك مع مخالفيه كما حدث بعد كتابه (السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).

والشيخ الندوي ـ والله أعلم ـ لا يريدُ أن يدخلَ في معارك من هذا النوع، بل هو يريدُ أن يجمعَ القلوبَ أولاً على صدق الإيمان، وإخلاص العبادة، واستقامة الأخلاق، وحُسن التعامل مع الله والناس.

ومشربه هنا قريبٌ من مشرب الشيخ حسن البنا رحمه الله، فقد كان حريصاً أن يجمع ولا يفرّق، وأن يبني ولا يهدم، وقال في أحد أصوله العشرين الشهيرة: «لكلِّ مسلمٍ لم يبالغ درجةَ النظرِ في الأحكام الشرعية أن يتبعَ إماماً من أئمة الدين ويحسُنُ به أن يتعرَّف على أدلة إمامه ما استطاعَ، وأن يتقبَّلَ كلَّ إرشادٍ مصحوبٍ بالدليل، متى صحَّ عنده صلاحُ مَن أرشده وكفايته، وأن يستكملَ نقصه العلمي إنْ كانَ من أهلِ العلم حتى يبلغ درجة النظر»[1].

قلتُ: أصاب شيخنا القرضاوي، فقد كان الشيخ الندوي من أحرص الناس على جمع الكلمة، ومن ثَمَّ لم يدخل في كثير من القضايا الفقهية، وإن

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٧٢ ـ ١٧٣.

كان أحياناً يفتي أصحابه، وظلَّ طول حياته متّبعاً لمذهب أبي حنيفة رحمه الله، لم يتركه إلاّ إذا رأى دليلاً واضحاً خلافه، فمثلاً كان يرى الجمع في السفر بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء تقديماً وتأخيراً، ولكن لم يكن يدعو إلى رأيه، وإذا كان معه غيره من العلماء آثر أن يتّبعه، وقد صحبته في رحلته إلى بخارى في جماعة من أهل العلم على رأسهم شيخنا العلاّمة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، وحانت صلاة المغرب ونحن في طريقنا إلى سمرقند، فأمرني أن أسأل الشيخ: أين نصلّي المغرب، فقال الشيخ: **نؤخّرها ونجمع بينها وبين العشاء في مقرّنا في سمرقند**، فوافقه الشيخ الندوي على الجمع.

وسأقوم فيما يلي بدراسة آرائه الفقهية التي تلقي الضوءَ على تقدّمه في هذه الصناعة:

الاجتهاد والمجتهدون في القرنين الثاني والثالث:

يقول الشيخ الندوي وهو يتحدَّث عن تاريخ الاجتهاد في الإسلام: «خرج الإسلام من الجزيرة العربية ـ حيث الحياة بسيطة، والمدنية محدودة ـ إلى بلاد خصبة واسعة، ذات المدنيات القديمة، والآفاق الواسعة، كالشام والعراق، ومصر، وإيران، وقد توسّعت الحياة الاجتماعية، وتعقَّد نظامُ التجارةِ والإدارة، والزراعة والري، والجباية والمحاصيل، وكانت مهمةُ تطبيق أصول الإسلام على هذه المسائل والحوادث، وإخضاع الحياة المدنية لروح الإسلام وأسسه يطلبُ ذكاءً فائقاً، وفهماً دقيقاً، واطّلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه، وإلماماً كافياً بعلم النفس، والطبيعة

البشرية، وخبرة واسعة بطبقات الأمة ونواحي الحياة العامة، يضافُ إلى ذلك الاطّلاع الواسع على الثروة الدينية الفقهية في الكتاب والسنّة، والوقوف على مصادر العلم الأولى وأصول التشريع الإسلامي الأساسية، مع الرسوخ والتضلّع في اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ونطق بها الرسول ﷺ.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة، وكان من التيسير أن قيّض لهذه المهمة الجليلة رجالاً يعدّون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية فقهاً وأمانة، وإخلاصاً وكفاية، وكان منهم هؤلاء الأئمة الأربعة (أبو حنيفة (١٥٠هـ)، ومالك (ت١٧٩)، والشافعي (ت٢٠٤)، وأحمد بن حنبل (ت٢٤١)) الذين قُدِّر لفقههم أن يعيشَ إلى هذا اليوم، ويخضع له العالم الإسلامي، وقد فاق هؤلاء في فهمهم الدقيق الواسع، ووقفوا حياتهم، واستعملوا مواهبهم بسخاء في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التي لا تعادلها ذخيرةٌ فقهية في العالم، والتي لا تزالُ مرجعاً ومادةً واسعةً للتشريع لهذا العصر، وقد توفّر هؤلاء على هذه الخدمة، التي تدينُ لها الأمة، ويدينُ لها العالم، وآثروها على كلّ راحة ولذة، وجاه ومنصب في الحياة، وقد أنتجَ كلٌّ واحدٍ منهم ثروةً علميةً، وخلَّفَ تراثاً فقهيّاً ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر، وقد رزق اللهُ هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء قاموا بعبئه، وزادوا في ثروته، وظلّوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه حتى استطاع أن يسايرَ العصور بعد عصرهم والبلاد غير بلادهم»[١].

---

(١) الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية، ص٩ ـ ١١.

فضل الاجتهاد في حياة الأمة الإسلامية:

ويقول الشيخ وهو يلقي الضوء على فضل الاجتهاد والمجتهدين: «لقد كان وجودُ هؤلاء الأئمة المجتهدين والفقهاء المشرّعين في قرون الإسلام الأولى برهاناً ساطعاً على هذه الأمة للبقاء والانتشار، وقد وجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدةُ الأمة العملية في اجتماعها ومعاملاتها وسياستها المالية، وفي عباداتها وفي نظامها الأسري، وفي الأحوال الشخصية، وهذه الوحدةُ عاملٌ مهمٌ من عوامل الوحدة الدينية والفكرية، وبذلك أَمِنَت هذه الأمةُ من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أصيبت بها الأمم والديانات في عهدها الأول، والتي تدرّجت بها إلى حياة لا دينية تسيرُ فيها على النظم اللادينية، أو تقتبس التشريع الأجنبي الثائر على روح دينها ومبادئه، وألجأتها إلى التمسك بمبدأ (فصل الدين عن السياسة) الذي تمسَّكت به أوربة المسيحية لظروفها الخاصة وتاريخها الخاص، ولوضع الديانة المسيحية المختص بها.

فإذا كان العلماء الأقدمون تكاسلوا في الاجتهاد في العصور الأولى، وآثروا الراحة على العمل والكدح، أو ضعف إنتاجهم وجمدت قريحتهم التجأت الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الرومية والفارسية، وتطبق القانون الروماني والإيراني على المملكة الإسلامية، لأنَّ الجهاز الإداري لا يمكن إيقافه عن السير وتعطيله عن الحركة في انتظار التشريع، وكذلك لا يمكن تأجيلُ المعاملات التجارية والفرائض الدينية في انتظار تأمّلات العلماء والوصول إلى نتيجة قطعية، فكان ذلك يجرُّ

على هذه الأمة شقاءً طويلاً، لأنّها تحرمُ سعادة القانون الإسلامي، وبركات المجتمع الإسلامي، والسير في ضوء الشريعة الإسلامية والسنّة النبوية، ويكتب عليها أن تعيشَ مسلمةً متدينةً في مساجدها لوقت قصير، وجاهلية أو لا دينية في بيوتها وأسواقها ومحاكمها مدة طويلة، كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرسمية النصرانية وليس عندها تشريع مسيحي، وكما هو واقع ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة، ولا تدين به في التشريع والقانون، وإذا ساغ ذلك في النصرانية التي لا تملك الثروة الدستورية، ولا تلحُّ على تطبيق الدين على الحياة، فإنَّه لا يسوغُ في الإسلام الذي هو دين ودولة، وعقيدة وسياسة، وعبادة واجتماع، فكانت الأمة تجتازُ مرحلةً خطيرةً دقيقةً في حياتها، قد وقفت على مفترق الطرق، وكانت الغلطة الواحدة أو العثرة الخفيفة كافيةً لقطع صلتها عن الحياة الإسلامية، والاجتماع، والنظم الإسلامية، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس للدين فيها إلا نصيب ضئيل.

وكذلك الأحكام التفصيلية في العبادات وما يتخلّلها من قضايا ونوازل، وأخطاء ونقائص، بحكم الفطرة البشرية، وما جُبِلت عليه من سهو ونسيان وغفلة، أو ما يعتري المتلبّسين بها المباشرين لها من جهل بالشريعة وما يتفاوتون فيه من علم وثقافة دينية وتربية إسلامية وحدوث عهد بالإسلام أو قدمه، وبيئات عريقة في الإسلام، وبيئات حديثة العهد به أو بيئات مخضرمة، وكلُّ ذلك يتطلَّبُ الجوابَ الحاسم والحل السريع، فهذا قد انصرف عن الصلاةِ وقد سها فيها، وهذا صائم قد احتار في أمره، وهذا يطلبُ فتيا فيما تفرَضُ فيه

الـزكاة ومقدارها ومصارفها، وشأن الحج الفريضة الطويلـة الواسـعة التي تستغرق الوقتَ الطويل والمساحة الواسعة والانتقال من نُسك إلى نُسك، ومن مكان إلى مكان أكثر دقّة وأعظم تعقّداً، وأحوج إلى الإرشاد والحكم الشرعي والسنّة المأثورة والأسوة النبوية، ولا شيء من ذلك يحتمل التأجيلَ أو الإحالةَ على مصادر التشريع الأولى بطريق مباشر لكل من يواجه هذه المشكلة، ويتورّط في غلطة، فكان لا بدّ من وجود أحكام وجزئيات وثروة فقهية ميسورة ميسّرة، ووجود علماء متضلّعين من علوم الشريعة، متهيئين للإرشاد والتوجيه، وبذلك أمن المجتمع الإسلامي من أن يكون في عباداته متحفاً، فيه كل أنواع العبادات وألوان التصرفات والحركات، كما هو الشأن في معابد ديانات كثيرة، ومناسبات دينية شهرية أو سنوية، لا تربط بين المشتركين فيها ـ من أتباع ديانة واحدة ـ وحدة عملية، ولا تغشاها غاشية من سكينة أو صبغة إلـٰهية بخلاف مساجد المسلمين ومراكز الحج والمناسك التي تنخرط في سلك واحد من الوحدة والانسجام، والتشابه والالتحام، وتتجلّى فيها وحدة العقيدة والعبادة، والخضوع لشريعة واحدة، ويرجع الفضل في ذلك إلى أصالة التعاليم الدينية ووحدتها، ثم إلى جهود المحدثين والفقهاء، الذين حفظوا على هذه الأمة الثروة التشريعية، وربطوها بالمنبع الأصيل، والنظام الديني الموحد.

وقد جاء هذا الاجتهاد وتدوين الفقه واستنباط الأحكام الشرعية في أوانه ومكانه، لم يكن سابقاً للزمن، ولا متأخّراً عنه، وذلك ما كانت تقتضيه طبائعُ الأشياء وسنّةُ الكون، وطبيعةُ هذا الدين الإنساني العالمي العام للأزمنة

والأمكنـة، فكان شـيئاً طبيعياً منطقياً كما هو الشأن في نشـوء علم الصرف والنحو، وقواعد اللغة العربية، وعلوم البلاغة والبيان، مؤسساً كل ذلك على كلام العرب الأولين، واستقراء القرآن العربي المبين، وشعر العرب، بل كان تدوين الفقه ألزم من تدوين العلوم العربية لشموله للعرب والعجم، وكلُّ مكلَّفٍ في الإسلام، ولاحتوائه على حياة المسلم كلها، ولصلته الوثيقة بالعقيدة والعبادة، ولأثره في الحياة الأخروية وما يترتَّب عليه من ثواب وعقاب، وسعادة وشقاء، ونجاة وهلاك»[1].

الفقه المقارن:

ويقول الشيخ وهـو يتحدّث عـن الفقـه المقارن ومحاكمـة المذاهـب والاجتهادات في ضوء الكتاب والسنّة: «وقد اقتضى الاختلافُ الفقهي، وتشعّب الآراء والاجتهادات أن يقارَنَ بين المذاهب الفقهية والآراء الاجتهادية في ضوء الكتاب والسنّة بصفة عامة، وفي ضوء الأحاديث الثابتة، والقوية والضعيفة بصفة خاصة، وترجيح مذهب على مذهب، واجتهاد على اجتهاد.

وقد قـام بذلك علمـاء المذاهب المختلفـة ـ كالحنفي، والمالكـي، والشافعي، والحنبلي، وأصحاب الاختصاص في الحديث ـ فألَّفوا كتباً في موضوع (الفقه المقارن) والمحاكمة بين الاجتهادات والمذاهب الفقهية، تجلّت فيها سعة نظرهم، وواسع اطّلاعهم، واستعراضهم الأمين، لا يبرء ذلك

---

(١) المرجع السابق، ص١١ ـ ١٦.

من انحياز أو ميل إلى مذهب خاص، قد يأتي من غير قصد وشعور، ولا يبرأ من ذلك عمل إنساني في أي مجال من مجالات العلم والبحث، والمقارنة والتحقيق، ولكن هذه الكتب ـ في موضوع الفقه المقارن وسرد دلائل المذاهب ومصادرها ـ لا تخلو من فوائد علمية، ومواد دراسية وتحقيقية»[1].

الحاجة إلى الاجتهاد في العصر الراهن:

يقول الشيخ الندوي في حديثه عن الاجتهاد في العصر الحديث وخطورته: «قد كثر الحديثُ في هذا الزمان عن الحاجة إلى الاجتهاد حتى أصبح هتافاً وشعاراً للتقدّمية، ولا شكّ أنّه حاجةُ العصرِ ومن ضرورة هذا الدين الذي يواكب الحياة ويقودها، لا سيما وقد تقدّمت المدنية والصناعة والتجارة

---

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٦٤ ـ ٦٥، ويقول: «من نماذج البحث والمقارنة في هذا الموضوع (فتاوى شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية) وكان يستحقّ أن يسمّى (موسوعة شيخ الإسلام ابن تيمية) بدلاً من (فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)، وهذا من غير أن يكلّف المستفيد من هذا الكتاب الجليل اتّباع كلّ ما جاء فيه من مذاهب وترجيحات وإثباتات. وخيرُ كتابٍ ومصدرٍ للدراسة والاستفادة في الفقه المقارن للطالب المتوسط كتاب (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) للعلاّمة محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٥هـ) في ثمانية أجزاء، من أهم خصائصه استنباط أحكام الفقه من الحديث وكيفية دلالتها عليها، وأقوال مذاهب علماء الأمصار فيها مع بيان مذاهب علماء الصحابة والتابعين، وحجة كلٍّ مع بيان راجحية الحكم في ذلك».

تقدّماً لم يكن يخطر بالبال، وحدثت أساليبُ جديدة، ومعاملات تجارية وعقود تطلب حكماً فقهيّاً مبنيّاً على الأصول الإسلامية وأصول الفقه، وفي ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولكنَّ هؤلاء الذين ينادون بالاجتهاد في المسائل الشرعية والمستحدثات العصرية، من قادة الفكر ورجال الإدارة والسياسة في الأقطار الإسلامية والمتخرّجين من الجامعات الأجنبية في الغرب، والجامعات المدنية في البلاد لم تثبت براعتُهم وذكاؤهم وقوة إرادتهم في مواجهة الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، وشقّ الطريق بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، ومعاملتها كمواد خام يصوغون منها حضارة تتفق مع تعاليم الدين وحاجة العصر وطبيعة الشعوب المسلمة الشرقية، ويركبون منها جهازاً يخدم الغايات التي بعثت لها هذا الأمة، وينير السبيل للشعوب التي وقعت فريسة مادية رعناء، وينفضون عن كل ما يأخذونه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس، لا لزوم له في الاستفادة من هذه العلوم في هذا العصر، إنَّهم لم يقوموا في مجال اختصاصهم بالدور الذي نيطَ بهم، وفي صياغية النظام التربوي صياغة إسلامية حرة ـ وهو عمل يشبه (الاجتهاد) ـ بدورهم القيادي والفكري، ولكن من طبيعة الإنسان القديمة التخلّي عن تبعته، ومطالبة الآخر بالقيام بواجبه ودوره.

ورغماً عن هذه الملاحظة السريعة التي أرجو عدم المؤاخذة عليها، فإنَّ الاجتهاد في المسائل الشرعية والمستحدثات العصرية حقيقةٌ لا غبار عليها، ولا مجالَ للجدال فيها، وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الشريعة أن

يقوموا بدورهم التوجيهي والقيادي في هذا المجال، ويستخدموا هذا الكنز الثمين ـ الذي يسمّى أصولَ الفقه، وليس له نظير في ثروات الأمم والشعوب العلمية ـ في استنباط الأحكام واستخراج المسائل، فقد أصبح من زمان تاريخاً فحسب، يعرف منه طرق المجتهدين الأوائل في استنباط المسائل لا أقل ولا أكثر، ومعلوم أنَّ ساعة الزمان لا يمكن إيقافها ولا تعطيلها ولا إرجاعها إلى الماضي، والإسلام الآن دينُ شعوبٍ ومجتمعاتٍ تعاصر هذه القضايا وتواجهها وجهاً لوجه»[١].

الاجتهاد الجماعي:

وكان الشيخ من الدعاة إلى الاجتهاد الجماعي إذ يقول: «وقد لزم الآن فتح هذا الباب (أي باب الاجتهاد) ولكن بشروطه المبينة في كتب أصول الفقه، ويستحسنُ ألاَّ يكون فردياً (إلاّ إذا اقتضت الضرورة) وأن يكون جماعيّاً وعملاً مجمعيّاً (أكاديميّاً)، وعن تبادل الرأي في أهل الاختصاص والتأمل الطويل، ونخل القضية وغربلتها في ضوء الكتاب والسنّة، واستعراض الثروة الفقهية والأصولية استعراضاً كاملاً، حتى لا يكونَ في ذلك افتئاتٌ أو مؤامرة، أو خضوع لقوة سياسية أو حكومة أنانية»[٢].

حدود الاجتهاد ومجاله:

يقول الشيخ وهو يضع حدود الاجتهاد: «وقد يبدو من كلام بعض

---

(١) الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية، ص٢٤ ـ ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧ ـ ٢٨.

المنادين بضرورة الاجتهاد في الطبقة المثقّفة الثقافة الحديثة، والمتحمّسين من الشباب الجامعي أو بعض ولاة الأمور في البلاد الإسلامية، الدعوة إلى الاجتهاد المطلق في كل قضية، والأخذ بالقيم الغربية والمقاييس العصرية برمّتها، كأنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام، وانقلب المجتمع البشري رأساً على عقب، وفقد كلٌّ ما وصل إليه المجتهدون والفقهاء في العصر الماضي من آراء وحصيلة دراسية، قيمته وغناءه، ولا يتفق وطبيعة هذا العصر وواقع الحياة، وهذه وجهة نظر تغلبُ عليها السطحية والتهور والخضوع الزائد لما نشره الأدب العصري من الدعاية للتطور والتقدمية، وتصوير الزمان تصويراً يخيل للشباب كأنّه ولد من جديد، وليس فيه شيء يشبه ما كان بالأمس، وهو تصوير مؤسس على التخيّل أكثر من الواقع، وعلى تجسيم القضية وتفخيمها بأسلوب عاطفي أكثر من منطقي واقعي»[1].

التدوين الجديد للفقه:

وكان الشيخ يرى أنّ الفقه يجب تدوينه في العصر الحديث من جديد لما يشهده من قضايا جديدة لم يعرفها الفقهاء، وكان لديه مخطط لهذا التدوين الجديد، وكان من تطبيقه (كتاب الفقه الميسّر)، يقول في مقدمته:

«. . . وتراودني فكرةُ وضعِ كتاب في الفقه يلائم سنَّ الطلبة ومداركهم، والبيئة التي يعيشون فيها، والزمنَ الذي ولدوا فيه، وأن أُدخِلَ فيه تعديلات إنْ

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨ـ٢٩.

لم أستطعْ أن أسبكه سبكاً جيداً، وعزمت على هذا على كثرة أشغالي وأسفاري وتنوع مسؤولياتي، فتناولتُ كتاب (نور الإيضاح) للعلاَّمة حسن بن عمار الشرنبلالي الحنفي المصري، وهو كتاب ميسَّر في الفقه الحنفي نال قبولاً وانتشاراً في الزمن الأخير في مدارسنا الدينية التي تسمّى (المدارس العربية) وبدأتُ عملي التأليفي مجدّداً نفسي وجهدي في إطار هذا الكتاب، واستعنتُ بأستاذ من أساتذة دار العلوم وهو الأخ نذر الحفيظ الندوي، ولكن أشغالي التأليفية الأخرى عاقتني عن إتمام هذا العمل مع شدة الحاجة إليه والشعور بأهميته، ولكنني لم تفارقني هذه الفكرة زمناً من الأزمان، فلمّا رأيتُ أنْ لا محيصَ منه عزمتُ على أن أسنده إلى أستاذ من أساتذة الندوة يجمع بين الدراسة الفقهية، والاطّلاع على علم الحديث، والقدرة على الكتابة والتأليف في لغةٍ سهلة وأسلوبٍ مبسَّط»[1].

احترام الأئمة الفقهاء:

ويقول الشيخ في وصيته لطلاب العلم: «يحترز بقدر الإمكان عن الهجوم بعنف وقسوة على مذهب من المذاهب الفقهية، المعمول به من قديم الزمان، والمؤسس على استخراج الأحكام واستنباط الآراء والقضايا من الكتاب والسنّة ـ على اختلاف في الاجتهاد والمعايير ـ بحسن النية والإخلاص، والورع والتقوى، وإجلال الكتاب والسنّة، وإحلالهما المحلَّ الأول، وما كتب الله له من الشيوع والانتشار، والقبول والإقبال، فيكون ذلك جهاداً في

(١) مقدمة الفقه الميسر، ص(د).

غير جهاد، ونضالاً في غير عدو[1].

وبدلاً من ذلك تركز كل عناية وكل ما أنعم الله به من دراسة للكتاب والسنّة، والاستدلال بالقرآن والحديث، وكلّ ما أنعم الله به من قدرةٍ بيانيةٍ، ومقدرةٍ خطابيةٍ، واستدلالية على الردّ على أنواع الشرك والبدع ومظاهرهما الفاشية بصفة خاصة في بلاد دخل فيها الإسلام عن طريق الفاتحين العجم، المغمورة بأكثرية غير إسلامية، خاضعة لتقاليدها وعقائدها وعاداتها، والتي طالت الفترة فيها ـ أحياناً كثيرةً ـ على دراسة الحديث الشريف، وإشاعته ونشره، وتفهيم للقرآن الكريم، واطّلاع على تعليماته عن طريق اللغات الإقليمية والمحلية كما كان شأن الهند.

وليكونوا في ذلك مقتفين لمناهج الإمام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله

---

(١) يرجع في ذلك إلى مطالعة كتاب (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف)، للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي رحمه الله، صاحب (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء)، وليس معنى ذلك المنع من الدراسة المقارنة وعرض المذاهب الفقهية على الحديث والبحث عن دليلها ومؤيّداتها في دواوين السنّة وكتب الحديث المعتمد عليها، كما فعل عدد من كبار العلماء في القديم، إنّما المقصود التجنّب من القيام بحركة شعبية متحمّسة ودعاية سياسية وحزبية قوية ضد المذاهب الفقهية المعمول بها في الجماهير المطبقة للكتاب والسنّة مبدئياً، لأنّها تحدِثُ ردّ فعل وحركة مقاومة ليست في صالح الأمة في عصر وبيئة كثرت فيها التحدّيات والهجمات والأخطار والمؤامرات ضد الوجود الإسلامي، وشرائع الإسلام ومشخصاته.

الدهلوي، وأبنائه وخلفائه، خصوصاً الإمام السيد أحمد الشهيد رحمه الله (ت١٢٤٦هـ)، وصاحبه الإمام الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي رحمه الله وأصحابهما: كالشيخ ولاية علي الصادقفوري البتنوي، وأصحابه وخلفائه، والشيخ كرامة علي الجونفوري الذي اهتدى عن طريقه إلى العقيدة الصحيحة، والعمل بالسنّة عدة ملايين من البشر في بنغلاديش وغيرها»[١].

* * *

---

(١) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص٨٥ ـ ٨٧.

الفصل الرابع

التاريخ

كـان موضوع السـيرة النبويـة أحبَّ المواضيع وآثرَها إلى الشيخ منذ طفولتـه، وانطلاقـاً من دراسـة السيرة، أُعجبَ بالتاريخ الإسلامي كلِّه أيما إعجاب، ذلك لأنَّ أوَّلَ ما دوَّنه الكاتبون المسلمون من وقائع التاريخ وأحداثه، هو أحداث السيرة النبوية، ثم تلا ذلك تدوين الأحداث التي تسلسلت على أثرها إلى يومنا هذا، إذن، فالسيرة النبوية تشكِّل المحورَ الذي تدورُ حوله حركة التدوين لتاريخ الإسلام.

وقوَّى هذا الاهتمام لديه بالتاريخ بيتُه الذي عُني منذ فترةٍ بموضوع السيرة، والتراجم والتاريخ عنايةً كبيرة، يقول:

«لقد أرادَ اللهُ أن أنشأ في بيئةٍ كانت هوايتها التاريخ، وكتابة التراجم والسير، وأن أولدَ في أسرةٍ كان فيها مؤرِّخون ومؤلِّفون، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال، وطبقات الشعراء والأدباء، وسير العظماء، من المصلحين والعلماء والملوك والأمراء، فكان جدي العلاّمة فخر الدين الحسني (ت١٣٢٦هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هذا ببال كثير من العلماء والمؤلّفين في شبه القارة الهندية، وذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تُعْرَف الموسوعات ودوائر المعارف في

الهند حتى في اللغات الأجنبية، فوضع كتاب (مهر جهانتاب)[١] في مجلّدين ضخمين يحتوي المجلد الأول بخط مؤلّفه على ثلاثمئة وألف صفحة بالقطع الكبير، وأكثرها تراجم الطبقات للصوفية والعلماء والشعراء، ووُفِّقَ والدي السيد عبد الحي الحسني (ت١٣٤١هـ) لوضع أكبر كتاب يُعرف في شبه القارة الهندية في تراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف (١٣٤١هـ)، يغطّي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، والمساحة المكانية من (ممرّ خيبر) في الشمال الغربي في الهند إلى خليج (بنغال) في الشرق، ومن (قُلل كشمير) إلى (مالابار) و(كالي كوت) في الجنوب، والأعيان من كلّ طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلّدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة من التراجم[٢]، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خلّكان في الدقّة والأمانة، وتحرّي الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة في تخيّر الأوصاف والنعوت، هذا إلى كتاب آخر اسمه (كل رعنا)[٣] في طبقات شعراء الهند في (أردو) اعتبر من المراجع الرئيسة في تاريخ الشعراء ونقد الشعر، وقُرِّر تدريسُه في عدة جامعات في القارة الهندية، يضاف إليهما كتابه الثالث (ياد أيام)[٤] في تاريخ ولاية

(١) معناه: الشمس المضيئة للعالم.
(٢) وهو كتاب: (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر).
(٣) معناه: الوردة الرشيقة.
(٤) معناه: ذكرى الأيام الماضية.

كجرات وعلمائها وعظمائها وحكوماتها، وهو النموذج العالي لتاريخ بلاد وولايات، يجب أن يحتذى ويقلَّد.

وقد قرأت هذه الكتب في سنّ مبكّرة، لأنها كتب كانت في متناول اليد، وكانت الدوافع إلى قراءتها قوية وطبعية، فحفظت منها الكثير، وقلدت أسلوب المؤلف حين بدأت أشدو في اللغة والأدب، وأمسكتُ القلم للكتابة والإنشاء.

لذلك كلّه كان أدب التراجم والسيَر من أحبِّ الآداب وأخفّها وأسهلها علي، وكانت هوايتي وشغلي الشاغل في سنٍّ قلّما يتيسَّر فيها الكتابة لكثير من هواة الأدب والإنشاء، فبدأت أولِّفُ في تراجم الرجال وسير النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلاً، وبالأردية أكثر، وتكوَّنت من هذه التراجم مكتبةٌ لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين والمجدّدين في الإسلام، والدعاة والمربّين الذين نفع الله بهم الأمة ونهضوا بها في مختلف الأدوار والأمصار»[1].

يقول الشيخ القرضاوي: «وأعظمُ مجالٍ ساهم فيه الشيخُ بقوة وتفوّق، هو التاريخ الإسلامي، ابتداءً بالسيرة النبوية التي هي بدايةُ هذا التاريخ. وهو من الغوّاصين في أعماق التاريخ، المطَّلعين على بواطنه وآفاقه، العارفين بنقاط القوة ونقاط الضعف فيه، وقد وظَّفه في خدمةِ فكرته في إيقاظِ الأمّةِ، وتنبيهها على قيمتها بين الأمم، ورسالتها في العالمين»[2].

---

(١) شخصيات وكتب، ص٦ ـ ٩.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٧٠.

منحًى جديد في التاريخ:

اختار الشيخ منحًى جديداً في التاريخ، فمفهوم التاريخ عنده أوسعُ وأشملُ من المفهوم التقليدي، فهو ليس عَرْضاً للأحداث السياسية وقصص الملوك والسلاطين فحسب، بل هو يشملُ الجوانبَ الاجتماعية، والدينية، والتربوية، والإصلاحية، ويركّزُ على العلماء والمصلحين والمجدّدين الذين غيّروا مجرى التاريخ، ويرى أنَّ منهاج التأليف الذي اتّخذه المؤرّخون قد جنى على فهم تاريخ الإسلام، وجعل كثيراً من الناس يعتقدون أنَّ تاريخَ الإصلاح والكفاح في الإسلام متقطّع يحتوي على ثغرات واسعة وفترات طويلة، يقول: «إنَّ هذه العقيدة الخاطئة التي لم تقم إلاَّ على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ، وعلى منهاج التأليف الذي اتّخذه مع الأسف أكثرُ المؤرّخين، وهو تأليفُ التاريخ الذي يدور حولَ الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها اتصال بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمّسين، وببعض رجال الدعوة إلى سوءِ الظنّ بالإسلام، وضعف إنتاجه، إنها نتيجة خطرة تُضعِفُ الثقةَ بالإسلام، وتُضعِفُ العاطفةَ والإرادةَ للكفاح في هذا العصر، إنَّ القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل لدعوةٍ لا تنبع إلا من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والإخلاص، وسنداً من الكفاح والنجاح»[١].

مصادر التاريخ المهجورة:

واستفاد الشيخ في دراساته التاريخية من مصادر لم يهتدِ إليها كثيرٌ من

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ١٠١ ـ ١٠٢، ط. دار القلم بدمشق.

المؤرّخين المهنيين، ولا تعتبر من مصادر التاريخ في العادة، يقول: «والذنب ليس على المؤرّخين فقط، إنَّ الذنبَ على مَن يقتصر على كتب التاريخ الرسمي والمصطلح، ولا يتعدّى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ، ولا توجد في ركن التاريخ مكتبة، ولكنّها مادة واسعة للتاريخ، ومصدر قيّم من مصادر التاريخ، وهي كتب الأدب، وكتب الدين، والكتب التي دوّن فيها بعضُ العظماءِ اعترافاتهم، وسجّلوا حوادثَ حياتهم وتجاربهم، والكتب التي حفظ فيها بعض التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلماتِ شيوخهم أو مواعظهم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميع الرسائل والخطب التي تدلّ على روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتب التي ألفت في الحسبة، وفي انتقاد المجتمع، وإنكار البدع والمنكرات»[1].

تطبيق المنحى الجديد في كتابة التاريخ:

وقد تجلّى انتهاج الشيخ هذا المنحى من التاريخ في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) و(رجال الفكر والدعوة) وغيرهما من مؤلّفاته، واستلفت الشهيد سيد قطب الأنظار إليه في تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم؟)، يقول: «فإنَّ الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كلّه هي الفهمُ العميق لكلّيات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتبَ من زاوية النظر الإسلامية.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

لقد مضى الأوربيون يؤرّخون للعالم كلّه من زاوية النظر الغربية، متأثّرين بثقافاتهم المادية، وفلسفتهم المادية، ومتأثّرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية ـ شعروا بذلك أم لم يشعروا ـ ومن ثَمَّ وقعت في تاريخهم أخطاء وانحرافات، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة في هذه الحياة، لا يستقيمُ تاريخُ الحياة، ولا يصحُّ تفسيرُ الحوادث والنتائج بدونها، ونتيجة عصبيتهم التي تجعل أوربة في نظرهم هي محور العالم ومركزه دائماً، ولإغفالهم العواملَ الأُخرى التي أثَّرت في تاريخ البشرية، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوربة.

ولقد درجنا نحن على أن نتلقَّف التاريخ من أيدي أوربة كما نتلقَّف كلَّ شيء آخر، نتلقّفه بأخطائه تلك، وهي أخطاء في المنهج بإغفال قيمٍ كثيرةٍ وعوامل كثيرة، وأخطاء في التصور نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية، وأخطاء في النتائج تبعاً للأخطاء المنهجية والتصورية.

وهذا الكتابُ الذي بين يديَّ نموذجٌ للتاريخ الذي ينظر للأمور كلّها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها، ولعلَّ القارئ لم يكن ينتظر من رجل مسلم، واثقٍ بقوّة الروح الإسلامي، متحمّسٍ لردِّ القيادة العالمية إليه، أن يتحدَّثَ عن مؤهّلات القيادة، فلا ينسى بجوار الاستعداد الروحي أن يلحَّ في الاستعداد الصناعي والحربي والتنظيمي العلمي الجديد، وأن يتحدَّث عن الاستقلال التجاري والمالي.

إنَّه الإحساسُ المتناسقُ بكلّ مقوّمات الحياة البشرية، وبهذا الإحساس

المتناسق سار في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء، ومن هنا يعدُّ هذا الكتابُ نموذجاً للتاريخ كما يجب أن يتناوله المسلمون؛ مستقلّين عن التأثّر بالطريقة الأوربية، التي ينتقصها هذا التناسق، وهذه العدالة، وهذا التحقيق»[1].

نموذج من كتاباته التاريخية:

إنَّ كتب الشيخ: (ماذا خسر العالم؟) و(رجال الفكر والدعوة) و(السيرة النبوية)[2] كلُّها حافلة بأمثلة رائعة من كتاباته التاريخية، ولكنَّ النموذجَ الذي اخترته للتقديم هنا ليس من هذه الكتب، وإنما هو من تقديمه لكتاب والده (الهند في العهد الإسلامي)، فقد رأيتُ فيه تلخيصاً لعطاء المسلمين الحضاري في تاريخ الشعوب والأمم، وهو يتحدَّث عن فضل المسلمين على العالم:

«هذه قصة إسبانية التي سمّاها المسلمون بلادَ الأندلس، فلم يكن العالم يعرفُ عنها إلاّ الشيءَ القليل، الذي لا يشرح الصدر، ولا يبعثُ الآمال، فلمَّا دخلت هذه البلاد في ولاية العرب المسلمين، وفي حضانة الإسلام بلفظٍ أصحّ، انتقلت من الظلام إلى النور، ولفظت الأرضُ خزائنها، وصبَّت خيراتها، فكانت أمنيةَ الفاتحين، وأغنيةَ الشعراء والمتغزّلين، وموضوع المؤرّخين والجغرافيين، وكانت جنّةَ الدنيا، وسوقَ العلم، ومثابةَ العلماء، ومنتجعَ

(١) مقدمة ماذا خسر العالم، ص٢٦ ـ ٢٧، ط. دار القلم بدمشق.
(٢) وقد طبعت هذه الكتب في دار القلم بدمشق طبعات فاخرة أنيقة.

الشعراء، وكانت ذات مدرسة في الفقه، والشعر، والأدب، والفلسفة، والفنّ المعماريّ، وطابت فيها مرسية، وبلنسية، وجيّان، وشاطبة، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وكانت فيها مدينة الزهراء، وقصر الحمراء.

وهذه قصّة مصرَ، والشام، والعراق، وإيران، وتركستان بعد الفتح الإسلامي، فكانت كماءٍ راكدٍ قد أَسِنَ، وكانت مطيةً للرومان والفرس، ينعمون بثرواتها وحاصلاتها، وبكدح عَمَلَتِها وفلاَّحيها، ولم تكن هذه البلادُ قبل فتح المسلمين لها ذاتَ طابع خاصّ في المدنية والآداب، والفن، ولم ينبغ فيها علماء، وشعراء، وفقهاء، ومشرّعون وحقوقيّون، ومبدعون، وعمالقة الفكر، وعباقرة الفن، دوَّى اسمهم في الآفاق، وسارت بمصنّفاتهم الرفاق، وردّد العالم صوتهم من أقصاه إلى أقصاه، وسُمع صدى أفكارهم وتحقيقاتهم في الشرق والغرب حتى جاء الإسلام، فكانت البصرة، والكوفة، والموصل، وبغداد في العراق، ودمشق وحلب، وحمص، ونابلس، والقدس الإسلامي، وطرابلس، وحماة في الشام، والفسطاط، والقطائع، والقاهرة، وأسيوط، والمنصورة، ودمياط في مصر، وسمرقند، وبخارى، والشاش[1]، وخوارزم في تركستان، والري، وهمذان، وشيراز، وطوس، وأصفهان في إيران[2]، ظهر فيها نوابغ لا يحصيهم إلا من أحصى حصى البطحاء، ورمال الدهناء.

---

(١) وتسمى الآن طشقند.

(٢) وقد اقتصرنا على قليل من أسماء المدن التي لمعت في التاريخ الإسلامي على سبيل المثال، وإلا فهي أكثر من أن تستقصى.

وهذه قصة شمال إفريقية من ليبية إلى مرّاكش، فلم تُعرَف هذه البلاد إلاّ بالقسوة، والفروسية، وشدة الشكيمة، واستعصاء أهلها على الفاتحين حين ضُرِبَ بأهلها البربر المثلُ في الوحشية، والنخوة، وتشاغلها بالحروب الداخلية، وشدّة تمسّكها بالعادات القديمة، والتقاليد القبلية، لا لغة راقية، ولا حضارة رقيقة، ولا دين معقول، ولا مدينة مشهورة، حتى جاء الإسلام، فكانت فيها مدينة: القيروان، وفاس، ومكناس، ومرّاكش، وباجة، وسوسة، وسرقسطة[1]، وبجاية، وتلمسان، وتونس، أنجبت أفذاذاً في الحديث، والتفسير، والفقه، والتصوف، والشعر، والأدب، والنقد، والتاريخ، والفلسفة، يطول استقصاؤهم، وكانت فيها مدارس كجامع القرويين، وجامع الزيتونة تخرَّج فيها وعلَّم أئمةٌ في العلوم والفنون، وخلّفوا آثاراً باقيةً ما دامت اللغة العربية، والعلوم الإسلامية.

وهذه قصة الهند، فكانت تعيش في عزلةٍ عن العالم، يحجزُها عن العالم المتمدّن البحر في الجنوب والشرق، وسلسلة من الجبال من أكثر جبال العالم ارتفاعاً وطولاً في الشمال والغرب، لا يتمثّلها العالم المتمدّن، ولا يراها إلاّ في مرآة العقائد المتطرّفة، والأساطير الشائعة عن الرياضات المرهقة، والزهد المتبتل، وتعذيب الجسم، والتغلّب على مطالب النفس، وقهرها، والتمسّك بفلسفة وحدة الوجود، والبراعة في بعض العلوم الرياضية، والفلك، واتساع المساحة، وخصب الأرض، ووفور الخيرات، ولا تفتح نافذة ينظر منها العالم

(١) سرقسطة: مدينة بالأندلس.

إلى هذه البلاد المطوية المغلقة إلا عن طريق بعض الفاتحين كالإسكندر المقدوني، أو عن طريق بعض المحققين الباحثين كأبي الريحان البيروني[١] (ت٤٤٠هـ) قد وقفت مدنيتُها على ما كانت عليه قبل آلاف من السنين، ولم تشتغل إليه الحاذقة في زيادة الثروة، وتسهيل الحياة، وترقيق المدنية، وتوسيع الثقافة كما اشتغلت في بلاد مجاورة، فبقيت على ما كانت عليه[٢] من مدنية، وفن، وزراعة، وأساليب للحياة، حتى دخلها المسلمون، فحملوا إليها أجمل ما عندهم من عقيدة توحيد، ومساواة إنسانية، وحقوق عامة لجميع الطبقات، ومدنيّة رقّت حواشيها، وطالت ذيولها، وثقافة شارك في توسيعها وتهذيبها عبقريات عدة شعوب، وتجارب عدة أمم، وإدارة قد مارسوها، وأتقنوها في ميادين شتى، فدخل معهم الهواء الطري النقي، ولقاح الأفكار المباينة، والفنّ الذي نضج واختمر، وتنظيم البلاد وسياسة الحكم التي طالت تجربتهم فيها، والتقت الفروسيةُ التركيةُ، وقوّة الإرادةِ المغولية، والنخوة الأفغانية، مع الشريعة الإسلامية السمحة، والطموح العسكري الإداري، الذي لا يخضع لصعوبة، ولا يؤمن بخطر، ومع طبيعة البلاد والشعوب التي اختلطوا بها، الرقيقة الوادعة، التي تتدفق برسالة الحب والرفق، والغناء المطرب، والشعر

---

(١) يرجع إلى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة).

(٢) اقرأ صفة الهند وما كانت عليه من مدنية وإنتاج وصناعة وثمار وفواكه وأدوات مدنية ومرافق الحياة في منتصف القرن العاشر الهجري، بقلم السلطان بابر التيموري الرسام المصور في كتابه الخالد (تزك بابري)؛ أو اقرأ ترجمته بالعربية في كتابنا (المسلمون في الهند).

الرقيق، والكرم الأصيل، وحبّ التعمُّق في كلِّ علمٍ وفنٍّ، التقى كلُّ ذلك في إنشاء حضارة جديدة تستحقّ أن تسمَّى (الحضارة الهندية الإسلامية) أو (الحكم المغولي الإسلامي الهندي)، وفي تكوين فنٍّ معماريٍّ يستحقّ أن يسمَّى (الفن الإسلامي الهندي)[1].

* * *

(١) من تقديم (الهند في العهد الإسلامي)، ص١٣ ـ ١٥.

اللغات والآداب

كان أبو الحسن رحمه الله متمكِّناً من اللغتين العربية والأردية تمكّناً كبيراً، مجيداً لهما نطقاً وكتابةً، ومضطلعاً من آدابهما، كما إنَّه تعلَّم اللغةَ الفارسية وهو صغير، فأتقنها إتقاناً كبيراً، وكان من مقدرته على اللغة الفارسية وآدابها أن استفاد من مؤلَّفات الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي، والإمام أحمد بن عبد الرحيم وابنه عبد العزيز استفادةً وافيةً، وتعلَّم اللغةَ الإنكليزية حتى استطاعَ الاستفادةَ المباشرةَ من المصادر الإنكليزية. يقول الشيخ يوسف القرضاوي وهو يتحدَّثُ عن مقدرته على اللغة العربية: «واللغة التي يكتب بها الشيخ الندوي، أو يخطب بها: لغة أدبية راقية، سواء قرأت له مؤلَّفاً، أو استمعتَ إليه محاضراً، وأعني اللغة العربية، فأنتَ لا تحسُّ بأنَّ صاحبَ هذا الكتاب أو الرسالة أعجمي المولد والنشأة، وإن كان عربيّ النسب والأصل. ولقد سمعتُ من تلاميذ الشيخ من الهنود: أنَّه يعتبر من الأدباء المعدودين في الأُردية، وهذا ليس بغريب، ولكنَّ الغريبَ حقّاً أن يكونَ كذلك من أدباء العربية، الذين يؤثّرون في الفكر والشعور بكلماتهم الحية والجميلة وعباراتهم الناصعة والأخّاذة»[١].

---

(١) أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٥٨.

وأنا أقوم هنا بعرض مدى تمكّنه من اللغة العربية .

اللغة العربية:

آتاه الله مقدرةً كبيرةً باللغة العربية قلّما يوجد لها نظير بين العجم، وهو مع ذلك على درجةٍ عاليةٍ من البيان الناصع والأدب الرفيع، ومكانة رفيعة من الذوق السامي والحسّ الأدبي، كما يشهد بذلك كلُّ من قرأ كتبه ورسائله، فقد نشأ وتربّى في حجر لغة العرب وأدبها منذ نعومة أظفاره، وألهم الله شقيقَه الأكبر **عبد العلي الحسني** أن يوجّهه هذه الوجهة في وقتٍ لم يكن يُعنى أحدٌ بهذا الأمر، لحكمةٍ يعلمها الله تعالى، ليكونَ همزةَ الوصل بين القارة الهندية وأمة العرب، ليخاطبهم بلسانهم، فيفصحَ كما يفصحون، ويبدعَ كما يبدعون، بل قد يفوق بعض العرب الناشئين في قلب بلاد العرب .

ويدينُ في تربيته الأدبية لشيوخه الذين مرَّ ذكرهم، وبيئة ندوة العلماء الأدبية، وواصل الشيخ استفادته في الأدب العربي من شيوخه حتى بعد تخرّجه، وكان يرجعُ إلى شيخه **محمد تقي الدين الهلالي** في المعضلات اللغوية والنحوية حين كان مشغولاً بإكمال الجزء الثامن الأخير من كتاب والده (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، فيجيبه الشيخ بالجواب الكافي، والبيان الشافي، وهنا بعض أمثلته :

كتب الشيخ الهلالي في ١/ ١١/ ١٣٨٧هـ جواباً عن بعض أسئلته : «إذا كنّا في اليوم الرابع من شعبان نقول : كُتِبَ هذا الكتابُ لأربعٍ خلونَ من شعبان، لأنَّ المقصودَ بالأربع الليالي، لا اليوم المصطلح عليه، وهو أربع وعشرون

ساعة، وإذا كنا في اليوم السابع والعشرين نقول: كتب لليلتين بقيتا من شهر كذا وكذا، ولا نقول لثلاث؛ لأن الشهر تسع وعشرون ليلة، والدليل على ذلك ما في (الصحيحين): أنَّ النبيَّ ﷺ آلى من نسائه فبقي في المشربةِ تسعةً وعشرين يوماً، فقيل له في ذلك، فقال: الشهر تسعٌ وعشرون يوماً، وهذا هو المحقّق في الشهر، واليوم الثلاثون مشكوك فيه.

أما اللفظ الذي يوصف به من كان بين السِّمَن والنحافة كما كان أخوك الدكتور عبد العلي رحمه الله، فقال ابن سيده في (المخصص) (١/ ٨٧) ما نصّه: الضربُ من الرجالِ: الخفيفُ اللحم. وإذا كان الرجلُ ليس بالغليظ ولا بالخفيف فهو صدعٌ، وكلُّ وسطٍ من الرجال والظباء صدعٌ. وقال الزوزني عند قول طرفة ابن العبد:

أنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خِشَاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

الضَّرْبُ: الرجل الخفيف اللحم، يقول: أنا الضرب الذي عرفتموه، والعرب تتمدَّحُ بخفّة اللحم، لأنَّ كثرته داعية إلى الكسل والثقل، وهما يمنعان من الإسراع في رفع الملمّات، وكشف المهمّات، ثم قال: وأنا دخَّال في الأمور بخفة وسرعة، وشبه تيقظه وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحيةِ وشدة توقده».

ويقال للرجل الخفيف اللحم أيضاً ممشوقَ القامةِ، والذي ينطبق على سؤالك انطباقاً تامّاً هو (الصَّدْعُ) بفتح أوله وسكون ثانيه ويحرك، ومثل هذا في

كتب اللغة الأخرى[1].

وكتب إليه في ٢/ ٢/ ١٣٨٨هـ جواباً عن أسئلة أخرى: «أما سؤالكم عن الطير المناسيب فلا جواب لي عنه، وقد راجعتُ كتب اللغة فلم أحصل على شيء، فإن لم يكن هنالك تحريف في لفظ المناسيب فلعلّها كلمة من المولد.

وأما رمي البندق فدونك الجواب: قال البخاري في كاتب الصيد في صحيحه: باب صيد المِعْرَاض، وقال ابن عمر في المقتولة بالبندقة: تلك الموقوذة، وقال أيضاً: باب الخذف والبندقة. قال الكرماني في شرحه (البندقة) طينةٌ مدوّرةٌ مجفّفة يرمى بها عن الجُلاهِق وهو بضم الجيم وتخفيف اللام، وكسر الهاء، قوس البندقة.

وفي نيل الأوطار (٨/ ١٤٣) حديث مرسَل مرفوعٌ جاء فيه: «ولا تأكل من البندقة إلا ما ذكّت» انظر الجلاهق في كتب اللغة، وهو معرَّب من الفارسية، وقد تبيَّن أنَّ البندقةَ كرةٌ صغيرةٌ من طينٍ مجفَّفٍ يُرمى بها، لها قوسٌ خاصة بها.

وأما السؤال عن الجزء الذي يلي الحنك وهو ما تحت الذقن من الإنسان وغيره، فإنّه يسمَّى النحر، قالت عائشة رضي الله عنها: توفّي رسول الله ﷺ بين سَحَري ونحري، السَّحَر: الرئة، والنحر هو موضع القلادة من العنق، ويسمّى المنحر أيضاً، وموضع الذبح من الطير وغيرها من الحيوان يسمى الحلقوم،

---

(١) رسائل الأعلام، ص٢١ ـ ٢٢.

وهو الذي يجري فيه النفَس، ويتصل به المريء، وهو الذي يجري فيه الطعام والشراب.

والوَدَجان ـ بفتح الواو والدال ـ: عرقان يكتنفان الحلقوم، ولذلك يقول الفقهاء في أكمل تعاريفهم للذكاة: هي قطعُ الحلقوم والمريء والوَدَجين، وقال صاحبُ (اللسان): المذبح: هو موضع الذبح من الحلقوم، وعسى أن يكونَ هذا البيانُ كافياً شافياً[1].

وكتب إليه في ٩ شعبان (١٣٩٥هـ): «كلُّ مَن خاطب ما لا يعقل من الحيوان، ونزَّله منزلةَ العاقلِ جازَ له في خطابه وجهان:

أن يخاطبه بضمائر العقلاء، وإذا تحدّث عنه يستعمل ضمير العقلاء، وبذلك جاء التنزيلُ، ومنه آيةُ النمل، قال البيضاوي: شبه ذلك لمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولذلك أجروا مجراهم. ومنه قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم في خطاب الأصنام ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٣]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ومن ذلك قوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. . . إلى غير ذلك.

ويجوزُ أن يخاطَبَ جميعُ ما لا يَعْقِلُ بضميرِ جمع المؤنّث كقوله تعالى: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، وقال الشاعر:

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤ ـ ٢٥.

أَسِرْبَ القَطَا هَلْ مَنْ يُعِيْرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيْرُ
فَجَاوَبْنَنِي سِرْبُ القَطَا إذ مَرَرْنَ بي ألا كُلُّنَا يَا مُسْتَعِيْرُ مُعِيْرُ
وأَيُّ قَطَاةٍ لَمْ تُعِرْكَ جَنَاحَهَا فَعَاشَتْ بِذُلٍّ والجَنَاحُ كَسِيْرُ

وهذا هو القياس، ولا يخرج عنه إلاّ عند تنزيلهن منزلةَ العقلاء لمناسبة من الكلام والفهم من قصة النملة، ومن السجود في الشمس والقمر والكواكب، ويقاس على ذلك(١).

وكان من نتيجة اهتمامه باللغة العربية والتمكّن من أساليبها أنَّ مؤلّفاتِه ورسائلَه نالت قبولاً منقطع النظير، من دون أن يلمس فيه أحد شيئاً من العجمة، بل إنَّ الكتّاب العرب الأقحاح اعترفوا بفضل أسلوبه ولغته الأدبية، يقول الشيخ القرضاوي:

«ولقد قرأنا الرسائل الأولى للشيخ الندوي التي اصطحبها معه حينما زارنا في القاهرة عام (١٩٥١م)، ومنها: (من العالم إلى جزيرة العرب)، و(من جزيرة العرب إلى العالم)، و(معقل الإنسانية) (دعوتان متنافستان)، (بين الصورة والحقيقة)، (بين الهداية والجباية). وغيرها، فوجدنا فيها نفحات أدبية جديدة في شذاها وفحواها، حتى علّق الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ على تلك الرسالة بقوله: «هذا الدينُ لا يخدمُه إلاّ نفسٌ شاعرةٌ محلّقةٌ، أما النفوسُ البليدةُ المطموسةُ فلا حظَّ له فيها ولا حظَّ لها فيه!».

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

فقد كانت هذه الرسائل نثراً فيه روحُ الشعر، وعبقُ الشعر. وقرأنا بعدها مقالة: (اسمعي يا مصر).. ثم (اسمعي يا سورية)، ثم (اسمعي يا زهرة الصحراء)، ثم (اسمعي يا إيران)... وكلّها قطرات من الأدب المُصفّى.

وقرأنا ما كتبه في مجلة (المسلمون) الشهرية المصرية، التي كان يصدرها الداعية المعروف الدكتور سعيد رمضان: ما كتبه من قصص رائع ومشوق عن حركة الدعوة والجهاد، التي قام بها البطل المجاهد **أحمد بن عرفان الشهيد**، وما كتبه من مقالات ضمّنها كتابةُ الفريد (الطريق إلى المدينة) الذي قدّمه أديبُ العربية الأستاذ **علي الطنطاوي** ـ رحمه الله ـ، وقال في مقدّمته: يا أخي الأستاذ أبا الحسن! لقد كدتُ أفقدُ ثقتي بالأدب، حينَ لم أعد أجدُ عند الأدباء هذه النغمة العلوية، التي غنى بها الشعراء، من لدن الشريف الرضي إلى البُرَعي، فلمّا قرأتُ كتابك وجدتها، في نثرٍ هو الشعرُ، إلاّ أنه بغير نظام»[1]. ولا غرو أن رأيناه يحفظ الكثيرُ والكثيرَ من شعر إقبال، وقد ترجمَ روائعَ منه إلى العربية، وصاغه نثراً هو أقرب إلى الشعر من بعض من ترجموا قصائد لإقبال شعراً.

ويقول **الطنطاوي** في تقديمه لكتاب (المسلمون في الهند) للشيخ الندوي: «ولقد كنتُ أعجبُ حينَ أقرأ لأبي الحسن، فأجد لرجلٍ من الهند هذا الأسلوبَ البليغ، وهذه الأصالةَ وهذا الطبعَ، ثم زال العجبُ لمّا ظهر السبب، وعلمتُ أنَّ أبا الحسن عربي صريح، صحيح النسب، كالأصبهاني مؤلّف الأغاني، والأبيوردي الشاعر، وهما قرشيان أمويان، والفيروزآبادي صاحب

---

(١) الطريق إلى المدينة، ص١٢، طبع دار القلم بدمشق.

القاموس، وإنَّ خبر عربيته متواترٌ مستفيضٌ في الهند، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قلَّ نظيره في هذه الأيام.. وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية حتى يكونَ إماماً فيها، في اللغة والنحو، والصرف والاشتقاق، وفي سعة الرواية، بل إنَّ أكثرَ علماء العربية كانوا في الواقع من غير العرب، ولكن من النادر أن يكونَ فيهم من له هذا الذوق الأدبي الذي نعرفه لأبي الحسن، فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب لثبتت بأصالة الأدب»[1].

اهتزازه للكلام الرفيع:

كان الشيخ مطبوعاً على تذوّق الكلام الرفيع، وكان يملك حسّاً أدبيّاً مرهفاً، يهتزُّ لقطعة أدبية جميلة في النثر أو الشعر، وقد صحبته في بمباي، لعلَّه عام (١٩٨٩م)، وهو يؤلِّفُ كتابه (المرتضى) فدعاني مرّةً وهو يقرأ قطعة من كتاب (الفاروق) للعلاَّمة شبلي النعماني ويهتزُّ له، فلمّا أتيته أعادها عليَّ بصوت يعلوه الإعجاب، وقال: وأنَّى لأحدٍ أن يوازي شبليّاً في الكتابة والإنشاء.

ويقول الأستاذ **عبد القدوس أبو صالح** وهو يتحدَّث عن تذوّق الشيخ للشعر: «وكان يهتز للشعر ويطرب له، وكان يحفظ كثيراً من شعر إقبال الذي ألَّف كتاباً عن روائعه، وعندما استمعَ في أحد مؤتمرات الرابطة في إستانبول إلى قصيدة لأحدِ كبار شعراء الرابطة وهو الدكتور عدنان النحوي ـ وكان الشاعرُ سمّاها (ملحمة القسطنطينية) ـ علّق الشيخ عليها بقوله: «كنتُ أظنُّ أنَّ الشعر العربيّ قد دالت دولتُه، ولكنَّ هذه القصيدة أكّدت لي أنه ما يزال بخير»..

---

(١) ص١٦ ـ ١٧.

وعندما أقمنا في مؤتمر آخر أمسية شعرية أو (عصرية) شعرية في غابة السلطان محمد الفاتح في ضواحي إستانبول كان من جملة شعراء الأمسية الشاعر المبدع الدكتور عبد الرحمن العشماوي، وكانت قصيدتُه بعنوان (حُداء موكبِ الهجرة) وقد أثَّرت القصيدة بمعناها ومبناها في وجدان الشيخ الندوي، وزاد في تأثيرها إلقاء العشماوي المتميّز، وصوته الجهوري المعبّر، الذي كان يتردّد في جنبات الغابة، وما إن انتهى الشاعر من إنشاد قصيدته حتى هنَّأه الشيخُ الندويُّ ودعا له قائلاً: «أنتَ سيف من سيوف الله»»[1].

أسلوبه الأدبي:

وهب الله تعالى الشيخَ أبا الحسن أسلوباً أدبيّاً رفيعاً، جمع بين عقل المفكّر وروح الشاعر، وبين فكر العالم وقلب الفنان، وهي معادلة صعبة قلَّما تتحقّق في شخص واحد؛ فالشيخ يحسُّ الجمال ويتذوَّقه، وينتشي به في الطبيعة وفي الشمائل والمواقف، ويستهويه الأدب الرفيع، والشعر الجميل، يقرؤه ويرويه، ويستمع إليه، ويستشهد به في محاضراته ومقالاته وكتبه.

يقول الأستاذ محمد المجذوب: ومتتبِّع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأنَّ لعبارته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العِلْية من أصحاب المواهب، الذين تعمّقوا سرَّ الكلمة، وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه، وتلك هي الخاصة الرئيسة التي يمتازُ بها أولو الأذواق الروحية من المتخرّجين

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: ٧/ ١٧، عام (١٤٢١).

في مدرسة القرآن»[1].

كتب إليه الشيخ عمر بن الحسن بن الحسين آل الشيخ بعدما اطّلع على بعض مؤلَّفاته: «أيها الأخ الفاضل! اطَّلعتُ على تصانيفكم ومحاضراتكم فألفيتُها تثلجُ الصدور، وتبعثُ الأفراح والسرور، ورأيتُ فيها من وضوح العبارة ولطيف الإشارة وعذوبة لفظها وحُسن سبكها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، تولَّى الله جزاءكم في الدنيا والآخرة، وأسبغَ عليكم نعمه الباطنة والظاهرة، وحلاَّكَ حُلَلَ الإيمان الفاخرة، وإنِّي أثقُ بالله الذي لا إلـه إلا هو أنه سيكون لها أعظم الأثر إن شاء الله، وأرجوكَ رجاءً خاصّاً أن تبعثَ لي بجميع محاضراتكم كلّها، وما هو موجودٌ لديكم من تآليفكم النافعة»[2].

ومن أمثلة أسلوبه الرائع قوله وهو يصف أسرارَ جمالِ الحديثِ النبوي: «ما ظنُّكَ ببشرٍ، ذلَّ بالقرآنِ لسانُه، وامتزجَ القرآنُ بلحمِه ودمِه، وجرى فيه مجرى الروح، وأخذَ بقلبِه، واستأثرَ بلبِّه، بل أُشربَ في قلبه القرآن، وتمكَّن منه ما الله أعلم به، فإنْ لم يكن كلامُه بعدَ ذلك من الوحي ـ فكما قال أخونا الشاعر مصطفى صادق الرافعي ـ قد جاء من سبيله، وإن لم يكن له من دليل، فقد كان هو من دليلِه، قد عبَّد له الوحيُ طريقَ الكلام وذلَّله:

كمـا كـانَ بعـدَ السيـلِ مجـراه مـرتعـا»[3]

---

(1) علماء ومفكّرون عرفتهم: ١/ ١٤٦.
(2) رسائل الأعلام، ص٣٩.
(3) جهود الشيخ أبي الحسن الندوي، ص١٥٢.

ومن أمثلته قولُه في تقديمه لكتاب والده (الهند في العهد الإسلامي):

«فإذا صحَّ أنَّ (الوطنَ المألوف بمنزل الأم، لها حقٌّ لا يُضاع، وإليها حنينٌ لا يُنكَر)[1] فقد سجَّل العلم والأدبُ، والكتابة والتأليف، أمثلةً رائعةً، وآياتٍ باهرةً من هذا الوفاء الكريم، والبر السامي النزيه لأبناء البلاد البررة لأمهم الحنون، التي ولدتهم وأرضعتهم، والتي قضوا في أحضانها أطيب أيام حياتهم، وأصفاها، وعاش فيها، ودفن آباؤهم الذين يحبّونهم ويجلّونهم، ولهم فيها آثار وذكريات، وتغنّى بها الشعراء قديماً وحديثاً، فقال ابن الرومي:

ولـي وطـنٌ آليـتُ ألاَّ أبيعَـه ... وألاَّ أرى غيـري لَـهُ الدَّهْـرُ مالِكا
عمـرتُ بـه شـرخَ الشبـابِ منعَّمـاً ... بصبحةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالِكَا
وحَبَّـبَ أوطـانَ الـرجـالِ إليهـمُ ... مـآربُ قضّـاهـا الشبـابُ هُنـالِـكَ
إذا ذكـروا أوطـانَهـم ذكَّـرتْهـمُ ... عهـودَ الصِّبـا فيهـا فحنُّـوا لـذلِكَـا

وقال الآخرُ:

بـلادٌ بهـا نِيْطَـتْ علـيَّ تمـائِمـي ... وأوَّلُ أرضٍ مَـسَّ جِسْمـي تُـرَابُهـا

وقد كان المسلمون بفضل التعاليم الإنسانية الخلقية التي تلقوها في مدرسة الرسالة المحمدية من أوفى الأمم والشعوب للبلاد التي ولدتهم، وأنشأتهم، أو آوتهم واحتضنتهم، ومن أبرّ الأبناء لتلك الأمهات المعنوية،

---

(١) كلام مقتبس من مقدمة كتاب (جنة المشرق) لوالده، والذي طبع باسم (الهند في العهد الإسلامي).

ومن أحرص عباد الله على شكر النعمة، ومعرفة الحق والفضل، وأحرصهم على تسجيل الأخبار، وتخليد الآثار، وإثارة الدفائن وإيضاح المعالم، والكشف عن المجاهل، والبحث عن الحقيقة، وتحرّي الصدق والدقة، والأمانة في الحكاية والرواية، ساعدهم في ذلك ذوقهم التاريخي الذي رافقهم من أول رحلتهم، وفجر نشأتهم، وطبيعة التحقيق التي اقترنت بحياتهم وأخلاقهم منذ عنوا بفنّ الحديث والرواية، ودوّنوا علم الأصول، وفنّ أسماء الرجال، فكانوا روّادَ البحث العلمي، وحاملي فن التاريخ الأمين في كثيرٍ من البلاد التي وردوا فيها.

وإذا أراد اللهُ ببلدٍ خيراً، وأراد أن يخرجَه من الظلمات إلى النور، ومن الخفاءِ إلى الظهور، ومن حياةِ العزلةِ والخمولِ، والقناعةِ بالنزر اليسير، والانطواءِ على النفس، إلى حياةِ الشُّهرةِ والاتصال ببقيّةِ الأُسرة الإنسانية، والعالم المترامي الواسع، وركْب الحياة السيّار، وأرادَ أن يسلِّطَ عليه أضواء قوية من العلم والتحقيق، ساق إليه المسلمين، فاتخذوه وطناً وسكناً، ومعاشاً ومدفناً، ولم يعتبروه بقرةً حلوباً، أو ناقة ركوباً، يحلبون ضرعها، ويركبون ظهرها، ويجزّون صوفها، ثم يتركونها هزيلةً عجفاء، أو منتوفة شوهاء، ولا يعتبرون نفوسهم كالإسفنج يتشرَّبُ الثروة من مكان، ويصبها في مكان[1]، بل وهبوا هذه البلاد أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة، وأخلاق وسجايا،

---

(١) كما كان شأن الإنكليز في الهند، وفرنسة في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطالية في طرابلس وبرقة.

ومقدرة وكفاية، وتنظيم وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ، والشعور الرقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الحاذقة الصناع، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغضّ، وآمنت بعد خوف، واستقرّت بعد اضطراب، وأخذت الأرضُ زخرفها، وبلغت المدنيةُ أوجها، وتحوّلت الصحارى الموحشةُ والأراضي القاحلة إلى مدنٍ زاخرةٍ، وأراضٍ خصبة، وتحوَّلت الغابات حدائق ذات بهجة، وأشجار البرية أشجاراً مثمرة مدنية، ونشأت علوم لا علم بها للأوَّلين، وفنون وأساليب في الحضارة والحكم والفن لا عهد بها في الماضي، وانتشرت التجارة، وازدهرت الزراعةُ، فكأنَّما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلاداً جديداً، ولبست ثوباً قشيباً»[1].

* * *

(١) الهند في العهد الإسلامي، ص١١ ـ ١٣.

الباب الثالث

قائد رشيد

تمهيد

الفصل الأول : قيادته للمسلمين في الهند

الفصل الثاني : رئاسته لدار العلوم لندوة العلماء

الفصل الثالث : توجيهه للعالم العربي والإسلامي

الفصل الرابع : قيادته لحركة الأدب الإسلامي

تمهيد

قد يكون الرجل متخصصاً في مجال بيعه، ومتقدّماً فيه لا يحسن غيره، ولكنَّ الشيخ الندوي من أولئك الرجال الأفذاذ، الذين رزقهم الله مواهبَ متعدّدة، وأمكنهم السبق في مجالات كثيرة، فمن قيادة المسلمين في الهند، والإشراف على ندوة العلماء، ورئاسة هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية، إلى توجيه العالم العربي والإسلامي، وقيادة رابطة العالم الإسلامي، وتأليف الكتب القيمة النادرة، والعناية بأمر الدعوة والتعليم والتربية، عشرات من الإنجازات والأعمال، والهموم والأشغال، عاشها الشيخ الندوي، وقضى حياته يشارِكُ الأمةَ المسلمةَ مطامحها وأحلامها، ومشاكلها وآلامها، وكان يرى مشاركة الأمة همومها وآلامها واجباً من واجبات الدعوة، يقول في وصيته لإخوانه:

«وكذلك يجب ألاّ تتجرّد حياتنا عن الاهتمام بأمر المسلمين ومشاركتهم في أحزانهم وأفراحهم وواقع حياتهم، شعوباً ودولاً، ومجتمعات، نعيش معهم ـ أينما كنّا ـ آلاماً وآمالاً، وشعوراً وعاطفةً، وقد جاء في الحديث الصحيح: «ترى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادّهم وتعاطُفهم كمثلِ الجَسَدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمَّى»، يقلقنا واقعهم المرير الذي يعيشونه، ويكدِّرُ صفوَ حياتنا الذلُّ الذي يلقونه، والاضطهادُ الذي يواجهونه،

وتثورُ فينا الحميةُ الدينيةُ والغَيرةُ الإسلامية، ونقوم بواجبنا الإسلامي والأخوي قدر المستطاع، ولا نألو جهداً في السعي لإعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، وتحقيق أهدافه، وتنفيذ شريعته، وإزالة العقبات عن سبيله، ولأن نكونَ قوةً تُخشى وتُرجى، ويُحسب لها الحساب، ويؤدي ذلك إلى التمكين في الأرض حتى لا تكونَ فتنة ويكونَ الدينُ كلُّه لله»(١).

عرف المسلمون في الهند والعالم العربي والإسلامي اهتمامه هذا بأمرهم وتألمه، فقدَّموه، ورضوا به قائداً وزعيماً، وموجِّهاً ومرشداً، وسأتحدَّث في هذا الباب عن دوره القيادي الريادي هذا:

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، ص٢٢٦.

الفصل الأول

قيادته للمسلمين في الهند

نشأ الشيخ الندويُّ والهندُ مستعمرة بريطانية، والمِسلمون فيها أقليـة دينية، يهدِّدهم الخطرُ في وجودهم وبقائهم، وهويتهم وثقافتهم، ثم رآها وقد نالت استقلالها عام (١٩٤٧م)، وانفصلت باكستان عنها، فصار المسلمون في الهند أمة مستضعفة، وازدادت أزماتهم، وتضاعفت مشاكلهم. ينصُّ دستورُ الهند على أنَّها بلد علماني ديمقراطي، يعامَلُ جميع المواطنين فيها معاملة عادلة متساوية، من دون أيِّ تمييز على أساس العقيدة، واللون، والطبقة، والجنس، ويصرّحُ بمنح حقوق للأقليات اللغوية، والدينية، والثقافية، واتّسم هذا الدستورُ بصلاحية خلق الانسجام والوئام بين مختلف الطبقات، ولكن لما انقضى الجيل الذي قاد حركة التحرير، والذي كان يدّعي الانتماءَ إلى التصور العلماني، والتسامح مع الأقليات والمساواة، ظهرت حركات وجماعات طائفية، تحمِلُ الحقدَ والكراهية ضد الإسلام والمسلمين، وتدعو إلى القضاء على كلّ أثر إسلامي، وتعارض الطبيعة العلمانية للدستور، بل تدعو إلى إنشاء دولة هندوكية، وفرض الثقافة الهندوكية، ويوجد بين رجال الحكم زعماء يتسامحون مع أصحاب هذه الميول والنزعات الطائفية، ويدعمونهم سرّاً.

وتضخَّمت هذه الطائفة المتزمّتة على مرِّ الأيام، ودعت إلى مكافحة الوجود الإسلامي، وطمس معالم الحضارة الإسلامية، ورفض كلّ فضل في التاريخ الإسلامي، وقامت الحركات الممثّلة لها بتربية عصابات مقاتلة بصورة سرية للهجوم على المسلمين، والقيام بأعمال النهب والسلب، وتخطيط الاضطرابات الطائفية في فترات مختلفة تخطيطاً دقيقاً، وتساعدها وسائل الإعلام، وتغضّ أجهزةُ الأمن البصر عن نشاطاتها الحاقدة، وامتلأت المقررات الدراسية بمواد طائفية سامة، وعنيت الصحف والمجلات بنشر مقالات وقصص ذات النزعة الطائفية تحمل الكراهية للمسلمين.

شعر الشيخ الندوي بخطورة الوضع، وأدرك بفراسته ودراسته للتاريخ ومتابعته للأحداث أنَّ مستقبل المسلمين في خطر إذا لم تتخذ تدابير حاسمة وجهود جبارة في جوانب مختلفة، فنهضَ لمواجهة هذا التحدّي، ولم يغفل ـ رغم أشغاله العلمية والفكرية، وتزاحم أعماله التعليمية والتأليفية ـ لحظةً عن القيادة السياسية والدينية والتعليمية للشعب المسلم الهندي، فجاب الهندَ، وتجوَّلَ في مدنها وقراها وبواديها يعظ المسلمين، ويصلحهم، ويدعوهم إلى الإيمان والتقوى، والسلوك القويم، والخُلق الإسلامي النبيل، ويحثُّهم على الاعتناء بالتعليم الديني، ويحذّرهم من مؤامراتِ أعدائهم، ويدعوهم إلى تبنّي موقف الحكمة والحزم في ما يواجهونه من مشكلاتٍ ومصاعب، فكانت زياراته وخطاباته ودعواته بلسماً شافياً للمسلمين، وتوجيهاً حكيماً لما يجب عليهم أن يعملوه نحو دينهم وأمتهم ووطنهم، وكانت دروسه، ومحاضراته، وأحاديثه، ولقاءاته، ونصائحه، وتوجيهاته كلُّها تحثُّ الناسَ وبخاصة الشبان

وأصحاب العمل الإسلامي على أن يتحمَّلوا المسؤولية، وينهضوا بالتبعة، ويؤدّوا دورَهم، وصار المسلمون يفزعون إليه كلَّما ادلهمَّت الخطوبُ، واشتدّت الأمور، فكان يواسيهم، ويثبتهم، ويبذل وقته وعافيته وماله وجهده لقضاء حوائجهم، وتفريج كربهم، وإزالة العقبات التي تعترض طريقهم، وكان في جميع الأوضاع العصبية التي يمرّون بها، هو القائد المناسب، الذي قاد السفينة وسط الأعاصير بحكمة وصبر، ولين وأناة، مع إيمان ثابت، وعزم لا يلين، واستطاع أن يقود السفينةَ بخبرة القائد المحنَّك، ومهارةِ الربَّان القدير، وتكمنَ أن يجتازَ بها المزالقَ والمخاطر، ويوصلها إلى برِّ الأمان، وأصبح في أيامه الأخيرة هو صوت المسلمين، منه يصدرون، وإليه يرِدُون.

وأحبَّه المسلمون الهنود من شرقي البلاد إلى غربيها، ومن شمالها إلى جنوبها، الخاصة منهم والعامة، والعلماء منهم والمثقفون، والمذهبيون منهم واللامذهبيون، قادة الجماعـات الدينيـة والمراكـز التعليميـة، وأصحاب الحركات الإصلاحية والتيارات السياسية، حائزاً على ثقة جميع شرائح المجتمع الهندي وطبقاته، بل أحبّه الهندوس واحترموه، وهاب رجال الدولة مواقفه، وعرفوا فضله، رأى المسلمون الهنود جميعاً فيه المثلَ والقدوةَ، متسابقين للتلقّي عنه، وتنفيذ إشارة منه، حيث كان الحب في الله جوهرَ العلاقة بينه وبينهم، والعمل على تطبيق شريعة الله هدفهم، ومرضاة الله عزَّ وجلّ مبتغاهم.

وسأقوم في هذا الفصل ـ إن شاء الله تعالى ـ بإبراز الجوانب الهامة التي وقف فيها موقف الإصلاح والتجديد في الهند كنشر التعليم الديني بين

المسلمين، وتعريفهم بتاريخهم وحضارتهم، والنضال من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتطهير المجتمع المسلم من شوائب الجاهلية ومنعه من الذوبان، وبذل الجهود لكسب ودِّ جمهور الشعب الهندي، وجرد نفسه للعمل في هذه الجبهات المختلفة.

نشر التعليم الديني:

إنَّ واضعي المناهج الدراسية ومؤلّفي الكتب المقررة للتدريس في ولايات الجمهورية خصوصاً في الولاية الشمالية تبنّوا منذ استقلال البلاد عام (١٩٤٧م) ـ رغم كون الهند بلداً علمانياً ـ ديانةَ الأغلبيةِ وعقيدتَها، بعرض شعائرها وآلهتها ومقدّساتها وأساطيرها الدينية ممّا يتنافى مع تعاليم الإسلام، ويضاد عقيدة التوحيد البسيطة، وينافي عقيدةَ الرسالة والنبوة الإسلامية، ويدعو إلى تقديس هذه الآلهة الأسطورية وعبادتها، وتقديس بعض الأنهار والمدن وتأليهها، ويصور الهند ـ البلاد التي تسكنها الطوائف الكثيرة ـ كبلدٍ ليس فيه ديانةٌ غير الديانة البرهمية ومعابدها واحتفالاتها وأعيادها وتقاليدها ومراكزها الدينية والروحية.

والكتبُ التي قُرِّرت للمطالعة ليطَّلع التلاميذ على تاريخهم الماضي، ويتعرَّفوا بالشخصيات الكبيرة قد اقتصرت على شخصيات شعب خاص، وديانة خاصة، وأعرض مؤلِّفوها ـ في تصميم وتفكير ـ عن الحديث عن أي شخصية كبيرة من شخصيات العهد الإسلامي الزاهر، سواء كانت من عباد الله الصالحين، أو من الملوك العادلين، أو المشرّعين النابغين، أو الإداريين

الحازمين، أو العلماء العبقريين، أو الشعراء المفلقين، وعاملوا العهد الإسلامي ومن نبغ فيه من الرجال وأصحاب الفكر والكمال معاملةَ الأجانب، ومعاملةَ الغرباء، وإذا ذكروا بعضهم لم يحسنوا تصويرهم، أو نسبوا إليهم ما يحطّ من شأنهم، بل وربما نسبوا إلى الرسول الأعظم ﷺ من الأخلاق والأعمال والحوادث ما لا يليقُ بإنسانٍ شريفٍ، فضلاً عن الرسل، ويجرح شعور كلّ مسلم ويثيره.

إنَّ وجودَ مثل هذه الكتب المقرّرة في نظام تعليمي إجباري تفرض دراستها على أولاد المسلمين وشبابهم حين لا يتلقَّون تعليمهم وثقافتهم عن مصدر آخر، وضعٌ محرج للمسلمين، يبعث فيهم القلق الشديد، والإشفاق على مستقبلهم الديني، وعقيدة أجيالهم، ويهدّد كيانهم الملّي، ويجعلهم يخافون على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم من الردّة الفكرية والثقافية، ومن الردة الدينية والوثنية، وقد بدت آثار هذه الردة في الأوساط التي أثّر فيها هذا التعليم، وانقطعت صلتها عن مصدر ثقافي أو عن الدعوة الإسلامية، وبدأ الصِّغار السذّج من أبناء المسلمين يتظاهرون بالشعائر البرهمية، ويدينون ببعض عقائدها.

فبعث كلُّ ذلك قلقاً عظيماً في نفس الشيخ الندوي وغيره من علماء المسلمين الغيورين، وعقدوا مؤتمراً عظيماً في (بستي) بلدة في الولاية الشمالية، حضره عدد كبير من المسلمين من كلّ مذهب ومدرسة فكرية، وممثلون ومندوبون من مختلف الطبقات، وطلبوا من الحكومة أن تصلحَ برامج التعليم الرسمي، وتسحب الدروس التي تنافي العقيدة الإسلامية، وعزموا على إنشاء كتاتيب ومدارس تُعنى بتعليم أطفال المسلمين الديني في

أوقات الفراغ، وإنشاء مدارس تعلِّم المناهج الدراسية المقبولة في المعارف مع مادة الديانة وإضافة دروس تعاليم الإسلام، وقد كان لهذا المؤتمر تأثيرٌ كبيرٌ في الوسط الإسلامي، وانبثت فروعه في أنحاء الولاية، وانعقدت مؤتمرات عظيمة.

وواصل طول حياته نضاله في سبيل تعليم المسلمين الديني وتربيتهم على أساس الثقافة الإسلامية، وترأَّسَ حركة التعليم الديني لطلبة المرحلة الابتدائية بصفتها قاعدة ما يليها من المراحل التعليمية، ونجحت هذه الحركة في إنشاء آلاف من المدارس والكتاتيب للتعليم في مدن الهند وقراها، والتي تغذّي أطفال المسلمين وصغارهم بالمفاهيم الإسلامية، التي تحفظهم من الذوبان في التيار الثقافي العلماني للبلاد، وقام بإعداد منهاج تعليمي يجمعُ بين الدراسات الإسلامية ومواد التعليم العصري من العلوم الاجتماعية وغيرها إلى تركيز على الحذق في التعبير، كما ساهم في مؤازرة معاهد الثقافة العصرية للمسلمين كجامعة (عليكره) الإسلامية، التي واجهت منذ استقلال البلاد صعوبةً في الحفاظ على هويتها الإسلامية.

وتتضح رؤيته التعليمية للمسلمين في الهند من كلمته التي ألقاها في مؤتمر التعليم الإسلامي الذي انعقد في ٤ و٥ من يونيو عام (١٩٦١م) في لكنو تحت رئاسته، والتي سأل فيها الحضور أن يعاهدوا الله ويأخذوا من نفوسهم ميثاقاً يرتبطون به في حياتهم، وهذا الميثاق له جزءان: «**أولهما**: أن نؤمنَ بأنَّ هذه البلاد ـ الهند ـ هي بلادنا ووطننا، وسنعيشُ فيها كأبناء، وحقّنا على هذه البلاد لا يقلُّ عن حقِّ أكبر مواطن، وأقدم مولود فيها، وليس لأعظم شخصية

في ربوع الهند ـ سواء كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزراء ـ أن يدَّعيَ أنَّ حقَّه على هذه البلاد يزيدُ على حقّنا».

وقال: «**والشطر الثاني** من هذا الميثاق: أننا تعاهدنا أن نعيشَ في هذه البلاد بكلّ خصائصنا المليّة، وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية، وبأخلاقنا الاجتماعية، وبشخصيتنا المسلمة، لا نتخلَّى عن شعيرةٍ من شعائرنا، ولا نتنازلُ عن جزءٍ من أجزائها، يحرم علينا أن نعيشَ مجرَّدين عن هذه الخصائص، وعن هذه الحضارة، وعن هذه الشخصية، ولا لذَّةَ في الحياة، ولا خيرَ فيها بعد ذلك، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا، وأن نعلّمهم كما تفرضه علينا مبادؤنا وعقائدنا الإسلامية، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نقرَّ عيناً بإسلاميتهم ونشأتهم الدينية، فليست هذه الحياة حياةَ الأشرافِ الأحرارِ، فضلاً عن أن تكون حياة المسلمين الأبرار، إنّما هي حياة البهائم والسائمة، حياة الثيران والحمير والكلاب»[1].

الحفاظ على الهوية الإسلامية:

ركَّز الشيخ تركيزاً بالغاً على الحفاظ على الهويـة الإسـلامية، فواجه جميع التحدّيات التي تهدف إلى النيل منها، كقضية التعليم الديني وغيرها من القضايا، ومن أبرزها قضية **اللغة الأردية**، التي نشأت في الهند إبّان الحكم الإسلامي مزيجة من اللغات السنسكريتية والعربية والفارسـية والتركيـة، وصارت تمثّلُ القومية الهدية خيرَ تمثيل، وتبناها المسلمون أخيراً لغةً لدينهم

---

(١) المسلمون في الهند، ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وثقافتهم، ولما استقلّت البلادُ عام (١٩٤٧م) قرّر دستور الجمهورية الهندية كما تقول مادة (٣٤٣) أنَّ اللغة الجمهورية الرسمية هي الهندية في الحروف السنسكريتية، وقرَّرَ الدستورُ اللغةَ الأردية ضمن اللغات المحلية، وأنَّ كلَّ لغةٍ يتكلَّمُ بها عدد يعتدُّ به يعترف بها، ويمنح أهلها كلَّ تسهيلات لتعليمها أبناءهم إذا طلبوا ذلك، ولكنَّ الولايات التابعة للمركز، وخاصة الولاية الشمالية ـ التي كانت تعتبر مركزاً للغة الأردية، وفيها تهذّبت ورقت ـ ألغت اللغة الأردية كمادة دراسية، وكأداة التعليم في المرحلة الإعدادية والتحضيرية، وأقصتها من المدارس الابتدائية إقصاءً تامّاً.

إنَّ هذه اللغة كان لها تأثير أعمق في ثقافة المسلمين ومستقبلهم، وتجاوز هذا التأثير إلى العقيدة والمستقبل الديني؛ لأن الأردية هي الوسيلة الوحيدة التي تربطهم بالثقافة الإسلامية، ففيها المكتبة الدينية وحروفها عربية، فتسهل بها قراءة القرآن، ودراسة اللغة العربية، وفيها آدابهم وحضارتهم وتاريخهم، ومعنى انقاطعهم عن اللغة وجهلها: الانقطاع عن ثقافتهم وماضيهم، فقد اعتبروا بحق إقصاء هذه اللغة عن المدارس قضاءً على قوميتهم وثقافتهم وخصائصهم وكيانهم، فاحتجَّ المسلمونَ تحت قيادة الشيخ الندوي وغيره من زعماء المسلمين ضدّ هذا الوضع المؤلم، وقاموا بعقد لقاءات ومقابلات مع المسؤولين وأصحاب الدولة، ولكنّ جهودهم واحتجاجاتهم لم تتمخَّض في كثيرٍ من الأحيان إلاّ عن وعودٍ فارغةٍ من الزعماء السياسيين.

وحينما ألزمت الحكومةُ الهنديةُ الناسَ أخيراً بإنشاد النشيد الذي يمتلئ شركاً وكفراً وخرافات وأساطير صمد في وجه الحكومة الهندية، حتى اضطرها

إلى الرجوع والتقهقر، وقال في خطابه الرئاسي لاجتماع هيئة الأحوال الشخصية المنعقد في بومبي في ٢٨ ـ ٣٠ أكتوبر (١٩٩٩م): «إننا لن نسمحَ أن يفرض علينا نظام اجتماعي، أو نظام مدني، أو قانون شخصي، إننا نعتبرُ ذلك دعوة إلى الردّة، وإننا سنواجهها كما تواجَهُ دعوات الردة، هذا حقنا كمواطن، حق ديموقراطي، حق ديني».

وكان يذكّر المسلمين الهنود دائماً بمقالة الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه الشهيرة: «إنكم في رباطٍ دائمٍ لكثرةِ الأعداءِ حولكم وتشوُّفِ قلوبهم إليكم».

ويقول في بعض خطاباته يشرح هذه المقالة: «إنَّه قال لهم لا تَخْلُدوا إلى الراحة، ولا تضعوا السلاحَ، ولا تعتبروا نفوسَكم قد نفضتم غبار الغزو، فلكم الآن كُلَّ حقٍّ في أن تعيشوا عيشةَ الفاتحين الحكام، لا، إنكم في رباطٍ دائمٍ، أنتم محاطون بالأعداء كاللسان في الأسنان، أنتم حفنة بشرية، ونقطة مغمورة في هذا البحر الطامي من الأجناس والديانات والحضارات في قارة إفريقية التي تكادُ تكون عالماً بمفرده، فلا مساغَ لكم في أن تخلدوا إلى الراحة وأن تناموا نوم الفاتحين على أسرّة الملوك الباذخين»[١].

ظلّت قضية الهوية الإسلامية تشغلُ بال الشيخ الندوي طول حياته، يعقدُ لها المؤتمرات، وينظِّمُ لها الاجتماعات الشعبية الحاشدة، التي يلقي فيها

---

(١) نفحات الإيمان، ص٣٣ ـ ٣٤.

كلماته الثائرة، التي تلهب النفوس وتشعل مجامر القلوب، منها كلمتُه التي ألقاها في مؤتمر التعليم الإسلامي الذي انعقد في ٤ و٥ يونيو (١٩٦١م) في لكنو تحت رئاسته، والتي قال فيها: «إننا أيها الإخوة في هذا الثلث الأخير من الليل الذي تنزل فيه رحمةُ اللهِ، ويجابُ الدعاء، وتصفو القلوبُ، نتعاهدُ بكل إخلاص أننا سنبقى في هذه البلاد بإسلاميتنا وإسلاميةِ أجيالنا القادمة، ونبذل في هذا السبيل كلَّ رخيصٍ وغالٍ، ونحتملُ السرّاء والضرّاء، ونكونَ من إحدى الطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في سورة الأحزاب [٢٣]: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

ولما عُقِدَ في ديوبند مهرجانُها التعليمي بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس دار العلوم فيها، حيث اجتمع العدد الهائل من الحضور، كان خطابه أحسنَ خطابٍ بهذه المناسبة، واعتُبِرَ روحَ المهرجان ورسالته، قال وهو يخاطب الشعب الهندي المسلم والحكومة الهندية: «إننا نعلنُ بكلِّ صراحة، ونريدُ منكم كذلك أن تنادوا بأعلى أصواتكم بأننا لا نرضى أن نعيشَ عيشةَ البهائم، التي لا تهمها إلاّ الرواتب الشهرية، وحماية النفس والمال، إننا نرفض ألفَ مرة أن نعيش مثل هذا العيش، أو أن نرضى بهذه المكانة الدنيئة، إننا نلحُّ على أن نبقى في هذه الأرض بصلواتنا وأذاننا، بل ولن نرضى بالتضحية بصلاة التراويح، وصلوات الليل والنهار النافلة، وإننا نظلّ معتنقين كلَّ سنَّةٍ من سنن نبينا ﷺ، ولن نتخلَّى عن أي نقطة من سيرته الطاهرة، إننا لا نعرف تياراً

---

(١) المسلمون في الهند، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.

قومياً، إنما نعرف التيار الإسلامي، إننا خُلقنا لقيادة العالم البشري وإمامته».

هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية:

ينصّ الدستور الهندي على الحرية الدينية لجميع طبقات المجتمع، وحقّها في تطبيق قانون أحوالها الشخصية، وتمتع المسلمون بهذه الحرية وهذا الحقُّ منذ استقلال البلاد، حتى ظهرت مبادرات من الحكومة الهندية، ومحاولات من بعض شرائح المجتمع، تهدّد هذه الحرية، وبخس هذا الحق، فقام العلماء وقادة الفكر الإسلامي بإنشاء هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية عام (١٩٧٢م)، تمثّل جميع الفئات المسلمة في البلاد، وكان ذلك اتحاداً فريداً للمسلمين، وكان في مقدّمة هذه الجبهة العلاّمة الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي رئيس دار العلوم بديوبند آنذاك، والعلاّمة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء بلكنو، والعلاّمة الشيخ مِنَّةُ الله الرحماني رئيس الجامعة الرحمانية بمونكير، وكان في مقدمة مساعديهم الشيخ القاضي مجاهد الإسلام القاسمي رئيس المجمع الفقهي الإسلامي بالهند سابقاً، والشيخ السيد نظام الدين أمير الشريعة في ولاية بيهار، وأريسه، وجهاركهاند، وقامت بمراقبة الأوضاع التي تتصل بالعمل بالشريعة الإسلامية، والحفاظ عليها، وبذلك أصبحت لها أهمية بالغة للأمة الإسلامية الهندية، وظهرت لها إنجازات قيمة في هذا المجال، وأنشأت الهيئةُ لجاناً مختلفة تُعنى بقضايا تتصل بدعم الشريعة الإسلامية، ودوراً للقضاء الشرعي في مختلف أنحاء البلاد، تنظر في القضايا التي ترفع إليها من أهاليها المسلمين فيما يتعلّق بالأحكام الإسلامية، فهي تؤدّي أعمالها في تلك المجالات.

وحققت الهيئة نجاحاً باهراً منذ أن انتُخب الشيخ الندوي رئيساً لها، وقويت الحركة في عهده قوةً لم يَسبق لها مثيل، وتوحد الشعب المسلم بأسره تحت قيادته الدينية، فعالج كثيراً من المشكلات التي واجهها المسلمون في الهند، لعلّ أهمها قضية (شاه بانو)، التي أصدرت فيها المحكمة العليا الحكم بمنح المرأة المسلمة المطلّقة النفقة من زوجها المطلق إلى أن تموت أو تنكح زوجاً غيره تطبيقاً لمادة (١٢٥) من قانون الجنايات الهندي، الذي لا يفرّق بين المطلقة والزوجة الشرعية في النفقة، وادّعت المحكمة أن هذا القانون لا يتنافى مع حكم القرآن الكريم وفسَّرت كلمة (المتاع) التي وردت في القرآن الكريم تفسيراً خاطئاً، وتجاوزت المحكمة العليا إلى الاقتراح بتعديل الأحوال الشخصية الإسلامية استناداً إلى بند (٤٤) في الدستور الهندي، الذي يقضي بفرض قانون مدني موحّد يطبَّق على جميع طبقات الشعب، وقد كانت الحكومة الهندية تؤكّد ـ كلَّما احتجَّ المسلمون تحت قيادة الشيخ الندوي على المحاولة لتعديل الأحوال الشخصية الإسلامية وفرض قانون موحد ـ أنَّ قانون الأحوال الشخصية سيبقى على حاله ما لم يطالب المسلمون أنفسُهم بتغييره، وفي الوقت نفسه كانت الجهات الرسمية والطوائف المعادية للإسلام تتصيَّدُ رجالاً منعزلين عن التيار الإسلامي ليتقدّموا بالمطالبة بتعديل الأحوال الشخصية، ولكن تصدي الشيخ الندوي لكلِّ هذه المؤامرات بتنسيق المظاهرات والاحتجاجات الواسعة النطاق، وتنظيم اجتماعات شعبية مكثَّفة، وقابل رئيس وزراء الهند آنذاك راجيف غاندي، ونجح في إقناعه بجدارة الحكم الإسلامي في القضية المثارة، فاستجاب لطلبه، وقام البرلمان الهندي بتعديل المادة لصالح

المسلمين، واتّخذ مشروع القانون الخاص بحقوق المرأة رغم معارضة الأغلبية في البلاد التي شنّت حملة ضد أي تعديل في الدستور.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «ولقد رأيتُه منذ سنوات حينما أرادت حكومة الهند أن تغيّر قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، وأن تلزمهم أشياءَ لا تتفق مع شريعة الإسلام بالنسبة للمطلَّقات وغيره، وقف الشيخ ضدَّ هذا التغيير وقفة الجبل الأشمّ، وزأر زأرة الأسد الهصور، وقال بملءِ فيه: لا، وأبلغَ ذلك كبار المسؤولين من الهندوس في الدولة، وجمع المسلمين من ورائه لمقاومة هذا المشروع، وخطب في أكثر من مكان في البلاد العربية لتأليب القوى الإسلامية ضد هذا المشروع، وبدا هذا الرجل الهيّن الليِّن، الخاشع البكّاء، فارساً مغواراً، وسيفاً بتَّاراً، وهنا تذكرتُ موقف أبي بكر رضي الله عنه يوم الردّة، وهو ذو القلب الرقيق، والطرف الدامع، كيف وقف وِقفته التاريخية ضدّ الردة ومنع الزكاة، حتى نصر الله به الإسلام.. ولقد انتصر الشيخ في هذه المعركة، وعَدَلَت الحكومةُ عن موقفها، وسحبت مشروعها، بفضل الله تعالى، ثم بصلابة الشيخ وثباته وإبائه لإنصاف الحلول»[1].

تطهير المجتمع الإسلامي:

قام الشيخ كذلك بإصلاح حال المسلمين الاجتماعي، ودعوتهم إلى السيرة الصالحة والسلوك النزيه، مبتعدين عن كل ما يمسُّ العقيدة الإسلامية

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٧ ـ ٦٨.

والحياة الإسلامية من عادات جاهلية، أو رواسب وطنية لا دينية، وكان لجهوده ومساعيه الأثر الطيب، فكم من الناس تخلَّوا عن العادات والطقوس الجاهلية، وكم منهم تابوا من المحدثات والبدع، وأصبحوا ملتزمين بالتوجيهات الإسلامية للحياة، كما أنه تم عقد حفلات للزواج تحت إشرافه نزيهةً عن الطقوس الجاهلية، وبدون تبذير للمال.

توحيد صفوف المسلمين:

شاهد الشيخُ إبَّان الاضطرابات الطائفية التي كثر حدوثها في الستينيات وبعدها، والتي راح ضحيتَها آلاف من المسلمين أنَّ الجماعات الإسلامية المساهمة في أعمال الإسعافِ موزَّعةٌ، كلٌّ يحمل لواءً خاصّاً بحزبه، ورأى المسلمين يغلبهم اليأس في أحيان كثيرة، ففكَّر في وسائل نفخِ روحِ المقاومةِ، والاعتداد بالنفس، والاعتماد على الله، وبث ذلك في المسلمين أنفسِهم حتى لا يصيبهم الخور والجبن والاستكانة، فأجرى اتصالات مع القادة المسلمين من مختلف الأحزاب السياسية لتكوين منظمة للأحزاب الإسلامية تكونُ منبراً إسلاميّاً يرفع عن طريقه صوت المسلمين موحَّداً.

عُقِدَ الاجتماع الأول الذي كان نواةً لتأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي بلكنو في أغسطس عام (١٩٦٤م)، وقرَّر المجلس ـ كخطوة أولى ـ القيام بجولات في المناطق المفجوعة بالاضطرابات، والتحدّث إلى المنكوبين، والاتصال بالمثقفين من رجال الأغلبية لدعوتهم إلى التآخي والتضامن، فقام هذا المجلس بجولة باشتراك عدد من غير المسلمين، وبفضل

هذه الحركة تجرَّأ عددٌ من المثقفين من غير المسلمين على الدفاع عن المسلمين، والتنديد بنشاطات الحركات الطائفية المعادية للمسلمين، وكتب عدد من الصحافيين وأصحاب القلم مقالاتٍ في الصحف للدفاع عن المسلمين، وطالبوا بتحديد نشاطات المتزمتين من الهندوس.

حركة رسالة الإنسانية:

حدثت في بعض المدن من ولاية بيهار اضطرابات طائفية، ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين، والتهبت العواطف، واكفهرَّ الجو، وعمَّ سوءُ الفهم عن الإسلام والمسلمين، فعقد الشيخ الندوي بمدينة سيوان من تلك الولاية اجتماعاً، وألقى خطاباً مؤثّراً، يقول الشيخ وهو يصفُ تأثير هذه التجربة: «بعد انتهاء الخطاب تقدَّم إليّ شيخٌ هندوكي معمَّرٌ، وهو يقول بالإنكليزية: رائع رائع، ثم قال: أريدُ أن أقول شيئاً، إنني سمعت في حياتي خطابين تأثَّرتُ بهما جدّاً، أحدهما خطاب س. ر. داس، والثاني خطاب مولانا اليوم، وأقولُ بصراحة: إنَّ محمّداً ﷺ حق، ويا مولانا إنّكَ لستَ للمسلمين فحسب، بل إنَّ لنا حقّاً عليك، وسوف نكلّفك بزيارة هذه المدينة مرة ثانية»[1].

وبهذه التجربة الطيبة نبتت في ذهن الشيخ الندوي فكرةُ الدعوة السلمية، فأنشأ حركة رسالة الإنسانية سنة (١٩٧٤م) بهدف إطفاء نار العصبية والطائفية في البلاد، وخلق جوّ من الوئام الطائفي والأمن القومي، وضم إليها كبار الشخصيات الإسلامية والهندوسية، وعقد اجتماعاتها في مدن الهند المختلفة،

---

(١) في مسيرة الحياة.

وكانت تجربة فريدة في تاريخ الهند الحديث، اتّخذ فيها منهجاً جديداً، بتقديم ما يؤثّر في القلوب من تعاليم الإسلام، وحياة الرسول ﷺ كمربي الإنسانية، ومتمم لمكارم الأخلاق، ورحمة للعالمين، واستعراض التاريخ الإسلامي بإبراز جوانب المساواة والتسامح، والعدل والعدل بين الناس، ورعاية حقوق غير المسلمين، واحترام الأديان، وكرامة الإنسان، والدعوة إلى إصلاح النفوس، وتقويم السلوك، والخضوع للأخلاق الإنسانية الرشيدة من العناية بالضعفاء والمحتاجين، والتعاون على الخير، والسعي لإنقاذ الناس من الوقوع في فساد ودمار، ومن نشر السلام والوئام بين أبناء الوطن، وإنشاء مجتمع إنساني نبيل، وانتقاد ما وقع في حياة المسلمين من انحراف عن الجادة، وسلك مسلك التأليف للقلوب، فنال هذا المنهجُ إعجابَ غير المسلمين، الذين كانوا يظنون الإسلام دين القتال وسفك الدماء والتحجر، والانعزال عن الحياة، وأنَّ الحكم الإسلامي حكمُ القسوة والإكراه، ولذلك كان عدد غير المسلمين في اجتماعاته يتزايد كل يوم، ونالت هذه التجربة قبولاً واسع النطاق، وعقدت لها اجتماعات كبيرة، كان لها تأثير في نفوس المواطنين، وأعجب المثقفون من الهندوس بدعوته حتَّى بعض القضاة والحكام منهم، واعتنق عددٌ منهم الإسلام بعد ما انشرحت صدورهم لدعوته والدين الذي يتَّبعه.

وكان الشيخ الندوي على اقتناع تام بنفع هذا المنهج في بلدٍ ليس للمسلمين فيه أغلبية، وهو منهج الحوار، والتعريف بالإسلام عن طريق اللقاء والحديث، ومعاملة الناس على أساس الأخوة البشرية والمحبة والرحمة، واستطاع بذلك وضع خطة ناجحةٍ لتقريب النفوس إلى الإسلام، وإذابة مشاعر

الحقد والعداوة في نفوس الناس، وإيناسها بالإسلام، وكان يرى أنَّ الخطاب البليغَ المؤثّر يفعلُ في النفوس ما لا يفعله غيره إلا نادراً، وأنَّ الاتصال بالناس بالحوار الحكيم يأتي بنتائج باهرة، وأنَّ مواجهة الحكَّام الجائرين والمعادين للإسلام بالمقت والكراهية وأسلوب المعاداة تبعثُ فيهم نفرةً وبُعداً، وقد تلجئ المجابهة ضدهم إلى اختيار سبل الظلم والقمع، فالمنهج الأفضل هو القولُ الليّن، والمعالجة الحكيمة، اتّباعاً لقول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله جلَّ وعلا لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الشيخ وهو يذكر هذا المنهج: «قادني جهازي الفكري والتربوي الذي لم يكن قد ترك عمله، ولم يطبق عينه عن الظروف والأوضاع المخيفة، والذي وضع نصب عينه دائماً تجارب الماضي وحقائق الحاضر وأخطار المستقبل، إلى اتجاه جديد وتجربةٍ جدية في المجال الدعوي الشعبي، وهو عقد اجتماعات مشتركة شعبية، يُدعى فيها غير المسلمين أيضاً باهتمامٍ بالغٍ لا سيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطابات مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم تعرّفهم بالإسلام، وتزيل الوحشة منه وسوء التفاهم، وتحثهم على دراسة الإسلام والسيرة بعمق وإنصاف، وتُجسّم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، للإفلاس الروحي والعقائدي، والانهيار الخلقي، وسيطرة النظر المادي والشره للمال على المجتمع»[١].

(١) في مسيرة الحياة.

اتصاله بقادة البلاد:

وبالإضافة إلى الجهود التي سبق شرحها في سبيل تأمين المسلمين وإنقاذ البلاد من الطائفية الهمجية، والاضطهاد والظلم، انتهز فرص اللقاء بكبار الزعماء والقادة، للتحاور معهم، والبحث عن مجالات التفاهم، وكتب رسائل مفصَّلة إليهم يشرح فيها قضايا المسلمين، ويؤكِّد أنَّ المسلمين جزءٌ من الشعب الهندي، إنَّ هذا الجزء إذا كان غير متفاهم ومنسجم فإنَّ الشعبَ الهندي بكامله سيتعثَّر في مسيره، ولفت انتباههم إلى الأوضاع الفاسدة في البلاد، وتناولَ اتجاهاتِ الطائفيةِ والعنصريةِ، والقومية المتطرّفة، والحب الزائد للمال، والقتل والنهب، والفساد والرشوة بالدراسة والتحليل.

وأقدِّمُ هنا رسالةً كتبها إلى **إنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند** آنذاك حينما فرضت حالةَ الطوارئ في البلاد، واتخذت الإجراءات القاسية الديكتاتورية لقمع أي مناوئة لها، تحدَّث الشيخ الندوي في الرسالة بأسلوب رقيق مؤثر في النفوس، وبصراحةٍ تامةٍ، وكان ردُّ فعل رئيسة الوزراء رغم هذا النقد اللاذع لحكمها إيجابيّاً، فأرسلت أحد مبعوثيها للتفاوض معه واسترضائه في منزله في قريته، جاء في هذه الرسالة:

«لقد توتر الوضعُ، وازداد سوءاً من ستة أشهر، من حين بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدّةٍ وعنف، وأخافُ أنَّ الأخبار الصحيحة لا تصلُكِ، وإلاَّ فكان من غير المعقول أن تتركي الأوضاعَ تتحوَّلُ من سيِّئ إلى أسوأ، وأنَّ الوضع الصحيح أن حكومات الولايات ـ على عكس مقاصدِ المشرفين على الحكومة والمسؤولين

عنها ـ قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلةً هنيةً في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقعُ بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية معلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين الآمنين الوادعين، وقد أنتجَ ذلك أن تحوّلت هذه البلادُ إلى ثكنة، يسودُها القلق والرعب والخوف، ويرتكِبُ الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كلَّ الأعمالِ الخسيسةِ والوحشية، فيُصطادُ العمال المساكين والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف والإطماع والتغريب حتى يكملوا هدفهم.

وكانت نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي، الذي يسبّبه الخوف والطمع في بلادٍ عمَّ فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدها أسفاً أنَّ أهلَ البلاد يكادون يحرمون من الشعور بكرامتهم، وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي، ومولانا آزاد، ومحمد علي، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية والقهر، ولعلّه ما تمر لحظةٌ يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنّها بلاد حرة ديموقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه وعنف، استطاعت بجهودها أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية، وأخذت بيدها زمام أمورها.

ولا أرى أحرصَ على إيجاد هذه الثقة والاعتماد عليه ومن هو أقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإنَّ لهذه الأسرة نصيباً

أساسياً في هذه الجهود، وقد سقوا هذا الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغُ أن يروا هذا الشجرة في عهد حكمهم، وهي تذوي وتصفرّ، لقد مست الحاجـة الآن إلى مراجعـة الأوضاع فـي البلاد، فإنَّ أيَّ شعب إذا تعود على **العبودية والجبن والخوف، وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل ـ على عكس ما يحب ويريد ـ تحت ضغط الخوف أو طمع المال، واعتقدَ أنَّ المحافظةَ على الحياةِ والمنصبِ والوظيفةِ أهم شيء ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس، فإنَّه لا موضع للطمأنينة والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدَّم سياسيّاً أو اقتصاديّاً وتعليميّاً في الظاهر، فإنَّ البلادَ بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد، والشعوبُ لا تعيشُ إلاَّ بسيرتها وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزّتها وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها وارتفاع مستوى حياتها.**

إنّه لمن الفشلِ والخيبةِ لحركة تحرير البلاد وجهودِها وقادتها أن يضطرَّ الناسُ إلى تذكّر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنَّه لمن العارِ أن يتذكّر الناسُ اليوم العهدَ الإنكليزي ويتمنّونه».

* * *

الفصل الثاني

رئاسته لدار العلوم لندوة العلماء

قامت حركة ندوة العلماء منذ إنشائها عام (١٣١١هـ = ١٨٩٤م)، بدور ريادي في إصلاح منهاج التعليم الإسلامي، وقطعت شوطاً بعيداً في تحقيق أهدافها من إزالة الفجوة بين العلماء والمثقفين، والقضاء على العصبيات المذهبية والفكرية، وتبنّي منهاجٍ تعليمي يأخذُ ما صفا، ويدعُ ما كدر، يرحّبُ بكلّ جديد نافع، ويحرصُ على كلٍّ قديم صالح، يؤمن بثبات الأهداف، ومرونة الوسائل، هو في الأولى في صلابة الحديد، وفي الثانية في ليونة الحرير، وحلّت عقدة الصراع بين القديم والجديد، وجَمعت بين الأصالة والمعاصرة، رافعةً شعارات الجمع والتوفيق والوسطية.

ومن حسن حظ هذه الحركة أنَّ الله تعالى هيأ لها ـ منذ تأسيسها ـ أعلاماً عباقرة، أقاموها على قواعد مكينة، وأسس متينة، لا تنهار بسهولة، وقد كانوا عباقرة أفذاذاً في العلم، والفكر، والدين، والخلق، والعزيمة، والطموح، جمعوا بين النقل الصحيح، والعقل الصريح، واغترفوا من التراث، ولم يغفلوا عن العصر، جمعوا بين عقلانية الفيلسوف، وروحانية المتصوف، وانضباط الفقيه، ولم يكتفوا بالرواية عن الدراية، ولا بالدراية عن الرواية، من هؤلاء

الرجال الأفذاذ: العلاَّمة **محمد علي المونكيري**، والعلاَّمة **شبلي النعماني**، والعلاَّمة السيد **عبد الحي الحسني**، والد الشيخ أبي الحسن، والعلاَّمة السيد **سليمان الندوي**، وغيرهم من الرجال الربانيين، الذين علموا وعملوا وعلَّموا، وكلهم قمم شامخة، وخلفهم تلاميذ لهم، أُشربوا روحهم، واقتبسوا من ضوئهم، وتخلَّقوا بأخلاقِهم، فساروا على نهجهم، فأنشأ الله بهم مناخاً علمياً إيمانياً متفرّداً، إلى أن أُنيطت أمانتها العامة أخيراً بالشيخ الندوي.

ترجعُ صلة الشيخ **الندوي** بندوة العلماء إلى يوم إنشائها، فأبوه العلاَّمة السيد عبد الحي الحسني أحد مؤسسيها، وولي أمانتها العامة إلى أن توفي عام (١٩٢٢م)، ثم عمل أخو الشيخ الندوي الدكتور عبد العلي بن عبد الحي الحسني أمينها العام من عام (١٩٣٠م) إلى يوم وفاته عام (١٩٦١م)، وخلفه الشيخ الندوي إلى أن وافاه الأجل عام عشرين وأربعمئة وألف، وكان قبل ذلك التحق بها طالباً عام (١٩٢٩م)، وعُيِّن بها مدرّساً عام (١٩٣٤م)، واختير عضواً في مجلسها الإداري عام (١٩٤٨م)، وعُيِّن نائباً لوكيل ندوة العلماء للشؤون التعليمية عام (١٩٤٩م)، ثم وكيلاً عام (١٩٥٤م).

تطوَّرت ندوة العلماء في عهد الشيخ الندوي تطوراً كبيراً، وحققت إنجازات عظيمة، وأصبحت بجميع أقسامها التعليمية، وكلياتها المختلفة في علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، ومعهد الفكر الإسلامي وغيرها نموذجاً يُحتذى في الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتغنى بها الشعراء والأدباء، وأشاد بها الدعاة والعلماء، يقول شيخنا الأستاذ سعيد الرحمن الأعظمي: «حققت ندوة العلماء في عهده المشرق إنجازات وجيهة في كلّ مجال من

التعليم والتربية، وشرح الحضارة الإسلامية، وتفسير مقاصد الدين، ومفاهيم الحياة الإسلامية، وتصحيح مسار العلم والتحقيق، وإبراز وجه الشريعة الإسلامية جملاً نيراً من خلال ركام الأفكار والنظريات الباطلة، إنَّه خطَّط الغرض الأصيل لندوة العلماء بكلّ وضوح، ووضع كلَّ إمكاناته ومجهوداته في سبيل ذلك، حتى وفَّقه الله تعالى لإعداد جيل من تلاميذه المخلصين، ممن ساروا على الدرب، وتابعوه على الخط المستقيم، وساعدوه بكلّ ما استطاعوا من الطاعة والولاء، فكانت ندوةُ العلماء في عهدِه مناراً شامخاً للعلم والدين، والأدب والشريعة، ومثالاً فذّاً للجمع بين الإيمان الراسخ، والعلم الواسع، وحاملة لراية العقيدة النيرة، والعلم الحديث، وداعية إلى تحكيم الشريعة في جميع شؤون الحياة، وهاتفة بهتافها الوحيد «إلى الإسلام من جديد»[1].

وسأعرضُ فيما يلي عناوين رئيسة من خدماته لندوة العلماء:

شرح فكرة ندوة العلماء:

قام بشرح فكرة ندوة العلماء في عديد من كتاباته، ومحاضراته، ورحلاته، وزياراته، يقول وهو يصفُ فكرةَ ندوةِ العلماءِ نحو إزالة الفجوة بين العلماء والمثقفين:

«وكانت حركةُ ندوةِ العلماءِ الفكرية التي أسسها مولانا **محمد علي**

---

(١) مجلة البعث الإسلامي، العدد الخاص، ذو الحجة، عام (١٤٢٠هـ)، ص١٥ـ١٦.

الـمونكيري، وقادها العلاَّمة **شبلي النعماني** وزملاؤه، ودار العلوم التابعة لها جديرة بإحداثِ قنطرة تصلُ بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والطبقتين: علماء الدين والمثقفين العصريين، وإحداث فكر جديد يجمعُ بين محاسن القديم والجديد، وبتعبيرِ أصحاب هذه المدرسة الفكرية «**بين القديم الصالح والجديد النافع**» و«**بين التصلّب في الأصول والغايات والتوسّع والمرونة في الفروع والآلات**»، وكان قادة هذا الفكر ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة قابلةٍ للنمو والتطور، خاضعةٍ لحاجة كلِّ عصرٍ ومقتضاه، ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية)، وهي عندهم حافلة بالحيوية الكاملة والازدهار، وبتعبير آخر: إنَّ الدينَ حقيقةٌ خالدةٌ، ليست في حاجة إلى تطوير أو تبديل، ولكنَّ العلمَ شجرةٌ مزهرةٌ مثمرةٌ تؤتي أُكُلها كلَّ حين، ويستمرّ نموّها وازدهارها، والإسلام عندهم دينُ الإنسانيةِ كلِّها، ودين العصورِ كلّها، لذلك من الطبيعي أن يمرّ بمراحل التطوّر والارتقاء الفكري الإنساني المختلفة، ويكيّفُ القيادة في بيئات تتغيّر فيها الأفكار والمفاهيم، لذلك يجب أن يوسَّعَ نطاقُ التعليمِ والثقافةِ، والذي يُعِدُّ ممثلي الإسلام ومفسّريه، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها»[1].

ويقول: «وتتوسط بين المدارس القديمة التي تتمسَّك بالقديم، وترى العدول عنه ضرباً من التحريف، ونوعاً من البدع، وبين الجامعات المدنية،

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص٦٦ ـ ٦٧.

التي تقدّس الجديد، وتستهين بكلّ قديم، تتوسط بين تلك وهذه الدار العلوم، التابعة لندوة العلماء، التي تأسست في لكنو عام اثني عشر وثلاثمئة وألف هجرية بيد العالم الربّاني الشيخ **محمد علي المونكيري** وزملائه المخلصين، الذين خافوا على المسلمين من المحافظين ومن المتطرّفين، ومن اعتزال العلماء عن الحياة، وتخلّفهم عن ركب الثقافة والعلم، ومن العصبيات المذهبية والمشاجرات الفقهية، التي قويت ونشطت في العهد الأخير.

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على **مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغيَّر، والعلم الذي يتغيَّر ويتطوَّر ويتقدّم**، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأنَّ العلومَ الإسلامية علومٌ حية نامية، وأنَّ منهاجَ الدراسة خاضعٌ لناموس التغير والتجدّد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كلِّ عصرٍ ومصرٍ، وأن يزاد فيه ويحذف منه بحسب تطوّرات العصر وحاجات المسلمين وأحوالهم»[1].

ويقول: «وكانت حركةُ ندوة العلماء فكرةً ومدرسةً فكريةً أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب، وكانت ـ لو قدَّر الله ـ خطوةً مباركةً، وفتحاً يستحقُّ التقليد في الأقطار والمجتمعات الإسلامية التي خاضت في ذلك العهد معركة الصراع بين القديم والجديد. . .، ورغم ذلك كلّه لا تزالُ فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط، والحقيقة التي تستطيعُ أن تُنقذ نظام التعليمي الديني من

---

(١) المسلمون في الهند، ص١٣٨.

الانهيار، وتتفادى بها الأمة الصراعَ بين القديم والجديد، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين، طبقة علماء الدين، وطبقة رجال الثقافة الحديثة، الوضع الذي جـرَّ على كثيرٍ من البلاد الإسلامية شـقاءً، وكان السـببَ في كثيـرٍ من الأحيان في اتجاه البلاد العلماني واللاديني»[1].

منهج ندوة العلماء:

يقول وهو يشرح منهج نـدوة العلماء: «تقـومُ **فكرة نـدوة العلمـاء** ودعوتها:

● **في الدين والعقيدة**: على الدين الخالص، النقي من الشوائب، البعيد عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وعلى العودة في تلقيه وفهمه وتفسيره إلى منابعه الصافية الأولى، ومصادره الصحيحة الأصيلة، وفي العمل والسلوك، على التمسّك بلباب الدين، والعمل بأحكامه والتحلّي بحقيقته وروحه الربانية المشرقة الصافية، وفي تصورها للتاريخ على أنَّ خيرَ العصورِ هو العصرُ الذي ظهر فيه الإسلام، والجيل المثالي هو الجيل الذي نشأ في أحضان النبوة، وتخرَّجَ في مدرسة القرآن والإيمان الأولى، وإنَّ السعادةَ كلَّ السعادة في الرجوع إليه، والاقتداء به.

● **وفي نظرتها العلمية، وفلسفتها التعليمية**: على أنَّ العلم وحده لا ينقسم إلى قديم وحديث، وشرقي وغربي، وإن انقسمَ فإنَّما ينقسِمُ إلى صواب

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص٦٧ ـ ٦٨.

وخطأ، ونافع وضار، وأصول وفضول، وغايات ووسائل.

● **وفي موقفها من الأخذ والترك، والانتفاع والاقتباس**: على التعليم النبوي «الحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ، فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها» وعلى المبدأ القديم الحكيم «خُذْ ما صفا، ودع ما كدر».

● **وفي مجال الدفاع عن الإسلام ومواجهة تحديات العصر**: على الإرشاد الربّاني ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

● **وفي أسلوب الدعوة إلى الله وعرض محاسن الإسلام وإقناع العقول**: على الوصية الحكيمة المأثورة: «كلِّموا الناسَ على قدر عقولهم، أتريدونَ أن يكذَّبَ اللهُ ورسولُه».

● **وفيما اختلف فيه السلف من مذاهب وآراء**: على التحقيق والتطبيق، وإحسان الظن بهم، والتماس العذر لهم، وترجيح ما هو أوفق بالكتاب والسنة، وأقرب إلى جمع الشمل، وأبعد عن الفرقة والتنافر، وأقرب إلى مصلحة الإسلام الاجتماعية.

وبالجملة فهي أقرب إلى مدرسة حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي المتوفى عام (١١٧٦هـ) العلمية والفكرية، والكلامية والفقهية»[١].

---

(١) أضواء، ص٤٥ـ٤٦.

تطوير مناهجها الدراسية:

دعت ندوةُ العلماء منذُ يومها الأول إلى إصلاح المناهج التعليمية، وتطوير المقررات الدراسية، حسب مقتضيات العصر ومتطلبات الزمن، مع الاحتفاظ بالأصالة والقديم الصالح، ولكنَّ التحول من القديم إلى الجديد لم يكن هيّناً ولا ميسوراً، فرغم التعديلات التي أجرتها ندوة العلماء في مناهجها، كان هنالك شعورٌ قوي بأنّها إذا كانت تعزمُ على تدريس اللغة العربية كلغة حية؛ فإنه لا بدّ أن تعيد النظر في مقرّراتها، وتعدّ مقررات تفي بالغرض المطلوب، وحالفها الحظُّ أنْ تمَّ تعيين الشيخ الندوي مدرّساً للتفسير والأدب العربي فيها، وكان أخذ العربية من شيخين عربيين: الشيخ **خليل اليماني** والدكتور **تقي الدين الهلالي**، واكتسب منهما الذوقَ الأدبيَّ والقدرةَ البيانيةَ، وألقى نظرة على المناهج والمقرّرات الدراسية العربية، فوجدها تحتوي على تقاليدَ وأعراف ألفت فيها، فلا تفي بحاجة الطلبة الهنود، فألف سلسلة **(القراءة الراشدة)** في ثلاثة أجزاء عام (١٩٤٤م)، وأعدَّ سلسلة **(قصص النبيين للأطفال)** في خمسة أجزاء، يقول عنها:

«وقد شعرت بعد بدئي بهذا العمل بأنَّ الله تعالى ألانه ويسَّره لي، فكنتُ أكتب عفواً مرتجلاً دون كلفةٍ، حتى كأنني أتكلَّمُ، وقد التزمتُ فيه بأربعة أمور:

١ ـ أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل القليل، ولكنّها تنقشُ في ذهن الطالب بكثرةِ التكرارِ والإعادة.

٢ ـ أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضعُ الآيات الكريمة في محالّها كالفَصِّ في الخاتم.

٣ ـ أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية: (التوحيد، والرسالة، والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

٤ ـ أن تبسّط القصص، وتزوّد الأطفال بما يكرِّهُ إليهم الكفرَ والشركَ والمعاصي، وتحبِّبُ إليهم الإيمان والعقيدة، وترسِّخُ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم، وكلُّ ذلك بطريقٍ لا يشعر الطالب بثقله، وأنَّه يُلقى عليه، بل يتلقَّاه ضمناً وعفواً وينسجم معه»[1].

وصاغ مجموعةً أُخرى للأطفال باسم (**قصص من التاريخ الإسلامي**) بلغةٍ سهلةٍ وأسلوبٍ شيّق، مراعياً فيها عقلية الأطفال ومستواهم، بحيث يستسيغونها من دون سآمة وملل.

وقام بـإعداد (**مختارات من أدب العرب**) في جزئين، يشتمل على مجموعة من النصوص الأدبية تمثّلُ النماذجَ المختلفة من العصر الإسلامي الأول إلى العصر الحديث، تلقَّاه الناسُ بالقبول، وقرّر تدريسه في ندوة العلماء وغيرها من المدارس والجامعات، وأمر الأستاذ محمد الرابعَ الحسنيَّ الندويَّ بإعداد مجموعة أخرى لطلاب الثانوية، فألّف (**منثورات**) وقد نال القبول كذلك، ثم ألَّف الأستاذ محمد الرابع (**الأدب العربي بين عرض ونقد**) و(جغرافية العرب)

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ١٤٥.

وغيرها من الكتب تطبيقاً لفكرة ندوة العلماء نحو تطوير المناهج التدريسية.

وأنقلُ هنا مقتبساتٍ من كتابات الشيخ الندوي، تلقي الضوءَ على رؤيته نحو منهاج ندوة العلماء التعليمي، فمثلاً يقول: «وكانت (ندوة العلماء) ترنو إلى تعليم اللغة العربية كلغة حيّة نابضة يخاطب بها العرب أنفسَهم، وتكون وسيلة الدعوة الإسلامية فيهم، وتنشئ في طلاب المدارس العربية وخريجيها ملكةَ الخطابةِ والإنشاء والتحرير، وقد أنشأت هذه الحركة لأجل هذا الغرض، ولتحقيق هذه المشاريع والخطط، وعرض نموذج حي لذلك أمام المدارس الإسلامية في الهند دار العلوم المركزية التابعة لها في لكنو عام (١٣١٢هـ) باسم دار العلوم ندوة العلماء»[١].

ويقول وهو يذكر سمة منهاج ندوة العلماء الدراسي: «ومن توفيق الله تعالى للمتخرّجين من هذه المؤسسة والمسؤولين وضع منهاج دراسي للغة العربية والأدب العربي، يجمعُ بين الدين والأدب، بغرس العقيدة الإسلامية وتحسينها، والإعجاب بها في نفوس الأحداث والناشئة الإسلامية من حيث إنها لا تشعر بثقلها»[٢].

ويقول وهو يشيد بفضل منهاج ندوة العلماء: «عنيت دارُ العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم ـ الرسالة الخالدة ـ وتدريسه ككتاب لكل عصر وجيل، وعنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه وأمينة خزائنه، ووجهت عنايتها إلى

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٣٩ـ ٤٠.

(٢) أضواء، ص٤٩.

تعليم هذه اللغة الكريمة كلغة حية من لغات البشر يكتَبُ بها ويخطب، لا كلغة أثرية دارسة لا تجاوز الأحجار أو الأسفار كما كان الشأن في الهند، وقلّلت قسط بعض العلوم القديمة التي لا تفيد كثيراً، وأبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدمَ دينه وأمته، واجتهدت أن تخرّجَ رجالاً مبشّرين بالدين الإسلامي الخالد لأهل العصر الجديد، شارحين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهلُ العصرِ وبأسلوب يستهوي القلوب، أمة وسطاً بين طرفي الجمود والجحود»[١].

تشييد مبنى المكتبة:

عُني المشرفون على ندوة العلماء منذ أول يوم من تأسيسها بتكوين مكتبة تضم كلَّ ما يحتاج إليه الأساتذة والطلبة والباحثون من كتب علمية قديمة وحديثة، ومصادر تحقيقية، وتسهيلات لازمة، ولكنّ المكان المستعمل لها كان متواضعاً، وهو عبارة عن قاعة في مبنى دار العلوم، فنظر الشيخ الندوي في إقامة مبنى خاص للمكتبة يفي بحقِّها، ودعا لوضع حجر أساسه الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس القضاة في أبو ظبي الذي كتب إليه في رسالة له: «وإنّي وصحبي لفي شوق أن نتنسّمَ هواءَ الهند العليل، ونسيمَ لكنو البليل، وشذا ندوة العلماء الذي يشفي العليل ويقوِّي الكليل، ولعلَّ الله تبارك وتعالى كما قضى في سابق علمه أن تشرفوني بوضع الحجر الأساس لمكتبة الندوة أن يكون قد قضى وقدر أيضاً أن أشهد يوم افتتاحها وما ذلك على الله بعزيز»[٢].

---

(١) المسلمون في الهند، ص١٣٩.

(٢) رسائل الأعلام، ص٧٢.

وشيد مبنى مكتبة ندوة العلماء الجديد، وتم افتتاحه بمناسبة الندوة للأدب الإسلامي في ٢٥ جمادى الأولى عام (١٤٠٤هـ) باسم مكتبة العلاّمة شبلي النعماني، وأُعجب الضيوف الحضور والزوار الكرام من العرب وغيرهم بثرائها وندرة مخطوطاتها، بل ومناخ الندوة العلمي العام، فقد كتب إليه الأستاذ الأديب عبد العزيز الرفاعي ٢٦/ ٦/ ١٤٠١هـ: «فقد كانت الأيامُ القلائلُ التي قضيتها بينكم أياماً لا تنسى بحق، ولو لم تتحيوا لي ـ بكرمكم ـ أن أرى ما رأيته من آثاركم العظيمة في جامعة دار العلوم، لما كنت مصدّقاً كلَّ هذا الذي رأيتُ من آثار أمجادكم، وما وفقكم الله إليه من عمل علمي عظيم، وإنّه لتوفيق كبير، فالحمدُ لله على نعمته عليكم وعلى أبناء المسلمين في بلادكم.

وعدا ذلك فقد أتحتم لي ـ أيضاً ـ أن أجتمعَ بعدد كبير من فضلاء العلماء والأدباء الذين يندر اجتماعهم إلاّ في مثل هذه المناسبات.

ولقد سبق لي أن حضرت مؤتمرات عدة، ولكني لم أشاهد فيها ما تكلّل بذلك النجاح المطلق الذي تكلّل به اجتماعكم، وذلك أمارة من أمارات توفيق الله لكم، فله الحمد مرة أخرى، بل مرات ومرات.

لقد عدتُ إلى بلدي ونفسي ممتلئةٌ بالإعجاب، كما هي ملأى بالتقدير والإكبار، وبالشكر الجزيل لسماحتكم على كل ما أوليتمونيه من فضل، وهو فضل كبير لا أنساه أبداً إن شاء الله تعالى. ولكَم كان بودي ـ لو استطعتُ ـ أن أتريّثَ بعضَ الوقت في بلادكم الجميلة، وفي ذلك الجوِّ العلمي الذي يعزُّ نظيرُه لتزداد فترة اجتماعي بكم، ولأتزوّدَ بشيء من علمكم، ولكي يتسنَّى لي

الوقوف على مخطوطات المكتبة القيمة ونفائسها، ولكن الوقت كان ضيقاً جداً ومحدوداً. وعلى أنَّ الرغبة في الحصول على صورة بعض المخطوطات وبعض نوادر المطبوعات ما تزال تلحُّ علي. . ولعلّكم وجدتم الفرصة للتوصية على مراجعة البيان الذي تركته لدى سماحتكم»[1].

تعريفها في الهند:

حققت ندوة العلماء النجاح الباهر خلال الأيام القليلة من إنشائها، واعترفَ به علماء الهند، وقادتها، فلمَّا نشرت (الندوة) مقالة السيد سليمان الندوي (وهو طالب) عن الحديث وعلومه، واطّلع شمسُ العلماء مولانا **ألطاف حسين حالي** على هذه المقالة كتبَ إلى العلامة شبلي النعماني: «لقد سرَّني أنَّ دار العلوم قدَّمت نموذجاً رائعاً لمنهجها التعليمي في أول مرة، فبارك الله فيها وفي طلبتها، أرجو لا بل أوافق أنَّ الاضطلاع من اللغة العربية وعلومها والإلمامَ الضروري باللغة الإنكليزية سيُنْشِئان في شعبنا المسلم الهندي كتَّاباً ومؤلفين أكْفاء لم ينشئ التعليم الإنكليزي الحديثُ إلى الآن أحداً يضاهيهم»[2].

ولكنَّ ندوة العلماء ـ رغم مرور نحو نصف قرن من الزمان على تأسيسها، ومع عطاء تعليمي وثقافي ضخم ـ ظلَّت حركةً خاصةً لا يعرِفُ عامةُ الشعبِ

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) مجلة الندوة، عدد شهر ربيع الثاني، عام (١٣٢٣هـ).

عنها إلاّ اسمها، ومن مآثر الشيخ الندوي ـ بفضل ارتباطه الدعوي القريب بالشعب، ونفخ روح جديدة من الاتجاه الديني في مناخ دار العلوم لندوة العلماء ـ أنه منذُ أن تولّى أمانتها العامة ازدادت شعبية ندوة العلماء، وأقبل المسلمون الهنود عليها إقبالاً كبيراً، وأحبوا نظامها التعليمي، وآثروا منهاجها الدراسي، وتنافسوا في بعث أولادهم للدراسة فيها، حتى اكتظَّت بالطلاب، واضطرَّ المسؤولون فيها إلى توسعتها توسعة بعد توسعة، فلمَّا لم يبقَ مجالٌ لتوسعتها اشتروا أراضي واسعة في ضاحيةٍ من لكنو، ونقلوا إليها مراحلها الابتدائية والثانوية.

وفي جانب آخر ازداد في عهده اتجاهُ ارتباط المدارس الإسلامية الرسمي بندوة العلماء، وافتتاح مدارس فرعية لها في كافة أنحاء الهند، بل وخارجها في بنغلاديش، ونيبال، فلا ترى ولاية في الهند ولا مدينة كبيرة فيها إلاّ ولندوة العلماء فيها فرع أو أكثر.

تعريفها في العالم:

كانت لندوة العلماء صلةٌ مباشرةٌ بالعالم العربي منذ أن أُنشئت، وقوي هذا الاتصال بزيارة العالم الجليل السيد **محمد رشيد رضا** لها عام (١٩١٢م)، فكان من خلال كتاباته أن أطلعَ العالم العربي على فكر ندوة العلماء ورسالتها، وكذلك زيارة سماحة مفتي فلسطين السيد **محمد أمين الحسيني** التي شهدها الشيخ الندوي، حيث يقول في ترجمته: «وقد سمعت به وأنا في ريعان الشباب وأيام الطلب، كأنّي أسمع عن شخصيات الجيل الماضي، أو كأنّي أنظرُ إلى

نجمٍ متألّقٍ في الأفق البعيد، حتى جمعني الله به على غير ميعاد في مدينة لكنو في ندوة العلماء حين زار الهندَ مع زميله الأستاذ **محمد علي علوبة باشا** عام (١٩٣٣م) في جولة دعائية للجامعة الإسلامية التي كان قد أراد إنشاءها في القدس، وكانت زيارته للكنو ضمنَ هذه الجولة، فكأنَّه حلمٌ تحقّق، ودعوناه إلى دار العلوم لندوة العلماء، وكان يعرفها عن طريق الكتب والصحف، وعن طريق صديقه أستاذنا العلاّمة السيد سليمان الندوي، ولبَّى هذه الدعوة ورحّب بها، كأنَّه ينتظرها ويتوقعها. ولا أنسى ذلك الحفل الزاهر المشرق الذي تحدّث فيه سماحة المفتي، وقد طلع عليه بطلعته البهية الوقور، التي يلتقي فيها الجمال الصوري بالجمال المعنوي، والوسامة الظاهرة بالوقار والرزانة والتواضع، وأخلاق العلماء بالأناقة وحسن الهندام، فكأنّه مَلَكٌ نزل من السماء، أو مَلِكٌ من ملوك المسلمين القدامى عاش من جديد، وأكبر الظن أنه كان في العقد الرابع من عمره، ولا أزال أذكر إنشاده للبيت العربي المعروف، وهو يذكر زيارته لهذه الدار، وأنّه قد سمعَ عنها كثيراً، وقرأ عنها كثيراً:

حتّى التقينا، فلا واللهِ ما سمعتْ أذني بأحسنَ ممّا قد رأى بَصَري

وأول البيتين:

كانَتْ محادثةُ الركبانِ تخبِرُنا عَنْ جَعْفَرِ بنِ فلاحٍ أطيبَ الخبرِ[1]

ومنذ أن اختير الشيخ الندوي أميناً عاماً لها قفزت شهرتُها قفزةً واسعة في

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٢٤ ـ ١٢٥.

العالم العربي، فإنَّ القبول العام الذي أضفى الله عليه في العالم العربي والإسلامي سبَّبَ ذيوعَ صيت ندوة العلماء، ولكنو معاً، يقول الشيخ علي الطنطاوي في رسالة له إليه حينما وجَّه إليه دعوة حضور مهرجان ندوة العلماء: «لقد وصل إليَّ كتابكم الكريم، وفيه الدعوة إلى مهرجان الندوة، ولقد كنتُ في مقابلة إذاعية، فسألني المذيع، أيُّ الأماكنِ أقربُ إلى قلبك؟ وأيُّها يشتملُ على أحلى ذكرياتك؟ وكان ظنه أن أقول دمشق ـ بلدي ـ ولكنَّه فوجئ ودهشُ لمَّا قلتُ له: ندوة العلماء في لكنو، قال: وأين لكنو؟ قلتُ: هي مدينة أبي الحسن الندوي، أي واللهِ أنتَ أشهرُ في العالم العربي، حتى إنّها لتعرَفُ بك»[1].

ويقول الشيخ الندوي وهو يلقي الضوءَ على صلة ندوة العلماء بالعالم العربي: «وكان من توفيق الله تعالى ونتيجة اتصال المتخرجين من دار العلوم لندوة العلماء الوثيق القريب بالأقطار العربية الإسلامية، وما يصدر من أقلام كتّابها وقادتها السياسيين، والثقافيين، والأدباء والمثقفين من كتب ورسائل، تدلُّ على وجود مركب النقص فيما يتصل بصلاحية الإسلام وتعاليمه لقيادة هذا العصر المتقدّم في العلوم والفنون، والصناعة والإبداع، وما طرأ على الشعوب والمجتمعات من تطورات وثورات، ومقاومة ما ظهر في كتاباتهم من كون (العلمانية) هو الملجأ الوحيد والطريق السديد لقيادة الشعوب والبلاد، وكون كثير من القادة والكتّاب العرب فريسةَ (القومية العربية) التي تدعو إلى اللجوء

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

إلى العهد الجاهلي، الذي لم يكن فيه فصل بين الأديان، وبين الكفر والإيمان.

وفق الله مجموعةً من المتخرّجين منها والمنتمين إليها إلى الدعوة الإسلامية الصريحة الواضحة، والفكرة الإسلامية الأصيلة الصحيحة في العربية، وصدرت من دار العلوم مجلةٌ إسلاميةٌ صريحةٌ قويةٌ، هي **(البعث الإسلامي)**، وصحيفة نصف شهرية هي صحيفة **(الرائد)**، وصدر من قلم مدير ندوة العلماء رسائل وكتب صريحة قوية نالت إعجاب القرّاء العرب، واعترافهم»[١].

مهرجان ندوة العلماء:

وكان من أهم الأحداث في تاريخ ندوة العلماء انعقاد المهرجان التعليمي العالمي في ٢٥ ـ ٢٧ شوال عام (١٣٩٥هـ) أواخر شهر أكتوبر عام (١٩٧٥م)، وذلك بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على تأسيسها، أراد الشيخ الندوي أن يجمعَ كبار علماء الأمة ودعاتها بهذه المناسبة، ليروا هذه المؤسسة الفريدة بأعينهم، ويلمسوا آثارها بأيديهم، ويتحسّسوا حاجاتها بأنفسهم، ويساهموا في إقامة مشروعاتها المستقبلية، وأقدِّمُ هنا رسالةً من أحد الأعلام استجابة لدعوة الشيخ لحضور المهرجان تدلُّ على مدى بعد الرؤية عند الشيخ، وهي رسالة سماحة الشيخ **عبد الله بن حميد** عالم نجد الكبير:

---

(١) أضواء، ص٤٧ ـ ٤٨.

«**من عبد الله بن محمد بن حميد إلى** حضرة جناب الأخ المكرم الأفخم صاحب الفضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي الأمين العام لندوة العلماء».

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعدُ: خطابُكم المكرَّم رقم (١٣١٦) في ٢/ ٥/ ١٣٩٥هـ وصلَ، وفهمنا ما تضمنه، وقد سررنا كثيراً حيث أفادنا أولاً عن صحتكم واستقامةِ أحوالكم، وثانياً عزمكم على عقد مهرجان لندوة العلماء في ٢٥ ـ ٢٧ شوال القادم بمناسبة انقضاء خمسة وثمانين عاماً على بَدْءِ نشاطها التربوي الإسلامي.

والواقع ـ حفظكم الله ـ أنَّ هذا يسرُّ كلَّ غيور على الإسلام، بل يسرُّ كلَّ مسلمٍ، وأنَّكم تُشكَرون على هذه المهمة العالمية، التي هي خدمة دين الله، دين الإسلام الذي ارتضاه لنفسه، ولم يقبل من أحد ديناً سواه، وإنّي أرى أنَّ هذا الاجتماع وهذا الملتقى مما يقوّي أواصر المحبّة، ويشدّ عضد التضامن الإسلامي بين الأمة، ويقوي عزائم العلماء على مواصلة جهودهم وكفاحهم نحو هذه الشريعة السمحة.

وأما إشارتكم إلى مجهودات ندوة العلماء فهذا شيءٌ معروفٌ لدى الجميع وملموس، وأثره واضحٌ بيّنٌ، وقد ظهرت نتائجه وفوائده كيف لا تكون كذلك، وقد مضى عليها هذه المدة الطويلة في كفاحها المرموق، وجهادها المتواصل بتوجيهات فضيلتكم، وأنتم والحمد لله ممن عُرِفَ بالاتّزان والاعتدال، والوجهة الإسلامية المشرقة؟!.

أمَّا دعوتكم لنا للحضور في هذا المهرجان المشرق فهو مما يسرّني ويسعدني، وكيف لا يكون كذلك، وأنا في هذه الفرصة ألتقي بإخواني في الله وأحبائي وممن تجمعني رابطة العلم والأخوة الدينية الإسلامية، وبحول الله وقوته سأحاول بكلّ جهدي أن أحضر معكم في مهرجانكم الميمون، واجتماعكم المبارك، وأرجو أن لا تحولَ الأقدارُ دونَ ذلك، وإن قدر عدم الحضور لأسباب قاهرة، فالقلبُ معكم والخاطر عندكم.

وختاماً أسأل الله جلَّ شأنه أن يكلّل عملكم بالنجاح، وأن يكونَ هذا الاجتماعُ خيراً وبركةً على الإسلام وفي نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وما توفيقي إلا بالله، وعليه توكلتُ وإليه أنيب، والله يحفظكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. عبد الله بن محمد بن حميد»[١].

ونالت دعوة المهرجان استجابةً كبيرةً من أعلام الفكر والدعوة في العالم العربي والعالم الإسلامي، فحضرها عدد كبير منهم، وكان على رأسهم الإمام الأكبر **الشيخ عبد الحليم محمود** شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ الدكتور **محمد حسين الذهبي** وزير الأوقاف المصري، وفضيلة الشيخ **يوسف القرضاوي**، وفضيلة الشيخ **عبد الله بن إبراهيم الأنصاري**، وفضيلة الشيخ **عبد المعز عبد الستار**، وفضيلة الشيخ **أحمد عبد العزيز المبارك** رئيس القضاء في الإمارات، وكان المهرجان احتفالاً تاريخياً لمسلمي الهند، وعيداً من أعيادهم، فلمَّا وصل الضيوف إلى دهلي في وفود مختلفة، استقبلهم المسلمون استقبالاً رائعاً

(١) رسائل العلام، ص٥٠ـ٥٢٩.

في مطار دهلي، ثم لما نزلوا في لكنو، وجدوا استقبالاً حافلاً في المطار، وقد ألبسوا عقوداً من الزهور والورود، وكان مسلمو مدينة لكنو ومسلمو الهند عامةً في خدمتهم، فما مِنْ مدينةٍ في الهند إلاّ أرسلت ممثلين لها، وكأنَّهم كانوا ضيوفاً على مسلمي الهند جميعاً، فبالغوا في إكرامهم، حتى قال الدكتور **محمد المهدي البدري** مازحاً: لم يبقَ على الشيخ الندوي إلاّ أن يزوِّجَ كلَّ ضيفٍ هنديةً مسلمةً.

وفي مقرّ الندوة أقيم سرادقٌ ضخمٌ يسع ألوفاً مؤلَّفةً، وكان الحفلُ يضمُّ المسلمين وغير المسلمين، فقد بهر الهندوس هذا الاستعداد الكبير، وعلموا أنَّ شيوخاً كباراً من العالم العربي والعالم الإسلامي سيحضرون، فرغبوا في المشاركة، وحضر ألوفٌ منهم في المهرجان. كما أنَّ كثيراً منهم حضروا إكراماً للشيخ، لما له من مكانة كبيرة في الهند كلها، وسمح الشيخ لأول مرة للمصورين أن يحضروا، ويلتقطوا الصور للحفل وللضيوف، وللمتكلّمين، وقال الشيخ: إنَّ علماءَ الهند لا يجيزون التصوير، ولكن لأجلِ خاطرِ إخواننا من علماء العرب سمحنا بالتصوير، نزولاً على رأيهم في إباحته.

وكان المتَّبع في مثل هذه الأحوال: أن يكونَ الشيخُ هو رئيس هذا المهرجان أو المؤتمر، ولكنَّه أبى إلاّ أن يكون الرئيس هو شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود، وتحدَّث عدد من المدعوّين، يقدّمهم عريف الحفل، ولكن اثنين منهم حرص الشيخ الندوي على أن يقدّمهما للجمهور، أحدهما: العلاَّمة **الشيخ عبد الفتاح أبو غدة**، الذي يعرفه علماء الهند بآثاره العلمية، وبما له من عناية خاصة بعلماء الهند وآثارهم العلمية، ولا سيما عالم لكنو الشهير

الشيخ عبد الحي اللكنوي، الذي نشر الشيخ آثاره مثل (الرفيع والتكميل في الجرح والتعديل) وغيرها، وعلّق عليها تعليقات ضافية، والثاني: هو: **الشيخ يوسف القرضاوي**، الذي أضفى عليه الشيخ من الصفات والمحاسن، وارتجل الشيخ القرضاوي في الحفل الكبير الذي لا يكاد يرى آخره، كلمة قوية مركزة، أثرت في الحضور، حتى الذين لا يعرفون العربية تأثروا بها، ربّما لأنها خرجت من أعماق القلب، فأثرت في القلوب، حتى قال له الشيخ الندوي: لعلك تعجبُ إذا علمتَ أنَّ الهندوس الذين حضروا الحفلَ تأثروا بكلامك وإن لم يفهموه، فقال له: إنها نفحاتُ ندوة العلماء وشيوخها هبَّتْ علينا، فما كان في كلامنا من خير، فهو منكم وإليكم.

وقام الشيخ الندوي في كلمته الترحيبية التي افتتح بها المهرجان بعرضٍ موجزٍ لتاريخ الوجود الإسلامي في الهند، ودور المسلمين في المجالين: التعليمي والثقافي، بدأها بقوله: «أرحّبُ بكم على أرضٍ قامت عليها تجربةٌ من نوع فريد في تاريخ الديانات والحضارات والثقافات نجحت نجاحاً منقطع النظير، تجربة دخول دين يواكبه العلم والحضارة، ومنهج خاص للحياة، لا تربطها به لغة ولا آداب ولا حضارة، ولا قومية ولا عنصرية، ولا عادات ولا طبائع، فبرهنت هذه التجربة على القوة المودعة في طبيعة الإسلام، وقدرته على إشعال المواهب، وتفتيق القرائح، وإثارة الدفائن، واستخدام الطاقة البشرية في صالح الإنسانية، وعلى استجابة الفطرة البشرية السليمة له، كأنَّما كانت منه على موعد واشتياق، ومعه على تفاهم واتفاق، وبرهنت كذاك على خصب التربة وكرم المنبت، وعلى أنَّ العلوم الإسلامية تورِقُ وتثمرُ في كلّ بيئة

ومُناخ، وقد تكون أكثر ازدهاراً، وأفضل ثماراً، إذا غرست في أرض بكر، وتناولها عمل التلقيح الحكيم، والتأبير السليم، وعلى أنَّ الشعور بالغربة، والبعد عن مصدر هذه الهداية، ومنطلق هذه القافلة، واليأس من وصول الميرة والمدد، والاعتماد على نصر الله وحده، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية، وصلاحيتها للبقاء، ونفعها للإنسانية المعذبة، والشعور بكونها على ثغرة من ثغور بعيدة عن مركز الإسلام، كلفها الله حراستها والذود عنها، يثير في هذه الجالية قوةً تصنعُ العجائب، وتأتي بالمعجزات، وتتغلَّب على كلّ مقاومة ومحاربة، ومؤامرة ومعاكسة، وتكذب تجارب الأمم، وتبطل المنطق المادي الذي يؤمن بالرياضيات، وفلسفة الأعداد والعُدد، وخضوع النتائج للمقدمات، والمسببات للأسباب».

وختمها بقوله: «وأصبح الشعب المسلم الهنديُّ اليوم مكتفياً بالإسلام، يستمدُّ قوته وصموده من منابع الإسلام الأصيلة، كالكتاب والسنة، وسلوك الرعيل الأول من المسلمين، وجهاده ووفائه وبطولاته، وسيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الإسلام، وأساغوا تعاليمه، واستقاموا على الطريقة، قد ربط عقيدته ومصيره وسلوكه بالإسلام، ولم يربطه بالإسلام عرباً كانوا أو عجماً، فليس إمعة يقول: إنْ آمن الناس آمنا، وإن كفروا كفرنا، وإن استقاموا استقمنا، وإن انحرفوا انحرفنا، ولا يشترط لوفائه للإسلام وفاءَ شعبٍ من الشعوب الإسلامية للإسلام، بل يرى ذلك لزاماً عليهو وشكراً لنعمة الإيمان التي لا نعمةَ أعظمُ منها، وهو يدعو الله أن يبقى متمسّكاً بالجامعة الإسلامية، معتزّاً بحضارة الإسلام وفلسفته، متمسّكاً بالدين الإسلامي كدينٍ

كاملٍ يقودُ الحياةَ كلّها والأزمنة والمجتمعات كلها، حين تؤمنُ شعوبٌ كثيرةٌ بقومياتها وحضاراتها البائدة، وفلسفاتٍ عتيقة وحديثة، منافية للإسلام أو منافسة له، وأن يلهم الثبات على المبادئ والقيم، والمثل العليا، مهما كانت قيمته في الحياة المادية والفرص المواتية، حتى يستطيعَ أن يخاطِبَ ربَّه وينشد:

فليتــكَ تحلــو والحيــاةُ مــريــرةٌ ... وليتــكَ تــرضــى والأنــامُ غِضَــابُ
وليــتَ الــذي بيني وبينــكَ عــامــرٌ ... وبينــي وبيــن العــالميــن خــرابُ
إذا صــحَّ منــكَ الــودُّ فــالكــلُّ هَيِّــنٌ ... وكُلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرابُ»(١)

وألقى الضيوف كلماتهم، وقسَّم أعضاء المؤتمر إلى لجان، منها لجنة التربية والتعليم، ولجنة الصياغة العامة لتوصيات المؤتمر، وانتهى المهرجانُ بنجاحٍ كبيرٍ، لم يسبق له نظير في تاريخ الهند، لا سيما في كثرة الضيوف والزوار من العلماء والأدباء والدعاة والمفكّرين العرب، واستضافت دولةُ الهند إكراماً للشيخ الندوي، واعترافاً بمنزلته في العالم الإسلامي عدداً من الضيوف، وكان الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ الذهبي، والشيخ الأنصاري، والشيخ عبد المعز، والشيخ القرضاوي، ممن نزلوا ضيوفاً على الدولة، ودعا رئيس الجمهورية الدكتور ذاكر حسين الضيوفَ إلى الغداء، ثم رافقهم عدد من رجال الحكومة لزيارة بعض الأماكن المهمة التي يحرص السياح عادة على زيارتها، فزاروا القلعة الحمراء في دهلي، ومنارة قطب الدين، وغيرهما، وكان أهم معلم سياحي زاروه هو (تاج محل) الذي هيئت لهم زيارته بسيارات خاصة،

---

(١) المسلمون في الهند، ص٢٢٧ ـ ٢٣٩.

واستعجب الضيوف أنَّ كلَّ المعالم السياحية التي تباهي بها الهند وتفخر: هي معالم إسلامية.

فضل حركة ندوة العلماء:

إنَّ فضلَ حركة ندوة العلماء على الهند بل وعلى العالم العربي والإسلامي ظاهرٌ غيرُ خفي، فقد نجحت في مهمتها نجاحاً لا يُستهان بقيمته، وأنجبت رجالاً هم خير مثلٍ للعالم المسلم العصري، لهم آثار جميلة خالدة في العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وآداب اللغتين العربية والأردية، والدعوة الإسلامية، يقول الشيخ الندوي: «وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرّجي مدرستها ـ دار العلوم ندوة العلماء ـ فضلٌ لا يستهان به في نشر الثقافة الإسلامية، وعرض السيرة النبوية، ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أسلوبٍ عصري قوي وثوب قشيب، وكان لكتابات العلاّمة **شبلي النعماني**[1] العلمية والأدبية ولا سيما لكتبه (سيرة النبي ﷺ)، و(الفاروق) و(الغزالي) و(الرومي)، ولرسائله (الجزية في الإسلام) و(مكتبة الإسكندرية) و(نظرة تاريخية على عالمكير) تأثيرٌ كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية، ومكافحة مركب النقص فيهم، كذلك كان لتلميذه النابغة العلاَّمة الدكتور السيد **سليمان الندوي** رحمه الله[2] عليه فضل كبير في هذا الاتجاه، وكانت المجلدات الأربعة التي أكمل بها كتاب (سيرة

---

(١) انظر: كتاب شبلي النعماني، للمؤلف، ضمن سلسلة أعلام المسلمين التي تصدرها دار القلم بدمشق.

(٢) انظر: كتاب سليمان الندوي، للمؤلف، ضمن سلسلة أعلام المسلمين التي تصدرها دار القلم بدمشق.

النبي ﷺ) موسوعة كبيرة في السيرة وعلم التوحيد، ويعتبر كتابه (خطبات مدراس)[1] من أقوى وأجمل ما كتب في السيرة، وكذلك كتبه عن الشخصيات الإسلامية، وفي البحوث العلمية، وقد ساهم بنشاطٍ وجدارةٍ في حركة البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب، وأبعدت عنهم تهمة (الانعزالية) التي أصيبَ بها العلماءُ في عهد الانحطاط الأخير، وكانت مجلة (المعارف) التي يرأس تحريرها تعتبرُ من أرقى المجلاّت العلمية الإسلامية في العالم الإسلامي»[2].

* * *

---

(١) وقد عُرِّبت تحت عنوان (الرسالة المحمدية)، وقد نقلها إلى العربية حديثاً الأستاذ رحمة الله حافظ الندوي، وهي من منشورات دار القلم بدمشق.

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

الفصل الثالث

توجيهه للعالم العربي والإسلامي

نشأ الشيخ في الهند، ولكنْ لم يقتصر همه على أهلها، بل رأيناه دائماً يربط المدعوين بهموم الأمة الإسلامية بأسرها، عربها وعجمها، في مشارق الأرض ومغاربها، يهتمُّ بقضايا المسلمين، وما يُحاك ضدهم، وما يدورُ حولهم، ويعيش مع هموم المسلمين في خطبه وكتبه، وإن لم يستطع أحياناً أن يذكرَ ذلك بصورة مباشرة، فإنَّه يلمِّح ويصرِّح، فيربط جمهوره بآمال المسلمين وآلامهم، ويخرجهم من الفردية والانطواء على الذات، إلى الإحساس بغيرهم وبأمتهم، حتى يعيشَ الفرد منهم بإحساس الجماعة.

وشكَّلَ حضوراً متميزاً وبارزاً في الحياة الإسلامية المعاصرة، إذ لم يُعهد عنه موقفٌ متردد في الحق، أو مداهنة في حكم شرعي، وكان لمساندته لقضايا المسلمين أبرز محطات حياته، وحظي في العالم العربي بالمكانة التي لم يحظَ بها غيره من الأعاجم في عصره، وإنَّما تفرَّد بهذه المكانة لإخلاصه وتجرّده، وزهده واستغنائه، واطّلاعه القريب على قضايا البلدان العربية ومشاكلها، والاهتمام بها، وتنبيه أهلها إلى الفتن والأخطار المحدقة بها من كل جانب، يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «لقد عرف العالم العربي الشيخ الندوي

بزياراته ولقاءاته، وعرفه بدروسه ومحاضراته، وعرفه بكتبه ومؤلّفاته، وعرفه بإيمانه وأخلاقياته، فأحبَّه وقدَّره كلُّ عربي مثقّف محبّ لدينه، غيور على أمته، وإنَّه لأهلٌ لهذا الحب والتقدير، وما عند الله خيرٌ وأبقى إن شاء الله»[1].

وكان الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين في كلِّ مكانٍ هو الشغل الشاغل له بالليل والنهار، والحل والترحال، جاب العالم الإسلامي والعربي مدافعاً عن مبادئ الإسلام ومعالجاً لمشكلات المسلمين، مشاركاً في كل مؤتمر أو ندوة، أو عمل فيه مصلحة للإسلام والمسلمين، ومن أهم كتبه ورسائله التي وجهها إلى العرب والمسلمين للدعوة الإسلامية الصريحة الواضحة، والفكرة الإسلامية الأصيلة الصحيحة: (إلى الراية المحمدية أيها العرب)، و(اسمعوها مني صريحة أيها العرب)، و(أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين)، و(اسمعي يا مصر) و(اسمعي يا سورية) و(اسمعي يا زهرة الصحراء) و(العرب والإسلام) و(إلى الإسلام من جديد) و(أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟) و(كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم) و(كيف دخل العرب التاريخ؟) و(نفحات الإيمان بين صنعاء وعمّان) و(الإنسانية تنتظركم أيها العرب) و(الخطر الأكبر على العالم العربي: عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي).

محبته للعرب:

الشيخ الندوي مليءُ القلبِ بحبّ العرب، لأنّهم حَمَلَة رسالة الله،

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٥٣.

ومنهم اختير خاتم النبيين، وبلغتهم أنزل كتابه الأخير، وبالإضافة إلى ذلك باعث آخر، فهو عربي خالص، سليل المصطفى ﷺ، وفرع الدوحة الهاشمية العلوية الحسنية، فمحبته للعرب عميقة ناشئة من المؤثر الديني والمؤثر الحضاري، والمؤثر العرقي والنفسي، يقول: «إنني لا أقل من أكبر عربي يعيش في العواصم العربية في عربيتي ونسبي الصريح وحبي للعرب، وتضلّعي من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم، وليس أحدٌ من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية منّي، وأوفر نصيباً منّي، ولكنّ الإسلامَ أفضلُ من كلّ نسبٍ، وأقوى من كلّ عصبية»[1]. ومع عربيته هذه ومحبته للعرب فإنَّه يخاطبهم من دون مواربة، يقول في صدر كتابه (اسمعوها مني صريحة أيها العرب):

«لو كانت أمة على وجه الأرض تستحقّ منّي أكبرَ تقديرٍ وأعظمَ إعجابٍ وإكبار لكان العربُ من غير نزاع.. ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لي كانت أمتي العربية العظيمة.

ولكنّي أعتبرُ هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمةً خلقيةً، وأعتبرها خيانةً عظيمةً في حقّ هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق والإنسانية والشرف، ويدينُ لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها، وليست أمةٌ أحقَّ بالأمانةِ وأحقَّ بالصراحة وأحقَّ بالنصح من هذه الأمة...

(١) العرب والإسلام، ص١٥.

إنَّ عقيدتي وديني الذي أومن به وأدين يفرض عليَّ أن أكـون صادقـاً وصريحاً، وصلتي بهذه الأمة ـ الدينية والنسبية والثقافية ـ تلزمني الصدق والصراحة والوفاء والأمانة، ثم اقتناعي بأنَّ العرب هم الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتب لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين، الذي جاء به محمد ﷺ، وعلَّمني أنَّ هذه الوصاية لم تَحُلْ عنهم بعد، ولم تبرز أمةٌ على منصّة العالم تخلف هذه الأمة وتضطلع بالإمامة.

والذي يطمعني في هذه الكلمة ويغريني بها هو حبّي وحرصي على أن يستعيدَ العربُ مكانتهم العالمية، ويتسلَّموا هذه القيادة المباركة التي يقولُ اللهُ عن حَمَلتها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وأن يتحولوا عن العسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، نادى بها إبراهيم في عصره: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]»(١).

نقده للقومية العربية:

لقد كثر الحديثُ عن القومية العربية، وكثر الحديث عن الدعوة إليها،

---

(١) العرب والإسلام، ص٥٧ ـ ٦٠.

وكثر الدعاة إليها في الخمسينيات، ولقد تبعهم وأيَّدهم كثيرٌ من أبناء الأمة الإسلامية إمَّا عن جهل غير مقصود، وإمّا عن قصدٍ متعمدٍ، اختلف الدعاة إليها في عناصرها، فمن قائل: إنَّها الوطن، والنسب، واللغة العربية، ومن قائل: إنّها اللغة فقط، ومن قائل: إنها اللغة مع المشاركة في الآلام والآمال، ومن قائل غير ذلك. فالدينُ ليس من عناصرها عند أساطينهم والصرحاء منهم، وصرَّحَ بعضهم أنها تحترم الأديان كلها من الإسلام وغيره، وعرف البعض من دعاتها هدفها هو فصل الدين عن الدولة، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع، والاعتياض عنها بقوانين وضعية ملفّقة من قوانين شتى، وإطلاق الحرية للنزعات الجنسية والمذاهب الهدامة.

وكان الشيخ الندوي من أشدِّ المعارضين لهذه النزعة القومية في العرب، وكان يراها مؤامرة ضدهم، وديانة بجانب الإسلام، وأكّد أنَّ الإسلام هو الذي خلَّد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم، وحدَّث بها رسوله الكريم ﷺ، وهو الذي أخرجها من الجزيرة ونشرها في الآفاق، وهو الذي علَّم العرب من جهالةٍ، وهداهم من ضلالةٍ، وأخرجهم من ظلماتِ الشركِ إلى نور التوحيد والإسلام، يقول الكاتب الكبير **أنور الجندي**: «إنَّ الأستاذ الندوي لم يهاجم شيئاً في عنفٍ وقوةٍ كما هاجم الاتجاه العربي إلى القومية الضيقة والعصبية اللاإسلامية، التي تمثَّلت في ذلك التيار العنيف، الذي أراد أن يضربَ الإسلام بالعرب، والعربَ بالمسلمين ضرباً قويّاً... ويتساءل الشيخ الندوي: هل كان للعرب أن يمثّلوا هذا الدور العظيم، وأن يشغلوا سمع الزمان، وأن يغيّروا مجرى التاريخ لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمّى بالإسلام، ولولا هذا

الكتاب العظيم الذي يُعرف بالقرآن، ولولا تبنّيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها»[1].

قضية فلسطين:

كان مهتمّاً بقضية فلسطين غاية الاهتمام، بل كانت في مقدمة القضايا التي تشغله لما آلت إليه نتيجة التخطيط الصليبي اليهودي العالمي الذي شرَّد الشعب الفلسطيني، وأسلم البلاد إلى الطغمة اليهودية، والعصابات الصهيونية.

يقول الشيخ **يوسف القرضاوي** ـ وهو يشرح أهمية قضية فلسطين لدى الشيخ الندوي ـ: «فقضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، ولا العرب وحدهم، بل هي قضية المسلمين جميعاً، فلا بدَّ من إيقاظ الأمة لخطرها، وتنبيهها على ضرورة التكاتف لتحريرها، واتخاذ الأسباب، ومراعاة السنن المطلوبة لاستعادتها. وليست هذه أول مرة تحتل فلسطين من قِبَل أعداء الدين والأمة، فقد احتُلَّت أيام الحروب الصليبية نحو مئة سنة، وأُسِرَ المسجد الأقصى تسعين سنة كاملة، حتى هيّأ الله ُلهذه الأمةَ رجالاً أفذاذاً، جدَّدوا شباب الأمة بالإيمان، وأحيَوْا روح الكفاح ومعنى الجهاد في سبيل الله؛ مثل: نور الدين وصلاح الدين، الذي أشاد به الشيخ الندوي كثيراً في كتبه ورسائله.

ولا سبيل إلى تحرير فلطسين إلاّ بهذا الطريق، وعلى نفس هذا المنهاج:

---

(١) أعلام القرن الرابع عشر الهجري: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

تجميع الأمة على الإسلام، وتجديد روحها بالإيمان، وتربية رجالها على الجهاد، وقد كتب في ذلك الشيخ مقالات ورسائل، أشهرها (المسلمون وقضية فلسطين)[1].

وشهد مدرج الجامعة السورية بدمشق، مساء ٢٣/ ٧/ ١٩٥١م، محاضرة ألقاها الشيخ الندوي، بحضور رئيس المجلس النيابي السوري، آنذاك، الدكتور معروف الدواليبي، وعميد الجامعة السورية، الدكتور قسطنطين زريق، وأساتذة الجامعة، وطلاّبها، وعلماء دمشق، ووجهائها، وشبابها، استرعى الانتباه فيها إلى أسباب النكبة الفلسطينية، فبيَّن «أنَّ التبعة العظمى يقع معظمها على عاتق زعماء العرب، وقادتهم، أولئك الذين لم يؤدّوا الأمانة، التي ائتمنتهم شعوبهم عليها، بل خانوا العهد، وخفروا الذمة، ولعبوا بمقدّرات شعوبهم، واستخفّوا بحقوقهم، وفوق ذلك لم تؤاخذهم ضمائرهم على فعلتهم، بل استمرّوا يراوغون، ويداورون، ويشترون، كأنَّ شيئاً لم يقع».

كما أنَّه لم يبرئ الشعوب العربية والإسلامية في التقصير الذي حدث، ومسؤوليتها في هذه النازلة الفادحة، وما أظهرته قبلها، وأثناءها، وبعدها: من الإهمال، والتقاعس، والأنانية، وعدم المسؤولية، وقلة التضحية في شيء من مالها، وروحها وفكرها، فبرهنت عن تأخر، وانهزام، وعن روح الأثرة، والتمسك بتوافه الحياة، فخسرة الكرامة والحياة.

ولخص أسباب النكبة الفلسطينية في ثلاثة وجوه:

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٨٩.

١ ـ ضعف الدافع النفسي والباعث الداخلي إلى الاستماتة، والتفاني في سبيل العقيدة والمبدأ.

٢ ـ طغيان العقل على العاطفة، والحذر من المغامرة، واقتحام المخاطر.

٣ ـ فقدان الشخصية المركزية، التي تملك القضية عليها مشاعرها، وتفكيرها، وتصبح همها الشاغل، وتستولي عليها استيلاءً كاملاً».

وعقدت الدورة العاشرة لمجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي في مدينة عمّان، وعلم وليُّ العهد آنذاك الأمير الحسن بن طلال بوجوده، فدعاه مع سائر أعضاء مجلس الأمناء إلى حفل غداء في القصر الملكي، ودعا إلى هذا الحفل عدداً من الأمراء والمستشارين، كما دعا رئيس الوزراء مع خمسة من أعضاء وزارته، ومع ثمانية من مديري الجامعات ورؤساء الجمعيات الأدبية، ولقد كان من اهتمام الشيخ الندوي بموضوع فلسطين وضياع القدس أن أعدَّ كلمةً مكتوبةً، لم يذكر فيها رابطة الأدب الإسلامي، وإنَّما ناشد فيها ولي العهد أن تقوم المملكة الأردنية الهاشمية بمسؤولياتها الإسلامية لاسترداد القدس، واسترداد فلسطين[١].

وكان يرى أنْ لا طريقَ لاستعادة فلسطين إلاَّ بالإسلام... وعندما تنتهي

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: ٧/ ١٦، عام (١٤٢١هـ).

عوامل الهزيمة الأخلاقية والنفسية والفكرية، ويعود الإسلام إلى مكانه في نفوس المسلمين وفكرهم وسلوكهم، تنتهي تلقائيّاً مصادر كل الكوارث، وتعود فلسطين إلى العرب والمسلمين.. يقول: «إنَّ قضية فلسطين سهلة هينة، وانتصار العرب مضمون إذا كانوا أحراراً في تصرفهم، مالكين لزمامهم، مدبّرين لسياستهم، مغامرين بأرواحهم وجندهم، محكّمين لسيفهم وسنانهم، واثقين بنصر الله، معتمدين على سواعدهم فقط، متمرّدين على المادة والشهوات، مصممين على الكفاح والجهاد»(١).

وكان يرى أنَّ تحرير فلسطين يتطلَّب قائداً غير عادي، فحثَّ العرب والمسلمين على أن يتحلَّوا بصفات هذا القائد، يقول: «إنَّ القضية في إنقاذ فلسطين قضية العقيدة وقضية الأخلاق، قضية العزم الصادق، فإذا صحت العزائمُ، وصدقت القلوب، زال اليهود كما يتقشع الضباب، نحن في حاجة إلى تربية جديدة، تربية إسلامية، إلى عقيدة كأنها عقيدة جديدة، لسنا في حاجة إلى دين جديد ـ حاشا لله ـ ولكننا في حاجة إلى إيمان جديد، إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الإنسان فيها إلى إيمان غير عادي، إلى إيمان قوي عميق، إلى إيمان حي دافق، إلى إيمان إذا لم يكن كإيمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم فليكن كإيمان صلاح الدين الأيوبي وكثير من الجنود التي قاتلت تحت رايته، يقول القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبي:

---

(١) أنور الجندي، أعلام القرن الرابع عشر: ١/ ٤٢٤.

«إنَّه تاب عن المحرَّمات، وتَرَك الملذات، ورأى أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرٍ عظيم، لا يتفق معه اللهو والترف، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، وكان كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها»[(١)].

هنالك تبرز من أطماركم وأجسادكم شخصيات جديدة تقفز من الداخل وتفاجئ العالم، وقد وقع ذلك مراراً في التاريخ الإسلامي، فإذا أظلمت الآفاق، وإذا غارت النجوم، طلع نجم جديد على أفق العالم الإسلامي، هكذا كان وهكذا سيكون إن شاء الله.

قد قلتُ بالأمسِ: إذا كان هنالك استفتاءٌ عامٌ في العالم الإسلامي استفتاء حر عن الرجل المطلوب المحتاج إليه اليوم في العالم الإسلامي، كان الجواب الوحيد صلاح الدين الأيوبي، فيجب أن تتشوّف نفوسكم لهذا المنصب الرفيع، وقد جاء في حديث خيبر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال يوم خيبر: «ليأخذنَّ الرايةَ غداً رجلٌ يحبُّهُ اللهُ ورسولُه يُفْتَحُ عليه» فتطاول له كبار الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كلٌّ منهم يرجو أن يكونَ صاحب ذلك، ودعا عليّاً كرم الله وجهه، فكان على يده الفتح[(٢)]، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

---

(١) النوادر السلطانية، ص١٥٥، وليرجع إلى ص٢١٣ ـ ٢١٦.

(٢) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب غزوة خيبر.

ولا بـدَّ لذلك أن ننشِّـئ أنفسـنا على التقشّف وتحمّل المشاقّ، وعلى الشدة والجلادة والغيرة الإيمانية، وإيثار الآخرة على العاجلة، والاستهانة بالحياة الدنيا وزخارفها.

وأختم حديثي ببيتين للزركلي مخاطباً الأمة الإسلامية:

هـــاتـــي صـــلاح الـــديـــن ثـــــانيــــــةً فينـــــا
وجـــــــدّدي حطيــــــن أو شبــــــه حطّينــــــا[1]

مكانة الأمة الملسلمة عنده:

وأهم مآثره التي تُذكر بشأن توجيه الأمة المسلمة بأسرها عربها وعجمها، هو أنّه ذكَّرها بمكانتها الرفيعة، وأنها أمة ليست كسائر الأمم والشعوب، إنَّها أمة اختارها الله لتبليغ رسالته، وأداء أمانته، وإقامة دينه، يقول: «وإنني في دراسة مقارنات الديانات والكتب السماوية لا أجدُ هذا الوصف الدقيق الشامل، وهذا الخطَّ الفاصل بين أمة وأمة، أمة قُلِّدت مسؤولية ليس فوقها مسؤولية إلاَّ مسؤولية النبوّة فقط، فكانت بعثة النبي محمد ﷺ بعثةً مقرونةً مشفوعةً مرتبطةً ببعثة أمة، هذا هو الشيء الذي أثَّر في مصير الإنسانية، وكانت تجربةً جديدةً في تاريخ الديانات، وفي تاريخ مصائر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات»[2].

---

(١) نفحات الإيمان، ص٩٠ـ٩٢.
(٢) الإسلام والحضارة الإنسانية، دار القلم، الكويت، ص٢٠.

ويقول في مكان آخر: «كانت بعثة هذه الأمة الفريدة في إيمانها، الفريدة في بساطتها وجدّتها، الفريدة في اتصالها بالأسرة الإنسانية، وبتألمها لواقع الإنسانية الذي كانت تعيشه في كلّ بقعة من بقاع الأرض، كانت تجربةً جديدةً، كانت هذه البعثة الجماعية، البعثة التي انخرط في سلكها العرب كلُّهم، فأصبحوا روّاداً، وأصبحوا حَمَلَةَ رسالةٍ، وأصحبوا حَمَلَةَ المشعلِ، فأحدث هذا تحوّلاً في التاريخ»[1].

ويقول: «وإنَّما تتطلَّع الشعوب إلى شعب مثالي، إلى شعب قائد، قائد الإنسانية، شعب يمتاز عن الشعوب الأخرى في متانة العقيدة وقوتها، وفي روح الإيثار والتضحية، وفي البساطة في المعيشة، وفي التسامي على الشهوات والأنانيات، لا يستهويهم الشي الذي يستهوي هذه الشعوب رغم سيادتها وقيادتها، ورغم تقدّمها في الثقافات وفي الفلسفات وفي العلوم»[2].

ويقول وهو يذكِّر العالم الإسلاميَّ مسؤوليته ورسالته: «لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسالته التي وكلها إليها مؤسسه ﷺ، والإيمان بها والاستماتة في سبيلها، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها.

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى، والتي

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

لخَّصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «اللهُ ابتعثَنا لنخرجَ من شاءَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، ومن ضيقِ الدنيا إلى سعتها، ومن جوْرِ الأديان إلى عَدْلِ الإسلام» رسالة لا تحتاجُ إلى تغيير كلمة وزيادة حرف، فهي منطبقةٌ تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي، كأنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خرجَ المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية.

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم - من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة - ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق، ولا يزال إلـه الهوى يُعبَد، ولا يزالُ الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله، تقرَّبُ لها القرابين، ويُنصَبُ لها الجبين.

وكذلك العالم اليوم رغم اتّساعه، وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض هو أضيقُ بأهله منه بالأمس، قد ضيّقته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها، ولا تؤمن إلاَّ بفائدة صاحبها، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واسع، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كلّ أجنبي شزراً، وتجحد كلَّ فضلٍ له وتحرمه كلَّ حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون، الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت، يضيقون هذه الحياة على من شاؤوا

ويوسعونها على من شاؤوا، ويسطون الرزق ـ زعموا ـ لمن شاؤوا، ويقدرونه لمن شاؤوا، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جُحْرِ ضَبٍّ، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حجر كجحر السفيه واليتيم، وضاقت على الناس الأرضُ بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مهددين في كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية، وحروب خارجية وداخلية، واضطرابات أسبوعية ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولا تزال في هذا العصر المتنور الواقي المثقف أديان تعبث بعقول الناس، وتسخّرهم كالحمير والبقر، وتزيّن لأتباعها قتلَ مئات من البشر لأجل بقرةٍ ذُبحت في عيد الأضحى، أو شجرة مقدسة عُضدت في قرية من القرى»[1].

اختيار العرب لقيادة البشرية:

كان الشيخُ يرى اختيارَ خاتم النبيين ﷺ من بين العرب، وإنزالَ كتابه المعجز باللغة العربية، وبعثَ رسالته الأخيرة إلى العرب أدلةً على اختيار الله تعالى العربَ لقيادة البشرية جمعاء والعالم بأسره إلى يوم القيامة، يقول في مقدمة كتابه (العرب والإسلام): «اختار اللهُ العربَ للإسلام لخصائص طبيعية ومزايا خُلقية ينفردون بها، وقد قال عن بني إسرائيل أولاً: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال عن النبي العربي ﷺ آخراً: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) ماذا خسر العالم، ص٢٦٧ـ٢٦٨.

وقد بحث في هذه الخصائص الباحثون، وكتب في موضوعها المؤلّفون، وقد أثبتَ العربُ الأوَّلون حكمةَ هذا الاختيار بفهمهم العميق لطبيعة الإسلام، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه، وتجرّدهم النادر عن كلّ ما ينافيها، وحماستهم ـ المنقطعة النظير ـ في نشر الإسلام، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمته، ورفع شأنه، وأمانتهم الدقيقة في حفظ روحه ونفسيته، ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب والعقول لقبول عقيدته وثقافته، فكانت القيادة الإسلامية كما قال الشاعر العربي أبو العتاهية عن الخليفة المهدي:

أَتَتْهُ الخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً ... إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إلاَّ لَهُ ... وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لَهَا

عقد اللهُ بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عزَّ للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العربُ ركبَه، وحملوا مشعله، وقد حرص رسول الله ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدَّس بين العرب والإسلام، فجعل جزيرةَ العربِ مركزَ الإسلامِ الدائم وعاصمته الخالدة، وحرصَ على سلامةِ هذا المركز، وهدوئه وشدة تمسّكه بالإسلام»[1].

ويقول وهو يشيدُ بالوشيجةِ بين العرب والإسلام، وفضله عليهم: «وظلَّ العربُ والإسلامُ زميلين مترافقين، وأخلص كلٌّ منهما للآخر، وأقسمَ

---

(١) العرب والإسلام، ص٣ ـ ٤.

أن لا يفارقه، وكانا كما قال الشاعر العربي الأعشى بن ميمون الأسدي[1]:

رَضِيْعَـي لِبـانِ ثَـدْيِ أُمٍّ تَخَـالَفَـا ... بـأَسْحَـمَ دَاجٍ عَـوْضُ لا نَتَفَـرَّقُ

وعاش العرب وعُزُّوا بالإسلام، وسادوا الدنيا، وانتشرت لغتهم وثقافتهم في بلاد وأقطار وبيئات لم تكن تنتشر فيها، وترسخ قدميها لولا الإسلامُ ولولا القرآن، واتخذها العلماء والأذكياءُ لغةَ دينٍ وعلمٍ وتأليفٍ، لم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنها لغة الإسلام الرسمية ومفتاح المكتبة الإسلامية، وقد حمل كثيراً من علماء بلاد العجم وأئمتها ممن ولدوا ونشؤوا في هذه الديار حبُّهم للعرب وفقهُهم للدين على أن يتعرّبوا في كثير من عاداتهم وشاراتهم، ويحافظوا على اللغة العربية وآدابها ويتواصوا بذلك، ويجعلوها كلمةً باقيةً في أعقابهم، ويحذّروا من تقليد العجم والتخلّق بأخلاقهم، وما ذاك إلاّ للحب العميق الراسخ للنبي ﷺ وأصحابه، ولأنه ظهر في العرب، وارتضى الله لهذا الدين المظهرَ الإبراهيميَّ العربيَّ في الأخلاق والآداب والميول.

وقد جاء في وصية أحد كبار أئمة الإسلام في بلاد العجم ما يدلُّ على ذلك دلالة واضحة، قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى عام (١١٧٦هـ) في رسالته التي أسماها (المقالة الوضية في النصيحة والوصية):

«نحن رجال غرباء، هاجر آباؤنا إلى الهند، وإنَّ عربيةَ النسبَ وعربيةَ اللسانِ مفخرتان لنا، وهي التي تقرّبنا إلى سيد الأوّلين والآخرين، وأفضل

---

(١) ديوانه، ص٢٥٢: (عوضُ) أبد الدهر: مبني على الضم.

الأنبياء والمرسلين، ومفخرة الوجود ﷺ، ومن شُكْرِ هذه النعمة العظمى ألاَّ نتخلَّى بقدر الإمكان عن عادات العرب الأولين وتقاليدهم، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ، ولا نسمح لتقاليد العجم وتقاليد الهنادك أن تنتشرَ بيننا».

ثم قال: «السعيدُ منا من حصلت له مشاركةٌ في لسان العرب والصرف والنحو وكتب الأدب واطلع على الحديث والقرآن، ولا بدَّ لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلّق القلب بهما، وفي ذلك سرّ سعادتنا، والشقي من أعرض عنهما»[1].

ويقول وهو يؤكد أن الفراغ الروحي والخلقي المشين في العالم لا يمكن أن يملأه إلاّ العرب: «إنَّ هذا هو الفراغ الوحيدُ الموجودُ الآن في خارطة العالم الإنساني، ولا يملأُ هذا الفراغَ إلا المسلم، ولا تملأُ هذا الفراغ إلاّ الأمة العربية الإسلامية.. لقد كانت رائدةً للإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون، ولا تزالُ رائدةً للرسالة الإسلامية الإنسانية في هذا القرن، لو عرفت قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها، ولو عرفت ضخامة رسالتها، ولو عرفت عِظَم مسؤوليتها، فمتى تنهض الأمة العربية الإسلامية، وتحمل الرسالة من جديد، والنور الوحيد هو نور الإسلام، وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن وفي صفحات السيرة النبوية، وإننا أبناء القارة الهندية ننظر إلى هذه الجزيرة كأمة رائدة وكحاملة لهذه الرسالة»[2].

---

(١) العرب والإسلام، ص٥ ـ ٧.
(٢) الإسلام والحضارة الإنسانية، دار القلم، الكويت، ص٢٧.

دور المنظمات الإسلامية:

وكان دائم الاهتمام بأن تؤدي المنظمات الإسلامية دورها في إخلاص لله تعالى، ونصح للإسلام والمسلمين، وإذا رأى فيها انحرافاً عن الجادة نبّه المسؤولين عنها إلى ذلك، كتب إلى فضيلة الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي رسالةً عن مشاعره وملاحظاته عن وضع العالم الإسلامي، وعدم ارتياحه للعمل الرتيب الذي أصبح شعاراً للمنظمات الإسلامية ومن تقاليدها، فكتب إليه الشيخ الصبان في ٢٧ من شهر ربيع الثاني (١٣٨٧هـ): «. . . . يسعدني أن أخبركم باستلامنا لرسالتكم المؤرخة في ٢٤/ ٤/ ٨٧هـ والتي عبرتم فيها عن شعوركم الحزين تجاه الحوادث التي يواجهها المسلمون حاليّاً، كما تضمّنت عدةَ مقترحاتٍ إيجابيةٍ وضعتموها سماحتكم على ضوء الحوادث الأخيرة في المنطقة. وإننا نشارككم الرأي في أنَّ الحياة التي لا تقومُ على الإيمان الراسخ، والدين المتين، والخلق القويم هي أسرعُ ما تكونُ إلى التفتت والانهيار بحيث لا يمكنها أن تتحمل أقل صدمة طارئة، وليس من شك في أنَّ رابطتنا إنما وجدت للإصلاح الجذري فكريّاً وعمليّاً، وهي غاية لا يمكن تحقيقها على أسس سليمة إلاّ بوضع الوسائل المنهجية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما بشأن الأحداث التي نواجهها اليوم في إطار القضية الفلسطينية بالذات، فإنني أؤكد لكم أنّ القضية ـ أولاً وقبل كلّ شيء ـ قضية مبدئية دينية، ولهذا فإنّي أعتقدُ أنَّ سماحتكم تشاركونني الرأي في أنَّ واقع الأحداث، وطبيعة القضية، تفرضان بالدرجة الأولى وجوبَ تصحيح المفهوم العام للمشكلة بحيث تبرز القضيةَ علميّاً على

المستوى الإسلامي، نتيجة لعمل إيجابي مركز ومدروس. ويسرني أنْ أؤكدَ لكم اهتمامنا البالغ بموضوع الرسالة، وشكرنا وتقديرنا لما احتوته، وسنعرضها إن شاء الله تعالى على المجلس التأسيسي خلال دورته السنوية القادمة[١].

تطوير المعاهد العلمية في العالم العربي:

وكان يرى أنَّ المسؤولية الأولى والأهم والأقدم للمعاهد العلمية والجامعات القائمة في أي بلد إسلامي: أن تؤكِّد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها، والحضارة التي تحتضنُها، والدعوة والرسالة التي تتبنّاها، والخصائص والمزايا التي تحملها، حتى لا يعودَ هذا الإيمانُ إيمانَ رجل عادي، أو إيمانَ رجلِ الشارعِ، بل يكونَ إيمانَ عالم، إيمانَ مثقف، إيمانَ دارس، ويطمئن عقلُه كما يطَمئن قلبه، كما كان دائم الحرص على تطوير المعاهد العلمية في العالم العربي، كان عضواً في مجلس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الاستشاري، فكتب إلى رئيسها آنذاك الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ملاحظات ومقترحات تقوم على تجارب عملية وتهدف إلى تحسين الوضع التعليمي والمستوى العلمي فيها، فقدَّر الشيخ ابن باز توجيهاته، وكتب إليه:

«وإنِّي لأشكركم كثيراً على تعاونكم مع الجامعة، وحرصكم الشديد على كلِّ ما من شأنه رفع مستواها، وتسهيل وصولها إلى أهدافها، فجزاكم الله

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٠٠ ـ ١٠١.

عن ذلك خيراً، ولقد كان لحضوركم في المدينة بعد الحج، وإسهامكم في المجلس الاستشاري الأثر الطيب والعون على كثير من الإصلاح، أثابكم الله، وبارك مساعيكم، وأسبغ عليكم لباس العافية، إنه جواد كريم.

أما ما تضمَّنه الكتاب من التوجيهات والنصائح فأخوكم يتلقَّاها بالشكر والتقدير، ويدعو لكم كثيراً بالمزيد من التوفيق والتسديد، والنشاط في الحق، ولقد عرضتُها على مجلس الجامعة، فشكر أعضاؤه لفضيلتكم ما تقدَّمتم به من تلك التوجيهات والنصائح، وقدَّروها حقَّ قدرها، وتم الاتفاق مبدئياً على قبول ما أشرتم به من جعل الاختبار في المقرر لا في المقروء للمصالح التي أشرتم إليها، وسيلاحظ ذلك مستقبلاً، ويعتنى بالمقررات إن شاء الله، حتى تكونَ بقدر الزمن، وبذلك يسهل تنفيذُ ما ذكرتم من جعل الاختبار في المقرر لا في المقروء، ونسأل الله أن يثيبكم وأن يوفِّقَ القائمين على الجامعة لكلّ خير.

أما باقي الاقتراحات فهي محل الدرس والنظر، وسينفَّذُ منها إن شاء الله ما ترجَّحت مصلحته، وربما يتأخّر بعض ذلك إلى انعقاد المجلس الاستشاري في دورته القادمة، وأمَّا ما أشرتم إليه مما قد يقع في الوسط الجامعي من الأمور التي ينبغي التنبّه لها والقضاء عليها. . . إلخ، فلا يخفى على فضيلتكم أنَّ تجمّع الجامعة لا يُقاسُ بغيره لكثرة أصناف الطلبة وأجناسهم، واختلاف لغاتهم ومعلوماتهم وبيئاتهم، فسلامةُ مثله من الأشياء التي قد يُستنكَر بعضُها ويُستغرَب عزيزةٌ، ولكنَّهم بحمد الله في الجملة راغبون في العلم والتوجيه، ويستجيبون للدعاة والأساتذة والموجّهين، متأدّبون بما يسمعون من الآداب الشرعية، حريصون على فهم الأدلة الشرعية، وترجيح الراجح، وتزييف

الزائف، ولا يخفى على مثلكم أيضاً أنَّ الواجب على الأساتذة في مثل هذا المجتمع نفخ الروح الإسلامية في أفراده، وتذكيرهم بحال السلف الصالح، وتعظيم شأن الكتاب والسنّة في قلوبهم، وتشجيعهم على العناية بالأدلة الشرعية والتمسك بها، والحذر من التقليد الأعمى، الذي أوقع أكثر الناس في الشرك والبدع والخرافات»[١].

إعداد العرب للقيادة:

منذ أن كان يرى العرب وحدهم يتأهَّلون لقيادة البشرية كان يحثّهم على أن يتحلَّوا بصفات القيادة والإمامة القرآنية، ويتخلَّوا عن كلِّ ما يسبِّبُ تخلُّفَ الأمم والشعوب، ومن أهمها حياة التقشّف، يقول وهو يدعوهم إليها: «وأنتم يا إخواني العرب، تعيشون في قطعةٍ من الأرض تتجه إليها الأنظار لأسبابٍ لا أستطيعُ أن أشرحَها الآن، ويعرفها المتبصّرون الدارسون، أنتم تعيشون في قطعة قد ركّز الأعداء كلَّ جهودهم وكلَّ ذكائهم وكلَّ مخططاتهم على إزالتها عن رسالتها، وعن شخصيتها الإسلامية العربية، وعن قيادتها للعالم الإسلامي، هذه مؤامرة من أخطر المؤامرات التي عُرِفَت في التاريخ، إنَّ الشعوب على الرغم مما عندها من نظريات مختلفة قد تكون متناقضة، تلتقي على نقطة واحدة، وهي القضاء على مكانة الجزيرة العربية، وقطع صلتها عن الإسلام، هذا ما أقوله لكم كرائد لا يكذِبُ أهله، كرجلٍ زارَ أوربة وأمريكة، واطَّلع على كُتب المستشرقين، وهو متتبّع لما يُقال ويُنشر ويُكتب هنالك، ثم

(١) رسائل الأعلام، ص٥٥ ـ ٥٧.

أقولُ لكم في ضوء معلوماتي وفي ضوء مشاهداتي: إنَّه ليس العالم الخارجي والشعوب والحكومات البعيدة عن هذه الجزيرة هي التي تشكِّلُ الخطرَ على كيان هذا الجزء من الجزيرة العربية وشخصيته، بل إنَّكم محاطون بدعوات مناهضة للإسلام، ومعسكرات تقوم على فلسفات تتناقض مع الإسلام، ومع مقوّمات شخصيتكم وجوهر رسالتكم ومركزكم في العالم، فأنتم لا يسوغُ لكم أبداً أن تخلدوا إلى الراحة، وأن تعيشوا عيشة المنعَّمين المترفين، أقول لكم بصراحةٍ: الترفُ هو العامل الأكبرُ لهدم الحكومات وانقراض المدنيات وسقوط المجتمعات، وهو الذي ذمَّه القرآن، فيقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦]، و(المترفون): كلمة قرآنية تتكرّر وتتردَّد في القرآن، وهو يقول: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

الترف والبطر من أقوى العوامل الحضارية والنفسية والخلقية التي قضت على الحكومات المسنّة الطويلة، وعلى المدنيات المزدهرة بالزوال، فلا بدَّ أن ترجعوا إلى حياة البساطة وشيء من التقشّف، لا أقول عيشوا عيشة البدو والأعراب الأولين، وكلوا لحوم الإبل، واشربوا ألبان الإبل، ولا تتمتَّعوا بشيء مما أنعم الله به عليكم، لا، أنا لا أدعو إلى الرهبانية؛ فلا رهبانيةَ في الإسلام، وأنا لا أدعو إلى تقشّف غير طبيعي، ولكن إلى شيء من التقشّف إلى شيء من البساطة»[1].

---

(١) نفحات الإيمان، ص٣٦ ـ ٣٨.

وصيته للعرب:

وأختم هذا الفصل بوصيةٍ جامعة نادرة للعرب، كتبها بمكة المكرمة، وهي: «لو جُمِعَ لي العرب على صعيدٍ واحدٍ، واستطعتُ أن أوجِّهَ إليهم خطاباً تسمعه آذانهم، وتعيه قلوبهم لقلت لهم: أيها السادة! إنَّ الإسلام الذي جاء به سيّدنا محمد العربي ﷺ هو منبع حياتكم، ومن أُفقِهِ طلعَ صبحكم الصادق، وإنَّ النبيَّ ﷺ هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم، وكلَّ خيرٍ جاءكم ـ بل كل خير جاء العالم ـ فإنَّما هو عن طريقه وعلى يديه، أبى الله أن تتشرَّفوا إلا بانتسابكم إليه، وتمسككم بأذياله، والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا رادَّ لقضاء الله، ولا تبديل لكلمات الله.

إنَّ العالم العربي بحرٌ بلا ماء، كبحر العروض، حتى يتخذ سيدنا محمداً ﷺ إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلِّص العالم المظلوم من براثن مجانين أوربة ـ الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنية، ويقضوا على الإنسانية القضاءَ الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم ـ ويوجّه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب والدمار والفوضى والاضطراب إلى التقدّم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان، وإنه حقٌّ على العالم العربي سوف يُسأل عنه عند ربّه فلينظر بماذا يجيب!».

* * *

الفصل الرابع

قيادته لحركة الأدب الإسلامي

الأدب الطبيعي الجميل ـ لدى الشيخ الندوي ـ: «هو التعبيرُ البليغُ الذي يحرِّكُ النفوس، ويثيرُ الإعجابَ، ويوسِّعُ آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعثُ في النفس الثقة»[١]، ويقول: «الأدب في أوسع معانيه هو تعبيرٌ عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا غير»[٢]. ويرى: «أنَّ عُنصري الإخلاص والصدق في الأدب هما اللذان يهبانه هذا البعدَ الوظيفيَّ، لأنهما يمنحانه الروح والقوة والحيوية، ويجعلانه حقيقة أبدية خالدة»[٣]. ويقول: «حاجتُنا وحاجةُ هذا العهد، وحاجةُ العالم العربي بصفة خاصة هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة، الذي يحمل رسالةً ساميةً سماويةً، إنسانية إسلامية، عالمية»[٤].

ولعلَّ الشيخَ الندوي أوَّلَ مَن تنبَّهَ لهذا الأدب، وحدَّدَ معانيه ومبانيه،

---

(١) نظرات في الأدب، ص٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص٣٦.
(٤) المصدر السابق، ص١١٣.

وأسهبَ القولَ في تنوّع مصادره، ووفرة منابعه، ويتجلّى التنبيهَ المبكّر له إلى الأدب الإسلامي في المقال، الذي قدَّمه إلى (مجلة المجمع العلمي العربي) في دمشق عندما اختير عضواً مراسلاً فيه، وكان عنوان المقال: «نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي»، وهو يرفض في هذا المقال أن يكونَ الأدبُ صناعةً تقليديةً، ويرفض أن يقتصرَ على حياكة المدَّاحين والمتملّقين والمتحذلقين، ويقرِّرُ أنَّ الأدبَ تعبيرٌ جميلٌ صادقٌ عن أحداثٍ هزَّت الوجدان، وما أجمل المثل الرمزي الذي عرضه عن الأدب المصطنع والأدب الطبيعي أو العفوي، حيثُ زعموا أنَّ كلباً قال لغزالٍ: ما لي لا ألحقُ بك وأنا مَنْ تعرِفُ في العدوِ والقوَّة؟ فقال الغزال: لأنَّك تعدو لسيدك، وأنا أعدو لنفسي».

وجاء بعد ذلك كتابه (نظرات في الأدب) ليكونَ في مجمله بياناً لمبادئ الأدب الإسلامي، فيخرج القارئ منه بعدد من القواعد والأحكام حول مفهوم الأدب وطبيعته، والموقف من فصوله المنسية، وعن آفاق الأدب الإسلامي وخصائصه[١].

ثم جاء دور واضعي مصطلحاته وحدوده، فقالوا: الأدبُ الإسلاميُّ هو التعبير الفني الصادق عن واقع الحياة والكون والإنسان النابع من التصوّر الإسلامي، إنَّه أدبٌ هادف بنَّاء، ذلك لأنَّ أفعال المسلم وأقواله مصونة عن

---

(١) انظر: الدكتور عبد القدوس أبو صالح، الشيخ أبو الحسن الندوي ورابطة العالم الإسلامي العالمية، مجلة الأدب الإسلامي، العددا لخاص عن الشيخ الندوي، ص١٥٨.

اللغو والعبث، وهو أدب فنّي يتَّسم بجمال التعبير، وإبداع التصوير، وليست إسلامية المضمون شفيعةً للأديب المسلم أن يقصِّرَ في جمالية الشكل، ولا في التجويد الفني، فيُشْترَط في الأدب الإسلامي إذاً أن يكون ممتعاً هادفاً نافعاً في وقت معاً، ثم إنَّ موضوع هذا الأدب رحب الآفاق، متعدّد الجوانب؛ فالإسلام ينادي بأنَّ العلمَ هو السبيلُ إلى إسعاد البشرية وتقدّمها، وأنَّ الفنون المباحة إنَّما هي رديفٌ له، كما أنَّ الأدب الإسلامي ليس مقصوراً على الموضوعات الدينية، وإنما هو أعم من ذلك وأشمل.

يقول الشيخ الندوي عن مفهوم الأدب الإسلامي: «إنني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون، وله ضمير واعٍ، وله نفس مرهفة الحسّ، وله عقيدة جازمة، وله هدف معيَّن، يتألَّمُ بما يسببُ الألم، ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك، فإنَّه أدبٌ خشبيٌّ جامدٌ، ميّتٌ خامدٌ، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضيات الجمبازية، فالأدب ليس أداة تسلية، وإلهاء نفس، وإزجاء وقت (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب، وإنَّما الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، وللتأثير في النفس الإنسانية». ثم يستشهد بشعر إقبال حيث يقول:

«إنَّه لا خيرَ في نشيدِ شاعرٍ، ولا في صوتِ مغنٍّ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياةَ والحماسة، ولا بارك الله في رنيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول، والذوي والذبول، إنَّ غاية الإحسان في فنّ من فنون العلم والأدب لوحة الحياة الدائمة.. ما قيمةُ شرارةٍ تلتهبُ سريعاً، وتنطفئ سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تُحدِثُ حركةً في

الأمواج، ولا اضطراباً في البحار؟ إنَّه لا نهضة للأممِ إلاّ بمعجزة، ولا خيرَ في أدبٍ ولا شعرٍ إذا تجرّدا من التأثير الذي أحدثته عصا موسى عليه السلام»[1].

موقفه من الأدب الصناعي:

قد شكا الشيخ الندوي في كثيرٍ من كتاباته من الأدب الصناعي، الذي بقي في فترات طويلة من التاريخ في كثير من الأمم تحت رحمة الأدباء والكتّاب، والباحثين والمؤرّخين، الذين اعتادوا أن لا ينظروا إليه إلا من زاوية الصناعة والفنّ، ولا يعتبروه ـ في غالب الأحوال ـ إلاّ أداة تسلية، أو آلة طرب، أو طريقة إظهار براعة، أو وسيلة تحقيق مآرب، أشبه شيء بفن من فنون الوشي والتطريز، أو التحلية والتطرية، يقول:

«وكان من المؤسف أنَّ الأدبَ ظلَّ مدة طويلة تحت رحمة هؤلاء الباحثين والمؤرّخين تعريفاً ووصفاً، وعرضاً وتحليلاً، ووزناً وتقييماً، وتاريخاً وترجمةً، فلا يتعرَّفُ به مَن بدأ يشدو في لغةٍ من اللغات أو يريد أن يتذوَّقَ الجمالَ في أدب أمته، ويطَّلع على مقدرتها البيانية إلاَّ في هذا الإطار الضيق، والتصور القاصر، ويؤلِّفُ كاتبٌ أو مؤرّخٌ كتابَه في وصف الأدب والأديب، ويعرضُ أمثلةً ونماذج من الأدب المنثور، والكتابة البليغة، فيختار أكثرها تنميقاً وأغناها زخرفةً لفظية، وبلاغة صناعية، ويأتي الآخرون فيترسمون خطاه، فإمَّا أن يكتفوا بنقل ما اختاره المؤلف الأول، أو ينتهجوا منهجه في النقل والاختيار، لا يتعبون أنفسهم في استعراض ذخائر الأدب استعراضاً جديداً، واستخراج

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخاص عن الشيخ الندوي، ص١٥٨.

نفائس من الثروة الأدبية المطمورة، وبذلك يطغى لون واحد من الأدب على جميع ألوانه وأساليبه، ويتصور كثير من دارسي الأدب ـ حتى أصحاب الاختصاص والبحوث فيه ـ أنَّ أدب هذه الأمة قد استُنْفِدت قوته، وأُثيرت دفائنه، وقد أصبح من قبيل إضاعة الوقت، العودة إليه مرة أخرى، والبحث فيه عن شيء جديد، مع أنَّ ما استُخرِجَ منه وعُرِضَ في مجاميعه الأدبية إنَّما هو غرفٌ من بحر»[1].

ونبَّه إلى أنَّ نصوص الأدب تتجاوزُ كتبَ الأدب التقليدية إلى «كتب الحديث والسيرة والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم والرحلات، وفي الكتب التي أُلِّفت في الإصلاح والدين والأخلاق والاجتماع، وفي بحوث علمية ودينية، وفي كتب الوعظ والتصوّف، وفي الكتب التي سجّل فيها المؤلّفون خواطرهم وتجارب حياتهم، وملاحظاتهم وانطباعاتهم، ورووا فيها قصة حياتهم».

ويقول: «كان هؤلاء الكتَّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابةً لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين؛ فتشتعل مواهبهم، ويفيض خاطرهم، ويتحرَّق قلبهم، فتنهال عليهم المعاني، وتطاوِعُهم الألفاظ، وتؤثّر كتاباتهم في نفوس قرّائها، لأنّها خرجت من قلبٍ فلا تستقر إلاَّ في قلب»[2].

---

(١) من تقديمه لكتاب (الأدب الإسلامي وصلته بالحياة)، ص٢ ـ ٣.
(٢) نظرات في الأدب، ص٣٢.

موقفه من الأدب المستورد:

كان الشيخ الندوي على معرفة بالأدب الغربي ومدارسه التي لها اتجاهاتها المستقلة ومفاهيمها المرتبطة بها، والتي استطاعت بطريقة أو بأخرى أن تتسلَّلَ إلى معظم الآداب المعاصرة، حاملة معها الانحلال الخلقي والفوضى الاجتماعية، وقد نقل كثيرٌ من المثقّفين من المسلمين العرب وغيرهم تلك الاتجاهات إلى بلادهم، فاستعملوا نفس الألفاظ، وردَّدون نفس التصورات، وتبنَّوا نفس المفاهيم، دون بيان للأسس الأخلاقية التي تقوم عليها هذا المدارس، وهكذا وجد القارئ المسلم نفسَه، واقعاً تحت تأثير هذه المدارس، بل إنَّه أُلزم بدراستها في الكليات المعنية بالدراسات الأدبية، وأعدَّ فيها الرسائل العلمية، وبدت فلسفاتُ هذه المدارس كما لو كانت جزءاً لا يتجزَّأ من طبيعة تكوين الشباب المسلم في المجال الأدبي، يقول وهو يتحدّث عن هذا الأدب المستورد من الغرب:

«لي معرفة شخصية دون واسطة بالأدب الغربي ومن خلال القراءة الظاهرة له ـ ناهيك عن القراءة المتأنية المتأملة ـ ترى أنَّ هناك الطابور الخامس، وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذي ولَّدته الثورة الفرنسية، وأرضعته الفوضى الأخلاقية والإباحية في أوربة، وغذَّته الشيوعية، وذلك الأدب الخليع المستهتر، الذي ينبِتُ في القلوب النفاقَ، ويسقي فيها الشهواتِ، ويقوِّضُ دعائم العمران، ويفسِدُ نظامَ الأسرة، ويَسْخَرُ من كلِّ فضيلة، ويستهينُ بكلّ أدب ونظام، ويزيّنُ للقارئ مذهبَ اللذة والانتفاع العارض، وانتهاز الفرص،

ويلخِّصُ التاريخَ في صراع المادة، ويوجِزُ حياةَ الإنسان وحركة الأشياء في المال والجنس»[1].

دعوته إلى أدب إسلامي:

وكان الشيخ الندوي في مقدمة من دعا إلى تحرير الأدب من سيطرة المهنيين عليه، وإنقاذه من براثن أصحاب الاتجاهات والفلسفات الضالة المضلّة، وكان نتيجة دعوته تأليفه لكتاب (مختارات من أدب العرب) في جزئين، ومقدمته التي نادت بهذه الحقيقة بصوتٍ عالٍ وفي أسلوب أدبي، ثم عقده لندوة عالمية للأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء بلكنو بالهند في جمادى الآخرة عام (١٤٠١هـ) الموافق نيسان/ أبريل (١٩٨١م)، حضرها عدد كبير من رجالات العالم الإسلامي، وفيهم كثير من المهتمين بالأدب.

واعتبر العلماءُ والأدباءُ والمفكّرون الذين حضروا هذه الندوة أنَّها من أنجح الندوات، فقد كتب إليه الأستاذ عبد الرحمن رأفت باشا: «سيدي الجليل، لا يعلم إلاَّ الله، كم تركتْ فينا هذه الزيارةُ من آثار خيّرة، وكم عقدت بيننا وبين تلاميذكم ومريديكم من مودَّات، وكم زادت في أشواقنا للعودة إلى تلك الديار العامرة بكم ولمن يحيون في صحبتكم»[2].

---

(١) من حديث له في مجلة (المجتمع) الكويتية، عدد ٩ ذي القعدة، سنة ١٤١٧هـ.
(٢) رسائل الأعلام، ص١٥٣.

وأنقلُ هنا تصريحاً منه يشرحُ حقيقةَ الأدب الإسلامي وموقعه من الآداب العالمية، يقول: «وبخصوص الأدب الإسلامي فإنَّه لا يعارِضُ الأدب العالمي أبداً، ولكلٍّ منهما أهدافه وأبنيته وفعاليته وغاياته، وأنا كتلميذ من تلاميذ التاريخ العالمي أقول: إنَّ المؤتمرات الثقافية ومنها الآداب والفنون التي نجحت من خلال الأدب فيما لم تنجحْ في كلِّ وسائل المؤتمرات.

وقد وقع ذلك في بلادي.. في الهند وفي الأدب الإيراني.. حيثُ أسست هذه الشعوب على مبادئ إغريقية ورومانية لا دينية، وواضحٌ من الأمثلة القريبة جدّاً في البلاد العربية حيث عبثت المناهج الاشتراكية والشيوعية بآداب وفنون هذه البلاد، فخرجت أجيال قد تمت برمجةُ عواطفها وأفكارها ووجداناتها، بحيث لا تعمل للإسلام، إن لم تتركه أو تعاديه.

ومن هنا فإنَّ الأدب الإسلامي والفنون الإسلامية لها هذه الخصوصية التي أشرت إليها، والتي لا تتعارض مع الآداب العالمية، بل تأخذ بأيديها من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الرشد»[١].

إنشاء رابطة الأدب الإسلامي:

اتخذت هذه الندوة الأولى التي عُقدت في ندوة العلماء والتي أعطت دفعاً قوياً للأدب الإسلامي توصية مهمة تتضمَّن إقامةَ رابطةٍ عالميةٍ للأدباء الإسلاميين، وتعزّز هذا الاتجاه في ندوة الحوار حول الأدب الإسلامي التي

---

(١) مجلة (المجتمع) الكويتية، عدد ٩ ذي القعدة، سنة ١٤١٧هـ.

عُقدت في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في شهر رجب عام (١٤٠٢هـ) الموافق شهر أيار/ مايو (١٩٨٢م)، ثم في ندوة الأدب الإسلامي التي عقدت في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في شهر رجب (١٤٠٥هـ) الموافق شهر نيسان/ أبريل (١٩٨٥م). وفي خلال هذه الفترة قامت الهيئة التأسيسية للرابطة بالاتصال بسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، وعرضت عليه ما قامت به من أعمال تمهيدية واتصالات موسعة، ورغبت إليه أن يتبنى إنشاء هذه الرابطة، واستجاب سماحته بما عُرف عنه من صدر رحب، وبصيرة نافذة، ووعي وحكمة بالغين، وإدراك لدور الأدب في وجدان الأمة، وترشيد مسارها، وإنارة طريقها في العود الحميد إلى الإسلام، الذي هو مسوِّغ وجودها، وحصنها المنيع، وهكذا انبثقت عن الهيئة التأسيسية لجنة تحضيرية تولَّت الإعلان عن قيام (رابطة العالم الإسلامي العالمية، ونشرت هذا الإعلان في عدد من الصحف والمجلات بتاريخ ٢/ ٣/ ١٤٠٥هـ الموافق ٢٤/ ١١/ ١٩٨٤م.

ثم دعت الهيئة التأسيسية إلى المؤتمر العام الأول للرابطة، بعد انتساب عدد كبير من الأدباء إليها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وعُقد هذا المؤتمر في رحاب جامعة ندوة العلماء بلكنو في الهند في شهر ربيع الآخر عام (١٤٠٦هـ) الموافق لشهر كانون الثاني/ يناير (١٩٨٦م)، حيث تم وضع النظام الأساس للرابطة، وانتخاب مجلس الأمناء. كما انتُخب سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رئيساً للرابطة مدى الحياة.

وكان الهدف من إنشاء الرابطة تأصيل الأدب الإسلامي، وإبراز سماته

في القديم والحديث، وإرساء قواعد النقد الأدبي الإسلامي، وصياغة نظرية متكاملة للأدب الإسلامي، ووضع مناهج إسلامية للفنون الأدبية الحديثة، وإعادة كتابة تاريخ الأدب الإسلامي في آداب الشعوب الإسلامية، وجمع الأعمال الأدبية الإسلامية المتميزة، ونقلها إلى لغات الشعوب الإسلامية وغيرها من اللغات العالمية، والعناية بأدب الأطفال، ونقد المذاهب الأدبية المنحرفة وإيضاح سلبياتها، وتعزيز عالمية الأدب الإسلامي، وتوثيق الصلات الإسلامي في تنشئة الأجيال المؤمنة، وصياغة الشخصية الإسلامية المعتزة بدينها القويم وتراثها العظيم، وتيسير وسائل النشر لأعضاء الرابطة، والدفاع عن الحقوق الأدبية للرابطة وأعضائها.

وكان منطلق الرابطة في تقحيق أهدافها واختيار أعضائها من الالتزام بعدَّة مبادئ، منها:

● الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي.

● واللغة العربية الفصحى هي اللغة الأولى للأدب الإسلامي، الذي يرفض العلمانية، ويحارب الدعوة إليها.

● وهو ريادة للأمة ومسؤلية أمام الله، وملتزم، ومسؤول عن الإسهام في إنقاذ الأمة الإسلامية في محنتها المعاصرة، ويستمدّ عطاءه من مشكاة الوحي وهدي النبوة.

● وهو أدب الشعوب الإسلامية، ويقدم التصور الإسلامي للإنسان والحياة.

● ويرفض الأدب الإسلامي محاولةَ قطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطوير والحداثة أو المعاصرة، ويرى أنَّ الحديثَ مرتبِطٌ بجذوره القديمة، ويرفض النظريات والمذاهب الأدبية المنحرفة، ويتحقق تكامله بتآزر المضمون مع الشكل، ويفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة.

● وإن رابطة العقيدة هي الرابطة الأصيلة بين أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية جميعاً.

منهج الرابطة:

عُرِفَ الشيخُ بالحكمة والاعتدال في منهجه، وسأشرح ذلك في الباب الخامس عند الحديث عن منهجه في الدعوة، وأقتصر هنا على مقالة للأستاذ عبد القدوس أبي صالح في حديثه عن منهج الشيخ الندوي: «أمّا منهجه الذي صار منهج رابطة الأدب الإسلامي العالمية فقد طالما تحدّثتُ عن هذا المنهج في افتتاحيات مجلة (الأدب الإسلامي) وفي ندواتها ومؤتمراتها العامة، وكان ممّا قلتُ فيه: وشهد كل منصف متابعٍ لمواقف الرابطة ومنشوراتها، وما تعقده من ندوات، وتقيمه من مؤتمرات أن هذه الرابطة إنَّما تصدر أهدافها ووسائلها ومختلف أوجه نشاطها عن المنهج الذي اقتبسته من سماحة رئيسها الشيخ أبي الحسن الندوي، وهو منهجُ الحكمةِ والاعتدالِ، والعد عن الغلو، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقلت أيضاً: «إنه منهج يقوم على مناصحة الحكام وإحسان الصلة بهم»[1].

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن =

نجاح الرابطة:

لاقت الرابطـةُ في ضوء توجيهاتـه ترحيبـاً كبيراً في العالم الإسلامي بأسره، وعقدت عليها الآمال الكبار، وبدأت تؤتي أكلَها بإذن الله، يقول الأستاذ عبد القدوس أبو صالح: «وها هي ذي رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وقد بلغت بجهود الشيخ وتوجيهه وبركة دعائه ما لم يكن في الحسبان أن تبلغه، إذ أصبحت ولله الحمد ثغراً إسلاميّاً، وعطاءً يانعاً، من نتاج الصحوة الإسلامية، ورمزاً للاعتدال، والبعد عن الغلو، مع الاعتداد بالهدف، وتوخّي القصد والتزام المنهج الذي ارتضاه لها شيخها الجليل. ولقد كان من دعاء الشيخ الذي أسرَّ به إليَّ في ظلالِ الحرم: أدعو الله أن يلهمَ الحكّام والمسؤولين في العالم العربي والإسلامي أن يجعلوا من الأدب الإسلامي وسيلةً لإيجادِ جيلٍ مؤمنٍ بالله، متمسّكٍ بأخلاقه الإسلامية، معتزٍّ بدينه القويم وتراثه العظيم»[1].

* * *

= الندوي: ٧/ ١٤، عام (١٤٢١هـ).

(١) المرجع السابق: ٧/ ١٧.

الباب الرابع

الندوي كاتب ملهم قدير

تمهيد

الفصل الأول : الفكر الإسلامي

الفصل الثاني : سيرة النبي ﷺ

الفصل الثالث : التاريخ وتراجم الأعلام

الفصل الرابع : تصحيح الأفكار والمفاهيم

الفصل الخامس : الكتابات الدعوية العامة

الفصل السادس : التربية والتعليم

الفصل السابع : أدب الرحلات

الفصل الثامن : أدب الأطفال

الفصل التاسع : الكتابات الأدبية

الفصل العاشر : ثبت بأسماء مؤلفاته حسب الموضوعات

تمهيد

نشأ الشيخ الندوي مناضلاً عن حمى الإسلام بقلمه الساحر، ووقف لسانه وعمله في وجه الغزو الفكري، وتيارات الردة والإلحاد، وحفظ بعلمه وبصيرته الدعوة الإسلامية في وجه التيارات العاصفة المضلّلة، التي تعبث بعقول الشباب المسلم، وخلّف مجموعة كبيرة من المؤلفات بالعربية والأردية، وقد تُرجِمَ عدد منها إلى الإنكليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والجاوية (الأندونيسية) وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى، وترجع غزارةُ إنتاجه إلى جانب رحلاته ونشاطاته الدعوية والتعليمية إلى البركة والتوفيق من الله عزَّ وجلّ، والعمل الدؤوب الذي لا يعرف الملَلَ، ولم يأخذْ إجازةً في صيفٍ ولا شتاءٍ، وسمعتُ غيرَ مرةٍ يقول: المدرسة ليس لها عطلة ولا إجازة، وستبقى مؤلفاته وكتاباته إن شاء الله مصابيحَ في ميدان الدعوة الإسلامية، ومعالم في مجال الفكر الإسلامي.

تميَّزت كتاباته بالعمق وتحرّي الحق، والتزام العدل والوسطية، وبالجمع الواضح بين الأصالة الإسلامية والمعاصرة المستنيرة، وبين الدعوة إلى الالتزام بالنصوص الثابتة، والتوجّه الإصلاحي البصير بمقتضيات العصر، كما تحررت كتاباته من التقليد الأعمى، ومن العصبيات المذهبية الضعيفة والتبعات الفكرية غير المتبصرة، يجد المرءُ في مؤلفاته تلك اللُّحمة بين الدين والحياة، وهي تدعو إلى التأمل العميق، وتغذّي الفكرة، وتفتحُ آفاقاً جديدةً

للفكر الإسـلامي، وتـزوّد العاملين في مجال الدعـوة والفكـرة الإسلاميـة بمعلوماتٍ جديدة، ووثائق وحقائق عن الحضارة الغربية والفلسفات المادية، ومدى إفـلاس الغرب، وحيرته وسآمته، وخوائه الروحي، وما يعانيه من أزمـات وعقد ومشكلات، ومن أكبر مزايا كتاباته تقديم المواضيع العلمية والدينية بالأساليب الأدبية الجاذبة الساحرة، واجتناب الحماس في غير محلّه، وتدين قوة أسلوبه لفكره ونظرته، وأسلوبه واضح رقيق، سهل ممتع، ينقلُ القارئ عبرَ المناطق والمدن والأماكن والأقطار في جولات سياحية لا تملّ، ويحبب إليه صور الإيمان، وصفاء الخلق والإباء، وعلو الهمة ويجعله يعيش متعةً روحيةً من خلال الشخوص التي يقدمها، ويترجِمُ لها بطريقة تنفذ إلى أعماق النفس الإيمانية بعيداً عن أساليب السجع والتأنق اللفظي، وبعيداً عن الأخبار والأحداث والأشخاص ممن لم يشغفوا بحب تعاليم الإسلام، ونشر الدعوة الإسلامية.

وظل مساهماً في إثراء الفكر الإسلامي طول حياته، يقول الشيخ **يوسف القرضاوي** في رسالته إليه: «كما ألقاكم دائماً في كل جديد يصدر من قلمكم وبحوثكم، وعلى صفحات المجلات الإسلامية، وفي مقالاتكم المسلسلة الممتعة، فأجد في كل ذلك نفحة حسنية ندوية، تجمع دائماً بين نظرات العقل الناقد، وإشراقات القلب المؤمن، وتجمع كذلك بين معرفة العالم الواسع الاطلاع، وأداء الأديب المتمكن من ناصية البيان»[1].

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨١.

وتنقسم مؤلفاته إلى نوعين:

١ ـ الكتب المستقلة التي ألفت تحت مواضيع خاصة، ولها هيكل يتسم بالمنهجية والنظام، ومن أبرز كتبه من هذا النوع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) و(رجال الفكر والدعوة في الإسلام) و(الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) و(الأركان الأربعة).

٢ ـ المجموعات المختلفة لمحاضراته ومقالاته وأحاديثه التي صدرت منه في مناسبات مختلفة وأوضاع متباينة وأزمان متباعدة، ثم ضُمَّ بعضها إلى بعض لصلة عامة بينها أو علاقة قريبة أو بعيدة، فلا ينبغي للناظر فيها أن يبحث عن منهج للكتاب، أو نظام موضوعي دقيق، ومن أبرز عناوين هذا النوع **(النبوة والأنبياء في ضوء القرآن) و(إلى الإسلام من جديد) و(الطريق إلى المدينة) و(روائع إقبال).**

وإلى جانب مؤلفاته المنهجية وغير المنهجية قام بكتابة مقدِّمات لكثير من الكتب في الموضوعات المختلفة، ومن الصعب جداً في هذا الكتاب أن أقوم بعرضٍ لهذه المقدمات، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها في الباب الثاني، وهنا أقتصر على إحالة على كتاب للشيخ الندوي تلقي الضوء على منهجه في كتابة المقدِّمات، يقول:

«وكذلك تقديم كتابٍ لمؤلِّفٍ معاصرٍ أو عالم كبير، أو صديق عزيز ليس عملاً تقليديّاً يقوم به الكاتب مجاملة أو تحقيقاً لرغبة المؤلف أو الناشر أو إرضائه، إنّه شهادةٌ وتزكيةٌ، ولهما أحكامهما وآدابهما ومسؤوليتهما، وقد

يتحوَّلُ من شهادة بالحق وتقويم الكتاب تقويماً علميّاً، وبيان مكانته في ما كتب وألف في موضوعه، ومدى مجهود المؤلف في إخراج هذا الكتاب ونجاحه في عمله التأليفي أو التحقيقي في سمسرة تجارية أو قصيدة مدح وإطراء من شاعر من شعراء المديح، فيفقد قيمته العلمية والأدبية، ويتجرَّدُ من الحياة والروح، ولا بدّ في التقديم من زيادة معلومات، وإلقاء أضواء على موضوع الكتاب ومقاصده، وعلى حياة المؤلف، ومكانته بين العلماء المعاصرين في عصره ومصره، وعلى تكوينه العقلي، ونشوئه العلمي، والدوافع التي دفعته إلى التأليف في هذا الموضوع، رغم وجود مكتبة واسعة في موضوعه أو مجموعة من الكتب التي ألفت في هذا الموضوع، ولا يكون التقديمُ مجموعَ كلماتِ تقريظٍ ومدحٍ يمكن أن يحلّى به جِيْدُ أيِّ كتاب إذا غير اسمه واسم مؤلفه.

ولا بد من أن تكون بين المقدم للكتاب وبين موضوعه صلة علمية أو ذوقية أو دراسية وافية للموضوع وما ألف فيه، وارتباط وثيق كذلك بينه وبين المؤلف، يمكِّنه من الاطلاع على تركيبه العقلي والعلمي والعاطفي، إذا كان الكتاب في موضوع علمي أو أدبي أو فكري أو دعوي، وعلى مدى إخلاصه لموضوعه واختصاصه وتفانيه فيه، ورسوخه في العلم والدين، وأخذهما عن أصحاب الاختصاص فيه المعترف بفضلهم إذا كان الكتاب في موضوع ديني كالتفسير والحديث والفقه وما إلى ذلك.

ويجب أن يكون هذا التقديم عن اندفاع وتجاوب وتحقيق لرغبة نشأت في نفس المقدم بعد قراءة هذا الكتاب تحثه على كتابة هذا التقديم، وتحبِّبُ إليه المهمة، وتيسرها له، بحيث إذا امتنعَ عنها اعتبر نفسه مقصراً في أداء حق

وإبداء مشـاعر وانطباعات، حاجـة في نفـس يعقوب ما قضاهـا، وذلك هو التقديم الطبيعي المنصف الذي له أثره وفائدته»[1].

(١) شخصيات وكتب، ص١٠.

الفصل الأول

الفكر الإسلامي

أسهم الشيخ في تأصيل الفكر الإسلامي والعودة به إلى أصوله إسهاماً كبيراً، وتفاعل مع هموم الفكر الإسلامي المعاصر، وتناول بالدراسة والبحث قضايا العصر من زاويتي الأصالة الإسلامية وحاجات العصر المستجدة، وأعطى الفكر الإسلامي عصارة أفكاره، وخلاصة تجاربه، وكان على مذهب ندوة العلماء في التعامل مع الحضارة المعاصرة في **أخذ الصالح منها، وإطراح الطالح، وتسخير العقل لإعمال النظر في التراث الإنساني، وإخضاعه للمقاييس والمعايير الإسلامية**، وخدم الفكر الإسلامي الأصيل، **فأعاد للأمة ثقتها في دينها، والتزامها بمفاهيمه، وتطبيقها لأحكامه**.

إنّ الميزة الغالبة للكتّاب المسلمين في العالم العربي وفي الهند وتركية وإيران في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري هي الدفاع، فالقارئ لكتاباتهم يشعرُ كأنّهم واقفون في قفص الاتهام، يدافعون عن قضية أو شخصية يكتنفها الشيء الكثير من الغموض والالتواء، وتكثر حولها الريب والتهم، وفي موقفها ضعفٌ، وفي حججها وهنٌ وانثلام، وكان زعماء هذا الأسلوب الاعتذاري في مصر: (**الشيخ محمد عبده**) و(**رفاعة الطهطاوي**) و(**قاسم أمين**) على اختلاف درجاتهم، ومن زعمائه في **الهند**: (**السير أحمد خان**) و(**السيد**

أمير علي) و(صلاح الدين خُدَابَخْش) و(منشي جراغ علي)، كانوا ـ بحكم ثقافتهم ونشأتهم، وبقوة نفوذ الاستعمار الأوروبي السياسي، وكون الحضارة الغربية في نظرهم قضية بديهةً لا تقبل نظراً ولا جدلاً، وكونها آخر ما وصل إليه العلم البشري والعقل البشري ـ لا يفكّرون في نقدِ الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها ومناقشتها، فضلاً عن أن يفكروا في هجوم أو تحد، أو تناول للأسس التي قامت عليها ببحث أو تمحيص.

وكان من لطف الله بالشيخ الندوي ومن حكمته أنه نشأ في بيئة تمرّدت على الحضارة الغربية وإغراءاتها، واستقامت على الفكرة الإسلامية النقية البعيدة عن الإفراط والتفريط، وكان أوّلَ مَنْ وجدَ في أدبه ما يرضي ضميره، ويشحن نفسه بشحنة جديدة من الثقة والاعتزاز، وكبر النفس، وسمو النظر، وقوة العاطفة، هو شعر (**الدكتور محمد إقبال**)، ثم في كتابات (**الأستاذ محمد أسد**)، و(**الأستاذ أبي الأعلى المودودي**)[1]، وفي كتابات **الشهيد** (**سيد قطب**)[2]، فاستفاد من هؤلاء في كثيرٍ من جوانب الفكر الإسلامي، مع

---

(١) يقول الشيخ الندوي عن **محمد أسد وأبي الأعلى المودودي**: فرأيتُهما يتناولان الحضارة الغربية كقضية علميةٍ تصلحُ للنقاش والبحث، أو كجثة تُعرَضُ للتشريح في كلية الطب والجراحة، ويتكلمان في القضايا العلمية والاجتماعية والحضارية وفي الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات والنظريات والفلسفات عن ثقة واعتماد، وبقوة واعتزاز. (شخصيات وكتب، ص١٣٥).

(٢) يقول الشيخ الندوي وقد أهدى إليه **الشهيد سيد قطب** كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وهما في مكة المكرمة: «وكان هذا الكتاب الذي أتحفت به في=

مخالفته لهم في جوانب أخرى، وفيما يلي عرضٌ لمؤلفاته في الفكر الإسلامي.

● **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟:**

إنه أفضل كتاب ألف في قرنه، ومن لم يقرأه يظل ناقصاً في دراساته، شعور أعرب عنه الأستاذ **محمد المبارك**، و«على أن الكتاب في غير حاجةٍ حقاً لتقدمة مقدّم، فقد تقبّله القرّاء بقبول حسن، وخصوه بحفاوة لم يظفر بها كتاب ظهر عن الإسلام في هذه الأيام... وأشهدُ لقد قرأتُ الكتابَ حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم، وأُغرمت به غراماً شديداً، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد فرغتُ منه «إنّ قراءة هذا الكتاب فرضٌ على كلِّ مسلمٍ يعملُ لإعادة مجد الإسلام» انطباع دبّجه يراع الدكتور محمد يوسف موسى[1]، وشاركهما في هذا الشعور والانطباع الأستاذ الشهيد سيد قطب، وعلامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار، والدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ علي الطنطاوي وغيرهم من أعلام الكتاب والمفكرين، وكتب عنه رئيس دراسات

= البلد الأمين مفاجأة لي فيما يختص بالمكتبة العربية الحديثة، وكأنما وجدتُ ضالتي واكتشفتُ شيئاً مجهولاً أو مفقوداً، إن مؤلفه تحرّرَ من هذا الأسلوب الاعتذاري الذي أصبح شعاراً للكتّاب الإسلاميين منذ مدة طويلة، وفضّلَ أسلوب الهجوم، أو مواجهة الفكرة الغربية ـ بمعناها الواسع ـ وجهاً لوجه. وأكثر ما أعجبني في هذا الكتاب هو ثقةُ المؤلف بصلاحية رسالته التي يؤمن بها وخلودِها وتفوقها، وأنها هي الرسالة الوحيدة التي تسعد بها البشرية» (شخصيات وكتب، ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(١) من تقديم الكتاب، ص٦.

الشرق الأوسط في جامعة لندن الدكتور بكنجهام: «يقدّم هذا الكتاب مثالاً وسجلاً تاريخياً للجهود التي بُذلت في هذا القرن لبعث المسلمين».

ويقول مؤلفه في مقدمة طبعته الرابعة: «ظهرت الطبعة الأولى لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) عام ١٩٥٠م فكان الإقبالُ عليه عظيماً تخطّى قياس المؤلف ورجاءه، فقد كان كتاباً لا يسترعي اهتمامَ القرّاء إلاّ موضوعه ـ الذي كان طريفاً ـ وما يحتوي عليه من مادة ومعنًى، ولم يكن من ورائه شخصية المؤلف وشهرته، فلم يكن قد ظهر لمؤلفه كتابٌ آخر قبل هذا الكتاب في العالم العربي، ولم يعرف الناس في هذه الأقطار، فكانت العناية بهذا الكتاب عناية خالصة مجردة للكتاب وللموضوع ليس فيها نصيب لشخصية المؤلف وشهرته»[١].

إنّه كتاب ليس له نظيرٌ في بابه، كتاب يتحدّثُ لأول مرة بكل صراحة ومن دون أي تلعثم أو اعتذار أن تقدُّمَ المسلمين كان نعمةً وبركةً للعالم بأسره، فلمّا أصابهم الانحطاطُ تعدّى خسرانُه إلى العالم بأجمعه، كتاب ينشئُ الثقةَ في المسلمين بدينهم وثقافتهم وحضارتهم وتاريخهم، ولا يستغني عنه داع ولا مصلح، كتابٌ تفترَضُ قراءته على جميع من يهمه أمر الإسلام والمسلمين الديني والدعوي، لقيت بعض إخواننا العرب في إحدى المناسبات الدعوية، فجرى ذكر شيخنا أبي الحسن، فقال أحدهم: كتاب (ماذا خسر العالم) يجبُ

---

(١) المصدر السابق، ص٣.

على كلِّ مسلمٍ أن يقرأه، فلمَّا أخبرتُ الشيخَ بالقصة قال في مزاحٍ: إذاً أقرأ الكتاب.

قدّم للكتاب عدد من العلماء والمفكرين المسلمين، على رأسهم الأستاذ الشهيد (سيد قطب)، افتتح تقديمه بقوله: «ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يردّ عليهم إيمانهم بأنفسهم، وثقتهم بماضيهم، ورجاءهم في مستقبلهم، وما أحوجهم لمن يردّ عليهم إيمانهم بهذا الدين، الذي يحملون اسمه، ويجهلون كنهه، ويأخذونه بالوراثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة. وهذا الكتابُ الذي بين يديَّ (**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**) لمؤلفه السيد **أبي الحسن علي الحسني الندوي** من خيرِ ما قرأتُ في هذا الاتجاه في القديم والحديث سواء»[1]. ويقول: «...ولكنّه لا يعتمِدُ في هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعاً، ويعرض الوقائع التاريخية؛ والملابسات الحاضرة عرضاً عادلاً مستنيراً، ويتحاكم في القضية التي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير، فتبدو كلَّها متساندةً في صفه وفي صف قضيته، بلا تمحُّلٍ ولا اعتسافٍ في مقدمةٍ أو نتيجةٍ»[2].

ويقول: «ولعلَّه مما يلفت النظر تعبيرُ المؤلف دائماً عن النكسة التي ساقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة (الجاهلية)،

---

(١) المصدر السابق، ص١٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٢ ـ ١٣.

وهو تعبيرٌ دقيقُ الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام والروح المادي الذي سيطر على العالم قبله، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلّي الإسلام عن القيادة»[1].

ويقول: «إن الخصيصة البارزة في الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعدُّ نموذجاً للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتبَ من الزاوية الإسلامية»[2].

ويقول: «وهذا الكتاب الذي بين يدي نموذج للتاريخ الذي ينظر للأمور كلها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها، ولعلّ القارئ لم يكن ينتظر من رجل مسلم، واثق بقوة الروح الإسلامي، متحمّسٌ لرد القيادة العالمية إليه، أن يتحدثَ عن مؤهلات القيادة، فلا ينسى بجوار (الاستعداد الروحي) أن يلحَّ في (الاستعداد الصناعي والحربي) و(التنظيم العالمي الجديد) وأن يتحدّثَ عن (الاستقلال التجاري والمالي)، إنّه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية، وبهذا الإحساس المتناسق سار في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء، ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلّين عن التأثر بالطريقة الأوروبية، التي ينقصها هذا التناسق، وهذه العدالة، وهذا التحقيق»[3].

---

(١) المصدر السابق، ص١٥.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق، ص١٦.

يشتمل الكتاب على خمسة أبواب تتضمن خمسة عشر فصلاً :

● **الباب الأول:** وموضوعه : **العصر الجاهلي** ، ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : موضوعه : **الإنسانية في الاحتضار** ، وفيه عرض المؤلف للأديان الموجودة في القرنين السادس والسابع الميلادي بدأها **بالمسيحية** التي عمتها الخرافات الجاهلية والوثنية حتى أصبحت مزيجاً من الخرافات اليونانية والأفلاطونية والرهبانية ، وقامت الحروب الأهلية الدينية في الدول الرومية التي تدين بالمسيحية ، وبلغ الانحلال الخلقي والاجتماعي غايته ، وأصبح الهم الوحيد للناس اكتساب المال من أي وجه ، وإنفاقه في الترف والملذات والشهوات .

أما **اليهود** فقد كانوا أمةً هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، ولكنّهم لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة ، بل قُضي عليهم من قرون طويلة أن يتحكّمَ فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد والنفي والجلاء ، والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخُهم الخاص ، وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة ، والاضطهاد الفظيع ، والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا ، أورثهم كلٌّ ذلك نفسيةً غريبةً لم توجد في أمة ، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقبِ الأعصارِ والأجيالِ ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل ، والنفاق في عامة الأحوال ، وقامت بينهم وبين المسيحيين معارك ضارية قُتل فيها الكثير من الطرفين .

أما فارس وهي التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن في ذاك الزمن، فقد كانت الحقلَ القديمَ لنشاط كبار الهدّامين، الذين عرفهم العالم، كان أساسُ الأخلاق فيها متزعزعاً مضطرباً، واستمرّت قروناً في صراع بين أفكار (ماني) المجحفة وفلسفة (مزدك) الثائرة، وكان تقديس الأكاسرة هو السائدُ، والتفاوتُ بين الطبقات أصلاً من أصول المجتمع الفارسي، ثم صارت **المجوسيةُ** دينَهم، وعبادةُ النار شعارَهم، وأصبحت حياتهم عبارةً عن طقوس وتقاليد، وهكذا حُرِمت الأمةُ الفارسية في حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكونُ تربيةً للنفس، وتهذيباً للخلق، ونظاماً للأسرة، وتدبيراً للمنزل، وسياسية للدولة، ودستوراً للأمة، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال.

أما **البوذية** فقد انتشرت في الهند، والصين، وبلاد الشرق، حيث كان الناس ينصبون التماثيل لبوذا[١]، وجعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة، ولم يكن الناس يؤمنون بالله، ولم يكن عند الصينيين رسالةٌ دينيةٌ للعالم يحلون بها مشاكله.

أما في **الهند** فقد بلغت الوثنية المتطرفة أوجها، حيث بلغت الآلهة ٣٣٠ مليون إلهاً، وأصبحَ كُلُّ شيء رائع وجذاب إلهاً يعبد، أما الشهوات الجنسية الجامحة فقد امتازت بها الديانة في الهند، وكذلك نظام الطبقات القاسي بين

---

(١) اسمه في المراجع العربية (البدّ). (ن).

البشر، وامتياز طبقة البراهمة، ولم يكن للمرأة في المجتمع الهندي أيُّ قيمةٍ تُذكَر، فكان الرجل يخسر امرأته في القمار مثلاً، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح، والوثنية الوضيعة، والقسوة الهمجية، والجور الاجتماعي، الذي ليس له مثيل في الأمم، ولا نظيرَ في التاريخ.

وأما **العرب** فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بالفصاحة وقوة البيان، وحب الحرية والأنفة، والفروسية والشجاعة، والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ، وقوة الذاكرة، وحب المساواة، وقوة الإرادة والوفاء والأمانة، ولكن ابتلوا في العصر الأخير لبعدِ عهدهم من النبوة والأنبياء بانحطاطٍ ديني شديد، فقد كانوا أهل أصنام، يعتقدون أنَّ اللهَ إلهٌ أعظم، وأنَّ هذه الأصنام تُقرّب إلى الله، ويعتقدون فيها النفع والضر، وتنوّعت الآلهة عند العرب، وكانت اليهوديةُ والنصرانية عند العرب دونما أي تأثير، وكانت العصبيةُ القبليةُ الشديدةُ من أهم سمات العصر، وهكذا كان حال الأمم في الأرض في القرنين السادس والسابع الميلادي.

الفصل الثاني: النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي، وكان من أهم سمات النظام السياسي والمالي:

١ ـ **الملكية المطلقة**، حيث كان العصر الجاهلي عصر الحكم الجائر المستبد في كل أمم الأرض، ولم يكن النظام السياسي والمالي في الدولة

الرومانية يختلف عن الدولة الفارسية، وكان نظام الجباية والخراج تذهب أموالها إلى الملوك.

٢ ـ **والفصل الشاسع بين طبقات المجتمع**، حيث كانت المناصبُ وقْفاً على بعض البيوتات ذات الحظوة والجاه عند السلطان، وبقية الشعب يعمل ويكد ويعود النفع على الطبقات العليا.

٣ ـ **والمدنية المصطنعة والحياة المترفة التي غرق فيها ملوك الفرس والروم وحواشيهم**، فكان لكسرى أبرويز اثنا ألف امرأة، وخمسين ألف جواد، وشيء لا يُحصى من الترف والبذخ.

٤ ـ **والزيادة الباهظة في الضرائب وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال** من الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف، وذلك لتمويل الترف الباهظ للسلطان.

وختم **هذا الباب** بوصف الجاهلية الذي قدمه الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم: «اعلم أنَّ العجم والرومَ لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة، وخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمَّقوا في مرافق المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماءُ الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها، ويزيد بعضهم على بعض، ويتباهون بها حتى قيل إنّهم كانوا يعيّرون مَنْ كان يلبس من صناديدهم منطقةً أو تاجاً قيمته دونَ مئة ألف درهم، أو لا يكونُ له قصر

شامخ، وآبزن وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة، وغلمان حسان، ولا يكون له توسّعٌ في المطاعم، وتجمُّلٌ في الملابس، وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولّدَ من ذلك داءٌ عضال دخلَ في جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة، ولم يبقَ منهم أحدٌ من أسواقهم ورساتيقهم، وغنيهم وفقيرهم، إلاّ قد استولت عليه، وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه، وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاءَ لها، وذلك أنّ تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصلُ تلك الأموال إلاّ بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم، والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر، تستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات، ثم لا تترك ساعة من العناء، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً، ولا يستطيعون، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه».

● **الباب الثاني:** وموضوعه: **من الجاهلية إلى الإسلام**، ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير، وفيه عرض المؤلف لموقف العالم الذي واجهه محمد ﷺ وهو صورة مصغرة للعالم، وكانت نواحي الحياة الفاسدة تسترعي اهتمامَ المصلح، وتشغل باله، وكان كل داء من أدواء المجتمع يتطلّب إصلاحُه حياةً كاملةً، ولم يكن الرسول ﷺ رجلاً

إقليمياً، أو زعيماً وطنياً يُريد أن تكونَ للعرب إمبراطورية عظيمة يستطيع أن يرمي بها الفرس والرومان، وينتصر للعروبة المهضومة، ولكنه ﷺ أُرسلَ للناس كافةً، ليخرجَ عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولم يكن خطابُه لأمةٍ دونَ أمة، ولكن كان للبشرية جمعاء، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض عبادة الأوثان والطاغوت، وختم هذا الفصل بقوله: «ولم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب، فمنهم من يوفَّقُ لإزالة بعضها مؤقتاً في بعض نواحي البلاد، ومنهم من يموتُ ولم ينجحْ في مهمته.

أتى النبي ﷺ بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ووضعَ على قفلِ الطبيعة البشرية مفتاحَه، ذلك القفل المعقّد الذي أعيا فتحُه جميعَ المصلحين في عهد الفترة، وكلَّ من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكلِّ معاني الكلمة، وقام في القوم ينادي: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ودعاهم إلى الإيمان برسالته والإيمان بالآخرة».

الفصل الثاني: رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام، حيث ظلَّ النبيُّ ﷺ يدعو الناس ثلاثة عشر عاماً إلى الإيمان بالله، لا يُداهِنُ ولا يستكينُ، ولا يُحابي ولا يلينُ، وتعرَّضَ هو وأصحابه إلى ما لا يُطاق من العذاب والعنت، وسلك الرسولُ ﷺ مع أصحابه طريقَ التربية الإيمانية التي تسمو بالروح، وتخلِّصُ النفسَ من سلطان المادة والشهوة، ثم هاجر ﷺ وأصحابُه إلى

المدينة، التي كانت نواة للأمة الإسلامية الكبيرة، ومنها خرج النبيُّ ﷺ وأصحابه سبعاً وعشرين مرةً للقتال في عشر سنين، ولقد كان للإيمان الذي غرسه الرسول ﷺ في أصحابه أثرٌ عظيمٌ في تصحيح السلوك والأخلاق والميول، وفي الاعتزاز بالله، ورفضهم الانحناء والذلة لغيره سبحانه، والاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء، والشجاعة النادرة، والاستهانة بالحياة، وقد دلَّلَ على ذلك المؤلف بمواقف كثيرة من السيرة النبوية.

الفصل الثالث: المجتمع الإسلامي، وهو المجتمع الذي أسسه الرسول ﷺ على قواعد راسخة، أهمها: **رفض العصبية القومية**، فقال: «ليس مِنَّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ مِنَّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليسَ مِنَّا مَنْ ماتَ على عصبيّةٍ».

وجعل المجتمعَ كلّه مسؤولاً، فقال: «.. كلُّكُم راعٍ، وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ..».

وجعل أصلَ الطاعةِ الكاملةِ لله عزَّ وجلّ، ولا طاعةَ لأحدٍ في معصيته، فكان شعارهم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق»، فكان الرسول ﷺ منهم مكانَ الروح والنفس، وشغل منهم مكان العين والقلب، وقد عرضَ المؤلفُ لكثيرٍ من المواقف الشاهدة على ذلك.

الفصل الرابع: وعرض فيه المؤلف **كيف حوّل رسول الله ﷺ خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية** من أمثالِ عمرو بن العاص، وبلال، وزيد بن حارثة، وأبي سفيان، وغيرهم، وختم هذا الفصلَ بقوله: «لقد وضع محمد ﷺ

مفتاحَ النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائبَ، وقوى ومواهبَ، أصابَ الجاهلية في مقتلها وصميمها، فأصمى رميته، وأرغمَ العالم العنيد بحول الله على أن ينحوَ نحواً جديداً، ويفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلاميُّ الذي لا يزالُ غرة في جبين التاريخ».

● **الباب الثالث: العصر الإسلامي**، ويتضمن ثلاثةَ فصول:

الفصل الأول: عهد القيادة الإسلامية، عرضَ المؤلِّفُ فيه لأئمةِ المسلمين، قادة العالم وخصائصهم، وكان أهمُّها: أنهم أصحابُ كتابٍ منزل وشريعة إلهية، وأنهم لم يتولّوا الحكمَ بغير تربية خلقية وتزكية نفس، وأنهم لم يكونوا خدمةَ جنسٍ ورسلَ شعبٍ أو وطن، وإنّما كانوا للبشرية كلها، وأنهم جسمٌ وروحٌ، وقلبٌ وعقلٌ، وعواطف وجوارح، تسعد بهم البشرية متى نمت هذه الجوانب كلُّها نمواً متناسقاً، فكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع جوانبها، فكان دور الخلافة الراشدة مثلاً للمدنية الصالحة، ثم كانت الفتوحات الإسلامية بتأثيراتها في البشرية، والتي سعدت في ظلها كل البشرية، وتغيرت طباعُ الناس ونفوسُهم وأخلاقُهم، وتأثرت بالإسلام.

ثم عرض المؤلِّفُ لمقتطفات من مؤلفات كتَّاب غير المسلمين، يعترفون فيها بفضل الإسلام في إسعاد البشرية في جميع نواحي الحياة الخلقية والعلمية والدينية وغيرها، وختم هذا الفصل بقوله: «فلو جرت الأمورُ هكذا، وتمتعت الأممُ الإنسانية بقيادة الجماعة التي خلقت لقيادتها، وأعطيت القوسُ باريها، وجرت المياهُ في مجاريها: لكان للعالَمِ الإنسانيّ تاريخٌ غير التاريخ

الذي نقرأه، حافلاً بالزلازل والنكبات، ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومحنها، ولكان لـه تاريخ مجيد جميل يغتبِطُ بـه كل إنسان، ويقر عيناً، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك، وبدأ الانحطاط في أنفسهم».

الفصل الثاني: الانحطاط في الحياة الإسلامية، وعرض فيه المؤلِّفُ لأسباب نهضة الأمة الإسلامية، وشروط زعامتها، وجمعها في صفتين هما: **الجهاد**: وهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب، **والاجتهاد**: وهو أن يكونَ قائدُ المسلمين قادراً على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث والمسائل التي تُفاجِئ وتتجدَّدُ، وأنْ يكونَ عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله في هذا الكون من قوى لمصلحة الإسلام والبشرية.

ثم عرض المؤلف أنَّ هذه القيادة التي تولاّها رجالٌ لم تكن فيهم هذه الصفات فظهرت أسباب انحطاط الأمة، والتي من أهمها **فصل الدين عن السياسة**، وظهور النزعات السياسية في رجال الحكومة، وانتشار الضلالات والبدع، ثم دلل على أن توفر الصفات المطلوبة في القائد يرفع شأن الأمة بحال (صلاح الدين الأيوبي)، ثم ظهر فقرُ القيادة في العالم الإسلامي بعد (صلاح الدين) وانهار صرح القوة الإسلامية.

الفصل الثالث: دور القيادة العثمانية: وفيه عرض المؤلف تفوّقَ **(محمد الفاتح)** في فنّ الحرب، واستخدامه لآلات الحرب، التي لم يكن يعرفها الغرب والشرق، وتفرد الشعب التركي بمزايا استحقَّ بها زعامةَ المسلمين، ثم عرض

إلى انحطاط الأتراك في الأخلاق العثمانية، ثم أكد أنّ المسلمين لم يضيعوا ساعاتٍ وأياماً، بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً، انتهزت فيها الشعوب الأوروبية كل دقيقة وثانية، وسارت سيراً حثيثاً في كل ميدان من ميادين الحياة، وقطعت في أعوام مسافة قرون.

ثم يقوم بمقارنة بين تركية وأوروبة، ويخْلُصُ إلى أن يقولَ: «قارن هذا الشوط الذي قطعته تركية الإسلامية في ميدان الرقي والتقدم بالأشواط التي قطعتها أوروبة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجدُ الفرق هائلاً، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب، إلا أن الأرنب ساهِرٌ دائب في عمله، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة».

● **الباب الرابع:** وموضوعه: **العصر الأوروبي، ويتضمن أربعة فصول:**

الفصل الأول: أوروبة المادية، عرض المؤلِّفُ في هذا الفصل طبيعةَ الحضارة الغربية وتاريخَها الذي يرجع إلى آلاف السنين، حيث خلفت الحضارة اليونانية، والتي من أهمِّ خصائصها الإيمان بالمحسوس، وقلة التقدير لما لا يقعُ تحت الحس، وقلة الدين والخشوع، وشدة الاعتناء بالحياة الدنيا، والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها، والنزعة الوطنية، والحضارة الرومية التي خلفت الحضارة اليونانية، والتي لم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة وسياستها.

ثم كان الانحطاطُ الخلقي في الحضارة الرومية نتيجةً **للرهبنةِ**، التي لم تستطع كبحَ جماح المادية الطاغية، فكانَ الفسادُ في المراكز الدينية، وتنافست

البابوية والإمبراطورية، وشقيت أوروبة برجال الدين، واضطهدت الكنيسةُ العلمَ والعلماء؛ ممّا جعلَ حرباً تقوم ضد رجال الدين، واتجه الغربُ إلى المادية، فكانت ديانتهم اليومَ المادية لا النصرانية.

ثم عرض المؤلف لمظاهر الطبيعة المادية في أوروبة، والنظريات العلمية وتأثيرها في الأفكار والحضارة.

الفصل الثاني: الجنسية والوطنية في أوروبة: بيَّن فيه المؤلف قوةَ العصبية القومية والوطنية عند الأوروبيين، وأنَّ سببَ ذلك انكسار الكنيسة، وقيام الحروب على الفكرة القومية، وقد نقل الأوروبيون هذه الأفكار إلى الأقطار الإسلامية والعربية، واستشهد في ذلك بكثير من المؤلفات الغربية، وختم ذلك بقوله: «فالحكومات الأوروبية تحملُ معها مفاسد الحضارة الغربية وشرورها، وكيف يُرجَى من هذه الحكومات أن تزدهرَ الفضيلةُ والأخلاقُ، ويرقى مستوى أخلاقُ الشعب في ظلها ودولتها؟ ولم يكن ذلك في بلادها وأوطانها، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها، ولا مما تدين به وتعتقده، «**وكل إناء بالذي فيه ينضح**».

ولم تزل طريقُ الملوك والفاتحين غيرَ طريق الأنبياء والهداة والمصلحين، وإنّ الحقيقة التي ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة، لا تختلف في الأزمنة والأمكنة: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤].

الفصل الثالث: وموضوعه: **أوروبة إلى الانتحار**، وعرض فيه المؤلف

عصر الاكتشاف والاختراع، وغاية هذه الاختراعات تفوّقُ القوةَ على الدين والأخلاق؛ مما جعل هذه المخترعات سبباً في شقاء البشرية، ولم تزدهم هذه العلوم والمخترعات إلا ضرراً، ودلل على ذلك بالقنبلة الذرية وفظائعها، وأنَّ هناك اختراعاتٍ أخرى ستكونُ أكثرَ ضرراً للبشرية.

الفصل الرابع: وموضوعه: **رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي**، عرض فيه المؤلف أهمَّ هذه الرزايا، وهي **بطلان الحاسة الدينية، وزوال العاطفة الدينية**.

وعرض المؤلف لمواقف من وجود الحاسة الدينية والعاطفة الدينية عند المسلمين، وانعدامها عند الأوروبيين، ويختم ذلك بقوله: «فكان نتيجةُ ذلك أنَّ الذهن الغربيَّ والمنطق العصري أصبحا عاجزينِ عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة، لا تجلب لذةً واغتباطاً، وأصبح العقل الأوروبي محامياً عن المادية، لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بوساطتها من اللذَّة والهناء، والأفراد من الاغتباط والرخاء، **فأصبح الربحُ الماديُّ هو الميزان للأخلاق**، والفارق بين الشر والخير، وأصبحت الأخلاقُ التي لا وزنَ لها في ميزان المادة، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية في المصطلح القديم، ينتقصُ كلَّ يوم سلطانها على القلوب والعقول، وتعدِمُ أنصاراً، وتصبحُ من شعائر القديم وذكريات العهد الماضي كحنان الأبوين وحبهما للأولاد، ووفاء الأزواج، وحفظهن للغيب.

وتحلّ محلّ هذه الأخلاق المقدرة الصناعية، والاختراع، والإنتاج، والوطنية، والجنسية.

ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها.. ولا يزال المجتمع العصري يستغني عن الروابط المنزلية والأرحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية، ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده، أو الزوجة زوجها، إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون في الدائرة المدنية، التي اختطَّها المجتمعُ حولَ أفراده، وما دام لا يحدِثُ عملهم هذا اضطراباً في المجتمع وثورةً على النظام، ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوقٌ من ولدٍ أو فركٌ من قرينةٍ أو جفاءٌ من زوجٍ، أو دعارة من امرأة، أو فسق من رجل، أو خيانة من زوجة»[1].

● **الباب الخامس: قيادة الإسلام للعالم**، ويتضمّن فصلين:

الفصل الأول: نهضة العالم الإسلامي، عرض فيه المؤلف اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية لقيادة أوروبة وأمريكة للعالم إلى المادية الطاغية، ولم يكن لهذه الأزمة العالمية من حلٍّ إلا في الاتجاه إلى الإسلام، وزعامة الأمة الإسلامية للعالم، ورغم ما أُصيبَ به المسلمون من علاّت، إلا أنهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل، وهذا بشهادة مفكريهم وبيقين وعقيدة المسلمين الأوائل، الذين قال أحدهم لملك الفرس: «اللهُ ابتعثنا لنخرجَ من شاءَ من عبادة

(١) ماذا خسر العالم، ص٢٦٤.

العبادِ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، ومن ضيقِ الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عَدْلِ الإسلام».

وتنبعث نهضة العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية، التي تزداد فيها أوروبة إفلاساً كل يوم، وبالاستهانة بالحياة، والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة، والحنين إلى الجنة، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب، وأن تستغنيَ عن الغرب في كلّ مرافق الحياة، والاستعداد العلمي والفكري والتنظيم العلمي الجديد بما يوافق روحه ورسالته والاستقلال التعليمي.

الفصل الثاني: زعامة العالم العربي، حيث الوطن العربي له أهمية كبيرة في خريطة العالم السياسية؛ وذلك لأنّه وطنُ أُمم لعبت أكبر دور في تاريخ الإنسانية، ورسول الله محمد ﷺ روحُ العالم العربي، والإيمان هو قوة العالم العربي، وكان شبابُ العرب بتضحياتهم الأولى قنطرةً لإسعاد البشرية.

ثم عرض المؤلف لخصائص العرب الذين يجب أن يكونوا زعماء العالم منها: **العناية بالحياة العسكرية، ومحاربة التبذير، والفروق الهائلة بين الغني والفقير، والتخلص من أنواع الأثرة والأنانية، وإيجاد الوعي في الأمة** واستقلالها في تجارتها وماليتها.

وختم هذا الفصل، بل الكتاب بخطاب مؤثّر جداً تحت عنوان (إلى قمة القبلة العالمية)، وهو: «ما أعظمَ التطور الذي حدث في تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ، ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج في لغة صريحة بليغة

وفي أسلوب مبين مشرق[1]! وما أعظمَ النعمةَ التي أسبغها الله على العرب! نقلهم من جزيرتهم التي يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذي يقودونه بناصيته، ومن الحياة القبلية المحدودة التي ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التي يشرفون عليها ويوجهونها، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم، الذي فاجأ العرب، وفاجأ العالم، يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركان دولته: «الله ابتعثنا ليخرِجَ بنا مَنْ شاءَ من عبادةِ العبادِ، إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، ومن ضيقِ الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عَدْلِ الإسلام».

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولاً إلى سعتها، ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخراً، وهل أضيقُ من الحياة القبلية والجنسية، وأوسعُ من الحياة الإنسانيةِ الآفاق؟ وهل أضيقُ من الحياة التي لا يفكّر فيها إلا في المادة الزائلة والحياة الفانية، ولا يجاهَدُ إلاّ في سبيلها من الحياة الإيمانية الروحانية التي لا نهاية لها ولا تحديد.

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب، ومن ضيق الحياة فيها، ومن ضيق التفكير في مسائلها ومصالحها، ومن ضيق التناحر على سيادتها، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل، وملكها الضئيل، وعيشها الضئيل، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية، ليس الدانوب

---

(١) تضم سورة الإسراء قصة المعراج إعلاناً بأن محمد ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله وإمام الأجيال بعده.

الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسِّنْدُ الطويل إلا سواقيَ حقيرة وترعاً صغيرةً فيه، وليست جبالُ الألب والبرانس وعقابَ لبنان وقمم هماليا إلا تلالاً متواضعةً وسدوداً صغيرة، وليست البلاد الواسعةُ كالهند والصين وتركستان إلا أحياءً ضيقةً وحاراتٍ صغيرةً، ونقطاً مغمورةً في هذا العالم، وليست هذه الأرض كلها ـ إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة ـ إلا خريطةً صغيرةً ملونة، يراها الطائر المحلِّق في السماء، وليست الأمم الكبيرة ـ مع ثقافتها وحضاراتها وآدابها ـ إلا أسراً صغيرة في أمة كبيرة.

لقد قام العالَم الكبير على أساس العقيدة الواحدة، والإيمان العميق، والصلة الروحية القوية، وكان أوسعَ عالم عرفه التاريخ، وكانت الشعوبُ التي تكوِّنُ هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ، تنصهر فيها الثقافات المختلفة، والعبقريات المختلفة، فتكون منها ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية، التي لم تزل تظهر في نوابغ الإسلام الذين لا يحصيهم عدد، وفي المآثر الإسلامية ـ بين علمية وعملية ـ التي لا يستقصيها التاريخ.

لقد كانت ـ ولا تزال ـ قيادةُ هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرفَ قيادة وأعظمَها وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة، وقد أكرم الله بها العرب لمّا أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية، وتفانوا في سبيلها، فأحبهم الناسُ في العالم حبّاً لم يعرف له نظير، وقلّدوهم في كل شيء تقليداً لم يعرف له نظير، وخضعت للغتهم اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتُهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه، وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها،

ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم، وأحب مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبنائها وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي، ويقرّ بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم.

وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي يتمجّدُ الناسُ ويتظرّفون بتقليدها، ويحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى، ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات ـ اسمَ الجاهلية والعجمية ـ، وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها.

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدةً طويلةً والناسُ لا يفكرون في ثورة عليها، وفي التخلّص منها، كما هي عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها في كل عهد، لأنّ صلتهم بهذه القيادة ليست صلةَ المفتوح بالفاتح، أو المحكوم بالحاكم، أو الرقيق بالسيد القاهر، إنّما هي صلة المتدين بالمتدين، وصلة المؤمن بالمؤمن، وعلى الأكثر إنما هي صلةُ التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفاني في سبيلها، فلا محلَّ للثورة، ولا محل للتذمر، ولا محلَّ لنكران الجميل، إنّما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل، وتلهجَ ألسنتهم بالشكر والدعاء، وأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا كان، فقد ظلّت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العربَ المنقذ من الجاهلية والوثنية، والداعي إلى دار السلام، والقائد إلى الجنة، والمعلم للحضارة، والأستاذ في الأدب.

هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية، وأعلنتها سورة الإسراء، وهي القيـادة التـي يجب أن يحرص عليها العربُ أشـدّ الحرص، ويعضوا عليها بالنواجذ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب، ويتواصى بها الآباء والأبناء، ولا يجوز لهم ـ في شريعة العقل والدين والغيرة ـ أن يتخلّوا عنها في زمن من الأزمان، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة، وليس في غيرها عوض عنها وكفاية، وهي القيادةُ التي تشمل جميع أنواع القيادة والسيادة، وهي تسيطر على القلوب والأرواح، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح.

إنَّ الطريقَ إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب، وهي الطريق التي جرّبـوها في عهدهم الأول، «الإخـلاص للدعوة الإسلامية، واحتضانها، وتبنيها، والتفاني في سبيلها، وتفضيل منهج الحياة الإسـلامي على جميع مناهج الحياة».

وبذلك ـ من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها ـ تخضع لهم الأمم الإسلامية في أنحاء العالم، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم، وبذلك تنفتحُ لهم أبواب جديدة، وميادين جديدة، في مشارق الأرض ومغاربها، الميادين التي استعصت على غزاة الغرب ومستعمريه وثارت عليه، وتدخل أمم جديدة في الإسلام، أمم فتية في مواهبها وقواها وذخائرها، أمم تستطيع أن تعارض أوروبة في مدنيتها وعلومها إذا وجدت إيماناً جديداً وديناً جديداً، وروحاً جديدة ورسالة جديدة.

يقول الشيخ القرضاوي وهو يتحدَّثُ عن هذا الكتاب: «عرفتُ الشيخ أبا

الحسن منذ نحو سبعة وأربعين عاماً، حين زارنا في مصر، أول ما خرجَ من وطنه في الهند، وأراد أن يتحرّكَ إلى العالم من حوله، فكانت زيارته لمصر (١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م)، كنتُ وقتها طالباً في كلية أصول الدين، مشغولاً بدعوة الإخوان المسلمين، مسؤولاً عن طلبة الإخوان في جامعة الأزهر، مع أخي أحمد العسّال وعدد من الإخوة الكرام، وأخطبُ الجمعةَ في مسجد بمدينة المحلة الكبرى ـ القريبة من قريتي ـ وكنت قد قرأتُ كتابَ (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي نشرته (لجنة التأليف والترجمة والنشر) التي يرأسها الأستاذ الكبير أحمد أمين رحمه الله. وقد أُعجبتُ بالكتاب، ودللتُ عليه بعضَ الأصدقاء ليقرؤوه، وإن كنتُ لا أعرفُ عن صاحبه شيئاً إلا أنه عالم هندي مسلم، وقد كتبَ الأستاذ أحمد أمين مقدمةً للكتاب، ولكنّه لم يوفِ صاحبَه حقه كما ينبغي. ولكنَّ الكتابَ نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته. وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحسّ النقدي، والحسّ الحضاري، والحسّ الدعوي، والحسّ الإصلاحي ـ وكلها من مواهبه ـ على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد»[١].

الأركان الأربعة: في ضوء الكتاب والسنّة، مقارنة مع الديانات الأخرى:

الأركـان الأربعـة التي تناولها بالبحث في هـذا الكتاب هي: **الصلاة،**

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٦ .

والزكاة، والصوم، والحج، ولم يتعرّض فيها لأحكامها ومسائلها الفقهية، وإنما تحدّث فيها عن طبيعتها، وروحها، وثمراتها، وما فيها من تأثير في تعزيز صلات البشر برب العالمين، مع مقارنة بين الإسلام والديانات الأخرى في هذه الناحية.

يقول المؤلف في مقدمته: «هذا كتاب تحدّثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، عن وضعها السماوي، وحقيقتها الشرعية، وتشريعها في الإسلام، ومكانتها في الدين، وفي الحياة الفردية والاجتماعية، وعن مقاصدها وأسرارها كما قررها الكتاب والسنّة، وفهمها المسلمون في القرون المشهود لها بالخير، والمتمسكون بلباب الدين، والراسخون في العلم في مختلف العصور والأجيال، في غير تكلف عجمي، وتنطع فلسفي، وتطرف شخصي، وفي غير خضوع لأفكار أجنبية، واتجاهات عصرية، وفي غير إخضاع ـ لمعانيها وحكمها ونظمها ومناهجها ـ للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة في عصورهم وأمصارهم»[1].

وبعثه على هذا التأليف ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان، ومقاصدها وغاياتها، وفوائدها ومصالحها في هذا العصر، وإخضاعها في جراءة كبيرة، وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية، والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاتها وتعبيراتها

---

(١) المصدر السابق، ص٥.

المحدودة، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير، وخضع لهذا العرض: تفقد حقيقتها وقوتها، وتضيع مقاصدها التي شرعت لأجلها، وكـاد معنى الإيمان والاحتسـاب يضيعُ مـن بين هـذه التعبيرات الماديـة والتفسيرات العصرية.

واعتمد المؤلف في شرح هذه الأركان وبيان حكمها ومصالحها، ومقاصدها وأسرارها على **القرآن الكريم، ومصادر السنَّة ودواوينها الصحيحة**، وعُنيَ بصفـة خاصة بكتابـات الأئمة الذين شرح الله صدورهم لفهم مقاصد الإسلام وروحه، والوصول إلى أعماقه، وكان أكثرُ استفادته من كتاب (حجة الله البالغة) للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، كما أنه أضاف إليه بعض ما وفق إليه من معان، واستفاده من كتابات المعاصرين، يقول: «ولم يمنعني الحياءُ والشعورُ بالنقص عن عرض ما فتحَ الله به عليّ ـ وهو الفتاح العليم ـ من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويها وصلتها بالحياة، وفضّها لكثير من المعضلات والمشكلات، ولم أتوقف عن نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين»[1].

وقام كذلك بدراسة مقارنة تسد فراغاً في هذا الموضوع، يقول: وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدّر نعمة الإسلام، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ولا أن

---

(١) المصدر السابق، ص٦ ـ ٧.

يستوفيَ حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الإسلام والعبادات في الأديان الأخرى، فضلاً عن العقائد والمبادئ والأسس التي يقوم عليها صرح الإسلام العقائدي والكلامي، وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال: «يوشِكُ أن يُنْقَضَ الإسلامُ عروةً عروةً، من نشأ في الإسلام لا يعرفُ الجاهلية»[1].

تحدَّث في شرح الركن **الأول** (الصلاة) عن الحاجة إلى فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب، وأن هذه الصلة الفريدة بين العبد والرب لا يدركها إلا من فهم صفات العبد والرب، فتطرّق إلى بيان موضوع الأسماء والصفات، ومكانتهما في الدين والقرآن، ثم تعرَّضَ لشرح أنّ الإنسان مخلوقٌ غامض متناقض، ومخلوقٌ أليف حنون، وخاضع خاشع بالغريزة، فلا بدّ له من مثل أعلى للجمال أو الكمال، أو القوة والعزة، أو الغرابة والغموض، أو السيطرة والنفوذ، ليشغل هذه الغريزة ومقتضياتها، ويرضي مطالبها ويحقق غاياتها، وقام بشرح الصلة العادلة المعقولة التي يجب أن تكون دائماً بين الإنسان وبين الله، وأنّ الكونَ في خضوع دائم وعبادة مستمرة، وأنَّ الإنسان أحقُّ من جميع هذه المخلوقات بأن يكون في عبادة دائمة، ولا بدّ من عبادة تليقُ بفطرته ومنصبه ومركزه في هذا الوجود والمهمة التي ألقيت على عاتقه، والواجبات التي يجب أن ينوءَ بها، وكانت الصلاة المفروضة هي اللباس المفصل على قامته، من غير طول ولا فضول، ومن غير قصر وضيق.

---

(١) المصدر السابق، ص٨.

ثم ذكر **حكمة التشريع في تخفيف** عدد الصلوات المفروضة وفوائده النفسية، والحكمة في تكرار الصلوات وتعاقبها، ثم يشرح مكانة الصلاة في الإسلام، وأهمية أركانها، وآثارها على الفرد والمجتمع، والتشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة وخلق الجو المناسب لها، ويقارن بين الصلاة في الإسلام والصلاة في الديانات الأخرى، ويذكر سيرة السلف في هذه الصلاة ونظرتهم إليها، وفضل قيام الليل، وشأن السلف فيه، وثمرة النوافل والإكثار من الصلاة، ويؤكد أنّ الصلاة ميراثُ النبوة بروحها وأحكامها متوارثة في الأمة بظاهرها وباطنها.

وختم هذا الحديث بقوله الجامع الأخَّاذ: «ومن واجبات هذه الأمة وعلمائها ومربيها بالأخص ألا ينقطع هذا الإرث، وألا تضيعَ هذه الثروة المباركة، وألا ينطفئَ هذا النور مهما تغيرت الأوضاع، وغزت الماديةُ القلوبَ والنفوسَ، فإنها خسارة لا تعوّضُ بشيء، وفراغ لا يملأ بأكبر قسط من الأحكام الفقهية، وأسرار التشريع، وذلاقة اللسان وسيلان القلم، ولا أمل في حركة إصلاحية، أو محاولة لبعث إسلامي إلا إذا ألهبت جذوةُ الإيمان، والحب والحنان في نفوس أصحابها ودعاتها، وأعادت إلى الأمة ـ عن طريق دعوتها وتربيتها وجهادها ـ ظلالَ تلك الصلاة الخاشعة الرقيقة، التي امتازت بها القرون المشهود لها بالخير، وعرفت كيف تقوم أمامَ ربها في الصلاة قبل أن تعرفَ كيف تقف أمام عدوها، وفي المشكلات والأزمات، وصدق إمام دار الهجرة **مالك بن أنس** إذ قال: «لن تُصْلِحَ آخرَ هذه الأمة إلاّ ما أصلحَ أولها»

وفي القرآن العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢][١].

وتحدث في شرح الركن الثاني (الزكاة) عن صلة الرب والعبد، وما توجبه من حب وإخلاص، وبذل وإيثار، ومظاهر الربوبية والعناية بالإنسان، وما للطبيعة البشرية من أثر في الحياة والمدنية، وأنّ الوضعَ يقتضيان ألا يقرر للإنسان ملك، وأن يكون الملك كله لله.

ثم تحدّث عن سر إضافة الأموال والملكية إلى الإنسان وفائدتها، وكيف غرسَ القرآنُ فكرةَ الأمانة والخلافة في نفوس المسلمين، وكيف آمن المسلمون الأولون بفكرة الأمانة والخلافة، وكيف خضعوا لها، وكيف حث الإسلام على إنفاق الفضل في سبيل الله وقيام المسلمين به في نشاط وحماس.

ثم قام بدراسة الزكاة بمعنى الإنفاق والصدقات، والحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور، وفيما تجب الزكاة، وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير، وحكمة مواضع الزكاة وتوقيتها، ومصارف الزكاة وقيام نظامها الاجتماعي، ومصالح الزكاة الأساسية، وما للزكاة من سمات بارزة تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات التي تفرضها الحكومات أو المجتمعات، والإصلاحات التي قام بها الإسلام في تشريع الزكاة.

ثم قام بمقارنة بينها وبين الصدقات في الديانات الأخرى.

---

(١) المصدر السابق، ص٩٩ ـ ١٠٠.

ثم ذكر دور الإسلام الإصلاحي من إلغاء الاحتكار الديني والطبقي، وإسقاط الوسائط (أي الأحبار والرهبان) في أداء الزكاة، وتمليك المستحقين، وتحكيمهم فيما يأخذونه.

ثم تحدث عن حكمة موقف أبي بكر الصديق من مانعي الزكاة، وذكر أن الزكاة هي الحد الأدنى للبر والمواساة، وأنّ في المال حقاً سوى الزكاة.

وتحدّث عن معيشة الرسول ﷺ وأهل بيته، وحثه وتحريضه على إنفاق الفاضل من الحاجة، ونماذج من سيرة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة وأهل البيت، والمواساة والإيثار في المجتمع الإسلامي الأول وفي مختلف العصور والأجيال.

وأخيراً تحدث عن «مواساة طوعية شاملة، أم مواساة إجبارية محدودة» وكيف أنّ النظام الاشتراكيَّ جاءَ بنظام غير فطري، ففقد الناسُ فيه الشعورَ بالمسؤولية والنهوض بالتبعات الذي فيه سر الشرف الإنساني.

وختم هذا الفصلَ بقطعة جميلة عن فضل المواساة الطوعية: «لقد تجلَّت فوائدُ المواساة الطوعية، ونتائجها الباهرة وما جرّت على أهلها من الراحة والهدوء والسعادة الداخلية والثقة المتبادلة، والحب المشترك، والسلام الشامل، ولذة الروح، ورضا الضمير، والاعتزاز بالإنسانية والتفاؤل في الحياة، وشعور كل فرد بمسؤوليته وواجبه، لقد تجلّى كُلُّ ذلك في المجتمع الإسلامي المثالي الأول في أروع مظاهره وأجمل مناظره، وأعمق معانيه،

ويتجلّى في كل مجتمع يأخذ بمبدأ المساواة الطوعية الشاملة، مقابل المواساة الإجبارية المحدودة، أو الاشتراكية الضيقة الجامدة، فأعضاء المجتمع متحابون متناصحون، شهداء بالخير، يزكّي بعضهم بعضاً، وكل جيل يشهد للجيل الذي سبقه بالفضل والسبق، ويدعو له بالقبول والمغفرة ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ذلك هو المجتمع الذي كان كل عضو من أعضائه مرآةً لأخيه، يقيسه على نفسه، فينفي عنه كل تهمة، ويبرئه من كل نقيصة، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، المجتمع الذي ضرب فيه النبيُّ ﷺ مثلاً بليغاً، فقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائِرُ الجسدِ بالسهر والحمَّى» المجتمع الذي كل عضو فيه حارس كريم، وناصح أمين لصاحبه، فقد جاء في الحديث: «المسلمُ أخو المسلمِ، لا يخونه، ولا يكذِبُه، ولا يخذُلُه، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: عرضُه ومالُه ودمُه». . حين أصبحتِ الحياةُ في بلاد كثيرة شقاءً وجحيماً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وكلما جاء دكتاتور انتقد السابق، وزناه بالغدر والخيانة، وكلّ من تسلّم زمام القيادة انتقم من أعدائه ومنافسيه انتقاماً شديداً، واضطهد وحاكم، وسفك الدماء ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. فمن أبى إلا الطريقة الشاقة الطويلة، والتجربة المرهقة العقيمة، قيل له ولأمثاله: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ

بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ [البقرة: ٦١][1].

وتحدث في شرح الركن الثالث (الصيام) عن أنّ الإنسان خلق وسطاً بين الملائكة والحيوانات، وركّبت فيه طبائع هذين الجنسين تركيباً لطيفاً حكيماً بديعاً، وكان مجموعاً من روح وجسد، ويتجاذب الروحُ والجسدُ إلى مركزهما وخصائصهما.

ثم استعرض أثر انتصار كلٍّ من الروح والجسد في حياة الإنسان وفي تاريخ الأديان والأخلاق، وتأثير التخمة والنهامة في الأخلاق والأذواق، وإغاثة النبوة للإنسانية، وتشريعها للصوم لتحقيق المثل العليا وغايات الحياة الإنسانية الحقيقية.

ثم ذكر مقاصد الصوم، وأثره في النفس والحياة، وقام بمقارنة بين الصوم في الإسلام وفي الديانات القديمة.

ثم شرح فوائد تعيين أيام الصوم وتحديدها بالبداية والنهاية، وضبطها بالأحكام، وفرض الصوم وما نزل فيه من آيات، وخصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه، ولماذا خص رمضان بالصوم؟ وأنه موسم عالمي ومهرجان عام للعبادات والخيرات، والعناية بروح الصوم وحقيقته ومقاصده، والجمع بين السلب والإيجاب.

ثم تحدّث عن تفريط المسلمين في مقاصد الصوم وجناية العادات على

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٣ ـ ١٨٥.

العبادات، وكيف أنَّ الشرعَ صانه من التحريف والغلو.

ثم تحدث عن الاعتكاف وليلة القدر، وختمه بالحديث عن دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الصوم، يقول فيه: «ومن عرف أوضاع الصوم، ومناهجَه في الأمم القديمة والديانات المعاصرة، ودرس تاريخها وفلسفتها، وشاهدَ أحوال الصائمين فيها ـ على قلتهم وتشتت أحوالهم ـ وقارن ذلك بالصوم الإسلامي، ووضعه ومنهجه وفقهه وآدابه، وأكرمه الله بالدخول في هذه الأمة المسلمة والعمل بالشريعة الإسلامية السمحة نطق لسانه بالحمد والثناء، والشكر على نعمة الإسلام، وكان حقيقاً بأن يقول وهو صائم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣][(١)].

وتحدث في شرح الركن الرابع (**الحج**) عن أن الإسلامَ دينُ توحيدٍ وتجريدٍ، لا وساطةَ فيه ولا تمثيلَ، وأنّ الإنسان يحتاجُ إلى مشاهدَ يوجِّهُ إليه أشواقه، ويحقق رغبته من التعظيم والدنو، فاختار الله أموراً ظاهرة محسوسة اختصت به، ونسبت إليه، وسماها شعائر الله.

ثم تحدّث عن عنصر الهيام والحنان في طبيعة الإنسان، وأثرهما في الحياة، ومنزلتهما من الدين، وأنّ (الصفات) هي التي تثيرُ الحبَّ، وتبعثُ الحنان، لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن، وتسلية البيت والحج لحنان

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤٢.

المسلم وهيمانه، وأنّه طفرة أو قفزة واسعة من سجن ضيق إلى عالم فسيح، وتحدّ لعُبّاد العقل والمادة، ودعوة إلى الإيمان بالغيب واتباع الأمر المجرد، وأنَّ الحاجَّ طوعُ إشارةٍ ورهينُ أمر، وفضل المكان والزمان وموسم الحب والحنـان، وأنَّ تجديد الصلـة بإمام الملة الحنيفية (إبراهيم ﷺ) من أعظم مقاصد الحج، وأن إبراهيم ودعوته وجهادَه عنوانٌ جديد، وخط فاصل في كتاب الإنسانية، والحج وشهود الموسم والتقاء أبناء ملة إبراهيم في مكة كلَّ عام هو كافٍ لبقاء هذه الصلة بين إبراهيم وأتباعه.

وجاء دور الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد والإشعاع الروحي، والغذاء العاطفي.

ثم تحدث عن حنين المسلم إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده العظيم، وذكر أنَّ الحجَّ عرضة سنوية للملة، تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها، وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل، وأنّه مركز الإشعاع العالمي الخالد، ومظهر الجامعة الإنسانية العالمية ليشهدَ الناسُ منافع لهم، ثم يؤكّدُ المؤلِّفُ على ضرورة بقاء البلد الأمين محتفظاً بطراز خاص، والحج بروح الجهاد والتقشف.

ثم تحدّث عن حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية، وختمه ببيان دور الإسلام الإصلاح في تشريع الحج، وذكر في الأخير قولةَ شيخ الإسلام أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي: «اعلم أنّه ﷺ بُعِثَ بالأمة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعةِ نورها، وذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] ولما كان الأمرُ على ذلك، وجبَ أن تكونَ أصول تلك

الملة مسلمة، وسننها مقررة، أنّ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقيةُ سنةٍ راشدةٍ، فلا معنى لتغيرها وتبديلها، بل الواجبُ تقريرُها، لأنّه أطوعُ لنفوسهم، وأثبتُ عند الاحتجاج عليهم»[1].

وأهدى الندوي كتابه إلى شيخه تقي الدين الهلالي، فكتبَ إليه: «وقد وصلت النسخةُ المهداةُ إليَّ من كتاب (الأركان الأربعة) ومقارنتها مع الديانات الأخرى، فوجدتُه كتاباً مفيداً، وافياً بموضوعه، الذي لا يزال بكراً، لم يسبق إليه سابق، فجزاك الله خيراً»[2].

● **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن:**

هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في ذي القعدة عام اثنين وثمانين وثلاثمئة وألف، أيامَ كان رئيسُها المرحوم الشيخ عبد العزيز بن باز، ثم أضاف إلى هذه المحاضرات، مقالين قيمين عن فضل عقيدة ختم النبوة على الإنسانية، والصحف السماوية في ميزان العلم والتاريخ.

يقول الشيخ وهو يتحدّث عن هذه المحاضرات: «وجهت إليّ دعوة من الجامعة الإسلامية لإلقاء محاضرات على الطلاب في عام ١٣٨٢هـ الموافق ١٩٦٣م، واخترت لمكان المدينة المنورة عنوان (النبوة والأنبياء في ضوء

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٢.
(٢) رسائل الأعلام، ص٢٢.

القرآن) وتمثّلتُ في مستهل المحاضرة الأولى ببيتي الشاعر العربي مستدلاً على سبب اختيار هذا الموضوع:

ولمّا نزلنا مَنْزِلاً طَلَّه النَّدَى   أَنِيْقاً وَبُسْتَاناً مِنَ النَّوْرِ حَالِيا
أَجَدَّ لنا طِيْبُ المكانِ وحُسْنُهُ   منًى، فَتَمَنَّيْنَا فكُنَّا الأَمَانِيَا

وأعددت المحاضرات التي صدرت فيما بعد بهذا العنوان نفسه في كتاب مستقل.

غادرنا إلى الحجاز في ١١ مارس ١٩٦٣م، وكان يرافقني ابن أختي العزيز محمد الرابع الحسني في هذا السفر، وبدأتُ سلسلةَ المحاضرات بتاريخ ٣ ذي القعدة ١٣٨٢هـ الموافق ٣٠ مارس ١٩٦٣م، وتمت ثمانيَ محاضرات، وكانت تلقى هذه المحاضرات في كل يوم إثنين وخميس، وكان يحضرُها نائبُ رئيس الجامعة المربي الكبير والداعيةُ الموفَّق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وكان يعلِّقُ على المحاضرة بنفسه»[١].

وقد كان هذا الموضوعُ يجول في خاطر المؤلف من زمن طويل بسبب تجاربه الطويلة في مجال الدعوة، واطلاعه الواسع على عقلية الطبقة المثقفة، فرأى معالجته والحديثَ عنه من أهمِّ البحوث والدراسات التي تشتد حاجة الطبقة المثقفة إليها، يقول:

«هذا الموضوع لم يكن موضوعاً مرتجلاً، ولا من سوانح الآراء، بل

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

كان يجول في خاطر المؤلف من زمن طويل بسبب تجاربه الطويلة في مجال الدعوة، واطلاعه الواسع على عقلية الطبقة المثقفة، فرأى معالجته والحديثَ عنه من أهم البحوث والدراسات التي تشتدُّ حاجةُ الطبقة المثقفة إليها، لأنها أقوى سبب في انحراف الطبقات المثقفة والسائدة عن الجادة، وتخليها عن روح الإسلام الصحيحة، وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم المادية المنافية لروح الديانات السماوية، وتمسكها بالأساليب الصناعية والمناهج الفكرية الغربية حتى في تفسير الإسلام، وفي مجال الدعوة والإصلاح العام»[1].

وهو كتاب كُتِبَ بروح الداعية، وهو دروسٌ ألقيت قبلَ أن تكونَ كتاباً يُتلى ويُقرأ، وإنَّ القارئ ليحسُّ فيها بحرارة عاطفة الكاتب من وراء كلماته، والغَيرة على الأمة تطفرُ من كل عبارة، ومن كلِّ سطر، واستحضار الواقع لم يغب عن عين الكاتب ولا عن وعيه أبداً طيلة الكتاب، وإنَّ من أهم المهام التي سيطرت على الكاتب: الإيمان والروح الإيمانية، وعدم الرضوخ والركون للأسباب والموازين المادية، والشيخ يعدّ هذا مَفْرَقاً في معالم إيماننا ودعوتنا. بل إنَّ مصدر الداء إغراقنا في التعلّق بالأسباب. فهذا أمرٌ يكاد يكون محوراً رئيساً في كل ما استعرض الشيخُ من قصص واستشهد من شواهد.

تناول المؤلف في كتابه مواضيعَ كثيرة؛ منها: مصدر المعرفة الصحيحة، والوسيلة الوحيدة للهداية الكاملة، وسمات النبوة، وخصائص دعوة الأنبياء وشخصيتهم، والفروق الأساسية بين الأنبياء والمرسلين والحكماء

---

(١) مقدمة الكتاب.

والمصلحين، ومركز النبوة والأنبياء، ووضع رسالتهم ومهماتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها، والأساليب المميزة لدعوة الأنبياء والأساليب الصناعية، وهل كان فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته فهماً صحيحاً؟ هل ننظر إلى هذه الأسئلة ونجيبُ عليها في ضوء المصطلحات الحديثة، ونقيس مهمة النبوة ومركز الأنبياء بالمقاييس العصرية؟.

استعرض المؤلِّفُ هذه الأسئلة كلَّها في ضوء القرآن، ونظر إليها بمنظار القرآن، فأبرزَ سماتِ النبوة وخصائصَ دعوة الأنبياء من المصلحين والقادة السياسيين، فالكتاب يبيّنُ فضل الأنبياء ومنَّتهم على الإنسانية، ويعيد الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية، وهو قائد ونبراس في حلّ المعضلات والمشاكل الراهنة، ومحاولة جادة ومخلصة لإحياء الفكر الإسلامي الأصيل.

وأكد المؤلف في كتابه أنّ الأنبياء ليسوا مصدر المعرفة الصحيحة فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية وازدهار المدنية، وهي قوة كراهية الشر، وحب الخير، والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساس في كلِّ ما قام به البشر من بطولات.

وذكر أنّ الأنبياء حوّلوا الأممَ والنفوسَ إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، إلى رجال تعطّرت بأنفاسهم الدنيا، وتجمّل بهم تاريخُ الإنسانية، ففاضت المحبةُ، وقامت سوق الجنة، وهبّت نسائم الإيمان، وتحررت النفوسُ من

ربقة الهوى، إنّ المدنية لا تدينُ لطائفةٍ كما تدينُ لهذه الطائفة الربانية، إنّها تدين لها في حياتها وبقائها وشرفها وكرامتها واعتدالها وسدادها، فلولاها لغرقت سفينةُ الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة، إنَّ كلَّ ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة على محاربة الباطل، إنّما يرجع فضله إلى وحي السماء وتعليمات الأنبياء. وما يزال العالم يأكلُ من رفدهم، ويمشي في ضوئهم، ويعيشُ في البناءِ المحكم الذي بنوه.

● الإسلام: أثرُه في الحضارةِ وفضلُه على الإنسانيَّةِ:

الكتاب مقالةٌ قدّمت في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب لوزارة الإعلام في الكويت بمناسبة استهلال القرن الخامس عشر الهجري، ثم وسّعَ المؤلف هذا البحث، وشرح جوانب ومجالات في حياة الأمم والشعوب والحضارة ظهرت فيها التأثيرات الإسلامية في أجلى أشكالها، مع دلائل قوية، وشهادات أجنبية، حولت المحاضرة من مقال يكتَبُ على عجلٍ إلى رسالة مدروسة ضافية، وبحث علمي تاريخي، يسترعي انتباه الباحثين والمنصفين من المسلمين وغير المسلمين.

يدور الكتاب حول عشر معطيات رئيسة ومنح أساسية هامة للإسلام، وهي:

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة.

٢ ـ ومبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.

٣ ـ وإعلان كرامة الإنسان وسموه.

٤ ـ ورد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها.

٥ ـ ومحاربة اليأس والتشاؤم. وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان.

٦ ـ والجمع بين الدين والدنيا.

٧ ـ وتوحيد الصفوف المتنافرة؛ والمعسكرات المتحاربة.

٨ ـ وإيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر، وتفخيم شأن العلم والحث عليه، واستخدام العلم والعقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية، والحث على النظر في الأنفس والآفاق.

٩ ـ ووجود أمة تضطلع بمسؤولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق وسلوك الأفراد والأمم.

١٠ ـ والوحدة العقائدية الحضارية العالمية، وتحدث في الأخير عن «عمل التأثير في الحضارة الإنسانية يجبُ أن يدومَ ويستمر» وختمه بالحديث عن «نبي هو رحمة للعالمين ودين هو رحمة للإنسانية» نقله من آخر كتابه (السيرة النبوية).

يقدّمُ الكتاب تحليلاً موضوعياً لمنن الإسلام على الحضارة الإنسانية، ويتّسم بالطابع العلمي والدعوي القوي، والعاطفة الدينية، والتفكير العميق،

والمقارنة العلمية، بدأه بقوله: «إن موضوع (الإسلام وأثره في الحضارة) موضوعٌ واقعي حيوي، ليس وثيقَ الصلة بالبعثة المحمدية ورسالة الإسلام وتعاليمه فحسب، بل بواقع الحياة، وحاضر الإنسانية ومستقبلها، ودور الأمة المسلمة في بناء الحضارة وتوجيهها كذلك»[١].

ويقول وهو يتحدّثُ عن الحضارة الإسلامية في المعطى العاشر الأخير: «إنَّها حضارةٌ عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله، وقامت على أساس الإيمان، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني، وكل ما عارض ذلك من عصبية قومية، وحمية جاهلية، وحرب عنصرية، ونهامة مادية، واستهتار خلقي، أو فوضوية اجتماعية: فهو شيء طارئ عليها، وافد أو مستورد من الخارج، أو من رواسب البيئات والمجتمعات التي انتقل منها العنصر الإسلامي، أو بسبب ضعف الثقافة الإسلامية، وقلَّة الاشتغال بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ومصادر الإسلام الأصيلة الأولى في هذه البلاد»[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٩.

(٢) المصدر السابق، ص١١٠.

الفصل الثاني

سيرة النبي ﷺ

تمهيد:

إنَّ السيرةَ النبوية على صاحبها الصلاة والسلام عبارةٌ عن دراسة حياة النبي ﷺ وأخلاقه وشمائله، والرسالةِ التي حملَها إلى المجتمع البشري، وأخرجَ بها الناسَ من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله.

لقد عُني المسلمون عنايةً فائقةً بأحاديث رسول الله ﷺ، وسننه، وأيامه، ومغازيه، وشغلت السيرةُ النبويةُ حيزاً غيرَ قليلٍ من هذه الأحاديث، فالذين جمعوا الأحاديث لم تخلُ كتبهم غالباً عن ذكر ما يتعلّق بحياة النبي ﷺ ومغازيه، وخصائصه، ومناقبه، ومناقب صحابته، وقد استمرَّ هذا المنهج حتى بعد انفصال السيرة عن الحديث في التأليف، وجعلها علماً مستقلاً.

قرأ الشيخ الندوي بالأردية منذ صغره رسائل صغيرة في السيرة النبوية، وصار يعقد وهو في الثامنة من عمره جلسات للأطفال من أترابه في السيرة النبوية، وكانت قراءته في السيرة وارتباطه المبكر بها، المدرسة الأولى التي نهل من معينها، وشكلت السيرة النبوية عنصراً أساسياً في ثقافته وحياته، وأتاحت هذه العلاقة المبكرة بالسيرة أن يدخلَ في عالم رباني معجِبٌ، كان له أثره البالغ العميق في نفسه، استثار كوامن مشاعره، وانفعل بأحداث السيرة

وتجاوب مع مواقفها وشخصياتها، وتذوّقَ حلاوة الإيمان في رحابها، وغذَّى وجدانه، وأذكى عاطفة الحب والحنان بما فيها من قصص وأخبار، وقد برز أثر ذلك الانفعال الواعي المتزن في حياته الدعوية والتأليفية على امتداد مشوار حياته، ونشاطاته الفكرية والعملية في سبيل الإسلام.

ويظهرُ من دراسة اهتمام الشيخ بالسيرة أنَّ دراسة السيرة النبوية وفقهها لا تعني لديه مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ولا سردَ ما طرف أو جَمُلَ من القصص والأحداث، بل رمى من خلالها إلى أنّ الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته ﷺ، بعد أن فهمها مبادئ وقواعدَ وأحكاماً مجردة في الذهن، أي إن دراسة السيرة النبوية، ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه بيان الحقيقة الإسلامية كاملة في مثلها الأعلى محمد ﷺ.

توجد أجزاء كثيرة من السيرة منتشرة في ثنايا كثير من مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته المكتوبة أو المذاعة، ومن أمثلة ذلك كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) وكتاب (المد والجزر في تاريخ الإسلام) وكتاب (الطريق إلى المدينة) وكتاب (قصص النبيين للأطفال)، وأقتصر في هذا الفصل بالتعريف بكتابيه (السيرة النبوية) و(الطريق إلى المدينة).

● السيرة النبوية:

لقد عايش المؤلف السيرة النبوية ـ كما قدمنا ـ منذ طفولته، وطال به العمر، وقد ألف عشرات من الكتب في مواضيع شتى من دون أن يفكر في إفراد كتاب في السيرة النبوية، رغم شعوره بمسيس الحاجة إلى كتابة كتاب في

أسلوب عصري علمي، مستفيداً من خير ما كتب في القديم والحديث، مؤسساً على مصادر السيرة الأولى الأصيلة، مطابقاً لما جاء في القرآن والسنَّة الصحيحة، ولكنَّه كان يتهيَّبُ الكتابةَ في هذا الموضوع في توسع وتفصيل لضيق وقته وضعف بصره، وأخيراً شرح الله صدره، فقام به معتمداً على أصحّ ما كُتِبَ وألّفَ في الموضوع في القديم والحديث مستعيناً بالمراجع الأجنبية، وحاول أن يجمع بين الجانب العلمي والجانب التربوي البلاغي، وأن يشتملَ على أكبر مقدار من النصوص النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير، الآسرة للقلوب والنفوس، وذلك كله من غير تنميق أو تلوين، أو تحبير أو تحسين، فجمال الطبيعة لا يحتاج إلى تجميلات خارجية أو تزيينات صناعية، وأتم تأليفه في غرة شوال عام ١٣٩٦هـ= ١٩٧٦م.

قام بدراسة مفصلة وتصوير دقيق **للجاهلية العالمية** الضاربة أطنابها على الأرض كلها **في القرن السادس المسيحي**، ومدى ما وصل إليه هذا العصر من الفساد والانحطاط والقلق والاضطراب والحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما تضافر من عوامل الإفساد والتدمير والإبادة، من حكومات جائرة، وأديان محرفة، وفلسفات متطرّفة، وحركات هدامة.

ثم قام ببحث مستفيض عن **بيئة البعثة**، **وبلد الدعوة**، وأسباب اختيار الجزيـرة العربية والأمة العربية لحمل هذه الدعوة إلى العالم، وألقى الضوء على وضع مكة الاجتماعي والاقتصادي والخلقي في عهد البعثة، مع دراسة مدينة يثرب وطبيعة أرضها، وجغرافيتها، ومكانتها، وأوضاعها الاقتصادية والسياسية.

وقام باستعراض أحداث السيرة في ترتيب زمني في أسلوب أدبي رائع مع ذكر تعليلات لكثير من الأحداث، وتحقيقات علمية، ومراعاة الجوانب التربوية.

والكتاب كله مثال بديع لروائع السيرة النبوية والبحوث العلمية، والتحقيقات التاريخية، وإنما أقتصر هنا على مثال واحد لتحقيقه العلمي، يقول تحت عنوان: من هم الأريسيون؟:

«وردت كلمة (الأريسيين) أو (اليريسيين) ـ على اختلاف الروايات ـ في الكتاب الذي وُجِّهَ إلى هرقل وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره، واختلف علماءُ الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة، فالقول المشهور: إنَّ (الأريسيين) جمع (أريسي) وهم الخَوَلُ والخدم والأكّارون[١] وجاء في (لسان العرب) لابن منظور: (الأرس): الأصل و(الأريس): الأكّار، نقله، عن ثعلب، وذكر عن ابن الأعرابي: أنّه قال: أرس يأرس إذا صار أريساً، وأرس: يؤرس تأريساً: إذا صار أكار، ونقل عن أبي عبيدة أنه قال: الأجودُ عندي أن يقال: إنّ (الأريس) كبيرهم الذي يُمْتَثَلُ أمرُه، ويطيعونه إذا طلب منهم الطاعة[٢].

---

(١) راجع شرح النووي لصحيح مسلم، ومجمع بحار الأنوار للعلامة محمد طاهر الفتني.

(٢) راجع لسان العرب مادة أرس.

وهنا يتساءل القارئ الفَطِنُ إذا كان المراد من (الأريسيين) الفلاحين، كان كسرى أبرويز إمبراطور إيران أحقَّ بأن يحذِّرَ من وقوع إثمهم ومسؤوليتهم عليه، وبأن تردَ هذه الكلمة في الكتاب الذي كتب إليه، فإنَّ طبقة الفلاحين كانت أعظم وأوسع وأكثر تميزاً في المملكة الساسانية الإيرانية منها في المملكة البيزنطية الرومانية، وكان أكثرُ اعتماد إيران في دخلها ومواردها على الفلاحة، وإلى ذلك نبَّه الأزهري، كما نقل عنه ابن منظور بقوله: «وكان أهلُ السوادِ مَنْ هو على دين كسرى أهلَ فلاحةٍ وإثارةً للأرض، وكان أهل الروم أهلَ أثاثٍ وصنعةٍ، فكانوا يقولون للمجوس (أريسيين) نسبوهم إلى (الأريس) وهو الأكار، وكانت العرب تسميهم (الفلاحين)[1].

ولذلك نرجّحُ أن المراد بالأريسيين هو أتباع (أريوس) المصري (٢٨٠ ـ ٣٣٦) وهو مؤسس فرقة مسيحية، كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولةَ البيزنطية والكنيسةَ المسيحية زمناً طويلاً، و(أريوس) هو الذي نادى بالتوحيد، والتمييز بين الخالق والمخلوق، والأب والابن ـ على حد تعبير المسيحيين ـ فأثار نقاشاً حول الموضوع، وكان الشغلَ الشاغلَ في المجتمع المسيحي لعدة قرون، وآراؤه تتلخَّصُ في أنّه ليس من شأن الإله الواحد أن يظهر على الأرض، لذلك هو ملأ السيد المسيح بالقوة والكلام الإلهي، وأنَّ من صفاتِ الله الأساسية: **الوحدانيةَ والأبديةَ**، وأنه لم يخلق أحداً من ذاته رأساً، وأنَّ الابنَ ليس هو الإله، بل هو مظهر لحكمة أمر

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الرب، وأن ألوهيته إضافية لا مطلقة[1].

ويقول جيمس ماكينون في كتابه (من المسيح إلى قسطنطين): «كان أريوس يلحُّ على أنَّ الله وحدَه القديم، كان الأزلي الأبدي، وليس له شريك، وهو الذي خلق الابن من العدم، لذلك ليس الابنُ هو الأزلي، ولم يكن الله أباً من الأبد، فقد كان حينٌ من الدهر لم يكن فيه وجودٌ للابن، وأنَّ الابنَ يحمل حقيقةً خاصةً، لا يشاركه فيها الله، وهو خاضع للتطورات، وليس هو الله بالمعنى الصحيح، إلا أنه يصلحُ لأن يكونَ كاملاً، ولكنَّه على كلِّ حال مخلوق كامل»[2].

بينما كانت كنيسة إسكندرية في أوائل القرن الرابع المسيحي تدينُ بألوهية المسيح إطلاقاً من غير تفريق بين الخالق والمخلوق والأب والابن.

وقد أقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق الإسكندر في عام ٣٢١م من كنيسة الإسكندرية، وغادر أريوس المدينة، ولكن لم ينته النزاع بخروجه، وحاول الإمبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف ولكنّه أخفق، وفي عام ٣٢٥م عقد مجمعاً في نيقية، اجتمع فيه ٢٠٣٠ أسقفاً، وكان الإمبراطور يميل إلى ألوهية المسيح، فحكم ضد آريوس رغم أن أغلبية الحاضرين كانت تؤيد أريوس، ولم يوافقه إلا ٣١٨ أسقفاً، فنفاه إلى ألبرية، وأحرقت كتاباته، وكان من وجدت عنده يعاقب، ولكنّ هذه المحاولات لم تقلل من أهمية أريوس

---

(١) راجع للتفصيل دائرة معارف الديانات والأخلاق: ١/ ٧٧٧ مقال أريانزم.
(٢) من المسيح إلى قسطنطين، لندن، ١٩٣٦م.

وإقبال الناس عليه، وكان آخرُ أمره أنَّ قسطنطين لان في موقفه، ورفعَ الحظر على عقيدته، وبعد موت منافسه الأكبر الإسكندر، ونفي خليفته أثاناسيوس عاد أريوس إلى الإسكندرية، وكاد قسطنطين يولّيه رئاسة الكنيسة المصرية، ويدين بعقيدته، ولكن باغتته المنية قبل ذلك»[1].

وقد جاء في كتاب (الصراع بين الدين والعلم) لـ(درابر): «أنَّ ثلاثةَ عشرَ مجمعاً مسيحياً حكمت ضد أريوس في القرن الرابع المسيحي، وخمسة عشر مجمعاً حكمت في تأييده، وسبعة عشر مجمعاً أدلت برأي قريب من رأي أريوس، وهكذا عقدت خمسة وأربعون مجمعاً للتقرير في هذه القضية.

والحق أن العالم المسيحي لمن يكن له عهدٌ بعقيدة التثليث السائدة الآن قبل القرن الرابع، وقد جاء في (دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة): «أنّه لم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي... وكل من يتحدّثُ عن عقيدة التثليث المطلقة، إنّما ينتقل من فجر التاريخ المسيحي إلى ربع القرن الرابع الأخير، فإنَّ القول بأن الإله الواحد له ثلاثة مظاهر لم يتغلغل في أحشاء العالم المسيحي في حياته وفكره إلا في هذه الفترة الزمنية»[2].

ودامت عقيدة أريوس ودعوته تصارعان الدعوةَ المكشوفةَ إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد، وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه

---

(١) دائرة معارف الديانات والأخلاق، مقال أريانزم.
(٢) مقال التثليث المقدس: ١٤/ ٢٩٥.

العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية، إلى أن عقد تيوسودس الكبير مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وابنيّتِهِ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها أريوس، واختفت، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بـ(الفرقة الأريسية) أو (الأريسيين).

إذاً من المرجح المعقول أنَّ النبي ﷺ إنما عَنَى هذه الفرقة بقوله: «فإنْ توليتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيين» فإنها هي القائمةُ بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية العظمى التي كان على رأسها القيصر (هرقل)»[1].

ومن الغريب أنَّ بعضَ كبار علماء الإسلام في العصر الأول قد ذهبوا إلى هذا، فجاء في كتاب (مشكل الآثار) للإمام أبي جعفر الطحاوي مؤلف (شرح معاني الآثار) المشهور (ت ٣٢١هـ) ما نصه:

«وقد ذكر بعضُ أهل المعرفة بهذه المعاني أنَّ في رهطِ هرقل فرقة تعرف بالأريسية توحّدُ الله، وتعترفُ بعبودية المسيح له عزّ وجلّ، ولا تقول شيئاً مما

(١) اطلعت بعد صدور الطبعة الثالثة للكتاب على بحث قيم لصديقنا الفاضل الدكتور محمد معروف الدواليبي في الأريسيين يؤيد ما قلناه أنّ النبي ﷺ إنما عنى بقوله «فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحية الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النافية لألوهيته، وقد جاء هذا البحث القيم في رسالته (نظرات إسلامية) بعنوان (أريسيون من جديد)، ص٦٨ ـ ٨٣.

يقول النصارى في ربوبيته، وتؤمن بنبوته، فإنها تمسك بدين المسيح، مؤمنة بما في إنجيله، جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيون) في الرفع و(الأريسيين) في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[(١)].

وقريباً من ذلك ما قاله الإمام محيي الدين يحيى النووي شارح صحيح مسلم (ت ٦٧٦هـ) فقال: «الثاني أنهم اليهود والنصارى وهم أتباع عبد الله[(٢)] ابن أريس، الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى، وله مقالة في كتب المقالات، ويقال لهم (الأروسيون)»[(٣)].

● الطريق إلى المدينة:

هذا الكتاب مجموعة مقالات وأحاديث إذاعية تتضمن موضوعَ محبة النبي ﷺ، وانطباعات عن شخصيته الحبيبة وسيرته وحياته، وعرضاً سريعاً لما قد تغنَّى به الشعراء والمحبون في ديار العجم، وسماها (الطريق إلى المدينة) لأنها تمهّدُ الطريقَ إلى المدينة، وتبعثُ الأشواق إليها وإلى منوّرها عليه ألف ألف سلام.

يبدأ الكتاب بكلمة للمؤلف، وتقديم الشيخ علي الطنطاوي، يقول

---

(١) مشكل الآثار: ٣/ ٣٩٩.

(٢) هذا تسامح من النووي، فإنه كان قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، ولم يكن اسمه اسماً إسلامياً عربياً.

(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٢/ ٩٨.

الشيخ الندوي في كلمته: «فرحم الله الشاعر الذي يقول: «لقد عزمتُ على أن أجهّزَ جيشاً جديداً من بلاد الحب والعاطفة، فقد بدتْ في مركزِ الإسلام طلائعُ ثورةٍ يقودُها العقل الفلسفي».

لقد رأى المؤلف طلائعَ هذه الثورة بعينه في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان، والعاطفة والوجدان، وفي ربوعها تمثّلت أروعُ روايةٍ من روايات الوفاء والفداء وقوة العاطفة، ولم تزل شعوب العالم الإسلامي تستمدّ منها هذا الحبّ الطاهر وهذه العاطفة الجياشة، وتشعِل بها مجامرَ قلوبها التي تتعرّض حيناً بعد حين للانطفاء، وتواجه العاصفة الهوجاء.

وهال المؤلف وأفزعه ضعف هذه العاطفة في هذه البلاد، وضعف الصلة الروحية والعاطفة بالنبي ﷺ، وهو خطر كبير، يمهّدُ لكلّ ثورة، ولكلّ اضطراب، ولكلّ ضعف، ولكلّ نوع من أنواع الفوضى، وقد تمالأت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب وإضعافه على الأقل، وأصيبت النفوسُ بجفاف في الشعور وفي التفكير، سرى ذلك في الأدب، والشعر، وتعدّى إلى الدين ومظاهره.

وقد أراد المؤلِّفُ أن يكون جندياً صغيراً في مهاجمة هذا التيار، وفي إثارة هذا الحب الدفين والعاطفة ـ التي أعتقدُ أنها كامنةٌ كشرارةٍ في الرمادِ في قلب كل مسلم ـ وتغذيتها وتنميتها[١].

(١) المصدر السابق، ص٥ ـ ٦.

ويقول الأستاذ علي الطنطاوي في تقديمه للكتاب: «وإذا كان الرجل يشتهي أن يرى الدار التي ولد فيها الأديب، والبلد الذي عاش فيه الشاعر، فيشدُّ الرحالَ، وينفقُ الأموالَ ليصل إليه، فيستحلي في سبيل الوصول إليه مرارةَ التعب، ويستهينُ بمشقَّات السفر، فكيفَ لا يذوب قلبُ المسلمِ شوقاً إلى البلد الذي وطئ أرضه محمد ﷺ حبيبُ كلٍّ مسلم، ونشق هواءه وشرب ماءه».

ويقول: «لقد كدتُ أفقد ثقتي بنفسي، ولكنِّي لما قرأتُ كتابك يا أخي أبا الحسن (**الطريق إلى المدينة**) أحسستُ بالشوق يعودُ فيعتلِجُ بنفسي، فعلمتُ أنَّ قلبي ما خلا من جوهرِ الحبِّ، ولكنَّ همومَ العيش وطول الأُلفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار».

«وقد كدتُ أفقدُ ثقتي بالأدب حين لم أعد أجدُ عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلمّا قرأتُ كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلاّ أنه بغير نظام».

«فيا أبا الحسن لك الشكرُ على أن رددتَ إليَّ ثقتي بنفسي وثقتي بأدب لغتي»[1].

الكتاب كله يستحقّ أن يقرأ وتعاد قراءته، وقد قرأته مراراً، وكلّما قرأته وجدتُ فيه لذةً جديدةً، وفيما يلي مقتبس من فصل (**محمد إقبال في مدينة

---

(١) المصدر السابق، ص١٣ ـ ١٤.

الرسول ﷺ) من الكتاب، وألقاه في إذاعة دمشق لدى زيارته لها عام ١٩٥٦م.

«لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعرُ الإسلام وفيلسوفُ العصر ـ مدّة حياته ـ في حبّ النّبيِّ ﷺ، والاشتياق إلى مدينته، وتغنّى بهما في شعره الخالد، وقد طفحت الكأسُ في آخر حياته، فكان كلّما ذُكِرَتِ المدينةُ فاضت عيناه وانهمرت الدموع، ولم يُقَدَّر له الحجّ وزيارة الرسول ﷺ، لجسمه الضعيف، الذي كان من زمان يعاني من الأمراض والأسقام، ولكنّه رحلَ إلى الحجاز بخياله القويّ، وشعره الخصب العذب، وقلبه الولوع الحنون، وحلّق في أجواء الحجاز، وتحدّثَ إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبُه وحبُّه وإخلاصُه ووفاؤه، وتحدّثَ إليه عن نفسه، وعن عصره، وعن أمته، وعن مجتمعه، وقد فاضت في هذا الحديث قريحةُ الشاعر، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها، ويمسك بزمامها، وينتظر فرصةَ إطلاقها، وقد رأى أن فرصتها قد حانت، وهذا أوانها ومكانها، فخاطب نفسَه بقول الشاعر:

حمامةُ جَرْعَى حَوْمَةِ الجَنْدَلِ اسجعي
فأنتِ بمرأى مِنْ سعادِ وَمَسْمَعِ

فكان شعره في النبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها، وكانت حشاشة نفسه، وعصارة عمله وتجاربه، وكان تصويراً لعصره، وتقريراً عن أمّته، وتعبيراً عن عواطفه.

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات، وهو يتخيَّلُ أنّه مسافر إلى مكة

والمدينة ـ شرّفهما الله ـ يهوي به العيس، ويسير به الرّكب على رمال وعساء، يتخيَّل بشدّة شوقه وحبّه أنّها أنعم من الحرير، وأنّ كلّ ذرَّة من ذراتها قلب يخفق، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً، ويرفق بهذه القلوب الخفَّاقة، ويحدو الحادي بما لا يفهمه، فتثور أشجانه، وتترنَّح أعطافه، وتهيج شاعريته، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ.

ثم يسعدُ بالمثول بين يدي الرسول ﷺ، فيصلّي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه، وينتهز الفرصة، فيحدّثه عن نفسه وبلاده، والفترة التي يعيش بها، وعن أمته، وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها، وما فعل الزمان وطوارق الحدثان، وما فعلت بها الحضارة الغربية، والفلسفات المادية، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حمّلتها، وأين هي من ماضيها وخصائصها، يرثي لها تارة، ويبكي، ويشكوها مرة، ويعاتب، ويشكو غربته في وطنه، ووحدته في مجتمع، وضيعة رسالته في أمّته، وقد سمّى هذه المجموعة بـ(هدية الحجاز) كأنّها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه، ولا شك أنّها هديّة مباركة للعالم الإسلامي، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبية، وقد أربى على الستين، ووهنت قواه، في سنّ يفضِّل فيها الناس الراحة والإقامة، فما باله يسافر وهو شيخ، وقد أضعفه المرض والشيب، والسفر إلى الحجاز شاقٌّ مضنٍ، وقد نصحه الأطباء والأحبّة بالراحة والهدوء، ولكنه يعصيهم، ويطيع أمر الحبّ، ويلبّي منادي الشوق، ويقول: «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي، وكبر سنّي، أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين، ولا عجبَ فإنَّ الطائر يطير في الصحراء طول

نهاره، فإذا أدبر النهار، وأقبل الليل، رفرف بجناحيه، وقصد وكره ليأوي إليه، ويبيت فيه.

كأنه يقول: لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة ـ وهي وكر طائر الروح، ومأزِرُ المؤمن ـ في أصيل حياتي، وفي سنٍّ أشرفت فيها شمسُ الحياة على الغروب؟ أما رأيتم الطائر إذا جنَّ الليل، أسرع إلى وكره؟.

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخ مريض، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً، وقد قال لها: «رويدك يا حبيبتي! فإن راكبك لاغِبٌ، ومريضٌ، وكبيرُ السنِّ، فمشت في نشوة وطرب، ولم تبالِ، كأنّ الصحراءَ حريرٌ تحت أرجلها».

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرور وحنين، حتَّى يصلَ إلى المدينة، فيقول لزميله: «تعالَ يا صديقي! نبكِ سروراً، ونتحدَّثْ ساعةً، ونرسلُ النفسَ على سجيّتها، فإنَّ لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظُّ بعد طول فراق، وشدَّة اشتياق».

ويقبل على نفسه، فيتعجَّب كيف اختُصَّ من بين أقرانه بهذه السعادة، ثم يقول: «لا عجبَ، فإنَّ المحبين المتيَّمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين، يا سعادة الجد، ويا حسن الطالع!! لقد سُمِحَ لصعلوكٍ مملوكٍ أن يدخلَ على السلاطين والملوك».

ولا يلبث محمد إقبال ـ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ـ أن يذكر أمته المسلمة، والشعب المسلم الهندي. يذكر آلامهما وآمالهما، فيذكر

كلّ ذلك في بلاغة الشاعر، وصدق الرائد، وما أجملهما إذا التقيا، يقول: «إنّ هذا المسلم البائس، الذي لا تزالُ فيه بقيةٌ من شمم وإباء، وأنفة الملوك، وعزة الآباء، لقد فقد مع الأيام، يا رسول الله! لوعةَ القلب وإكسيرَ الحبّ. إنّ قلبه حزينٌ منكسِرٌ، ولكنَّه لا يعرِفُ سرَّ ذلك».

«ماذا أحدّثك به يا رسول الله! عن آلامه ورزيئته، حسبُكَ أنَّه هوى من قمّة عالية، إنّه هبط من تلك العلياء التي وصلتَ به إليها، وكلَّما ارتفعَ المكانُ الذي يسقطُ منه كان ألمه شديداً، وكانت الصَّدمةُ عظيمةً، فلطف الله بهذه الأمّة المنكوبة الهاوية من قمّة المجد العالية».

«إنه لا يزال يعاديه، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء، بعيداً عن غايته ومنزله، حسبك من هذه الأمة، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب، أنَّها تعيشُ من غير إمام».

«إنَّ غمدَهُ فارغٌ ككيسه، فهو أعزلُ فقير، إنَّ الكتابَ الذي فتح به العالم، وضعه في بيته الخرب، على طاقٍ تراكمت عليه الأتربةُ، ونسجَ عليه العنكبوت».

«إنه أصبح ـ بطول عهده بالمغامرات والبطولات ـ لا يفهم لغة المغامرين، وإهابة الشجعان المجاهدين، وقد ألف نغمة المغنين، وعاش بين الزفرات والأنين».

«وإنَّ عينه فقدت النور، وإنَّ قلبه حرم السرور، وإنّ رزيئته أنّه يعيش، ولا يعرف لذة الوصال والحضور».

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم، فيقول: «إنّي أحترقُ بنار

شوقي وحبّي، وأستغربُ أنّي خُلِقْتُ في عصر لا يعرف الإخلاص، ولا يعرِفُ سوى المادي والأغراض، في عصرٍ لم يعرفْ لوعةَ القلب، ولم يذقْ لذَّةَ الحبِّ، أنا غريب في الشرق والغرب، أعيشُ وحدي، وأغنّي وحدي، وقد أتحدَّثُ إلى نفسي، وأخفف من أشجاني وآلامي».

ويختم قصيدته بأبياتٍ يوجهها إلى المرحوم عبد العزيز بن سعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده ـ وهو خطاب موجَّه إلى جميع ملوك العرب، وزعمائهم، وعظمائهم، يحذّره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوروبية، ويدعوه إلى الاعتماد على الله، ثم على ما عنده، يقول: «اضرب خيمتك حيثُ شئتَ في الصحراء، ولتكن خيمتُك قائمةً على عمُدك وأطنابك، ولا تنسَ أنَّ استعارةَ الأطنابِ من الأجانبِ حرامٌ».

* * *

الفصل الثالث

التاريخ وتراجم الأعلام

كانت للشيخ عنايةٌ خاصةٌ بموضوع التاريخ وسير الأعلام، فكتب حول موضوع التاريخ الإسلامي وسير أعلامه ما يندر نظيرُه في هذا العصر في العالم الإسلامي بأجمعه، وهو داعيةٌ ومفكِّرٌ إسلاميٌّ، وهذا هو الاتجاه الرئيس لحياته العلمية والعملية، فكتابته لتراجم أعلام التاريخ الإسلامي ليست إلا جزءاً من جهوده نحو إصلاح المجتمع الإسلامي وإعادته إلى الإسلام من جديد، إنّه يركز على المنزلة العلمية للمترجم له، ويبرز جوانب شخصيته المؤثرة، ليجعل منه قدوة تتبع، ونبراساً يحتذى، ويقدمه كموضوع للمعرفة، ومجال للتعلم، ومدرسة لها تأثيرها في حركة الدعوة الإسلامية المتجددة، وبذلك تغلبه الناحية التربوية، إنّه يختار من الرجال ذوي التأثير العلمي والأخلاقي والديني، ويركّز على هذا الجانب على تباعد حقبهم وأعصارهم، وبلدانهم، لأنَّ الهدفَ الأساس هو تكوين خليةٍ متماسكةٍ قوية يكون لها التأثير السحري للدفع بحركة الدعوة الإسلامية الجديدة إلى الأمام.

ونجد عنده شعوراً بالمسؤولية نحو وصف شخصية أو ترجمة عَلَمٍ من الأعلام، يقول:

«إنَّ كثيراً من الكتَّاب والأدباء ـ فضلاً عن الشادين في اللغات والمتطفّلين على الآداب ـ يعتبرون موضوع التعريف برجل من ذوي الشأن والخطر وترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية، والمواد الكتابية، فيكيلون لمن يترجمون له أو يعرّفون به ألقاباً ونعوتاً بسخاء، ويكون أكثرُها كلمات مدح وإطراء مشتركة، يمكن أن تقال عن كل عالم أو أديب أو عظيم وجليل، أو صالح وتقي، أو حاكم حكومة، أو قائد جيش، لا تفيد تحديد الشخصية وتعيينها، ولا تصوير القسمات والمخايل، ولا التجاعيد التي يمتاز بها وجه عن وجه، وجسم عن جسم، واللغة العربية من أغنى اللغات في كلمات الوصف والمدح، والحلية والزينة، ويكفي الكاتبُ أن يعمد في ذلك إلى كتب **(الألفاظ الكتابية)** لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (المتوفى عام ٣٢٠هـ) فيأخذ منه ما يشاء من كلمات الوصف والمدح، فيجود بها على صاحبه، أو يرجع إلى كتب التراجم والسير ـ والمكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فيها ـ فيختارُ منها جملاً وكلمات ويصف فبها المترجَم له أو الممدوح ومن يكتب عنه، فيتشابه الرجال ويتماثلون، ولا يخرج منها القارئ بمعرفة شخصية دقيقة معينة، ولا يشعر بالحيوية والحرارة، ولا بالرقة والنعومة، ولا بالمرونة والحركية، ولا بالعواطف والمشاعر، ولا بالأحاسيس والانعكاسات وردود الفعل التي تمتاز بها الأجسام الحية عن التماثيل والنصب، والصور والدمى، ويمتاز بها الإنسان عن الحيوان فضلاً عن الجمادات والنباتات.

ولكنّ وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والعموم بالدرجة التي يتصورها كثير من الناس، فإنّ ذلك يحتاجُ إلى عدّة مؤهلات.

● أولاها: **المعرفـة الشـخصية الواعيـة الناقدة**، فإذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلاّ فعن طريق الدراسة الأمينة، وتتبع الأخبار، وأن تقومَ بينهما صلة من الصلات التي تحثّ على تتبع الأخبار والتعرف على الخصائص.

● ويليها: **الاقتدار على البيان والتعبير**، وتملُّك ثروة لغوية وكلمات مميزة فاصلة.

● ثم يأتي دور **الدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية**، والقدرة على تفصيل اللباس على قامة المترجم له والمعرَّف به، فلا يكسوه لباساً سابغاً فضفاضاً يبدو فيه قزماً حقيراً، وينم هذا اللباس عن أنّه لباسٌ لغير هذا الإنسان ولقامة أطول من قامته، وللرجال قامات وقيم، وقد تكون الجناية على القيمة أشنع من الجناية على القامة.

● ومهم كذلك أن يتوفر عند الكتابة في ترجمة حياة أو تعريف بشخصية **دافع نبيل ورغبة ملحة تنبع من القلب، من تجاوب مع فكرة، أو استجابة لنداء الضمير، أو دفاع عن كرامة مهضومة**، وحق سليب، أو رد لاعتبار، أو وفاء بفضل، أو إعجاب بجمال أو كمال، فإنّ الكتابةَ إذا تجرّدت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشبي جامد، أو وشي وتطريز لمجرد الربح المادي والغرض التجاري، ويكون الكاتب أو الشاعر في ذلك كالمطرب المحترف أو النائحة المأجورة.

● ويجب كذلك **أن يعرف للكلمات درجةَ حرارةٍ وبرودةٍ**، فلا توضعُ

كلمةٌ ذات حرارة متصاعدة مكانَ كلمةٍ ذات حرارة منخفضة، فضلاً عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة، ولا يسخى بكلمات تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال، أو النبوغ والذكاء، أو الخلق الحسن، والسيرة العالية، أو العلم الغزير والذكاء الألمعي لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه في طبقته، ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات.

والمشكلة حين يكون المترجَم جامعاً بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل، كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطلع على مؤلفاته جميعاً، واطلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه»[1].

وكان الشيخ معجباً بصفة خاصة بمنهج ابن خلكان في التراجم، يقول بعد ذكر أنّ للكلمات درجة حرارة وبرودة: «وبهذه الخصيصة امتاز العلامة شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) في كتابه (**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**) من بين مؤلفي كتب التراجم والسير، فإنّه إذا وصفَ أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي، أو الفقيه، أو الأديب، أو المفسر، أو اللغوي، أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى، وهذا قلّما تيسَّر لمؤلفي كتب التراجم والسير، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة في فن التراجم، ومن أعطاه الله الدقة في الحكم،

---

(١) شخصيات وكتب، ص٣ـ٦.

ورقة الشعور، وحسن الذوق، والاطلاع الواسع الدقيق»[١].

وأقوم هنا بدراسة كتبه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) و(المرتضى) و(إذا هبت ريح الإيمان) و(المسلمون وقضية فلسطين) و(المسلمون في الهند).

● **رجال الفكر والدعوة في الإسلام:**

الكتاب في أربعة أجزاء، بدأها بمحاضرات ألقاها في جامعة دمشق بناءً على دعوة من الدكتور مصطفى السباعي في شعبان ـ شوال عام خمسة وسبعين وثلاثمئة وألف، تناولت موضوعَ **الإصلاح والتجديد**، والتعريف بكبار رجال **الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام**، يقول الأستاذ مصطفى السباعي في تقديمه للكتاب:

«وهذا الكتاب الذي نقدّمه اليوم لقرّاء العربية صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي، وميوله الإصلاحية، ولفهمه العميق للتاريخ الإسلامي، ولروح الإسلام الصافية المشرقة، وما علق بها ـ في العصور الأخيرة ـ من غبار، وما أصابها من انحراف، وبذلك يسدّ هذا الكتاب ثغرةً في دراسة التاريخ الإسلامي، كنا وما نزالُ نشعر بالحاجة إليها، إذ يتحدّث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرضُ لنا صورة واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي في

---

(١) المصدر السابق، ص٦.

العصر الأموي»[1].

تحدث في **المحاضرة الأولى** التي هي بمثابة المدخل للكتاب عن **الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد** واتصالهما في تاريخ الإسلام، يقول: «من الحقائق الأولية أنّ الحياة متحركة ومتطورة، دائمةُ الشباب، مستمرةُ النمو، تنتقل من طور إلى طور، ومن لون إلى لون، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تصابُ بالهرم والتعطل، فلا يسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافل بالحركة والنشاط، لا يتخلّف عن ركب الحياة، ولا يعجز عن مسايرته وزمالته، ولا تقصر عنه خطواته، ولا تنفذ حيويته ونشاطه».

ويستمر قائلاً: «وذلك شأن الإسلام، فإنه ـ وإن كان مؤسساً على عقائد ثابتة، وحقائق خالدة ـ زاخرٌ بالحياة، حافلٌ بالنشاط، له من الحيوية معينٌ لا ينضب، ومادةٌ لا تنفد، صالحٌ لكل زمان ومكان، وعنده لكل طور جديد من أطوار الحياة، ولكل جيل من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر: مدد لا يقصر عن الحاجة، ولا يتأخر عن الأوان».

ثم يقول في مقارنة للإسلام بالديانات الأخرى التي ندرت فيها شخصيات الإصلاح والتجديد: «إننا إذا استعرضنا تاريخ هذه الديانات رأينا فترات طويلة تمتدّ على مدى مئات وآلاف من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين

---

(١) من تقديم الدكتور مصطفى السباعي للكتاب: ١/ ٨٠.

والإصلاح من يجدد هذا الدين، ويديله من أعدائه، الذين تآمروا ضد روحه ونظامه، وينقّيه من شوائب البدع وألوان التحريف، ويعرضه في صورته الصادقة، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوة قوية سافرة، ويجرّده من التقاليد والبدع التي لصقت به، وهو منها براء، ويحارب المادية والترف الذي ابتلي به أتباع هذا الدين، ويوجد بإيمانه القوي، وبروحانيته الصادقة، وبجهاده المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة، وثقة جديدة بدينهم».

ويقول وهو يتحدثُ عن اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام: من الحقائق التاريخية أنّ تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام، والمتقصّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ولا ثلمةً في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدّى القوى الظالمة، أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير».

ويقول وهو يتحدّثُ عن خطأ يرتكبه بعض المتحمسين في هذا العصر، إذ يكوّنون في ذهنهم صورةً خاصةً للمجدد أو المصلح، فإذا لم يجدوها في عصر من العصور تذمروا وأنكروا، يقول: إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال، فلكل عصر مشاكل ومسائل، وملابسات وعوائق، قد تحدد نطاق العمل، وقد تفرض منهجاً دون منهج، وأسلوباً دون أسلوب، والغاية واحدة».

«فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره، وننتقل به إلى عصرنا، ونطبق

عليه مقاييس هذا العصر، ثم نحكم عليه بالفشل والإخفاق، أو الضعف والعجز، ونسلبه محاسنَ نفسه، ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة، لأنه لم يحقق شرطاً من شروطنا، ولم يكن المثلَ الكاملَ في الإصلاح المنشود، والتجديد المطلوب»[1].

وكانت لهذه المحاضرات آثار طيبة في الجيل المسلم الناشئ، يقول الأستاذ السباعي: «وإنّي - وإن لم يسعدني الحظ بالاستماع إلى هذه المحاضرات حين ألقاها الأستاذ الندوي في المدرج الكبير للجامعة السورية بدمشق إذ كنت في رحلة علمية إلى جامعات أوروبة - فقد لمستُ آثارها العميقة في نفوس الذين استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة وغيرهم من طلبة الجامعة، كما سمعت الثناء الكبير عنها في الأوساط العلمية والإصلاحية».
وأضاف الدكتور السباعي قائلاً: «ثم أتيحَ لي أن أقرأها قبل تقديمها إلى المطبعة، فاستفدتُ منها كثيراً، وسألتُ الله أن يمدّ في عمر الأستاذ الندوي لإكمال هذا البحث القيم الذي بدأه، حتى يصل بنا إلى الحديث عن زعماء الإصلاح في العصر الحاضر، وخاصة في الهند التي لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإسلاميين إلا النزر اليسير، وإنها لأمانةٌ لا ينهضُ بمثلها إلا مثل الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته، وإشراق روحه، وواسع علمه، وجميل مثابرته»[2].

الجزء الأول: يتناول دراسة حياة عمر بن عبد العزيز، والحسن

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ٨٩ - ١٠٦.
(٢) من تقديم الدكتور مصطفى السباعي للكتاب: ١/ ٨٠.

البصري، وأحمد بن حنبل، وأبي الحسن الأشعري، وأبي حامد الغزالي، وعبد القادر الجيلاني، وجلال الدين الرومي، وجهودهم الإصلاحية التجديدية.

يقول وهو يتحدث عن النقطة المركزية والأساسية في حياة **عمر بن عبد العزيز**: «إنَّ ميزة عمر بن عبد العزيز ليست في الزهادة والتقشف، فقد يشاركه في ذلك بعض المتطوعين ورجال الحركات والثورات السياسية ـ وإن كنتُ أشكُّ أنَّ أحداً بلغَ مبلغه من العزوف عن الشهوات، والزهد في الحياة ـ ولكنَّ ميزته الكبرى، والسمة التي يتسم بها، هو أن الدافع إلى كل ذلك هو **إيمانه القوي بالآخرة، وخشية الله، والشوق إلى الجنة**، فلم يعش هذه الحياة الزاهدة إلا خوفاً من الله، وشوقاً إلى الجنة، وإيثاراً للآخرة على الدنيا»[1].

ويقول وهو يذكر **مآثر الحسن البصري التجديدية**: «إنّه كان ينعي على **الإخلاد إلى الحياة، والانهماك في الشهوات**، وقد انتشر هذا المرض في الحياة، إنه كان يُذكّر بالموت، ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك، ويعللون نفوسهم بالأماني الكاذبة، والأحلام اللذيذة، ويتضايقون من ذكر ما يكدِّرُ عليهم الحياة، ويعكّر صفو عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضعُ إلاّ لمن صارعها، ولا يعترف إلا بوجود الرجل الذي يحاربها.. وكان الحسن البصري هو ذلك الرجل، فعظم تأثيره، وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها، وانطلقت

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ١٣٥.

موجة الإصلاح قوية مؤثرة»[1].

ويقول وهو يتحدث عن مآثر **أحمد أحمد بن حنبل التجديدية**: وليس سِرُّ عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام، وانتصاره لها ـ وفضله في ذلك لا ينكر ـ ولكن مأثرته الكبـرى التي أكسبتـه منصب التجديد، هو أنه **وقف سدًّاً منيعاً في اتجاه الأمة إلى التفكير الفلسفي المتهوّر**، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى، وعن النبوة المحمدية، وخضعت هذه الأمة للفلسفات، وأصبحت عرضةً للآراء والقياسات، وانتصرت الحكومةُ على الشعب، والسياسةُ على الدين انتصاراً مؤبداً، وسُلبت حرية الرأي والعقيدة.

ولا شك أنها رزية جليلة، وفتنة عظيمة في الإسلام، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهي في شبابها وأوجها، وحفظ هذا الدين من أن يعبثَ به العابثون، وتتحكَّمَ فيه السلطة والأهواء، وحفظ هذه الأمة من أن تكونَ في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم، يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم والبقر، وردّ إلى العقيدة الإسلامية كرامتها وأصالتها، وإلى الأمة حريتها وشخصيتها، فاستحقَّ بذلك تقديرَ الإنسانية وثناء المسلمين، واعتراف الأجيال القادمة، وإجلال التاريخ وإكباره، وكان من المجددين الكبار في الإسلام»[2].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٥٢ـ١٥٣.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٢١٧ـ٢١٨.

ويقول وهو يلخّص عبقرية **أبي الحسن الأشعري**: «ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنَّة والسلف تأييداً إجمالياً، فقد كان الحنابلة والمحدّثون قائمين به، غيرَ مقصّرين فيه.. إن عبقريته تتجلى في أنه **أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يألفونه ويجلونه، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيّدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح، ولا صراع بينهما ولا تناقض**»[1].

ويقول في خاتمة محاضراته عن **الإمام الغزالي**: «لا شك أنّ الغزالي من نوابغ الإسلام، وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح والتجديد، الذين لهم فضل كبير في بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامي، والدعوة إلى حقائق الإسلام وأخلاقه، وفي مقاومة الغزوات العقلية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي، ومهما قيل فيه، وقيل عنه، فإن إخلاصه أسمى من أن يشك فيه»[2].

ويقول في ترجمته **لعبد القادر الجيلاني**: «هنالك نهضَ في بغداد ـ دارِ السلام وقلبِ عالم الإسلام ـ رجل قوي الشخصية، قوي الإيمان، قوي الدعوة، قوي التأثير، فجدّدَ دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي، والعبودية

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣١٥.

الخالصة، وأخلاق المؤمنين المخلصين، وحارب النفاق الذي اجتمع في المجتمع الإسلامي بقوة منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، يجدّدون العهد والميثاق مع الله، ويعاهدوا على أن لا يشركوا، ولا يكفروا، ولا يفسقوا، ولا يبتدعوا، ولا يظلموا، ولا يستحلوا ما حرّم الله، ولا يتركوا ما فرض الله، ولا يتفانوا في الدنيا، ولا يتناسوا الآخرة»[1].

ويقول في تعريفه **بعمل جلال الدين الرومي**: «قد هبت عاصفةٌ عقليةٌ جامحة في القرن السابع، بعثها علم الكلام الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة، وكانت هذه العاصفةُ عاتيةً شديدةً، انطفأت بها كوانين القلوب ومجامرها، وإذا كانت لا تزال بقية من جمرات الحب والعاطفة فقد كانت كامنة في الرماد، مغلوبة على أمرها، وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا شعلة من الحياة، وجذوة من النار، ركاماً بشريّاً حجرياً، بعد عهده بالنار والحرارة.. في هذا الجو الهادئ الخامد **هتف مولانا جلال الدين الرومي بالحياة والعاطفة**، حتى هب العالم الإسلامي من نومه العميق، ودبت فيه الحياة»[2].

هؤلاء الرجال الذين اختارهم الشيخ الندوي يتفاوتون في أداء مهمة الإصلاح والتجديد تفاوتاً كبيراً، فعمر بن عبد العزيز رحمه الله خامس الخلفاء

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٤٩.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٢٥.

الراشدين، جدّدَ معالم الدين في كافة نواحيه، ولم يختلف العلماءُ في شأنه، بل رأى بعضهم أنه هو المعنيُّ بحديث التجديد، ويليه أحمد بن حنبل مكانةً، وأما أبو الحسن الأشعري فجهوده محصورة في ناحية خاصة، والغزالي وإن تعددت الجوانب الإصلاحية فيه، فإنّ قلة اعتنائه بعلم الحديث وسنن المصطفى ﷺ أضرت بها، فكم من حديث ضعيف بل ومنكر وموضوع انتشر في الأمة من أجل كتبه ومؤلفاته، لا سيما (إحياء علوم الدين).

وآخر المذكورين في هذه السلسلة في الجزء الأول من الكتاب هو جلال الدين محمد الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ)، الذي كان لمثنويه فضل كبير في إشعال مجامر الحب، والتأثير في النفوس والوقع في القلوب، وإحداث التغيير في الأفراد والمجتمع لا سيما في بلاد العجم، حتى سماه بعض الناس قرآن اللغة الفارسية، ولكنّه **غلو بيِّن، وتجاوز للحدود، وتخط للمقادير، وقد جعل الله لكل شيء قدراً**، الحق أن كتاب (المثنوي) يشبه (إحياء علوم الدين) في التأثير، وفي شرح كثير من حقائق القوم، كما يشبهه في نشر كثير من الأخبار الضعيفة بل والمنكرة والموضوعة، والقصص الخرافية والأساطير في أوساط المسلمين، وكان من حظ (الإحياء) أن جاء الإمام الحافظ زين الدين أبو الفضل **أحمد بن عبد الرحيم العراقي**، فخرّجَ أحاديثه، ومهّد للناس معرفةَ درجات أحاديثه، بينما (المثنوي) لم يخدَمْ هذه الخدمة الحديثية، فبقيت أحاديثه وقصصه متداولة بين العلماء والعوام، وظل كثير من العلماء يستندون إليها في مواعظهم من دون أن ينتبهوا لضعفها، وينبهوا عليه.

وقد طعن بعض العلماء من أقران الرومي في قصص المثنوي، فاعتذر

بأنّه إنما يذكر هذه القصص ليتوصل منها إلى استنتاجات هامة في الحياة، فلا يهمه إذا كانت هذه القصص صحيحة أم موضوعة، كما أن النحوي يقول (ضرب زيد عمراً) في مثال رفع الفاعل ونصب المفعول به من دون أن يريدَ به ضرباً حقيقياً. ولكنّ هذا الاعتذار غيرُ مقبولٍ، والفرقُ بين الأمرينِ واضحٌ، فإن قصص (المثنوي) وأخباره نالت رواجاً في خاصة الناس وعامتهم على أنها صحيحة.

الجزء الثاني: أفرد لحياة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، ألَّفه باللغة الأردية، ثم نُقِلَ إلى العربية، لخص فيه مآثره التجديدية في النواحي الأربعة:

١ ـ تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة.

٢ ـ ونقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام.

٣ ـ وترجيح منهج الكتاب والسنَّة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب.

٤ ـ والرد على الفِرق والملل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٥ ـ وتجديد العلوم الشرعية وبعث الفكر الإسلامي.

الجزء الثالث: وهو عن الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ)، ذكر فيه أن الشيخ السرهندي كان أمامه في مواجهة فتنة الملك أكبر الإلحادية ثلاثة طرق في ضوء تجاربه وعلمه:

الأول: أن يدعَ الحكم ورجاله ليتصرفوا كما يشاؤون، وينعزلَ عن

معترك الحياة، ويلجأ إلى زاوية.

والثاني: أن يتخذَ موقفاً سلبياً، وهو التصدي للحكام ومقاومتهم، وتغيير الحاكم بتأليب الجمهور أو رجال الجيش.

والثالث: أن يقيمَ صلاتٍ شخصية بنَّاءة برجال الحاشية وأعوان الملك في أمور الدولة، والتأثير في الملك نفسه، وآثر الطريق الثالث وخاطب هؤلاء العظماء من رجال البلاط الملكي، وراسلهم، وأثار في نفوسهم الحمية الإسلامية بقوة بيانه، وعاطفته الوقادة.

وقد اعتبر الشيخ هذا الجزءَ هديته إلى القرن الخامس عشر الهجري، يقول: «رأى المؤلف أنَّه إذا تمَّ هذا العمل (الكتاب) بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة فإنّه لا يكونُ عملاً نافعاً مستمراً فحسب، بل سيكون ـ إذا قدر الله تعالى ـ هديةً قيمةً، أو رسالةً حيةً للقرن الخامس عشر الهجري، ووثيقةً تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين، قام بها في دأب وصمت، وتواضع وخشوع... وهي تحمل لهذا القرن الذي نفتتحه ـ والذي تغيرت فيه الأوضاع تغيراً كبيراً ـ درساً بالغ العظة والاستفادة».

مما يؤخذ على المؤلف أنّه يذكر الإمام السرهندي بلقب (مجدد الألف الثاني) اتباعاً لغيره من علماء الهند، وهو لقب ناشئ عن فهم خاطئ، يعارِضُ روحَ عمله الإصلاحي والتجديدي، فإنّه قام بمقاومة فكرة (الألف الثاني) التي بدأ بها الملك أكبر عهده، يقول الشيخ الندوي نفسه في كتابه هذا تحت عنوان: (الإعداد للألف الثاني وتنفيذ الدين الإلهي): «وكانت الخطوةُ الثانية إنزال

الملك منزلة المجتهد المطلق، والمطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة، ويبدأ الألف الثاني، وأن الدنيا بطلوع هذا الألف الثاني تستأنف عهداً جديداً، فلا بدَّ لها من دين جديد، وقانون جديد، وشارع جديد، وحاكم جديد»[1]، فإن التجديدَ الذي ذُكِرَ في الحديث الشريف، وعرفه المسلمون ليس إلا على رأس كل مئة سنة، والشيخ السرهندي مجدد في قطر من أقطار العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري، ويتلوه في القرن الثاني عشر الهجري في القطر نفسه مجدد آخر الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، وقد فاقه في كثير من النواحي العلمية والعملية، وشؤون الإصلاح والتجديد.

الجزء الرابع: وهو عن الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ)، لخّصَ فيه أعماله التجديدية في سبع نواح:

١ ـ إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن الكريم.

٢ ـ القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام، وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٢٣.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحسبة على مختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين، ورجال العزيمة والكفاح، وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح، وينقلوه إلى الأجيال القادمة[١].

● **المرتضى:**

وهو ترجمة مفصلة للخليفة الراشد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سدَّ به فراغاً في المكتبة الإسلامية الغنية، فقد صدرت قبلَ ذلك

---

(١) قمت ـ وأنا طالب في دار العلوم لندوة العلماء ـ بنقل رسالة (دانشمندي) للإمام ولي الله الدهلوي من الفارسية إلى العربية، والتي طبعت في مجلة البعث الإسلامي بعنوان(مبادئ الدراسة والتعليم)، واطلع الشيخ الندوي على هذه الترجمة حين تأليف الجزء الرابع من رجال الفكر والدعوة في الإسلام، فأرسل إليَّ طالباً يدعوني وأنا نائم، فأيقظني وأخبرني أن الشيخ ينتظرني في مكتبة شبلي النعماني، فاستغربتُ أن يدعو الشيخ طالباً مغموراً مثلي، فلمّا وصلتُ إليه كانت مسودة الكتاب بين يديه، فسلّمت عليه وذكرتُ له اسمي، فأخبرني أنّه ذكرني في أفضل كتاب له (كذا قال) وقرأ القطعة التي فيها اسمي، ولا شك أن ذلك كان تشجيعاً كبيراً من الشيخ لطالب عادي، فعلقت القصةُ بذاكرتي، جزى الله الشيخ أحسن الجزاء.

مؤلفات قيمة عن الخلفاء الراشدين الثلاثة في اللغة الأردية: **(الفاروق)** للعلامة **شبلي النعماني** و**(الصدِّيق)** للعالم الجليل السري الأمير **حبيب الرحمن خان الشيرواني**، و**(ذو النورين)** للأستاذ سعيد أحمد الأكبرآبادي، فكانت الحاجةُ ماسةً إلى كتاب عن رابع الخلفاء الراشدين الذي كان موضع خلاف ونزاع وصراع من قبل مذاهب واتجاهات وجماعات وأحزاب وشخصيات ورجال، ولم يكن هناك بحثٌ جادٌّ ولا دراسةٌ مركزة أمينة محايدة، فسأل الكاتبُ الكبير عبدُ الماجد الدريابادي الشيخَ الندوي أن يؤلِّفَ كتاباً عنه، ولكنْ تأخرَ الأمرُ لأعمال ومشاريعَ متراكمة، إلى أن تمَّ صدور الكتاب في ١٤ شوال عام ١٤٠٨هـ على مستوى رفيع قيم، ودراسة علمية محايدة، وكان مرآة صافية واضحة جلية لشخصية سيدنا علي المرتضى رضي الله عنه التي كانت خبيئة تحت سحب كثيفة، وحجب ثخينة مثقلة مظلمة، فبذل جهداً ضخماً، ودرس تلك الشخصية دراسة وافية وبموضوعية، استوعبَ كلَّ ناحية من نواحي حياته من طفولته في الجاهلية إلى شبابه وكهولته في الإسلام، وإلى خدماته الجليلة في صحبة النبي ﷺ، ورفقته الوفية الأمينة الصادقة المخلصة مع إخوانه الثلاثة من الخلفاء الراشدين الذين سبقوه.

أبان المؤلّف عن وقائع سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأزاحَ الغيوم المتراكمة، وأزال التهم والافتراءات والأوهام والأباطيل والخزعبلات التي أحاطت بشخصيته الجليلة الربانية الطاهرة، يقول: «من الشخصيات المظلومة أو المهضومة حقها شخصيةُ **سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، التي تراكمت عليها حجبٌ كثيفة على مدى القرون والأجيال،

لأسبابٍ مذهبية طائفية ونفسية، ولم تُنصَفْ حقَّ الإنصاف، ولم تُعْرَضْ للدارسين والباحثين وحتى للمحبين المجلين، في صورتها الحقيقية وإطارها الواسع الشامل، وفي استعراض أمين دقيق محايد للعصر الذي نبغت فيه والأحداث التي عاشتها، والمجتمع ورجاله وقادته الذين عاصرتهم وتعاونت معهم، والمعضلات والمصاعب التي واجهتها، والقيم والمثل التي تمسكت بها أشد التمسك، والخطة السياسية والإدارية التي آثرتها، ولم يبحث عن أسبابها ونتائجها، ولم تقارن بنقيضها وضدها ونتائجه ولو فضّله وسار عليه»[١].

راجع في تأليفه المصادر القديمة والحديثة، ودرس المذاهب والطوائف والحركات دراسة نقدية تحليلية، وخرج بلآلئ وجواهر تمتُّ بصلةٍ لحياة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه النقية الصافية، الغنية الثرية النافعة المفيدة، وكانت النتيجة كما قال المؤلف:

«وبذلك جاء الكتاب استعراضاً تاريخياً طويل المدى واسعَ الأرجاء، ومساهمةً متواضعةً في عرض سيرة رجل كبير من كبار الجيل الإنساني، وخريجي مدرسة النبوة المنجبة النجباء»[٢].

ولقد كان للشيخ شعورٌ كبيرٌ بسبقه بتأليف هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على حكمة الله تعالى وتقديره في الترتيب الزماني للخلفاء الراشدين، وتواليهم بعضهم على إثر بعض، والسرُّ: ما قدّره الله وحققه من إبعاد دعوة الرسول ﷺ

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٣٩.

ومجهوده من تهمة التمهيد للحكم العائلي الوراثي التي لصقت بالدعوات، والحركات الإصلاحية، والأسر الحاكمة في الماضي كثيراً، والتي عيل منها صبراً أهلُ الشعور والضمير الحي قديماً، ثم سردَ الدلائلَ البديهية القطعية على تعاون سيدنا علي رضي الله عنه الجاد المخلص مع من سبقه في تولّي الخلافة في صالح الإسلام والمسلمين، وهي كالنتائج الرياضية القطعية، التي لا تقبلُ جدلاً ولا تشكيكاً، ثم بيانُ جهودِ عظماء ذريته في قيادة المسلمين، وفي نشر الإسلام في بلاد مختلفة، والدعوة إلى الله وتزكية النفوس، ودورهم الرائع البطولي في قيادة الحركات الجهادية والتحريرية في مختلف الأمكنة والأزمنة، وذلك كلُّه ما ينفرد به هذا الكتاب في هذا التفصيل، والاعتماد على الوثائق التاريخية، ذلك مع تقرير لسياسة سيدنا علي رضي الله عنه في خلافته وموافقته، وأنها هي اللائقةُ به وبتربيته ومكانته، وتبرير مواقف نجليه الكريمين سيدنا الحسن والحسين رضي الله عنهما من خصومه، وصحة ما قرّراه من تنازلٍ وحربٍ، واستنكارِ وقعة كربلاء، وذكر آراء أئمة الإسلام في ذم يزيد والإنكار عليه، يقول وهو يدافع عن جهود أئمة أهل البيت رضي الله عنهم في سبيل إعادة الخلافة على منهاج النبوة: «إنّ هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأت بالنتيجة المطلوبة، لأنَّ الحكومة قد كانت قوية ومنظمة، وكانت تملك الوسائل والذخائر، وقد رأينا في التاريخ الماضي محاولاتٍ كثيرةً تقومُ على الإخلاص والإيمان والبطولة والشجاعة، ولا يقصّرُ قادتها وأتباعها في التضحية بالأموال والأنفس، ثم كثيراً ما تخفِقُ أمام الحكومات المنظمة والجيوش العظيمة وقواها الهائلة، وليس هذا ببدع في التاريخ، ولا بمستغرب في سير هذا الكون، ولكن

ـ على إخفاقها في ميدان السياسة والنتائج المادية ـ قد خدمت الإسلام خدمة عظيمة، لأنها حافظت على تاريخ الإسلام وشرفه وكرامته، ولولا هذه الجهود والمحاولات حيناً بعد حين لكان التاريخ الإسلامي قصة متصلة للأنانية والنفعية، قصة الملوك الذين يتسلّطون، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون، ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين قد نصبوا للأجيال القادمة ماراتٍ تضيءُ لهم في غياهب التاريخ من بعيد، وتنيرُ لهم السبيل، وتلهم بالفروسية الإسلامية السابقة والثورة على الأوضاع الفاسدة، والغضب لنظام الإسلام المظلوم ولكرامته المهدورة، إنّه تراث مجيد يعتزّ به الإسلام، وثروة غالية تتجمّل بها الأجيال، وسلسلة متصلة من المجاهدين تبعث على الثقة والإيمان واليقين»(١).

وتلقاه الناس بالقبول، ونقل إلى اللغات الأردية والفارسية والتركية والإنكليزية والإندونيسية.

● **إذا هبت ريح الإيمان:**

ألف الشيخ الندوي سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد باللغة الأردية في مجلدين، وقدّم مقتطفات منه في كتابه بالعربية (إذا هبت ريح الإيمان)، فتناول الكتابُ حياة إمام أكبر حركة دعوية وجهادية في شبه القارة الهندية الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه، الذين قدّموا أفضلَ مثال في الإيمان، والصدق والإخلاص، والتضحية، والإيثار، والجهاد لتطبيق الإسلام، وتطهير

---

(١) المرتضى، ص٢١٨ ـ ٢١٩.

المجتمعات الإسلامية من البدع والمنكرات، وتنقيتها من الشوائب ورواسب الجاهلية، وبذل النفس والنفيس في سبيل الله، والحنين إلى الشهادة. وهو كتابٌ يملأ النفسَ همة وشجاعة، والقلبَ إخلاصاً ومحبة لله، وهذا الكتاب عندي أحسن كتبه تأثيراً في النفس، لمَّا قرأته وجدت نفسي تلتذ بكل مشهد من مشاهده، وعينيَّ تدمعان في كثير من مواقفه.

يقول الشيخ الندوي في مقدمته: «فإذا هبت ريح الإيمان جاءت بالأعاجيب في العقيدة، والأعمال، والأخلاق، ورأى الناس روائع من الشجاعة واليقين، والعفة والأمانة، والإيثار وهضم النفس، وروح التطوع والاحتساب، والتواضع في المظاهر، وكبر النفس وسمو النظر، ورأوا آيات من العدل والرحمة، والمحبة، والوفاء، كادوا ينسونها ويقطعون منها الرجاء.

وقد هبت هذه الريح المباركة في فترات تاريخية، قصرت أحياناً وطالت أحياناً، وهي معلومة مسجلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، والتجديد الإسلامي.

وقد هبت هذه الريح في الهند في فجر القرن الثالث عشر الهجري، وتجددت ذكريات القرون الأولى يوم قام الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بدعوة التوحيد، والتجديد، والجهاد.

فالكتاب مقتطفات من تاريخ هذه الدعوة والجهاد، وأضواء على حياة قائد هذه الحركة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وسيرة أصحابه ورفاقه في أمانة تاريخية، وبأسلوب قصصي جميل، إنها صفحة رائعة من البطولات

الإسلامية، وقصة جديدة لم تروَ فصولها للعالم العربي، أزيح فيها الستار عن أروع محاولة لإعادة الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في هذه البلاد في القرون الأخيرة، تمثّلت فيها روائعُ من الصدق والإخلاص، والتضحية والإيثار، والبطولة النادرة، والهمة العالية، والخضوع لحكم الله ورسوله ﷺ، يتعجّل بها تاريخ الإسلام العام، ويعتزّ بها الشعب المسلم في هذه البلاد، إنّه كتابٌ لكل شاب مسلم يتمنَّى عودةَ الإسلام ومجدَ الإسلام، ويبحثُ في شروطه وصفاته ومناهجه ووسائله، فلا يجد إليها سبيلاً، فإذا قرأه وجد لذة الجهاد والحنين إلى الشهادة والاستماتة في سبيلها تدبُّ في عروقه، وتسري في جسمه، ويشعر بلذَّةِ الإيمان ولذَّةِ الأدب والأسلوب القصصي في بيان عربي، كتب في أسلوب روايات أدبية وتاريخية.

وأذكر هنا مقتطفاً منه، وهو فصل من كتاب سيرة السيد أحمد الشهيد، ألحقه المؤلف بكتاب إذا هبت ريح الإيمان، وعنوانه (شهداء بالاكوت يتكلَّمون)، يقول:

«لقد استشهدت في معركة (بالاكوت) نفوسٌ أبية زكية، كانت زينة الدنيا، وبركة الوجود، ومفخرة الإسلام، وشرف المسلمين، إنَّ الرجولة والشهامة، والصدق والأمانة، والعفة والنزاهة، والورع والتقوى، والتمسك بالسنَّة، واتباع الشرع، والحمية الدينية، والبطولة الإسلامية التي كانت عصارة أزهار وورود كثيرة، بل حدائق منوَّعة، وجنات مختلفة من هذه البلاد المترامية الأطراف الواسعة الأرجاء، وكانت تستطيع أن تصنعَ للمسلمين تاريخاً جديداً، وتفتحَ لهم عهداً زاهراً سعيداً، وقد تعطر الدنيا كلها بشذاها إذا قُدّرَ لها البقاء

بعضَ الوقت، إنما أريقت على الأرض، وضاعت في تراب (بالاكوت) في اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة عام ١٢٤٦هـ وصار قيام الدولة الشرعية والحكم الإسلامي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة حلماً بعيد المنال، أو ضرباً من الوهم والخيال.

إنَّ أرض (بالاكوت) روّيت بدماء طاهرة نقية لم تتلوث بالدنيا وأوضارها، واعتزت وتجمَّلت بشهداء لم نجد لهم نظيراً في القرون المتأخرة، في الإخلاص والربانية، والهمة والشهامة، والبطولة والاستقامة، والشجاعة والبسالة، وفي عاطفة الجهاد، وحب الشهادة، إنَّ من يطأ اليوم هذه المنطقة الجبلية الوعرة بأقدامه، ويقطع هذه الوهاد والأنجاد لحاجة من حوائجه، وغرض من أغراضه لا يستطيع أن يتصور ما ضمَّ هذا الوادي في أحشائه من كنز ثمين من المحبين والشهداء، وما أخفى بين جوانحه من ثروة غالية من إعلاء كلمة الله، ومن الحبِّ الخالص في سبيل الله.

لقد عاهدوا الله على أنهم سيجاهدون إلى آخر أنفاسهم ولحظات حياتهم لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، ورفع رايته، وتنفيذ شريعته، ونشر هديه ونوره ولو كره المشركون، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وظلوا يجاهدون بكل نشاط وحماس وشوق، لا يثني همتهم شيءٌ حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة، ووقّعوا على وثيقة الحب والفداء بدمائهم السخية النقية، ويا له من توقيع، ولعل ليلة الخامس والعشرين من ذي القعدة كانت الليلة الأولى التي ناموا فيها نومة هادئة، وقد تحرروا من أثقال رؤوسهم، وأغلال أجسادهم، ويا له من تحرر.

إنهم رجعوا بعد أن حملوا أوسمة الشهادة على صدورهم إلى ربهم الكريم، الذي لا يبالي بتحقيق الأماني وبلوغ الأهداف، ونتائج الكفاح، ولا يعاتِبُ على الهزيمة والانكسار، ولا يحاسِبُ على الإخفاق في إنشاء دولة، وإقامة حكم، ووضع نظام، وتحرير بلاد، إنّه ينظر فقط إلى شيئين اثنين: الصدق والإخلاص، واستخدام الوسائل وبذل المجهود.

وقد تحقق أن شهداء (بالاكوت) لم يدّخروا وسعاً في بذل أنفسهم وأموالهم واستخدام وسائلهم ومواهبهم مخلصين صادقين حتى نالوا شرف الدنيا والدين، وحظوا بالقبول عند الله وعند المسلمين.

إن تلك الدماء التي غابت في تراب (بالاكوت) بمرأى من الجميع فلم يبق منها عين ولا أثر، تلك الدماء التي لم تنجب دولةً ولم تنشئ أمةً، ولم تحقق حلماً: أكبرُ وزناً، وأكثرُ قيمة، وأرفعُ منزلةً في ميزان العدل الإلهي من دول كبيرة قوية، وإمبراطوريات ضخمة.

إن هؤلاء المجاهدين الفقراء الغرباء الذين ضحوا بأرواحهم في غير مواطنهم وبلادهم، وما وجدوا ميرة ولا مدداً: أشرفُ عند الله وأكرمُ عليه من أباطرة وملوك مستكبرين، حكموا إمبراطوريات، وأنشأوا حكومات، والذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

مما لا شك فيه أنَّ دماء شهداء (بالاكوت) لم تحدث تغييراً في خريطة العالم السياسية والجغرافية، وإنَّ هذا الخط الدقيق من الدم الذي فاض في

زاوية صغيرة من الأرض لم يجد مكاناً في الأطلس الطبيعي ولا في التاريخ السياسي، ولكن من يدري ما هي مكانتها في سجل القضاء والقدر، وما هي حرمتها عند المليك المقتدر؟ وكم غسلت من وصمات عار، ولوثات إدبار، عن طالع المسلمين، وكانت سبباً في إجراء أحكام ومحو أخرى عند الله ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فليس من المستغرب إذا هي آذنت لدولةٍ قوية عنيدة بالأفول والزوال، وقضت لشعبٍ متأخّرٍ فقير بالانتصار والازدهار، فطلع بها نجم، وأفل بها نجم، وليس ببعيدٍ إذا هي حولت المستحيلات، وكذبت القياسات والتخمينات، إنَّ كلَّ ذلك في علم الله، وليس بمقدور بشر أن يستعرض آثار هذه الدماء في مسيرة الزمن بمجرد العقل والذكاء.

إنّ كلّ شهيد من شهداء (بالاكوت) ينطق ويقول: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [سورة يس: ٢٦ ـ ٢٧]، إنهم يقولون بلسان حالهم: إننا جاهدنا ليجدَ المسلمون فرصةً طيبةً، وجوّاً صالحاً، يقيمون فيه شعائر الله، ويمثّلون فيه الحياة الإسلامية أصدق تمثيل، ويتمكّنون من تحكيم شرعه، وإجراء أحكامه وحدوده على عباده وفي بلاده، ويقدّمون نموذجاً مثالياً حياً للمجتمع الإسلامي، يكسبون به للإسلام أعواناً وأنصاراً، ويقيمون به على صلاحيته وخلوده دليلاً وبرهاناً، مجتمع إسلامي حر لا تسيطر عليه النفس، ولا يقوده الشيطان، ولا يستبد به حاكم أو سلطان، ولا تتحكم فيه التقاليد والعادات الجاهلية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

مجتمع يفتحُ أبوابَه على مصاريعها للطاعة والعبادة، والبر والتقوى، ويسدها على الفسق والفجور، والمعصية والعدوان، تطبيقاً للآية: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١].

لقد قدر الله لنا الشهادة في سبيله والفوز بمرضاته مقابل تحقيق هذه الأمنية الغالية، والفوز والنجاح في الدنيا، ونحن بقضاء الله راضون، وبحكمه مرتاحون، وبنعمته فرحون، فإذا قدّر الله لكم فرصةً لإعادة الحياة الإسلامية، وإقامة المجتمع الإسلامي في أي دورٍ من أدوار التاريخ، ووجدتم جوّاً حرّاً لتطبيق الشريعة الإسلامية، ولم تحل بينكم وبين إقامة شرع الله وإعادة حكم الله دولة دخيلة أو غاصب أجنبي، ثم انسحبتم عن الميدان، وتخليتم عن هذا الواجب، ووليتم على أعقابكم مدبرين، ورميتم بتلك الشروط والصفات والخصائص والسمات ـ التي امتاز بها المهاجرون والمستضعفون في عهد نهضتهم واستعلائهم وتمكينهم في الأرض ـ عرض الحائط: كان ذلك نكراناً للجميل، وجحوداً بالفضل، وكفراً بالنعمة، ونقضَ عهدٍ، وإخلافَ وعدٍ قد يندرُ نظيره في التاريخ.

إن دماءنا التي أهرقناها بسخاء في ساحات الوغى ومعارك الفداء، وفي مشهد (بالاكوت) في آخر المطاف توقيعات ووثائق على جهادنا وشهادتنا، فهذه المنطقة كلها مقبرة الشهداء، أما أنتم فقد نلتم بمحاولة بسيطة حيناً، وبجرة قلم بعضَ الحين مساحاتٍ واسعةٍ شاسعة، جميلة خضراء من الأرض،

بل ورثتم بعض الأحيان دولاً عظيمة مرهوبة الجانب ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ١٤].

فإن لم تنتهزوا هذه الفرصة السانحة، وجعلتم هذه الحرية وهذا الانتقال مطيةً لأغراضكم، وأداةً لتحقيق شهواتكم، ولم تقيموا حكم الله وشريعةَ الإسلام على نفوسكم وعشيرتكم، وعلى شعبكم، وأصبحت دولكم وحكوماتُكم لا تختلِفُ عن الدول الأجنبية، والحكومات العلمانية المادية، في الحضارة والمدنية، والتشريع والقانون، وأصبح حكامكم لا يختلفون عن هؤلاء الحكام في الأخلاق والسيرة، والثقافة والتربية، لم يبقَ عندكم عذر أمام شعوب العالم التي كنتم معها في صراع باسم الإسلام، وأمام الله العليم الخبير يوم يقوم الأشهاد، حيث تحاسبون على كل صغير وكبير.

لقد أتاح الله لكم فرصة ذهبية لا يجودُ بها الزمانُ إلا نادراً، فرصة تعاقب لها الليل والنهار، وقلب لها التاريخ الإسلامي آلاف الصفحات، وعاش في آمالها المعسولة وأحلامها اللذيذة عدد لا يحصى من النفوس المؤمنة الزكية، وأصحاب الطموح والهمة، والغيرة والحمية، وفارقوا هذه الدنيا قبل أن يبلغوا مناهم، ويرووا غلتهم، فإذا ضيعتم هذه الفرصة الغالية، فرصة تمثيل الحياة الإسلامية الجميلة، بأجمل صورها وأروع معانيها، وأوضح أشكالها، كان ذلك مأساة رهيبة في التاريخ، وكارثة أليمة تقصمُ الظهور، وتقلعُ الأمل من القلوب والصدور.

إنَّ هؤلاء الشهداء الذين ينامون نومة هادئة وادعة في زاوية صغيرة في هذه القرية الجميلة البعيدة (بالاكوت) يتحدّثون اليوم إلى شعوب إسلامية نالت

الحرية، ونعمت بالاستقلال، وملكت زمام القيادة، ويقولون: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

● **المسلمون وقضية فلسطين:**

ظلت قضية فلسطين منذ بداية القرن العشرين الشغلَ الشاغلَ للعرب والمسلمين، ومقدمةَ كلِّ خطبةٍ ووعظٍ، وتكأةَ كلّ خطيب ومتحدّث، وسندَ كلِّ زعيمٍ وقائدٍ، والمسيطرة على عقول الشباب والجماهير، ظلّت معركة الكلام حامية طول هذه المدة، وقلَّما قامت محاولة جادة، أو برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة في الشعوب والبلاد التي اكتوت بنار الجناية الغربية الكبرى، التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث، أو دعوة إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التي بيَّنها القرآن في أسلوبه البليغ السافر، وكسب أسباب النصر الحقيقية التي دعا إليها الكتاب والسنَّة، وحفل بنتائجها وأمثلتها التاريخ الإسلامي، أو نشأ شعور بحاجة إلى استفتاء القرآن والعمل، والإيمان الواعي المنصف الذي لا يكذب ولا يخدع عن أسباب هذه النكبة، وحدوث هذه المشكلة الطريفة التي حار في تحليلها العقلاء، وعجز عن حلها الزعماء.

إنَّ حركة الإخوان المسلمين تحت قيادة الإمام الشهيد حسن البنا هي الحركة الوحيدة في العالم العربي والإسلامي التي أحست بالخطر الداهم وعظم المسؤولية، فعنيت بالقضية دعوةً وجهاداً، ولو أنها لم تتعرَّض للمكايد والمؤامرات لكان للقضيةِ شأنٌ غير ما نحن فيه.

شغلت هذه القضية بال الشيخ الندوي منذ ريعان شبابه، فاسترعى لها

الانتباه، والتقى القادة والزعماء والملوك والأمراء يتذاكر معهم بشأنها، ويقدّم مقترحاتٍ وحلولاً لها، وحضر عِدّة مؤتمرات، وألقى فيها كلماته، وهذا الكتاب مجموعة تلك المقالات والكلمات والأحاديث التي كتبها وألقاها في مثل هذه المناسبات، والتزم فيها أن يكون بحثه في ضوء القرآن والنواميس الإلهية والسنَّة الأزلية، التي بيَّنها القرآن، وشهد بها تاريخ الأمم، وأن يكونَ ذلك تصويراً دقيقاً حياً للواقع الذي تعيش فيه هذه الأمة من غير مبالغة أو صناعة، ومن غير تفاؤل أو تشاؤم، وأن يضعَ أصابعَ قادة الفكر والرأي على الأمراض ومواضع الضعف والعلة الأصيلة في الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية، يقول في مقدمته:

«قد سبق لمؤلّفِ هذا الكتاب أن بحثَ في هذا الموضوع قبل وقوع هذه المأساة (مأساة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م) في شكلها النهائي بعدة سنوات، وجرت على لسانه وقلمه بعض الحقائق التي تحققت فيما بعدُ، لأنّ القضية لم تكن غامضةً ولا ملتويةً، وإنما كانت تحتاجُ إلى شيء من التذوق للقرآن، وشيء من معرفة طبائع الأشياء، والاطلاع على ما يجري في هذه المنطقة التي تقع عليها مسؤولية الدفاع عن هذه القضية.

ثم وقعتِ الواقعةُ، فجعلها موضوعَ تفكيره وبحثه وكتاباته، وصدرت عن قلمه ولسانه عدّةَ مقالات ومحاضرات نشرت في وقتها وتداولتها الأيدي»[١].

---

(١) مقدمة (المسلمون وقضية فلسطين)، ص٨.

إنّ الكتابَ دعوةٌ صريحة ومقارنة عادلة بين الربح والخسارة، ودعوة جريئة إلى المحاسبة محاسبة القادة والشعوب، والكشف عن العوامل الحقيقية لكارثة فلسطين، ودعوة إلى إزالة أسباب الخذلان قبل إزالة آثار العدوان، ودعوة إلى تغير شامل للحياة المترفة، وكان له دويٌّ في الأوساط العربية والإسلامية، وتجاوبٌ كبيرٌ لدى العلماء والدعاة والمصلحين.

● **المسلمون في الهند:**

واجه الشيخ الندوي في رحلته إلى العالم العربي عام ١٩٥١م سؤالاً كان يتكرّرُ ويوجَّه في كل مجلس وفي كل مناسبة: ما عدد المسلمين في الهند، فإذا أجاب أنهم أربعون مليوناً (وقد بلغ العدد الآن مئتي مليون) اندهش الناس، واندفع بعضهم قائلاً: يا سلام أربعون مليوناً! وكانت مفاجأة أخرى من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر العظيم، وليست لهم حضارة خاصة، ولا ثقافة واسعة، ولا آداب سامية، ولا مؤسسات علمية، ولا نشاط ولا إنتاج في العلم والأدب، إنّما هم كالرعاع، أو أمة قد أفلست في كلِّ مقوّمات الحياة، وفي كلِّ ما تعتزّ به أمة من علم وأدب، ودين واجتماع، وأخلاق ومروءة، بل قد كان بعضُ الإخوة يسأل: هل في الهند مساجد؟ هل فيها مدارس دينية؟ هل بها علماء؟ هل بها من يحسن أن يقرأ القرآن؟ هل هناك من يفهم العربية؟ أسئلة تدل على أنّ معلومات الإخوان العرب عن المسلمين في الهند ضئيلة جداً، وتدلّ كذلك على أنه قد أثيرَ نقعٌ كبيرٌ حولَ المسلمين في الهند، وتدل كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا

القطر العظيم، وبهذه الأمة الإسلامية العظيمة التي مثّلت دوراً رائعاً في تاريخ الإسلام وتاريخ العلم العام.

كل ذلك دفع الشيخ الندوي أن يقدّم إلى إخوانه العرب هذا الكتاب الذي يتحدّث عن الهند وعن إخوانهم فيها قديماً وحديثاً، ويتناول هذا الحديث نواحيَ شتى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية، وعمّا أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها في القرن الأول الهجري وما أدخلوا عليها من إصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة، وعما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلامية، وما زادوا في تراثها، ومن نبغ فيها من العلماء الكبار والمؤلفين العظام، وعن مظاهر نشاط المسلمين الديني والعلمي، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر.

وحمله على تقديم هذا الكتاب كذلك ما لاحظ من أنَّ كثيراً من أقطاب السياسة والثقافة ورجالات العالم الإسلامي والشرق العربي يزورون هذه البلاد كلَّ عام، ويقضون فيها ما شاء الله من الوقت، ولا يهمهم أن يتَّصلوا بإخوانهم المسلمين، وينصرفون إلى بلادهم، لا يعرفون عن الشعب الإسلامي في الهند إلا معلومات ضئيلة سطحية مبعثرة، وقد يعرفون عن البوذيين والجينيين أكثر مما يعرفون عن المسلمين، الذين يشاركونهم في العقيدة والثقافة والحضارة، والذين كانوا بناة الهند الجديدة وصانعيها، والذين هم من أغنى شعوب العالم علماً وإنتاجاً وحكماً وإدارة وآثاراً ومخلفات، ولا يزالون مصدر قوة وعمل.

يبتدئ الكتاب بتقديم الأستاذ علي الطنطاوي، تحدّث فيه عن صلته بدار

العلوم لندوة العلماء وبالهند، وعن اضطلاع الشيخ الندوي من العلوم، وإتقانه للغة العربية وآدابها، وأشاد بذوقه الأدبي المرهف والطبع العربي الأصيل.

افتتح الندوي كتابه بفصل عن (**دور المسلمين في حضارة الهند**)، تحدّث فيه عمّا حمله المسلمون إلى هذه البلاد مع دخولهم كدعاة مرشدين، أو غزاة مجاهدين، أو ملوك فاتحين، أو علماء محققين من خبرات وحسنات، وتحف وطرف، وعن بعض ما أضافوه إلى ثروتها الدينية والعلمية والخلقية والاجتماعية والصناعية والمدنية في عهدهم الطويل الجميل الزاهر.

وتحدّثَ في فصل (**تراث العلماء المسلمين في الهند وعنايتهم باللغة العربية**) عن أهمّ ما قدموه إلى العالم من مؤلفات قيمة في العلوم والفنون، بدأه بقوله: «كان المسلمون في الهند أوفياء لوطنهم، لا يتشاغلون عن خدمته والتقدم به في ميادين العلم والصناعة والمدنية، أوفياء لدينهم وثقافتهم الإسلامية العربية، لا يتخلّفون عن ركبها، ولا ينقطعون عنها، وقد نراهم في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة ومأخذ الزمام»[(١)].

كما أفرد عنواناً للحديث عن **نوابغ الشعب الهندي**، يقول فيه: «نبغ في الهند في هذا الشعب الإسلامي الهندي ملوك وأمراء، ووزراء وقادة للجيوش، وعلماء ومؤلفون، يتجمّل بهم تاريخ الإسلام العام، ويكاد يكون كثير منهم العَلَمَ المفردَ في بعض صفات الكمال، ونسيجَ وحدِه فيها»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص٦٥ ـ ٦٦.

ثم أفرد عنواناً للحديث عن (**تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية**)، أتبعه بالحديث عن (**الحضارة الإسلامية في الهند**.

ثم خصص عناوين للحديث عن (**الحركة العلمية القديمة في الهند مراكزها ومزاياها**)، و(**تأثير الصوفية في المجتمع الهندي**)، و(**تفرّد المسلمين في الهند كشعب ممتاز من دون أن يندمجوا فيها**)، و(**عن الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند**)، وأخيراً (**عن مشكلات الشعب الإسلامي الهندي**)، ثم أضيف إلى الكتاب مقالان عن (**شخصية الشعب المسلم مقوماتها ومصادرها**)، و(**شعب يقرر ويعاهد الله**)، ختمه بقوله: «إننا أيها الإخوة في هذا الثلث الأخير من الليل الذي تنزل فيه رحمةُ الله، ويجاب الدعاءُ، وتصفو القلوبُ؛ نعاهِدُ الله بكلِّ إخلاص أننا سنبقى في هذه البلاد بإسلاميتنا وإسلامية أجيالنا القادمة، ونبذلُ في هذا السبيل كلَّ غالٍ ورخيصٍ، ونحتمل السرَّاء والضرَّاء، ونكوّن إحدى الطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

الفصل الرابع

تصحيح الأفكار والمفاهيم

إذا كان الشيخ الندوي يقدّم في جانب الفكر الإسلامي الأصيل، يشرحُ عناصره وأركانه، وركائزه ومقوماته، فإننا نراه في جانب آخر يتتبّع مؤامرات الخصوم ومخططات أعداء الإسلام في الداخل والخارج، ويتصدّى بالردّ والتفنيد للعلمانية والعلمانيين، والشيوعية، والفكر القومي الضيق، الذي لا يستندُ إلى عقيدة الأمة، والقاديانية، وانحراف الشيعة، وسأقوم في هذا الفصل بعرض أهم ما ألفه في هذا الجانب إن شاء الله تعالى.

• الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية[1]:

يعالج الكتاب موضوعاً هامّاً من موضوعات العصر الراهن، وهو ماذا

---

(١) نشر الكتاب أولاً تحت عنوان (موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية) وذلك عام ١٣٨٢ ـ ١٩٦٣ في لكنو، وهو عنوان أكثر دلالة على موضوع الكتاب من عنوانه الجديد، ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب يشتمل على تحليل دقيق لأسباب انحطاط المسلمين، وهو من هذه الحيثية يصلح مدخلاً إلى كتابه العظيم ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟.

يكون موقف المسلمين من الصراع العنيف الذي يشهدونه بين الفكرة الإسلامية والأفكار الغربية المستوردة؟.

يقول الشيخ الندوي في مقدمة الكتاب: «كنا نشعر بحاجة شديدة إلى استعراض هذه المسألة، وما قام به العاملون الموجّهون من جهود في اتجاهات مختلفة، ودراستها دراسة مؤرّخ محايد وباحث نزيه، وتحليلها من غير بخل ولا إسراف، والتنبيه إلى طريق سوي لنهضة المجتمع الإسلامي، الذي لا يتحتَّم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق، ومنهج الحياة الإسلامية فحسب، بل عليه تقع مسؤولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العالم أيضاً، ولا تتحتّم عليه المسايرة لركب الحياة السريع فحسب، بل قيادته كذلك..

إنّ جميعَ الأقطار الإسلامية ـ وأخصُّ منها ما تحرّر حديثاً ـ في حاجة إلى بحث عميق في هذا الموضوع، لأنّ أدنى انحرافٍ أو زلةِ قدمٍ سوف تهوي بها إلى مكان سحيق، وتبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال»(١).

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي **مشكلةً في غاية الدقة والتعقيد والخطورة**، وعلى الموقف الذي يتَّخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقّف مستقبلُه كعالم له شخصيته وكيانه، **وهي مشكلة الحضارة الغربية**، واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة وجهاً لوجه، لأنّه هو زعيمُ الرسالة الدينية والخلقية، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري،

---

(١) مقدمة (المسلمون وقضية فلسطين)، ص٨.

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الإسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة، تناولها الشيخ الندوي ـ في هذا الكتاب ـ بالدراسة والتحليل بشيء من البسط والتفصيل.

فالموقف الأول **الموقف السلبي، وهو أن يرفض العالم الإسلامي هذه الحضارة المادية وما جاءت به رفضاً باتاً**، ويقف منها موقف المعارض الثائر، أو موقف المعتزل الحائد، لا يستفيدُ منها شيئاً، حتى في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة والتكنولوجيا، ولا يستورِدُ شيئاً من الآلات والصنائع والأجهزة، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة، ثم يتحدّث عن حكم هذا الموقف طبعياً وشرعياً ونتائجه، ويتلخّص في أنه **ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة**، ويقطعُ صلةَ هذا الجزء عن باقي العالم، ويكوّن جزيرةً منقطعةً لا مناعة لها ولا قيمة، ثم ذكر مصير الأقطار التي تعيش في عزلة عن العالم، فتحدث عن جزيرة العرب، وأفغانستان، واليمن، وختم شرح هذا الموقف بقطعة جامعة:

«وكان وضع كثير من الأقطار الإسلامية كما صوّره شاعر تركية الإسلامي الكبير **محمد عاكف** في إحدى قصائده وهو قوله: «يسألني الناس: إنك كنتَ في الشرق مدة طويلة، فما الذي شهدتَ يا ترى، وماذا عسى أن يكون جوابي؟ إنني أقول لهم: إنني رأيت الشرقَ من أقصاه إلى أقصاه فما رأيت إلا قرًى مُقْفِرة، وشعوباً لا راعي لها، وجسوراً متهدمة، وأنهاراً معطلة، وشوارع موحشة، إنّما رأيتُ وجوهاً هزيلةً متجعدة، وظهوراً منحنية، ورؤوساً فارغة، وقلوباً جامدة، وعقولاً منحرفة، رأيتُ الظلمَ والعبوديةَ، والبؤسَ والشقاءَ،

والرياءَ والفواحش المنكَرة المكروهة، والأمراض الفاشية الكثيرة، والغابات المحروقة، والمواقد المنطفئة الباردة، والحقول السبخة القاحلة، والصور القذرة، والأيـادي المعطّلة، والأرجل المشلولة، رأيتُ أئمةً لا تابع لهم، ورأيتُ أخـاً يعادي أخاه، ورأيتُ نهاراً لا غايةَ له ولا هدف، ورأيت ليالي حالكة طويلة، لا يعقبها صباح مسفِرٌ ونهار مشرق».

فـإنّهـا (أي هـذه الأقطـار) مهـددة ـ لا محـالـةـ بـالفـوضـى الخلقيـة والسياسية، معرّضة للثورات العسكرية أو الشعبية، واقفة على فوهة بركان، متهيئ للانفجار في أي وقت كان. ولا يمنعُ من ذلك سلطة قوية أو عقاب صارم، أو محاسبة دقيقة، أو مراقبة تحاسب الناس على الأنفاس، وتتبع الخواطر والهواجس، ولا دعايات صحفية إذاعية، ولا بذل أموال طائلة على أصحاب الأغراض والمطامع، ولا مآدب سخية في السفارات، ولا مشروعات ترضي أصحابَ العاطفة الدينية، ولا المؤتمرات العالمية الإسلامية، والندوات العلمية الدينية، التي يعلن منها ارتباط هذه الدول بالإسلام وشغفها به. **إنّما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم، وإصلاح الأوضاع بإخلاص وصدق، وإزالة ما يجب إزالته من الفساد، وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب، وتحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر الإسلام، وثبت في صريح القرآن وصحيح السنَّة، والسعي الحثيث لرخاء الشعب، وأن يجد كل فرد من أفراد الشعب ـ بقدر الإمكان ـ قوته، ومنع البذخ الذي يحول بين الشعب وقوته وحاجاته، وأن يُسْبَكَ نظامُ المعارف سبكاً جديداً، يتفق مع عقيدة هذه البلاد ورسالتها، ومع تطوّر العصر الحديث وعلومه الجديدة، ويخلقُ في الجيلِ**

الجديدِ الإيمانَ والخُلُقَ والاستقامة والثقة بالنفس والاعتزاز بالدين والحماسة في سبيله، ويخلُقُ فيه روحَ الابتكار والاستقلال الفكري، والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعةٍ وذكاء، وإعادة الروح الدينية، والإيمان القـوي؛ والشـعور الخلقي؛ والوعي الإسلامي في الشعب، وإزالة القلق والتذمر بإزالة أسبابهما ودواعيهما، وبإصلاح الأوضاع، والسير والاقتباس من الغرب ما يَصْلُحُ لشعبٍ إسلامي، ويتفق مع عقيدته السمحة، وما له قيمة عملية إيجابية، وما يقوي الشعب وينفعه في كفاح الحياة والمجد والدعوة إلى الله»[1].

ثم ناقش **الموقفَ الثاني موقفَ الاستسلام والتقليد**، وهو أن يقبلَ العالم الإسلامي أو جزءٌ منه هذه الحضارة المادية الآلية بعقائدها ومناهجها الفكرية، وفلسفتها المادية، ونظمها الاقتصادية والسياسية، وذكر محنةَ **تركية** في سَبْقِها إلى هذا الأسلوب من التفكير والمنهج من العمل، ثم تحدّث عن ضياء **كوك ألب** وفلسفته، إذ دعا بكلٍّ قوة وصراحة إلى سلخ تركية من ماضيها، وإيثار الحضارة الغربية، ثم عن **نامق كمال** ودعوته المعتدلة، التي لم تؤثّر في تكوين تركية الحديث مثل ما فعلت دعوة ضياء كوك ألب، ثم استعرض خطوات **كمال أتاتورك** في القضاء على هوية تركية الإسلامية، ويقول: «وهكذا كانت تركية ـ مع الأسف ـ طليعة حركة التجديـد ـ وبعبـارة أصح ـ التجديـد وطليعـة (التغريب) وقدوة الزعماء (التقدميين) في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية، وكان كمال أتاتورك رمز التقدم والثورة»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦١.

ثم استعرض قصة الصراع بين الشرق والغرب في الهند، وفضل حركة (ندوة العلماء) المعتدلة، ومعطيات أكبر الإله آبادي الشاعر الثائر، ومحمد إقبال الناقد للحضارة الغربية، والجماعة الإسلامية، ودورها في نقد الفكرة الغربية.

ثم تحدث عن مصر، وجهود السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وآثار المتخرّجين في أوروبة، وصدى أفكار المستشرقين في مصر، ثم تحدّث عن حركة (الإخوان المسلمين) وتأثيرها.

ثم تحدّث عن سورية والعراق، وإخفاق حزب البعث، وعن إيران وإندونيسية، وتونس، والجزائر، وليبية، والمغرب، وأكد أنّ هذه الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً في طريق (التغريب)، وناقش سياسة النفاق لدعاة الإلحاد والعلمانية، وإسراف الدول الإسلامية المتخلفة، والصراع بين الحكومات والشعوب، وتقليد الحضارة الغربية ونتائجه، وأخيراً تحدّثَ عن أسباب التجديد وعلاجها، وأكبر هذه الأسباب نظام التعليم الغربي، ولا حلَّ لها إلا أن يُصاغَ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً، يلائم عقائد الأمة الإسلامية ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها.

ثم ناقش الموقف الثالث، فتحدث عن مركز الأمة الإسلامية ورسالتها، وأن الحياة مرحلة عابرة ووسيلة للآخرة، ثم ختم كل ذلك بالحديث عن الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب، وهو خلاصة البحث، يقول:

إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو الحاجة إلى ذلك العبقري

العصامي الذي **يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء**، ويشق له طريقاً بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة، وباللباب دون القشور.

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده وأمته طريقاً مبتكراً، ويجمع فيها **بين الإيمان** الذي اختص به الأنبياء والرسل، والدين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ **وبين العلم**، الذي ليس ملكَ أمةٍ ولا بلدٍ ولا عصرٍ، يأخذ من **الدين الدوافع الخيرة** التي هي أعظم قوة، وأغنى ثروة في خدمة الإنسانية، وبناء صرح المدنية، والغايات الرشيدة الصالحة، التي لا يوحيها إلا الدين السماوي والتربية الدينية السليمة، **ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها**، وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل، وفي جهادها المتواصل الشاق، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه في هذا الإيمان وفقره في هذه الدوافع الخيرة، وفي هذه الغايات الصالحة، بل أصبحت تستخدَمُ في شقاء الإنسانية، وتقويض أركان المدنية أو لغايات تافهة لا قيمة لها»[1].

قرأه الكاتب الإسلامي الأستاذ **محمد أحمد باشميل** فكتب إليه: «وقد استلمتُ مسروراً مؤلّفكم القيم (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

---

(١) المصدر السابق، ص٢١٦ ـ ٢١٧.

في الأقطار الإسلامية) عن الدار الكويتية للطباعة والنشر، ولقد وجدت الكتاب يجلي الغامضَ، ويثلجُ الصدورَ، ويجلِّي صدأ الأذهان المشوشة، وتلك طريقتكم في جميع مؤلفاتكم»[1].

ويراه **الدكتور عبد الحليم عويس** «أشمل وأعمق ما قدّمه الفكر الإسلامي في فضح الفكرة الغربية، وفي تتبع نواحي سقوط العرب ـ حكاماً ومثقفين ـ في حبالها»[2].

● حديث مع الغرب:

وجد العالم الإسلامي نفسه من الاستعمار الغربي بين موقفين:

الأول: موقف المستسلم الخاضع والمقلد الأعمى والتلميذ البار.

والثاني: موقف المعادي المخاصم، وموقف المفتوح المقهور، الذي لا يريد إلا الثأر، ولا يعرف إلا لذة الانتقام، ولا يرى في عدوه أي وجه من وجوه الخير، ولا أي جانب من جوانب الكمال.

وبجانب هذين الموقفين المتطرفين **موقف ثالث** هو: **موقف المتأمل الدارس الذي لا ينكر الغرب برمته، ولا يقبله على علاته**، هذا الموقف الثالث المتوازن تبنته ندوة العلماء حينما رفعت شعارها المشهور (**الجمع بين القديم**

---

(١) رسائل الأعلام، ص١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي، ص٨٤.

الصالح والجديد النافع) ونادت الشرق والغرب أصدق نداءٍ في العصر الحديث **(إلى الإسلام من جديد)**.

هذا الكتاب يصوّرُ هذا الموقف الجديد في صراحة وقوة، وفي جمال وعذوبة، ويقدم لرجال الدعوة وقادة الفكر أسلوباً جديداً في الحديث مع الغرب، أسلوباً ليس فيه ضعف الفريق الأول وخضوعه لكل ما يرد من الغرب إلى الشرق، وتقديسه الزائد لكل ما ينسب إليه من علم وفكر، وعمل وسلوك، وليس فيه روح الحنق والسخط، وحب الثأر التي سيطرت على كتابات الزعماء السياسيين في الشرق الإسلامي في فجر القرن العشرين.

وقف المؤلّفُ في هذا الكتاب موقف الداعية الإسلامي يدعو الغربَ إلى الإسلام من غير تأويل ولا خجل ولا استحياء، ويحثّه على أن يلعبَ دوره الخطير الهام في قيادة الإنسانية، لا يكتفي بهذا القدر من الدعوة، بل يلفت أنظار أهل الغرب إلى هذه الأنانية والكبرياء التي سدّت عليهم منافذَ النور، وحالت دون قبول الحق، ذلك كله في أسلوب لبق حكيم، ينم عن فقه وحكمة، وحب وإخلاص، وتوجع وإشفاق.

يوجّهُ المؤلِّفُ حديثه إلى الشباب المسلم المقيم في ديار الغرب محذِّراً لهم من أن تسحرَهم هذه الحضارة الخادعة، ويدعوهم إلى أن يعيشوا في الغرب كالداعي والقائد لا كالمقلد والتلميذ، ويفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق على أساس النفع المتبادل، ويرجعوا إلى أوطانهم وبلادهم وهم أشدُّ إيماناً بخلودِ الإسلام واعتزازاً به، وأكثر إشفاقاً على الغرب وعلى الإنسانية التي كادت تهوي في الهاوية.

- **أحاديث صريحة في أمريكة:**

زار الشيخ الندوي الولايات المتحدة الأمريكية وكندة بدعوة من الطلاب المسلمين المقيمين فيها عام سبعة وسبعين وتسعمئة وألف، فألقى هذه المحاضرات في حفلاتهم وجلساتهم.

هذه المحاضرات تدورُ حول إعادة ثقة الشباب برسالة الإسلام التي يحملونها، والدور الذي ألقيت مسؤوليتُه على عواتقهم، ورفع معنوياتهم، وإزالة مركَّب النقص، الذي يعانيه كثيرٌ من شبابنا إزاء الحضارة الغربية وقيمها ومثلها، ماذا يكون موقف المسلم المقيم في ديار الغرب؟ وما هي نظرة المسلم الواعي إلى الحضارة الغربية؟ كيف يحافظ على كيانه الإسلامي ويعيش بخصائصه الحضارية المتميزة في عقر دار الغرب؟ وما هي المسؤوليات الخطيرة التي تقع على هؤلاء المسلمين المغتربين إزاء جيرانهم غير المسلمين؟ وكيف يمثّلون شخصيةَ المسلم القوي الواعي أمام التيارات الغربية وفلسفاتها المادية الملحدة؟.

تناول الشيخ الندوي هذه الجوانب كلّها بالنقد والتحليل، والصراحة والصدق، وتحدث عن الحضارة الغربية والمدنية الأمريكية من مستوى عال، وهي القمة التي يسمو إليها الإسلام والقرآن والحديث بأتباعه الناشدين للحق، والمخلصين من طلاب العلم والدين، القمة التي يتراءى العالم القديم والحديث كلاهما أمامَ الناظرِ كسرابٍ خادعٍ، وتبدو الزخارف كلها والنضارة والبهاء بأجمعهما كلمعان الفصوص الزائفة المزورة.

هذا الكتاب يعيدُ ثقةَ الشباب المسلم برسالة الإسلام الخالدة، ومسايرته لكل عصر ومصر، وصلاحيته للقيادة البشرية، والحضارة الإنسانية، وبالتالي فشل الحضارة الغربية ونظمها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لحل المشاكل الراهنة.

يعطي الكتاب القارئ مصباحاً منيراً، ويداً بيضاء في ظلام المجتمع الغربي الحالك، ويمنح القوة والصمود والمواجهة أمام التيار المادي الجارف.

● **العرب والإسلام:**

إنّ **فكرة القومية العربية** فكرة مستقلة، وفلسفة بذاتها، لها كلُّ ما للدين من حميةٍ وحرارةٍ، وشعائر ومقدسات، خضع لها **العرب** المثقفون ـ خصوصاً الشباب ـ الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة، ولم يقفوا عند هذا الحد، ولم يقتصروا على استخدام القومية للدفاع والتنظيم، بل غلوا في تقديس القومية العربية والتغني بها، وإنكار كل ما سواها، فهم **يحتقرون شأن الدين، ويقللون من قيمته**، حتى أصبحت القومية العربية في نظرِ كثير من دعاتها والمؤمنين بها **ديانة إزاء ديانة، وعقيدة مقابل عقيدة**.

شغلت هذه القضية الشيخ الندوي، فأولاها اهتماماً كبيراً، وحارب من أجلها، وذهب إلى كل مكان في البلاد العربية لنقل فهمه الواضح الإسلامي الأصيل إلى الناس، وقدّم دراسات متعددة، منها هذا الكتاب، وهو مجموعة محاضرات ومقالات كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة، وفي أمكنة وأزمنة مختلفة، تجمع بينها وحدة معنوية، وغاية مشتركة، تتغلّب على اختلاف

الزمان والمكان، وتنوع أساليب البيان، وهي تفنيد فكرة القوميـة العربيـة، والجاهلية الجديدة، وإثارة الشعور الإسلامي، وإيقاظ الروح الإسلامية في نفوس العرب، وهي إثارة كريم عريق في الكرم، وتحريك أريحيته للمكارم والبطولات، وإيقاظ أسد غلبه النعاس أخيراً ليحتلّ مكانه الطبيعي في القيادة البشرية والحضارة الإنسانية.

والمؤلف في توجهه إلى العرب، إنّما يتوجّه باعتباره عربي الأصل، وبـاعتباره من الأسـرة الكريمة أسـرة الإسـلام، فهو لا يجاملهم، بل يعتبرُ المجاملةَ جريمةً خلقيةً وخيانةً عظيمةً في حق هذه الأمة، التي يدينُ لها في الدين والأخلاق، والإنسانية، يقول:

«إنني لا أقلُّ عن أكبرِ عربيٍّ يعيش في العواصم العربية في عربيتي ونسبي الصريح، وتضلّعي من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم، وليس أحـدٌ مـن إخـواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية مني، وأوفرَ نصيباً مني، ولكنَّ الإسلامَ أفضلُ من كل نسبٍ، وأقوى من كل عصبية».

والمحاضرات والأحاديث التي يحويها هذا الكتاب هي (من العالم إلى جزيرة العرب) و(من الجزيرة العربية إلى العالم) و(اسمعي يا مصر) و(اسمعي يا سورية) و(اسمعي يا زهرة الصحراء) و(اسمعوها مني صريحة أيها العرب) و(إلى الرايـة المحمديـة أيها العرب) و(القوميـة في ميـزان العلم والتاريخ) و(واجب العرب) و(لا تحرجـوا الأوفيـاء للإسـلام بموقفكم أيها العرب) و(أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟) و(مصر جوهرها إسلامي إيماني محمدي مهما تراكمت عليه الأتربة).

يقول الشيخ وهو ينتقدُ فكرةَ القومية: «إنَّ أعظمَ مجرمٍ قومي في حقِّ العربِ وأضرَّ على هذه الأمة من هولاكو وجنكيز خان من يضعِفُ صلتها بهذا الدين، ومن يُنْضِبُ من نفوسها معينَ الإيمان واليقين، ومن يحولُ بيننا وبين محمد ﷺ، إنَّ من يرتكبُ هذه الجريمة هو الذي يمهّدُ الطريقَ لضياع هذه الأمة الكريمة، وانهيارها وإفلاسها، ويتآمر على وجودها وقوتها، ويحوّلها من أمة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة وهدف ورسالة وقائد عـام محبب: إلى أمـة متشككة ضعيفة، لا عقيدةَ لها ولا هدفَ ولا رسالةَ ولا قائدَ تجتمع القلوبُ على حُبِّهِ، وتجتمع الشعوب حول رايته»[(١)].

ويقـول وهو يشـير إلى انهيـار القومية: «والقوميـةُ في كلِّ جانب من جـوانب الأرض سفينـةٌ تنخّرت وتفككت ألواحُها، وتناثرت مساميرُهـا، وتحارَب ربابينُها، وكتب عليها الغرقُ، فلا يجوزَ للعربِ أن يلتجؤوا إلى هذه السفينة المضطربة المشؤومة وعندهم سفينةُ النجاةِ التي تسعُ العالم كلَّه، وتوصِلُ الناسَ جميعاً إلى شاطئ السلام»[(٢)].

ويقول: وهـو يدعـو العرب إلى مجدهـم المؤثل: «وبعدَ ذلك كله لا أرضى لكم أن تكونوا رجالاً لا يهمهم إلا أن يكونوا أداةً حقيرةً في هذا الجهاز المادي، ولا تهمهم إلا المصالح الشخصية، والرفاهية الفردية، وأن يكونوا

(١) المصدر السابق، ص٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص٩٧.

ذلك الساقطَ الهمةِ الذي ذمَّه الشاعر العربي الكريم حاتم الطائي بقوله :

لحـا الله صُعْلـوكـاً منـاهُ وهَمُّـهُ ... مِنَ العيشِ أَنْ يَلْقَى لَبُوْساً وَمَطْعَمَا

ويا ليتَ فتيـانَ العربِ بلغـوا في علـوٍّ همتهم وطموحهم مبلغ الشاعر الجاهلي امرئ القيس حيثُ قال[1] :

فلـو أنَّ مـا أسعـى لأَدْنَـى معيشـةٍ ... كفاني ـ ولم أطلُبْ ـ قليل من المالِ
ولكنّمـا أسعــى لمجـدٍ مُـؤَثَّـلٍ ... وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

إنَّ المجدَ المؤثّلَ ـ أيها الإخوان ـ وهو الذي لم يحلم به الشاعر الطموح، هو الذي نشدَه عمر بن عبد العزيز فأدركه، وسعى إليه طارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي فوصلا إليه، وهو الذي يليق أن يكون مَثَلَكُم الكاملَ وغايتكم المنشودة، إنّكم أحقُّ الناس بأن تثوروا على **جاهلية القرن العشرين**، كما ثار آباؤكم على **جاهلية القرن السادس المسيحي**، وأن تتمردوا على المادية العصرية، كما تمرد أسلافكم على مادية عصرهم، وتضحّوا برفاهيتكم وترفكم وأمانيّكم المعسولة في سبيل الإسلام، وفي سبيل المصلحة العامة والسعادة البشرية، وتنضموا إلى الراية المحمدية، وهي راية العدل وراية الحق، وراية الله في العالم، التي اختراها الله لكم رايةً واختاركم لها أمةً وجنداً

(١) ديوانه، ص٣٩، ومعنى البيت الأول: لو كان سعيي لأقرب معيشةٍ وأدناها لكفاني قليلٌ من المال، ولم أطلب الملك. وقوله في البيت الثاني (المؤثل): المثمِر الذي له أصل، وهو الكثير أيضاً.

إلى آخر الدهر»[1].

يقول الشيخ **يوسف القرضاوي** وهو يصف زيارة الشيخ الأولى لمصر: «وأذكر أنّ الشيخ الندوي كان قد اصطحب معه عدّة رسائل من أوائل كتاباته الإسلامية الدعوية، وهي جملةُ رسائل تعبِّرُ عن حسٍّ رقيق، وفكر عميق، وبيان أنيق، وعن رهافة الحاسّة الأدبية، وعمق الحاسة الروحية عند الشيخ.. وأذكرُ أنَّ الشيخ محمد الغزالي قرأها، ومنها رسالتان، إحداهما: (**من العالم إلى جزيرة العرب**)، والأخرى: (**من جزيرة العرب إلى العالم**)، وفيهما يستنطِقُ الشيخَ ما يريده العالم من الجزيرةِ من الهدى ودين الحق، وهو ما قدّمته الجزيرة قديماً للعالم، وردُّ الجزيرة على هذا التساؤل.. وهنا قال الغزالي معقّباً: «**هذا الإسلامُ لا تخدمه إلا نفسٌ شاعرةٌ محلِّقةٌ، أما النفوس البليدة المطموسةُ فلا حظَّ له فيها، ولا حظَّ لها فيه**».

لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة وروحاً جديدة، والتفاتاً إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها، إنّ رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر رضي الله بينه وبين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخّصت فلسفةَ الإسلام في كلمات قلائل، وعبّرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع: «الله ابتعثنا لنخرجَ الناسَ من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام». أبو الحسن الندوي ـ فيما أعلم ـ هو أول من نبَّهنا إلى قيمة هذا الموقف، وهذه الكلمات،

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي، ص٨٣ ـ ٨٤.

ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت»[1].

وأهدى الشيخ إحدى رسائل هذه المجموعة (اسمعي يا مصر) إلى العالم المجاهد الشيخ محمد محمود الصواف، فكتب إليه في ١٢ شعبان عام ١٣٧٠هـ: «... فقد تشرفت باستلام هديتكم الثمينة شاكراً فضلكم، داعياً سماحتكم بالسلامة، وطول البقاء، ليمتّع الناسُ بهذا الغذاء الروحي الذي تفضلتم به على قراء العربية، وليتَ مصرُ سمعت، وليتَ العالم العربي الذي أحسنتم به الظنَّ كثيراً وكثيراً جداً، ليته سمع، فوعى ما خاطبتموه به وما أزجيتم له من نصحٍ وتوجيهٍ، إذاً لأفلحَ وفازَ وسعد، ولكن واأسفاه على العالم العربي الذي أضاعه سادته وكبراؤه فأضلوه السبيل[2].

● **صورتان متضادتان:**

واسمه الكامل: (صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ الدعوية والتربوية، وسيرةُ الجيلِ المثالي الأول عند أهل السنَّة والشيعة الإمامية):

إنّ الأسوة الحسنة هي التي تحرّكُ الهمم، وتنفخُ الروحَ، وتبعثُ الأملَ، وتنيرُ السبيلَ، وتحثُّ الناسَ على الخير، ولا سيما الدعاة، فإنهم دائماً ينشدون الحق والصواب، ويتزوّدون الوقود بالقدوة الحسنة، ويشحنون بطارية قلوبهم

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٩.
(٢) رسائل الأعلام، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

بالمثل الأعلى، فيمثّلون أصدقَ تمثيلٍ في التضحية والفداء، ولولا الأسوة الحسنة والمعاملة الطيبة والخلق العظيم، ولولا العدالة والأمانة والقسطاس المستقيم، ولولا الصدقُ والصبرُ لما انتشر الإسلام في ثلث الكرة الأرضية في نصف قرن، وأذهل العالم كله، ولما أقبلَ الناسُ على الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

كان رسولُ الله ﷺ هو الأسوة، ونجحَ في إيجادِ مجتمع صالح أمين، مؤثرٍ للآخرة على الدنيا، متغلّبٍ على المادة غيرِ محكوم لها، كل فردٍ من أفرادِ هذا المجتمع معجزة مستقلة، وآية من آيات النبوة، ومأثرة من مآثرها الخالدة، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الإنساني، لا يمكن لمصوِّرٍ أن يصوِّرَ بريشته البارعة، ومخيلته السخية صورةً أجمل وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد (أصحاب النبي ﷺ) في عالم الحقيقة والواقع، وفي شهادة التاريخ.

إلاّ أنَّ هناك فرقةً تشوّه هذه الصورة الجميلة، وتحاولُ بكتاباتها ودعايتها طمسَ معالم الإنسانية النبيلة، وترى أن الجهود التي بذلها النبي ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً لم تنتجْ إلا ثلاثةَ أو أربعة أشخاص، ظلّوا متمسكين بالإسلام إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ.

أمّا غيرهم فقد قطعوا صلتهم بالإسلام فور وفاته ﷺ، وقرروا أن صحبة النبي ﷺ وتربيته أخفقت في مهمته التي توخاها، ولم يكن همُّ الصحابة إلا الدنيا والحصول على الحكم دون الإسلام والقرآن، واتخذوا القرآن ذريعةً لتحقيق نواياهم الفاسدة، وتعتقِدُ عن أئمتها الاثني عشر بأنهم معصومون، وأن

منزلتهم تساوي منزلة رسول الله ﷺ، وتفوقُ منزلةَ الأنبياء الآخرين، وأنهم يملكون الدنيا والآخرة، والموت يكون في سلطتهم، ومن ناحية أخرى تصورهم فاقدي الشجاعة والجرأة في إظهار الحق، وكانوا يعيشون في خوف من المخاوف والأخطار، ويتبعون سياسة المصالح وإخفاء الحق، ويعتمدون على سلاح (التقية).

فأيُّ صورةٍ من هاتين الصورتين تليقُ بدعاة الإسلام، وأيهما أقربُ إلى الفطرة السليمة، والعقل العام، والذوق الصحيح، وأيهما أحثُّ على العمل والأمل، والطاعة والانقياد؟.

ناقش الشيخ الندوي في هذا الكتاب هذه القضية مناقشة علمية هادئة بعد ما وضع هاتين الصورتين في إطاريهما، وترك الحكمَ للعقل السليم والذوق الصحيح، وترك حرية الاختيار في التصوير والتعبير الذي يليق بشأن نبي يُعتبر أعظمَ هادٍ ومصلحٍ في تاريخ الإنسانية، وأنجح نبي بنص القرآن.

وكتابه هذا ـ على غرار سائر كتبه ـ متّسم بالمنهج العلمي الدعوي مع أدب وحكمة، يقول الشيخ القرضاوي: «وانظر كيف عالج قضية سب الصحابة عند الشيعة، وكيف ردّ عليهم ردّاً علمياً يُعدُّ غاية في الأدب والتهذيب، وذلك في كتابه (صورتان متضادتان) يعني بهما الصورة التي يعتنقها الشيعة عن الصحابة، وهي صورة قاتمة، توحي بأنهم لم يستفيدوا من تربية النبوة وتوجيهها وأدبها، حتى أقرب الناس إليه، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة، فكيف بغيرهم؟.. والصورة الأخرى هي الصورة التي يقدّمها

أهل السنَّة عن الصحابة باعتبارهم تلاميذ المدرسة المحمدية، فهم الذين رضعوا لِبانَ النبوة، وتربّوا في حِجْرِ الرسالة، وأخذوا القرآن أولاً بأول من فم الرسـول الكريم ﷺ غضّاً طريـاً، وشـاهدوا آيـات الله بأم أعينهم، وشهدوا الملائكةَ تنزل عليهم مثبِّتةً لهم في غزوات بدر والخندق وحُنين. . هذه هي الصورة اللائقة بمقام النبوة وبأثر التربية النبوية، والتوجيهات المحمدية، وهي التي تتفق مع ما جاء في القرآن من الثناء على الصحابة في سورة الفتح والأنفال والتوبة والحشر، وما جاء من الأحاديث بأنهم خير قرون الأمة، كما تتفق مع دورهم التاريخي المعروف، فهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم، وهم الذين رووا لنا السنن النبوية، وهم الذين فتحوا الفتوح، وعلّموا الأمم الإسلام، ولولا همم الصحابة وفضل الصحابة ما وصل إلينا الإسلام، رضي الله عنهم»[١].

● القادياني والقاديانية: دراسة وتحليل:

أسس الحركة القاديانية سنة (١٩٠٠م) في شبه القارة الهندية الميرزا غلام أحمد القادياني في قرية (قاديان) في مقاطعة البنجاب الهندية، بدأ نشاطه كداعية إسلامي، ثم ادّعى أنّه مجدد ومُلْهَمٌ من الله، ثم تدرّج خطوةً أخرى فادعى أنه المهدي المنتظر، والمسيحَ الموعود، ثم ادعى النبوةَ، وزعم أنَّ نبوتـه أعلى وأرقى من نبـوة سـيدنا محمـد ﷺ، فاتبعه من اتبعه من الدهماء والغوغاء وأهل الجهل والمصالح الدنيوية، هلـك (الميـرزا غـلام أحمـد القادياني) في عام ١٩٠٨م مخلِّفاً أكثر من خمسين كتاباً ونشرة ومقالاً، ومن

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٣ ـ ٦٤.

أهم كتبه: (إزالة الأوهام)، و(إعجاز أحمدي)، و(براهين أحمدية)، و(أنوار الإسلام)، و(إعجاز المسيح)، و(التبليغ)، و(تجليات إلهية).

أنشئت هذه الحركة لأسباب واضحة ومدروسة من قبل البريطانيين المحتلين لشبه القارة الهندية آنذاك.. وتتضح أسباب قيامها في معتقداتها المعلنة التي روّجت لها، ولا زالت تروِّجُ لها منذ أكثر من مئة عام، فمن أهم معتقدات الحركة:

(١) ـ أن نبوة ميرزا غلام أعلى وأرقى من نبوة سيدنا محمد ﷺ.

(٢) ـ وأن الله يصوم ويصلِّي وينام ويصحو ويكتب ويخطئ ويجامع ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ.

(٣) ـ وأنَّ النبوة لم تُخْتَمْ بمحمدٍ ﷺ بل هي مستمرة، والله يرسل الرسول حسبَ الضرورة.

(٤) ـ وأنَّ غلامَ أحمد هو أفضلُ الأنبياء جميعاً، وأنَّ جبريل عليه السلام كان ينزلُ على غلام أحمد، وأنه كان يوحى إليه، وأنَّ إلهاماته كالقرآن، ويقولون: لا قرآن إلاّ الذي قدمه المسيح الموعود (الغلام)، ولا حديثَ إلا ما يكونُ في ضوء تعليماته، ولا نبيَّ إلا تحت سيادة (غلام أحمد).

(٥) ـ ويعتقدون أنَّ كتابهم منزل، واسمه (الكتاب المبين) وهو غير القرآن الكريم.

(٦) ـ ويعتقدون أنّهم أصحاب دين جديد مستقل، وشريعة مستقلة، وأنَّ رفاق الغلام كالصحابة.

(٧) ـ وكل مسلم عندهم كافر حتى يدخل القاديانية، كما أنَّ من تزوّجَ أو زوج من غير القاديانيين فهو كافر.

(٨) ـ ويبيحون الخمر والأفيون والمخدرات.

(٩) ـ ويعتقد القادياني بأنَّ إلهه إنكليزي، لأنه يخاطبه بالإنجليزية.

(١٠) ـ ونادوا بإلغاء عقيدة الجهاد، كما طالبوا بالطاعة العمياء للحكومة الإنكليزية لأنها ـ حسب زعمهم ـ ولي الأمر بنص القرآن.

فزع علماء المسلمين ورجال الدين لفتنة القاديانية من أولِ يومها، وتصدّوا لهذه الدعوة الخبيثة، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ **محمد علي المونكيري** مؤسس حركة ندوة العلماء، والعلامة **أنور شاه الكشميري**، والشيخ **ثناء الله الأمرتسري**، فحاربوها بأقلامهم وألسنتهم، وأطبقوا على تضليل القاديانية وتكفيرهم، وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة، حتى تكوّنت من ذلك مكتبةٌ واسعةٌ، كلها باللغة الأردية، وقد بدأت القاديانية توجّهُ دعوتها ورسالتها إلى البلاد العربية والإسلامية، وبدأت تظهر في العراق وسورية، وتنتشر في إندونيسية، وبدأت تُعنى بالجهات القاصية في آسية وإفريقية والدول الإسلامية الناشئة، ولا تضيِّع فرصة لنشر دعاتها وتوجيه دعوتها في المؤتمرات السياسية والندوات العلمية العالمية، والمؤسسات الدينية الكبرى.

كان الشيخ عبد القادر الرئيبوري الذي تلقى الشيخ الندوي تربيته الروحية منه من كبار المقاومين لفتنة القاديانية، ومندفعاً اندفاعاً قلبياً ووجدانياً

إلى محاربتها، ومؤمناً بضلالها، وهو الذي نفخ الروح في القادة الذين قاموا بحركة مقاومة القاديانية، وكان ذلك حديثَ مجالسه وخدمةً دينيةً جليلة لديه في ذلك العصر، وكان الإسهام في حركة المقاومة للقاديانية أو الحديث عنه وسيلةً للتقرّب إليه والتحبب إليه، فأمر الشيخَ الندويَّ بتأليف كتاب بالعربية في التعريف بالقاديانية والرد عليها، كما أن ما رآه الشيخ الندوي في زياراته للشرق العربي في أوائل الخمسينيات أنشأ فيه رغبة ملحة في نقل عقائدها وتعاليمها إلى العربيـة، وتعريفها إلى العلماء العرب، حتى يصح لهم الحكم عليها، ويمكنهم نقدها وتزييفها، فألف كتابه (القادياني والقاديانية).

يتناول الكتاب شخصيةَ رئيس الديانـة القاديانيـة بالدراسـة والتحليل العلمي النزيه، ويلقي الأضواء الكاشفة حول الظروف والملابسات والأرضية التي كانت وراء القاديانية، كما يكشفُ النقاب عن وجه الاستعمار الغربي الحقيقي، ويضع هذه الحركة، والديانة المستقلة في ميزان العلم والدين، ويثبت أن القاديانية ثورة على النبوة المحمدية وأنها أمة إزاء أمة وديانة إزاء ديانة.

والكتابُ سدٌّ منيعٌ أمام القاديانية المارقة عن الإسلام، ويعالج هذه الفتنة معالجة علمية، ويحللها تحليلاً محايداً، وفي أسلوب عصري نزيه اعترف به القاديانيون أنفسهم.

* * *

الفصل الخامس

الكتابات الدعوية العامة

غلبت الدعوة المستمرة لدين الله عز وجل على الشيخ الندوي، وهي شعار سائر أعماله ونشاطاته، ومن هنا جاءت كتبه في هذا المجال غنيةً بالتجربة والممارسة العملية، ومتسمة بمبادئ التربية الإسلامية.

وسأعرض فيما يلي العناوين البارزة منها.

● روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة:

لقد كان من أهداف ندوة العلماء منذُ تأسيسها هي خدمة الدعوة الإسلامية وتربية أبنائها، فقد اعتمدت في ذلك بصورة خاصة على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، كما اعتنت بتعليم اللغة العربية كلغة حية عملية كتابة وخطابة وحواراً، ومن أهمّ ما اعتنت به دار العلوم لندوة العلماء قبل مؤسسة أخرى هو تدريس القرآن الكريم بصورة مباشرة، لأن معرفة اللغة العربية معرفة عملية بليغة، والاتصال المباشر بنصوص القرآن الكريم هما مادتان مهمتان، وعنصران هامان، يجب المهارة فيهما لكل من يشتغل بالدعوة والتربية.

لمّا تحقّق حلمُ ندوة العلماء القديم في صورة افتتاح المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي في عام أربعمئة وألف كان من نجاح هذه السنة

الدراسية أنها ازدانت بسلسلة قيمة من محاضرات الشيخ الندوي، وتركزت موضوعاتها على أسلوب الدعوة في القرآن والسيرة، وكـان أجدرُ النـاسِ بتدريس هذا الموضوع، ذلك **أولاً**: لأنّه درس اللغة العربية دراسة عمليـة دقيقة، وتفهم روحها البلاغية ومارس الكتاب والكلام فيها بأسلوب بليغ حازَ من أهل هذه اللغة التقدير والإعجاب، **وثانياً**: أنّه تخصص في علوم القرآن وتفسيره، ودرسهما بصورة عميقة أيضاً، ثم اشتغل بتدريسه مدة من الزمن، ومن اطلع على كتاباته ومؤلفاته عرف أنها تعتمد على القرآن الكريم قبل أن تعتمـد على غيره، وتسـتمد منـه الروح والقوة والإيمان، وذلك سر قوتها وتأثيرها، فكان خيرَ مَنْ يدخلُ في موضوع قرآني مهم، ويبحث فيه عن جدارة وكفاءة.

ولقد كان أول ما بدأ به الأستاذ الجليل في خدمة الدعوة الإسلامية هو إلقاء الخطب العامة والمحاضرات التوجيهية في عامة المسلمين، وإلقاء دروس مستقاة من نصوص القرآن الكريم أمام الطبقة المثقفة، وقد حاز العملان التقدير والإعجاب من السامعين، وعرف بمهارة العرض والشرح وبلاغة القول في ذلك، كما خدم القرآن بمقالات علمية وأدبية أيضاً، وكانت تنير جوانب البلاغة والحكمة من كتاب الله تعالى، وهذا كتاب جديد من السلسلة القرآنية يشرح لنا قصص القرآن وأساليب دعوة الأنبياء شرحاً مبدعاً مثيراً ينير جوانب عديدة من دعوة الأنبياء وأسلوب حوارهم مع أممهم ومواجهتهم لردها عليهم، وهي تفتح آفاقاً جديدة لعلوم القرآن ومعانيه أمام الداعي ودارسي القرآن.

فهو بحق كتاب قيم لا يستغني عنه الداعية والموجه، والخطيب والمدرس، والواعظ والمرشد، أودعه من العلم الغزير والزاد الوفير ما يحتاجه كل داعية إلى الله.

● **إلى الإسلام من جديد:**

الكتاب مجموعة محاضرات كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة، تختلف في الزمان والمكان، والعنوان والألوان، ولكن يجمعها اسم واحد وغرض واحد، وهو النداء إلى الإسلام من جديد، فيه النصيحة للأمة المسلمة، والغيرة عليها، والرغبة في أن تعودَ لأخذِ مكانها كأمة معلمة مرشدة، تؤمن بالله واليوم الآخر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، في عالم مثخن بالجراح والآلام جراء كفره بالله وبدينه الذي بعث به الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وجرَّاء بعدِه عن هدي الأنبياء، وإيغاله في ميدان التنافس على حطام الدنيا والترامي على الشهوات والموبقات.

خاطب في هذه المحاضرات والمقالات الأمة الإسلامية بصفة عامة، إذ هي الأمة الأخيرة التي أُخرجت للناس، وصاحبة الرسالة الأخيرة التي وجهت إلى الناس، وعُنيت بها الأمة العربية بصفة خاصة، فمن أُفقها طلعت شمسُ الإسلام في العصر الأول، وأسفر الصبح الصادق، وقد أسكنها الله في خير مركز في العالم لتوجيه الدعوة الإسلامية، وإزجاء الرسالة الإسلامية إلى الأمم المتحضرة والعالم المتمدن وتبوأ مكان القيادة العالمية.

والأحاديث التي حوتها هذه المجموعةُ هي: (إلى ممثلي البلاد

الإسلامية) و(معقل الإنسانية) و(المد والجزر في تاريخ الإسلام) و(بين الصورة والحقيقة) و(ثورة في التفكير) و(بين الجباية والهداية) و(دعوتان متنافستان) و(مصرع الجاهلية) و(أزمة إيمان وأخلاق) و(ردة ولا أبا بكر لها).

يقول الشيخ وهو يذكّر المسلمينَ بقيمة دعوتهم: «إن آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى، ومراكزها الكبرى، يقولون: «الله ابتعثنا لنخرجَ مَنْ شاءَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ الله، ومن ضيقِ الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدلِ الإسلام» وخلّصوا **الأمـةَ الروميـة** من عبـادة المسـيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك، وخلّصوا **الأمة الفارسية** من عبادة النار وعبودية البيت الكياني، **والأمة الطورانية** من عبادة الذئب الأغبر، **والأمة الهندية** من عبادة البقر، وأخرجوها إلى عبادة الله وحده، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية، يهتفون: «الله ابتعثنا لنخرجَ العبادَ من عبادة المادة والبطن إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، ومن ضيقِ عالم التنافسِ والأَثَرَةِ والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد، ونعيم الروح وطمأنينة القلب، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام»[(1)].

ويقول وهو يدعو المسلمين إلى حقيقة الإسلام: «إنّ أكبرَ مهمة دينية في هذا العصر، وأعظم خدمة وأجلها للأمة الإسلامية هي دعوة السواد الأعظم

(١) المصدر السابق، ص٢٤.

للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام، فلمثل هـذا فليعمـل العاملـون، ويبذلـوا جهودهم ومساعيهم في بث روح الإسلام في جسم العالم الإسلامي، ولا يدّخروا في ذلك وسعاً، فبذلك يتحوّل شأن هذه الأمة، وفي نتيجته شأن العالم بأسره، فإنّ شأنَ العالم تبعٌ لشأن هذه الأمة، وشأن هذه الأمة تبع لحقيقة الإسلام، فإذا زالت حقيقةُ الإسلام من الأمة المسلمة، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام، ومن ينفخُ فيه الروح؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام: «أنتم ملحُ الأرض، فإذا زالتْ ملوحةُ الملحِ فماذا يملِّحُ الطعامَ؟»[1].

ويقول وهو يركّزُ على عالمية الدعوة: «ألا فلنتجه بهذه الدعوة إلى أوروبة الحائرة التائهة بإخلاص ونزاهة، وتوجع وشفقة، وبقوة وثقة وإيمان، ولننظر إلى أنفسنا كدعاة ومنقذين، مبشرين ومنذرين، ونستخدم هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم، ولنحتل بفضلها مكانة الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ومصاف الأمم، بعدما عشنا زمناً طويلاً في مؤخر الركب، وفي صف التلاميذ والحاشية، ولنتّجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما تقبل فترفع وتؤمن، وإما ترفض فتهلك وتقهر، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها»[2].

ويقول وهو يدعو للتخلّص من هذه الردة التي ابتلي بها المسلمون: «إنَّ

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.

العالم الإسلامي في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وإن هتاف الدعوة والعاملين فيه وهدفهم اليوم (**إلى الإسلام من جديد**)، ولا يكفي الهتاف، إنّه لا بدّ من تصميم حكيم قبل العمل، لا بدّ من تفكير هادئ عميق كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد؟ وكيف نبعثُ فيها الإيمان والثقة بالإسلام؟ وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية؟ . . . إنّه في حاجة إلى رجال ينقطعون إلى هذه الدعوة، ويكرسون عليها علمهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقداً، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون، ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكونَ لها حجةٌ عليهم، ولا للشيطان سبيل إليهم، شعارهم الإخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات.

إنّ العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القوي الجديد، الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، ويحررهم من رقّ الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة، وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولهم أسسَ الإسلام من جديد، ويغذّي عقولهم وقلوبهم، إنّه في حاجة إلى رجال في كل ناحية من نواحي عالم الإسلام عاكفين على هذا الجهاد»[1].

وكانت لهذه الرسائل تأثيرات بعيدة المدى، يقول الدكتور محمد رجب

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٨ ـ ٢١٠.

البيومي عن رسالة (بين الصورة والحقيقة): «هو جديرٌ أن يُدرَّس على الطلاب في جميع المعاهد والكليات نظراً لمغزاه الدقيق»[1].

● **أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين:**

زار الشيخ الندوي الإمارات العربية المتحدة والكويت في منتصف صفر عام أربعة وأربعمئة وألف، وقضى فيها نحو أسبوعين، ألقى خلالهما مجموعة من محاضرات عن واقع العالم الإسلامي وأزمة المسلمين الحقيقية، تتسم بالقوة والوضوح والصراحة والواقعية، ألقى المحاضرة الأولى بعنوان (**دور الأمة الإسلامية في الحركة العلمية والتأليفية العالمية وإنشاء المكتبات وخزانات الكتب**) بمناسبة افتتاح مكتبة عالم الشارقة وداعيتها الإسلامي الكبير المرحوم الشيخ عبد الله علي المحمود رئيس مركز الدعوة الإسلامية سابقاً، ثم ألقى محاضرة في مدرج جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين حول موضوع (**أزمة العصر الحقيقية**) تحدّث فيها عن أزمة عدم وجود القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمم، وألقى محاضرة بعنوان (**دور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي**) في كلية البنات من جامعة الإمارات في مدينة العين، وألقى محاضرة بعنوان (**إلى الإسلام من جديد**) في مسجد سيدنا سعد بن أبي وقاص في أبو ظبي، وألقى محاضرةً بعنوان (**لا بد من أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض في كل زمان**) بمسجد سيدنا عمر بن الخطاب بالشارقة، وألقى محاضرة عن (**الإسلام والحضارة الإنسانية**) في مدرج كلية العلوم في

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي، ص٢٢.

جامعة الكويت بالخالدية، وألقى محاضرة عن (واقع العالم الإسلامي) في جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت، وضمت إليها محاضرة عن (درس من الحوادث) في المركز الإسلامي بالشارقة في شهر ربيع الأول عام تسعة وتسعين وثلاثمئة وألف على أثر حدوث الانقلاب في إيران.

وجميع هذه المحاضرات تدور حول حالة العرب والمسلمين الراهنة، في بعدهم عن الجد والصرامة، ووقوعهم فريسة التغافل والتخاذل، وحول ضرورة العودة إلى صفات الأنفة العربية والغيرة الإسلامية، والإيمان العميق الذي يدير دفّة الحياة، ويسيطر على التفكير والتصرفات وسيرة العرب المسلمين الأولى التي نشروا بها الإسلام، وفتحوا بها نصف العالم في نصف قرن. يقول في إحدى هذه المحاضرات: «والعالم اليوم ـ رغم ما تقرأون من أخبار سطوة الشعوب الأوروبية ـ عالم منهار، ومجتمع مفكك، مجتمع متعفّن، مجتمع فقد الروح، لا يحتمِلُ الصدمة، ولكن أين تلك الصدمة التي تصدم هذه الحضارة، الحضارة التي قد أينعت وحان قطافها؟ ولكن أينَ تلك السلّة التي تقع فيها كما يقول محمد إقبال؟ يقول: الحضارة الغربية قد نضجت وأينعت وحان قطافها، وقريباً تسقطُ من الغصن، ولكن أين تلك السلة التي تحملها؟ ليس هنالك بديل، والفراغ غير طبيعي، الفراغ في الأمم وفي الحضارات، وفي نظام الحكم، وفي عالم الواقع لا يُتصور، لا بدّ من بديل، وكان المسلمون بديلاً عن الحضارة الرومية، وعن الحضارة الإيرانية، فاختارهم الله سبحانه وتعالى، ومنحهم القيادة العالمية، ومنحهم السيادة والريادة والحب العميق، أحبتهم الأمم المفتوحة، وفضلتهم على أصحاب

ديانتها وجنسيتها»[1].

● **نفحات الإيمان:**

الكتاب مجموعةُ محاضـراتٍ أُلقيت في صنعـاء في مناسبات مختلفة واحتفالات كبيرة، ومحاضرات ألقيت في الأردن المرابطة والقريبة من مسرى الرسـول الأعظم ﷺ، وفي مناسبة الإسراء والمعراج، ففاضت في هذه المحاضرات طبيعةُ الشيخ الندوي، وتأثّرت من الواقع المرّ، فتحدّثَ بكلمات كانت حديثَ القلب الجريح، تثيرُ الهمم، وتحيي القلوبَ من غفوتها، فحركت هذه الكلمات أوتار القلوب، لأنها كانت تفيضُ من قلب اجتمع فيه شجى المكان والزمان واعتزاز بالماضي المجيد والتألم بالواقع المرير.

والأحاديث التي ألقاها في اليمن الميمون بناءً على دعوة اتحاد الطلاب، والهيئـة العليـا للمجامع العلمية، التقت فيها الحكمة اليمانية والفقه اليماني والأسلوب الهندي في منهج الدعوة إلى الله، وجاء فيها التركيز على وصول الإسلام إلى الحكام، وتبنيهم لقضية الإسلام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم، أعاد في حديثه غَيرةَ مسلمي اليمن الدينية، وأعاد إلى ذاكرتهم ارتباطهم بالإيمان، وكان التركيزُ على هذه النقطة (**الإيمان يمان والحكمة يمانية**) فليكن الإيمان يمانياً، وقوبلت كلمات الشيخ كأنها كانت في الضميرِ فوجدت التعبيرَ خاصة لتعبير (**شلال اليمن اليماني**) كان له دوي في الأوساط العلمية والسياسية والشعبية.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٨ ـ ٤٩.

هذه المحاضرات قوية مؤثرة، صدرت عن قلب مؤمن فياض، وهي نفحة من نفحات الداعي إلى الله بروحه وقلبه، وهي دعوة صريحة إلى الرباط الدائم والسهر على مصالح الأمة الإسلامية، وهي نداء إلى (صلاح الدين) الجديد، ودعوة إلى تجديد معركة حطين أو شبه حطين مرة أخرى، وهي دعوة إلى توليد طاقة إيمانية من شلاّل إيماني لإحياء القلوب والنفوس، وملأ الفراغ في المجتمع الإسلامي.

يقول في إحدى هذه المحاضرات وهو يدعو إلى استقلال الشخصية الإسلامية: «يجب أن نصوغَ الحضارة من جديد، نصوغُها صياغةً إسلاميةً جديدةً تختلِفُ عن الحضارات الأخرى، هذا يحتاجُ إلى الاستقلال الفكري، والاستقلال التخطيطي والاستقلال الشخصي، ولكنّا نحنُ فقدنا الاستقلال العقلي، والاستقلال الفكري، والاستقلال الحضاري، كثير من البلاد قد تحررت من الاستعمار الأوروبي سياسياً وإدارياً، ولكن ما تحررت عقلياً وثقافياً، ولا يزالُ الغربُ جاثماً على رؤوسنا، متغلغلاً في صدورنا، يبيض ويفرّخُ، يجب أن نتحرر منه كلياً، ونكون أمة حرة بكل معاني الكلمة»[1].

* * *

(١) المصدر السابق، ص١٠٨.

الفصل السادس

التربية والتعليم

تمثّلُ التربيةُ والتعليمُ الجانبَ الأكبر من كتابات الشيخ الندوي، حيث ينحصر جلُّ تفكيره فيها، فهي اللبنة الأولى للدعوة إلى الله، وقاعدتها الأساسية، والسبيل الأمثل إلى تكوين الأجيال الصالحة لقيادة المجتمع الإسلامي، وهي الطريق لبناء تربية إسلامية حرة، بعيدة عن التأثيرات الفكرية الوافدة على الإسلام من عقول وأدمغة أجنبية، والتي تحمل الأفكار والمبادئ الدخيلة على الإسلام والناهضة لتقدمه.

تناول الشيخ موضوعَ التربية والتعليم بالبحث والتفكير منذ بداية الخمسينيات، فقد ألقى في القاهرة محاضرةً بعنوان (**كيفَ توجّه المعارف في الأقطار الإسلامية؟**) ثم توالت المقالات والمحاضرات حول هذا الموضوع الحساس الخطير، تناولت شرح الأسس والدعائم التي يتربّى عليها الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وكشفت عن زوايا وخفايا سياسية التعليم والتربية في البلاد الإسلامية.

● العقيدة والعبادة والسلوك:

وضع الشيخُ الندوي هذا الكتاب لأن يكون دليلاً إلى الاعتقاد السليم المطلوب والسلوك الإسلامي الجامع، ودستوراً للحياة للمسلم الطالب

الحق، الباحث عن الأسوة النبوية في الأعمال والأخلاق.

قام العلماء المسلمون منذ القديم بالتأليف في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق والعادات حسب مقتضيات عصرهم وحاجاته، وعلى مستوى فهم الجيل المعاصر ونفسيته وعقليته وذوقه، ومن الكتب القيمة في هذا المجال **(إحياء علوم الدين)** للغزالي، و**(غنية الطالبين)** لعبد القادر الجيلاني، و**(سفر السعادة)** للمجد الفيروزآبادي، و**(زاد المعاد)** لابن القيم، فكانت هذه الكتب مرشدةً ودليلاً للمسلم في العبادات والمعاملات، والأخلاق والعادات، وقانوناً ودستوراً للحياة، وتلقّيت بالقبول، وأدّت دورَها المطلوب في تثقيفِ النفوس وتهذيبها، وتربية الأجيال المتعاقبة، وتصحيحِ عقائدها وأعمالها، وتنقيتها من البدع والخرافات والوثنية والتقاليد والأعراف والشعائر، والعادات الجاهلية في الأفراح والأعراس والمأتم والمناسبات الاجتماعية والعائلية.

ولكنّ العصرَ الذي نعيشُ فيه يحب الاختصار والاقتصار على الضروري المفيد والشعور البالغ - إلى حدّ الحساسية الزائدة - بقيمة الوقت وسرعة مضيه، والزهد في كل شيء طويل معقد، وما يجهد النفس، ويستنفد طاقاتها من التأمل والمطالعة بل ما يشق على النفس من الإدراك، مضافاً إلى ذلك ما اتسم به هذا الجيل من قصور الهمّة وضعف الإرادة، بل وضعف القوى، هذا مع ما امتاز به هذا العصر من ارتفاع مستوى المعيشة، وتعقد المدنية، وكثرة مطالب الحياة وتكاليفها.

كلُّ ذلكَ استلزمَ وضعَ كتاب جديد في أسلوب عصري، لأنّ لكلِّ عصرٍ

لغةً خاصةً لا يفهم أهله إلا بها مع وحدة اللغة التي درجت عليها الأجيال، ولكل عصر نفسية ومنطق وأسلوب لا بد من مراعاته إلى حد، زد إلى ذلك ما يجدّ ويتغير من الأمراض النفسية، ومواقع الضعف، ومداخل الشيطان في كل عصر وبيئة، وما تتفاوت درجاته من الأهمية والإلزام، وكذلك الفهم الديني والتصور الإسلامي يتأثران بعوامل خارجية تتغيّر باختلافِ الأزمنة، وتأثير الفلسفات والنظم السائدة المسيطرة.

لأجل ذلك كله كان بعض الإخوان المخلصين للشيخ الندوي يقترحون عليه من زمان وضعَ كتاب في هذا الموضوع، ينتفع به رجال هذا الجيل، ويتخذونه دستوراً ودليلاً لحياتهم، كما انتفع رجال الأجيال القديمة، والعصور الماضية بما وضع لهم في عصرهم، ولكنّ الشيخَ الندوي بقيَ مدة يتهيّبُ دخول الموضوع، حتى فتح الله عليه ووفّقه لتأليف هذا الكتاب، وقد صب فيه عصارة دراساته، وخلاصة تجاربه في مجال الدعوة والتربية، ومعرفته بطبقات الأمة المختلفة معرفة عملية، فاستفاد من كل ذلك في تأليف الكتاب.

والعناوين الرئيسة للكتاب هي: **(طبيعة هذا الدين وسماته البارزة) و(العقيدة الإسلامية السنيّة) و(العبادات) و(الأذكار والأدعية المختصة بالأعمال والأوقات) و(الأذكار العامة وجوامع الأدعية) و(الجهاد في سبيل الله) و(تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس والأخلاق والشمائل النبوية) و(المدرسة الربانية لتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس) و(تجارب وتوصيات)**.

يقول وهو يؤكد أهمية اتباع سنن الأنبياء والمرسلين: «فالأنبياء عليهم

الصلاة والسلام هم القدوة للإنسانية والمثل الكامل في الأخلاق والأذواق، والأخذ والرد، والحب والرضا، ومحط العناية والرضا من الله تعالى، أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحماني بنفوسهم، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقُهم وعاداتُهم وسننهم وطرق معيشتهم، واختار اللهُ طريقَ حياتهم من بين طرق الحياة، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوّدها الناس، حتّى إذا سلكوا شِعْباً ووادياً، كان شِعْبهم وواديهم أحبُّ إلى الله من شِعْبِ الناس وواديهم»[(١)].

ويقول منبهاً إلى أهمية الجهاد في هذا الدين: «لم تكن دعوته ﷺ مقصورة على معرفة الله المعرفة الصحيحة الكاملة، ولا على العقائد الصحيحة الثابتة، ولا على العبادات (القلبية والبدنية والمالية) المقربة إلى الله، الجالبة لحبه ورضاه، بل مع ذلك كله كان الجهاد من خصائص دينه وأركان دعوته وأحب الأعمال إليه»[(٢)].

● **ربانيّة لا رهبانيّة:**

هذا الكتابُ مجموعة مقالاتٍ كُتبت في أوقات مختلفة وفي مناسبات مختلفة تجمَعُ بينها وحدة معنوية، وهي شرح **فكرة الإحسان** (وهو ما اشتهر باسم التصوف) والدفاع عن أهله من السلف الصالحين استيحاءً من قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

(١) المصدر السابق، ص٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٠.

﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، يقول: وتقتضي هذه الآيةُ أن نكونَ متورّعين في الحكم على سلف الأمة وسابقيها في الإيمان والإحسان، بل تقتضي الآدابُ القرآنية والتعاليم النبوية أن نكون متورّعين في الحكم على كلِّ مسلمٍ، لا نتهوّر ولا نتسرّع، ولا نتحمّس ولا نجزم حتّى نكونَ على بيِّنةٍ من الأمر، وحتى نستوثقَ ونتأكد»[1].

بدأ الكتابُ بالحديث عن عنوان (**فراغ يجب أن يملأ**)، تحدّث فيه عن جناية المصطلحات على الحقائق والغايات، وذكر منها مصطلح (التصوُّف) الذي كثرت التساؤلات حوله، وحميت المعركةُ بين أصدقائه وخصومه، والموافقين والمعارضين، ولكنّ القرآنَ ينوّهُ بشعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة، يعبَّر عنها بلفظ **التزكية**، ولسان النبوة يلهج بدرجةٍ فوقَ درجة الإسلام والإيمان ويعبَّر عنها بلفظ الإحسان، ثم شرح الكيفيات الباطنة التي كانت تصاحب ظواهر الدين، ويقول: «فكان الأجدرُ بنا أن نسمّي العلمَ الذي يتكفّلُ بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنة وكيفياته الإيمانية، كان الأجدرُ بنا وبالمسلمين أن يسمّوه **التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن**، ولو فعلوا ذلك لانحسمَ الخلافُ وزالَ الشقاقُ، وتصالح الفريقان اللذان فرّق بينهما المصطلح، وباعد بينهما المصطلح الشائع،

---

(١) المصدر السابق، ص٤.

فالتزكيةُ والإحسانُ وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنَّة، يقر بها المسلمون جميعاً، ولو ترك المتصوّفون الإلحاحَ على منهاج عملي خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، فالمناهج تتغيّرُ وتتطوّرُ بحسب الزمان والمكان، وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على الغاية دون الوسائل لم يختلف في هذه القضية اثنان»[1].

ويقول وهو يشيرُ إلى جنايةٍ أخرى على هذه الحقيقة: «ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر، وهو أنّه دخل فيها دجالون ومحترفون وباطنيون وملحدون، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وتزعّموا هذا الفن، وحملوا لواءه، فكان ذلك ضِغثاً على إبالة، وزهد فيه ونفر منه أهلُ الغيرة الدينية، والمحافظون على الشريعة الإسلامية، وطائفة أخرى من غير المحققين لم يعرفوا روحَ هذه الشعبة وغايتها، ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحياناً، وضيعوا الغاية»[2].

وأخيراً يضع أصابعه على مواضع الضعف في المجتمع الإسلامي، ويبحث عن أسباب الفوضى الفكرية والأمراض الخلقية التي تغلغلت في أحشاء المجتمع، ويصلُ إلى أنّ هناك فراغاً هائلاً يوجد في المجتمع، ولا بدّ

---

(١) المصدر السابق، ص١٠.
(٢) المصدر السابق، ص١٢.

من سد هذه الثغرة والفراغ، ويقول: إنني لا ألحُّ على منهاج خاص من التزكية درجَ عليه جيلٌ من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف ـ من غير حاجة إلى ذلك، فقد كان في كلمات الكتاب والسنَّة ومصطلحاتهما غنًى عنه ـ ولا أبرّئ طائفةً ممّن تزعّمَ هذه الدعوة، واضطلع بها من نقص في العلم والتفكير أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقدُ عصمتها، فكلٌّ يخطئ ويصيب، ولكن لا بدّ أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية، والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها، وصلتها بالله والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع»(١).

وأتبعه بالحديث عن (تجديد ميثاق الإسلام وتحقيق صفات الإيمان والإحسان) و(شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية كعارف بالله ومحقق) و(دور الصوفية الإصلاحي وتأثيرهم في المجتمع) و(إسهام الشيوخ والعلماء الربانيين في الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله وفي مقاومة الاحتلال الغربي)، وقام في هذه البحوث بنفي التهم الموجهة إلى العلماء الربانيين، الذين لعبوا دوراً رئيساً في الحفاظ على روح المجتمع الإسلامي، وعرض نماذج لهؤلاء المخلصين الذين مثّلوا دوراً هامّاً في إصلاح المجتمع الإسلامي والحفاظ على روحه عبر القرون، وكيف كان فضلُهم في صيانة المجتمع من الانحراف والانهيار الخلقي، وكيف كانت صلتهم عميقةً واتصالهم مع

---

(١) المصدر السابق، ص١٧.

الجماهير المسلمة مباشراً، وكيف كانوا يقدّمون في تزكية النفوس من الرذائل والصفات الذميمة، وبذلوا جهودهم في نشر العلم والثقافة، بل هم الذين كانوا يساهمون مساهمةً عمليةً فعالةً في الجهاد والكفاح ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وإنّ زوايا العلماء الربانيين وتكاياهم كانت ملاذاً للفقراء والمساكين والمطرودين من المجتمع.

وقد سمّى المؤلِّفُ كتابه بهذا الاسم لسببين:

أولهما: أن يتجنّبَ اسمَ التصوف لما علق به من شوائب، وما أُلصقَ به من زوائد، على مرّ العصور، وهذا من جناية المصطلحات على الحقائق والمضامين الصحيحة، وما التصوفُ في حقيقته إلا جانبُ التزكيةِ التي هي إحدى شعب الرسالة المحمدية، أو جانب الإحسان الذي فسّره الرسول ﷺ في حديث جبريل الشهير.

والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة، فهي روحية اجتماعية، كما سمّاها أستاذنا البهي الخولي رحمه الله، وهي ربانية إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزِلُها، ولا تعبدُها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء.

يقدّمُ الكتاب إلى الدعاة والقادة الموجهين نماذج عن مناهج الدعوة والتربية التي اختارها العلماء الربانيون في مصدرهم، فلتكن الربانيةُ هي شعار المؤمن الدائم، ووصفه الدقيق العميق في كل زمان ومكان، الربانيةُ لا تدعو إلى التواكل والتكاسل والجمود، بل إنّها تحوِّلُ الترابَ تبراً، والحصى

جوهراً، والجماد حياً نامياً.

ويقول الشيخ **يوسف القرضاوي** وهو ينوّه به: «وهو كتابٌ يتحدّثُ عن الجانب الروحي أو السلوكي في الإسلام، لا حديث الصوفي المتأثر بفلسفة الحلول أو الاتحاد، ولا بالطريقة المرتزقة، بل حديث المسلم الملتزم بالكتاب والسنَّة، العارف الذائق الذي خاض التجربة الروحية، فلم يغرق في بحار القوم، بل خرجَ بلآلئ وجواهر انتفع بها، ولم تحجبْه عنها المصطلحاتُ التي قد تنفّر ولا تبشّر، فالعبرةُ بالمسمّيات لا بالأسماء، وبالمضامين لا بالعناوين»[1].

نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية:

إنَّ موضوعَ التربية في الحكومات والبلاد الإسلامية، وكيف يجب أن تكون سياسيةُ التعليم وإلى أين تتجه؟ وما هي الأهدافُ الصحيحة أو المثل العليا التي يجب أن تستهدفها وتسعى لتحقيقها، هو موضوع الساعة الذي يشغلُ قادةَ الفكر والمهتمين بشؤون العالم الإسلامي في جميع أقطاره، ولعلّه هو الموضوعُ الحاسم الذي سيقرر مصير الأمة الإسلامية ويصوغ مستقبلها.

هذا الكتاب دعوةٌ إلى التأمل، والإقدام بجراءة وصراحة في مجال التربية، والتعليم، ويقدّمُ تحليلاً وافياً عن الوضع التعليمي في البلاد الإسلامية، وحلولاً جذريةً ناجحةً للمشكلات الراهنة.

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٢٣٩.

يقول الشيخ في مقدمته:

«إنَّ التربيةَ لا تقل أهميةً عن التعليم، وإذا خلا التعليمُ عن التربيةِ أصبحَ بلا نتيجةٍ في أكثر الأحيان، وإن نقصاً في ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا وفقرنا في نـاحية التعليم ومنهاج دراستـه، وموضوعُ التربيةِ موضوعٌ واسع، طويلُ الذكرِ، وكثيرُ الشُّعَبِ والنواحي»[1].

* * *

(١) نحو التربية الإسلامية الحرة، ص١٧.

الفصل السابع

أدب الرحلات

ليست رحلات الشيخ الندوي في الهند أو خارجها لغرض سياحي أو متعة نفسية، بل إنّما تابعها في سبيل العلم والمعرفة، والدعوة إلى الله تعالى وطاعته، وسجّلها تسجيلاً أميناً صادقاً ليقدّم رسالةً ساميةً تحمِل هدفاً سامياً، وذلك بلغة أدبية ذات مستوى رفيع، ومن كتبه المعروفة في هذا الموضوع: (**مذكرات سائح في الشرق العربي**) نشر بالقاهرة عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٤م، والذي سأعرضه بشيء من التفصيل، و(**من نهر كابول إلى نهر اليرموك**) طبع في بيروت عام ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، وصف المؤلّفُ فيه بقلمه البارع المصور أوضاع أفغانستان وإيران ولبنان وسورية والعراق والأردن ومؤسساتها الثقافية وعلماءها ودعاتها وتأثير الحضارة الغربية وثقافاتها فيها، وما أحدثت من نتائج سلبية، وتركت آثاراً سيئة ومدمرة في الجيل الجديد، و(**أسبوعان في المغرب الأقصى**)، وهو وصفٌ لرحلته إلى المغرب عام ١٩٧٦م، وانطباعه عنها، ومحاضرات وأحاديث ألقاها في الرباط، والدار البيضاء، ومراكش، وتوجيهاته التي تقدّم بها إلى ولاة الأمور، وقادة الفكر والتربية، والشباب المسلم.

وقد لخّص الأستاذ عبد القادر بن عيسى باطاهر آراء الشيخ الندوي في

أدب الرحلات بأنَّ رحلاته تتسم بالنقاط التالية:

أولاً: يركّز أبو الحسن الندوي على أهمية **النظرة الشاملة للمجتمع** الذي يكتب عنه الرحالة، فقد لاحظ أن كثيراً من كتب الرحلات يغلب عليها الجانب الجغرافي، وتعتني بالآثار والمشاهد أكثر من أي شيء آخر، ولا تتناول في الغالب إلا جانباً من جوانب الحياة يتلاءم مع ذوق الأديب، فإذا كان الرحالةُ أديباً مثلاً اقتصر على ذكر الأدباء المشهورين، وتصوير الحياة الأدبية في هذه البلاد، وهذا لا يعطي صورةً متكاملةً عن المجتمع والحياة والعلاقات وغيرها من الأمور المهمة في أدب الرحلة.

ثانياً: ينبّه أيضاً إلى **ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات**، لتبقى المشاعر والانطباعات حية في الذاكرة، لأنه إذا مرَّ عليها زمانٌ ولم تسجَّل فستفقد حيويتها وصدقها، فهي أشبه بالظلال والأمواج، فلا تدومُ ولا تبقى ولا يستطيع الأديب أن يستعرض ما شاهده، ولا يستطيعُ أن يستعيدَ ما شعر به، وما ترك الحادث فيه من أثر نفسي.

ثالثاً: ويؤكد الشيخ الندوي دائماً على **أهمية ظهور ذات الأديب وشخصيته في أدب الرحلة**، فلا بد أن يعكس عاطفته وعقيدته في عمله، لأنّ هذا العمل إذا تجرد من العاطفة والعقيدة والمشاعر تحول إلى آلة تصوير (باردة) لا تؤثر في النفس، ولا تصلح للبقاء[1].

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي، ص٤٩٥ ـ ٤٩٦.

● **مذكرات سائح في الشرق العربي:**

خرج الشيخ الندوي في مفتتح ١٩٥١م في رحلة إلى عواصم الشرق العربي «ليدرسَ وضع هذه الأقطار الديني العلمي والاجتماعي، ويتعرّف برجالاتها وقادة الفكر فيها، ويتذاكر معهم في الشؤون الدينية والعلمية، والقضايا الإسلامية والمناهج الإصلاحية، والمشاريع التعليمية، ويعرّفهم ببلاده شبه القارة الهندية.. ويستفيدُ مما جدّ في العالم العربي، من آراء ونظريات، ونشأ من حركات ودعوات، ونبغَ من رجال وشخصيات، وقام من مدارس فكرية ومؤسسات، وظهر من أساليب وثار من مشاكل، وقد أراد الله أن ينشأ قبل أن يزورَ هذا البلد نشأة علمية دينية أدبية. يتذوّق الشعر والأدب، والتاريخ والاجتماع، والحضارة وفلسفة الحياة، وقد مارس الحياة العلمية، وعمل في حقل الإصلاح والدعوة، وباشر مهنة التعليم، وعالج الكتابة والتأليف، وعرف الأساليب الأدبية، والمدارس الفكرية، والاتجاهات المتعارضة في مصر والشام، فزار هذه البلاد على بصيرة وبينة من الأمر وبعد أن لم يكن ينقصه إلا اللقاء»[١].

وبعد أن انتقل ما بين أرض الحرمين وبين مصر والسودان، وبعد أن مكث فترة في الشام والأردن وفلسطين في رحلة استغرقت سنة وشهرين عاد إلى وطنه، فهرع إليه أهله وجماعته، يسألونه عما رأى وشاهد وسمع، يقول:

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٤٨ ـ ٥٨.

طلب مني إخواني التعليقَ على الرحلة، وبيان انطباعاته فأنشدتُ ما قاله إقبال: «لم أسمعْ في مصرَ ولا في فلسطينَ ذلك الأذانَ الذي ارتجفتْ لـه الجبالُ بالأمسِ، أينَ السجدةُ التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرضِ، لقد طال عهدُ المحرابِ بها، واشتاقَ إليها المسجدُ، كما تشتاق الأرضُ الجديبةُ الخاشعة إلى المطر»(١).

وقدم انطباعاته وأحاديثه ولقاءاته مع العلماء والأدباء والمفكرين في هذا الكتاب، وكان قد التزم المؤلف في هذه الرحلة أن يسجّلَ كل حديث وكل انطباع في يومه غالباً، وأن يتحرّى الدقة في النقل والصحة والصراحة بتسجيل الحديث في لفظ المتحدّث ولغته بقدر الإمكان، فجاءت في الكتاب صورة من الأساليب والآداب المحلية يستفيد منها مؤرخ الأدب فيما بعد، ويتمثل القارئ لهذا الكتاب ـ بعد أن مضى عليه زمن ـ شخصية المتحدث وسماته الحقيقية، ويتمثل البيئة التي دونت فيها هذه المذكرات، وما كان يجيشُ فيها من صراع نفسي، واصطراع فكري، واضطراب اجتماعي، وقلق وتذمر وثورة، وما كان يتمخّض به هذا المجتمع من حوادث لم تقع، فجاءت هذه المذكرات مجموع صور ناطقة يستطيع القارئ أن يعيشَ بها في هذه الفترة التي لا تعود أبداً.

وميزة هذا الكتاب أنّه وصفٌ وتصويرٌ من إنسان حي يحمل القلب والعاطفة والعقيدة، ويؤمن بمبادئ وقيم ومثل، ويحب هذه البلاد التي يزورها، ويرتبط بماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويعتبر نفسه عضواً من أعضاء هذه البلاد، ويشاركها في آمالها وآلامها، ويشاطرها في شقائها وسعادتها،

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٤٥.

ويحرص على رسم صورة متكاملة الجوانب للمجتمع الذي عايشه في تلك الفترة من حياته.

ويستطيع القارئ أن يأخذ فكرة واسعة عن الحياة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وأن يعرف التيارات الثقافية والمستويات الحضارية لتلك المجتمعات المتنوعة، مما يعطي لهذا العمل قيمةً تاريخيةً مهمة إلى جانب القيمة الأدبية والفكرية التي أعطت للكتاب طابعه المتميز.

وأنقل هنا مقطعاً منه يحكي لقاءً تاريخياً مع سماحة مفتي فلسطين أمين الحسيني: «يوم الأحد ٧/ ٨/ ٨٠هـ حديث مع المفتي: ذهبنا لمقابلة سماحة المفتي أمين الحسيني في مكتبه في شارع رمسيس بمصر الجديدة، وكانت هذه المقابلة من أمتع المقابلات التي جرت بمصر، وإن كانت قد جرحت الفؤاد، وأثارت الأحزان، وبعثت الأسى على حالة المسلمين، تحدّث معنا سماحةُ المفتي طويلاً في جلسة خاصة، وتحدّث عن تاريخ جهاد فلسطين ومطامع اليهود السافرة حتى أطماعهم في احتلال المدينة المنورة وخيبر ومستعمرات اليهود القديمة، ومطالبتهم بذلك بكل صراحة، والتهيؤ والاستعداد له، ونفاق الإنكليز وكيدهم للمسلمين، والروح الصليبية الكامنة في نفوسهم، بل البادية في أحاديثهم وأعمالهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] وسذاجة الشعوب الإسلامية وسرعة انخداعها، وأخطاء الدول العربية وغفلتها عن مصيرها، والأخطار الصهيونية التي تهدد كيانها، واشتغال ملوك العرب بنفوسهم وترفهم، وجناية الجامعة العربية على قضية فلسطين بتكفّلها بهذه القضية ثم تقاعدها عنها، وعزل الشعب الفلسطيني المجاهد عن السلاح،

وتسليم المناطق العربية إلى اليهود، فلا تركت الشعبَ الفلسطيني الغيورَ الباسلَ يواصلُ جهاده، ولا أغنت عنهم شيئاً، وحلّت محلهم.

وذكر اضطهاده، وكيف طوقه المستعمرون الإنكليز بوساطة المسلمين، وجعلوه في شبه جزيرة منعزلة، لا يستطيع أن يقوم بدوره في قضية فلسطين حرّاً مطلقاً، وكيف كتّفوا يديه، وكيف حالوا بينه وبين إخوانه الفلسطينيين، حتى أبوا عليه بطرق غير مباشرة أن يتّصل بهم في مصر وفي غزة، وكيف سافر خلسةً مرةً إلى غزة فاستعادوه إلى مصر، وكيف أصبح اللاجئون في غزة فريسةَ الجوع القاتل والتبشير النصراني والدعايات الشيوعية، وكيف رفضوا أن يتّصل بهم ويقوم بنشاط دعوة إسلامية، وكيف يمنعون بريده من أن يصل إليهم بوساطة وكلاء الصهيونية في دوائر البريد، وكيف نسجوا حوله نسائج من شائعات وأراجيف، ليشوّهوا سمعته، ويسقطوا مكانته، ويفقد الفلسطينيون ثقتهم به، قال: «ولكنا مع ذلك مصممون على مواصلة الجهاد مهما كان، ولا نيأس من روح الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]»

وكان حديثُ المفتي مشجياً، وكان يتجلّدُ ويكفكفُ الدموع، فإنّه معروف بعصاميته وجلادته، وقد لمحت في حديثه إلى أي مدى وصل انحطاط المسلمين، وجهلهم بالحقائق، ونكرانهم لرجالهم، وإلى أي حد نجحت سياسة المستعمرين، وكيف طمست البصائر، واشترت الذمم والضمائر، وعبثت بالأفكار والعقول، فالله المستعان.

وقد رجعتُ من عند سماحة المفتي حزيناً منكسرَ الخاطر، وعرفتُ أنه لم يخطئ حظُّه حظَّ زعماء المسلمين والمصلحين. وقد أثنى المفتي على

الشهيد حسن البنا رحمه الله، وأثنى على الإخوان المسلمين المجاهدين في فلسطين، وأثنى على رجولتهم وقوة إيمانهم وحماستهم، وقال: كان الواحدُ منهم يقاتِلُ عشراتٍ من اليهود»[1].

كتب عنه الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقي في كتابه إلى المؤلف: «وبعدُ: فقد وصلني مؤلَّفُكم الجديد **(مذكرات سائح في الشرق العربي)** وكتبتُ إلى وكيلكم الفاضل بمصر شاكراً، وتصفحته كلّه فرأيتُ فيه من الفرائد والفوائد ما لا أحصيه عدّاً، وما يقصر قلمي عن وصفه، وسبحان من وهبكم القدرة على الكتابة بلسان عربي مبين، ليس فيه شائبة العجمة، وله الحمد والشكر على ما خصصتم به من نفاسة التأليف، وتحرّي ما هو الأفضل والأنفع لهذه الأمة العانية، أقرّ الله أعينكم بما ترون من نهضتها ومن قوتها وعزتها ومن حفظ ثروتها، ورد السليب والضائع إليها، ألهم الله علماء العرب مثل ما ألهمه أولئك الأفذاذ من علماء الهند الذين يصدق عليهم قول القائل:

إنَّ الملوكَ لَيَحْكُمُونَ على الوَرَى ... وَعَلى الملوكِ لَتَحْكُمُ العُلَمَاءُ

وإني لأرجو أن تتكرموا بنسختين، إحداهما لمجلة (المجمع العلمي) لأكتبَ عنه فيها، ونرسل إليكم ما أنشره فيه، والثانية هدية إلى المكتبة الظاهرية بدمشق[2].

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) رسائل الأعلام، ص٦٠ ـ ٦١.

ويقول سماحة الحاج المفتي محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر وقد أهدى إليه الشيخُ كتابَ مذكرات سائح في الشرق العربي): «ولقد سررتُ كثيراً بما ذكرتم فيه من آرائكم السديدة، وتوجيهاتكم لعلماء المسلمين وشبابهم ورجال هيئاتهم الدينية، وحضهم على بذل أقصى الجهود لتنشيط الدعوة الإسلامية، متوكلين على الله، معتصمين به سبحانه، عاملين بكتابه القرآن الكريم، وبسنَّة النبي العظيم عليه صلوات الله وسلامه، مثابرين على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، متعاونين على البر والتقوى، وكل ما فيه رفعة شأن الإسلام والمسلمين. ولقد وفقتم إلى تشخيص الداء، ووصف الدواء، بصراحة المؤمن المخلص، وقد اغتبطت بما أبديتم في كتابكم المذكور من عناية واهتمام بقضية فلسطين التي هي قضية جميع المسلمين، ووصفكم النكبة الفادحة التي أصابت الإسلام والمسلمين بضياع القسم الأكبر من فلسطين، وتشريد مليون من أهلها أصبحوا لاجئين، مما جعل المسجد الأقصى وما حوله من مقدسات وديار مباركات عرضةً للهدم والضياع، إن لم يهب المسلمون من غفلتهم، ويبادروا إلى حماية مسجدهم ومقدساتهم للمسارعة إلى إرسال قوات عسكرية تقف في وجه اليهود، وتصد عدوانهم»[1].

* * *

(١) المصدر السابق، ص٨٨.

الفصل الثامن

أدب الأطفال

نرى عند الشيخ الندوي رؤية كاملة للإصلاح والتربية والدعوة، فليست طبقةٌ من المجتمع إلا ويعتني بأمرها، ولا سيما الأطفال والصغار، فإنّهم اللبنة الأولى للمجتمع، وبصلاحهم يصلح المجتمع، وبفسادهم يفسد المجتمع، ولقد قالوا ولا يزالون يقولون: **إن التعليمَ في الصِّغر كالنقش في الحجر**، ومعنى ذلك أنّ ما نلقيه إلى الصغير سبقى ويدوم، فإن كان خيراً بقيت فائدته، ودامت منفعته، وإن كان شرّاً بقي سوءه، ودامت النكبة به.

يقول الأستاذ الشيخ **أحمد الشرباصي** وهو يلقي الضوء على أهمية مرحلة الطفولة في التربية والتعليم:

«لم يكن الشاعرُ العربيُّ مغالياً حين قال عن الأطفال:

وإنّما أولادُنا بيننا أكبادُنا تَمْشِي على الأرضِ

فالأطفال هم قِطَعُ الأكباد، التي تحوّلت إلى أولاد، وهم الودائع الغالية، التي يجب أن تصان، وأن ترعى حق الرعاية من الكبار، وكل منهم عجينة لينة في يد وليّه، أو المشرف على تربيته وتنشئته، وهناك كثيرٌ من العامة

يحسبون أنّ تربية الكبار أشق وأدق من تربية الصغار، بينما الواقع على العكس من ذلك، فقد يحتاجُ التعليم السليم القويم للأطفال إلى أكثر مما يحتاج إليه تعليم الشباب أو الرجال، وذلك لأنّ الفترة التي يبدأ فيها تعليم الطفل الدروس الأولى تظلُّ ذاتَ أثر عميق وطويل في نفسه ونشاطه واتجاهه في الحياة، ومن هنا كان الواجب على رجال التربية والتعليم أن يعطوا هذه الفترة كلَّ عناية ورعاية، حتى يُحْسِنوا فيها التصرُّفَ الذي يترتّب عليه مختلف النتائج والعقبات في القريب والبعيد من أيام الحياة»[1].

وفيما يلي عرضٌ لأهم ما ألّفه الشيخ الندوي في هذا المجال، مما يهتم بتعليم أطفال المسلمين عقائدَ الإسلام الأساسية، ويعتني بالناحية التربوية، ويركز على تعليم اللغة العربية.

● **قصص النبيين (للأطفال):**

قام بتأليف خمسة أجزاء من سلسلة (**قصص النبيين (للأطفال)**) لغرس العقائد الإسلامية في أذهان الناشئة، وتحبيبها إلى نفوسهم البريئة، يشتمل **الجزء الأول** على قصص إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، **والجزء الثاني** على قصص نوح وهود وصالح، **والجزء الثالث** على قصص بني إسرائيل بعد يوسف، وقصة موسى وهارون، **والجزء الرابع** على قصص شعيب، وداود، وسليمان، وأيوب ويونس، وزكريا، ويحيى،

---

(١) مقدمة قصص النبيين (الجزء الثالث)، ص٣.

ومريم، وعيسى عليهم السلام، وأفرد **الجزء الخامس** لسيرة خاتم النبيين ﷺ.

لما صدرت هذه الأجزاء كتب عنها الأستاذ عبد الماجد الدريابادي: «علم التوحيد والكلام للأطفال».

يقول في مقدمة الجزء الأول مخاطباً ابن أخيه (محمد بن عبد العلي): **«أراك حريصاً على القصص والحكايات، وكذلك كل طفل في سنك، تسمعُ هذه القصص بكل رغبة، وتقرأها بكل رغبة، ولكني أتأسف، لأني لا أرى في يدك إلا حكايات السنانير والكلاب والأُسد والذئاب والقردة والدباب، وعلينا العهدة في ذلك، فذلك هو الذي تجده مطبوعاً. فرأيتُ أن أكتبَ لك ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم صلاة الله وسلامه) بأسلوب سهل، يوافق سنَّك وذوقك، ففعلت»**.

ويقول في مقدمة الجزء الأول من سلسلة **القراءة الراشدة**: «رأى المؤلف كتباً صغيرة لبعض أدباء مصر في حكايات الأُسْد والذئاب، والقردة والدباب، حتى الخنازير والكلاب، فصيحةَ العبارة، قليلةَ المغزى، عربيةَ الوضع، أفرنجية الروح، إسلامية اللغة، جاهلية السبك، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضاً إلا قصص الحيوانات والأساطير والخرافات، فكتبَ لهم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، بأسلوب يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل، وسهولة الألفاظ وبسط القصة، وزيّنَ الكتاب بصور مناظر الطبيعة والأبنية المقدسة.

وقد وصفها المرحوم الأستاذ **مسعود عالم الندوي** بأنها تعلم مبادئ الدين أولاً والأدب ثانياً».

ويقول الأستاذ **أحمد الشرباصي** في تصديره للكتاب: «وها هو ذا أخونا الداعية المفضال السيد أبو الحسن علي الندوي يدركُ هذه الحقيقة خيرَ إدراك، فيخرِجُ لأطفال المسلمين في الهند وغيرها هذه السلسلة من **قصص النبيين**) فيخدم بذلك دينه، إذ يعرِضُ عن طريق هذه القصص كثيراً من مبادئه وتعاليمه، التي يتلاءم ذكرها مع القصة، أو تنبعث أضواؤها من الجو المحيط بالقصة، ويخدم بذلك أطفال المسلمين، لأنّه يقدّمُ إليهم أحسنَ القصص، وأصدقَ التاريخ، وأجمل الحوار، وأروع الحوادث، فيرضي الميولَ المختلفة في نفس الطفل الهائم بالاستطلاع، ويخدِمُ بذلك مكانته الأدبية، وإن لم يتعمد ذلك، فإن أبا الحسن الذي استطاع أن يكتبَ للكبار مثل كتابه (**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**) وكتاب (**إلى الإسلام من جديد**) وغيرهما فيجيد ويحسن، وهو الذي استطاع أيضاً أن يكتبَ للأطفال المسلمين (**قصص النبيين**) في هذا الأسلوب البسيط السهل الميسور السائغ، والاقتدار على الإجادة في الكتابة للكبار مع الإجادة في الكتابة للصغار منزلة يقل الذين يبلغونها من الكاتبين والمؤلفين»[١].

ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب في تقديمه للجزء الثالث من هذه السلسلة: «ولقد قرأتُ الكثيرَ من كتب الأطفال ـ بما في ذلك قصص الأنبياء

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

عليهم الصلوات والسلام ـ وشاركتُ في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال) في مصر؛ مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكنّي أشهدُ من غير مجاملة أنّ عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة (أي قصة سيدنا موسى عليه السلام التي يتضمنها هذا الجزء) التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنّها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار»[1].

وأعتبره من مؤلفاته التجديدية، ولعلّ كثيراً منا يستغربُ إدخالَ هذا الكتاب الذي ألف للأطفال في سلك مؤلفات الشيخ التجديدية، ولكن إذا كان التجديدُ يعني تقديمَ الدين في صورته الصافية التي عاشها الأنبياء والمرسلون فإنّ هذا الكتاب من أهم ما يؤخذ في الاعتبار عند بناء المجتمع الإسلامي النقي، لا سيما إذا كانت تربية الصغار هي اللبنة الأولى والخطيرة تجاه هذا البناء، إنّه كتاب يغرس التوحيد في القلوب، وينشئ محبة الأنبياء والمرسلين في النفوس، وكراهية الشرك والوثنية والكفر والمعاصي، ويقدّم الأنبياء والمرسلين أمثلة صادقة للنوع البشري، ويعرض تاريخَ إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام وأسرته الطيبة الطاهرة بكل نقاء وصفاء، كتاب يبتدئ بتلك القصة الخالدة التي تهزُّ المشاعر، والتي تبتدئ بعنوان (من كسر **الأصنام**؟)، كلّما قرأتُ هذه الكلمة تمثّلَ لي إبراهيم عليه السلام هادماً للأصنام والوثنية في الجاهلية القديمة

---

(١) المصدر السابق، ص١١.

والجاهلية الحديثة، كتاب يبتدئ بكسر الأصنام، وقصة الذبح، وبناء أول بيت وضع للناس، كتاب كله إيمان وتوحيد، وكفر بالشرك وجميع مظاهره، وحب لأئمة التوحيد، كتاب يجب على كل أب أن يبدأ به تعليم أولاده، كتاب ليس له نظير في بابه.

● **القراءة الراشدة:**

لم تعهد الهندُ كتاباً في النثر العربي يدرَّسُ في المدارس غير (**مقامات الحريري**) إلى القرن الثالث عشر الهجري حتى جاء الشيخ أحمد الشرواني من اليمن، وألّفَ كتاباً صغيراً يشتمل على قصص وحكايات فكاهية، ونوادر وملح وأبيات، وسماه (**نفحة اليمن**) فاهتبله علماء الهند، كأنّما هبطَ من علياء، لما هم من فاقة إلى كتاب يدرسه الطلبة قبل المقامات، وعضوا عليه بالنواجذ، وهم منذ ذلك اليوم عكوفٌ عليه لا يرون منه محيصاً، وأمّا الكتبُ المؤلفة في البلاد العربية فإنها على نقاء لغتها وحسن وضعها واحتوائها على مادة علمية نافعة لا توافِقُ ذوقَ المسلمين في الهند وباكستان وما جاورها من البلاد، ولا تقضي حاجة رجال التعليم في هذه البلاد، وتشتمل على مادة في تاريخ البلاد التي ألفت فيها، وتراجم رجالها البلديين، وجغرافية تلك البلاد، ثم إن هذه الكتب عاريةٌ عن الروح الديني، فكان من أهم الواجبات أن يُعنى العلماءُ ورجال التعليم الديني بوضع منهاج تعليمي رشيد حكيم، يفوقُ مناهجَ التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية وتهذيب النفس مع إفادة الطالب بكل ما تهم معرفته

من الشؤون الكونية والتاريخية والمواد العامة مبنياً على أحدث مبادئ التعليم واختياراته.

شعر الشيخ الندوي بهذه الحاجة، وألّفَ هذه السلسلة من (القراءة الراشدة) في ثلاثة أجزاء، تحتوي على مواد في اللغة والأدب متنوعة بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة الهندية، واجتهد في أن تكونَ اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنّة، واستعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي، واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية، وتكرار المفردات حتى يتمرّنَ عليها الطالب، وتنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية ومن نثر إلى شعر أو نشيد، ونقل الموضوعات الواردة في الحديث إلى لغة سهلة على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال، ودروس خلقية تهذيبية تعلّم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة، وتضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاءً، بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات، والروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعمّ ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة.

● **قصص من التاريخ الإسلامي:**

اتفق علماءُ التربية وعلماءُ النفس على أنّ الحكايات الخفيفة الشائقة، الموجهة الهادفة من أقوى وسائل التربية والصياغة الخلقية والمبدئية، والدينية

والإيمانية، ومن ثَمَّ عنيتْ أكثرُ اللغات والآداب والديانات والبيئات والمعنيون بتربية الأطفال، وإنشاء الجيل الجديد على الأخلاق الفاضلة، وخلال المروءة، والفتوة والإيثار، والتضحية والرجولة والبطولة، بجمع حكايات شائقة مثيرة تلائم سن الأطفال، وعقليتهم، ومدى قدرتهم على الوعي والتذوق، حتى تكوّنت من ذلك مكتبة زاخرة في كل لغة حية راقية، وفي كل بيئة عاقلة واعية، تُعنى بتربية الأطفال، وإنشاء الناشئة والجيل الجديد على حب أهدافها ومثلها، وقيمها التي تحتاج إليها وتغار عليها.

والناشئة الإسلامية والأطفال المسلمون أحوج من كل ناشئة وجيل في سن الحداثة إلى قصص وحكايات تغرس فيهم حب الخير والفضيلة، والبطولة والتضحية، والجهاد والشهادة في سبيل الله، وإيثار الآخرة على الدنيا، والعزوف عن سفاسف الأمور، وفضول الحياة، والحب لله وللرسول ﷺ ولأصحابه وأتباعه، الذين بذلوا نفوسهم ونفيسهم في سبيل الله، فقام الشيخ بانتقاء حكايات خفيفة شائقة، مثيرة مفيدة من كتب السيرة وتاريخ الإسلام، والسير والتراجم، وصاغها في لغة سهلة وأسلوب مبسط لائق بالأطفال، والذين حصل لهم إلمام باللغة العربية.

والقصص التي اختارها كلها قصص شيقة مثيرة، حافلة بالدروس والعظات والعبر، وباعثة للهمم والعزائم، أذكر منها واحدة على سبيل المثال، عنوانها: (**زهدُ أكبر حاكم في عصره**):

«كان سيدنا عمر بن عبد العزيز ـ الخليفة الأموي الراشد ـ أكبرَ حاكمٍ في عصره، يحكم الشام ومصر والعراق، والجزيرة العربية وإفريقية الشمالية

الغربية وإيران وخراسان، ووصلت مملكته إلى حدود الهند، لمّا استُخْلِفَ خرجَ من ماله وعقاره، وردّه إلى بيت مال المسلمين، ووضع حلي زوجته في بيت المال، وبلغ من الزهد والشظف في الحياة، والتقشف في المعيشة مبلغاً يعجز عنه الزهاد، فضلاً عن الملوك والأمراء، كان يتأخّر في بعض الأحيان عن الخروج إلى صلاة الجمعة انتظاراً لقميصه أن يجف، وكانت نفقتُه اليومية لا تزيدُ على درهمين، وكان يتورّع عن تسخين الماء على مطبخ العامة، كان يطفئ الشمعة التي زيتها من بيت المال إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه، فقال: كيفَ أنتَ يا أميرَ المؤمنين وكيف عيالك؟ أطفأ الشمعة وطلب شمعة يملكها، أو رد على سؤال صديقه في الظلام.

دخل مرة في بيته ليزورَ أهله ويحييهم، فرأى أنّ كلَّ بنت من بناته إذا واجهته وحدثها، تضع يدها على وجهها وحدثت، فسأل عن السبب في ذلك، فاعتذرت إليه وحدثته أنها ما وجدت في البيت ما تأكله إلا عدساً وبصلاً، فهي تخاف أن تصل إليه رائحتهما، فبكى وقال: يا بناتي ما ينفعكنَّ أَنْ تعشَّيْنَ الألوانَ ويُؤْمَرُ بأبيكنّ إلى النار؟ فسكتن ورضين بهذه الحياة الزاهدة المتقشفة وأبوهن أكبر حاكم في ذلك الزمان، يتنعّم عماله وكثير من أهل بلاده بالأطعمة اللذيذة والأقمشة الجميلة الغالية، والحياة الرخية الناعمة.

ولم يكن تورّعه مقتصراً على ذاته بل كانت سياسة عامة، كان يطلب من رجال دولته وعماله أن يكونوا متورّعين أشحة على أنفسهم أسخياء على المسلمين، يعتقد أنّ الدرهم دم، فلا يجوز أن يجري في غير عروقهم، ولا يرى أن يضيع في الكماليات والشكليات.

طلب أحد عماله من الخليفة قراطيسَ يكتب عليها في مصالح ولايته فأجابَ: «إذا جاءكَ كتابي هذا فأرقّ القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائجَ الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجةَ للمسلمين في فضلِ قولٍ أضرَّ ببيت مالهم، والسلام عليكم».

وشكا إليه أحد العمال ما أصاب بيت المال من نقص وخسارة لسبب إسقاط الجزية عن الذين كانوا يسلمون، فإنه لا جزية على المسلمين، فأجاب: **إن الله جلَّ ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً**».

* * *

الفصل التاسع

الكتابات الأدبية

● مختارات من أدب العرب:

هذا الكتاب (في جزئيه) يشتمل على ثلاثة وسبعين نصاً أدبياً، تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، تجمع بين ألوان الأدب العربي المختلفة، وبدائعه، من وحي سماوي، وبلاغة نبوية، وخطب لأشهر خطباء العرب في أزهر عصور العربية، وروايات وقصص ورسائل وكتب، ومناقشات ومحاورات ورحلات وأحاديث منزلية متبسطة، وجد وهزل، وحكمة ولهو، وتمثل الأدب الرفيع الذي يمنح القارئ التوسع والانطلاق في آفاق الفكر والتعبير، والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال، ويثير فيه التذوق بجمال اللغة العربية.

ألّفه الشيخ لما رأى الأدب العربي قد أصيبَ بمحنةٍ أصيبَ بها أدبُ كل أمة، وهي تسلُّطُ أصحاب الصناعة والتكلّف على هذا الأدب، فطغى هذا الأدبُ الصناعيُّ على كل أثر عن هذه الأمة واحتوت عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعي وكلام مرسل، وإنَّ هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير

وقديم في المكتبة العربية، بل هو أكبر سنّاً وأسبق زمناً من الأدب الصناعي، فقد دون هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدوّنَ الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات، ولكنّه لم يحظَ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظيَ به الأدب الصناعي، مع أنّه هو الأدبُ الذي تجلّت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم.

رأى الشيخ الندوي أنّ مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد، وإلى دراسة جديدة، فألف كتابه (**مختارات من أدب العرب**) جامعاً بين نوعي الأدب الطبعي والفني، وبين القديم والحديث، يقول: «مخطئ من يظنُّ أنَّ المكتبة العربية قد استنفدت وعصرت إلى آخر قطراتها، إنّها لا تزالُ مجهولةً تحتاجُ إلى اكتشافات ومغامرات، إنها لا تزالُ بكراً جديدة تعطي الجديد، وتفجأ بالغريب المجهول، إنها لا تزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها ويثيرها، إنّ مكتبةَ الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد وإلى دراسة جديدة وإلى عرض جديد، ولكن هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة، وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال، وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر».

إنّ هذا الكتاب مع مقدمته المبدعة يعتبر ثورةً في التفكير، وتحدياً غير عادي في مجال الأدب، واعترف كبار الأدباء العرب بفضل هذا الكتاب في فتح كوة جديدة على آفاق الأدب الإسلامي الواسعة، وأنّه قلبَ الموازين الأدبية وتخطى الحدود المرسومة التي رسمها الأدباء التقليديون واحتكروها منذ القرون، وأصبح هذا الكتاب فيما بعدُ نواةً جديدةً وقاعدةً محكمةً لتأسيس

نظرية الأدب الإسلامي الصحيحة.

ويقول الأديب الكبير **الأستاذ علي الطنطاوي**: «وإن كان الدليلُ على ذوق الأديب اختيارُه، فحسبُ القراءِ أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة، وكلهم من الأدباء يبحث ويفتش فعدنا جميعاً وقد وجدنا أنّ أجود كتب المختارات المدرسية وأجمعها لفنون القول وألوان البيان مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرجَ بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا نقتصر في الاختيار على (وصف الكتاب) **للجاحظ**، وهو جمل مترادفة، لا تؤلف بينها فكرة جامعة، ولا يمدها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى ألاعيب **ابن العميد**، وغلاظات **الصاحب**، وهندسات **القاضي الفاضل**، فننفر التلاميذ من الأدب، ونكرهه إليهم، وكنا نقول لهم: إنَّ البيان الحق عند غير هؤلاء، وأن **أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ**، وإن كان الجاحظ أوسع رواية، وأكثر علماً، وأشد تصرفاً في فنون القول، وأكبر أستاذية، وأن **الحسن البصري أبلغ منهما**، وأن **ابن السماك أبلغ من الحسن البصري**.

وإن النظر فيما كتب **الغزالي في (الإحياء)**، **وابن خلدون في (المقدمة)**، **وابن الجوزي في (الصيد)**، وابن هشام في (السيرة)، **بل والشافعي في (الأم)**، **والسرخسي في (المبسوط)** أجدى على التلميذ، وأنفع له في التأدب، من قراءة **حماقات الصاحب**، **ومخرقات الحريري وابن الأثير**.

وكتبت في ذلك مراراً، فما التفت إلى ذلك أحد، فيئستُ منه، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً، وحرثها حرثاً، فاستخرجَ جواهرها فأودعها كتابه.

ولست أقول إني أنا صاحب الفكرة، أو أنه أخذها مني.. لا ولعله (وهذا ما أرجحه) ما قرأ شيئاً مما كتبت أنا ولا غيري في هذا الموضوع، ولكنّه الذوق الأدبي المرهف، والطبع العربي الأصيل[1].

ويقول الدكتور **عبد الله بن صالح العريني** في مقاله (مختارات أبي الحسن الندوي: الريادة في المنهج والتطبيق): «تمتاز هذه المختارات بأنها تمثل تطبيقاً عملياً وشاهداً عدلاً لدعوة أبي الحسن الندوي إلى إعادة اكتشاف تراثنا، والتأكيد على درره وجواهره، التي لم تقدّم للناس على الرغم من وفرتها ونفاستها في بحر التراث المتلاطم الأمواج.. وقد تلقى الناس هذه المختارات بالقبول، حتى غدت من الكتب الشهيرة للمؤلف.. وكما أنّ الشيءَ من معدنه لا يستغرَبُ، فإن استخراج نصوص أدبية من المصادر الأدبية المعتادة لا يُعدُّ أمراً لافتاً للانتباه، أما أن تتجاوز تلك المختارات المؤلفات التقليدية إلى مؤلفات ومراجع جديدة فإن هذه الميزة تمثل واحدة من الميزات الكبرى لهذا الكتاب الذي يفتح عيوننا على منابع أخرى للأدب العربي الجميل الأصيل»[2].

---

(١) تقديم الأستاذ علي الطنطاوي لكتاب (المسلمون في الهند)، ص١٧ ـ ١٨.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن =

وكثر استيحاء الأدباء من مختاراته، وبه اطلعوا على الثروة الأدبية الهائلة في الحديث النبوي الشريف، ولما ألف الأديب الموهوب **الأستاذ عبد العزيز الرفاعي** كتابه (كعب بن مالك) صرّحَ بأنه لم يكن مطلعاً على مواضع الجمال الأدبي في الحديث النبوي الشريف إلا بعدما نبَّه إليه الشيخ الندوي في كتابه (مختارات) وقال: «من الطبيعي أن اختياره قطعاً من الصحاح يدل دلالة واضحة على سعة اطلاعه على متون الحديث النبوي الشريف»[1].

● روائع إقبال:

يعود الفضل في تعريف ناطقي اللغة العربية بمحمد إقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨م) إلى الدكتور **عبد الوهاب عزّام** (١٨٩٣ ـ ١٩٥٩م)، وكان الدافع الأول إلى اهتمامه بالشاعر إقبال ونقل بعض آثاره إلى العربية فرط إعجابه به شاعراً وفيلسوفاً ومفكراً، ومن أهم العوامل التي مكنته من ترجمة بعض أعماله الشعرية إلى العربية إجادته اللغة الفارسية والأردية، وهما اللغتان التي كتب بهما إقبال أعماله الشعرية، ثم تعيينه سفيراً لمصر في باكستان، البلد الذي تحوّلَ إلى حقيقة بعد وفاة الشاعر إقبال بعشر سنوات، وكان حلماً يدغدغُ مخيلته، وأمنيةً تداعب وجدانه، واختار عزّام أن يترجمَ دواوين إقبال إلى العربية شعراً على الرغم مما يكتنف مثل هذه الترجمة من صعوبات.

= الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص٥٤.

(١) من تقديم (المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف)، ص٥.

أشاد الشيخ الندوي بما صنعه عبد الوهاب عزام لإقبال وشعره وفكره، وما أسداه للعربية بنقل هذه الدواوين إليها، إلا أنه انتقده باتخاذه الشعر وسيلةً للترجمة، وتمنّى لو أنّ عزاماً صبها في قالب نثري، بعد أن يتشرّبَ فكرة الشاعر وفلسفته وعاطفته، لأن النثر يمكنه من نقل الأجواء النفسية للنص الشعري، ولا يتيحُ له الشعر ذلك لما يحيط به من قيود، فأحس أن تراجم عزام لا تفي بالغرض، وتأكد لديه أن يباشرَ نفسه ترجمة روائعه إلى النثر العربي، وحثه على ذلك الأستاذ علي الطنطاوي.

يحمل الشيخ الندوي قلباً مفعماً بالإيمان والطموح والحب، وحسّاً مرهفاً، وطبيعة شعرية قربته من شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، فأغرم بشعره، وأُعجبَ به أيما إعجاب، وقام بتعريف العالم العربي بفكر الدكتور محمد إقبال وشعره، وألف حوله كتابه السائر (روائع إقبال)، الذي كتبه عنه الأديب الكبير والناقد الشهير ماهر القادري في رسالته (فاران) فقال: «ألّفه ذلك العالم المجاهد، الذي يصدق عليه لقب (الرجل المؤمن) على حدّ تعبير الدكتور محمد إقبال، ويصحُّ أن يقال: إنّ فكر إقبالٍ وروحه سريا إلى (روائع إقبال) سريان الطيب في الأزهار، والنور في الكواكب، يشعر القارئ بأنّ قلم شبلي، وفكر الغزالي، وحماس ابن تيمية. وإخلاصه قد امتزجَ كل ذلك في هذا الكتاب».

وقال جاويد إقبال نجل العلامة محمد إقبال: لقد عرض مؤلف هذا الكتاب جوانبَ مختلفةٍ من فكر محمد إقبال في أسلوبٍ أكبر ظني أنه يوافق شعورَ محمد إقبال نفسه، أو كان يؤثره لشرح أفكاره».

يقول الشيخ الندوي وهو يلقي الضوء على صلته بإقبال وشعره: «إنّ أعظمَ ما حملني على الإعجاب بشعره هو الطموح والحب والإيمان، وقد تجلّى هذا المزيجُ الجميلُ في شعره، وفي رسالته أعظمَ مما تجلى في شعر معاصر، ورأيتُ نفسي قد طُبعتْ على الطموح والحب والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى أدب ورسالة يبعثان الطموح، وسمو النفس، وبعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان على الإيمان بالله تعالى، والإيمان بمحمد ﷺ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها»[١].

يقول الدكتور **عبد الباسط** بدر في حديثه عن (روائع إقبال): «درس فيه آفاق الإبداع عند الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، وحلل نصوصاً رائعة ترجمها بنفسه من دواوينه الفارسية والأردية، وطَوّفَ في الآفاق الفكرية والشعورية التي كانت تملأ إقبال ومشاعره، وعوامل القوة والاستمرار فيها، وأسباب تفوقها على النماذج البشرية الأخرى، كما وقف على الأبعاد الفلسفية العميقة في تصور إقبال لوظيفة الإنسان المسلم في الحياة، والريادة التي وضعته فيها عقيدته، ووظيفة الدعوة، والهداية التي تشع عطاءً حنوناً للبشرية»[٢]

---

(١) المصدر السابق، ص٩ ـ ١٠.

(٢) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص٤٠.

ومن العناوين الرئيسة في هذه الروائع: (شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، حياته وثقافته وشاعريته وإنتاجه) و(نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه) و(نظرة محمد إقبال إلى العلوم والآداب) و(نقده للحضارة الغربية) و(الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال)، وتراجم لمختارات من شعر إقبال، وأقتصر هنا على تقديم نموذج من هذه الروائع، وهو مقتبس من فصل (الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال: بحث عن إنسان):

«قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته: «رأيت البارحةَ شيخاً يدورُ حولَ المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحثُ عن شيءٍ، **قلت له**: يا سيدي تبحثُ عمّاذا؟ **قال**: قد مللتُ معاشرةَ السباع والدّواب، وضقت بها ذرعاً، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم، لقد ضاقَ صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام، الذين أجدهم حولي، فخرجتُ أبحث عن عملاقٍ من الرجال، وبطلٍ من الأبطال، يملأُ عيني برجولته وشخصيته، ويروّح نفسي، **قلت له**: لقد غرّتك نفسُك يا هذا! فخرجتَ تقتنص العنقاء. باللهِ! لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي، وأنضيتُ ركابي، ونقّبتُ في البلاد، فلم أرَ لهذا الكائن عيناً ولا أثراً! **قال الشيخ**: إليك عني أيها الرجل، فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي، أعزّه وجوداً، وأبعده منالاً».

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد (أسرار خودي)، ولا أظنُّ أنَّ محمد إقبال اختار هذه المقطوعة وحلّى بها صدر كتابه إلا لأنّها تصور نفسيته، وتعبّر عن شعوره، فقد كان يحكم دراسته الفلسفية من

كبـار الرواد الباحثين عـن (الإنسـان الكامل) فهل وجد محمد إقبال ضالته يا ترى! وظفر بمطلوبه، أم قطع منه الرجاء؟.

وإذا كان الجواب: نعم، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس، وظفر بوطره من الرجال، فتأكدوا أنه فتحٌ أعظم من فتح (كولمبس)، واكتشاف أجلّ خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد، لأنه اكتشاف الإنسان وعثور على الإنسانية الضائعة، ولا خير في العالم ـ قديمه وجديده ـ إذا فقد الإنسان، وضاعت الإنسانية، وحاجة العالم إلى إنسان أشدّ اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة، والبحار المجهولة.

إن محمـد إقبال يحدّثنـا في شـعره بأنه وجـد هذا الإنسان المنشود، وعرفـه، واتصل بـه، ونـراه قد هـام به هيامـاً، وتغنَّى في شـعره بإنسانيتـه وشخصيته، فأين وجده محمد إقبال، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع؟.

أخاف أن أفاجئكم بما لا تقدّرونه ولا تنتظرونه، إذا أخبرتُكم أنَّ الإنسان الكامل الذي وجده محمد إقبال، فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية، والقوة، والحياة، والجمال، والكمال، هو **(المسلم)** لا أقل ولا أكثر.

إن هذا الجواب مفاجأةٌ للذين يحملون للمسلم صورة قائمة هزيلة، لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع، الذي قدّمه الشاعر للإنسان الكامل، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك، يرى في المسلم الضّالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية.

ولكنّه يعني ذلك المسلمَ المثاليَّ:

الذي يمتاز بين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية .

وبين عبّاد الرّجال والأموال ، والأصنام والملوك : بالتوحيد الخالص .

وبين عبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته .

وبين عبَّاد الشهوات والأهواء والمنافع ، بتجرّده من الشهوات ، وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة ، وقيم الأشياء الحقيرة .

وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده ، وإيثاره ، وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته .

ذلك المسلم **الحقّ** الذي مهما اختلفت الأوضاع ، وتطوّرت الحياةُ : لا يزالُ الحقيقةَ الثابتةَ التي لا تتغيّر ولا تتحوّل ، وأما ما عداه فزبدٌ يذهبُ جفاءً .

ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلُها ثابتٌ وفرعها في السماء ، أمّا ما عداه فشجرةٌ اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار .

يقول في بيت : **«إنّك أيها المسلم في العالم وحدك ، وما عداك سراب خادع ، ودرهم زائف»** .

ويقول في بيتٍ آخر : **«إنّ إيمانَ المسلمِ هو نقطةُ دائرةِ الحقّ ، وكلّ ما عداه في هذا العالم ماديّ ووهم ، وطلسم ومجاز»** .

* * *

الفصل العاشر

ثَبَت بأسماء مؤلفات الندوي حسب الموضوعات

يشتمل هذا الثَّبَتُ على مؤلفات الندوي باللغة العربية مرتبة حسب الموضوعات، من دون تكرار العناوين التي ضمت إلى المجموعات المختلفة، مع تسمية الرسائل والكتيبات التي تحتوي عليها هذه المجموعات في الهامش.

أ ـ الدراسات القرآنية:

١ ـ **تأملات في القرآن الكريم**، دار القلم، دمشق.

٢ ـ **الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)**، دار القلم، دمشق.

٣ ـ **المدخل إلى الدراسات القرآنية**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٥هـ.

ب ـ الدراسات الحديثية:

٤ ـ **الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وكتابه صحيح البخاري**، دار عرفات، راي بريلي، ١٤١٤هـ.

٥ ـ دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٠هـ.

٦ ـ الحديث والسنَّة ودورهما في الصيانة عن التحريف والانحراف.

٧ ـ المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٥هـ.

جـ ـ الدراسات الفقهية:

٨ ـ الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٣هـ.

د ـ السيرة النبوية:

٩ ـ جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية، دار الصحوة، القاهرة.

١٠ ـ دراسة السيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية، دار المختار الإسلامي، القاهرة.

١١ ـ السيرة النبوية، دار القلم، دمشق، ١٤٢٢هـ.

١٢ ـ سيرة خاتم النبيين (للأطفال)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٣ ـ الطريق إلى المدينة، دار القلم بدمشق.

١٤ ـ محمد رسول الله ﷺ الرسول الأعظم، وصاحب المنَّة الكبرى على

العالم، ومسؤولية العالم المتمدن المنصف الأدبية والخلقية نحوه، دار عرفات، راي بريلي.

١٥ ـ **النبي الخاتم**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٨هـ.

١٦ ـ **النبي الخاتم والدين الكامل**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٧هـ.

هـ ـ التاريخ والتراجم:

١٧ ـ **إذا هبت ريح الإيمان**، دار عرفات، راي بريلي، ١٤٠٩هـ.

١٨ ـ **أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٦هـ.

١٩ ـ **الإمام الذي لم يوفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف به (أحمد بن عرفان الشهيد)**، المجمع الإسلامي الهندي، لكنو.

٢٠ ـ **ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد**، مطبعة المنار بمصر، ١٣٥٠هـ.

٢١ ـ **الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته**، المركز العربي للكتاب، الشارقة.

٢٢ ـ **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، دار القلم دمشق، ١٤٢٣هـ.

٢٣ ـ شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، مطبعة دار الكتاب العربي.

٢٤ ـ شخصيات وكتب، دار القلم بدمشق.

٢٥ ـ صلاح الدين الأيوبي، البطل الناصر لدين الله، دار عرفات، راي بريلي، ١٤٠٩هـ.

٢٦ ـ في مسيرة الحياة (١ ـ ٣)، دار القلم، دمشق.

٢٧ ـ كيف دخل العرب التاريخ؟ المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٠هـ.

٢٨ ـ المرتضى (سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، دار القلم، دمشق.

٢٩ ـ المسلمون في الهند، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٠هـ.

٣٠ ـ المسلمون وقضية فلسطين، دار القلم، دمشق.

٣١ ـ من نفحات القرن الأول، مكتبة الإسلام، لكنو.

و ـ الفكر الإسلامي:

٣٢ ـ ارتباط مسير الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم ودورهم في تكوين وحدة وتوجيه الدعوة، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٣٣ ـ الأركان الأربعة، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ.

٣٤ـ **أريد أن أتحدث إلى الإخوان**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٣٥ـ **إزالة أسباب الخذلان أهم من إزالة آثار العدوان**، دار عرفات، راي بريلي.

٣٦ـ **الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٥هـ.

٣٧ـ **الإسلام فوق القوميات والعصبيات**، مكتبة الرأي، جدة.

٣٨ـ **الإسلام في عالم متغير ـ بحوث إسلامية قيمة** ـ دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٩ـ **الإسلام والحكم**، دار المختار الإسلامي، القاهرة.

٤٠ـ **أكبر خطر على العالم العربي**: المؤامرات والمخططات الدقيقة العميقة لقطع العرب عن الإسلام، دار عرفات، راي بريلي.

٤١ـ **الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل**، دار الصحوة، القاهرة.

٤٢ـ **أمريكة وأوروبة وإسرائيل** (كشف حقيقة صارخة وتنبيه على خطر داهم)، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٤٣ـ **الإنسانية تنتظركم أيها العرب**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٤٤ـ **أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها**، دار عرفات، راي بريلي.

٤٥ ـ **بين الإنسانية وأصدقائها**، ماليكاون، الهند.

٤٦ ـ **بين الدين والمدنية**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤٧ ـ **تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية**، دار عرفات، راي بريلي.

٤٨ ـ **تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا**، دار عرفات، راي بريلي.

٤٩ ـ **الحاجة إلى التركيز على جانب حاسم**، ندوة العلماء، لكنو.

٥٠ ـ **حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي**(١)، دار الصحوة، القاهرة.

٥١ ـ **الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف** كما يراه شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي، لكنو.

٥٢ ـ **دور الإسلام الإصلاحي في مجال العلوم الإنسانية**، دار الصحوة، القاهرة.

٥٣ ـ **رسالة التوحيد**، للعلامة الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الشهيد، نقله إلى العربية وعلق عليه أبو الحسن علي الحسني الندوي، مؤسسة الصحافة والنشر، لكنو، ١٤٢٠هـ.

---

(١) وهي مجموعة أربع محاضرات: (النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة)، و(مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل)، و(المجتمع الإسلامي المعاصر)، و(حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل).

٥٤ ـ **الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٥ ـ **عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٥٦ ـ **العرب يكتشفون أنفسهم**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٠هـ.

٥٧ ـ **الفتح للعرب المسلمين**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١٠هـ.

٥٨ ـ **القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٥٩ ـ **قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

٦٠ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** دار القلم، دمشق.

٦١ ـ **المسلمون ودورهم**، مكتبة الأمل، الكويت.

٦٢ ـ **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن**، دار القلم بدمشق.

٦٣ ـ **واقع العالم الإسلامي وما هو الطريق السديد لمواجهته وإصلاحه**، دار عرفات، راي بريلي.

٦٤ ـ وامعتصماه، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠١هـ.

٦٥ ـ وأذّن في الناس بالحج، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٠هـ.

ز ـ تصحيح المفاهيم:

٦٦ ـ أحاديث صريحة في أمريكة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٦٧ ـ الإسلام والمستشرقون، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٠هـ.

٦٨ ـ الإسلام والغرب، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٣هـ.

٦٩ ـ التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب، المجمع الإسلامي العلمي، راي بريلي.

٧٠ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار القلم، دمشق.

٧١ ـ صورتان متضادتان، دار القلم، دمشق.

٧٢ ـ العرب والإسلام[١]، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٠هـ.

---

(١) وهو مجموعة رسائله: (من العالم إلى جزيرة العرب)، و(من الجزيرة العربية إلى العالم)، و(اسمعي يا مصر)، و(اسمعي يا سورية)، و(اسمعي يا زهرة الصحراء)، و(اسمعوها مني صريحة أيها العرب)، و(إلى الراية المحمدية أيها=

٧٣ ـ **القادياني والقاديانية**، الدار السعودية للنشر، جدة.

٧٤ ـ **المسلمون تجاه الحضارة الغربية**، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة.

٧٥ ـ **موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

ح ـ التربية والتعليم:

٧٦ ـ **أهمية نظام التعليم والتربية في الأقطار الإسلامية وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها**، ندوة العلماء، لكنو.

٧٧ ـ **التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، دمشق.

٧٨ ـ **ترشيد الصحوة الإسلامية**، دار عرفات، راي بريلي.

٧٩ ـ **دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء، وتكوين الدعاة، وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٧هـ.

= العرب)، و(القومية في ميزان العلم والتاريخ وواجب العرب)، و(لا تحرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب)، و(أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟)، و(مصر جوهرها إسلامي إيماني محمدي مهما تراكمت عليه الأتربة).

٨٠ ـ **ربانية لا رهبانية**، دار القلم، دمشق.

٨١ ـ **سياسية التربية والتعليم السليمة**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٨٢ ـ **العقيدة والعبادة والسلوك**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٣هـ.

٨٣ ـ **كيف توجه المعارف في الأقطار الإسلامية**، ندوة العلماء، لكنو.

٨٤ ـ **كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب**(١)، المجمع

---

(١) وهو مجموعة رسائله: (حاجة البشرية وتوقها إلى حكومة تقوم على مبدأ الهداية والخدمة وأثرها في الحياة والأخلاق ومصير الإنسانية)، و(شخصية البلاد المقدسة الفريدة ووجوب الاحتفاظ بها)، و(تجربة التاريخ والأمم في إخفاق سياسة إطلاق العنان في الحرية والتمتع والتسلي والترفه)، و(الخط الأخير في جبهة الوجود الإسلامي ووجوب حراسته ودرء الأخطار عنه)، و(يجب أن ينسجم التخطيط مع المقاصد التي قام عليها المسجد الحرام، ويهيّأ الشعبُ ليمثّل دوره القيادي)، و(المعارف هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة، وتعطي المجتمع شكله النهائي)، و(ليكن أساس نظام التربية في المملكة أن الجزيرة العربية هي غرس محمد عليه الصلاة والسلام وثمرة دعوته وجهاده)، و(التخطيط المدني والتربوي اللائق بمركز الإسلام، وأثره في حياة الشعب ووضع البلاد)، و(صلة نظام التربية والتعليم بواقع المجتمع واتجاهاته وميوله)، و(ليست التربية إلا أداةً مؤثرةً وفيةً لترسيخ عقيدة الأمة، ونظرها إلى الحياة والكون في قلوب الناشئة)، و(مسؤولية أمراء العرب في أطراف الجزيرة والخليج العربي في المحافظة على سلامة البلاد ووحدتها الدينية)، =

الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤١١هـ.

ي ـ الدعوة:

٨٥ ـ **أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٨٦ ـ **الإسلام والحياة**، مكتبة الحياة، الكويت.

٨٧ ـ **إلى الإسلام من جديد**[1]، دار القلم، دمشق.

٨٨ ـ **إلى شاطئ النجاة**، ماليكاون، الهند.

٨٩ ـ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**، بومباي.

٩٠ ـ **حديث مع الغرب**، دار الإرشاد، بيروت.

٩١ ـ **حكمة الدعوة وصفة الدعاة**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٩هـ.

٩٢ ـ **خليج بين الإسلام والمسلمين**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

= و(كيف ينظر العالم إلى جزيرة العرب؟).

(١) وهو مجموعة رسائله: (إلى ممثلي البلاد الإسلامية)، و(معقل الإنسانية)، و(المد والجزر في تاريخ الإسلام)، و(بين الصورة والحقيقة)، و(ثورة في التفكير)، و(بين الجباية والهداية)، و(دعوتان متنافستان)، و(مصرع الجاهلية)، و(أزمة إيمان وأخلاق)، و(ردة ولا أبا بكر لها).

٩٣ ـ **خواطر وفصول**، مكتبة الإسلام، لكنو.

٩٤ ـ **دعوة وتاريخ**، ندوة العلماء، لكنو.

٩٥ ـ **الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر: جبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٨هـ.

٩٦ ـ **الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٦هـ.

٩٧ ـ **الدعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية، وصيانة الدين من التحريف**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

٩٨ ـ **الدعوة والدعاة، مسؤولية وتاريخ**، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٩٩ ـ **المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي**، ندوة العلماء، الهند.

١٠٠ ـ **منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو.

١٠١ ـ **نفحات الإيمان بين صنعاء وعَمَّان**، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، ١٤٠٤هـ.

ك ـ أدب الأطفال:

١٠٢ ـ **القراءة الراشدة (١ ـ ٣)**، مجلس نشريات الإسلام، كراتشي.

١٠٣ ـ **قصص من التاريخ الإسلامي**، المطبعة الندوية، ١٤١١هـ.

١٠٤ ـ **قصص النبيين** (١ ـ ٤)، مكتبة الندوة، لكنو.

ل ـ أدب الرحلات:

١٠٥ ـ **أسبوعان في المغرب الأقصى**، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب.

١٠٦ ـ **مذكرات سائح في الشرق العربي**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٧ ـ **من نهر كابل إلى نهر اليرموك**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

م ـ الأدب العربي:

١٠٨ ـ **رسائل الأعلام**، ندوة العلماء، لكنو، ١٤٠٥هـ.

١٠٩ ـ **روائع إقبال**، دار القلم، دمشق.

١١٠ ـ **روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة**، دار القلم، دمشق.

١١١ ـ **مختارات من أدب العرب** (١ ـ ٢)، مجلس نشريات الإسلام، كراتشي، ١٤١١هـ.

١١٢ ـ **نظرات في الأدب**، من منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، دار البشير، عمان.

* * *

الباب الخامس

قدوة صالحة، وداعية حكيم، ومربّ جليل

تمهيد

جمع الشيخ الندوي بين الفضائل ومظاهر النبوغ المختلفة، وإذا أردنا أن نعرف جِماعَ هذه الفضائل فلا كلمةَ أدل على ذلك من الداعية، فالشيخ الندوي داعية إسلامي، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وإذا استعرضنا نشاطاته وتنقلاته ورحلاته وأعماله، وتأليفه وجدناها تدور كلها حول الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ.

سافر إلى بومباي، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، لدعوة أكبر زعماء المنبوذين أمبيدكر إلى الإسلام، ثم استمرت رحلاته ورسالاته الدعوية في شبه القارة الهندية، بل وبين بلاد العرب وبلاد العجم، وفي الشرق والغرب، وبين المسلمين وغير المسلمين، وعرف الناس فضله في الدعوة إلى الله تعالى، واتفقت كلمة المسلمين على إمامته، وقيادته في سبيل الإصلاح والتجديد.

فما هي المواهب والصفات التي أهلته لمنصب الدعوة الجليل، والتي اعتبره بها علماء عصره قدوةً صالحةً؟

وما هي دعوته، وما هي أهداف دعوته؟ وما هي مناهجها ومصدرها؟

وما هي أصوله في التربية والتعليم؟

وما هو موقفه من الجماعات المختلفة العاملة في ساحة الدعوة والتربية الإسلامية؟.

سأتناول هذه الأسئلة في هذا الباب بالدراسة والبحث إن شاء الله تعالى:

الفصل الأول

القدوة الصالحة وأهم صفاتها

الشيخ الندوي قدوة صالحة، ومثالٌ أعلى لجيله المؤمن، وأعني بذلك صفاته الباطنة والظاهرة التي جاء الإسلام ليصبغ الناس بها، ولا يكون الداعي داعياً مؤمناً حتى يتحلّى بها، ولا تنفع دعوته حتى تكونَ هذه الصفات متجسدة فيه، وتشمل هذه الصفات: الإيمان القوي، والعقيدة السليمة، وطهارة النفس، والأخلاق الحسنة السامية، والتفنن في العلوم، والذوق الأصيل للأدب والشعر، وقوة العاطفة، وصفاء الروح، والسلامة من الجفاف الروحي والاستخفاف بالعاطفة، والحاجة إلى تزكية النفس والشحنة الإيمانية الروحية، الاستخفاف الذي أصبح شعار الكتاب والدعاة في عصره، فنرى الشيخ الندوي قبل أن يبرز على العالم بدعوته تحلّى بهذه الفضائل، وقام بتربية نفسه قبل أن يربّي غيره، وانتفع بدعوته قبل أن ينشرها بين العالمين.

يقول الشيخ القرضاوي في رسالة إليه: «ولقد لقيتكم بعد ذلك مرات ومرات في قطر وفي الهند، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وفي أمريكة وغيرها، فما وجدتُ الأيامَ زادتكم إلاّ ثباتاً في الأمر، وعزيمةً على الرشد، وإصراراً على الحق، ومضيّاً في طريق التجرد الذي سميتموه بحق (ربانية لا رهبانية)[1].

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨٠.

فهو القدوة الصالحة والنموذج الفريد للقادة الذين أخلصوا دينهم لله، ووهبوا حياتهم للجهاد في سبيله.

وها هي أهم صفات هذه القدوة الصالحة:

١ ـ الإيمان الراسخ والعقيدة السليمة:

كان الشيخ يحمل عقيدة سليمة صافية تعتمد على الكتاب والسنّة، ومنهج أهل السنَّة والجماعة، يقول الشيخ القرضاوي: وآتاه الله قبل ذلك العقيدة السليمة عقيدة أهل السنّة والجماعة، سليمة من الشركيات والقبوريات والأباطيل، التي انتشرت في الهند، وكان لها سوق نافقة، وجماعات مروّجة، تغدو بها وتروح، تأثروا بالهندوس ومعتقداتهم وأباطيلهم، كما هو الحال عند جماعة (البريلويين) الذين انتسبوا إلى التصوف اسماً ورسماً، والتصوُّفُ الحقُّ براء منهم، وقد حفلت عقائدهم بالخرافات، وعباداتهم بالمبتدعات، وأفكارهم بالترّهات، وأخلاقهم بالسلبيات. . . وأكدت ذلك مدرسة النبوة ـ ندوة العلماء ـ وأضافت إليها روحاً جديدة، وسلفية حية حقيقية، لا سلفية شكلية جدلية، كالتي نراها عند بعض من ينسبون إلى السلف، ويكادون يحصرون السلفية في اللحية الطويلة، الثوب القصير، وشنّ الحرب على أدنى تأويل في نصوص الصفات. . إنَّ العقيدة السلفية عند الشيخ هي: **توحيد خالص لله تعالى لا يشوبه شرك، ويقين عميق بالآخرة لا يعتريه شك، وإيمان جازم بالنبوة لا يداخِلُه تردد ولا وهم، وثقة مطلقة بالقرآن والسنّة، مصدرين**

للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك[1].

٢ ـ الإخلاص والتقوى:

كان الشيخ يؤكّد على الإخلاص وتصحيح النية في عامة أحواله، وإخلاصه العميق سرُّ نجاحه في هذه الحياة، فكان أزهد الناس في الثناء، وأبعدهم عن الرياء، فهو لله وحده، ما كان يرجو سواه، ولا يبغي إلا رضاه، ويبتعد عن السعي من أجل السمعة، ويكره الشهرة، ويقول وهو يوصي إخوانه بالإخلاص وتصحيح النية: «لا نعملُ عملاً إلاّ وأن نصحح النية فيه قبل أن نعمله، ونستحضر ما ورد فيه من فضائل ووعود من الله فنقوم به إيماناً واحتساباً، بدل أن نعمله عادةً أو كرغبة نفسية أو ضرورة طبعية حتى الرزق الحلال، ووسائل الكسب والمعيشة ـ من وظيفة أو تجارة، أو فلاحة أو مهن وصنائع، وهو مفهوم الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حدّ الاستفاضة والشهرة، والذي افتتح به الإمام البخاري كتابه العظيم (صحيح البخاري) وهو حديث «إنَّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنّما لكلِّ امريٍَ ما نوى» وهو أحدُ الأحاديث التي يدور عليها الدين، وقد روي عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: هذا الحديثُ ثلثُ العلمِ، ويدخلُ في سبعينَ باباً من الفقه»[2].

ويقول الشيخ القرضاوي في ثنائه على الشيخ: «كل هذا مع تواضع جمّ، وورع بالغ، وأدب فارع، وإخلاص نادر، وحرص على البناء لا الهدم، وعلى

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٧٨.

(٢) العقيدة والعبادة والسلوك، ص٢١٤.

البذل لا الغنيمة، وعلى العمل الصامت بعيدٍ عن الأضواء، وبريقِ الأسـماء والألقاب في عصر قصم فيه الظهورَ حبُّ الظهورِ، وتعبّدَ الناس فيه للمناصب والعناوين»[1].

كما كان تقوى الله شعاره في ظاهره وباطنه، وكان يوصي إخوانه دائماً بالتقوى، سأله الأستاذ خالد الدادسي بن الحبيب أن يوصيه والشباب المسلم، فقال: «تقوى الله في السر والعلن» «اتق الله حيثما كنت» و«قل ربي الله ثم استقم»[2].

وكان من فضل هذا الإخلاص لله تعالى، وتقـواه أن جعلـه الله طاهـرَ القلب، زكيَّ النفس طاهراً، يقول العالم الرباني المربي الصالح الذي لم تر العيون مثله الشيخ وصي الله الفتحفوري: «رأيتُ الناس، فما رأيتُ أحداً أزكى من أبي الحسن علي قلباً»[3]، وقال في كتابه إليه: «لعل قلبي لم يسكن إلى أحدٍ ممن يزورني سكونه إليكم»[4].

٣ ـ الصبر والتوكل والزهد:

وكان الشيخ صبوراً على الأذى، محتسباً الأجر من الله، عالماً بأن الناس

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨١.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص١٧١.
(٣) أكابر ومشاهير امت كي نظر مين، ص٢١٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٢٠.

لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يرد الله أن يضروه به لم يستطيعوا، يقول شيخنا الأستاذ محمد الرابع الحسني: «(من ميزاته) الصبرُ على أذى الناس، واحتماله بطلاقة الوجه، وعدم انتقامه من المسيئ إليه، ومعاملته معه رغم ذلك بإسداء الخير ومكارم الأخلاق»(١).

وكان متوكلاً على الله لا يخاف غير الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، كما أنه لم يطلب أجراً مقابل الدعوة إلا من الله تعالى تأسياً برسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وقال لي شيخنا الأستاذ محمد نمر الخطيب حفظه الله تعالى، وقد جرى ذكر الشيخ الندوي: «اللهم ارحمه رحمةً واسعةً، لمّا جاء إلى الشام كان متوكلاً على الله، ما عنده شيء، كانت بضاعته التوكل، كان طريقه كلها التوكل على الله».

وكان من نوادر الرجال الذين آثروا ما عند الله على ما عند الناس، وخرجوا من الدنيا الفانية وليس لهم من متاعها إلا الجهاد والمجاهدة والصبر والمصابرة، فكان الدرةَ اليتيمةَ في جبين الدعوة الإسلامية المعاصرة، وكان زهدُه زهداً إسلامياً ناشئاً عن معرفته الصحيحة للدنيا وأسبابها ومتاعها، يقول هو نفسه: «لا ينبعثُ الدافعُ الصحيحُ الخالِصُ للزهد في الدنيا وازدرائها ما لم تُكْشَفْ حقيقةُ الدنيا بوضوح، وما لم يطرأ على المرء حال ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]،

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص١٤٨.

وذلك لا يتحقق بدون اليقين والمعرفة الصحيحة والاتصال بالله»[1].

وكان يرى الزهدَ شرطاً أساسياً لنجاح الدعوة، يقول: «الدعوة تحتاجُ إلى شيء من سمو النفس، وعلو الهمة، والتجرد عن المطامع، والزهادة في المناصب، والوظائف الكبيرة، إنّ من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنّكم تنافسونهم في ملكهم وفيما وسّعَ الله به عليهم، فإنّهم يشكّون في إخلاصكم، ويكونون حرباً عليكم، فأوضِحوا لهم أنكم لستم طلاب ملكٍ ولا منتجعي جاهٍ ومنصبٍ، ولا روّاد ثروةٍ ورخاءٍ أو مدفوعين من شح وحرص»[2].

وقصص زهده متواترة مستفيضة، بل إنّ حياته كلّها عبارة عن الزهد، يقول الشيخ **يوسف القرضاوي**: «والحقيقة أني لم أر في عصرنا مثله في زهده في الدنيا، وتقلله من متاعها، ورفضه لزخارفها، واستعلائه على مغرياتها، وقد كان يمكنه أن يعيشَ مرفّهاً بحكم منزلته في قومه وفي العالم، وقد عاش فترة من عمره في قصر الأمير نور الدين ابن الأمير السلفي صديق حسن خان ملك بهوبال المشهور، وهُيئت له وسائلُ التنعم والرفاهية، وكان باستطاعته أن يستمرّ في هذا اللون من العيش الرغيد، والحياة المريحة لو أراد، واتجهت إليه نيته، ولكنّه كان يريدُ لنفسه حياةً غير هذه الحياة، إنها حياة أرباب القلوب من الربانيين الذين يعيشون في الدنيا ولا تعيش الدنيا فيهم، ويملكون الدنيا ولا تملكهم، كأنما جاء من العصر الأول إلى هذا العصر، ليمثّل إبراهيم بن أدهم،

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص٣٩ـ٤٠.

(٢) حكمة الدعوة وصفة الدعاة، ص٢٧.

أو الفضيل بن عياض، أو الجنيد بن محمد، الذين يحيون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويمشون فوق الأرض، وبصائرهم ترنو إلى السماء، ولهذا أبى الشيخ رحمة الله عليه إلا أن يعيش عيشة هؤلاء السلف الزاهدين، والأئمة الصالحين، فكأنما هو قبس من نور جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، التي أتته الدنيا، فقال لها: «إليك عني، غُرّي غيري، قد باينتك ثلاثاً لا رجعةَ فيها، آه من قلةِ الزاد وبُعْدِ السفر ووحشة الطريق».

لقد كان يرفض المكافآت التي تعطى لأمثاله في مقابلة جهود يقوم بها وهي مشروعة، ويقبلها غيره من العلماء، ولكنّه آلى على نفسه أن يقدّم ما عنده من علم وجهد لله تعالى، لا لعرض من الدنيا.

حدّثني الإخوة السوريون أنه عندما دُعِيَ إلى سورية أستاذاً زائراً لجامعة دمشق، ولكلية الشريعة فيها خاصة، في عهد عميدها الداعية الفقيه المربي الدكتور مصطفى السباعي، ألقى عدداً من المحاضرات الأصيلة العميقة، تعب عليها، وبذل جهداً لا يُنكَر في إعدادها، وكان لها تأثير عميق، ووقعٌ مشهودٌ بين الأساتذة والطلاب، وكان موضوعها (**التجديد والمجددون في تاريخ الإسلام**) وهي التي ظهرت بعد ذلك تحت عنوان (**رجال الفكر والدعوة في الإسلام**).

وعلى عادة الجامعة صرفت له مكافأة، كما تصرِفُ لكل الأساتذة الزائرين، وهنا كانت المفاجأة، فقد رفض الشيخ أن يأخذَ مكافأة على محاضراته، ووقع الإداريون والماليون في جامعة دمشق في حَيْص بَيْص، كما

يقولون، فقد صرف المبلغ من بنده في ميزانية الجامعة، ولا سبيلَ إلى إعادته، ولم يجدوا حلاً إلا أن يتبرع به للطلاب الفقراء.

وذكر الأستاذ محمد المجذوب ـ رحمه الله ـ في ترجمة الشيخ في كتابه (**علماء ومفكرون عرفتهم**) أنَّه لا يذيعُ مجهولاً إذا قال: إنَّ الشيخ رفضَ أن يأخذَ من رابطة العالم الإسلامي ما تدفعه من مكافآت لأعضاء المجلس التأسيسي عن حضورهم جلساته كل عام»[1].

ويقول الشيخ القرضاوي في رسالة له إلى الشيخ الندوي: «ولا زلتُ أذكر تلك الحارة أو ذلك الزقاق الضيق المتفرع في حي الأزهر، وتلك الحجرة المتواضعة التي نزلتم فيها مع مَنْ رافقكم من إخوانكم، تعيشون فيها عيشة الخشونة والزهد، رافضين ما أراد الكثيرون أن يكرموكم به من النزول في أحد الفنادق الفاخرة أو المريحة على الأقل، وأبيتم إلا أن تعيشوا عيشة طلبة العلم الفقراء»[2].

ويقول الأستاذ **عبد القدوس أبو صالح**: «ولقد كان الشيخ الندوي من العلماء الذين تطابِقُ أفعالهم أقوالهم، ويشهد ظاهرهم على طهارة دخائلهم، وكان من الزهاد الصادقين الذين لا يتكلّفون الزهدَ، ولا يصطنعون التعفف، ولقد كان يؤثر في أسفاره أن ينزل في بيوت محبيه الفقراء على أن يقيمَ في

(١) علماء ومفكرون عرفتهم: ١/ ١٤٣ بشيء من التصرف.
(٢) رسائل الأعلام، ص٨٠.

الفنادق الفخمة، وأمّا بيته الذي زرته فيه فقد كان ما فيه من متاع لا يكاد يساوي شيئاً إذا عرض للبيع، وكان سريرُه الذي ينام فيه سريراً متواضعاً، ولعله يُسمى سريراً على سبيل المجاز، وكنت أنظر إلى صحون الطعام في إفطاره وغدائه وعشائه فيخيل إلي أنها لا تكاد تشبع الرجل الواحد، ولكنه كان يأكل منها مع أصحابه وإخوانه فتكفيهم ببركة الدعاء والرضا بما يقيم الأَوَدَ من اللقيمات»[1].

ويذكر الشيخ **يوسف القرضاوي** في ذكر زهد الشيخ أنه رفض النزول ضيفاً على بعض الكبراء من الأغنياء والموسرين في منازلهم الفاخرة، لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلا يكون أسيراً لإحسانهم، ولأن القصور والبيوت الناعمة لا توافق ذوقه وسلوكه[2].

ويذكر **القرضاوي** أنّ الندوي عندما زار قطر منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وكان يشكو قلة موارد (دار العلوم) بندوة العلماء، واقترحَ عليه بعض المشايخ أن يزوروا معاً بعض الأثرياء وكبار التجار ليشرحوا لهم ظروف الدار، ويطلبوا منهم بعض العون لها، قال: لا أستطيعُ أن أفعلَ ذلك. ويقول الدكتور القرضاوي سألناه: لماذا؟ قال: إنّ هؤلاء القوم مرضى، ومرضهم حبُّ الدنيا ونحن أطباؤهم، فكيف يستطيعُ الطبيبُ أن يداوي مريضه إذا مدَّ يده إليه يطلب

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص١٧.

(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٧.

عونه؟ يطلب منه شيئاً من الدنيا التي يداويه منها؟ قلنا له: أنت لا تطلب لنفسك، أنتَ تطلب للدار ومعلميها وتلاميذها حتى تستمرّ وتبقى. قال: هؤلاء لا يفرّقون بين ما تطلبه لنفسك، وما تطلبه لغيرك، ما دمتَ أنتَ الطالب وأنتَ الآخذ. وكنا في رمضان ـ والكلام للقرضاوي ـ وقلنا له حينذاك: ابق معنا إلى العشر الأواخر، ونحن نقوم عنك بمهمة الطلب، فقال: إنّ لي برنامجاً في العشر الأواخر لا أحبُّ أن أنقضَه أو أتخلّى عنه لأي سبب، إنها فرصة لأخلو بنفسي وربي. وعرفنا أنَّ للرجل حالاً مع الله لا تشغله عنها الشواغل، فتركناه لما أراد، محاولين أن نقلّده فلم نستطعْ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له».

٤ ـ السخاء والإيثار:

كان الشيخ مجبولاً على السخاء والإيثار، وهو من الصفات الأساسية لأنبياء الله والعلماء الربانيين والدعاة المصلحين، يقول: «وممّا يتَّصف به رجال الله، والعاملون بالسنَّة النبوية بصفة خاصة هو السخاء والإيثار، وقد بسط الحافظ ابن القيم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه (**زاد المعاد**) وذكر ما للإحسان إلى الخلق ونفعهم بالمال والجاه والبدن من التأثير العميق في انشراح الصدر وطيب النفس، ونعيم القلب»[1].

وقد رأينا مشاهدَ كثيرة من بذله المال بسخاء وإيثاره، ومن ذلك معاملته من عارضه أو خالفه معاملة حسنة برحابة صدر، يقول: «ومن مواقف الإيثار المحرجة أن يعامِلَ المرءُ أعداءه ومعارضيه برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم،

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص٤١.

والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء والنصح، وهذا منصبٌ خطيرٌ لا يناله إلا من تجاوز حدود الكبر والأنانية، ونسي نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كلُّ عداء ومعارضة، فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه»[1]، ويقول: «إنَّ مكانة العفو والإحسان، والشفقة والرحمة مع الأعداء أرفع وأسمى من مكانة الإيثار المالي والمادي بكثير، إنها مكانة لا يسعدُ بها إلا الأولياء والصديقون»[2].

٥ ـ العفة والتواضع:

اتّصف الشيخ بحب العلماء وتقدير جهودهم، فكان يزورهم ويكتب عنهم في كتبه موضحاً مكانتهم العلمية وخدمتهم للإسلام، عفيف اللسان، نظيف القلب من الحسد، بعيداً عن الطعن والتجريح، لكنّه واضح في الردِّ بالحجَّة من القرآن والسنَّة مع الأدب في طريقة الحديث والحوار.

يقول الشيخ القرضاوي: «كان عفَّ اللسان والقلم، لم أسمعه يجرح أحداً بكلمة، أو يتحدّث عن أحدٍ بسوء، متمثلاً الحكمة القائلة: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. ولكن هذا لا يمنعه من نقد الأفكار والاتجاهات التي يرى أنها تجاوزت الصواب، كما رأيناه ينتقد العلامة المودودي، والشهيد سيد قطب، رحمهما الله ـ على فضلهما ومنزلتهما عنده ـ بيد أنّه نقدُ العالم العادل، لا نقدُ الحاقد المتحامل.. لقد نقد الأفراد، ونقد الجماعات، ونقد

---

(١) المصدر السابق، ص٤٢ ـ ٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص٤٤.

الاتجاهات، ونقد الحكومات، ولكن بـأدب جمّ، وعبـارة رقيقـة، وبلغـة المحب المشفق، والناصح الأمين، لا بلغة المتعالي على الآخرين، أو الحاقد عليهم، أو المتربص بهم»[1].

وكان إنساناً متواضعـاً، لا يحـب المظاهر الكاذبـة، يتخفف في ثيـابه وطعامه وفراشه، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة، يقول: «إنَّ التواضع وإنكار الذات من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين، أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة إلا أن تموت الأنانيةُ، ويتزكّى قلبه من جميع الشوائب والعلائق»[2]، ويقول: «وإذا بلغ الإنسانُ إلى هذه المنزلة من العبودية، وإنكار الذات، لا يرى له حقاً على أحد، ولا يطالبه بشيء، ولا يعاتب أحداً، ولا ينتقم لنفسه في أي حال»[3].

يقول الدكتور جابر قميحة في مقاله (في مسيرة الحياة: الأبعاد والمنهج): «وعاش أبو الحسن ـ طيلة حياته ـ متواضعاً، لـم يعرف الكِبْر والتعالي والغرور إلى حياته وشخصيته سـبيلاً، حتى بعـد اشـتهاره على المستويـات العربيـة والإسلامية والعالمية»[4].

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٠ ـ ١٣.
(٢) ربانية لا رهبانية، ص٤٤ ـ ٤٥.
(٣) المصدر السابق، ص٤٥.
(٤) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص٨٥.

٦ ـ الخُلق الكريم:

وآتاه الله الخلقَ الكريمَ والسلوكَ القويمَ، فعرف بدماثة خلقه، وتواضعه وبساطته، وابتسامته الرقيقة، وحنوه، وقد أثنى الله على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وأعلن الرسول الكريم ﷺ عن غاية رسالته، فقال: «إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ»، ومن عاشر الشيخ ـ ولو قليلاً ـ لمسَ فيه هذا الخلق الرضيَّ، ووجده مثالاً مجسداً لما يدعو إليه، فسلوكه مرآةٌ لدعوته، وهو رجلٌ باطنُه كظاهرِه، وسريرتُه كعلانيتِه، وترك آثاراً طيبةً لدى كل مَنْ عرفه أو اتصل به لما يتمتع به من صفاء النفس، ونقاءِ السريرة، وطيب الكلام، وحلو الحديث، وجمال العرض، وحسن الحوار والمجادلة، وكان يتميَّزُ ببديهة حاضرة وديباجة مشرقة تأخذُ بمجامع القلوب.

وكان يوصي بالصبر والثبات والحلم والأناة، واحتساب الأجر والثواب عند الله تعالى، وما عرفت القسوةَ يوماً سبيلها إلى خلقه، ولا الحرص في الانتصار على أحد، لم يسئَ إلى أحدٍ قطُّ بكلمةٍ نابيةٍ، ومن هنا نرى أنه لم يقابله أحد إلا حمل في نفسه الإكبار والتقدير والحب له، ولم يكن متكلِّفاً، ولا متعالماً متحذلقاً، بل الأدب الرفيع والأسلوب الراقي كان سمة بارزة لأحواله وأفعاله وأخلاقه وعلاقاته مع الأفراد والجماعات والرؤساء والقادة وجماهير الناس دون تفريق بين كبير أو صغير، أو غني أو فقير.

٧ ـ القلب الحي:

من أهم مزايا الشيخ أنَّ الله وهبه قلباً حياً، وحسّاً مرهفاً، وعاطفة

شاعرة، لا أعرفُ أنه قال شعراً قط، ولكنّه يشبه الشعراءَ في رهافة الحس وقوة العاطفة، وتحفلُ كتاباته وخطاباته بالتخيّلات الشعرية التي رفعت من شأنها، والتي استعملها في دعوته استعمالاً جميلاً.

يقول الشيخ القرضاوي: «وآتاه الله القلبَ الحي، والعاطفةَ الجياشة بالحب لله العظيم، ولرسوله الكريم ﷺ، ولدينه القويم، فهو يحمل بين جنبيه نبعاً لا يغيضُ، وشعلة لا تخبو، وجمرةً لا تتحوّل إلى رماد، ولا بدّ للداعية إلى الله أن يحمل مثل هذا القلب الحي، ومثل هذه العاطفة الدافقة بالحب والحنان والدفء والحرارة، يفيضُ منها على مَنْ حوله، فيحرّكهم مِنْ سكون، ويوقظهم من سبات، ويحييهم من موات، وكلامُ أصحاب القلوب الحيّةِ له تأثيرٌ عظيم في سامعيه وقارئيه، فإنَّ الكلامَ إذا خرج من القلب دخل إلى القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان، ولهذا كان تأثيرُ الحسن البصري في كل من يشهد درسَه وحلقته، على خلاف حلقات الآخرين، ولهذا قيل: ليست النائحةُ كالثكلى!.

هذا القلب الحي يعيش مع الله في حب وشوق، راجياً خائفاً، راغباً راهباً، يحذَرُ الآخرةَ، ويرجو رحمةَ ربه، كما يعيشُ في هموم الأمة على اتساعها، ويحيا في آلامها وآمالها، لا يشغله هم عن هم، ولا بلد عن آخر، ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى، وهذه العاطفةُ هي التي جعلته يتغنَّى كثيراً بشعر إقبال، ويحسّ كأنه شعره هو، كأنه منشئه وليس راويه، وكذلك شعر جلال الدين الرومي، وخصوصاً شعر الحب الإلهي، كما جعلته يولي عناية خاصة لأصحاب القلوب الحية، مثل: الحسن البصري، والغزالي،

والجيلاني، وابن تيمية، والسرهندي، وغيرهم»[1].

٨ ـ تفانيه في خدمة الإسلام:

ومثابرته على النضال في سبيل خدمة الإسلام مضربُ الأمثال، والدفاعُ عن حقوق المسلمين في الهند معروفٌ، وكان يرى هذا التفاني الشرطَ الأول في سبيل الدعوة.

يقول وهو يوصي الدعاة: «أن تملكَ الفكرةُ وتهيمنَ على مشاعرَ الداعي، وأن تجري منه مجرى الروح والدم، وأن تمتزجَ بنفسِه، هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفّق الملهم المؤيد من الله الذي سيكتب له النصر، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل، فالشرط الأول أن **لا تكون الدعوةُ صناعةً أو حرفةً أو فنّاً، وأن لا تكون حذلقة ومجرد براعةٍ في الخطابة، بل تكونَ عقيدة وفكرة، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية، ويملأ جميعَ جوانب النفس**، حتى إذا أرادَ الإنسان أن يتخلّى عنها لم يستطع ولم يقدر»[2].

يقول الدكتور **عبد القدوس أبو صالح**: كان لي مع سماحة الشيخ الندوي ـ رحمه الله ـ موقفٌ جعلني أوقف حياتي للأدب الإسلامي ورابطته العالمية، فقد عقدت الرابطةُ مؤتمرَ الهيئة العامة الثالث في مدينة (إستانبول)، وكنتُ لاقيت صعوبةً بالغة في إرضاء بعض أعضاء الرابطة، فرجوتُ من الشيخ

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٧٦.

(٢) حكمة الدعوة وصفة الدعاة، ص٢٥.

الندوي أن أنفرد به في لقاء خاص، أُطلعه فيه على ما أعانيه في رئاستي لمكتب البلاد العربية نائباً له، ورجوته أن يقبلَ استقالتي، ولكنّ الشيخ الذي يُعْرَفُ بهدوئه ورحابة صدره انتفض غاضباً، وقال لي: «. . . لو أنكَ زرتني في منزلي لرأيتني أستعين بعجلة المعوقين لأنتقل من منزلي إلى المسجد القريب الذي لا يبعد أكثر من خمسين متراً، وقد قطعتُ من بلدي إلى (إستانبول) مئات الكيلومترات ثقةً بك وبإخوانك. . والله لا تستقيل. . لا تستقيل. . أمّا ما تعانيه في رئاستك لمكتب البلاد العربية من المشكلات فسدّد بها وقارب، وهكذا لم أجد بدّاً أمام غضبة الشيخ، وأمام ثقته الغالية، إلا أن أعاهده على ألا أتركَ العمل في الرابطة حتى ألقى وجه الله، الذي أرجو أن يسدِّدَ خطاي، وأن يتقبّلَ ما أقومُ به خالصاً لوجهه الكريم، وهو ولي التوفيق والعالم بما في القلوب.

٩ ـ الحرص على العلم:

ومن صفاته طلب العلم والمعرفة أينما كان، يقول الأستاذ **أحمد الشرباصي** في ترجمة الشيخ الندوي: «وأخي المفضال أبو الحسن له غرامٌ أصيلٌ باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها، وأعزُّ ما كان يحرِصُ عليه من عَرَضِ الحياة هو الكتب، وأغلى ما يُهْدَى إليه كتابٌ يرضيه ويغذيه، ولا يقتني أبو الحسن الكتب ليزيّنَ بها داره، بل ليهضمها قراءةً وبحثاً ونقداً، وكتاباته المختلفة فيها دلائلُ واضحةٌ على ذلك، وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات ـ بجوار الهبة والتجربة ـ قدرة على الارتجال بالعربية، فهو يتدفّقُ كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل، وأغلبُ محاضراته يستعدُّ لها، وكثيراً ما يكتبها، وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملتهب، ومع ذلك إذا

طرق بابَ البحثِ أجادَ وأفادَ وأمتعَ أيضاً، وهو كما عرفتُ عنه وكما حدّثني مراراً لا يحبُّ أن يهجمَ على الحديث في موضوع ذي بال إلا إذا احتفل به وتهيأ له، وليس ذلك عن قلة بضاعة، ولكنه احتراسُ العالم الذي يريدُ أن يستيقينَ ويتثبّتَ»[(١)].

١٠ ـ الثقافة الواسعة:

وكان الشيخ مثالاً متميزاً للعالم المسلم، الداعية المجدد، جامعاً بين معارف العلماء العاملين وثقافة المعاصرين، متمكناً من ينابيع القرآن والسنّة المطهرة علماً وفهماً، وتذوقاً وعملاً، حتى ارتوى وروى، متضلّعاً من الأدب العربي والفارسي، ممتلئاً من كنوز التراث الإسلامي الغني، ومنفتح الفكر على الثقافات العالمية الأخرى، وواضح المتابعة للبحوث العلمية الغربية، يقرأ ما تيسّر له، أو دعته حاجته إليه، آخذاً منه ما صفا، وتاركاً ما كدر، ممثلاً خير تمثيل شعارَ الندوةِ المباركة (**الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الإيمان الراسخ والعلم الواسع**).

يقول الدكتور **يوسف القرضاوي**: «وآتاه الله الثقافة التي هي زاد الداعية الضروري في إبلاغ رسالته، وسلاحه الأساسي في مواجهة خصومه، وقد تزوّد الشيخ بأنواع الثقافة الستة التي ذكرتها في كتابي (**ثقافة الداعية** وهي: **الثقافة الدينية، واللغوية، والتاريخية، والإنسانية، والعلمية، والواقعية**، بل إنّ له

---

(١) من تقديمه لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، ص٢١.

قدماً راسخة، وتبريزاً واضحاً في بعض هذه الثقافات، مثل الثقافة التاريخية، كما برز ذلك في أول كتابٍ دخلَ به ميدان التصنيف، وهو الكتابُ الذي كان رسولَه الأول إلى العالم العربي قبل أن يزوره ويتعرّفَ عليه، وهو كتاب (**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**) الذي نفعَ الله به الكثيرينَ من الكبار والصغار، ولم يكد يوجد داعيةٌ إلا واستفاد منه.

وكما تجلّى ذلك في كتابه الرائع التالي: (**رجال الفكر والدعوة في الإسلام**) في جزئه الأول، ثم ما ألحق به من أجزاء عن **شيخ الإسلام ابن تيمية**، وعن **الإمام السرهندي**: **والإمام الدهلوي**، ثم عن **أمير المؤمنين علي (المرتضى)** ـ رضي الله عنه ـ. وقد ساعده على ذلك: تكوينُه العلمي المتين، الذي جمع بين القديم والحديث، ومعرفته باللغة الإنكليزية إلى جوار العربية والأوردية والهندية والفارسية، ونشأته في بيئة علمية أصيلة، خاصة وعامة، فوالده العلامة **عبد الحي الحسني** صاحب موسوعة (**نزهة الخواطر**) في تراجم رجال الهند وعلمائها، **ووالدته** التي كانت من النساء الفُضليات المتميزات كانت تحفظ القرآن، وتنشئ الشعر، وتكتب وتؤلف، ولها بعض المؤلفات، ومجموع شعري. كما نشأ في رحاب (**ندوة العلماء**) ودار علومها، **التي كانت جسراً بين التراث الغابر، والواقع الحاضر، والتي أخذت من القديم أنفعه، ومن الجديد أصلحه، ووفقت بين العقل والنقل، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والإيمان، وبين الثبات والتطور، وبين الأصالة والمعاصرة**»[1].

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٧٣ ـ ٧٤.

خلاصة مواهبه وصفاته:

وخلاصة مواهبه وصفاته أنه إمام رباني إسلامي، قرآني محمدي، وبهذا وصفه الشيخ **يوسف القرضاوي**، حيث يقول: الندوي.. الإمام الرباني الإسلامي القرآني المحمدي.

● أما أنه (**رباني**) فلأنَّ السلف أجمعوا على أنَّ الرباني هو الذي يعلَمُ ويعملُ ويعلّمْ.

فمن **علِمَ ولم يعمل بما علِمَ** فليس برباني، وعلمُه حجةٌ عليه، وهو من العلم الذي لا ينفعُ، وهو مما استعاذ منه الرسول ﷺ: «اللهم إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ..».

ومَنْ عَلِمَ وعَمِلَ، ولكنّه لم يعلّمْ غيرَه، ولم يدعُ الآخرين، فليس برباني، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

ومن علم وعمل وعلّم فذلك هو الرباني، الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماء ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

وكلمة (الربانية) هي الكلمةُ التي اختارها الشيخ أبو الحسن ليعبّرَ بها عن (التزكية) التي عُني بها القرآن الكريم، وجعلها شعبةً أساسيةً من مهمة الرسول ﷺ، وعن مقام الإحسان الذي بيّنه الرسول الكريم بقوله: «أَنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ

تـراهُ، فـإنْ لَمْ تَكُنْ تراهُ فإنه يراك»، وذلك في كتابه القيِّم المعبِّر (**ربانية لا رهبانية**) يريدُ به السلوكَ الخالص لوجه الله، السالم من البدع ومن المبالغات في الاعتقاد أو السلوك.

● وأما أنه (**إسلامي**) فلأن الإسلام لحمته وسداه، ومبتدؤه ومنتهاه، وأدناه وأقصاه، إليه يسعى، وعليه يدور، وله يعمل، وبه يعتصم، ومنه يستمد، وعنه يصدر، وفيه يحبّ ويبغض، ومن أجله يكتبُ ويصنّف، ويدرّس ويحاضر، ويسافر ويقيم، ويصل ويقطع، فهو شغله في نهاره، وحلمه في ليله، وزاده في سفره، وأنيسه في إقامته، فهو بالإسلام وللإسلام، ومن الإسلام وإلى الإسلام.

إنّ الذي يشغل عقله وقلبه ووقته باستمرار هو الإسلام: رسالته وحضارته، وانبعاثه وصحوته، وقضايا أمته، وهجمة أعدائه، وأعظمُ ما يهمّه هو تقوية الجبهة الداخلية في مواجهة الغزوة الخارجية، هو تربية الفرد، لأنه اللبنة الأساسية في بناء الجماعة، هو تغيير ما بالنفس حتى يغيّر اللهُ ما بالأمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

● وأما أنه (قرآني) فلأنَّ القرآنَ هو مصدره الأول، منه يستمد، وعليه يعتمد، وبه يأنس، يتعبد بتلاوته، ويتلذّذُ بقراءته، ويعيش في رحابه، متجاوباً مع آياته، متدبّراً لمعانيه، يستخرجُ منه اللآلئ والجواهر، يعرضها في محاضراته وكتبه ورسائله، بعقل متفكر، وقلب متأثر. يشهدُ بذلك كلّه من استمع إليه محاضراً، أو قرأ كتبه الكبيرة أو الصغيرة، فهو رجل القرآن حقاً.

● وأما أنه (**محمدي**) فلا أعني مجرّدَ أنه من نسل الرسول ﷺ ومن السلالة الهاشمية الحسنية، فكم من حسنيين وحُسينيين تناقِضُ أعمالهم أنسابهم «وَمَنْ بطّأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ» وإنّما أعني أنّه رجلٌ جعل الرسول الكريم ﷺ أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراساً له، في تعبّده وزهده، وإعراضه عن زخارف الحياة، وزينة الدنيا، فهو يعيش في الخَلَفِ عيشةَ السّلَفِ، لا يهتم بما يهتم به أمثالُنا من متاع وتملك ورياض وزينة، تحسبُه إذا رأيتَه سلمانَ الفارسي أو أبا الدرداء.

وحديثُه عن الحبيب المصطفى ﷺ ليس محضَ حديثٍ باحثٍ دارسٍ، بل حديثَ محبٍّ عاشقٍ، معجب بهذه الشخصية الضخمة الفريدة، شخصية محمد بن عبد الله ﷺ وليس هذا في كتابه القيم **السيرة النبوية**) فقط، بل في سائر كتاباته ومحاضراته وأحاديثه المعبرة عن هذا الإعجاب، وهذا الحب، وهذا التأسي. وهي ـ كلها ـ نابعةٌ من فهمه لهذه الحياة النبوية الشامخة، وهضمه لهذه السيرة الجامعة، وتذوقه لما فيها من معاني الكمالات التي فرقها الله تعالى في البشر، وجمعها في مصطفاه محمد ﷺ[1].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص١٠ ـ ١٢.

الفصل الثاني

داعية حكيم

أهداف دعوته، ومصادرها، ومنهجه في الدعوة

أمر الله نبيَّه محمَّداً في غير ما آية من كتابه بالدعوة، كما أمر هذه الأمة المحمدية بالدعوة إلى الله، وأخبر تعالى أنَّ فضلَ هذه الأمة على الأمم السابقة إنَّما هو بسبب أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وذمَّ بني إسرائيل لعدم تناهيهم عن المنكر، وأخبر عن نفسه أنَّه يدعو إلى الحق، وأن له دعوة الحق، وأنه يدعو إلى دار السلام، وأمر النَّبيُّ ﷺ أصحابه أن يبلِّغوا عنه ولو آية، كما أمرهم أن يبلِّغَ الشاهدُ منهم الغائبَ، وأجمعت الأمةُ على وجوبها، قال تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى معلِّماً ومخبراً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] وقال تعالى آمراً هذه الأمة

بالدعوة إلى الله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى ـ ذاماً لبني إسرائيل ـ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

وأخرج البخاري في (صحيحه) بسنده إلى أبي بكرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في حجّة الوداع يوم النحر: «أيُّ يومٍ هذا؟» إلى أن قال: «ليبلّغَ الشاهدُ الغائبَ» فإنَّ الشاهدَ عسى أنْ يبلِّغَ مَنْ هوَ أوعى مِنْهُ».

وقال: «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ، ومن كذبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النَّارِ».

وحياة الشيخ الندوي كلُّها عبارةٌ عن أداء هذا الواجب الجليل، والقيام بمسؤولية الدعوة بين الخاصة والعامة، وفي البأساء والضراء، وأمام الملوك والرؤساء، وبأسلوب مؤثر وبنصح رقيق، وكان يتصدَّرُ الصفوفَ في عزيمة كتصديه لقوانين الأحوال الشخصية عندما أرادت الحكومة الهندية أن تفرضَ على المسلمينَ فيها ما يخالف دينهم، ولم يقتصر نشاطه على القارة الهندية، بل امتدَّ إلى العالم كله، وعمل بجد ودأب على تنظيم أمر المسلمين لمواجهة التحديات المعاصرة، فقد حضر في حج عام ١٣٨١هـ اجتماعاً في قصر الملك

سعود ـ رحمه الله ـ بمكة مع مفتي الديار المصرية ـ آنذاك ـ فضيلة الشيخ حسنين مخلوف، والشيخ القلقيلي مفتي المملكة الأردنية الهاشمية، والشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة العربية السعودية، وعهد للشيخ أبي الحسن الندوي إدارة ذلك الاجتماع الذي تمخض عن تأسيس رابطة العالم الإسلامي، فكشفت إدارته تلك عن جانب من عبقريته المتعددة الجوانب.

وكان داعيةً متوقِّدَ الذهن، جيَّاشَ العاطفة، عميق الإيمان، مرهف الحس، قوي العزم، شديد المراس، بليغ العبارة، يتأثر ويؤثر، ويعيشُ الواقعَ بكلِّ مشكلاته، ويتصدَّى للمعضلات، ويكشف الحقائق، ويدقّ ناقوس الخطر، ليحذِّرَ الأمة من الوقوع في المهالك، والسقوط في الهاوية التي يقودُ إليها شياطين الإنسان والجن في الشرق والغرب على حد سواء.

سأتناول في هذا الفصل أهداف دعوته، ومصادرها، ومناهجها، وأسلوبها بالبحث والدراسة إن شاء الله تعالى:

أ ـ أهداف دعوته

إنَّ المعاني السامية التي هدف إلى تحقيقها من خلال دعوته: هي التوحيد الخالص، واتباع السنّة، وتزكية النفس، والإيمان بالدين الكامل الشامل، ومحاربة الأفكار المادية، ومقاومة الردة الفكرية، وإحياء روح التضحية، وعالمية الدعوة، وسأتحدث عنها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى.

١ ـ التوحيد الخالص:

إنّ التوحيد الخالص هو لبُّ دعوة الأنبياء، فلا غرو أنْ جعله الشيخ الندوي أساساً لدعوته، ومنطلقاً لفكره، يقول الشيخ القرضاوي وهو يتحدثُ عن ركائز فقه الدعوة عن الشيخ: «أولى هذه الركائز: تعميق الإيمان بالله تعالى، وتوحيده سبحانه: ربّاً خالقاً، وإلهاً معبوداً واليقين بالآخرة، داراً للجزاء، ثواباً وعقاباً، في مواجهة المادية الطاغية، التي تجحدُ أنَّ للكون إلهاً يدبره ويحكمه، وأنَّ في الإنسان روحاً هي نفحة من الله، وأنَّ وراءَ هذه الدنيا آخرة. المادية التي تقول: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع! ولا شيءَ بعد ذلك. أو كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقد تخللت هذه الركيزة الفكرية المحورية معظم رسائله وكتبه؛ وخصوصاً: (الصراع بين الإيمان والمادية) و(ماذا خسر العالم؟) و(الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية)»[(١)].

ذكر الشيخ في كتابه (مذكرات سائح في الشرق العربي) رحلته إلى السودان، فقال: «رأينا ونحن خارجون من الدار حلقةً قائمةً من الشباب يردّدون: (شيئاً لله يا حسن، أنت سلطان الزمن) فأنكرنا هذا النشيدَ الذي لا أرى له مبرراً، والذي يعارِضُ التوحيد معارضةً صريحةً، وكيف تجوزُ الاستغاثة

---

(١) المصدر السابق، ص٧٩.

بشيخ ميت، والاعتقاد بأنّه سلطان الزمن؟ فإني أعتقد أنَّ عقيدة التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى يجب أن تكونَ أوّل ما يهتم به المصلح، ويدعو إليه الداعي والمحدِّث، ولا يسعه التغافل عنه في كل حال من الأحوال، قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠].

ويقول وهو يتحدّث عن هدف النبوة الأساسي وأهم مقاصد البعثة: «إنَّ الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم، وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو: **تصحيح العقيدة في الله تعالى**: وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين، وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضَّار، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده.

وكانت حملتهم مركَّزةً موجهةً إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثَّلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهلُ الجاهلية أنَّ الله قد خلعَ عليهم لباس الشرف والتألُّه، وجعلهم متصرِّفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك، يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلّده تدبيرَ تلك المملكة في ماعدا الأمور العظام.

وكل من له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ

يعـرفُ اضطراراً وبداهـةً أنَّ القضاء على هـذه الوثنيـة، والإنكـار عليهـا، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدأون، وإليها ينتهون، والقرآن تارةً يقول بالإجمال ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وتارة يقول بالتفصيل فيسمّي نبياً نبياً، ويذكر أنَّ افتتاحَ دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد»(١).

وكان من كمال دعوته إلى التوحيد الخالص التحذيرُ من الشركِ بجميع أنواعه، يقول: «فظهر أنَّ الشرك لا يتوقّفُ على أن يعدلَ الإنسانُ أحداً بالله، ويساوي بينهما بلا فرق، بل إنَّ حقيقةَ الشرك أن يأتيَ الإنسانُ بخلالٍ وأعمالٍ، خصّها الله بذاته العلية، وجعلها شعار العبودية لأحد من الناس، كالسجود لأحد، والذبح باسمه، والنذر له، والاستغاثة به في الشدة، واعتقاد أنه حاضر ناظر في كل مكان، وإثبات قدرة التصرف له، وكـلُّ ذلـك يثبتُ بـه الشـرك، ويصبح الإنسان به مشركاً، وإن كان يعتقدُ أنَّ هذا الإنسان، أو الملك، أو الجنيَّ الذي يَسْجُدُ له، أو يذبَحُ أو ينذِرُ له أو يستغيثُ به، أقلُّ من الله شأناً، وأصغرُ منه مكاناً، وأنَّ الله هو الخالق، وهذا عبدُه وخلقُه، ولا فرقَ في ذلك بين الأنبياء والأولياء، والجن والشياطين، والعفاريت والجنيات، فمن عاملها

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، ص٨٨ ـ ٨٩.

هذه المعاملة كان مشركاً، لذلك وصف الله تعالى اليهودَ والنصارى الذين غلوا في أحبارهم ورهبانهم مثل ما غلا المشركون في آلهتهم بما وصفَ به عبّاد الأوثان والمشركين، وغضبَ على هؤلاء الغلاة المنحرفين، كما غضبَ على غلاةِ المشركين، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١][(١)].

ويقول وهو يتحدّث عن مظاهر الشرك وأعماله والعادات الجاهلية: «ولا بدَّ بعدَ هذا الكلام الأصولي العام من أن نشيرَ إلى مواضع الداء والبلاء في الجهال، ومن خضع للمؤثرات الأجنبية، والعادات الجاهلية، ونشأ في بيئات بعيدة عن التعليم الإسلامي الصحيح، والعلم بالكتاب والسنَّة، والدعوة إلى الدين الخالص، ونضع الإصبع على مواضع الداء والتوتر الحساس في الجسم السقيم.

إنَّ العلمَ المحيطَ الشاملَ، والتصرّفَ المطلقَ بالإرادة، والقدرة الكاملة مِنْ خصائص الله تعالى، وأعمال العبادة وشعائرها، كالسجود والركوع، والصوم وقصد البيت من أنحاءَ بعيدة، والمعاملة به كالمعاملة بالبيت الحرام، وسَوْق الهدي إليه، ونذر النذور هناك، من أعمال الشرك ومظاهره.

وعلاماتُ التعظيم الدالِّ على العبودية والاستكانة خاصةٌ بالله تعالى،

---

(١) المصدر السابق، ص٨٥ ـ ٨٦.

وعلمُ الغيب خاصٌّ بالله تعالى ووراء طور البشر، والعلم بمكنونات الضمائر، وهواجس الخواطر ليس بميسور دائماً لأحد ولا يقاسُ الله سبحانه وتعالى على ملوك الدنيا في قبول الشفاعات، وإرضاء أهل الوجاهة والنفوذ.

والله يُرجَعُ إليه في كل صغير وكبير، فإنه ليس كملوك الدنيا في تدبير المملكة، والاستعانة بالحاشية.

والسجود بجميع أنواعه لا يجوزُ إلا لله تعالى، والمناسك، ومظاهر التعظيم الأقصى، وشعائر الحب والتفاني خاصة بالبيت والحرم، وتخصيص الحيوانات للصالحين، والتقرّب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم حرام.

وغاية التعظيم في تذلل وخشوع من حق الله تعالى، والذبح تقرباً وتعظيماً من حقّ الله تعالى، واعتقاد تأثير الأنواء والكواكب في العالم إشراك بالله، والاعتماد على العرافة والكهانة والمخبرين بالمغيبات كفرٌ وجِبْتٌ.

وينبغي الحثّ على إظهار شعار التوحيد في الأسماء، والحذر من الكلام الموهم، والحلف بغير الله إشراكٌ بالله، ولا يجوزُ النذر لغير الله، والذبحُ في مكانٍ كان فيه وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

وينبغي العدول عن الإفراط والتفريط في تعظيم النبيِّ ﷺ، وعن تقليد النصارى في إطرائهم لنبيهم، وغلوّهم فيه، وعن تعظيم صور الصالحين»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص٨٦ ـ ٨٨.

٢ ـ اتباع السنَّة:

ويؤكّدُ الشيخُ أنَّ الولايـة تتصل باتِّبـاع السنَّة اتصالاً وثيقاً، يقـول: «وتبتدئ هذه المكانة (مكانة القبول والولاية) **باتّباع السنَّة**، وتنتهي **بكمال اتباع السنَّة**»[١]، ويقول وهو يتحدّثُ عن حاجة الأمة إلى الحديث ودوره في حسبة الأمة وحركات التجديد والبحث الجديد: «من استعرضَ التاريخَ الإسلامي عرفَ أنه لولا السنَّةُ المحفوظةُ والحديث المأثور لما أمكنت الحسبةُ على المجتمع الإسلامي، ولمّا قامَ المصلحون والمجدّدون في كل عصر ومصر، يميّزون بين السنَّة والبدعة، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، **فالحديثُ مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ يتخرّجُ فيها مصلحون ومجددون**، وقوة دافعة إلى الأمام وإلى الاضطلاع بأعباء الدعوة والحسبة»[٢].

وتحدّث الشيخ الندوي في أمكنة مختلفة من كتاباته عن الترابط بين أسوة النبي ﷺ وحفظ الأحاديث، يقول: «**ولمّا كان محمدٌ رسولُ الله ﷺ** هو القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعاً، وللأجيال البشرية على اختلاف الزمان والمكان، **اتجهت عناية الله** إلى حفظ أخباره وآثـاره، وصفاته وأخلاقه وعاداته، وتصرفاته، وصرف الله قلوب المسلمين إلى تتبّع كلّ ما يصدر عنه من حركة وسكون، وأخذ ورد، وعادة وعبادة، وألهمهم الاعتناء به اعتناءً لا مزيدَ عليه، وكأنَّ سائقاً يسوقهم إلى ذلك.

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص٤٧.

(٢) الحديث والسنَّة ودورهما في الصيانة عن التحريق والانحراف، ص٢٣.

وقد تجلّت هذه العناية الإلهية بكل وضوح في الحديث والسيرة، وفي كتب الشمائل، وفيما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته، وفي صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفةً أكثر منها دقة، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخفية»(١).

ويقول وهو يتحدث عن صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد ﷺ وما يتصل به: «ومَنْ قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النبيِّ ﷺ في سورة **الأحزاب**، وفي سورة الحجرات، وفي سورة التحريم، وفي سورة المجادلة، وما ورد من تكريم الله تعالى لـه، ونعمه عليه في سورة الفتح وسورة الضحى وسورة الانشراح: عرفَ بدلالة العقل وسلامة الذوق أنها نعوتُ نبيٍّ قد بعثَ للأجيال كلها، وللعصورِ كلها، وأنَّ شمسَ رسالته لا تقبلُ الكسوفَ، وأنَّ نجمه لا يقبل الأفول، ولا شك أن بعثة نبي ولو لم يأتِ بشريعةٍ جديدةٍ، تتنافى مع الحكمة الإلهية في هذا الثناء العاطر، والوصف البالغ لمحمد ﷺ، وربط الأمة ربطاً وثيقاً دائماً بهذا النبي الكريم، وتعاليمه وأسوته، وأصحابه، وأهل بيته، والأرض التي ولد فيها ونشأ، ودعا فيها الناس إلى الله وشعائر الله فيها، ولا شك أن النبي الذي يبعث بعده، أو يدعي النبوة يحول بين الأمة ونبيها الأول أراد ذلك أو لم يرد، ويضعف صلتها به ﷺ شعر بذلك أو لم يشعر، وتلك طبيعةُ الأشياء، وخاصة الفطرة البشرية.

---

(١) النبي الخاتم، ص١٢.

وقد أثّرت عقيدةُ الإمامة عند الشيعة الإمامية في صلة هذه الطائفة بالنبي ﷺ، فتحوّل تيار الحب والعاطفة، والحماس والاندفاع إلى الأئمة الاثني عشر ـ رحمهم الله تعالى ـ وتجلّى ذلك في مجال التأليف والتصنيف، والأدب والشعر، وشدّ الرحال إلى المشاهد والهيام بها، وأصبح الولاء للأئمة، والحب لعلي بن أبي طالب، وابنه الحسين ـ رضي الله عنهما ـ هو شعار هذه الطائفة، ودثارها، قد ملأ كل فراغ في العقيدة والعاطفة والحماس، فما ظن العاقل بنبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها في عصر من العصور، ألا ينافس الولاءُ له، والانضواءُ إلى رايته، حبَّ الأمة لنبيها محمد ﷺ، وكل ما يتّصل به، ويعزى إليه من تعاليم، وسنن وهدى وأصحاب، ولغة وآداب، وتاريخ وحضارة، إنه ناموس من نواميس الفطرة التي لا تتغير.

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة، ودلَّ عليه القرآن، ونطقت به السنَّة المتواترة، فقد جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليهِ مِنْ والدِهِ وولدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ» ويقول القرآن: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦][(١)].

وحينما يدعو الناسَ إلى اتباع السنَّة، يحذّرهم كذلك من البدع والمحدثات في الدين ومضارها، يقول: تُعرَّفُ البدعةُ بأنها إدخالُ شيءٍ في الدين لم يُدْخِلْهُ اللهُ ورسولُه ﷺ فيه، ولم يأمرا به، واعتقاد أنه جزء من الدين،

---

(١) المصدر السابق، ص١٨ ـ ١٩.

يعمل بـه احتسـاباً، مع التـزام آدابه، وشروطه المزعومة، كالتزام الحكم الشرعي.

والبدعةُ شريعةٌ وضعيةٌ إزاءَ شريعةٍ إلهية، لها فقهها المستقل، وفرائضها وواجباتها، وسننها ومندوباتها التي تقف ندّاً للشريعة الإلهية حيناً، وتفوقها أهميةً وعظمةً حيناً آخر.

وتغضُّ البدعةُ طرْفها عن حقيقةٍ ناصعةٍ، وهي أنَّ الدينَ قد أُكْمِل، وأنَّ الشريعةَ قد خُتِمَ عليها، فما كان ينبغي أن يتقرّر تقرَّرَ، وما كان ليتعيّنَ فرضاً أو واجباً تعيّنَ فرضاً أو واجباً، وأغلقت (دار الضرب) للدين، فأيُّ عملةٍ جديدةٍ تنسَبُ إليه لا تكونُ إلا مزوّرة مزيفة.

وما أحسن ما قال الإمام مالك رحمه الله: «مَنِ ابْتَدَعَ في الإسلامِ بدعةً يراها حسنةً فقد زَعَمَ أنَّ محمداً ﷺ خانَ الرسالةَ، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣]فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكونُ اليوم ديناً»[(١)].

وإنَّ من خصائص الشريعة المنزلة من الله ـ عز وجل ـ أن تكونَ سمحةً سهلةً، صالحةً للعمل والتطبيق في كلّ عصر ومصر، لأنَّ مَنْ شرعَ هذا الدينَ هو الذي خلقَ الناس، فهو الذي يعرِفُ ضروراتهم وحاجاتهم، وطبائعهم وطاقاتهم، ومواضع ضعفهم وعجزهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) رواه ابن الماجشون عن مالك.

ولأجل ذلك لوحظت مراعاةُ هذه الأمور كلها في التشريع الإلهي، ولكن إذا اتخذ الإنسانُ نفسَه شارعاً، فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة، **وكلَّما تختلِطُ البدع والمحدثات بالدين، وتجري تعديلات وإضافات بشرية فيه، يزداد الدين عسراً وضيقاً وتعقداً، حتى يضطرَ الناسُ إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم**، ويحرمون هذه النعمة المتحققة في رفع الحرج، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ويمكن أن تلاحظَ أمثلةً لما نقول في تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات والفرائض والسنن المحدثة التي عملت فيها البدع عملها بكل حرية وانطلاق.

ومن خصائص الدين والشريعة الإسلامية الانسجام التام، والوحدة العالمية، فلا يتغيران، ولا يتفرقان في أي عصر وزمان، فلو سافر مسلمٌ مِنْ بقعة في العالم الإسلامي إلى بقعة أخرى لا يلقى أي صعوبة وحرج في العمل بالدين، وتطبيق الشريعة، ولا يحتاج إلى منهج مخصص، أو دليل محلي.

أما **البدعُ فلا توافقَ فيها ولا انسجام**، فهي تصهر في بوتقة محلية في كل مكان، وتضرب في دار الضرب لمدينة من المدن أو بلد من البلدان، وتكونُ نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة، والمصالح الشخصية والأغراض الفردية الخاصة، **فتختص بدع كل بلد من البلدان بهذا البلد نفسه**، بل بدع كل ولاية، وكل مدينة وخرافاتها، بل بدع كل حي من الأحياء، وكل بيت من البيوت، وأباطيلها وخرافاتها تختص بها نفسها، **ينتجُ من كلٍّ ذلك دينٌ متعارِضٌ يصطدِمُ بعضُه ببعض في كل قرية وبلد، وكل حي ومنزل.**

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التي نعلم بعضها ولا نحيطُ بها، نهى الرسولُ ﷺ عن الاقتراب من البدع، وأمرهم باجتناب كل المحدثات في الدين، والحفاظ على السنَّة، والتمسك بها، يقول عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهو ردٌّ»، و«إياكم ومُحدثاتُ الأمورِ، فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»، وتنبأ بهذه النبوة الحكيمة «ما أَحْدَثَ قومٌ بدعةً إلاّ رفعَ بها مثلَها من السُّنَّةِ»[1].

ويقول وهو يتحدث عن جهادِ ورثةِ النبيِّ ﷺ وحملةِ الشريعة ضدَّ البدع والمحدثات: «وقد عارض الصحابةُ رضي الله عنهم، وأئمةُ الدين، وفقهاء المسلمين، وجميعُ المجددين والمصلحين، والعلماءُ الربانيين في عصورهم: محدثاتِ زمانهم، والبدعَ الناشئةَ فيه، معارضةً عنيفةً قويةً، وبذلوا جهدَ طاقتهم في الحيلولة دونَ رواج هذه البدع والمحدثات وتأثيرها في المجتمعات الإسلامية، والأوساط الدينية.

وقد صوّر القرآن الحكيم ما يوجد في هذه البدع والمحدثات ـ في كل عصر ـ من جاذبية مغناطيسية، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا، والمحترفين بالدين، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية، ومنافعها الذاتية في أسلوبه المعجز الحكيم، فقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، ص٩١ ـ ٩٤.

ولقي هؤلاء الدعاة والمصلحون، والمجددون في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد ما لقوا، ولكنهم لم يبالوا بما أُوذوا به في سبيل الله، واعتقدوا أن عملهم هذا جهادُ الساعة، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء، والدين الخالص من التحريف والتزوير، وقد لُقِّبَ هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات، والحاملين لراية السنَّة والشريعة المطهرة من مخالفوهم من العامة أو الخاصة ـ الذين لا يمتازون عن العامة ـ بألقاب تُشبِهُ ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة والمارقة وأعداء الدين، فلم يعيروها أي اهتمام، وقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسان، وإثبات الحق وإبطال الباطل، على كثير من البدع ومحدثات الأمور، التي لا نجد لها الآن ذكراً إلا في بعض كتب التاريخ، وما بقي منها لم يزل يكافحها العلماء الربانيون، ولا يزالون يحاربونها، ويقضون عليها، وصدق الله العظيم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[1].

٣ ـ تزكية النفس:

إنّ تزكيةَ النفوس وتهذيبَ الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية الرئيسية الأولى، يقول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] ويقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

---

(١) المصدر السابق، ص٩٥ ـ ٩٦.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وإن مهمة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس تشغلُ مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية ومقاصد البعثة المحمدية، ومن ثمَّ فإنَّ أبرزَ ما دعا إليه الشيخ في كتاباته وخطاباته هو تزكية النفس، وهي إشعال الجذوة الروحية في حنايا المسلم، وإعلاء (نفخة الروح) على قبضة الطين والحمأ المسنون في كيانه، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية التي سماها الشيخ **(ربانية لا رهبانية)** وهي ربانية إيجابية، تعمل للحياة ولا تعتزلها، ولا تعبدها، وتجعلُ منها مزرعةً للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء.

كما وضح الشيخ الندوي الجانب التعبدي الشعائري في حياة المسلم في كتابه المعروف **(الأركان الأربعة)** وهو يمثّلُ نظرةً جديدةً في عبادات الإسلام الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وآثارها في النفس والحياة، وكانت كلماته في مجالسه تربط الناس بالدار الآخرة، وتزيّنُ لهم العملَ الصالح لمرضاة الله، وتهوّن في أعينهم زخارفَ الدنيا ومتاعها، وتأخذهم بالجد والسعي الدؤوب للنهوض بالأمة الإسلامية من كبوتها وإيقاظها في سباتها، وإحياء الروح الجهادية في نفوس أبنائها، وكان يفيض بصدق وصراحة، وصفاء وشفافية، ودقة وعمق، ويحلّق بهم في أجواءَ روحانية عالية، تأخذ بمجامع القلوب، وتذرف الدموع، وتثير كوامن النفوس.

ويقول الشيخ وهو يدعو إلى تزكية النفس: «ولنقبِلْ. . على تهذيب

الأخـلاق وتزكية النفـس، وتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، لأنَّ الأخلاق الرذيلة هي الحجُبُ الصفيقـةُ التي تمنع مـن الانتفاع بالتعليمـات النبوية، والانصباغ بصبغة الله، وهي التي تجعلُ الإنسان فريسةً للنفس ولعبةً للشيطان، وتعرّضُ للخطر، وتورّط في المهالك، وقد جاء في القرآن: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] ويجب أن نخضعَ في ذلك لمقاييس الكتاب والسنَّة والتعليمات النبوية، ونحكمها في أنفسنا وأخلاقنا.

والإنسان ـ مهما أوتي من الذماء، وبعد النظر، ودقة الملاحظة ـ لا يرى وجهه إلا في مرآة، والسعيد من اطلع على مواضع الضعف عنده، والأمراض الخلقية التي هو مبتلًى بها كالكبر والحسد، والطمع والشره، والنهامة، والشح والحرص، والحقد والضغينة، وحب الدنيا، وحب المال الزائد، واحتقار المسلم، فيتشاغل بإزالتها، والتخلّص منها، ويجاهد في سبيلها كما يجاهد الإنسان في عدمه، وسعيد من وجد الربانيين والمربين الحاذقين، من نبهه على ذلك، ووصف له طرق التخلص منها، ويسّر ذلك له، وسرى نورُ قلبه إليه، وأثر فيه إنصافه لنفسه ولغيره، واعتبر بشدة محاسبته لنفسه، وتورعه وخشيته لله»[1].

وقد أهمّه كثيراً الفراغُ الروحيُّ الموجود في بعض الأقطار الإسلامية، يقول: «انظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان، وندر فيها وجود الدعاة إلى الله، وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن،

(١) المصدر السابق، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها أو بفعل عوامل أخرى، إنك تشعرُ فيها بفراغٍ هائلٍ، لا يملؤه التبحُّر في العلم، ولا التعمُّق في التفكير، ولا فضل من ذكاء، ولا غنى من أدب، ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنَّة، ولا نعمة من استقلال.

إنها أزمة روحية وخلقية لا علاجَ لها، ومشكلة من أدقّ مشكلات المجتمع لا حلَّ لها، فالدهماءُ والشعبُ فريسةُ المادية الرعناء، ونهامةُ المال العمياء، والأمراضُ الاجتماعية والخلقية، والمثقفون ـ الثقافة الدينية أو المدنية ـ فريسةُ الحرصِ على الجاه والمنصب والأمراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية، وحب الظهور ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة والقوة، والحركات الاجتماعية والسياسية تسود عليها الأغراض وعدم تربية النفوس، وضعف القادة، والمؤسسات، ويفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسؤولية، والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب، والعلماء يضعِفُ سلطانَهم اهتمامُهم الزائد في المظاهر، وخوفهم الزائد من الفقر، وسخط الخاصة والعامة، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة، ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق بها القرآن وبعث لها الرسول ﷺ، وفي (الربانية) التي طولب بها العلماء ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩][(١)].

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص١٥ ـ ١٦.

٤ ـ الدعوة إلى الدين الكامل الشامل:

دعا الشيخ إلى أنَّ الإسلام وحدةٌ لا تتجزأ، ومنهج للحياةِ كاملٌ وشاملٌ، وأنّه عقيدةٌ وأخلاقٌ، وسياسيةٌ وعلمٌ، وعقل وعاطفة، وحضارة وثقافة، وله موازينه الخاصة، وقيمه المعينة، ومقاديره المحدودة، ومقاييسه المعروفة، ولا يحتاج إلى تلفيق أو تطعيم، أو مساومة أو تنازل، يقول الشيخ وهو يذكّر المدارس الدينية مسؤولياتها: «ومن واجب هذه المدارس الإسلامية الأوجب الآن أن تحفظَ الدينَ بكلِّ أجزائه، حتى لا يقعَ هناك خللٌ في فهمه وفي تعبيره وفي تصوّره، وحتى لا تهتز جذوره»[١].

يقول الشيخ القرضاوي وهو يذكّرُ أنَّ الشيخ لم يخالف الجماعات الإسلامية العاملة في الساحة في أهدافها من إقامة الحكم الإسلامي وبناء المجتمع الإسلامي واستئناف حياة إسلامية حقيقية متكاملة متوازنة: «إنّه يؤمنُ بهذه الأهداف، ورؤيته واضحة لها، وطالما كتب عنها، ابتداءً من كتابه (ماذا خسر العالم؟) مروراً بـ(الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) وانتهاءً بالرسائل الكثيرة التي خطها في هذا الموضوع.

فلا ينبغي أن يُحسبَ الشيخُ في زمرة الذين يرفضون السعيَ إلى الحكم الإسلامي، أو ينكرون العمل السياسي بالمرة.. فهذا ظلم بيِّنٌ للشيخ، وإدراجٌ له مع الذين يقولون: (لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة)، وهو بالقطع

---

(١) النبي الخاتم والدين الكامل، ص٤٠.

بريءٌ منهم»[1].

٥ ـ محاربته للأفكار المادية:

من أكبر مآثره ونضاله الفكري، ردُّه على الفلسفة الغربية الملحدة والفكر الغربي المضل ردّاً مقنعاً، إنَّ أكبرَ مشكلة يواجهها العالم، ولا سيما العالم الإسلامي أن الشعوبَ العالمية والبشرية قد أصبحت من سوءِ حظّها عرضةً لأفكار الغرب واتجاهاته التي صرفت العالمَ البشريَّ بأجمعه باسم العلم والفكر والحضارة والمدنية والتطور والسعادة عن الوحي السماوي، ووجهته إلى طريق الأهواء والشهوات.

كما تميّزَ الشيخُ بصموده للغزو الفكري الغربي، ونقدِه الجاهليةَ الحديثة، المتمثلة في الفكرة الغربية، والحضارة المادية المعاصرة، ورؤيته واضحة كل الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية، وما فيهما من غلبة الوثنية، والنزعة المادية الحسية، والعصبية القومية، وهو واعٍ تماماً للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية وخصوصاً في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد.

وقد أنكر الشيخُ **موقفَ الفريق المستسلم للغرب**، المقلّد له تقليداً أعمى في الخير والشر، ومثله: **موقف الفريق الرافض للغرب كله**، المعتزل

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٢١.

لحضارته بمادياتها ومعنوياتها. . ونوّه الشيخُ بموقف الفريق الثالث، **الذي لا يعتبر الغرب خيراً محضاً، ولا شراً محضاً. فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته، وآلياته لا منهج حياته، فهو ينتخب من حضارته ما يلائم عقائده وقيمه، ويرفض ما لا يلائمه.**

واهتم الشيخ هنا بشعر الدكتور إقبال باعتباره أبرز ثائر على الحضارة المادية، مع عمق دراسته لها، وتغلغله في أعماقها، وقد تجلّى هذا في كثير من كتبه ورسائله، ولا سيما: **(حديث مع الغرب)، (ماذا خسر العالم؟)، (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية)، (أحاديث صريحة في أمريكة)، محاضرة (الإسلام والغرب)** في أوكسفورد.

٦ ـ مقاومة الردة الفكرية والعصبيات الجاهلية:

عني الشيخ عنايةً خاصةً بمقاومة الردة الفكرية والعصبيات الجاهلية التي تفاقم خطرها بين العرب والمسلمين عامة، والمثقفين منهم خاصة، وكان يركز في حديثه على أنَّ المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين كبيرة جداً، وهي محكمةُ الخططِ، ماكرةُ التدبير، تشارِكُ فيها كلُّ القوى المقاومة للإسلام من صليبية وصهيونية وشيوعية والإلحاد بكل فرقه، والتغريب بكل جيوشه، والاستعمار بكل ألوانه وأعوانه.

ومن مقاومة هذه الردة الفكرية رده على القاديانية، وتأكيدُ (عقيدة ختم النبوة)، يقول وهو يتحدّث عن خطورة فتنة القاديانية: «وقد كانت القاديانية على رأس الفتن التي ابتليت بها الأمة، وقدّر لي أن أعيشَ في خلال دراستي

للتاريخ النواحي التي تتعلق بالفكر، والديانات، والأخلاق، والعقائد والحركات، فأستطيعُ أن أقول في ضوء دراستي: إنّه لم تكن فتنةٌ في تاريخ الإسلام منذ فجره إلى حد الآن، من الخطر والأثر والدقة بالمكان الذي احتلته القاديانية.

وأخطر نواحيها أنها دعوة إلى ديانة مستقلة، وإلى أمة إزاء الأمة الإسلامية، والعلماء الذين قاموا بالرد على القاديانية في البداية، لم يطّلعوا منها على بعض النواحي الخطرة جداً، لأن كتابات القادياني والقاديانية لم تكن قد ظهرت آنذاك ظهوراً كاملاً»[1].

وكما قاوم الشيخ الردة الدينية التي تمثلت في القاديانية، لم يألُ جهداً في **محاربة الردة العقلية والثقافية**، ولا غرو أنْ جنّدَ قلمه ولسانه وعلمه وجهده في كشف زيفها، ووقف زحفها، ومطاردة فلولها، وقد ألّف فيها رسالته البديعة الشهيرة (**ردة ولا أبا بكر لها**).

ولما رأى الفتنة الإلحادية الغربية الجديدة تؤثّر في الجيل العربي الناشئ، وتصبغه بحضارته العلمية والفكرية أقلقته، وبعثه التوفيق الرباني والبصيرة الإسلامية الصحيحة منذ البداية على انتقاد الفكر الغربي والفلسفة الغربية بكتاباته وخطاباته، وصارت الكلمة الساحرة (ردة ولا أبا بكر لها) عنواناً لجهاده ونضاله، ولم يغطِّ بها تاريخ هذه الفتنة فحسب، بل أحدث قلقاً

(١) النبي الخاتم والدين الكامل، ص٣٢ ـ ٣٣.

واضطراباً في قلوب المهتمين بالقضايا الدينية من العلماء والمشايخ العرب، وقد طبعت رسالته (ردة ولا أبا بكر لها) مرات كثيرة، ولا تزال.

وقد اختار هذا العنوان لأنه شاهدَ الكتّابَ العرب من العلماء والأدباء انبهروا بفكر الغرب وفلسفته، ومنهج حياته ومدنيته انبهاراً كبيراً، كأنما امتحن العالم الإسلامي بردة جديدة، يقول:

«وأشعرُ بأنَّ مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني قد أثَّرت في أساليب الكتَّاب العرب ومناهج تفكيرهم، فهم إذا خاضوا في السياسة وانتقدوا الاستعمار كانوا شجعاناً مغامرين، ونقاداً مهاجمين، لا يخافون سجناً ولا تشريداً، ولا عقوبة، ولا تهديداً، ولكنهم **إذا تناولوا موضوع الحضارة الغربية، والنظم السياسية، والفلسفات الاقتصادية، والعلوم العمرانية، كلّت أقلامهم، وتلجلجت ألسنتهم، وضعف أسلوبهم، حتى يظهر من خلال كتاباتهم أنَّ الغربَ هو المثل الأعلى في كل شيء، وأن المقياس للنهضة والسعادة هو الدنو من هذه الغاية والتشبه بها**»[1].

وقام بنقد ما شاع في العالم العربي الإسلامي كله، من التنادي بفكرة **(القومية)** القائمة على إحياء العصبيات الجاهلية، بعد ما أكرم الله به هذه الأمة من الأخوة الإسلامية، والإيمان بالعالمية، والبراءة من كل من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية، وأشدَّ ما آلمه: أن تتغلغل

---

(١) شخصيات وكتب، ص١٣٦.

هذه الفكرةُ بين العرب، الذين هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته، وحفظة كتابه وسنَّته، وهو واحدٌ منهم نسباً وفكراً وروحاً. لذا وقف في وجه **(القومية العربية) العلمانية المعادية للإسلام**، المفرّقة بين المسلمين، والتي اعتبرها بعضُهم **(نبوة جديدة) أو (ديانة جديدة)** تجمعُ العرب على معتقدات ومفاهيم وقيم غير ما جاء به محمد ﷺ، الذي هدى الله به أمة العرب، وجمعهم به من فرقة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهو رغم رفضه للقومية، لا ينكِرُ فضلَ العرب ودورهم وريادتهم، بل هو يستنهضُ العربَ في محاضراته ورسائله وكتبه للقيام بمهمتهم، والمناداة بعقائدهم ومبادئهم في وجه العالم: **(محمد رسول الله روح العالم العربي)** ويوجه رسالة عنوانها: **(اسمعوها مني صريحةً أيها العرب)**. ورسائل أخرى: **(العرب والإسلام)، (الفتح العربي المسلمين)، (اسمعي يا مصر)، (اسمعي يا سورية)، (اسمعي يا زهرة الصحراء)** (يعني: الكويت).. **(كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟)، (كيف دخل العرب التاريخ؟) (العرب يكتشفون أنفسهم) (تضحية شباب العرب)**... إلى آخره.

٧ ـ إحياء روح التضحية:

ومن أهدافِ دعوته إحياءُ روح الجهاد في سبيل الله، حتى تكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، يقول: «لم تكن دعوتُـه ﷺ مقصورةً على معرفـة الله، المعرفـة الصحيحة الكاملة، ولا على العقائد الصحيحة الثابتة، ولا على العبادات القلبية، والبدنية، والمالية المقربة إلى الله، الجالبة لحبه ورضاه، بل مع ذلك

كله، كان الجهاد من خصائص دينه، وأركان دعوته، وأحب الأعمال إليه»[(١)].

ويقول وهو يوجه المسؤولين عن التربية والتعليم إلى الاهتمام بالفروسية: «من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية، ورُزئت في فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم، فكانت رزيئة كبيرة، وخسارة فادحة، وكانت سبباً من أسباب ضعفها، وعجزها في ميدان الجهاد، فقد اضمحلَّت الروح العسكرية، وضعفت الأجسام، ونشأ الناس عن التنعم. . فالمهم لرجال التعليم والتربية وقادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البساطة في المعيشة وخشونة العيش، والجلادة، وتحمّل المشاق والمتاعب، والصبر على المكروه»[(٢)].

ويؤكد الشيخ الندوي وهو يذكّر الجامعاتِ الإسلاميةَ مسؤولياتها تجاه التربية والتعليم: «أن تخرّجَ شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة، ويستعدّون للتضحية والفداء، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والري والتنعم والتمتع بالحياة، ويَطِيبون نفساً بالحرمان، ما لا يطيبون بالوجدان، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيّرة، ومؤهّلاتهم الفكرية والعلمية، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم في رفع رأس الأمة عالياً، وفي إعلاء كلمة الله، وفي

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، ص١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) ماذا خسر العالم، ص٢٨٦.

صنع أمةٍ ذاتِ رسالةٍ، وبناء بلدٍ مسموعِ الكلمةِ مرهوبِ الجانب»[1].

ويقول الشيخ القرضاوي وهو يشيد بهذه الركيزة الدعوية عند الشيخ: «هي إحياءُ روح الجهاد في سبيل الله، وتعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوى المعادية للإسلام إخمادها، ومقاومة روح البطالة والقعود، والوهن النفسي، الذي هو حُبُّ الدنيا وكراهية الموت، وهذا واضح في كتابه (**ماذا خسر العالم؟**) وفي كتابه (**إذا هبت روح الإيمان**) وفي حديثه الدافع المعبّر عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته ودعوته، وعن صلاح الدين الأيوبي وأمثاله من أبطال الإسلام.

ومنذ رسالته الأولى وهو ينفخُ هذه الروح، ويهيبُ بالأمة أن تنهضَ للذود عن حماها، وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتى تكون كلمة الله هي العليا»[2].

٨ ـ عالمية دعوته:

الشيخ داعية عالمي النزعة، يتجاوزُ الحدود الإقليمية، ويستعلي على الروابط الوطنية، وينتظمُ في صفّ العاملين لوحدة الحركة الإسلامية، وقد جمع في حياته بين إصلاح المسلمين وتوحيد كلمتهم ودعوة غير المسلمين

---

(١) دور الجامعات الإسلامية المطلوب، ص٣٣.
(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٨٣.

وتعريفهم بهذا الدين، ولم يركّز دعوته على الهند وحدها، بل تجاوزها إلى العالم الأوسع.

يقول الشيخ القرضاوي: وأما أنه (عالمي) فهذا ما يلمسه كلُّ متتبع لنشاط الشيخ العلامة، فهو ـ وإن كان هنديَّ المولدِ والنشأةِ والدراسةِ ـ عالميُّ الوجهة والغاية، عالميُّ النشاط والحركة. وهو ـ وإن اهتمَّ بالمسلمين في الهند، وشارك في همومهم، وتصدَّر الصفوفَ أحياناً في ذلك، كما في قوانين الأحوال الشخصية، التي أرادت الحكومةُ الهندية يوماً أن تفرض على المسلمين فيها ما يحرمهم من خصوصيتهم ـ لا يقتصر همُّه ولا نشاطه على القارة الهندية، بل يمتد إلى العالم كله، ولذا نجد شهرةَ الشيخ في العالم العربي لا تقلّ عن شهرته في الهند، ونجد الشيخ عضواً في أكثر من مجلس، وأكثر من مؤسسة، مثل المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس العالمي الأعلى للمساجد، ومجلس المجمع الفقهي للرابطة، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، ومجمع اللغة العربية بدمشق، وهو الذي سعى لإنشاء مركز إكسفورد للدراسات الإسلامية، ليكون نقطة انطلاق الفكر الإسلامي في جامعة غربية عريقة، وهو الذي يرأس مجلس أمنائه منذ أنشئ، كما أسهم في إنشاء (رابطة الأدب الإسلامي) لتكون منبراً عالمياً لأدباء الإسلام. وهو رئيسُها منذ أنشئت أيضاً. ومن قرأ عناوين محاضرات الشيخ ورسائله وأحاديثه، وأين ألقيت؟ وإلى من وجّهت؟ يعرف هذه العالمية بوضوح؛ فهناك أحاديثُ إلى العرب، وأحاديث صريحة في أمريكة، وهناك جملة (إسمعيات) ـ إذا صحَّ هذا الجمع ـ وهي الرسائل التي وجهها إلى البلاد

التي زارها ناصحاً لها ومشفقاً عليها: (اسمعي يا مصر)، (اسمعي يا زهرة الصحراء) (يعني الكويت)، (اسمعي يا إيران). . . إلخ[1].

وإن من عالمية دعوته: دعوة غير المسلمين للإسلام، استكمالاً لما قامت به الأمة في العصور الأولى، قال رسول الله ﷺ: «لأن يهدي اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ أنْ يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[2].

وقد ساهم الشيخ في ذلك منذ عهد مبكر ـ وهو ابن الثانية والعشرين ـ بدعوة الدكتور أمبيدكر ـ زعيم المنبوذين ـ إلى الإسلام، ورحلته إليه في بومبي، ثم عن طريق حركة رسالة الإنسانية التي لعبت دوراً كبيراً في تعريف الإسلام لغير المسلمين.

وكان يرى أنَّ فضل الأمة الإسلامية على غيرها في قيامها بواجب الدعوة إلى الله، وأنَّ البشريةَ اليوم ـ رغم بلوغها ما بلغت من العلم المادي والتطور التكنولوجي ـ أحوجُ ما تكون إلى رسالة الإسلام، حاجة الظمآن إلى الماء، والسقيم إلى الشفاء، والأمة الإسلامية هي وحدها التي تملك قارورة الدواء، ومضخة الإطفاء.

ب ـ مصادر دعوته

ويعتمد في دعوته على الوحي، وهو **المصدر المعصوم**، الذي تؤخذ منه

---

(١) المصدر السابق، ص١٢ ـ ١٣.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧٠١)؛ ومسلم برقم (٢٤٠٦).

حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل من العثار إذا سار في هذا الطريق وحده، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلى تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان والحياة، **حتى الفلسفة الدينية أو علم الكلام حين خاضا هذه اللجة غرقا فيها**. وقصور العقل هنا شهدَ به بعضُ كبار المتكلمين كالفخر الرازي، والآمدي وغيرهما، وبعض كبار الفلاسفة، وأحدثهم (كانت) وكذلك فلسفات الإشراق لم تصل بالإنسان إلى بَرِّ الأمان.

كما كثر استشهاده لدعوته من أحداث التاريخ الإسلامي، واستيحاؤه من الشعر الإسلامي، يقول في إحدى محاضراته: «والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار هو أن نظلَّ على اتصالٍ دائمٍ بمنبع الهداية والإرشاد.. الكتاب والسنَّة، وأسوة الرسول ـ عليه السلام ـ وأصحابه البررة الكرام، وأتباعهم العظام»[1].

١ ـ القرآن الكريم:

اتخذ الشيخ القرآنَ الكريم المصدرَ الأول للدعوة، وجعل رسلَ الله وأنبياءَه أسوةً له، فإنه لمّا كانت الرسل عليهم صلوات الله وسلامه هم مصدرُ الدعوة إلى الله، وكانوا الأسوة الحسنة، والقدوة المتَّبعة في شؤون الدعوة؛ كان لزاماً على الدعاة أن يقفوا على دعواتهم، ويقتدوا بهم في كل مراتب دعواتهم، ليتعلّموا طريقَ الدعوة وأساليبها ومناهجها ووسائلها من خلال

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، ص١٩١.

قصصهم في القرآن الكريم، لأنّ الله ما قصَّ علينا قصصهم في كتابه إلا لنقتفيَ أثرهم، ونعتبرَ بحالهم، فنصبرَ كما صبروا، وندعوَ كما دعوا، ونتسلّى بما أصابهم.

ومن ثَمَّ يركز على توثيق الصلة بالقرآن، باعتباره كتابَ الخلود، ودستورَ الإسلام، وعمدةَ الملة، وينبوعَ العقيدة، وأساسَ الشريعة، ومن قرأ كتب الشيخ وجده عميقَ الصلة بكتاب الله، مستحضراً لآياته في كلّ موقف، محسناً الاستشهاد بها غاية الإحسان.

يعتبر القرآن الكريم مصدره الأول ومعتمده الأساسي، وإذا ألقى محاضرةً أو خطاباً استهلّه بآي من الذكر الحكيم، يستلهِمُها ويستهديها، ويستوحي منها المعاني والأسرار، يقول وهو يتحدَّث عن استيحائه المعاني من القرآن: «قد جرّبتُ مراراً أني لم أقرر قبل الأخذ في محاضرة أو خطاب كيف أفتتحه، وماذا عسى أن أقول، إذ تلا القارئ آيات فعرفت أنها آياتٌ تخاطبني قبل أن تخاطِبَ غيري، وأنها اختيرت لنفسي»، ويقول: «لم يزل صاحب هذه التأملات تلميذاً متواضعاً من تلاميذ مدرسة القرآن الإيمانية، والعلمية، والدعوية الإصلاحية، يدين لهذا الكتاب العظيم في ثقافته وتدبره، وكتاباته وبحوثه ومؤلفاته، وفي خطبه الشعبية، ومحاضراته العلمية، ما لا يدين لأي كتاب، أو دراسة علمية، أو مدرسة فكرية، أو أدب من آداب اللغات والثقافات. يشهد بذلك من اطلع على ما وفق إليه كاتب هذه السطور من كتابات وخطابات»[1].

---

(١) تأملات في القرآن الكريم، ص٥ ـ ٦.

وأقتصرُ هنا على مثال واحد لاستيحائه من القرآن الكريم، يقول في محاضرةٍ له ألقيت بمسجدِ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشارقة مساء يوم الإثنين في ١٧ صفر ١٤٠٤هـ: «فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

سادتي وإخواني! هذه آيةٌ من سورة هود، كلّما تلوتها اقشعرَّ جلدي، وثارت فيَّ المشاعر، إنّ الآية في أسلوب قرآني مؤثر مرقق، لا أجد تعبيراً يفي بحق هذه الآية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ إنَّ كلمة (أولو بقية) لا يفي بها تعبيرٌ ولا شرحٌ ولا تفسيرٌ، يعني: لماذا لم يكن حينَ انتشرَ الفسادُ في قطعة من الأرض وفي العالم كما كان الشأن في القرن السادس المسيحي في الجاهلية العالمية التي طبقت الآفاق ـ ولا تصوير أدقَّ من تصوير القرآن ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] ـ أولو بقية ينهون عن الفساد؟.

وهذا أسلوبُ القرآن يحيل على الماضي، ولكنّه يثيرُ في المعاصرِ لنزوله، المباشرِ لتلاوته الشعور بالمسؤولية في الحاضر، فإنَّ القرآن هو الكتاب الخالد، الذي لا تبلى جِدَّتُه، وهو الكتاب الذي يعاصِرُ الأحداثَ، ويعاصر الأمم والأجيال، ولا يساير الزمان فحسب، بل يسبقُ الزمان، ويقودُ البشرية، فيرجع بنا إلى الماضي لنرجع إلى الحاضر والمستقبل، فكأنه يقول:

لماذا لم يكن في الجيل المعاصر لنزول القرآن والأجيال المخاطبة بالقرآن في كل زمان ومكان أولو بقية؟ و(أولو بقية) كلمةٌ لو ألّف كتاب ضخم في شرح هذه الكلمة، ولماذا يوصفون بها؟ وما هو الفرق بينهم وبين سائر الناس؟ لقصّر القلمُ، وعجز اللسانُ، وانتهى الكتاب.

إنّ البشرية أيها السادة، ما زالت ولا تزالُ هدفاً لعوامل التدمير والإفساد، منها عوامل داخلية باطنية، من الشهوانية والأنانية وعبادة النفس وحب اللذات، ومن قصور النظر ومن الانصراف إلى الدنيا والخضوع للمادة والقوة ولعوامل الشذوذ والانحراف، ومنها عوامل خارجية من فساد البيئة والمجتمع وسوء التعليم والتربية وانحراف القوانين والنظم.

والإنسان يعيش في الواقع، ولا يعيش في الأحلام والأماني، ولا يعيشُ في الفلسفات والتصورات، يسعى على قدميه، ويتنفس في الهواء، فإن كان الهواءُ فاسداً تنفَّسَ الفساد، وإن كان الهواء عفناً تنفَّس العفونةَ، وإن كان الهواء صالحاً نقياً تنفَّس النقيَّ الصالح، لا يستغرَبُ أن ينتشر الفساد الخلقي والفساد الاجتماعي انتشاراً عامًّا إذا توفرت أسباب قاهرة لإفساد مجتمع خاص، هذا وقع آلافاً من المرات، وسيقع مراراً إذا كان في الوقت متسع، وللدنيا أجل ممدود.

ولكنَّ المعوّل على وجود طبائع صالحة، وضمائر حية، وعقول نيّرة، وعقائد جازمة راسخة، ودعوات قوية مؤثرة، والعمدة على خلفاء الأنبياء عليهم السلام، وعلى حملة الرسالة ومشاعل النور، ليس من الغريب أن

يمرضَ الإنسان، وليس شيئاً مروّعاً مؤيساً، الغريبُ المروِّعُ المفزِعُ هو فقدانُ الطبيب، وهو الذي حذّرت منه الديانات السماوية، وحذّر منه الأنبياء ـ وسيد الرسل ﷺ بصفة خاصة ـ وهو أن يُفْقَدَ الأطباءُ، ويُفْقَدَ التألُّم النفسيُّ بالفسادِ، ويفقَدَ من يواجهه وجهاً لوجه، ويقف في تياره كالسد المنيع والطود الشامخ الذي لا يتزلزل، ينتشر الفساد ولا يجد مقاومة، ينتشر الفساد ولا يجد متحدّياً، ينتشر الفساد ولا يجد منكِراً أو مستنكراً، هذا هو البلاء، هذا الذي عرّضَ الركب البشري للنار والدمار، والانتحار والانهيار، وساد الفساد على المجتمع الإنساني كله. . .

ويستمرُّ الشيخ في الاستيحاء من الآية ويتملاّه طويلاً، حتى يختم المحاضرة بقوله: «نحن على سفينة البشرية، والسفينة البشرية مضطربة مائجة، فيجب علينا أن نفكّر في إيصالها إلى برّ السلام، وليس برُّ السلام إلا الإسلام الحقيقي الكامل، البعيد عن النفاق، البعيد عن كل ما كانت الجاهلية تتسم به، الدافق بالحياة والقوة، الحامل للرسالة والرحمة للإنسانية، المالك للمثل العليا، والنماذج الصالحة والقدوة الحسنة الفاضلة، أفراداً ومجتمعات، وشعوباً وبلاداً، ونظماً وحكومات، وبالله التوفيق»[١].

٢ ـ السنَّة النبوية:

ويرجع بعد القرآن الكريم إلى السنَّة والحديث الشريف، والسيرة النبوية

---

(١) أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، ص٥٠ ـ ٦١.

العطرة باعتبار السنَّة مبينة القرآن وشارحته نظرياً، وباعتبار السيرة هي التطبيق العملي للقرآن، وفيها يتجلّى القرآنُ مجسّداً في بشر «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنُ»[1] وتنجلي الأسوة الحسنة التي نصبها الله للناس عامة، وللمؤمنين خاصة، لهذا كـان من المهمّ العيشُ في رحـاب هذه السـيرة، والاهتداء بهديها والتخلّق بأخلاقها، لا مجرد الحديث عنها، باللسان أو بالقلم، وقد بيّنَ الشيخُ أثر الحديث في الحياة الإسلامية، كما أبدع في كتابة السيرة للكبار وللأطفال، وهو هنا يجمعُ بينَ عقل الباحث المدقق، وقلب المحب العاشق، وهذا يكادُ يكونُ مبثوثاً في عامة كتبه. وقد أفزعه ضعفُ العاطفة في بلاد المسلمين، وضعف صلتهم الروحية بالنبي الكريم ﷺ، فوجدَ أنَّ خيرَ ما يعالج به هو إثارة الحب الكامن في قلب كل مسلم، وتغذية عاطفته عن طريق سيرة الرسول الكريم ﷺ وحياته، كما فعل في كتابه (**الطريق إلى المدينة**) وفي غيره من كتبه الأخرى.

وقد كان لكتابته قوتها في استثارة العواطف، وإحياء تفاعل روح القارئ مع الأصداء الشجية التي تطلقها عباراته، وتصويره الأدبي عن السيرة النبوية. لقد كانت تلك العاطفة القوية لديه تجاه السيرة موجهاً لحياته الفكرية، وصبغها بطابع التأثر البالغ بالسيرة بحيثُ أصبحت السيرةُ النبويةُ مادّةَ كتاباته ومحاضراته بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأصبحَ تفكيره متعلّقاً بتلك السيرة، ومنطلقاً منها في توجهاته وتوجيهاته، وصارت السيرة موضوعاً محورياً في نتاجه

(١) أخرجه مسلم.

الفكري، يقول: «واقعُ حياةِ النبيِّ ﷺ المباركةِ، وإرشاداته، وتعاليمه، تخلُق ذلك الجوَّ الذي تخضرُّ فيه شجرة الدين، وتورِقُ وتثمرُ.

إنّ الدين ليس مجموعة من الضوابط الخلقية الجافة، إنّه لا يبقى حياً بدون العواطف، والوقائع، والأمثلة العملية، وخير مجموعة موثوقٍ بها لهذه العواطف والوقائع والأمثلة العملية هي مجموعةُ الحديث النبوي التي أصبحت من خصائص الأمة الإسلامية»(١).

٣ ـ التاريخ الإسلامي:

ويستوحي الشيخ التاريخَ الإسلامي لاستنهاضِ الأمة من كبوتها، **فالتاريخُ هو ذاكرةُ الأمة، ومخزنُ عبرها، ومستودعُ بطولاتها**. وكثر استيحاؤه من جيل الصحابة رضي الله عنهم ومَنْ بعدهم من التابعين، وثَمّ جميع من لهم مواقف محمودة في الإسلام، يقول الدكتور أحمد بن عبد العزيز الجليبي: «قلَّ أن يخلو كتاب من كتب أبي الحسن الندوي، أو مقال من مقالاته، أو محاضرة من محاضراته من سرد واقعةٍ أو استنتاجِ عبرةٍ، أو استشهادٍ بسيرةٍ، أو منادمةِ طللٍ، مما يدلُّ على قراءة متأنية للتاريخ، وسعة اطلاع لمصادره المتنوعة، مما مكّنه من الاستفادة من دروسه، واستلهام مثله، وتوظيف مواعظه في استنهاض الهمم، وبناء المستقبل، وربطه بالماضي، ووهبه نظرةً شاملةً لم تقتصر على تاريخ الإسلام مع عنايته به، واهتمامه بتاريخ سيرة

---

(١) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، ص١٧.

الرسول ﷺ وأصحابه وخلفائه خاصة رضي الله عنهم أجمعين، بل امتدت لتشملَ كذلك التاريخ الأوروبي والشرقي، وهي ثقافة تاريخية ممتزج بها كتابات الندوي، قلَّ أن يتمتعَ بها غيره من معاصريه، منحته قدرةً فاحصةً على الموازنة بين الأمور والمواقف والأحداث المستجدة، وتقييمهاو ودراسة المجتمعات وتطوراتها، ومعرفة حقائق الوقائع، وإدراك آثارها»[1].

وقد عرف الشيخُ الندوي بكثرة استشهاده **بقصة ربعي بن عامر**، بل هو الذي استلفت الأنظار إلى ما تحويه من تمثيل لرسالة الإسلام، والقصة كما جاءت عند ابن كثير: «أرسلَ سعدُ قبل القادسيةِ ربعيَّ بن عامر رسولاً إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ـ فدخل عليه، وقد زينوا مجلسَه بالنمارق المذهّبة والزرابي، وأظهر اليواقيتَ واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجُه، وغيرَ ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلسَ على سرير من ذهب، ودخل ربعيٌّ بثياب صفيقة، وسيف وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داسَ بها على طرف البساط، ثم نزلَ وربطها ببعضِ تلك الوسائد، وأقبلَ وعليه سلاحُه ودرعُه وبيضتُه على رأسِه، **فقالوا له**: ضع سلاحَك.

فقال: إنِّي لم آتكم، وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعتُ.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأُ على رمحه فوق النمارق، فخرّق عامتها.

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي، ص٣٠٨ـ٣٠٩.

فقالوا له: ما جاءَ بكم؟.

فقال: اللهُ ابتعثنا لنخرجَ من شاءَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ اللهِ، ومن ضِيقِ الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقِهِ لندعوهم إليه، فمنْ قَبِلَ ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتّى نفضيَ إلى موعودِ الله.

قالوا: وما موعودُ اللهِ؟.

قال: الجنةُ لمن ماتَ على قتالِ مَنْ أبى، والظفرُ لمن بقيَ.

فقال رستم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمرَ حتى ننظرَ فيه وتنظروا؟.

قال: نعم كم أَحَبُّ إليكم يوماً أو يومين؟.

قال: لا، بل حتّى نكاتبَ أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ أن نؤخِّرَ الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمركَ وأمرهم، واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنتَ؟.

قال: لا، ولكنَّ المسلمون كالجسدِ الواحدِ يجيرُ أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟.

فقالوا: معاذَ الله أن تميلَ إلى شيءٍ من هذا، وتدعَ دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟.

فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، **إنَّ العربَ يستخفّون بالثيابِ والمأكلِ، ويصونون الأحسابَ**»[1].

٤ ـ الشعر الإسلامي:

كما أنه يستشهد كثيراً، ويستلهم من الشعر الإسلامي العربي والفارسي والأردي، وعنايته بإقبال معروفةٌ، وقد ألّفَ عنه كتابه الذائع الصيت (**روائع إقبال**)، وأنقلُ هنا قطعةً من فصل (**شعراء العجم في مدح الرسول** ﷺ) من كتابه (**الطريق إلى المدينة**)، توضح استيحاءه من الشعر، يقول الشيخ وهو في حفلة شعرية تمثيلية:

«وكان أوّلَ من تقدّمَ في هذا النادي هو **الشيخُ سعدي**[2] صاحبُ الكتابين الخالدين اللذين يحتلاّن الصدارة في مكتبة الأدب العالمي، وهما (**كلستان**) و(**بستان**) حديقتان زاهرتان إلى هذا الوقت، وكان الشعر الذي تعلّق به القلب، ووقع عليه الاختيار شعراً سهلاً سائغاً، كان مثالاً للسهل الممتنع، وكأنّه بحرٌ صُبَّ في كأس، أو مكتبة حشيت في سطر واحد، يقول: «إنَّ اليتيمَ الذي نشأ أُميّاً وعاش أميّاً، ولم يقرأ القرآنَ في كتابٍ، استطاعَ أن ينسخَ مكتباتِ شعوبٍ

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) توفي عام ٦٩١هـ.

كثيرةٍ، فتفقد قيمتَها وحيويتهـا، وينشـئ مكتبةً جديدةً كانت مصدرَ العلم والعرفان، ومنهل كل رائد وظمآن».

وقد لخص في هذا الشعر تلك الثورة التي تفوق كل ثورة في القديم والجديد في عالم الأديان والأخلاق، والعلوم والآداب، والحضارات والمدنيات، والقيم والمفاهيم، وكيف تحققت هذه المعجزةُ على يد أمي، لم يجلس في كتَّابٍ يوماً واحداً، ولم يخطَّ سواداً في بياض، وكيف انبثقَ هذا العهد العلمي الجديد الذي لا ناسخَ له، وهذا الانفجار العلمي الذي خضعت له العصور والتاريخ، من أمية مطبقة لا تشوبها دراسةٌ ولا صناعةٌ، إنّها لغزٌ لا يحلّه إلا الإيمان بالقدرة الإلهية، وإنها غريبة لولا التواتر، ولولا البداهة، ولولا المشاهدة، ولولا التاريخ المقطوع بصحته لما جاز تصديقها والإيمان بها.

وجـاء الشـيخ **فريد الدين العطار** صاحـب (منطق الطيـر) وصاحـب الدواوين السائرة، والكتب المقبولة، فأنشد أبياتاً تكاد تسيلُ رقَّةً وعذوبةً، تجلَّت فيها الإنابة، والتواضع والخشية، والاعتراف بالتقصير، وطلبَ فيها أن يسعدَ بشفاعة الرسول ﷺ، وألاَّ يفتضح أمام العالمين، والذي هزّ قلبي، هو قوله «إنَّ له حقّاً لكونه سُمِّيَ باسمه الشريف[(١)]، والكرامُ يراعون الذين يسمَّوْن باسمهم ويعرفون الحق».

وجاء بعده شاعرُ الهند **الأمير خسـرو**، الذي سـلّم له شـعراءُ إيـران

---

(١) كان اسمه الذي سماه به أبوه (محمد) ولقب بفريد الدين واشتهر به، توفي عام ٦٢٧هـ.

بالزعامة، والإمامة، وشهدوا له بالإجادة والإبداع في الشعر الفارسي، كأبرز أبنائها وشعرائها، وقد استرعى انتباه المستمعين، وملك إعجابهم واستحسانهم بحسن إنشاده، ورخامة صوته، وحلاوة جرسه[1]، فكان مما قال:

«إنَّ أنفاسَه وأخلاقَه قد نفخت الحياةَ في العرب، الذين كانوا في الاحتضار، وأطفأت في وقتٍ واحدٍ شعلةَ أبي لهب[2] الوهّاجة، التي كادت تأتي على الأخضر واليابس، إنه وصل خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[3]، وفي جولة من العالم المادي إلى العالم الروحي».

وجاء مولانا **عبد الرحمن الجامي**[4] الذي يعتبَرُ مِنْ أكبر شعراء المديح النبوي في التاريخ الإسلامي، وقد تغنَّى بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء في جميع البلاد التي تفهم اللغة الفارسية، فأنشدَ أبياتاً من قصيدة له سارت بها الركبان، ورقت في اللفظ والتعبير، فكان مما احتملته الترجمة قوله:

«يا مَنْ نسبُه عربي، ولقبه أمي، لقد دانَ بولائك، وخضعَ لسيادتك العربُ والعجمُ سواءً، إنَّ فصاحتَكَ استأسرت العربَ، وإنَّ ملاحتك ملكت قلوبَ العجم، ما ضرَّك ألاَّ تقرأ ولا تكتب، فبفضل جهودِكَ وبعثتك تعلَّم

---

(١) يعدُّ الأمير خسرو من أئمة فنون الموسيقا والألحان والإيقاع والنغم، ومن مؤسسيها المجتهدين في الهند، توفي عام ٧٢٥هـ.
(٢) يعني به زعيم الكفر والجاهلية وقد اتخذ شخصية أبي لهب كرمز لهذا الاتجاه.
(٣) يشير إلى الإسراء والمعراج.
(٤) توفي عام ٨٩٨هـ.

الأميون، ونبغ الجاهلون، بك ابيضَّت صحيفةُ الأعمال، وأشرقَ نورُك في الظلماتِ، فلا ضيرَ ألاَّ تخطَّ سواداً على بياض، أو تضمَّ سواداً إلى سواد».

وقد اهتزّ لهذا الشعر الرقيق البليغ السامعون، وترنَّحت أعطافهم، فاستزادوا الشيخَ، وأنشدوا الشعر العربي القديم، فإنّ الشيخَ من كبارِ فضلاء العربية، ومن أئمة النحو والبلاغة.

وحدّثتنا يا سعدُ عنهم فَزِدْتنا شُجُوناً، فزدنا مِنْ حديثكَ يا سَعْدُ

وطلبوا منه أن يذكرَ فضل البعثة المحمدية ومنها على العالم الإنساني فأنشأ قائلاً:

«لقد كانت الكعبةُ قبلَ بعثته مشحونةً بأصنامٍ من الحجارةِ، وكانَ الحرمُ على سعته ضيّقاً على من طلبَ الله وسعى إليهِ، إنّه هو الذي اجتثَّ هذه الأصنام، وقطعَ دابرها، واستأصلَ شأفتها، وألقاها في مهاوي العدم، لقد رجعَ بفضله مقام إبراهيم إلى مكانته الأولى، وحقّقَ غايته في بناء البيت الحرام».

وقد استحسنَ ذلك الحاضرون، وقد عرفوا أنه سافر على جناح الشوق إلى المدينة، ووقفَ على قدم الحب في المسجد النبوي، وأملاه حبه وشوقه الشعر الرقيق الرائق الذي طار في الآفاق، وسار مسير المثل، فاقترحوا عليه إنشادَ قطعةٍ من هذه القصيدة الشوقية، فكأنّه صادفَ رغبةً فيه، وأثار قيثارته، فانطلقت منها نغمات، فكان مما قال:

«لقد كان من سعادتي الكبرى أنْ وصلتُ إليك، فكان من شكري

واعترافي بهذه النعمة، وكان من هيامي وغرامي أن كنست بأجفاني ومقلتي غبارَ طريقك، وسجدتُ لله شكراً في المسجد، وجعلتُ روحي فراشةً تتهافتُ على سراجك المنير، هطلت سحابةُ عيني التي كان عهدُها بعيداً بالمنام، فنضحت بمائها عتبةَ بيتك ومدفنك، لقد سعيتُ إلى منبرك فمسحتُ بوجهي قوائمه، ووقفتُ في محرابك وسجدتُ لله، وغسلتُ موضعَ قدمك بدم العين لا بدمعها، لقد وقفتُ أمامَ كلِّ سارية، وسألتُ الله أن يرزقني مقامَ الصادقين الذين صلّوا إلى هذه السواري في صدق وإخلاص».

وقد كان في المجلس بعضُ العلماء، فرفعوا رؤوسهم عندَ بعض الأبيات، ونظروا إلى الشاعر شزراً، وإلى المترجم إشفاقاً وحذراً، وكأنّهم خافوا مِنْ تورّط الشاعر في بعض ما لا يجوزُ، فقلنا: إنّ الشاعر من الراسخين في العلم، ومن أصحاب العقيدةِ الصحيحة، ولكنّها لغةُ الحب والشعر، لا لغة الفقه والكلام، وإنّها مجازاتٌ واستعاراتٌ، لا حقائقُ وقضايا.

وتستمرُّ هذه الحفلةُ الشعرية بشعراء الفارسية ثم بشعراء الأردية طويلاً، وكل ما اختاره من الأبيات الشعرية حافل بالحبّ والشوق، يستثيرُ المواجيدَ، ويبعثُ الأذواقَ والشجون.

جـ - منهجه في الدعوة

قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ

بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فعناصر الدعوة كما وردت في الآيتين الشريفتين: **الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال الحسن**.

و**الحكمة** هنا هي بداية الحوار، وهو الإقناع عن طريق الأدلة العقلية، وهي **المرحلة الأولى**، وأمَّا **الموعظة الحسنة فهي المرحلة الثانية** في الحوار، والدلالة على الخير، وتكونُ بالكلمةِ الطيبة والأسلوب الإيجابي المحبب، البعيد عن الانفعال والعنف، وأما **المرحلة الثالثة فهي الجدال بالتي هي أحسن**، وهو الحوار المرن البعيد عن التعصب والتزمت، وهذه العناصر الواردة في القرآن الكريم هي المناهجُ التي تبناها رسل الله وأنبياؤه، ثم الدعاة من بعدهم في كل زمان ومكان للدعوة إلى الله عز وجل، واقتفى الشيخ الندوي آثارهم فيها.

يقول الشيخ **القرضاوي**: «فقد عرفناكم منذُ نحو ثلاثين عاماً داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابي البنَّاء في كلّ مجال، جوّاباً للآفاق في سبيل الله، محاضراً، ومحدّثاً، ومحاوراً، وواعظاً وهادياً، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية التي اختارتكم، وفي المؤتمرات والندوات التي دعتكم للإسهام فيها، وآخرُها مؤتمر **السيرة النبوية والسنَّة** المنعقد في قطر[1]، والذي أجمع أعضاؤه على اختياركم نائباً لرئيسه ومتحدّثاً باسم وفودِه»[2].

---

(١) انعقد المؤتمر في المحرم عام ١٤٠٠هـ في الدوحة.

(٢) رسائل الأعلام، ص٧٨.

كان الشيخ هادئاً في مواعظه في عامَّةِ الأحوال، ولكن أحياناً تأخذُه الغيرةُ، فيشتدّ، يقول الشيخ **القرضاوي** وهو يصف ما آتاه الله من العقل والحكمة: «ولهذا نجده يقولُ الكلمةَ الملائمةَ في موضعها الملائم، وفي زمانها الملائم، ويشتدُّ حيثُ يكون كالسيل المتدفق، ويلينُ حيث ينبغي اللين، حتّى يكونَ كالماء المغدق، وهذا ما عُرف به منذُ شبابه الباكر إلى اليوم»[1].

ويقول الأستاذ **عبد القدوس أبو صالح**: «ولعمري لقد رأيتُ وداعةَ الحمل تنقلِبُ إلى صولة الأسد في موقفين لا أنساهما ما حييتُ، فأما **الموقف الأول** فقد كان في أحدِ مؤتمرات الهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في مدينة إستانبول، وقد أقام الشيخُ في فندق إسلامي، كان يسمّى فندق مكة، وجاء إلى زيارته في ضحى أحدِ الأيام الزعيم الإسلامي نجم الدين أربكان، ودخل على الشيخ في عنفوانه واعتداده بنفسه، يرافقه عددٌ من خواصه، ومن المعروف أنّ أربكان يفهمُ العربية، ولكنّه لا يجيدُ التكلّم بها، وقد بدأ الحديث بمعونة أحد أصحاب أربكان الذي كان يترجِمُ كلامَ الشيخ، وكان أربكان يتحدَّثُ عن طموحه، وطموح حزبه، ويقرِّرُ للشيخ أنّه سوف يصل بحزبه إلى تحقيق الأكثرية النيابية، وأنَّ الشيخَ إذا جاء إستانبول بعد الانتخابات القادمة فسوفَ يرى أربكان وجماعته متربّعين على سدة الحكم، وقد هزموا أعداءهم ومناوئيهم.

وكأنّما رأى الشيخُ في كلام أربكان اعتداداً زائداً عن الحدّ، ونظرةً إلى

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٧٣.

السياسة على أنها لعبة الكرّ والفرّ، ومضمار السبق إلى الحكم، فإذا به ينتفِضُ انتفاضةَ الليث الهصور، ويقول للزعيم الإسلامي: «لا تكن سياستُك قائمةً على حساب الربح والخسارة، ولا يكنِ الحكمُ لديك مجالاً لإظهار الغلبة والتسلُّط، والوصول إلى زخرفة الحكم وإغراء السلطة.. فالأمرُ أجلُّ وأكبرُ.. ولتعلم أنك بما أوصلك الله إليه، وما هيَّأه لكَ مطالَبٌ بأن تحمي إستانبول أن تعودَ إلى معسكر الكفر، وأن تمنعَ آيا صوفيا التي أصبحت مسجداً من أن تعودَ كنيسةً لأهل الصليب».

وكان الشيخُ يتكلَّم بحماسة وهيبة الصديقين، يشعُّ من كلماته وهجُ الصدق وحرارةُ الانفعال، وكنتُ أنظر إلى الزعيم الكبير يطامِنُ من عنفوانه، ويهدهد من اعتدادِه بنفسه، ثم ما تلبَثُ أن تطفرَ الدموعُ من عينيه، ويكبُّ على يد الشيخ يقبّلُها بتواضعِ المريدِ أمامَ شيخه الجليل.

وكان **الموقف الثاني** أيضاً في إستانبول أيضاً، وكنتُ أمضيتُ سنواتٍ عديدة نائباً أولَ للشيخ في رئاسة الرابطة، وكانت لي مسؤوليات دعوية أخرى، وقد ازدحمت عليَّ المشاغل والمشكلات، وكنتُ أواجِهُ بعضَها في عملي بالرابطة، وبخاصة ما وقع بين أخوين كريمين من المسؤولين في الرابطة، وقد نزغَ الشيطان بينهما، وكنتُ كلّما حاولتُ رتق ما بينهما انفتق الرتق من جديد، مما حيّرني وأعياني، كما أعيا من أعانوني عليه، وكان مما زاد الطين بلة أَنْ وصلتْ إلى الشيخ ونحنُ في إستانبول رسالة عاجلة من أحد أعضاء الشرق، ومن ذوي المكانة لدى الشيخ نفسه، وقد صبَّ الرجلُ جام غضبه على العاملين في مكتب البلاد العربية للرابطة، متهماً إيّاهم بأنّهم لا يعطون للرابطة إلا فتات

أوقاتهم، وقد تكرّم الشيخُ فأطلعني على الرسالة، وعندئذٍ رأيتُ أَنْ لا مناصَ مما كنتُ عازماً عليه من تقديم استقالتي من المنصب، الذي أولانيه الشيخُ منذ وفاة نائبه الأول الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا، أحدُ روّاد الأدب الإسلامي رحمه الله. . وكان ممّا قلتُ للشيخ: لقد عملت في هذا المنصب سنوات عديدة، حاولت فيها أن أبذلَ ما أستطيعُ، ولكنّي لم أعد أستطيعُ الجمعَ بين هذا المنصب وبين مسؤولياتي الدعوية الأخرى، كما أنني لم أستطع إرضاءَ الصغار ولا الكبار في هذه الرابطة، ومضيتُ أدعم موقفي مسهباً في مشكلة الأخوين المذكورين، ثم أدلل بهذه الرسالة التي جاءت من الرجل ذي المكانة المرموقة. . ولكني ما كِدْتُ أنهي كلامي حتى انتفض الشيخ من هدوئه المعهود، وقال: اسمع يا فلان. . لو جئتني في منزلي في قرية (راي بريلي) لرأيتني أستعينُ بعجلةِ المعوّقين حين أنتقل من منزلي إلى المسجد، الذي لا يبعدُ أكثرَ من خمسين متراً. . ومع ذلك فقد قطعتُ المسافات الشاسعة لأحضر لقاءات الرابطة، وكلُّ ذلك ثقةً بك وبإخوانك. . ووالله لا تتركُ عملكَ في الرابطةِ. . لا تتركْ. . لا تتركْ. . فأمَّا مشكلة الأخوين فاقترح عليَّ ما تراهُ مناسباً لحلّها، وأما رسالة فلان. . فأنتَ الذي سوفَ تجيبه عنها. . وأما كثرةُ أعمالك فكلّ ما أقوله لك: سدِّد وقارب.

ولم أملك واللهِ أمامَ غضبة الشيخ وهيبته، وأمامَ ثقته ومودته إلاَّ أنْ أعاهِدَ الله ألاّ أتركَ العمل في الرابطة ما حييتُ»[1].

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي، عدد توثيقي خاص عن سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي، المجلد السابع، ١٤٢١هـ، ص١٣ ـ ١٤.

فالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال الحسن، هي الأسس التي انطلق الشيخ الندوي منها في دعوته، واتخذ مناهجه الدعوية في ضوئها، وهي: الإيجابية، والتركيز على المبادئ، والابتعاد عن الخلافيات، واتخاذ الوسائل المؤثرة، والأسلوب البليغ المؤثّر، وسأتحدّث عن كل واحدة من هذه النقاط فيما يأتي:

١ ـ الإيجابية:

اتخذ الشيخ الندوي الإيجابيةَ منهجَه الذي تميَّزت به دعوته من بين مناهج الدعاة المعاصرين له، ولم يؤثر عنه قط أسلوب الجدال العقيم، الذي عُرِفَ به المجادلون والمناظرون، حتّى في كتاباته عن الشيعة بل والقاديانية، وكره أسلوبَ دعاة التغيير بالقوة، والدعاة إلى العنف، في مواجهة الأوضاع السائدة، وعُرِفَ بنقدِه لبعض الحركات الإسلامية التي جعلت غايتها الأولى هي الوصول إلى كرسيّ الحكم، ولو كان ذلك عن طريق القوة والعنف، منهج الشيخ هو منهج الحكمة والاعتدال والبعد عن الغلو، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو من بعدِ ذلك منهج يقوم على مناصحة الحكام وإحسان الصلة بهم.

وكان دائم الاستشهاد بمنهج الشيخ أحمد السرهندي والدعوة إليه، وهو منهج إيصال الإسلام إلى أصحاب الكراسي، ولطالما تحدّثَ الشيخُ عنه وطبقه ودعا إليه، يقول الأستاذ عبد القدوس أبو صالح: «وأذكر أننا كنا في أحد مؤتمرات الهيئة العامة في إستانبول عندما لبيتُ دعوة كريمة من أحد كبار

أصحاب الزعيم الإسلامي نجم الدين أربكان، وقد حضر الدعوةَ عددٌ كبيرٌ جداً من رجال الفكر والأدب والسياسة والاقتصاد، وفي هذا اللقاء الحافل وُجِّه إلى الشيخ الندوي السؤال التالي: ما هُوَ - في رأي سماحةِ الشيخ - المنهجُ الأمثلُ للدعوة الإسلامية؟.. وأجاب الشيخُ الحكيمُ جواباً مسهباً قال فيه: «لو أننا وضعنا في كفّة الميزان ما بذلته الدعوةُ الإسلامية في العصر الحاضر من جهودٍ وأوقات، ومن محن وسجون، ومن دماء ودموع، ثم نظرنا إلى الكفة الأخرى لما رأينا توازناً ولا ما يشبه التوازن.. ولعلَّ السبب الأكبر في ذلك أنّ معظم العاملين في الدعوة وضعوا نُصب أعينهم الوصول إلى الحكم، وإزاحة الحاكم عن كرسيّه، بحجة أنّ سيطرتهم على الحكم سوف تمكّنهم من تحقيق أهدافهم الإسلامية.. ولكنّ الحاكم الذي ربط مصيره وحياته بالكرسيّ الذي يتربع عليه ما إنْ يحسّ بما يتهدَّدُ كرسيَّه من خطر حتى ينسى كل شيء، ويستعينُ بكلِّ شيء حتى يحتفظَ بكرسيه الذي يعدل حياته.. ومهما كان لهذا الحاكم من إيجابيات قلّت أو كثرت فإنه سوف يضعها وراءَ ظهره، حتى يبطشَ بأولئك الذين هدّدوه في حكمه أو في حياته، لأنَّ كرسيَّ الحكم يعدِلُ عنده حياته. ولو أنَّ الدعاة إلى الإسلام جعلوا منهجهم إيصال الإسلام إلى الجالسين على كراسي الحكم، مع موالاة النصح لهم بما يصلحهم، ويعود بهم العود الحميد إلى الإسلام لكان في ذلك تحقيق كثير مما يهدف هؤلاء الدعاة من نصرة للدين وإعلاء لكلمة الله»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص١٤.

٢ ـ الابتعاد عن الخلافيات:

كان الشيخُ أبعدَ الناس عن الخلافيات، وكان يكره إثارةَ المسائل التي تنفّر المسلمين بعضهم عن بعضهم، أو تسبّبُ عداءً بينهم وشقاقاً في الصفوف، وكان يرى أن نقاشَ الآراء الفقهية والمذاهب المختلفة موضعُه المدرسة، وليس المنابر ولا المجالس والاجتماعات الشعبية العامة، كما أنه لم يكن الشيخُ من متتبعي الهنات وصيادي الأخطاء، بل كان أحرصَ الناس على ستر العورات والتغاضي عن الأخطاء والزلات في أدب الإسلام، والمتتبع لمنهجه يلحظ حرصه الكامل على وحدة الصف بين أبناء الصحوة الإسلامية، واجتهاده لتأليف القلوب وكسبها لصالح ما يدعو إليه، وشد العُرَى لنقاط الالتقاء.

يقول الشيخ **القرضاوي**: «كان منهجُ الشيخ يتّجه إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق، وكان يتجنَّب إثارة الخلاف بين المسلمين، ويمس القضايا الشائكة مسّاً رقيقاً، تتمثل فيه الحكمة البالغة، والحوار بالتي هي أحسن، وقد وفق في هذا توفيقاً قلَّ أن يتوفّر لغيره، ذلك لطبيعته السمحة، وصدره الرحب، وخلقه العذب، وقدرته على معالجة المشكلات الصعبة بطريقة سهلة وأسلوب حكيم»[1]، «وأنا أشبهه بالإمام الشهيد حسن البنّا رحمه الله الذي كان حريصاً على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبني ولا نهدُم، ونجمعُ ولا نفرِّقُ، ونقرِّب ولا نباعِدُ، ولهذا تبنى قاعدة (المنار) الذهبية **(نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)**. . وهذا هو توجه شيخنا

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٣.

الندوي، فهو يبتعد ما استطاعَ عن الأساليب الحادة، والعبارات الجارحة، والموضوعات المفرّقة، ولا يقيم معارك حول المسائل الجزئية، والقضايا الخلافية»[1].

٣ ـ استخدام أفضل الوسائل:

استعمل وسائل العصر المتاحة لديه في أداء مهامه من الخطاب في المسجد، والمحاضرات العلمية والثقافية في الجوامع والجامعات والمعاهد والمنتديات، والصحف والمجلات، والإذاعة، يجوبُ الأقطار، وكان يرى أنّ أهمَّ أدوات الإعلام في الحياة الإسلامية تتركز في المسجد والمنهج التعليمي والسلوك الاجتماعي والكتاب، وهذه الأدوات يجب أن توضعَ تحت سيطرة العدول، وليس العكس مثلما هو الحال في الكثير من البلدان.

واستخدم أسلوباً دعويّاً مؤثراً في علاج المشكلات ومواجهة التحديات، وكان حديثُه في غاية العمق، يغوصُ على المعاني غوصاً، ويستخرج اللآلئ المكنونة من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ويعرِضُها بأسلوبٍ شيّقٍ، وروح شفافة، وقلب حي مليءٍ بمحبة الله ورسوله ﷺ، غيور على الإسلام وأهله، حريص على إنقاذ الأمة من الضياع الذي تعيش فيه، وكان صادقاً مع الله ومع نفسه، ومع سامعيه، وهو يتحدّثُ بكلِّ جوارحه ومشاعره، فكان حديثُ القلب ينفذُ إلى القلوب، ويقول الشيخ الطنطاوي منبِّهاً إلى طريقة التعليم التي

---

(١) المصدر السابق، ص٨٢.

اتخذها أسلوباً في الدعوة: «فيا أخي أبا الحسن اثبت أنتَ وجماعتك على ما أنتم عليه، فإنِّي لا أعرفُ اليومَ في أساليبِ الدعاة مَنْ هو أصحُّ منكم أسلوباً وإذا كان من بنى حصناً أو قاد جيشاً من العظماء فأبو الحسن بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمةً من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين».

ويقول الشيخ القرضاوي: «وآتاه الله البيان الناصع، والأدب الرفيع، كما يشهدُ بذلك كلُّ من قرأ كتبه ورسائله، وكان له ذوق وحس أدبي، فقد نشأ وتربى في حجر العربية وأدبها منذ نعومة أظفاره، وألهم الله شقيقه الأكبر أن يوجهه هذه الوجهة في وقت لم يكن يُعنى أحد بهذا الأمر، لحكمة يعلمها الله، ليكونَ همزةَ الوصل بين القارة الهندية وأمة العرب، ليخاطبهم بلسانهم فيفصح كما يفصحون، ويبدعَ كما يبدعون، بل قد يفوق بعضَ العرب الناشئين في قلب بلاد العرب.

ولقد قرأنا الرسائل الأولى للشيخ الندوي التي اصطحبها معه حينما زارنا في القاهرة سنة ١٩٥١م ومنها **(من العالم إلى جزيرة العرب)** و**(من جزيرة العرب إلى العالم)** و**(معقل الإنسانية)** و**(دعوتان متنافستان)** و**(بين الصورة والحقيقة)** و**(بين الهداية والجباية)**.. وغيرها. فوجدنا فيها نفحات أدبية في شذاها وفحواها، حتى علَّق الشيخُ الغزاليُّ رحمه الله على تلك الرسائل بقوله: «**هذا الدِّينُ لا تخدمه إلا نفس شاعرة**» فقد كانت تلك الرسائل نثراً فيه روح الشعر، وعبق الشعر.

وقرأنا بعدها مقالة: **(اسمعي يا مصر)**، ثم **(اسمعي يا سورية)**، **(اسمعي يا زهرة الصحراء)**، **(اسمعي يا إيران)**، وكلها قطرات من الأدب المصفى.

وقرأنا ما كتبه في مجلة **(المسلمون)** الشهرية المصرية، التي كان يصدرها الداعية المحبوب المعروف الدكتور سعيد رمضان، ما كتبه من قصص رائع ومشوق عن حركة الدعوة والجهاد، التي قام بها البطل المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، وما كتبه من مقالات ضمّنها كتابه الفريد **(الطريق إلى المدينة)**[1].

* * *

(١) المصدر السابق، ص٧٤ ـ ٧٥.

الفصل الثالث

مربٍّ جليلٌ

لا يخفى على المطلع الخبير أنَّ نظامَ التعليم له روحٌ وضميرٌ كالكائن الحيّ له روح وضمير، إنّ روحَ نظام التعليم وضميره إنّما هو ظِلٌّ لعقائد واضعيه ونفسياتهم، وغاياتهم من العلم ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة، ومظهر لأخلاقهم، وذلك ما يمنحُ نظامَ التعليم شخصيةً مستقلة، وروحاً وضميراً بذاتها، إنَّ هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً، إنها تسري في جميع العلوم، في الأدب والفلسفة، والتاريخ والفنون، والعلوم العمرانية، حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح، وليسَ في وسع كلّ شخصٍ أن يميّزَ بين الصحيح والسقيم منها، وإنَّما يتيسّر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد، وملكة النقد القوية ما يستطيعُ به أن يميز الجزءَ النافعَ من الجزء الضار، فيكون عاملاً بمبدأ (**خذ ما صفا، ودع ما كدر**) ويفرّقُ بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها.

ولقد أَوْلى الشيخُ الندوي جانبَ التربية اهتماماً بالغاً، لأنها هي التي تصنعُ أجيالَ المستقبل، والتهاونُ فيها تهاونٌ في الثورة البشرية للأمة، وكتب في ذلك رسائل، أبرزها: (**التربية الإسلامية الحرة**)، كما ناقش كثيراً من قضايا

التربية في كتابه: (**كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟**).

كما شارك الشيخُ بنفسه في هذا المجال علماً وعملاً، وربّى فأحكمَ التربية، وكان يؤمنُ بأنَّ التربيةَ تنبع من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ويستعينُ بسير الصحابة والتابعين، ويستهدي بالقدوة المعصوم وسير المجددين من أئمة الهدى على مرّ التاريخ الإسلامي كله، يقول وهو يؤكد أنَّ التربيةَ والتعليمَ أكبرُ أمانةٍ ومسؤوليةٍ: «إنِّي لا أعرفُ أمانةً أكبرَ مسؤوليةً، وأشدَّ خطراً، وأعمقَ أثراً في مستقبل الأمة وحياتها من التربية والتعليم، فزلةٌ من زلاتها قد تُردي أمة بأسرها في هاوية، وقد تودي بها إلى الاضمحلال والتفسخ.. كذلك يمكنها وحدها أن توجه العقول والنفوس توجيهاً صالحاً، وتنشئ الأمة نشأة جديدة، وتبني لها مستقبلاً باهراً»[1].

والتعليمُ في نظام التربية الإسلامي ـ لدى الشيخ ـ مرتبطٌ بطبيعة الأمة الإسلامية الخاصة، باعتبارها «أمة ذات مبدأ ورسالة، ودعوة، فيجبُ أن يكونَ تعليمُها خاضعاً لهذا المبدأ والعقيدة وهذه الرسالة والدعوة، لأنَّ التعليمَ أداةٌ لإنشاء الأجيالِ التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدينُ بهذه العقيدة، وتحمِلُ هذه الرسالة، وتؤدي هذه الدعوة، وكل تعليم لا يؤدي هذا الواجب، أو يغدر بذمته، ويخون أمانته، فليس هو التعليم الإسلامي..»[2].

---

(١) التربية الإسلامية الحرة.
(٢) المصدر السابق، ص٧.

التحذير من مخاطر النظام التعليمي الغربي:

وكان الشيخُ يحذِّرُ من مخاطر النظام المستورد تحذيراً شديداً، ويرى المؤسسات والمعاهد التعليمية والتربوية الغربية مجازر للأفراد والشعوب والأمم، وبؤرة للفساد، يقول: «لا يخفى على المطلع الخبير أنّ لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي، له روح وضمير، إنّ روحَ نظام التعليم وضميرَه إنما هو ظل لعقائد واضعيه، ونفسيتهم، وغايتهم من العلم، ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهر أخلاقهم. . إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً. . تلك هي قصة نظام التعليم الغربي. . فإذا طبّق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة، أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي، ثم يتدرّج ذلك إلى تزعزع العقيدة، والردة الفكرية، وأخيراً إلى الردة الدينية.

وما أحسنَ ما كتبه أحد علماء الغرب النافذين ـ محمد أسد ـ فإنّ التنشئةَ الغربيةَ لأحداثِ المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخالصة، التي جاء بها الإسلامُ، وليس ثمَّةَ مَنْ يرتابُ في أنَّ العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا على أسس غربية»[١]، ولذلك يرى أنَّ نظام التعليم الغربي محاولةٌ عميقةٌ وخفيةٌ لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه، ونقل عن

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣ ـ ٢٦.

بعض شعراء الهند: «إنّ فرعونَ كان يكفيه عن تذبيح بني إسرائيل أن ينشئ لهم كلية يكيّفُ عقولهم فيها كما يريدُ دونَ أَنْ يريقَ دماً، ولكنّه كان غبياً».

استقلال التربية الإسلامية:

يدعو الندوي إلى أن يكونَ للتربية الإسلامية استقلالها، فتقومَ على أسس الإسلام ومبادئه وقيمه وأخلاقه وشريعته ومنهاجه، ولا تستمدّ فلسفتَها من الغرب ولا من الشرق، في حين تقتبس وسائلها وآلياتها من حيث شاءت، في إطار أصولها المرعية، «**فالحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ أنّى وجدَها فهو أحقُّ الناسِ بها**». وهو ينكِرُ على التعليم القديم طرائقه في العناية بالألفاظ والجدليات، كما ينكرُ على التعليم الحديث إغفاله للروح وأهداف الحياة، وينقل عن إقبال قوله: «إنّ التعليمَ الحديثَ لا يعلِّمُ عينَ الطالب الدموعَ، ولا قلبه الخشوع».

ويقول الشيخ: «لا بدَّ من بَدءِ عمليةِ تطويرِ المناهجِ لهذا الغرض ـ نداء الوقت وحاجة العالم المعاصر ـ وسبك منهج تعليمي جديد، يتغلغلُ في أحشائه الإيمانُ بالله، ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته، في الأوساط العلمية في الشرق»[1].

يقول الشيخ القرضاوي: «ولقد أولى شيخُنا جانبَ التربية اهتماماً بالغاً، لأنها هي التي تصنعُ أجيال المستقبل، والتهاون فيها تهاون في الثروة البشرية للأمة، وقد نقل الشيخ عن بعض شعراء الهند «إن فرعون كان يكفيه عن تذبيح

---

(١) المصدر السابق، ص٤١.

بني إسرائيل: أن ينشئ لهم كليةً يكيّف عقولهم فيها كما يريد، دون أن يريق دماً، ولكنه كان غبياً»[1].

الأسوة:

وكان أهم جوانب تربيته بتقديم **الأسوة الصالحة**، فكان المثلَ الصادقَ في صدقه ووفائه، ونبله وكرمه، وحبه لإخوانه، متميزاً بالزهد والورع وكثرة التلاوة للقرآن الكريم، والحرص على المأثورات من الأذكار وأدعية اليوم والليلة.

وعُني عناية كبيرة بتربية السيرة، يقول وهو يركّز على وظيفة المعاهد التعليمية والجامعات من تربية السلوك والسيرة: «فلتوجد الجامعات سيرةً يربأُ صاحبها بنفسه عن أن يبيعَ ضميره بحفنة من شعير.

إنّ الفلسفاتِ والنظمَ المضادة للإسلام ترى أنّ إنسانَ اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمة أو بأخرى، فإن لم يرضَ بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها... وسرُّ النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربي السيرة، فتخرجَ رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأيِّ قيمة، مهما كانت رفيعة غالية، ولا تستطيعُ فلسفةٌ هادمةٌ أو دعوةٌ منحرفة، أو حكومةٌ ذات سياسة خاطئة، أو قوة مدمرة، مهما كانت لبقةً ذاتَ دهاءٍ، أن تشتريهم بأيِّ ثمن غال،

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٩٠.

ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال: (**نرى العنقاءَ أكبرَ أن تصادا**)»[1].

ويقول: «وبالمناسبة من أشدّ حاجات المجتمع الإسلامي الدائمة وجود ربانيين صادقين، متبعين لا مبتدعين، راسخين في العلم والدين، يربطون القلوب بالله ـ عند النكسة التي تصيب الحكومات الإسلامية، أو فتنة المادة والشهوات، والتنافس في البذخ والثراء التي تُمنى بها المجتمعات المسلمة ـ ربطاً وثيقاً جديداً، ويبعثون في النفوسِ التساميَ عن الأغراض الخسيسة، والتكالبَ على حطام الدنيا، ويكرّهون إليها الحياة الذليلة، والمتعة الرخيصة، والخضوع المستكين للسلطات والثروات، وبيع الضمائر والذمم، ويحبّبون إليها الاستماتةَ في سبيل العقيدة والمبدأ، والشهادة في سبيل الله، ويحاربون اليأس القاتل، ويجدّدون الأملَ في روح الله، ونصره، ويشتغلون بالدعوة إلى الله وتربية النفوس..»[2].

البدء بتكوين الفرد المسلم:

يركّز الشيخ في دعوته على البداية بإصلاح الفرد، وأن يتم إعداده على «..الصفات الدقيقة السامية المثالية، والقوة الروحية الداخلية، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام،

---

(١) دور الجامعات الإسلامية المطلوب، ص٣٠.
(٢) القرن الخامس عشر الهجري، ص٣٦.

والإشـراك والتوحيد، والسـنَّة والبدعـة، والامتياز بالاشتغال بالحديـث الشريف، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين في عصور مختلفة. . »[1]، وأنه لا بد من جعل «وظيفة كل مدرسة إسلامية أو جامعة إسلامية أو مركز إسلامي للتعليم والثقافة أن تخرّجَ رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرة **بالتلاوة**، **وبتعليم الكتاب والحكمة**، **وبالتزكية**: الأركان الأربعةِ والمقاصدِ الأُولى التي كانت لها البعثةُ. . »[2]. وبذلك يكون الفرد المسلم هو «المؤمنُ القويُّ العليمُ، الصالحُ المصلِحُ، الذي يسخّر القوى الكونية والمادية، ويمتلك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسّع فتوحه ومغامراته، وهو في كلّ ذلك، وفي أوج قوته وسلطته، وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب، مؤمن بربه، خاضع له، مؤمن بالآخرة، ساع لها، مقر بضعفه، رحيم بالإنسانية، وبالأمم الضعيفة، حام للحق، يستخدم كلَّ قوته، وجهوده، ومواهبه، وجميع وسائله، وذخائره لخدمة الإنسانية، وتكوين المجتمع الصالح، وإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله. . »[3].

يقول الشيخ القرضاوي: «يرى الشيخُ أنَّ إصلاحَ المجتمعات لا يتم إلا بصلاح أفرادها، فهم لبنات البناء، الذي لا يقوَ البنيانُ إلا بسلامتها وقوتها،

---

(١) دور الجامعات، ص٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية، ص١٠٢.

وإنّما يتحقق صلاحُ الفرد من داخله لا من خارجه، ومن باطنه لا من ظواهره، أي بصلاح نفسه التي بين جنبيه قبلَ كل شيء، أو بصلاح تلك المضغة التي إذا صَلَحَتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[1].

مراكز التعليم والتربية:

يرى أنّ مراكزَ التعليم والتربية لن تكونَ إسلاميةً إلا إذا صدق انتسابها إلى مدرسة الرسول ﷺ، يقول: «. . . إنَّ لكل شيء نسباً. . . وكذلك كل مدرسة لا ينتهي نسبها إلى صفة المسجد النبوي ـ على صاحبه الصلاة والسلام ـ فلا تستحق أن تسمى مدرسة، لأنها آنئذٍ منطلق الجهل والضلال، ولست موضع دراسة، وعلم وهدى. . »[2].

ويقول وهو يخاطِبُ طلاّب دار العلوم لندوة العلماء: «إنّ الطبقة التي تتزعّم الآن شؤونَ المسلمينَ تعد الحضارة الغربية قدوة، والمرحلة الأخيرة للتجارب البشرية، وتعتبرها المحاولةَ الأخيرةَ لتنظيم الحياة، والتجربة الناجحة الأخيرة لحل المشاكل البشرية، وتراها تخلف النظام الإسلامي، وتعتقد أنّ نظام الإسلام قد فقد صلاحيته، ولا يصحُّ تكليفه دخول معركة الحياة، هذه المسألة التي قد غطت العالم الإسلامي كشعلة أو نار متأججة، لا يسلم منها طبقة أو فرد من أفراد البشر.

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١١٤.
(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، ص٢٠ ـ ٢١.

هذه مؤامرة فكرية وسياسية وإدارية يجبُ علينا محاربتها، وإقناع الطبقة المثقفة، وإعادة إيمانها بـأن الإسـلام أهل لمواكبـة هذا العصر، وقيادتـه وتوجيهه، هذه هي فتنة العصر (أن الإسلام لا يقدر على مواكبته) يجب عليكم أن تقرروا أن الإسلام لا يقدر على مواكبته فحسب، بل يقدر على إنقاذه من الهلاك الذي وقع فيه، ويوجهه إلى الصراط، ويفيض عليه بالبركة، ويعلمه منهج الحيـاة، فيجب عليكم أن تسـتعدوا لهذا النضال، قـد زُلْزلَ إيمـانُ المسلمين بالإسلام من أقصى الشرق من جزر إندونيسية إلى المغرب الأقصى بمؤامرة من أمريكة وأوروبة، يعبر عن تطبيق الإسلام بالرجعية والأصولية حتى يخجلَ منه إنسان مثقف، يجب عليكم أن تتقدّموا وتقوموا بالجهاد الذي يقول الناس بعده في اعتزاز إننا أصوليون، وإن الأصولية هي التي تقدر على إنقاذ العالم، وإن بؤرة الفساد غياب الأصولية، فلا أصول، ولا مقياس، ولا حدود، إنما هي أهواء وعبادة للشهوات والسلطة، فيجب عليكم أن تستعدوا لهذا الجهاد.

ثم يقول ـ وهو يستلفت أنظار الطلاب إلى أكبر ما يحتاج إليه العصر الحديث ـ: «لا يستحق أن يدعى مجدداً للإسلام إلاّ من يقرر تفوّق الشريعة الإسلامية، ويربط الحياة بها، ويقرّرُ أنّ الشريعة الإسلامية تترجح على القوانين الوضعية، إنّها تتقدم العصرَ، وأن العصر لا يتقدمها، ومهما أحرزَ العالمُ من تقدم ورقي فإنّ الشريعة الإسلامية تحمِلُ صلاحيةَ توجيهه وقيادته، وتعالجُ مشاكله، إنها تقدّرُ على تنظيم مجتمع بالغ أحسن قدره».

إعداد العلماء والدعاة:

يرى الشيخ أنّ أهم الواجبات في سبيل التربية الإسلامية هو **إعداد العلماء والدعاة**، الذين يجمعون بين المعرفة الإسلامية والرؤية العصرية، مع الغيرة الإيمانية والأخلاق الربانية، وأن المسلمين أحوج ما يكونون اليوم إلى الداعية البصير، والعالم المتمكن، الذي إذا استقضى قضى بحق، وإذا استفتى أفتى على بينة، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة، يقول: «. . المسلمون في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعة، تجمعُ بين تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب، والحكمة وتزكية النفوس، تخلفُ الرسولَ ﷺ في أمته بعد انقطاع النبوة، وتجدّدُ صلتها بالله والرسول ﷺ، وتجدِّدُ الميثاقَ الذي دخلت فيه هذه الأمة، والمسلمون جميعاً عن طريق الإيمان، والنطق بالشهادتين»[١].

ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية المعاصرة:

هناك صحوة إسلامية في العالم الإسلامي، ونحن نجد اليوم أن رجالاً ونساءً من العلماء والفلاسفة وأصحاب الفعاليات الفكرية من غير المسلمين قد دخلوا في الإسلام، وهو دليل واضح على أنّ الإسلام قادم لا محالة، وأنّ العالم اليوم يبحث عن الإسلام، ولا بدّ له من الوصول إليه والتعرّف عليه.

والأمة الإسلامية اليوم تعيش مرحلة المخاض، وفيها من الصعوبات والمشاكل والآلام الشيء الكثير، ولكنّ النتيجة والنهاية هي الخير والسعادة،

---

(١) الإمام عبد القادر الجيلاني، ص٤٩.

والفرح بالمولود الجديد، وهو الإسلام، نعم الإسلام. وأما كيف ومتى؟ فمتروك لفضل الله تبارك وتعالى، ولكنّ البشائرَ تلوحُ في كل مكان ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

فالصحوة الإسلامية أحد الميادين الرئيسة التي ركز فيها الشيخ جهوده، وعُني بتربية شباب الصحوة بلسانه وقلمه وفكره وعلمه وجهده، فقد حضر الكثيرَ من المؤتمرات واللقاءات والمعسكرات التي نظّمها شبابُ الصحوة في الهند، وفي البلاد الإسلامية، وفي أوروبة وأمريكا، ثم إلى ذلك ما نشره من مقالات وألّفه من كتب وألقاه من خطب تدور حول دعم الصحوة وتقويمها.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي وهو يتحدّثُ عن عطائه نحو الصحوة الإسلامية: «**وأعظم ما يُخشى على الصحوة: الغلوُّ والتشديدُ في غير موضعه، والتمسّك بالقشورِ وترك اللباب، والاشتغالُ الزائد بالجزئيات والخلافيات، وسوءُ الظنّ بالمسلمين إلى حد التأثيم والتضليل، بل التكفير**». والشيخُ بطبيعته رجل معتدل في تفكيره، وفي سلوكه وفي حياته كلها: فهو قديم جديد، وهو تراثي وعصري، وهو سلفي وصوفي، ثابت ومتطور، في لين الحرير وصلابة الحديد. وهكذا يريد لجيل الصحوة أن يكون. لم يقيد الشيخ الندوي نفسه بالالتزام بجماعة معينة، فقد بقي حراً، يشرف على الجماعات من خارجها، فيرى من نواقصها ما لا يراه أعضاؤها، ويبصر نقاط ضعفها، فيوجّه وينصح، وينقد ويسدد، ولعل في ذلك خيراً.

كما لا يدّخر وسعاً في النصح لحكام المسلمين وزعمائهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وخصوصاً أنه لا يطمع في شيء من أحد منهم»[1].

وكان للشيخ الندوي أملٌ كبير في هذه الصحوة الإسلامية المباركة التي تنتظم العالم الإسلامي كله، لترد للإسلام مجده، وللمسلمين عزتهم وسيادتهم، وتتلخَّصُ ملاحظاته التي أبداها للمساهمين في هذه الصحوة والداعين إليها والعامل بها في محاضرته (ترشيد الصحوة الإسلامية) في النقاط التالية:

١ ـ أن تكون الصحوة موافقة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنَّة، بحيث تتفق وعمل الرسول عليه الصلاة والسلام والأسوة به والأسوة بالخلفاء الراشدين من بعدهم، وفهم الراسخين في العلم وعقيدة الجمهور من المسلمين، ولا تنساقَ في التيارات السياسية والاتجاهات المرتجلة.

٢ ـ وأن تتصف هذه الصحوة بشيء من التوسع والتعمق في الدراسة الدينية، وفي فهم الكتاب والسنَّة، ويرافقها ويقترن بها **الوعي المدني، وفهم القضايا المعاصرة، والحركات والتيارات العاملة النشيطة**، وموقفها من الإسلام، وأثرها في الحياة، وخطرها على مستقبل هذا الدين والجيل الإسلامي، والاطلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات.

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٩٢.

٣ ـ وأن لا تكـونَ هـذه الحركـة سلبيـة محضـة، تسـرِعُ إلى مجابهـة الحكومات والطاقات ذات القوى والوسائل، وتحدث لها مشكلات وعراقيل، فتضيع بذلك كثيرٌ من طاقاتها وأوقاتها، وتنشئ لها أعداءً، وقد تجاهدُ في غيرِ جهادٍ، وفي غير عدوٍّ.

٤ ـ وأن يتصف قادة الصحوة الإسلامية بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات والحياة الرغيدة الناعمة، ومنافسة أرباب المناصب والجاه فيما وسع الله عليهم في الدنيا، ويتسمون بسمة الزهد والقناعة والتوكل.

٥ ـ وأن يقترن نشاط هذه الصحوة بروح التضحية والبطولة، والجلادة والتقشف، والقدرة على المغامرات.

* * *

الفصل الرابع

موقفه من الجماعات الإسلامية المعاصرة

كان الشيخ الندوي بما آتاه الله من سعة القلب يرى مساعدةَ الحركات والجماعات في المجالات التي يتفق فيها معها، وكان يكره أشدّ الكراهية إحداثَ الشقاق والخلاف بين صفوف المسلمين، وكان عاملاً بمذهب ندوة العلماء التي كان يرأسُها أشدَّ العمل، ويتلخّص ذلك في كلمة جامعة: (خذ ما صفا، ودع ما كدر)، و«**الحكمةُ ضالَّةُ المؤمن، أنَّى وجدَها فهو أحقُّ بها**»، ومن ثَمَّ نراه اتفق عليه المسلمون في شرق الأرض وغربها، ولقد سمعتُه مرةً يعلّق على المقالة الشهيرة (الحق مر): إنَّ كثيراً من الناس يقلبونها فيرون أن المر حق.

وأذكر هنا قصةً على سبيل المثال، وهي أني قمتُ بتلخيص رسالة للدكتوراه، نال بها صاحبُها شهادة الدكتوراه من جامعة أوكسفورد عام ١٩٩٢م، وكان موضوع الرسالة (مقارنة بين فكر الشيخ الندوي وفكر الأستاذ المودودي)، قمت بتلخيص الرسالة باللغة الأردية، ثم قدمتها إلى الشيخ رحمه الله خلال زيارته لأكسفورد، فقرأها، وأُعجبَ بها، ولكنّه قال: لا ينبغي نشر هذا، لأن وضعَ الهند الراهن لا يسمحُ بإحداث الشقاق في صفوف

المسلمين، فأثّـر موقفه في قلبي تأثيراً كبيراً بما رأيتُه يقدّمُ مصالح الإسـلام والمسلمين على مصلحته الشخصية، رحمه الله رحمة واسعة.

ولا يعني ذلك أنه كان مجاملاً، يسكت على المنكر، بل كان مذهبُه الإنكارَ على المنكر في حكمة الداعي، وانتقاداته على جماعة الدعوة والتبليغ، وعلى الأستاذين المودودي والشهيد سيد قطب معروفة، ولكنها انتقادات علمية من غير وقوع في الأشخاص، بل لا يخفى على أهل العلم ما كان يكنّه من تقدير كبير لجهود جماعة الدعوة والتبليغ ولجهود الأستاذين أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب رحمهما الله تعالى، وفيما يلي ذكر لمواقفه من الجماعات العاملة في ساحة الدعوة والتربية الإسلامية.

موقفه من جماعة التبليغ:

قد مضى أنّ التقاء الشيخ الندوي بالشيخ محمد إلياس كان نقطةَ تحوّل في حياته، فرأى انّ التعليم وحدَه لا يكفي، والاعتزال عن الحياة لا يصحّ، وأنّه لا بدّ من الاتصال بطبقات الشعب، ودعوة المسلمين إلى مبادئ الدين، والخروج والعمل في سبيل هذه الدعوة وبثّها في القرى والمدن، وساهمَ في هذه الدعوة مساهمةً فعالةً، ولكن لما توفي الشيخ محمد إلياس رحمه الله شعر الندوي بأنّ الجماعة أصابها الجمود كغيرِها من الجماعات والدعوات، وأنّ النقاط التي كانت بداية للدعوة قد حصرت نفسها فيها لا تتعداها، ولا تخرج منها، وهذا يعارِضُ الفكر الجامع الذي آمن به الشيخ الندوي والذي لا يرى التبعيض أو تجزئة الإسلام، ومن ثَمَّ يقول:

«هذا عمل مشكور جداً، وإنْ كان يجب أن يكون فيه بعض من السعة والإلمام بنفسية الشباب المثقف الجدد، ومراعاة فهمهم وتقديرهم، ومراعاة أساليب تفكيرهم، ونطاق العمل لديهم محدود، وهو الاعتقاد الصحيح والعمل بالفرائض، **أما تثقيف العقول وتهيئة الشباب والجيل الجديد للتأثير في المتعلمين المثقفين وفي القادة فهذا قد يُغْفَلُ عندهم**»[1].

واستلفتَ أنظار المسؤولين عنها إلى هذه الناحية في حكمة وتواضع، وذكّرهم أنّ عمل الدعوة الإسلامية يحتاج إلى **اجتهاد في الفكر**، وأن يتبنى الداعية أحسن أسلوب وأفضل منهج **وفق كل ضرورة متجددة**، وحسب كل مجتمع جديد، **ولكنه لم يرَ منهم استجابة له**، ومع ذلك فقد ظل متعاوناً معهم، ولم يتظاهر لهم بخلاف أو شقاق.

موقفه من جماعة الإخوان المسلمين:

ولعلَّ أقربَ الدعاة إليه منهجاً في عصره هو **الإمام الشهيد** حسن البنا رحمه الله تعالى، والذي لم يتيسّر للشيخ الندوي اللقاء معه، لكن تعرّف عليه بما شاهده نتيجة جهوده في مصر والعالم العربي، وكان كثيرَ الثناء عليه، والإشادة بفضله وجهوده، يقول في تقديمه لـ(مذكرات الدعوة والداعية): «يتهيّبُ رجلٌ مثلي في قلّة بضاعته في العلم والعمل، وفي تخلّفه في ميدان الإصلاح والكفاح، وفي مجال التربية والإخراج، وفي حلبة التضحية

---

(١) أبو الحسن الندوي: نصائح وتوجيهات للشباب المسلم، ص٥٤.

والمحنة، وأن يتقدّم للكتابة والتعليق على كتاب للشيخ البنا رحمه الله» ثم يقول: «هذه الشخصيةُ التي هيأتها القدرةُ الإلهية، وصنعتها التربيةُ الربانية، وأبرزتها في أوانها ومكانها تدل على رجل موهوب مهيّأ، وليس من سوانح الرجال، ولا صنعته بيئة أو مدرسة، ولا صنيعة تاريخ أو تقليد، ولا صنيعة اجتهاد ومحاولة وتكلّف، ولا صنيعة تجربة وممارسة، وإنما هو من صنائع التوفيق والحكمة الإلهية والعناية بهذا الدين وبهذه الأمة، والغرسُ الكريمُ الذي تهيأَ لأمرٍ عظيم ولعملٍ جليل في زمن تشتدّ إليه حاجته، وفي بيئة تعظمُ فيها قيمتُه.

إنَّ كلَّ من عرف الإمام البنا عن كثبٍ لا عن كُتُبٍ، وعاشَ متصلاً به، عرفَ فضل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود، وفاجأت مصرَ، ثم العالم العربي والإسلامي كلّه بدعوتها وتربيتها وجهادها وقوتها الفذة، التي جمع الله فيها مواهب وطاقات، قد تبدو مستحيلة في عين كثير من علماء النفس والأخلاق ومن المؤرخين والناقدين، لأنها العقلُ الهائلُ النابه النيِّر، والفهمُ المشرق الواسع، والعاطفة القوية الجياشة، والقلبُ المبارك الفياض، والروحُ المشبوبة النضرة، واللسان الذرب البليغ، والزهد والقناعة ـ دون عنت ـ في الحياة الفردية، والحرص وبُعد الهمة ـ دونما كلل ـ في سبيل نشر الدعوة والمبدأ، والنفس الولوعة الطموحة، والهمة السامقة الوثابة، والنظر النافذ البعيد، والإباء والغيرة على الدعوة، والتواضع في كل ما يخص النفس.. تواضعاً يكاد يجمع على الشهادة به عارفوه، حتى لكأنه ـ كما حدّثنا كثير منهم ـ مثل رفيف الضياء، لا ثقلَ ولا ظلّ ولا غشاوة له.

وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادة دينية اجتماعية، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادة دينية وسياسية أقوى وأعمق تأثيراً أو أكثر إنتاجاً منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلامية يندر أن تجدَ في دنيا العرب خاصةً حركة أوسعَ نطاقاً وأعظم نشاطاً وأكبر نفوذاً، وأعظم تغلغلاً في أحشاء المجتمع، وأكثر استحواذاً على النفوس منها.

هذا وقد تجلت عبقرية الإمام البنا كداعٍ مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها في ناحيتين خاصتين، لا يشاركه فيهما إلا القليل النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين:

أولاهما: **شغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله**، وذلك هو الشرط الأساس والسمة الرئيسة للدعاة والقادة الذين يُجري الله على أيديهم الخير الكثير.

وثانيهما: **تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج**، فقد كان رحمه الله منشئ جيل، ومربي شعب، وصاحب مدرسة علمية فكرية خُلقية، وقد أثر في ميول من اتصل به من المتعلمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي مناهج تفكيرهم، وأساليب بيانهم ولغتهم وخطابهم تأثيراً بقيَ على مرّ السنين والأحداث، ولا يزال شعاراً وسمة يُعرفون بها على اختلاف المكان والزمان.

ولقد فاتني أن أسعد بلقائه في مصر وفي غير مصر، حتى كان حادثُ استشهاده الذي أدمى نفوس ملايين المسلمين، وحرم العالم الإسلامي هذه

الشخصية التاريخية الفذّة الفريدة، ولا أزال أتحسّر على هذه الخسارة التي كتبت لي».

ورأى الشيخ بعد شهادته أنّ جماعة الإخوان تحتاجُ إلى بعض توجيهات في الوضع الحرج الذي واجهته، فكتب رسالته (**أريد أن أتحدث إلى الإخوان**) قال فيه: «**إن مهمة الدعوة ورسالة التجديد الإسلامي ليست في قلب النظام أو تغيير وضع سياسي بآخر**، ولا حتى في نشر الثقافة والعلم، أو محاربة البطالة، أو معالجة بعض العيوب الاجتماعية كما يقول المصلحون في الغرب، وإنما هي دعوة الإسلام التي تحدث الانقلاب الجذري، لا في المجتمع فحسب، بل في عقل وقلب وروح وجسم الفرد المسلم، وهذه هي **دعوة الأنبياء الذين لم يفكروا بالوصول إلى الحكم، وإنما جاءتهم مكافأة من الله كوسيلة للوصول إلى إقامة الدين**، وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة، فكانت نتيجة وليست غاية، وفرق كبير بين الغاية التي يسعى إليها، والنتيجة التي تظهر، وهذا الفرق يظهر في نفسية العامل، فإن كانت غايتُه الحكمَ قعد وتوانى إذا لم ينله، أو انقطع أمله فيه، وإذا ناله نسيَ الدعوة، وانشغل بالحكومة.

وخطرٌ على كلِّ جماعة أن تجعلَ هدفها الحكم أن تنحرف عن الدعوة، لأن طريقَ الوصول إلى السلطة لا تتفقُ مع أساليب الدعوة، أما إذا توقف أمرُ إقامةِ الدين على الحكم سعينا له، بشرط أن تكون مبادئ الدعوة قد تغلغلت في نفوس الدعاة»[1].

---

(١) أريد أن أتحدث عن الإخوان، ص١٩ ـ ٢٦.

موقفه من الجماعة الإسلامية:

كان الشيخ الندوي معترِفاً بدور الأستاذ المودودي في تأثيره في **الجيل المسلم المعاصر**، يقول الندوي: «إنني لا أعرف رجلاً أثَّر في الجيل الإسلامي الجديد فكريّاً وعلميّاً مثل تأثير المودودي، فقد قامت دعوته على أُسس علمية أعمق وأمتن من أي أسس تقوم عليها دعوات سياسية، وكانت كتاباته وبحوثه موجهةً إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية، وفلسفتها في الحياة، وتحليلها تحليلاً علمياً، قلّما يوجدُ له نظير في الزمن القريب، وقد عرض الإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمه وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للركب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف»[(١)].

ولما أنشأ الأستاذ المودودي الجماعة الإسلامية عام ١٩٤٠م، وكان هدفُه الأساسي منها السعي لإقامة دولة إسلامية، وشاركه الشيخ الندوي فترةً من الزمن، وأصبحَ مسؤولاً عنها في لكنو، ثم اعتزلَ عنها لما رأى في كتابات الأستاذ المودودي، اتجاهاً يتَّسم بتفسير الإسلام في الأوضاع الراهنة بعيداً إلى حدٍّ ما عن منهج السلف الصالح، وغريباً عن الروح الديني الخالص، حتى انتقد أشياءَ من مناهجه في كتابه (**التفسير السياسي للإسلام**) شرحَ فيه بإخلاص ونصح الجوانب التي انحرفت فيها كتابات الأستاذ عن الجادة، وتغلّبَ عليها

---

(١) عبد الله العقيل: من أعلام الحركة الإسلامية، ص١٣٣.

اللون السياسي، وقام غيرُه من علماء الهند كذلك بالردّ على الأستاذ المودودي، ولكنه في الغالب ردٌّ جدلي عقيمٌ بعيدٌ عن العدل والصدق، متّسمٌ بالجنف والجور، فجاء كتاب الشيخ الندوي هذا كتاباً عادلاً، ومحاولةً مخلصةً ترمي إلى الإعراب عن خواطر وخلجات كانت تساوِرُ نفسَ المؤلف من مدة طويلة، وعمل بالوصية النبوية (**الدين النصيحة**) وهو محاسبة علميةٌ مخلصةٌ نزيهةٌ، الكتابُ نبراسٌ للذين ينشدون الحق والصواب، ويحرصون على تصحيح (الفهم الديني) وتصعيده وإكماله، والحق هو المقياس الوحيد لديهم أولاً وأخيراً، لا إرضاء لجماعة من الجماعات، مهما كان وثيق الصلة بها، ولا إرضاء لفرد من الأفراد، مهما كان عظيماً عنده، تقييم حر وبعيد عن كل عصبية جماعية وأحكام تقليدية.

فما هي النقاط التي يوافقُ فيها الشيخ الندوي الأستاذَ المودودي؟ وما هي النقاط التي يخالفه فيها؟ يقول الندوي: «لقد كان أساسُ إعجابي وتأثري وصلتي بالأستاذ المودودي منشورات الجماعة، تلك المقالات الناقدة التي كتبها الأستاذ في الرد على الحضارة الغربية، وفلسفتها للحياة، ووجهة النظر المادية المعاصرة التي جاءت معظمها في مجموعة مقالات باسم (**تنقيحات**)، وقد كان في هذا الصدد بيني وبين الأستاذ توافق وانسجام كانسجام صغير مع كبير، ومؤلف ناهض مع مؤلف محنك، ولا شأن لي بالتفسير الذي يتجلّى في كتابات الأستاذ كـ(المصطلحات الأربعة الأساسية في القرآن) و(تفهيمات) و(رسائل ومسائل)، وذلك لأن أمري في هذا الباب كان يختلف تماماً عن أمر شاب مثقف بالثقافة الإنكليزية يقتبس تصوّره للدين وفهمه كليّاً من كتابات

الأستاذ أو من كتب مفكر ومؤلف آخر، بدلاً من أن يقتبسه من مصادر الدين الأساسية ـ الكتاب والسنَّة ـ والبيئة والتربية الدينية.

ولذلك كنتُ عاجزاً ـ لدراستي الدينية المباشرة؛ واستفادتي من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين الذين كانوا أوسع وأعمق علماً في الكتاب والسنَّة، ونجد عندهم اجتهاداً في الفكر والرأي، وتعمُّقاً وإحاطةً في الدراسة ـ عن أن أعتبر الأستاذ مفكراً إسلامياً فريداً، يندر نظيره عبر القرون، إنّما كنتُ أعتبرُ ميزته الأساسية ذكاءه وألمعيته، وحدة ذهنه، وقدرته الفائقة على الكتابة، والعرض في أسلوب عصري مؤثر، ولا أزال أعترف له بذلك»[1].

يوافق الشيخ الندوي الأستاذَ المودودي في أنَّ إقامة الدين واجبٌ تفرضه الشريعة الإسلامية، يقول الشيخ الندوي: «ولا نجد هناك خلافاً فيما أعلمُ بين علماء الإسلام فيما يتّصل بالسعي وراءَ الحصول على سلطة وقوة تمكنان من تطبيق حاكمية الله على البشر تطبيقاً عملياً، وتنفيذ أحكامه وحدوده في المجتمع البشري، حتى لا تعودَ هناك قوة أو سلطة أو نظام أو طاعة أو حكومة معارضة توقعُ الناسَ في الصراع والفتنة، التي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

كما يجب الحصول على قوة ومكانة تملك بها الجماعةُ المسلمةُ القدرةَ على القيام بالأمر والنهي، ولا تكتفي بمجرد الدعوة اللسانية والترغيب البياني

(١) في مسيرة الحياة، ص١٦٥.

فحسب، ولذلك آثر القرآن ولسان الوحي التعبيرَ بكلمة (الأمر) و(النهي) ـ على سعة اللغة العربية وغناها ـ وهما تتطلّبان شيئاً من القوة والعلو والغلبة حتى يكون الإنسانُ في موقف الآمر والناهي، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، والحصول على هذه السلطة والقوة والجد والجهاد في سبيلها مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنية والنصوص القطعية ولا يجوزُ الإهمال فيه والتقصير عنه في حال من الأحوال»[1].

ولكنَّ الشيخ الندوي يرى أن الأستاذ المودودي يستعمِلُ إقامةَ الدين في معنى ضيق، فيقول الشيخ: «إنَّ كلمة إقامة الدين لا يجوز أن تجعل مرادفة لمجرد السعي وراء تأسيس الحكومة الإلهية، إنها أوسعُ وأجمعُ معنًى مما يستخدم في كتابات كثير من الكتّاب الإسلاميين المعاصرين. . . ووردت هذه الكلمةُ في موضع واحد من القرآن الكريم وذلك في الآية ١٣ من سورة الشورى ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وسياق الآية يدلُّ دلالةً مؤكدة على أن المراد به هو الدين بكل أجزائه وجميع تعاليمه ـ بما فيها العقائد والعبادات والمعاملات ـ وليس المراد هو مجرد الخلافة والحكومة والتمكن من السلطة

---

(١) التفسير السياسي للإسلام، ص١٤٣ ـ ١٤٤.

والحاكمية»[1].

كما أن الشيخ الندوي عارض المودودي في تفسير المصطلحات الأربعة في القرآن (الإله والرب والعبادة والدين) تفسيراً خاصاً يتميَّزُ بالطابع السياسي، وبما يخدم إقامة الحكم الإسلامي»[2].

ومن النصائح التي وجهها الندوي للجماعة الإسلامية هو وجوبُ الاهتمام بالجانب التربوي والروحي، لكي لا يطغى الجانب السياسي على بقية الجوانب»[3].

يقول الشيخ **القرضاوي**: «إنَّ للشيخ تحفّظاً على عرض بعض المفاهيم، أو بعض الوسائل والمناهج التي يتخذها بعضُ العاملين للإسلام في الوصول إلى الحكم الإسلامي، أو السعي إلى إقامة الدولة الإسلامية، التي تمكِّنُ لدينِ الله في الأرض، كما رأينا في كتابه **(التفسير السياسي للإسلام)**.. ومن ذلك التركيز على الحكم والدولة، وكأنها هي الهدف الأوحد للدعوة، والمبالغة في تصوير هذا الجانب، وكأنه الإسلام كله، بحيث لو أخفق الدعاة في هذا الأمر فكأنما أغلق باب الدعوة في وجوههم، وسُدَّ الطريق عليهم، فلم يبق لهم علم، ولم يعد لوجودهم من فائدة أو معنى»[4].

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص١٧ ـ ١٨.
(٣) عبد الله العقيل: من أعلام الفكر الإسلامي، ص١٣٠.
(٤) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص١٢٢.

ويقول الشيخ القرضاوي: «وما نسيتُ يومَ لقيتكم أخيراً في مؤتمر السيرة والسنَّة في قطر، وكان من أدبكم أن سألتموني رأيي في كتابكم الأخير الذي صدر بعنوان (**التفسير السياسي للإسلام**) وفيه نقدٌ لبعض كتابات الأستاذين المودودي وسيد قطب، وقلتُ لكم فيما قلتُ: كنتُ أفضل أن يكون عنوانه غيرَ هذا العنوان الذي يحمل إيماءً خاصًّاً، وقد يستغلّه بعضُ العلمانيين استغلالاً سيئاً، وأنا لا أُنكر أن ينتقَدَ العلامةُ المودودي، أو الشهيد سيد قطب، فلا عصمةَ لغير رسول الله ﷺ، وكل واحد بعد ذلك يؤخذ من كلامه ويترك، وهما مأجوران فيما اجتهدا فيه، أصابا أو أخطآ، وقد رحبتم ـ وجزاكم الله خيراً ـ بهذه الملاحظة، وتمنيتم لو سمعتموها قبل أن يصدرَ الكتاب بالعربية، فعنوانه بالأردية غير هذا العنوان. والمهم عندي أنكم لا تضيقون بالنقد صدراً، بل تطلبونه وتقبلونه ممن هو أصغر منكم سنّاً وقدراً، مقتدين بعمر رضي الله عنه الذي كان يقول: «رحمَ اللهُ امرءاً أهدى إليَّ عيوبَ نفسي»[(١)].

موقفه من التصوّف:

اختلف الناسُ في أمر المتصوّفين، بين متعصب لهم، يبرِزُ محاسنهم، ويتبنى وجهة نظرهم في كل شيء، ويحامي عنهم ولو خطأ، ومتعصب عليهم يذمّهم جميعاً، ويعلِنُ أن التصوف مذهبٌ دخيل على الإسلام.

والشيخ الندوي ذو طبيعة صافية، تغلِبُ عليه النزعة الصوفية الملتزمة

---

(١) رسائل الأعلام، ص٨١ـ٨٢.

البعيدة عن خرافات التصوف وأدعيائه، لأنه منضبط بضوابط الكتاب والسنَّة، ومتَّبع لمنهج السلف، ويرى **أنَّ التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد، وفيه عناصر إسلامية لا تخفى**.

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنَّة، وقّافين عندَ حدود الشرع، مطاردين للبدعِ والانحرافاتِ في الفكر والسلوك، ولقد دخل على أيدي الصوفيـة المتبعين كثيرٌ من الناس في الإسلام، وتابَ على أيديهم أعداد لا تُحصى من العصاة، وخلّفوا وراءهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر، أو متعصب عليهم.

غير أن كثيراً منهم **غلوا في هذا الجانب، وانحرفوا عن الطريق السوي**، وعُرِفَتْ عن بعضهم أفكارٌ غيرُ **إسلامية**، فتحوَّل التصوُّف من طريقة للتربية الخلقية والروحية إلى **فلسفة تشتمل على مفاهيم غريبة عن الإسلام، وانحرافات عن تعاليمه الأصيلة**، فمن ثَمَّ وجبَ **تقويم علوم التصوف بالكتاب والسنَّة**.

وقد ألّف الشيخ كتابه (**ربانية لا رهبانية**) وضَّحَ فيه موقفه من التصوف، وذكر أن المصطلح طغى عليه، فأما روح التصوف (**التزكية والإحسان**) فإنه أحد أركان الدعوة الإسلامية، والقرآن ينوّهُ به بلفظ (التزكية)، ولسانُ النبوة يلهجُ بدرجةِ فوقَ درجةِ الإسلام والإيمانِ ويعبّرُ عنها بلفظ **الإحسان**، ويقول: «فكان **الأجدرُ** بنا أن نسمي العلمَ الذي يتكفَّل بتزكية النفوسِ وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمالِ

الإيمانِ، والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، واتّباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنة وكيفياته الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسمّوه (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن) ولو فعلوا ذلك لانحسمَ الخلاف وزال الشقاق، وتصالح الفريقان اللذان فرّقَ بينهما المصطلح، وباعدَ بينهما المصطلح الشائع، فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائقُ شرعيةٌ علميةٌ، ومفاهيمُ دينيةٌ ثابتة في الكتاب والسنَّة، يقرُّ بها المسلمون جميعاً.

ولو ترك المتصوفون الإلحاح على منهاج عملي خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان، وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على الغاية دون الوسائل لم يختلف في هذه القضية اثنان»[1].

ويقول وهو يشير إلى جناية أخرى على هذه الحقيقة: «ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيءٌ آخر، وهو أنه **دخل فيها دجالون ومحترفون وباطنيون وملحدون، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وتزعموا هذا الفن، وحملوا لواءه،** فكان ذلك ضغثاً على إبالة، وزهد فيه ونفر منه أهلُ الغيرة الدينية، والمحافظون على الشريعة الإسلامية، وطائفة أخرى من غير المحققين لم يعرفوا روحَ هذه الشعبة وغايتها، ولم يميّزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحياناً، وضيعوا الغاية»[2].

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص١٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٢.

وأخيراً يضع أصابعه على مواضع الضعف في المجتمع الإسلامي، ويبحث عن أسباب الفوضى الفكرية والأمراض الخلقية التي تغلغلت في أحشاء المجتمع، ويصل إلى أن هناك فراغاً هائلاً يوجد في المجتمع، ولا بد من سد هذه الثغرة والفراغ، ويقول: «إنني لا ألحُّ على منهاج خاص من التزكية درجَ عليه جيل من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوّف - من غير حاجة إلى ذلك، فقد كان في كلمات الكتاب والسنَّة ومصطلحاتهما غنىً عنه - ولا أبرئ طائفة ممن تزعم هذه الدعوة واضطلع بها من نقص في العلم والتفكير، أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقد عصمتها، فكلٌّ يخطئ ويصيب، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية، والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها، وصلتها بالله والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع»[١].

يقول الشيخ القرضاوي وهو يظهِرُ إعجابه من أدبه وحكمته في معالجته للقضايا التي اختلف فيها الناس: «انظر كيف عالج قضية التصوف - على رغم ما يعرف من موقف السلفيين فيها - بطريقته المتميزة في كتابه الرائع (ربانية لا رهبانية)، وكيف عالج فيها قضية (المصطلحات) وجنايتها على الحقائق، إذا تشبَّثَ الناس بها، وجعلوا العبرة في الأسماء لا المسميات، وفي العناوين لا في المضامين، ولو أنهم وضعوا بدل اسم التصوف أو عنوانه اسماً أو عنواناً آخر

---

(١) المصدر السابق، ص١٧.

مثل (التزكية) المذكورة في القرآن أو (الإحسان) المذكور في الحديث لاتفق الجميع وارتفع الخلاف»[1].

* * *

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، ص٦٣.

خاتمة

وبهذا ينتهي ما قدَّر الله لي من إيراده في هذه الدراسة التي لعلها قد طالت، وما حيلتي إذا كانت المادة غزيرة، ومجال القول واسعاً، وأرجو أن أكون قد قدمت للقراء الكرام صورةً واضحة للشيخ الندوي في مختلف مراحل حياته، وآثاره، وأعماله الإصلاحية والتجديدية، فحياته كلُّها جادة، وقد أمضاها بجد وهمة وعصامية، فكم قدَّم فيها وكم أعطى سواء في عالم التعليم والتربية، أو عالم الفكر والدعوة، أو عالم الإصلاح والتجديد.

● كان رحمه الله فريد عصره، ونسيج وحده، وإمام وقته، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في أحد ممن رأيناه، كان مرجع الأنام في مشاكلهم، وموئل العلماء في مهامهم، تشد إليه الرحال.

● كان علامة **العربية**، وكاتبها القدير، وخطيبها المصقع الفصيح، من دون نزاع ولا خلاف بين أهلها.

● وبصيراً بدقائق **كتاب الله**، عارفاً بمعانيه وتأويلاته، قائماً بحقوقه، تالياً له آناء الليل وآناء النهار.

● متَّبعاً لسنن **المصطفى** ﷺ، ومقتفياً لآثاره.

● باحثاً محققاً، فصيحاً، شديد الذكاء، حسن التعبير، لطيف

المحاضرة، حسن الأخلاق، طلق الوجه، باسم المحيا، متين الديانة، أسوة الصالحين، وقدوة العباد الزاهدين، عديم النظير، وعليه من الجلالة والهيبة ما يليق، ومن الجمال والبهاء والوسامة ما يعيا عنه التعبير.

● ● ●

نشأ في منتصف القرن الرابع عشر الهجري، ووجد المسلمين في انحطاط وضعف شديدين، وانهيار داخلي عظيم، فبرز على ساحة الدعوة والإصلاح يحاول إعادة الثقة إلى نفوسهم، وأن إمامة العالم نيطت بهم، ففلاحُ العالم وخسارتُه مرتبطان بتقدّمهم وانحطاطهم، وألّف كتابه الشهير (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي اعتبره العلماء والمصلحون بحق كتاب القرن.

هذا التساؤل الذي أثاره الشيخ الندوي قبل نصف قرن من الزمان بل وأكثر، لا يزال باقياً وواقعاً، فمنذ أن خرجت القيادة من أيدي المسلمين، لا يزال العالم يعاني من المادية العاتية، والوحشية البشعة، أو ـ حسب تعبير الشيخ ـ من عبادة الناس، وجور الأديان، وضيق الدنيا. خرجت القيادة من المسلمين إلى أوروبة، ثم إلى روسية، وأخيراً إلى أمريكة[١].

---

(١) تحدث سيد قطب عن خطورة تفرّد أمريكة بقيادة العالم وما ستجره من كوارث على البشرية في الفصل الأخير من كتابه (السلام العالمي والإسلام) تحت عنوان (والآن) وقد حذف هذا الفصل في الطبعة الثانية وما تلاها، وأعاد نشره=

وأحرز العالم تقدماً هائلاً في الوسائل والمادية، ولكن الثمنَ الذي دفعه لكل هذا التقدم المادي والرقي الظاهري كان ثمناً باهظاً، فقد خسر العالم روحَه وحاستَه الدينية، وطغت عليه المادةُ والمعدةُ، وتردَّى في التدهور الخلقي والاجتماعي إلى أقصى الغايات، وتحوّل جاهلياً مادياً، وتجرّد من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية، وفضائل خلقية، ومبادئ إنسانية، وأصبحَ لا يؤمنُ في الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية، والجنسية الغاشمة، وأصبح فيلاً هائجاً مائجاً يدوسُ الضعيفَ، ويهلِكُ الحرثَ والنسلَ، وكلّما تقدمت الدول الغربية في القوة والسرعة، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها ازدادت البشريةُ سرعةً إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار، والاضطراب والتناحر، والفوضى الاجتماعية، والانحطاط الخلقي والقلق الاقتصادي والإفلاس الروحي.

وهكذا أصبح العالم شرقاً وغرباً في أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلاً سريعاً عاجلاً.

والحلّ الوحيد ـ كما يقترحُ الشيخ ـ هو تحول القيادة العالمية،

= الأستاذ محمد الحسناوي في كتابه (صفحات في الفكر والأدب)، وهو فصل ينبغي الرجوع إليه وقراءته بإمعان. (ن).

وانتقالُ دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة. إن التحوّل من دولة غربية إلى أخرى لا يعني غناءً، ولا يغيّر من الموقف شيئاً، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس، فما دام المجداف لم يتغير فلا فرقَ بين الشمال والجنوب.

إنَّ التحوُّل المؤثر الواضح هو تحوُّل القيادة من الدول الغربية ومن شاكلها من دول الشرق التي تقودها الجاهلية والمادية إلى العالم الإسلامي، الذي يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم، هذا هو التحول الذي يغير وجه التاريخ، ويحوّلُ مجرى الأمور، وينقذُ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه.

إنَّ حقَّاً على العالم الإسلامي ـ كما يؤكد الشيخ ـ أن يمنّي نفسَه بهذا المنصب الخطير، ويطمح إليه، وإن حقَّاً على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشدّ حيازيمه لذلك، وإنَّ حقاً على كل مسلم أن يجاهد في سبيله، ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب.

وأختم هذا الكتاب بما ختم به الشيخ الندوي كتابه (ماذا خسر **العالم؟**):

«إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم بها العالم

القديم في ميادين ضيقة محدودة؟.

وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم - الذي جرف بالأمس بالمدنيات والحكومات - في حدود هذا الوادي الضيق، تصطرعُ أمواجه، ويلتهم بعضها بعضاً؟.

إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته، واجتباكم لهدايته، وكانت البعثةُ المحمديةُ فاتحةَ هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم وفي تاريخ العالم جميعاً، وفي مصيركم ومصير العالم جميعاً، فاحتضوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد، وتفانوا في سبيلها، وجاهدوا فيها ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج: ٧٨]».

وما توفيقي إلا بالله، والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

* * *

أهم مصادر ترجمة الشيخ الندوي

الكتب:

١ ـ أبو الحسن الندوي.

مجموعة بحوث ودراسات مقدمة إلى ندوة تكريم للشيخ الندوي منعقدة في إستانبول في شهر ربيع الآخر ١٤١٧هـ، الناشر: رابطة الأدب الإسلامي.

٢ ـ أبو الحسن الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل.

تأليف الدكتور محمد اجتباء الندوي، الناشر: دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ.

٣ ـ الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي كاتباً ومفكراً في ضوء مؤلفاته وكتاباته، وكما يراه علماء العرب والمسلمين وأدباؤهم.

دراسة واستعراض الأستاذ نذر الحفيظ الندوي، المطبعة الندوية، ١٤٠٦هـ.

٤ ـ الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته.

تأليف الدكتور يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق، ١٤٢٢هـ.

٥ ـ في مسيرة الحياة.

ترجمة ذاتية للشيخ الندوي، ثلاثة أجزاء، دار القلم، دمشق.

٦ ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب.

تأليف السيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق.

٧ ـ علماء ومفكرون عرفتهم.

تأليف الأستاذ محمد مجذوب، دار الشواف، الرياض، ١٩٩٢م.

٨ ـ نفحات الهند واليمن بأسانيد الشيخ أبي الحسن.

تأليف الأستاذ محمد أكرم الندوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤١٩هـ.

٩ ـ سوانح مفكر إسلام (باللغة الأردية).

تأليف الأستاذ بلال عبد الحي الحسني، دار عرفات، راي بريلي، ١٤٢٢هـ.

١٠ ـ أرمغان فرنك.

تفاصيل رحلات الشيخ الندوي إلى إنكلترة باللغة الأردية، تأليف الأستاذ محمد أكرم الندوي، لكنو، ١٤٢٥هـ.

المجلات:

١ ـ مجلة (البعث الإسلامي) الشهرية، ذو الحجة ١٤٢٠هـ ـ صفر ١٤٢١هـ، ندوة العلماء، لكنو.

٢ ـ مجلة (**الصحوة الإسلامية**) الفصلية، المحرم ١٤٢١هـ، دار العلوم، حيدر آباد، الهند.

٣ ـ مجلة (**الأدب الإسلامي**) الفصلية، المجلد السابع، العددان السادس والسابع والعشرون، ١٤٢١هـ، رابطة الأدب الإسلامي، الرياض.

* * *

الفهرس

الباب الثالث
قائد رشيد

الباب الخامس

قدوة صالحة وداعية حكيم ومرب جليل

* * *